الاكتفا

بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفا

تأليف

أبي الربيع سليمان بن موسى بن سالم الحميري
الكلاعي الأندلسي
المتوفى سنة ٦٣٤ هـ

تحقيق

محمد عبد القادر عطا

الجزء الأول

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المصنف

قال الشيخ الفقيه الخطيب المحدث الثبت الشهيد أبو الربيع، سليمان بن موسى بن سالم، الكلاعى، البلنسى، كرم الله مثواه، وجعل الجنة مستقره ومأواه:

الحمد لله الذى منَّ علينا بالإسلام، وأكرمنا بنبيه محمد عليه أفضل الصلوات والسلام، وجعل آثاره الكريمة ضالتنا المنشودة، والاقتداء بهديه الأهدى، ونوره الأوضح الأبدى غايتنا المقصودة وأمنيتنا المودودة، وأنعم على قلوبنا بالارتياح والاهتزاز عند سماع مصدره أو إليه منتماه.

وإنه لأثر رجاء فى هذه القلوب البطالة وأثاره خير يرجى، أن يذودها عن مشارع الجهالة ومنازع الضلالة، فإن الارتياح للذكر شهادة الحب وأمارة المحب.

وقد روى عنه صلوات الله عليه نقلة السنة أن من أحبه كان معه فى الجنة. فنسأل الله أن يكتبنا فى محبيه حقيقة، ويسلك بنا من الوقوف عند مقتضيات أوامره ونواهيه طريقة بالسعادة خليفة.

فما نزال طالبين ذلك من أكرم مطلوب لديه، راغبين فيه إلى خير مرغوب إليه. وإن لم نكن أهلاً للإسعاف بتقصيرنا فى الأعمال، فإنه جل جلاله أهل الجود والإفضال.

ونصلى قبل وبعد على هذا النبى المبارك الكريم، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وصحبه المنتخبين، خير صحب وخير آل.

وهذا كتاب ذهبت فيه إلى إيقاع الإقناع، وإمتاع النفوس والأسماع، باتساق الخبر عن سيرة رسول الله ﷺ، وذكر نسبه ومولده وصفته ومبعثه، وكثير من خصائصه، وأعلام نبوته ومغازيه، وأيامه من لدن مولده إلى أن استأثر به وقبض روحه الطيبة إليه، صلوات الله وبركاته عليه.

مقدمًا لذلك ما يجب تقديمه، ومتممًا من ذكر أوليته المباركة بلدًا ومحتدًا، بما يحسن علمه وتعليمه، ملخصًا جميعه من كتب أئمة هذا الشأن الذين صرفوا إليه اعتناءهم،

واستنفذوا فى آناءهم، ككتاب محمد بن إسحاق، الذى تولى عبد الملك بن هشام تهذيبه واختصاره، وكتاب موسى بن عقبة، الذى استحسن الأئمة اقتصاده واقتصاره، وغيرهما من المجموعات التى لا يديم الإنصاف قصد جماعها ولا يذم الاختبار اختياره.

ولكنه عظم المعول بحكم الخاطر الأول على كتاب ابن إسحاق، إياه أردت وتجريده من اللغات وكثير من الأنساب والأشعار قصدت، وعلى ترتيبه غالبًا جريت، ومنزعه فى أكثر ما يخص المغازى تحريت.

فإنه الذى شرب ماء هذا الشأن فأنقع، ووقع كتابه من نفوس الخاص والعام أجل موقع.

إلا أنه يتخلله، كما أشرنا إليه قبلُ، أشياء من غير المغازى تقدح عند الجمهور فى إمتاعه، وتقطع بالخواطر المستجمعة لسماعه.

وإن كانت تلك القواطع عريقة فى نسب العلم، وحقيقة بالتقييد والنظم. فسعى أن يكون لها مكان هو بإيرادها أخص، إذ لكل مقام لا يحسن فى غيره الإيراد له والنص.

ولذلك نويت فيه أن أحذف ما تخلله من مشبع الأنساب التى ليس احتياج كل الناس إليها بالضرورى الحثيث، ونفيس اللغات المعوق اعتراضها اتصال الأحاديث، حتى لا يبقى إلا الأخبار المجردة، وخلاصة المغازى التى هى فى هذا المجموع المقصودة المعتمدة.

ظنا منى أنه إذا أذن الله فى تمامه، وتكفل تعالى بتيسير محاولته وفق المأمول وتقريب مرامه، استأنفت النفوس له قبولا وعليه إقبالاً، ولم يزده هذا النقص لدى جمهورهم إلا كمالاً.

ثم بدا لى أن أزيد على هذا المقدار ما يحسن فى هذا المضمار، وأعوض مما حذفت منه من اللغات والأنساب والأشعار، بما يكون له إن شاء الله مزية الاختيار، ويروق عليه رونق الإيثار، منتقيًا ذلك من الدواوين التى طار بها فى الناس طائر الاشتهار، ومتخيرًا له من الأماكن التى لا يستقل بحصر فوائدها وانتقاء فرائدها كل مختار.

ككتاب ابن عقبة، وقد سميته، فإنه وإن اختصره جدًا فقد أحسن العبارة، وأتى مواضع من المغازى حذاها بَسْطُه وحماها اختصاره.

وسأضع على كثير منها ميسمه وأرسمها فى هذا المختصر على نحو ما رسمه.

وقد وقفت على كتاب محمد بن عمر الواقدى فى المغازى، ولم يحضرنى الآن، لكنى رأيته كثيرًا ما يجرى مع ابن إسحاق، فاستغنيت عنه به لفضل فصاحة ابن إسحاق فى الإيراد، وحسن بيانه الذى لا يفقد معه استحسان الحديث المعاد.

وللواقدى أيضًا كتاب المبعث، وهو مشبع فى بابه، ممتع باستيفائه واستيعابه، قد نقلت هنا منه جملا، تناسب الغرض المسطور، وتصد المعترض أن يجور.

وكذلك كتاب الزبير بن أبى بكر القاضى رحمه الله فى أنساب قريش، وهو كما سمعت شيخنا الخطيب أبا القاسم ابن حبيش رحمه الله يحكى عن شيخه أبى الحسن ابن مغيث أنه كان يقول فيه: هو كتاب عجب لا كتاب نسب.

التقطت أيضًا من درره نفائس معجبة، وتخيرت من فوائده نخبا لمتخيرها موجبة.

ومثله التاريخ الكبير لأبى بكر ابن أبى خيثمة، وناهيك به من بحر لا تكدره الدلاء، وغمر لا ينفذه الأخذ الدراك ولا يستنزفه الورد الولاء.

وكم شىء أستحسنه من غير هذه الكتب المسماة فأنظمه فى هذا النظام، وأضطر إلى الإفادة به مساق الكلام. إما متممًا لحديث سابق، وإما مفيدًا بغرض لما تقدمه مطابق.

فإن لم يكن بينهم فى الأحاديث اختلاف يشعر بنقض، فكثيرًا ما أدخل حديث بعضهم فى حديث بعض، ليكون المساق أبين والاتساق أحسن.

وإن عرض عارضُ خلافٍ فالفصل حينئذ أرفع للإشكال وأدفع للمقال.

وربما فصلت بين بعض أحاديثهم وإن اشتبهت معانيها، بحسب ما تدعو إليه ضرورة الموضع، أو تحمل على إعادته حلاوة الموقع.

وكل ذلك يشهد الله أن المراد فيه بالقصد الأول وجهه الكريم، وإحسانه العميم، ورحمته التى منها شق لنفسه أنه الرحمن الرحيم.

ثم القصد الثانى متوفر على إيثار الرغبة فى إيناس الناس بأخبار نبيهم ﷺ، وعمارة خواطرهم بما يكون لهم فى العاجل والآجل أنفع وأسلم.

وقد عم عليه الصلاة والسلام ببركة دعائه سامع حديثه ومبلغه، وقال ﷺ: «ما أفاد المسلم أفضل من حديث حسن بلغه فبلغه».

ولا أحسن بعد كتاب الله الذى هو أحسن القصص وأصدق القصص، وأفضل

الحِصصَ، وأجلى الأشياء للغصص من أخبار رسول الله ﷺ التى بالوقوف عليها توجد حلاوة الإسلام، ويعرف كيف تمهدت السبل إلى دار السلام.

فإنه لا يخلو الحاضرون لهذا الكتاب من أن يسمعوا ما صنع الله لرسوله فى أعداء تنزيله، فيستجزلوا ثواب الفرح بنصر الله، أو يستمعوا ما امتحنه الله به من المحن التى لا يطيق احتمالها إلا نفوس أنبياء الله بتأييد الله، فيعتبروا بعظيم ما لقيه من شدائد الخطوب، ويصطبروا لعوارض الكروب، تأدبًا بآدابه، وجريًا فى الصبر على ما يصيبهم والاحتساب لما ينوبهم على طريقة صبره واحتسابه.

وتلك غايات لن نبلغ عفوها بجهدنا، ولن نصل أدانيها بنهاية ركضنا وشدنا، وإنما علينا بذلُ الجهد فى قصد الاهتداء، وعلى الله سبحانه المعونة فى الغاية والابتداء.

وإذا استوفيت بفضل الله طلق هذا المعنى كما نويت، وبلغت حاجة نفسى منه وقضيت، فلى نية، إن ساعدت المشيئة عليها، فى أن أصل هذا الغرض المتقدم، من ذكر مغازى رسول الله ﷺ، بذكر مغازى الخلفاء الثلاثة الأول، رضى الله عنهم، منتحلا على رجاء معونة الله أسبابها، ومنتخلا من كتاب شيخنا الخطيب أبى القاسم، رحمه الله، ومن غيره مما هو فى نحو معناه، صفوها ولبابها، لتنتظم الفائدتان معًا، ويكون الخبر عن مغازى رسول الله ﷺ ومغازى خلفائه، الذين بهديهم الائتمام، فى مكان واحد مجتمعًا.

وأرجو بحول الله الذى له الطول وبيده القوة والحول، أن يكون هذا المجموع كافيًا فى البابين، وافيًا بالغرضين المتنابين، ولذلك ترجمته بكتاب: الاكتفاء بما تضمنه من مغازى رسول الله ﷺ ومغازى الخلفاء.

وفضله جل جلاله نعم الكفيل أن يجزى به خير الجزاء، ويجعله من عددنا النافعة يوم اللقاء، فهو عز وجهه الملجأ والمعول، وبه أستعين وعليه أتوكل، لا إله إلا هو سبحانه، هو حسبى وإليه أنيب.

* * *

ذكرُ نسب رسول الله
صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا
وكيف طهره الله نفسًا وخيمًا وشرفه حديثًا وقديمًا وألقى
إلى آبائه الأقدمين من الدلائل على اصطفائه إياه فى الآخرين
وابتعاثه له رحمة للعالمين ما صيره لديهم قبل وجوده
بطوائل السنين معلوما

فى الصحيح من حديث واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم»[(١)].

وفى حديث عن عبد الله بن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «لم يزل الله عز وجل ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، صفيا مهذبًا، لا تتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما»[(٢)].

وخرج أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى، من حديث المطلب بن أبى وداعة، أن رسول الله ﷺ قام على المنبر فقال: «من أنا»؟ فقالوا: «أنت رسول الله عليك السلام» قال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خيرهم فرقة، ثم جعلهم فرقتين، فجعلنى فى خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل، فجعلنى فى خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتًا، فجعلنى فى خيرهم بيتًا، وخيرهم نفسًا». وفى رواية: «فأنا خيرهم نفسا، من خيرهم بيتًا»[(٣)].

---

(١) أخرجه الترمذى (٣٦٠٥)، الإمام أحمد فى المسند (١٠٧/٤)، الألبانى فى السلسلة الضعيفة (١٦٣)، الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين (٨٩/٩)، السيوطى فى الدر المنثور (٢٩٤/٣، ٢٧٤/٤)، ابن أبى شيبة فى المصنف (٤٧٨/١١).

(٢) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور (٢٩٤/٣، ٩٨/٥).

(٣) أخرجه الترمذى (٧٦/١) باب ما جاء فى فضل النبى، البيهقى فى السنن الكبرى (٣٨٧/٧، ٣٨٨، ٥٧/١٠)، الحاكم فى المستدرك (٦٤/٢، ٢٥٨/٣)، ابن أبى شيبة فى المصنف (٢٠/١١)، الطبرانى فى الكبير (٣٨٣/٧، ١٣٦/١٧)، الهيثمى فى المجمع (٢٢/١،=

وصدق ﷺ، والصدق شيمته، وفوق العالمين طرا قدره الرفيع وقيمته، هو أشرفهم حسبا وأفضلهم نسبا وأكرمهم أما وأبا.

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب[1] بن هاشم - واسمه عمرو - بن عبد مناف - واسمه المغيرة - بن قصى - واسمه زيد - بن كلاب بن مرة بن كعب، ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

هذا الصحيح المجتمع عليه فى نسبه، وما فوق ذلك مختلف فيه.

ولا خلاف فى أن عدنان من ولد إسماعيل نبى الله، ابن إبراهيم خليل الله، عليهما السلام، وإنما الاختلاف فى عدد من بين عدنان وإسماعيل من الآباء. فمقلل ومكثر.

وكذلك من إبراهيم إلى آدم عليهما السلام، لا يعلم ذلك على حقيقته إلا الله.

روى عن ابن عباس قال: كان النبى ﷺ إذا انتهى إلى عدنان أمسك ثم يقول: «كذب النسابون»، قال الله تعالى: ﴿**وقرونا بين ذلك كثيرًا**﴾ [الفرقان: ٣٨].

ومن عدنان تفرقت القبائل من ولد إسماعيل.

فولد عدنان رجلين: معد بن عدنان، وعك بن عدنان.

فصارت عك فى دار اليمن، لأن عكا تزوج فى الأشعريين منهم وأقام فيهم، فصارت الدار واللغة واحدة.

والأشعريون هم بنو أشعر بن نبت بن أدد بن زيد بن هميسع بن عمرو بن عريب ابن يشجب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[2].

وقحطان هو عند جمهور العلماء بالنسب أبو اليمن كلها، وإليه يجتمع نسبها، والعرب كلها عندهم من ولد إسماعيل وقحطان. وبعض اليمن يقول: قحطان من ولد إسماعيل، وإسماعيل أبو العرب كلها. والله أعلم.

=٢٣٨/٤، ٢٤٤، ٣٧٥/١٠)، شرح السنة للبغوى (٢٣٩/٣، ٢٤٦/٩)، الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين (٢٠٦/٢، ١٩٤/٧)، المتقى الهندى فى الكنز (٢٩٦٨٧).

(١) قال ابن إسحاق فى السيرة: اسم عبد المطلب شيبة بن هاشم. وانظر ذكر نسب النبى فى: السيرة (٢٣/١، ٢٤)، والبداية والنهاية كتاب سيرة رسول الله ﷺ ونسبه (٢٥٧/٢).

(٢) انظر: السيرة (٢٧/١) ذكر نسب ولد إسماعيل.

وأما معد، فذكر الزبير بن أبى بكر رحمه الله، أن بختنصر لما أمر بغزو بلاد العرب وإدخال الجنود عليهم فيها، وقتل مقاتلهم لانتهاكهم معاصى الله، واستحلالهم محارمه وقتلهم أنبياءه، وردهم رسالاته، أمر أرميا بن حلقيا، وكان فيما ذكر نبى بنى إسرائيل فى ذلك الزمان: أن ائت معد بن عدنان الذى من ولده محمد خاتم النبيين، فأخرجه عن بلاده واحمله معك إلى الشام، وتول أمره قبلك.

ويقال: بل المحمول عدنان، والأول أكثر.

وفى حديث عن ابن عباس، أن الله بعث ملكين، فاحتملا معدا، فلما أدبر الأمر رده فرجع إلى موضعه من تهامة، بعدما دفع الله بأسه عن العرب، فكان بمكة وناحيتها مع أخواله من جرهم، وبها منهم بقية هم ولاة البيت يومئذ، فاختلط بهم وناكحهم.

فولد معد بن عدنان نفرًا، منهم قضاعة، وكان بكره الذى به يكنى فيما يزعمون، وقنص، ونزار، وإياد.

فأما قضاعة فتيامنت إلى حمير بن سبأ وانتمت إلى ابنه مالك بن حمير، حتى قال قائل منهم يفخر بذلك:

نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر
قضاعة بن مالك بن حمير
النسب المعروف غير المنكر
فى الحجر المنقوش تحت المنبر[1]

وأنكر كثير من الناس منتماهم هذا، وجرت بينهم وبين من قال به من القضاعيين فى ذلك أقاويل معروفة وأشعار محفوظة.

قال الزبير: ولم يجتمع رأى قضاعة على الانتساب فى اليمن، بل أهل العلم منهم والدين مقيمون على نسبهم فى معد.

وأما قنص بن معد، فهلكت بقيتهم فيما زعموا، وكان منهم النعمان بن المنذر ملك الحيرة[2].

واحتج من قال ذلك بأن عمر – رضى الله عنه – حين أتى بسيف النعمان بن

---

(١) انظر: السيرة (١/٢٨).

(٢) انظر: السيرة (١/٢٨).

المنذر، دعا جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بن قصى[1]، فسلحه إياه، ثم قال: ممن كان يا جبير النعمان بن المنذر؟.

فقال: كان من أشلاء، قنص بن معد.

وكان جبير أنسب قريش لقريش والعرب قاطبة، وكان يقول: إنما أخذت النسب من أبى بكر الصديق.

وكان أبو بكر رضى الله عنه، أنسب العرب[2].

وقد قيل فى نسب النعمان غير ذلك، مما سيأتى ذكره عند تأدية الحديث إليه، إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر أيضًا فى بنى معد الضحاك بن معد.

ذكر الزبير بإسناد له إلى مكحول قال: أغار الضحاك بن معد على بنى إسرائيل فى أربعين رجلاً من بنى معد، عليهم دراريع الصوف خاطمى خيلهم بحبال الليف، وسبوا وظفروا، فقالت بنو إسرائيل: يا موسى، إن بنى معد أغاروا علينا، وهم قليل، فكيف لو كانوا كثيرًا وأغاروا علينا وأنت نبينا؟ فادع الله عليهم.

فتوضأ موسى وصلى، وكان إذا أراد حاجة من الله صلى، ثم قال: يا رب إن بنى معد أغاروا على بنى إسرائيل فقتلوا وسبوا وظفروا، وسألونى أن أدعوك عليهم.

فقال الله تعالى: يا موسى لا تدع عليهم، فإنهم عبادى، وإنهم ينتهون عند أول أمرى، وإن فيهم نبيا أحبه وأحب أمته.

قال: يا رب، ما بلغ من محبتك له؟.

قال: أغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال: يا رب ما بلغ من محبتك لأمته؟.

---

(١) انظر ترجمته فى: الاستيعاب (٣٠٣/١)، الإصابة ترجمة رقم (١٠٩٤)، أسد الغابة ترجمة رقم (٦٩٨)، نسب قريش (٢٠١)، طبقات خليفة ترجمة رقم (٤٣)، التاريخ الكبير (٢٢٣/٢)، المعارف (٤٨٥)، الجرح والتعديل (٥١٢/٢)، مشاهير علماء الأمصار الترجمة رقم (٣٥)، جمهرة أنساب العرب (١١٦)، العقد الثمين (٤٠٨/٣).

(٢) انظر: السيرة (٢٨/١).

قال: يستغفرنى مستغفرهم فأغفر له، ويدعونى داعيهم فأستجيب له.

قال: يا رب فاجعلهم من أمتى.

قال: نبيهم منهم.

قال: يا رب فاجعلنى منهم.

قال: تقدمت واستأخروا.

قال الزبير: وحدثنى على بن المغيرة قال: لما بلغ بنو معد عشرين رجلاً أغاروا على عسكر موسى عليه السلام، فدعا عليهم فلم يجب فيهم، ثم أغاروا، فدعا عليهم فلم يجب فيهم، ثلاث مرات.

فقال: يا رب، دعوتك على قوم فلم تجبنى فيهم بشىء.

فقال: يا موسى، دعوتنى على قوم منهم خيرتى فى آخر الزمان.

وأما نزار بن معد، واسمه مشتق من النزر وهو القليل، فيقال: إن أباه معدًا لما ولد له نظر إلى نور بين عينيه، ففرح لذلك فرحًا شديدًا، ونحر وأطعم، وقال: إن هذا كله لنزر فى حق هذا المولود.

وما كان الذى رآه إلا نور النبوة، الذى لم يزل ينتقل فى الأصلاب، حتى انتهى إلى نبينا محمد ﷺ، فطبق الأرض نورًا، وهدى الله به من أراد سعادته من عباده، صراطًا مستقيمًا.

وكل هذه الأنوار والآثار شاهدة له - عليه السلام - بعظيم عناية الله، وكريم المكانة عنده، فلم تزل بركته ﷺ متعرفة فى آبائه الماضين، وظاهرة على أسلافه الأكرمين، تشير المخايل اللائحة فيهم إليه، وتدل الدلائل الواضحة فى أوليتهم عليه، صلوات الله وبركاته عليه.

فولد نزار بن معد: مضر وربيعة وأنمارًا وإيادًا، وإليه دفع أبوه حجابة الكعبة فيما ذكر الزبير. وأمه سودة بنت عك بن عدنان.

وقيل هى أم مضر خاصة، وأم إخوته الثلاثة أختها شقيقة ابنة عك بن عدنان.

وقد قيل: إن إيادًا شقيق لمضر، أمهما معا سودة.

فإنمار هو أبو بجيلة وخثعم، وقد تيامنت بجيلة إلا من كان منهم بالشام والمغرب، فإنهم على نسبهم إلى أنمار بن نزار.

وجرير بن عبد الله[1] صاحب رسول الله ﷺ من سادات بجيلة وله يقول القائل:

لولا جرير هلكت بجيلة نعم الفتى وبئست القبيلة

وكذلك تيامنت الدار أيضًا بخثعم، وهم بنو أقيل بن أنمار، وإنما خثعم جبل تحالفوا عنده فسموا به، وهم بالسراة على نسبهم إلى أنمار.

وإذا كان بين مضر واليمن فيما هنالك حرب، كانت خثعم مع اليمن على مضر[2].

ويروى أن نزارًا لما حضرته الوفاة، قسم ماله بين بنيه الأربع: مضر وربيعة وإياد وأنمار.

فقال: هذه القبة لقبة كانت له حمراء من أدم، وما أشبهها من المال لمضر، وهذا الخباء الأسود وما أشبهه لربيعة، وهذه الخادم، وكانت شمطاء، وما أشبها لإياد. وهذه البدرة والمجلس لأنمار يجلس فيه.

وقال لهم: إن أشكل عليكم الأمر فى ذلك واختلفتم فى القسمة، فعليكم بالأفعى الجرهمى. وكان بنجران.

فاختلفوا بعده وأشكل أمر القسمة عليهم، فتوجهوا إلى الأفعى. فبينا هم فى مسيرهم إليه إذ رأى مضر كلأ قد رعى، فقال: إن البعير الذى رعى هذا لأعور.

فقال ربيعة: وهو أزور. وقال إياد: وهو أبتر. وقال أنمار: وهو شرود.

فلم يسيروا إلا قليلاً، حتى لقيهم رجل توضع به راحلته، فسألهم عن البعير، فقال له مضر: أهو أعور؟ قال: نعم. قال ربيعة: أهو أزور؟ قال: نعم. قال إياد: أهو أبتر؟ قال نعم. قال أنمار: وهو شرود؟ قال: نعم، هذه والله صفة بعيرى دلونى عليه. فحلفوا له ما

---

(١) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٣٢٦)، الإصابة الترجمة رقم (١١٣٩)، أسد الغابة الترجمة (٧٣٠)، طبقات ابن سعد (٢٢/٦)، طبقات خليفة (١١٦، ١٣٨)، تاريخ خليفة (٢١٨)، التاريخ الكبير (٢١١/٢)، الجرح والتعديل (٥٠٢/٢)، تهذيب الكمال (١٩١)، تاريخ الإسلام (٢٧٤/٢)، العبر (٥٧/١)، تهذيب التهذيب (٧٣/٢)، خلاصة تذهيب الكمال (٦١)، شذرات الذهب (٥٧/١، ٥٨).

(٢) انظر: السيرة (٧٨/١).

رأوه، فلزمهم وقال: كيف أصدقكم وأنتم تصفون بعيرى بصفته!! فساروا حتى قدموا نجران، فنزلوا بالأفعى الجرهمى، فنادى صاحب البعير: بعيرى، وصفوا لى صفته، ثم قالوا: لم نره!

فقال لهم الأفعى: كيف وصفتموه، ولم تروه؟

فقال له مضر: رأيته يرعى جانبًا ويدع جانبًا فعرفت أنه أعور.

وقال ربيعة: رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر، فعلمت أنه أفسدها لشدة وطئه لازوراره.

وقال إياد: عرفت بتره باجتماع بعره، ولو كان ذيالاً لمصع به.

وقال أنمار: عرفت أنه شرود، أنه كان يرعى فى المكان المتلف نبته، ثم يجوزه إلى مكان أرق منه وأخبث.

قال الشيخ: ليسوا بأصحاب بعيرك، فاطلبه.

ثم سألهم من هم؟

فأخبروه، فرحب بهم وقال: تحتاجون إلى وأنتم كما أرى!

فدعا لهم بطعام، فأكل وأكلوا وشرب وشربوا.

فقال مضر: لم أر كاليوم خمرًا أجود لولا أنها نبتت على قبر.

وقال ربيعة: لم أر كاليوم لحمًا أطيب لولا أنه ربى بلبن كلبة.

وقال إياد: لم أر كاليوم رجلاً سرنى لولا أنه ليس لأبيه الذى يدعى له.

وقال أنمار: لم أر كاليوم كلامًا أنفع فى حاجتنا.

وسمع صاحبهم كلامهم، فقال: ما هؤلاء؟! إنهم لشياطين.

ثم أتى أمه، فسألها، فأخبرته أنها كانت تحت ملك لا يولد له، فكرهت أن يذهب الملك، فأمكنت رجلاً نزل بهم من نفسها، فوطئها، فجاءت به.

وقال للقهرمان: الخمر التى شربناها ما أمرها؟

قال: من حُبْلَة غرستها على قبر أبيك.

وسأل الراعى عن اللحم، فقال: شاة أرضعناها من لبن كلبة، ولم يكن ولد فى الغنم غيرها. فأتاهم، فقال: قصوا على قصتكم، فقصوا عليه ما أوصى به أبوهم، وما كان من اختلافهم.

فقال: ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر. فصارت إليه الدنانير والإبل، وهى حمر، فسميت مضر الحمراء.

قال: وما أشبه الخباء الأسود من دابة ومال فهو لربيعة. فصارت له الخيل، وهى دهم، فسمى ربيعة الفرس.

قال: وما أشبه الخادم، وكانت شمطاء، من مال فيه بلق، فهو لإياد. فصارت له الماشية البلق. وقضى لأنمار بالدراهم والأرض. فساروا من عنده على ذلك.

وكان يقال: مضر وربيعة هما الصريحان من ولد إسماعيل.

وروى ميمون بن مهران، عن عبد الله بن العباس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا مضر وربيعة فإنهما كانا مسلمين»(١).

وقال ﷺ فيما روى عنه: «إذا اختلف الناس فالحق مع مضر»(٢).

وسمع عليه السلام قائلاً يقول:

إنى امرؤ حميرى حين تنسبنى ... لا من ربيعة آبائى ولا مضرا

فقال ﷺ: «ذلك أبعد لك من الله ومن رسوله»(٣).

ومما يؤثر من حكم مضر بن نزار ووصاياه: من يزرع شرا يحصد ندامة، وخير الخير أعجله، فاحملوا أنفسكم على مكروهها فيما أصلحكم، واصرفوها عن هواها فيما أفسدها، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فواق.

فولد مضر بن نزار رجلين: إلياس بن مضر، وعيلان بن مضر.

قال الزبير: وأمهما الحنفاء بنت إياد بن معد.

---

(١) أخرجه ابن حجر فى الفتح (١٤٦/٧)، المتقى الهندى فى الكنز (٢٣٩٨٧).

(٢) أخرجه المتقى الهندى فى الكنز (٣٣٩٨٩)، ابن حجر فى المطالب العالية (٤١٨٨)، ابن عدى فى الكامل فى الضعفاء (١٤٥٦)، ابن أبى شيبة فى المصنف (١٩٨/١٢).

(٣) أخرجه أبو داود فى السنن كتاب البيوع باب (٨٨)، البيهقى فى السنن الكبرى (١٧٤/٦)، الزيلعى فى نصب الراية (١٢٨/٤).

وقال ابن هشام: أمهما جرهمة. ولما أدرك إلياس بن مضر، أنكر على بنى إسماعيل ما غيروا من سنن آبائهم وسيرهم، وبان فضله عليهم ولان جانبه لهم، حتى جمعهم على رأيه، ورضوا به رضا لم يرضوه بأحد من ولد إسماعيل بعد أدد.

فردهم إلى سنن آبائهم، حتى رجعت سنتهم تامة على أولها.

وهو أول من أهدى البدن إلى البيت، أو فى زمانه.

وأول من وضع الركن للناس بعد هلاكه، حين غرق البيت وانهدم زمن نوح عليه السلام.

فكان أول من سقط عليه إلياس، أو فى زمانه، فوضعه فى زاوية البيت للناس.

ومن الناس من يقول: إنما هلك الركن بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وهو الأشبه، إن شاء الله.

ولم تبرح العرب تعظم إلياس بن مضر تعظيم أهل الحكمة، كلقمان وأشباهه.

فولد إلياس بن مضر ثلاثة نفر: مدركة، وطابخة، وقمعة.

وأمهم خندف بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، واسمها ليلى، واسم مدركة عامر، واسم طابخة عمرو، واسم قمعة عمير.

وإنما حالت أسماؤهم إلى الذى ذكرنا أولا عنهم، فيما ذكروا، أن أرنبا أنفرت إبل إلياس بن مضر، فصاح ببنيه هؤلاء أن يطلبوا الإبل والأرنب.

فأما عمير فاطلع من المظلة ثم قمع. فسمى قمعة.

وخرج عامر وعمرو فى آثار الإبل، وخرجت أمهم ليلى تسعى خلفهم.

فقال لها زوجها إلياس: أين تخندفين؟ أى أين تسعين. فسميت خندف(1).

ومر عامر وعمرو بظبى، فرماه عمرو فقتله، ويقال: بل رمى الأرنب التى أنفرت الإبل، فقال له عامر: اطبخ صيدك، وأنا أكفيك الإبل. فطبخ عمرو، فسمى طابخة.

وأدرك الإبل عامر، فسمى مدركة.

---

(١) قال ابن حجر فى فتح البارى (٦/٦٣٣): خندف هى بكسر المعجمة وسكون النون وفتح الدال بعدها فاء، وهو اسم امرأة إلياس بن مضر، واسمها: ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، لقبت بخندف لمشيتها والخندف: الهرولة.

واشتهر بنو خندف هؤلاء بأمهم خندف للذى سار من فعلها فى الناس.

وذلك أنه لما مرض زوجها إلياس وجدت لذلك وجدًا شديدًا، ونذرت إن هلك، ألا تقيم فى بلد مات فيه، ولا يظلها بيت بعده، وأن تسيح فى الأرض. وحرمت الرجال والطيب.

فلما هلك إلياس خرجت سائحة فى الأرض حتى هلكت حزنًا.

وكانت وفاته يوم الخميس، فكانت كلما طلعت الشمس من ذلك اليوم تبكيه حتى تغيب، فصارت خندف وما صنعت عجبًا فى الناس، يتحدثون به ويذكرونه فى أشعارهم.

فقيل لرجل من إياد، أو همدان، وقد هلكت امرأته: ألا تبكى عليها؟

فقال: لو كان ذلك يردها لفعلت كما فعلت خندف على إلياس. ثم اندفع يقول:

لو أنه يغنى بكيت كخندف ... على إلياس حتى ملها الشر تندب
إذا مونس لاحت خراطيم شمسه ... بكت غدوة حتى ترى الشمس تغرب
ولم تر عيناها سوى الدفن قبره ... فساحت وما تدرى إلى أين تذهب
فلم يغن شيئًا طول ما بلغت به ... وما طلها دهر وعيش معذب

وفقدت امرأة من غسان أخاها ثم أباها، فمكثت دهرًا تبكى عليهما، فنهاها قومها، فقالت:

تلحون سلمى أن بكت أباها
وقبل ما قد ثكلت أخاها
فحولوا العذل إلى سواها
عصتكم سلمى إلى هواها
كما عصت خندف من نهاها
خلت بنيها أسفًا وراها
تبكى على آلياس فما أتاها

فولد مدركة بن إلياس نفرًا، منهم خزيمة بن مدركة، وهذيل بن مدركة.

وأمهما امرأة من قضاعة، قيل: هى سلمى بنت سويد بن أسلم بن الحاف بن قضاعة. وقيل غير ذلك.

فولد خزيمة بن مدركة كنانة وأسدا وأسدة والهون.

وأم كنانة منهم، عوانة بنت سعد بن قيس بن عيلان بن مضر. وقيل: هند بنت عمرو بن قيس بن عيلان. قرأته بخط أحمد بن يحيى بن جابر.

فولد كنانة بن خزيمة جماعة منهم: النضر، وبه كان يكنى، ونضير، ومالك، وملكان، وعمرو، وعامر، وأمهم برة بنت مر، خلف عليها كنانة بعد أبيه خزيمة، على ما كانت الجاهلية تفعله، إذا مات الرجل خلف على زوجته بعده أكبر بنيه من غيرها. فنهى الله عن ذلك بقوله: ﴿**ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف**﴾ [النساء: ٢٢][(١)].

ويقال: إن برة هذه، لما أهديت أولاً إلى خزيمة بن مدركة، قالت له: إنى رأيت فى المنام كأنى ولدت غلامين من خلاف بينهما سابياء، فبينا أنا أتأملهما إذا أحدهما أسد يزأر وإذا الآخر قمر ينير.

فأتى خزيمة كاهنة بتهامة، فقص عليها الرؤيا، فقالت: لئن صدقت رؤياها لتلدن منك غلامًا يكون لولده قلوب باسلة، ثم لتموتن عنها فيختلف عليها ابن لك، فتلد منه غلامًا يكون لولده عدل وعدد وقروم مجد وعز إلى آخر الأبد.

ثم توفى خزيمة، فخلف عليها كنانة بعد أبيه، فولدت له النضر وإخوته، وإنما سمى النضر، لنضارة وجهه وجماله.

وأتى أبوه كنانة بن خزيمة وهو نائم فى الحجر، فقيل له: تخير يا أبا النضر بين الصهيل والهدر وعمارة الجدر وعز الدهر.

فقال: كل يا رب.

فصار هذا كله فى قريش.

والنضر هو جماع قريش فى قول طائفة من أهل العلم بالنسب، والأكثر على أن فهر بن مالك بن النضر هو قريش.

فمن كان من ولده فهو قرشى، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشى.

وذكر الزبير أن هذا هو رأى كل من أدرك من نساب قريش.

---

(١) انظر: السيرة (٩٣/١).

فولد النضر بن كنانة مالكًا، ويخلد، والصلت(١).

فولد مالك فهر بن مالك. وأمه جندلة بنت الحارث بن جندل بن عامر بن سعيد بن الحارث بن مضاض الجرهمى. وهو جماع قريش عند الأكثر.

قال الزبير: قد اجتمع النساب من قريش وغيرهم أن قريشًا إنما تفرقت عن فهر. ويقال: إن قريشًا هو اسمه الذى سمته به أمه، ولقبته فهرًا.

فولد فهر بن مالك غالبًا ومحاربًا والحارث وأسدًا، وأختهم جندلة. وأم جميعهم ليلى بنت سعد بن هذيل بن مدركة(٢).

ولما حضرت الوفاة فهر بن مالك، قال لابنه غالب: يا بنى، إن فى الحزن إقلاق النفوس قبل المصائب، فإذا وقعت المصيبة برد حرها، وإنما القلق فى غليانها، فإذا أنا مت فبرد حر مصيبتك بما ترى من وقع المنية أمامك وخلفك، وعن يمينك وعن شمالك، وبما ترى من آثارها فى محيى الحياة، ثم اقتصر على قليلك، وإن قلت منفعته، فقليل ما فى يدك أغنى لك من كثير ما أخلق وجهك وإن صار إليك.

فولد غالب بن فهر لؤيًا وتيما، وهو الأدرم، كان منقوص الذقن.

ويقال لقومه: بنو الأدرم.

وأمهما فى قول ابن إسحاق(٣): سلمى بنت عمرو الخزاعى.

وفى قول الزبير: عاتكة بنت يخلد بن النضر.

وروى أن لؤى بن غالب قال لأبيه، وهو غلام حديث: يا أبت، من رب معروفة قل إخلاقه، ونضر ماؤه. ومن أخلقه أخمله، وإذا أخلق الشىء لم يذكر، وعلى المولى تكبير صغيره ونشره، وعلى المولى تصغير كبيره وستره.

فقال له أبوه غالب: إنى لأستدل بما أسمع من قولك على فضلك، وأستدعى لك به الطول على قومك، فإن ظفرت بطول فعد على قومك بفضلك، وكف غرب جهلهم بحلمك، ولم شعثهم برفقك، فإنما تفضل الرجال الرجال بأفعالها، ومن قايسها على أوزانها أسقط الفضل ولم تعل به درجة على أحد، وللعليا فضل أبدًا على السفلى.

---

(١) انظر: السيرة (١/٩٤ – ٩٥).

(٢) انظر: السيرة (١/٩٥).

(٣) انظر: السيرة (١/٩٥).

فولد لؤى بن غالب كعبًا وعامرًا، وسامة، وعوفًا وسعدا، وخزيمة[(١)].

فدخل بنو خزيمة فى شيبان، ويسمون فيهم بعائذة، وهى امرأة من اليمن، كانت أم بنى عبيد بن خزيمة فنسبوا إليها.

وكذلك دخل بنو سعد، فى شيبان، ويسمون فيهم ببنانة حاضنة كانت لهم من قضاعة، وقيل من النمر بن قاسط، فنسبوا إليها.

وأما سامة بن لؤى، فخرج إلى عمان، ويزعمون أن عامر بن لؤى أخرجه.

وذلك أنه كان بينهما شىء، ففقأ سامة عين عامر، فأخافه عامر، فخرج إلى عمان.

فيزعمون أن سامة بن لؤى بينا هو يسير على ناقته، إذ وضعت رأسها ترتع، فأخذت حية بمشفرها، فهصرتها[(٢)] حتى وقعت الناقعة لشقها، ثم نهشت ساقه فقتلته. فقال سامة حين أحس بالموت، فيما يزعمون:

عين فابكى لسامة بن لؤى   علقت ما بسامة العلاقة
لا أرى مثل سامة بن لؤى   يوم حلوا به قتيلاً لناقة
بلغا عامرًا وكعبًا رسولاً   أن نفسى إليهما مشتاقة
إن تكن فى عمان دارى فإنى   غالبى خرجت من غير فاقة
رب كأس هرقت يا بن لؤى   حذر الموت لم تكن مهراقة
رمت دفع الحتوف يا بن لؤى   ما لمن رام ذاك بالحتف طاقة
وخروس السرى تركت رديا   بعد جد وحدة ورشاقة[(٣)]

قال ابن هشام: وبلغنى أن بعض ولده أتى رسول الله ﷺ فانتسب إلى سامة بن لؤى، فقال رسول الله ﷺ: «ألشاعر؟» فقال له بعض أصحابه: كأنك يا رسول الله أردت قوله:

رب كأس هرقت يابن لؤى   حذر الموت لم تكن مهراقة

قال: «أجل»[(٤)].

* * *

(١) انظر: السيرة (٩٦).

(٢) الهصر: هو الكسر، هصر الشىء يهصره هصرًا: جبذه وأماله وأهتصره، وقال أبو عبيدة: هصرت الشىء ووقصته إذا كسرته. انظر: اللسان (مادة هصر).

(٣) خروس السرى: يعنى ناقة صموتًا صبورًا. السرى: هو سير الليل، وقيل: سير الليل كله.

(٤) ذكره الأصفهانى فى كتاب الأغانى (٩/١٠٤)، وليس له إسناد يعرف.

قال ابن إسحاق[١]: وأما عوف بن لؤى، فإنه خرج فيما يزعمون فى ركب من قريش، حتى إذا كان بأرض غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان أبطئ به، فانطلق من كان معه من قومه، فأتاه ثعلبة بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان، فحبسه والتاطه وآخاه وزوجه، فانتسب بتلك المؤاخاة إلى سعد بن ذبيان أبى ثعلبة.

وثعلبة، يزعمون، هو القائل له:

احبس على ابن لؤى جملك ... تركتك القوم ولا مترك لك

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال: لو كانت مدعيًا حيًا من العرب أو ملحقهم بنا لادعيت بنى مرة بن عوف، إنا لنعرف منهم الأشباه مع ما نعرف من موقع ذلك الرجل حيث وقع؛ يعنى عوف بن لؤى.

وهم فى نسب غطفان مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، وهم يقولون إذا ذكر لهم النسب: ما ننكره ولا نجحده، وإنه لأحب النسب إلينا.

وقيل: إن عمر بن الخطاب قال لرجال من بنى مرة: إن شئتم أن ترجعوا إلى نسبكم فارجعوا إليه. وكان القوم أشرافًا فى غطفان هم سادتهم وقادتهم، منهم هرم بن سنان ابن أبى حارثة، وأخوه خارجة بن سنان، والحارث بن عوف، والحصين بن الحمام، وهشام بن حرملة، قوم لهم صيت وذكر فى غطفان وقيس كلها، فأقاموا على نسبهم.

على أن الحصين بن الحمام قد تحير فى هذا واختلف رأيه، فلما سمع قول الحارث ابن ظالم، أحد بنى مرة بن عوف، حين هرب من النعمان بن المنذر ولحق بقريش:

وما قومى بثعلبة بن سعد ... ولا بفزارة الشعر الرقابا[٢]

فقومى إن سألت بنو لؤى ... بمكة علموا مضر الضرابا

سفهنا باتباع بنى بغيض ... وترك الأقربين لنا انتسابا

سفاهة مخلف لما تروى ... هراق الماء واتبع السرابا[٣]

فلو طوعت عمرك كنت فيهم ... وما ألفيت انتجع السحابا[٤]

---

(١) انظر: السيرة (١/٩٨ - ٩٩).

(٢) الشعر: جمع أشعر، وهو الكثير الشعر.

(٣) المخلف: الذى يسقى الماء. هراق: أى صبه.

(٤) انتجع: أى ذهب فى طلب الكلاء فى موضعه. وذكره ابن إسحاق فى السيرة وزاد فى آخره بيت هو:

وخش رواحة القرشى رحلى ... بناحية ولم يطلب ثوابا

انظر: السيرة (١/٩٨ - ٩٩).

قال الحصين بن الحمام يرد عليه وينتمى إلى غطفان:

ألا لستم منا ولسنا إليكم   برئنا إليكم من لؤى بن غالب
أقمنا على عز الحجاز وأنتم   بمعتلج البطحاء بين الأخاشب

يعنى قريشًا.

ثم ندم الحصين على ما قال، وعرف صدق الحارث، فأكذب نفسه وقال:

ندمت على قول مضى كنت قلته   تبينت فيه أنه جد كاذب
فليت لسانى كان نصفين منهما   بكيم ونصف عند مجرى الكواكب
أبونا كنانى بمكة قبره   بمعتلج البطحاء بين الأخاشب
لنا الربع من بيت الحرام وراثة   وربع البطاح عند دار ابن حاطب

يعنى أن بنى لؤى كانوا أربعة، كعبًا، وعامرًا، وسامة، وعوفًا.

وفى بنى مرة بن عوف كان البسل، وذلك ثمانية أشهر حرم لهم من كل سنة من بين العرب، يسيرون به إلى أى بلاد العرب شاءوا، ولا يخافون منهم شيئًا، قد عرفوا ذلك لهم لا يدفعونه ولا ينكرونه.

وكان سائر العرب إنما يأمنون فى الأشهر الحرم الأربعة فقط.

وذكر الزبير عن أبى عبيدة، أنه كانت لقريش فى هذا مزية على سائر العرب قاطبة، وذلك أن العربى لم يكن ليخرج من داره فى غير الأشهر الحرم إلا فى جماعة، وكان القرشى يخرج حيث شاء وأنى شاء، فيقال: رجل من أهل الله فلا يعرض له عارض، ولا يريبه أحد بمكروه، ويعظمه من لقيه أو ورد عليه، ولذلك قال من قال منهم: القرشى بكل بلد حرام.

وأما كعب بن لؤى، وعامر بن لؤى، فهما أهل الحرم وصريح ولد لؤى.

وكان كعب منهما عظيم القدر فى العزب، وأرخوا بموته إعظامًا له، إلى أن كان عام الفيل فأرخوا به[1].

وكان بين موته والفيل، فيما ذكروا، خمسمائة سنة وعشرون سنة. وكان يوم الجمعة يسمى العروبة، فسماه كعب الجمعة لاجتماع قومه فيه يخطبهم ويذكرهم.

---

(١) انظر: السيرة (١/١٠٢).

فيقول فيما يقول: أيها الناس، اسمعوا وعوا، وافهموا وتعلموا، ليل ساج ونهار ضاح، والسماء بناء، والأرض مهاد، والنجوم أعلام، لم تخلق عبثًا فتضربوا عن أمرها صفحًا، الآخرون كالأولين، والدار أمامكم، واليقين غير ظنكم، صلوا أرحامكم، واحفظوا أصهاركم، وأوفوا بعهدكم، وثمروا أموالكم، فإنها قوام مروءاتكم، ولا تصونوها عما يجب عليكم، وعظموا هذا الحرم وتمسكوا به فسيكون له نبأ عظيم، وسيخرج به نبي كريم. ثم ينشد أبياتًا منها:

صروف وأنباء تقلب أهلها لها عقدة ما يستحيل مريرها
على غفلة يأتي النبي محمد فيخبر أخبارًا صدوقًا خبيرها

ثم يقول:

يا ليتني شاهد فحواء دعوته حين العشيرة تبغي الحق خذلانا

أما والله لو كنت ذا سمع وبصر ويد ورجل لتنصبت فيها تنصب الفحل، ولأرقلت فيها إرقال الجمل، فرحا بدعوته جذلاً بصرخته.

فولد كعب بن لؤي بن مرة، وهصيصًا، وعديا[1].

وأمهم وحشية بنت شيبان بن محارب بن فهر بن مالك.

وقيل: إن أم عدي وحده امرأة من فهر، وهي حبيبة بنت بجالة بن سعد بن فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار.

فولد مرة بن كعب كلابًا، وتيمًا، ويقظة[2].

فولد كلاب رجلين: قصيا وزهرة. وأمهما فاطمة بنت سعد بن سيل، أحد الجدرة من خثعمة الأسد من اليمن، حلفاء في بني الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، ويقال خثعمة الأسد[3].

واسم سيل: خير، وإنما سمي سيلا لطوله. وسيل اسم جبل، وهو خير بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر، بن عمرو بن خثعمة بن يشكر بن مبشر بن صعب بن دهمان بن نصر بن الأزد.

---

(١) انظر: السيرة (١٠٢/١).

(٢) انظر: السيرة (١٠٢/١).

(٣) انظر: السيرة (١٠٣/١).

وسمى عامر الجادر لأنه بنى جدارًا للكعبة، كان وهى من سيل أتى أيام ولاية جرهم البيت.

وكان عامر تزوج منهم بنت الحارث بن مضاض، وقيل لولده الجدرة لذلك.

وذكر الشرفى بن القطامى، أن الحاج كانوا يتمسحون بالكعبة ويأخذون من طينها وحجارتها تبركًا بذلك، وأن عامرًا هذا كان موكلا بإصلاح ما شعث من جدرها، فسمى الجادر. والله أعلم.

وسعد بن سيل جد قصى بن كلاب، وهو أول من حلى السيوف بالفضة والذهب، وأهدى إلى كلاب بن مرة مع ابنته فاطمة سيفين محليين، فجعلا فى خزانة الكعبة.

وقصى هو الذى جمع الله به قريشًا، وكان اسمه زيدًا، فسمى مجمعًا لما جمع من أمرها. وسمى قصيًا لتقصيه عن بلاد قومه مع أمه فاطمة بعد وفاة أبيه كلاب بن مرة.

وحديثه فى ذلك طويل، وسنذكره إن شاء الله عند ذكر ولايته البيت، وهناك نذكر مآثره وعظيم غنائه فى إقامة أمر قومه، إن شاء الله، فإن القصد هنا الإيجاز ما أمكن فى إيراد هذا النسب المبارك، لتحصل لسامعه الفائدة بانتظامه واتصاله، ولا يضل ذلك عليه بما تخلل أثناءه من القواطع التى تباعد بين أطرافه.

فولد قصى بن كلاب أربعة نفر وامرأتين[١]:

عبد مناف، وعبد الدار، وعبد العزى، وعبدًا، وتخمر، وبرة.

وأمهم جميعًا حبى بنت حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى.

وساد عبد مناف فى حياة أبيه، وكان مطاعًا فى قريش، وهو الذى يدعى القمر لجماله، واسمه المغيرة.

ذكر الزبير عن موسى بن عقبة، أنه وجد كتابًا فى حجر، فيه: أنا المغيرة بن قصى، آمر بتقوى الله وصلة الرحم.

وإياه عنى القائل بقوله:

كانت قريش بيضة فتفلقت ... فالمح خالصه لعبد مناف

فولد عبد مناف أربعة نفر: هاشمًا، وعبد شمس، والمطلب، ونوفلاً[٢].

---

(١) انظر: السيرة (١/١٠٣ - ١٠٤).

(٢) انظر: السيرة (١/١٠٤).

وكلهم لعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر.

إلا نوفلا فليس منهم، فإنه لوافدة بنت عمرو المازنية. مازن بن منصور بن عكرمة.

فولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر وخمس نسوة[1].

عبد المطلب، وأسدًا، وأبا صيفى، ونضلة، والشفاء، وخالدة، وضعيفة، ورقية، وحية، وأم عبد المطلب أمهم سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار.

فولد عبد المطلب عشرة نفر وست نسوة[2].

العباس، وحمزة، وعبد الله، وأبا طالب، واسمه عبد مناف، والزبير، والحارث، وهو أكبرهم، والحجل، والمقوم، وضرارًا، وعبد العزى أبا لهب، وصفية، وأم حكيم البيضاء، وعاتكة، وأميمة، وأروى، وبرة.

فأم عبد الله وأبى طالب وجميع النساء غير صفية، فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى.

فولد عبد الله بن عبد المطلب، محمدًا رسول الله ﷺ خاتم النبيين وسيد الأولين والآخرين، ونخبة الخلق أجمعين، فنسبه ﷺ أشرف الأنساب، وسببه إلى الله سبحانه باصطفائه إياه واختياره له أفضل الأسباب، وبيته فى قريش أوسط بيوتها الحرمية، وأعرق معادنها الكرمية، لم تخل قط مكة من سيد منهم أو سادات، يكونون خير جيلهم ورؤساء قبيلهم، حتى إذا درجوا سما قسماؤهم فى المجد الصميم، وشركاؤهم فى النسب الكريم إلى ذلك المقام، فعرجوا فصحبوا على ذلك الزمان.

لواؤهم على من ناوأهم منصور، وسؤدد البطحاء عليهم مقصور، والعيون إليهم أية سلكوا صور.

ثم أتى الوادى فطم على القرى، وشد الله أركان مجدهم العريق العتيق بهذا النبى الأمى، فاحتازوا المجد عن آخره. وفازوا من شرف الدين والدنيا بما تعجز ألسنة البلغاء عن أدنى مفاخره.

---

(١) انظر: السيرة (١/١٠٤).

(٢) انظر: السيرة (١/١٠٥).

وأمه ﷺ هى آمنة بنت وهب، بن عبد مناف، بن زهرة، بن كلاب[1]، قسمية أبيه من هذا الأب، وكريمة قومها أولى المكان النبيه والحسب.

وحسبها من الشرف المتين والكرم المبين والفخر الممكن غاية التمكين، أن كانت أما لخاتم النبيين، ﷺ وعلى آله أجمعين.

فكيف ولها من نصاعة الحسب المحسب، وعتاقة المنسب والمنصب، ما يقف عند البطاح، وتعترف له قريش البطاح.

فرسول الله صلوات الله وبركاته عليه، خيرة الخير من كلا طرفيه، وقد اعتنى الناس بنسبه الكريم نثرًا ونظمًا، ونقبوا عن آبائه الأمجاد، وأمهاته الطاهرات الميلاد أبًا فأبًا وأما فأمًا.

فرادوا من ذلك الفخار حدائق غلبا، وسادوا من شرف تلك الآثار مَرَاقِيَ شُمًّا.

وقد تقدمت من ذلك نبذ منثورة أثناء الكلام، وستأتى إن شاء الله منظومة مع أشكالها، تفوق العقد فى النظام، فى قصيدة فريدة مفيدة، لأبى عبد الله بن أبى الخصال، خاتمة رؤساء الآداب، والعلماء المبرزين فى هذا الباب، سماها «معراج المناقب، ومنهاج الحسب الثاقب، فى ذكر نسب رسول الله ﷺ ومعجزاته ومناقب أصحابه»، قرأتها على شيخنا الخطيب أبى القاسم بن حبيش، عنه فقد رأيت أن أورد منها هنا ما يختص بهذا النسب الكريم على اختصار، يفى إن شاء الله بالغرض المروم، إذ الكلام المنظوم أعذب جريًا على الألسان وأهذب رأيًا فى الإفادة بالمستحسن.

وأولها:

إليك فهمى والفؤاد بيثرب	وإن عاقنى عن مطلع الوحى مغربى
أعلل بالآمال نفسًا أغرها	بتقديم غاياتى وتأخير مذهبى
ودينى على الأيام زورة أحمد	فهل ينقضى دينى ويقرب مطلبى
وهل أردن فضل الرسول بطيبة	فيا برد أحشائى ويا طيب مشربى
وهل فضلت من مركب العمر فضلة	تبلغنى أم لا بلاغ لمركب
ألا ليت زادى شربة من مياهها	وهل مثلها ريا لغلة مذنب

(١) انظر نسبها فى: السيرة (١/١٠٥)، وذكرها هناك من جهة الأب، ومن جهة الأم وقال بعد نسبها من جهة الأب: وأمها برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر.

ويا ليتني فيها إلى الله صائر ... وقلبي عن الإيمان غير مقلب
وإن امرؤ وارى البقيع عظامه ... لفي زمرة تلقى بسهل ومرحب
وفي ذمة من خير من وطئ الثرى ... ومن يعتلقه حبله لا يعذب
وما لي لا أشري الجنان بعزمة ... يهون عليها كل طام ويسبسب
وماذا الذي يثني عناني وإنني ... لجواب آفاق كثير التقلب
أفقر ففي كفي لله نعمة ... وبين فقد فارقت قبل بني أبي
وقد مرنت نفسي على البعد وانطوت ... على مثل حد السمهري المدرب
وكم غربة في غير حق قطعتها ... فهلا لذات الله كان تغربي
وكم فاز دوني بالذي رمت فائز ... وأخطأني ما ناله من تغرب
أراه وأهوى فعلة البر قاعدًا ... فيا قعدى البر قم وتلبب
أماني قد أفنى الشباب انتظارها ... وكيف بما أعيى الشباب لأشيب
وقد كانت أسرى في الظلام بأدهم ... فهأنا أغدو في الصباح بأشهب
فمن لي وأني لي بريح تحطني ... إلى ذروة البيت الرفيع المطنب
إلى الهاشمي الأبطحي محمد ... إلى خاتم الرسل المكين المقرب
إلى صفوة الله الأمين لوحيه ... أبي القاسم الهادي إلى خير مشعب
إلى ابن الذبيحين الذي صيغ مجده ... ولما تصغ شمس ولا بدر غيهب
إلى المنتقى من عهد آدم في الذرى ... يردد في سر الصريح المهذب
إلى من تولى الله تطهير بيته ... وعصمته من كل عيص مؤشب
فجاء بريء العرض من كل وصمة ... فما شئت من أم حصان ومن أب
كروض الربا كالشمس في رونق الضحى ... كناشئ ماء المزن قبل التصوب
عليه من الرحمن عين كلاءة ... تجنبه إلمام كل مجنب
إذا أعرضت أعراقه عن قبيلة ... فما أعرضت إلا لأمر مغيب
وما عبرت إلا على مسلك الهدى ... ولا عثرت إلا على كل طيب
فمن مثل عبد الله خير لداته ... وآمنة في خير ضنءٍ ومنصب
إذا اتصلت جاءتك أفلاذ زهرة ... كأسد الشرى من كل أشوس أغلب
ولا خال إلا دون سعد بن مالك ... ولو كان في عليا معد ويعرب
ومن ذا له جد كشيبة ذي الندى ... وساقي الحجيج بين شرق ومغرب
له سؤدد البطحاء غير مدافع ... وحومة ما بين الصفا والمحصب
أبو الحارث السامي إلى كل ذروة ... يقصر عن إدراكها كل كوكب

به وبما فى برده من أمانة ... حمى الله ذاك البيت من كل مرهب
وأهلك بالطير الأبابيل جمعهم ... فيا لهم من عارض غير خلب
وفيما رآه شيبة الحمد آية ... تلوح لعين الناظر المتعجب
وفى ضربه عنه القداح مروعًا ... ومن يرم بين العين والأنف يرهب
وما زال يرمى والسهام تصيبه ... إلى أن وقبه الكوم من نسل أرحب
وكانوا أناسًا كلما أمهم أذى ... تكشف عن صنع من الله معجب
وعاش بنو الحاجات فيهم وأخصبوا ... وإن أصبحوا فى منزل غير مخصب
وعمرو المعالى هاشم وثريده ... بمكة يدعو كل أغبر مجدب
بمثنى جفان كالجواب منيخة ... ملئن عبيطات السنام المرعب
هو السيد المتبوع والقمر الذى ... على صفحته فى الرضا ماء مذهب
بنى الله للإسلام عزا بصهره ... إلى منتهى الأحياء من آل يثرب
وعبد مناف دوحة الشرف الذى ... تفرع منها كل أروع محرب
مطاع قريش والكفيل بعزها ... ومانعها من كل ضيم ومنهب
وزيد ومن زيد قصى مجمع ... سمعت وبلغنا وحسبك فاذهب
به اجتمعت أحياء فهر وأحرزت ... تراث أبيها دون كل مذبذب
وأصبح حكم الله فى آل بيته ... فهم حوله من سادنين وحجب
وما أسلمته عن تراخ خزاعة ... ولكن كما عض الهناء بأجرب
ولاذت قريش من كلاب بن مرة ... بجذل حكاك أو بعذق مرحب
ومرة ذو نفس لدى الحرب مرة ... وفى السلم نفس الصرخدى المذوب
وكعب عقيد الجود والحكم والنهى ... وذو الحكم الغر المبشر بالنبى
خطيب لؤى واللواء بكفه ... لخطبة ناد أو لخطة مقنب
وأول من سمى العروبة جمعة ... وصدر أما بعد يلحى ويطبى
وأرخ آل الله دهرًا بموته ... سنين سدى يتعبن كف المحسب
وأضحى لؤى غالبا كل ماجد ... ومن غالب يمينه للمجد يغلب
وفهر أبو الأحياء جامع شملها ... وكاسبها من فخره خير مكسب
تقرش فامتازت قريش بفضله ... وسد فسدوا خلة المتأوب
وغادره اسمًا فى الكتاب منزلاً ... يمر به فى آية كل معرب
ومالك المربى على كل مالك ... فتى النضر حابته السيادة بل حبى
هو الليث فى الهيجاء والغيث فى الندى ... وبدر الدياجى حين يسرى ويحتبى

تـردى بفضفـاض على المجـد نسـجه ... وليـس عليـه، فليجـر ويسـحب
وللنضـر يـا للنضـر مـن كـل مشـهد ... هو الشمس صعد فى سناها وصوب
وأعـرض بحـر مـن كنانـة زاخـر ... يسـاق إلى أمواجـه كـل مذنـب
وخير حكمًا فى الصهيل أو الوغا فلم ... أو البيت أو عز على الدهر مصحب
يقتصـر واختـار كـلا فحـازه ... إلى غايـة العـزم المديـد المعقـب
لـه البيـت محجوبًـا وعـز مخلـد ... وأجـرد يعبـوب إلى جانب أصهـب
وخـزم آنـاف العتـاة خزيمـة ... فـلاذوا بـأخلاق الذلـول المغـرب
عظيم لسلمى بنت سود بن أسلم ... لكـل قضـاعى كريـم مصعـب
ومدركـة ذو اليمـن والنجـح عـامر ... وخـير مسـمى فـى العـلا وملقـب
تـراءى مطـلا إذ تقمـع صنـوه ... ففـاز بقـدح ظـافر لـم يخيـب
لأم الجبـل الشـم والقطـر والحصـى ... لخنـدف إن تستركب الأرض تركـب
وإليـاس مأوى النـاس فـى كـل أزمـة ... ومهربهـم فـى كـل خـوف ومرهـب
وزاجرهـم إذ بدلـوا الديـن ضيلـة ... وأضحـوا بـلا هـاد ولا متحـوب
وجـاءهم بـالركن بعـد هلاكـه ... وقد كان فى صدع من الرض أنكـب
ومـا هـو إلا معجـز لنبـوة ... وبشـرى وعقبـى للبشـير المعقـب
وحـج وأهـدى البـدن أول مشـعر ... لهـا وفـروض الحـج لـم تـترتب
وكـم حكمـة لـم تسـمع الأذن مثلهـا ... لـه إن تلـح فـى نـاظر العـين تكتـب
إلى قنـص تنميـه سـوداء نبتـه ... كـلا طرفيـه مـن معـد لمنسـب
وفـى مضـر تـاه الكـلام وأقبلـت ... مآثـر سـدت كـل وجـه ومذهـب
وحينـا وكاثرنـا النجـوم بجمعهـا ... بـأكثر منهـا فـى العديـد وأثقـب
هنـالك آتـى اللـه مـن شـاء فضلـه ... وقيـل لهـذا سـر وللآخـر اركـب
وكانـا شـقيقى نبعـة فتفاوتـا ... لعلـم وحكـم مالـه مـن معقـب
ومـا منهمـا إلا حنيـف ومسـلم ... على نهـج إسـماعيل غـير منكـب
وقـد سلم الأفعـى بنجـران حكمـه ... إليهـم ولـم ينظـر إلى متعقـب
رأى فطنـا أبـدت لـه عـن نجـاره ... وكـان لنبـع فاسـتحال لأثـأب
وتلـك علامـات النبـوة كلهـا ... تشـير إلى منظورهـا المـترقب
وقـال رسـول اللـه مهمـا اختلفتـم ... ولـم تعرفـوا قصـد السـبيل الملحـب
ففـى مضـر جرثومـة الحـق فـاعمدوا ... إلى مضـر تلفـوه لـم يتنقـب
ومـا سـيد إلا نـزار يفوتـه ... ومـن فاتـه بـدر الدجـى لـم يؤنـب

قريع معد والذى سد نفده | متى يأتهم شعب من الدهر يرأب
أبو أبحر الدنيا وأطوادها التى | بها ثبتت طرًّا فلم تتقلب
ولم يكفه حتى أعانت معانة | بكل عتيق جرهمى مهذب
وجاء والسماء شموسها | وأقمارها فى ذيله المتسحب
وبين يديه الأنجم الزهر بثها | على الأرض حتى لا مساغ لأجنبى
وقدما تخفى الله من يختنصر | به والورى من هالك ومعذب
وجنبه أرض البوار وحازه | إلى معقل من حرزه متأشب
وحل بأرمينية تحت حفظه | لدى ملك عن جانبيه مذبب
فلما تجلى الروع أسرى بعبده | إلى حرم أمن لأبنائه اجتبى
وقد كان رد الله عنهم كليمه | ليالى يدعو دعوة المتغضب
وجاء بنو يعقوب يشكون منهم | ينادونه هذا قتيل وذا سبى
فقال له لا تدع موسى عليهم | فمنهم نبى أصطفيه وأجتبى
أحبهم فيه رضًا وأحبه | كذلك من أحببه يكرم ويحبب
وأغفر إن يستغفرونى ذنوبهم | ومهما دعا داع أجبهخ وأقرب
فقال إذن فاجعلهم رب أمتى | فمن ترضه يا رب يرض ويرغب
فقال هم فى آخر الدهر صفوتى | يقضون أعدائى ويستنصرون بى
دعائم إيمان وأركان سؤدد | مضت بعلاها مهدد بنت جلحب
ومصعد عدنان إلى جذم آدم | بأبين من قصد الصباح وألحب
ونهى رسول الله صد وجوهها | وكان لنا فى نظمها شد ملهب
وإلا فأد بن الهميسع ماثل | ونبت بن قيدار سلالة أشجب
وواجه أعراق الثرى كل من ترى | وأسمع إسماعيل دعوة مكثب
وقام خليل الله يتلوه آزر | أغر صباحى لأدهم غيهب
إلى الناحر ابن الشارع الغمر يرتقى | وللداع ثم القاسم الشامخ الأب
ويعبر ينميه إلى المجد شالخ | إلى الرافد الوهاب برك وطيب
لسام أبى السامين طرا سما بهم | لنوح للمكان العلى لمثوب
لإدريس ثم الرائد بن مهلهل | لقينن ثم الطاهر المتطيب
إلى هبة الرحمن شيث بن آدم | أبى البشر الأعلى لطين لأثلب
فمنه خلقنا ثم فيه معادنا | ومنه إلى عدن فسدد وقارب

وهنا انتهى ما يخص المنتمى العلى من هذه الكلمة، التى فرى ناظمها فى الإحسان

الفرى المحمود، فاقتصرت منها على ما وفى بالغرض المقصود، واستوفى رجال النسب المجيد والحسب التليد، تعجيلاً لقرى المستفيد، واكتفاء من القلادة بالقدر المحيط بالجيد، وإنها إن شاء الله لكافية فى الباب، ومقدمة فى الكلام اللباب، وتحفة إنما يعرف قدرها أولو الألباب.

والله يجزى قائلها الحسنى، وينفعه بمقصده الأسنى.

وإذ قد انتهينا إلى ما حسن لدينا إيراده فى هذا المعنى وصفًا وذكرًا، وخدمنا النسب الأشرف نظمًا ونثرًا، فلنعرج على ذكر البقعة التى اختارها الله لرسوله الكريم منشأ، وجعلها لقومه قرارًا ومتبوأ، وأولية البيت العتيق الذى جعله الله مثابة وأمنًا للناس، ورفعه على أفضل القواعد وأكرم الأساس، ثم دحا الأرض من تحته رفعًا للشبهة فى شرفه والالتباس.

ثم نذكر من وليه من آبائه الكرام، إذا هم أهله الأعلون وأولياؤه الأحقاء به الأولون، وهو مأثرتهم التى لم يزالوا إياها يرعون، ومن جرائها يراعون، وتراث المجد الذى إليهم يعزى وإليه يعزون، وبسيما شرفه يعرفون وباسمه يدعون.

ونشير إلى حرمته العظيمة فى الحرمات، وما أنزل الله تعالى بمن بغاه بسوء أو أتى فيه بأمر مذموم مشنوء من أليم العقوبات وعظيم النقمات.

لنخدم البلد كما خدمنا المحتد، ونقضى حق المكان الشريف كما قضينا حق الحسب التليد والطريف.

حق نخلص إلى ذكر المولد المبارك الذى منه نتدرج إلى المقصود، الذى نحن عليه عاملون، ولتمامه آملون، رجاء أن نجد ذلك مذخورًا عند المولى الذى يضاعف لعبيده الحسنات ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون.

* * *

ذكر أولية بيت الله المحرم وركنه المستلم
ومن تولى بناءه من ملائكته وأنبيائه صلى الله على جميعهم وسلم

قال الله العظيم: ﴿**إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركًا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم**﴾ [آل عمران: ٩٦].

وفى الصحيح من حديث أبى ذر الغفارى، أنه سأل رسول الله ﷺ: أى مسجد وضع فى الأرض أول؟ فقال له: «المسجد الحرام» قال: قلت: ثم أى؟ قال: «ثم المسجد الأقصى» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون عامًا»[(١)].

وذكر الزبير بن أبى بكر بإسناده إلى جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه، قال: كنت مع أبى محمد بن على بمكة فى ليالى العشر قبل التروية بيوم أو يومين، وأبى قائم يصلى فى الحجر، وأنا جالس وراءه، فجاء رجل أبيض الرأس واللحية، جليل العظام بعيد ما بين المنكبين عريض الصدر، عليه ثوبان غليظان فى هيئة محرم، فجلس إلى جنبه، فخفف أبى الصلاة، فسلم ثم أقبل عليه، فقال له الرجل: يا أبا جعفر، أخبرنى عن بدء خلق هذا البيت كيف كان؟.

فقال له أبو جعفر محمد بن على: ممن أنت يرحمك الله؟ قال: رجل من أهل الشام. فقال له محمد بن على: إن أحاديثنا إذا سقطت إلى الشام جاءتنا صحاحًا، وإذا سقطت إلى العراق حجاءتنا وقد زيد فيها ونقص.

ثم قال: بدء خلق هذا البيت أن الله تبارك وتعالى، قال للملائكة: ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾، فردوا عليه: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها**﴾ الآية.

وغضب عليهم، فعاذوا بالعرش، وطافوا حوله سبعة أطواف يسترضون ربهم، فرضى عنهم وقال لهم: ابنوا لى فى الأرض بيتًا فيعوذ به من سخطت عليه من بنى آدم ويطوفون حوله، كما فعلتم بعرشى، فأرضى عنهم.

فبنوا له هذا البيت. فهذا يا عبد الله بدء خلق هذا البيت.

فقال الرجل: يا أبا جعفر، فما بدء خلق هذا الركن؟.

فقال: إن الله تبارك وتعالى لما خلق الخلق، قال لبنى آدم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. وأقروا. وأجرى نهرًا أحلى من العسل وألذ من الزبد، ثم أمر القلم فاستمد من ذلك النهر فكتب إقرارهم وما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم ألقم ذلك الكتاب هذا الحجر، فهذا الاستلام الذى ترى إنما هو بيعة على إقرارهم بالذى كانوا أقروا به.

---

(١) أخرجه البخارى (١٧٧/٤، ١٩٧)، مسلم فى صحيحه كتاب المساجد (١، ٢)، البيهقى فى السنن الكبرى (٤٣٣/٢)، السيوطى فى الدر المنثور (٥٢/٢)، ابن كثير فى التفسير (٦٣/٢، ٤٠٩/٥)، القرطبى فى التفسير (١٣٧/٤)، أبو نعيم فى الحلية (٢١٦/٤).

وقال جعفر بن محمد: كان أبى إذا استلم الركن قال: اللهم أمانتى أديتها، وميثاقى وفيت به، ليشهد لى عندك بالوفاء. قال: وقام الرجل فذهب.

قال جعفر بن محمد: فأمرنى أبى أن أرده عليه، فخرجت فى أثره وأنا أراه، يحول بينى وبينه الزحام، حتى دخل نحو الصفا، فتبصرته على الصفا فلم أره، ثم ذهبت إلى المروة فلم أره عليها، فجئت إلى أبى فأخبرته فقال لى أبى: لم تكن لتجده، وذلك الخضر عليه السلام؟!!

وخرج الترمذى من حديث عبد الله بن عباس وصححه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن فسودته خطايا بنى آدم»[١].

ومن حديث عبد الله بن عمرو، مرفوعًا وموقوفًا، قال: «إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة، طمس الله نورهما، ولو لم يطمس نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب»[٢].

ومن حديث ابن عباس أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ فى الحجر: «والله ليبعثه الله يوم القيامة، له عينان يبصر بهما ولسان ينطق، يشهد على من استلمه بحق»[٣].

وذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى من حديث عبد الصمد بن معقل، أنه سمع وهب بن منبه يقول: إن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض فرأى سعتها ولم ير فيها أحدًا غيره، قال: يا رب أما لأرضك هذه عامر يسبح بحمدك ويقدسك غيرى؟

قال الله تعالى: إنى سأجعل فيها من ولدك من يسبح بحمدى ويقدسنى، وسأجعل فيها بيوتًا ترفع لذكرى ويسبح فيها خلقى ويذكر فيها اسمى، وسأجعل من تلك البيوت بيتًا أخصه بكرامتى وأوثره باسمى، فأسميه بيتى، وعليه وضعت جلالى، ثم أنا

---

(١) أخرجه الترمذى حديث رقم (٨٧٧)، ابن خزيمة فى صحيحه (٢٧٣٣)، المتقى الهندى فى الكنز (٣٤٧٣٧)، الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين (٣٤٤/٤)، التبريزى فى مشكاة المصابيح (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢١٣/٢)، الحاكم فى المستدرك (٤٥٦/١)، المتقى الهندى فى كنز العمال (٣٤٧٤١)، التبريزى فى مشكاة المصابيح (٢٥٧٩)، السيوطى فى جمع الجوامع (٥٥٧٠).

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه حديث (٩٦١)، الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين (٢٧٦/٤)، المتقى الهندى فى الكنز (٣٤٧٢٣).

مع ذلك فى كل شيء ومع كل شيء، أجعل ذلك البيت حرمًا آمنًا، يتحرم بحرمته من حوله ومن تحته ومن فوقه، فمن حرمه بحرمتى استوجب بذلك كرامتى ومن أخاف أهله فقد أخفر ذمتى وأباح حرمتى، أجعله أول بيت وضع للناس ببطن مكة مباركًا، يأتونه شعثًا غبرًا على كل ضامر يأتين من كل فج عميق، يزجون بالتلبية زجيجًا ويثجون بالبكاء ثجيجًا، ويعجون بالتكبير عجيجًا.

فمن اعتمده لا يريد غيره فقد وفد إلى وزارنى وضافنى، وحق على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه، وأن يسعف كلا بحاجته.

تعمره يا آدم ما كنت حى، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك، أمة بعد أمة وقرنًا بعد قرن[١].

وفى حديث غير هذا عن عطاء وقتادة، أن آدم عليه السلام، لما أهبطه الله من الجنة وفقد ما كان يسمعه ويأنس إليه من أصوات الملائكة وتسبيحهم، استوحش حتى شكا ذلك إلى الله تعالى فى دعائه وصلاته، فوجهه إلى مكة، وأنزل الله تعالى ياقوتة من ياقوت الجنة فكانت على موضع البيت الآن.

وقال الله: يا آدم، إنى قد أهبطت لك بيتًا تطوف به، كما يطاف حول عرشى وتصلى عنده كما يصلى عند عرشي.

فانطلق إليه آدم، فطاف به هو ومن بعده من الأنبياء، إلى أن كان الطوفان، فرفعت تلك الياقوتة، حتى أمر الله إبراهيم عليه السلام ببناء البيت، فبناه، فذلك قوله تعالى: ﴿**وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت**﴾ الآية.

وعن ابن عباس، أن الله أوحى إلى آدم: أن لى حرما بحيال عرشى، فانطلق فابن لى بيتًا فيه، ثم حف به كما رأيت ملائكتى يحفون بعرشى، فهنالك أستجيب لك ولولدك، من كان منهم فى طاعتى.

فقال آدم: أى رب، وكيف لى بذلك؟ لست أقوى عليه ولا أهتدى لمكانه.

فقيض الله له ملكًا فانطلق به نحو مكة، فكان آدم عليه السلام إذا مر بروضة ومكان يعجبه قال للملك: انزل بنا هاهنا. فيقول له الملك: أمامك.

حتى قدم مكة، فبنى البيت من خمسة أجبل، من طور سيناء، وطور زيتا، ومن لبنان، والجودى، وبنى قواعده من حراء.

---

(١) أخرجه الطبرى فى التاريخ (١/١٣١).

فلما فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عرفات، فأراه المناسك كلها، التى يفعلها الناس اليوم، ثم قدم به مكة، فطاف بالبيت أسبوعًا ثم رجع إلى أرض الهند فمات بها.

وفى رواية أنه حج من الهند أربعين حجة على رجليه.

وذكر الواقدى عن أبى بكر بن سليمان بن أبى خيثمة العدوى قال: قلت لأبى جهم ابن حذيفة: يا عم، حدثنى عن بناء البيت ونزول إسماعيل عليه السلام الحرم.

قال: يا ابن أخى سلنى عنه على نشاط منى فإنى أعلم من ذلك ما لا يعلمه غيرى.

قال: فمكثت شهرًا أذكره المرة بعد المرة، فيقول مثل قوله الأول، وكان قد كبر ورق وضعف، فدخلت عليه يومًا وهو مسرور، فقال لى: اسمع حديثك الذى سألتنى عنه.

إن البيت بناؤه حرم فى السماء السابعة وفى الأرض السابعة. يعنى أن ما يقابله حرم.

وإن آدم عليه السلام، أمر بأساسه فبناه هو وحواء، أسساه بصخر أمثال الخلفات، يعنى النوق التى فى بطونها أجنة، واحدتها خلفة. أذن الله عز وجل للصخر أن يطيعهما.

ثم نزل البيت من السماء من ذهب أحمر، وكل به من الملائكة سبعون ألف ملك، فوضعوه على رأس آدم عليه السلام، ونزل الركن، وهو يومئذ درة بيضاء، فوضع موضعه اليوم من البيت، وطاف به آدم وصلى فيه. فلما مات آدم عليه السلام وليه بعده ابنه شيث، فكان كذلك حتى حجه نوح عليه السلام. فلما كان الغرق يعنى الطوفان، بعث الله جل ثناؤه سبعين ألف ملك فرفعوه إلى السماء، كى لا يصيبه الماء النجس، وبقيت قواعده، وجاءت السفينة فدارت به سبعًا ثم دثر البيت، فلم يحجه من بين نوح وبين إبراهيم أحد من الأنبياء على جميعهم السلام[١].

وعن غير الواقدى فى غير حديث أبى الجهم، أن شيث بن آدم عليهما السلام، هو أول من بنى الكعبة، وأنها كانت قبل أن يبنيها خيمة من ياقوتة حمراء يطوف بها آدم ويأنس بها لأنها أنزلت إليه من الجنة، وكان قد حج إلى موضعها من الهند.

وفى الخبر أن موضعها كان غثاءً على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض، فلما

---

(١) قد أورد الحافظ ابن كثير فى البداية والنهاية الكثير من الأخبار عن بناء البيت. انظرها فى البداية والنهاية (١/١٦٧ - ١٧٠).

بدأ الله خلق الأشياء، خلق التربة قبل السماء، فلما خلق السماء وقضاهن سبع سماوات، دحا الأرض، أى بسطها، وإنما دحاها من تحت الكعبة، فلذلك سميت مكة أم القرى.

وذكر ابن هشام أن الماء لم يصل الكعبة حين الطوفان، ولكنه قام حولها، وبقيت هى فى هواء إلى السماء، وأن نوحًا قال لأهل السفينة، وهى تطوف بالبيت: إنكم فى حرم الله عز وجل وحول بيته، فأحرموا لله ولا يمس أحد امرأة. وجعل بينهم وبين النساء حاجزًا، فتعدى حام، فدعا عليه نوح بأن يسود الله لون بنيه، فأجابه الله على وفق ما دعاه، واسود كوش بن حام وولده إلى يوم القيامة.

وقد قيل فى سبب دعوته غير هذا، فالله أعلم.

ويروى أنه لما نضب ماء الطوفان، بقى مكان البيت ربوة من مدرة، فحج إليه بعد ذلك هود وصالح ومن آمن معهما، وأن يعرب قال لهود عليه السلام: ألا تبنيه؟ قال: إنما يبنيه نبى كريم يأتى من بعدى، يتخذه الرحمن خليلاً.

قال أبو الجهم، من حديث الواقدى[1]: حتى أراد الله بإبراهيم ما أراد، فولد له إسماعيل وهو ابن تسعين سنة، فكان بكر أبيه، فلما أراد الله عز وجل، أن يبوئ لإبراهيم مكان البيت وأعلامه، أوحى الله إليه يأمره بالمسير إلى بلده الحرام، فركب إبراهيم البراق، وحمل إسماعيل أمامه وهو ابن سنتين، وهاجر خلفه، ومعه جبريل يدله على موضع البيت ومعالم الحرم، فكان لا يمر بقرية إلا قال له إبراهيم: بهذه أمرت يا جبريل؟ فيقول جبريل: لا. حتى قدم به مكة، وهى إذ ذاك عضاة وسلم وسمر، والعماليق يومئذ حول الحرم، وهم أول من نزل مكة ويكونون بعرفة، وكانت المياه يومئذ قليلة، وكان موضع البيت قد دثر وهو ربوة حمراء مدرة، وهو يشرف على ما حوله، فقال جبريل حين دخل من كداء[2]، وهو الجبل الذى يطلعك على الحجون[3] والمقبرة: بهذا أمرت. قال إبراهيم: بهذا أمرت؟ قال: نعم.

---

(١) انظر ما ذكره ابن كثير فى البداية (١٥٩/١).

(٢) كداء: بفتح أوله ممدود لا يصرف لأنه مؤنث، جبل بمكة، وهو عرفة وهى كلها موقف إلا عرنة فليست فى الحرم بينها وبين الحرم رمية حجر. انظر: الروض المعطار (٤٩٠)، معجم ما استعجم (١١١٧/٤، ١١١٨).

(٣) الحجون: بفتح الحاء، موضع بمكة عند المحصب، وهو الجبل المشرف بحذاء المسجد الذى يلى شعب الجزارين إلى ما بين الحوضين اللذين فى حائط عوف، وقيل: الحجون مقبرة أهل مكة تجاه دار أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه. انظر: الروض المعطار (١٨٨).

فانتهى إلى موضع البيت، فعمد إبراهيم إلى موضع الحجر فآوى فيه هاجر وإسماعيل، وأمر هاجر أن تتخذ فيه عريشًا، فلما أراد إبراهيم أن يخرج، ورأت أم إسماعيل أنه ليس بحضرتها أحد من الناس ولا ماء ظاهر، تركت ابنها فى مكانه وتبعت إبراهيم، فقالت: يا إبراهيم إلى من تدعنا؟ فسكت عنها، حتى إذا دنا من كداء قال: إلى الله عز وجل أدعكم. فقالت: فالله عز وجل أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: فحسبى تركتنا إلى كاف.

وانصرفت هاجر إلى ابنها، وخرج إبراهيم حتى وقف على كداء، ولا بناء ولا ظل ولا شيء يحول دون ابنه، فنظر إليه، فأدركه ما يدرك الوالد من الرحمة لولده، فقال: **﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء﴾**.

ثم انصرف إبراهيم راجعًا إلى الشام، وعمدت هاجر فجعلت عريشًا فى موضع الحجر من سمر وثمام ألقته عليه ومعها شن فيه شيء من ماء، فلما نفد الماء عطش إسماعيل وعطشت أمه، فانقطع لبنها، فأخذ إسماعيل كهيئة الموت، فظنت أنه ميت، فجزعت وخرجت جزعًا أن تراه على تلك الحال، وقالت: يموت وأنا غائبة عنه أهون على، وعسى الله أن يجعل لى فى ممشاى خيرًا.

فانطلقت فنظرت إلى جبل الصفا، فأشرفت عليه تستغيث ربها عز وجل وتدعوه، ثم انحدرت إلى المروة، فلما كانت فى الوادى خبت حتى انتهت إلى المروة، فعلت ذلك سبع مرار، كلما أشرفت على الصفا نظرت إلى ابنها، فتراه على حاله، وإذا أشرفت على المروة فمثل ذلك.

فكان ذلك أول ما سعى بين الصفا والمروة. وكان من قبلها يطوفون بالبيت ولا يسعون بين الصفا والمروة، ولا يقفون المواقف، حتى كان إبراهيم.

فلما كان الشوط السابع ويئست سمعت صوتًا، فاستمعت فلم تسمع إلا الأول، فظنت أنه شيء عرض لسمعها من الظمأ والجهد.

فنظرت إلى ابنها فإذا هو يتحرك، فأقامت على المروة مليا، ثم سمعت الصوت الأول، فقالت: إنى سمعت صوتك فأعجبنى، فإن كان عندك خير فأغثنى، فإنى قد هلكت وهلك ما عندى.

فخرج الصوت يصوت بين يديها، وخرجت تتلوه قد قويت له نفسها، حتى انتهى الصوت عند رأس إسماعيل، ثم بدا لها جبريل، فانطلق بها حتى وقف على موضع زمزم، فضرب بعقبه مكان البئر، فظهر الماء فوق الأرض حين فحص بعقبه، وفارت بالرواء، وجعلت أم إسماعيل تحظر الماء بالتراب خشية أن يفوتها قبل أن تأتى بشنتها، فاستقت وبادرت إلى ابنها فسقته وشربت، فجعل ثدياها يتقطران لبنا، فكان ذلك اللبن طعامًا وشرابًا لإسماعيل، وكانت تجتزئ بماء زمزم، فقال لها الملك: لا تخافى أن ينفد هذا الماء، وأبشرى، فإن ابنك سيشب ويأتى أبوه من الشام، فتبنون ها هنا بيتًا يأتيه عباد الله من أقطار الأرضين ملبين لله جل ثناؤه شعثًا غبرًا، فيطوفون به ويكون هذا الماء شرابًا لضيفان الله عز وجل، الذين يزورون بيته.

فقالت: بشرك الله بخير، وطابت نفسها، وحمدت الله عز وجل.

ويقبل غلامان من العماليق يريدان بعيرًا لهما أخطأهما، فقد عطشا وأهلهما بعرفة، فنظرا إلى طير يهوى قبل الكعبة فاستنكرا ذلك، وقالا: أنى يكون الطير على غير ماء؟ فقال أحدهما لصاحبه: أمهل حتى نبرد، ثم نسلك فى مهوى الطير.

فأبردا ثم تروحا، فإذا الطير ترد وتصدر، فاتبعا الواردة منها حتى وقفا على أبى قبيس، فنظرا إلى الماء وإلى العريش، فنزلا وكلما هاجر وسألاها متى نزلت؟ فأخبرتهما، وقالا: لمن هذا الماء؟ فقالت: لى ولابنى. فقالا: من حفره؟ فقالت: سقيا الله جل ثناؤه.

فعرفا أن أحدًا لا يقدر على أن يحفر هناك ماء، وعهدهما بما هناك قريب وليس به ماء.

فرجعا إلى أهلهما من ليلتهما، فأخبراهم، فتحولوا حتى نزلوا معها على الماء فأنست بهم، ومعهم الذرية، فنشأ إسماعيل مع ولدانهم.

وكان إبراهيم يزور هاجر فى كل شهر على البراق يغدو غدوة فيأتى مكة، ثم يرجع فيقيل فى منزله بالشام.

فزارها بعد، ونظر إلى من هناك من العماليق وإلى كثرتهم وغمارة الماء، فسر بذلك.

ولما بلغ إسماعيل عليه السلام، تزوج امرأة من العماليق، فجاء إبراهيم زائرًا لإسماعيل، وإسماعيل فى ماشية يرعاها ويخرج متنكبًا قوسه، فيرمى الصيد مع رعيته، فجاء إبراهيم عليه السلام إلى منزله، فقال: السلام عليكم يا أهل البيت.

قال: فسكتت فلم ترد، إلا أن تكون ردت فى نفسها، فقال: هل من منزل؟ فقالت: لا هيم الله إذن، قال: فكيف طعامكم وشرابكم وشاؤكم؟ فذكرت جهدًا، فقالت: أما الطعام فلا طعام، وأما الشاء فإنما نحلب الشاة بعد الشاة المصر، وأما الماء فعلى ما ترى من الغلظ، قال: فأين رب البيت؟ قالت: فى حاجته.

قال: فإذا جاء فأقرئيه السلام، وقولى له غير عتبة بيتك.

ورجع إبراهيم إلى منزله، وأقبل إسماعيل راجعًا إلى منزله بعد ذلك بما شاء الله عز وجل، فلما انتهى إلى منزله سأل امرأته هل جاءك أحد؟ فأخبرته بإبراهيم وقوله وما قالت له، ففارقها وأقام ما شاء الله أن يقيم.

وكانت العماليق هم ولاة الحكم بمكة فضيعوا حرمة الحرم واستحلوا منه أمورًا عظامًا ونالوا ما لم يكونوا ينالون، فقام فيهم رجل منهم يقال له عموق، فقال: يا قوم أبقوا على أنفسكم، فقد رأيتم وسمعتم من أهلك من هذه الأمم، فلا تفعلوا، تواصلوا ولا تستخفوا بحرم الله عز وجل وموضع بيته.

فلم يقبلوا ذلك منه، وتمادوا فى هلكة أنفسهم.

ثم إن جرهما وقطوراء، وهما أبناء عم خرجوا سيارة من اليمن، أجدبت البلاد عليهم، فساروا بذراريهم وأموالهم، فلما قدموا مكة رأوا فيها ماء معينًا وشجرًا ملتفًا، ونباتًا كثيرًا، وسعة من البلاد، ودفئًا فى الشتاء.

فقالوا: إن هذا الموضوع يجمع لنا ما نريد.

فأعجبهم ونزلوا به، وكان لا يخرج من اليمن قوم إلا ولهم ملك يقيم أمرهم، سنة فيهم جروا عليها واعتادوها ولو كانوا نفرًا يسيرًا.

فكان مضاض بن عمرو على قومه من جرهم، وكان على قطوراء السميدع، رجل منهم.

فنزل مضاض بمن معه من جرهم أعلى مكة بقعيقعان[1] فما حاز.

ونزل السميدع بقطوراء أسفل مكة بأجياد[2]، فما حاز.

---

(١) قعيقعان: جبل بأعلى مكة، قيل سمى قعيقعان لأن مضاض بن عمرو لما سار إلى السميدع معه كتيبة فيها عدتها من الرماح والدرق والسيوف تقعقع بذلك فسمى قعيقعان، والقصة طويلة.
انظر: الروض المعطار (٤٧٧)، معجم ما استعجم (١٠٨٦/٣).

(٢) أجياد: بفتح أوله وإسكان ثانية وبالياء أخت الواو والدال المهملة، كأنه جمع جيد، أحد جبال=

وذهبت العماليق إلى أن ينازعوهم أمرهم فعلت أيديهم على العماليق وأخرجوهم من الحرم كله، فصاروا فى أطرافه لا يدخلونه.

وجعل مضاض والسميدع يقطعان المنازل لمن ورد عليهما من قومهما فكثروا وأثروا، فكان مضاض يعشر، كل من دخل مكة من أعلاها، وكان السميدع يعشر كل من دخل من أسفلها، وكل على قومه لا يدخل أحدهما على صاحبه، وكانوا قومًا عربًا وكان اللسان عربيًا.

وكان إبراهيم يزور إسماعيل، فلما نظر إلى جرهم نظر إلى لسان عجيب وسمع كلامًا حسنًا، ونظر إسماعيل إلى رعلة بنت مضاض بن عمرو، فأعجبته فخطبها إلى أبيها فتزوجها.

فجاء إبراهيم زائرًا لإسماعيل، فجاء إلى بيت إسماعيل، فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله، فقامت إليه المرأة فردت عليه ورحبت به، فقال: كيف عيشكم ولبنكم وماشيتكم؟ فقالت خير عيش بحمد الله عز وجل، نحن فى لبن كثير ولحم كثير وماؤنا طيب، قال: هل من حب؟ قالت: يكون إن شاء الله ونحن فى نعم. قال: بارك الله لكم.

قال أبو جهم: فكان أبى يقول: ليس أحد يخلى عن اللحم والماء بغير مكة إلا اشتكى بطنه، ولعمرى لو وجد عندنا حبا لدعا فيه بالبركة فكانت أرض زرع.

ويقال: إن إبراهيم قال لها: ما طعامكم؟ قالت: اللحم واللبن. قال: فما شرابكم؟ قالت: اللبن والماء. قال: بارك الله لكم فى طعامكم وشرابكم، فاللبن طعام وشراب.

قالت: فانزل رحمك الله فاطعم واشرب. قال: إنى لا أستطيع النزول. قالت: فإنى أراك شعثًا أفلا أغسل رأسك وأدهنه؟ قال: بلى إن شئت. فجاءته بالمقام وهو يومئذ حجر رطب أبيض مثل المهاة، ملقى فى بيت إسماعيل، فوضع عليه قدمه اليمنى وقدم إليها رأسه وهو على دابته فغسلت شق رأسه الأيمن، فلما فرغت حولت له المقام حتى وضع قدمه اليسرى، وقدم إليها رأسه فغسلت شق رأسه الأيسر، فالأثر الذى فى المقام من ذلك. قال أبو الجهم: فقد رأيت موضع العقب والإصبع.

=مكة وهو الجبل الأخضر العالى بغربى المسجد الحرام، وفى رأسه منار يذكر أن أبا بكر رضى الله عنه أمر ببنائه ينادى عليه المؤذنون فى رمضان، يقابل من الكعبة الركن اليمانى يخرج إليه من باب إبراهيم عليه السلام، ويقابل قعيقعان من ناحية الغرب. انظر: الروض المعطار (١٢، ١٣).

وعن الواقدى من غير حديث أبى الجهم أن أبا سعيد الخدرى سأل عبد الله بن سلام عن الأثر الذى فى المقام، فقال: كانت الحجارة على ما هى عليه اليوم إلا أن الله جل ثناؤه، أراد أن يجعل المقام آية من آياته.

قال أبو الجهم: فلما فرغت يعنى المرأة، من غسل رأس إبراهيم عليه السلام، قال لها: إذا جاء إسماعيل فقولى له: أثبت عتبة بابك فإن صلاح المنزل العتبة.

فلما جاء إسماعيل قال: هل جاءك أحد بعدى؟ فأخبرته بإبراهيم وما صنعت به، ثم قال لها: هل قال لك أن تقولى لى شيئًا؟ قالت: قال لى أثبت عتبة بابك فإن صلاح المنزل العتبة.

ففرح إسماعيل وقال: أتدرين من هو؟ قالت: لا. قال: هذا خليل الله إبراهيم أبى، وأما قوله: «أثبت عتبة بابك» فقد أمرنى أن أقرك وقد كنت على كريمة وقد ازددت على كرامة. فصاحت وبكت، فقال: ما لك؟ قالت: ألا أكون علمت بمن هو فأكرمه وأصنع به غير الذى صنعت! فقال لها إسماعيل: لا تبكى ولا تجزعى فقد أحسنت ولم تكونى تقدرين أن تفعلى فوق الذى فعلت، ولم يكن ليزيدك على الذى صنع بك.

فولدت لإسماعيل عشرة ذكور أحدهم نابت[1].

فلما بلغ إسماعيل ثلاثين سنة وإبراهيم يومئذ ابن مائة سنة، أوحى الله جل ثناؤه إلى إبراهيم أن ابن لى بيتًا. قال إبراهيم: أى رب أين أبنيه؟.

فأوحى الله إليه: أن اتبع السكينة، وهى ريح لها وجه وجناحان ومع إبراهيم الملك والصرد.

فانتهوا بإبراهيم إلى مكة، فنزل إسماعيل إلى الموضع الذى بوأه الله جل وعز، لإبراهيم، وموضع البيت ربوة حمراء مدرة مشرفة على ما حولها.

فحفر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وليس معهما غيرهما، أساس البيت، يريدان أساس آدم الأول.

---

(١) قال ابن هشام فى السيرة (١/٢٤-٢٨): حدثنا زياد بن عبد الله البكائى، عن محمد بن إسحاق المطلبى، قال: ولد إسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام، اثنى عشر رجلا: نابتا، وكان أكبرهم، وقيذر، وأذبل، وميشا، ومسمغا، وماشى، ودما، وأذر، وطيما، ويطور، ونبش، وقيذما، وأمهم: رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى. قال ابن هشام: ويقال: مُضاض، وجرهم بن قحطان، وقحطان أبو اليمن كلها، وإليه يجتمع نسبها، ابن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

فحفرا عن ربض البيت يعنى حوله، فوجدا صخرة لا يطيقها إلا ثلاثون رجلاً، وحفرا حتى بلغا أساس آدم ثم بنى عليه، وحلقت السكينة كأنها سحابة، على موضع البيت، فقالت: ابْنِ عليَّ.

فلذلك لا يطوف بالبيت أحد أبدًا، كافر ولا جبار، إلا رأيت عليه السكينة.

فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت، فجعل طوله فى السماء تسع أذرع، وعرضه ثلاثين ذراعًا، وطوله فى الأرض اثنين وعشرين ذراعًا، وأدخل الحجر وهو سبعة أذرع فى البيت، وكان قبل ذلك زربًا لغنم إسماعيل.

وإنما بناه بحجارة بعضها على بعض، ولم يجعل له سقفًا، وجعل له بابًا وحفر له بئرًا عند بابه خزانة للبيت، يلقى فيها ما أهدى للبيت وجعل الركن علما للناس.

فذهب إسماعيل إلى الوادى يطلب حجرًا، ونزل جبريل بالحجر الأسود، وكان قد رفع إلى السماء حين غرقت الأرض، كما رفع البيت، فنزل به جبريل فوضعه إبراهيم موضع الركن، وجاء إسماعيل بالحجر من الوادى فوجد إبراهيم قد وضع الحجر، فقال: من أين هذا؟ من جاءك به؟ قال إبراهيم: من لم يكلنى إليك ولا إلى حجرك[1].

وعن الواقدى أيضًا من غير حديث أبى الجهم، أن يزيد بن رومان، قال: سمعت ابن الزبير يقول: إن إبراهيم عليه السلام ابتغى الحجر، فناداه من فوق أبى قبيس: ألا أنا هذا. فرقى إليه إبراهيم فأخذه، فوضعه موضعه الذى هو فيه اليوم.

وكان الله جل ثناؤه لما غرقت الأرض استودع أبا قبيس الركن، وقال: إذا رأيت خليلى يبنى لى بيتًا فأعطه الركن فأعطاه الركن.

وعن غير ابن الزبير أن أبا قبيس لذلك كان يسمى فى الجاهلية الأمين، لوفائه بما استودعه الله إياه.

---

(١) قال ابن كثير فى البداية باب بناء البيت العتيق: قال السدى: لما أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت، ثم لم يدريا أين مكانه حتى بعث الله ريحًا يقال له الخجوج لها جناحان ورأس فى صورة حية، فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس، وذلك حين يقول تعالى: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ فلما بلغا القواعد بنيا الركن، قال إبراهيم لإسماعيل: يا بنى، اطلب لى الحجر الأسود من الهند، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل النعامة، وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن، فقال: يا أبتى، من جاءك بهذا؟ قال: جاء به من هو أنشط منك. وانظر ما ورد فى ذكر بناء البيت فى البداية (١/١٦٧) وما بعدها.

قال أبو جهم: ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت وأدخل الحجر فى البيت، جعل المقام لاصقا بالبيت عن يمين الداخل، فلما كانت قريش قصر الخشب عليهم، فأخرجوا الحجر، وكان ما أخرجوا منه سبعة أذرع.

وأمر إبراهيم بعد فراغه من البناء أن يؤذن فى الناس بالحج، فقال: يا رب، وما يبلغ صوتى؟!

قال الله جل ثناؤه: أذّن وعلىَّ البلاغ.

فارتفع على المقام وهو يومئذ ملصق بالبيت، فارتفع به المقام حتى كان أطول الجبال، فنادى وأدخل إصبعيه فى أذنيه، وأقبل بوجهه شرقًا وغربًا، يقول: أيها الناس، كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق، فأجيبوا ربكم عز وجل.

فأجابه من تحت البحور السبعة، ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أطراف الأرض كلها: لبيك اللهم لبيك.

أفلا تراهم يأتون يلبون؟!

فمن حج من يومئذ إلى يوم القيامة فهو ممن استجاب لله عز وجل.

وذلك قول الله جل ثناؤه: ﴿**فيه آيات بينات مقام إبراهيم**﴾ [آل عمران: ٩٧] يعنى نداء إبراهيم على المقام بالحج فهى الآية.

قال الواقدى: وقد روى أن الآية هى أثر إبراهيم على المقام.

قال أبو الجهم: فلما فرغ إبراهيم من الأذان ذهب به جبريل فأراه الصفا والمروة، وأقامه على حدود الحرم، وأمره أن ينصب عليها الحجارة، ففعل إبراهيم ذلك، وكان أول من أقام أنصاب الحرم، ويريه إياها جبريل.

فلما كان اليوم السابع من ذى الحجة، خطب إبراهيم عليه السلام بمكة، حين زاغت الشمس قائمًا، وإسماعيل جالس، ثم خرجا من الغد يمشيان على أقدامهما يلبيان محرمين، مع كل واحد منهما إداوة يحملها وعصًا يتوكأ عليها، فسمى ذلك اليوم يوم التروية.

فأتيا منى فصليا بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح، وكانا نزلا فى الجانب الأيمن، ثم أقام حتى طلعت الشمس على ثبير، ثم خرج يمشى هو وإسماعيل حتى أتيا

عرفة، وجبريل معهما يريهما الأعلام، حتى نزلا بنمرة، وجعل يريه أعلام عرفات، وكان إبراهيم قد عرفها قبل ذلك، فقال إبراهيم: قد عرفت: فسميت عرفات.

فلما زاغت الشمس خرج بهما جبريل عليه السلام، حتى انتهى بهما إلى موضع المسجد اليوم، فقام إبراهيم فتكلم بكلمات، وإسماعيل جالس، ثم جمع بين الظهر والعصر، ثم ارتفع بهما إلى الهضاب، فقاما على أرجلهما يدعوان إلى أن غابت الشمس وذهب الشعاع، ثم دفعا من عرفة على أقدامهما، حتى انتهيا إلى جمع فنزلا، فصلى إبراهيم المغرب والعشاء فى ذلك الموضع الذى يصلى فيه اليوم، ثم باتا حتى إذا طلع الفجر وقفا على قزح، فلما أسفر قبل طلوع الشمس دفعا على أرجلهما حتى انتهيا إلى محسر، فأسرعا حتى قطعاه ثم عادا إلى مشيهما الأول، ثم رميا جمرة العقبة بسبع حصيات حملاها من جمع، ثم نزلا من منى فى الجانب الأيمن، ثم ذبحا فى المنحر اليوم، وحلقا رءوسهما، ثم أقاما أيام منى يرميان الجمار حين تزيغ الشمس ماشيين ذاهبين وراجعين، وصدرا يوم الصدر فصليا الظهر بالأبطح، وكل هذا يريه جبريل عليه السلام.

قال أبو الجهم: فلما فرغ إبراهيم من الحج انطلق إلى منزله بالشام، فكان يحج البيت كل عام، وحجته سارة، وحجه إسحاق ويعقوب والأسباط، والأنبياء هلم جرا.

وحجه موسى بن عمران عليه السلام.

روى الواقدى بإسناد له عن ابن عباس قال: مر موسى عليه السلام، بصفاح الروحاء يلبى، تجاوبه الجبال، عليه عباءتان قطوانيتان من عباء الشام.

وعن جابر بن عبد الله قال: حج هارون نبى الله البيت، فمر بالمدينة يريد الشام، فمرض بالمدينة فأوصى أن يدفن بأصل أحد، ولا تعلم به يهود، مخافة أن ينبشوه فدفنوه فقبره هناك.

وعن ابن عباس، أن الحواريين كانوا إذا بلغوا الحرم نزلوا يمشون حتى يأتوا البيت.

وعن ابن الزبير: أن الحواريين خلعوا نعالهم حين دخلوا الحرم، إعظامًا أن ينتعلوا فيه.

ثم توفى الله خليله إبراهيم ﷺ، بعد أن وجه إليه ملك الموت، فاستنظره إبراهيم، ثم أعاده إليه لما أراد الله قبضه، فأخبره بما أمر به، فسلم إبراهيم لأمر ربه عز وجل فقال له ملك الموت: يا خليل الله، على أى حال تحب أن أقبضك؟ قال: تقبضنى وأنا ساجد، فقبضه وهو ساجد، وصعد بروحه إلى الله عز وجل، ودفن إبراهيم عليه السلام بالشام[1].

---

(١) قال ابن كثير: قد روى ابن عساكر عن غير واحد من السلف، عن أخبار أهل الكتاب فى=

وعاش إسماعيل عليه السلام بعد أبيه ما عاش، وتوفى بمكة، فدفن داخل الحجر، مما يلى باب الكعبة، وهنالك قبر أمه هاجر، ودفن معها وكانت توفيت قبله.

ولما توفى إسماعيل عليه السلام، ولى البيت بعده ابنه نابت، ولم يله أحد من ولده غيره. ثم مات فدفن فى الحجر مع أمه رعلة بنت مضاض.

فولى البيت بعده جده مضاض بن عمرو، ثم أخواله من جرهم، وقاموا عليه، فكانوا هم ولاته وحجابه وولاة الأحكام بمكة.

وكان البيت قد دخله السيل من أعلى مكة فانهدم، فأعادته جرهم على بناء إبراهيم، وجعلت له مصراعين وقفلا.

قال ابن إسحاق: ثم إن جرهما وقطوراء بغى بعضهم على بعض وتنافسوا الملك بها، ومع مضاض يومئذ إسماعيل وبنو نابت وإليه ولاية البيت دون السميدع. فسار بعضهم إلى بعض، فخرج مضاض من قعيقعان فى كتيبته سائرا إلى السميدع، ومع كتيبته عدتها من الرماح والدرق والسيوف والجعاب يقعقع بذلك معه.

فيقال: ما سمى قعيقعان قعيقعان إلا لذلك. وخرج السميدع من أجياد ومعه الخيل والرجال. فيقال: ما سمى أجياد أجيادًا إلا لخروج الجياد من الخيل مع السميدع منه(١).

وغير ابن إسحاق يقول: إنما سمى أجيادًا لأن مضاضًا ضرب فى ذلك الموضع أجياد مائة رجل من العمالقة. وقيل: بل أمر بعض الملوك غير مسمى بضرب رقاب فيه، فكان يقول لسيافه: توسط الأجياد. وهذا ونحوه أصح فى تسمية الموضع بأجياد، مما قال ابن إسحاق.

قال: فالتقوا بفاضح(٢)، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتل السميدع وفضحت قطوراء. فيقال: ما سمى فاضح فاضحًا إلا بذلك.

=صفة مجيء ملك الموت إلى إبراهيم عليه السلام أخبارًا كثيرة، الله أعلم بصحتها، وقد قيل: إنه مات فجأة، وكذا داود وسليمان، والذى ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك، قالوا: ثم مرض إبراهيم عليه السلام، ومات عن مائة وخمس وسبعين، وقيل: وتسعين سنة، ودفن فى المغارة التى كانت بحبرون الحيثى، عند امرأته سارة، التى فى مزرعة عفرون الحيثى، وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد ورد ما يدل أنه عاش مائتى سنة، كما قاله ابن الكلبى. انظر البداية باب ذكر موته عليه السلام (١٧٨/١) وما بعدها.

(١) انظر: السيرة (١٠٧/١ - ١٠٨).

(٢) فاضح: موضع بمكة. انظر الروض المعطار (صـ٤٣٣).

ثم إن القوم تداعوا إلى الصلح، فساروا حتى نزلوا المطابخ[1] شعبًا بأعلى مكة، فاصطلحوا به وأسلموا الأمر إلى مضاض.

فلما رجع إليه أمر مكة فصار ملكها له، نحر للناس وأطعمهم، فاطبخ الناس وأكلوا. فيقال: ما سميت المطابخ إلا لذلك. وبعض أهل العلم يزعم أنها إنما سميت بذلك لما كان تبع نحر بها وأطعم، وكان منزله.

فكان الذى كان بين مضاض والسميدع أول بغى كان بمكة، فيما يزعمون.

ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة، وأخوالهم من جرهم ولاة البيت والحكام بمكة، لا ينازعهم ولد إسماعيل فى ذلك، لخؤولتهم وقرابتهم، وإعظامًا للحرمة أن يكون بها بغى أو قتال.

فلما ضاقت مكة على ولد إسماعيل، انتشروا فى البلاد، فلا يناوئون قومًا إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم فوطئوهم.

ثم إن جرهم بغوا بمكة، واستحلوا [خلالاً][2] من الحرمة، وظلموا من دخلها من غير أهلها، وأكلوا مال الكعبة الذى يهدى لها، فرق أمرهم.

فلما رأت ذلك بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة، وغبشان من خزاعة، أجمعوا لحربهم وإخراجهم من مكة، فآذنوهم بالحرب. فاقتتلوا فغلبتهم بنو بكر وغبشان، فنفوهم من مكة.

وكانت مكة فى الجاهلية لا تقر فيها ظلمًا ولا بغيًا، ولا يبغى فيها أحد إلا أخرجته، فكانت تسمى الناسة، ولا يريدها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه. فيقال: ما سميت ببكة[3]، إلا أنها كانت تبك أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئًا.

---

(١) المطابخ: موضع معروف بمكة. انظر: الروض المعطار (صـ٥٤٣).

(٢) ما بين المعقوفتين فى الأصول: «حلالاً»، وما أوردناه من السيرة. وخلال: جمع خلة وهى الخصلة.

(٣) قال ابن هشام فى السيرة (١/١٠٩): أخبرنى أبو عبيدة: أن بكة اسم لبطن مكة؛ لأنهم يتباكون فيها، أى: يزدحمون، وأنشدنى:

إذا الشريب أخذته أكه ... فخله حتى يبك بكه

أى: فدعه حتى يبك إبله، أى يخليها إلى الماء، فتزدحم عليه، وهو موضع البيت والمسجد، وهذان البيتان لعامان بن كعب بن عمرو بن سعد بن زيد مناة بن تميم.

فلم يزل أهلها على وجه الدهر يصونون جنابها ويحافظون على حرمتها.

يقال: إنه اجتمع رأى بنى إسماعيل وخيارهم على أن لا يدعوا أحدًا أحدث فى حرم الله حدثا إلا غربوه منه، ثم لم يرجع فيه. ويقال: بل كان ذلك مما سن لهم أولوهم، فصارت سنة فيهم يدينون بها، ثم خلف من خلف بعدهم على ذلك، يرون فيه رأيهم، وتكبر مواقعة الظلم فى حرم الله والتعدى به فى نفوسهم، ويعتقدون أن الباغى فيه معاقب فى دنياه فى نفسه وماله، وأن الحالف عند البيت حانثًا مخوف عليه مما أصاب قبله ممن فعل فعله، وأن دعاء المظلوم عنده وخصوصًا فى الشهر الحرام مجاب فى ظالمه، ويوثرون فى ذلك أشياء أراها الله إياهم، صونًا لحرمه الكريم، وتنزيها لبيت خليله إبراهيم.

ذكر الواقدى من حديث عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث، قال: عدا رجل من بنى كنانة بن هذيل على ابن عم له وظلمه واضطهده فناشده بالرحم وعظم عليه، فأبى إلا ظلمه، فقال: والله لألحقن بحرم الله فى هذا الشهر، ولأدعون الله عليك. فقال له ابن عمه مستهزئًا به: هذه ناقتى فلانة، فأنا أفقرك ظهرها فاذهب فاجتهد.

فأعطاه ناقة، وخرج حتى جاء الحرم فى الشهر الحرام، فقال: اللهم إنى أدعوك جاهدًا مضطرًا على ابن عمى فلان، ترميه بداء لا دواء له.

ثم انصرف، فيجد ابن عمه قد رمى فى بطنه فصار مثل الزق، فمازال ينتفخ حتى انشق.

قال عبد المطلب: لحدثت بهذا الحديث ابن عباس، فقال: أنا رأيت رجلاً دعا على ابن عم له بالعمى، يعنى فى الحرم، فرأيته يقاد أكمة العميان.

وعن ابن عباس، قال: سمعت عمر بن الخطاب يسأل رجلاً من بنى سليم عن ذهاب بصره. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، كنا فى بنى ضبعاء عشرة، وكان لنا ابن عم، فكنا نظلمه ونضطهده، فكان يذكرنا بالله والرحم، وكنا أهل بيت نرتكب كل الأمور، فلما رأى ابن عمنا أنا لا نكف عنه ولا نرد إليه ظلامته، أمهل حتى دخلت الأشهر الحرم، انتهى إلى الحرم فجعل يرفع يديه إلى الله جل ثناؤه، ويقول:

لاهم[1] أدعوك دعاءً جاهدًا   اقتل بنى الضبغاء إلا واحدًا

---

(١) لاهم: أى اللهم، والعرب تحذف منها الألف واللام للتخفيف.

ثـم اضـرب الرجـل ودعـه قاعدًا   أعمـى إذا قيـد يعنـى القائـدا

قال: فمات إخوتى تسعة فى تسعة أشهر، فى كل شهر واحد، وبقيت أنـا، فعميـت، ورمانى الله عز وجل فى رجلى، وكمهت فليس يلائمنى قائد.

قال ابن عباس: فسمعت عمر يقول: سبحان الله إن هذا لهو العجب!

قال: وسمعت عمر يسأل ابن عمهم الذى دعا عليهم، فقال: دعوت عليهم كل ليلة رجب الشهر كله بهذا الدعاء، فأهلكوا فى تسعة أشهر وأصاب الباقى ما أصابه.

قال ابن عباس: وعدا رجل على ابـن عـم لـه فاستاق ذودًا لـه، فخـرج يطلبـه حتـى أصابه فى الحرم، فقال: ذودى. فقال اللص: كذبت ليس لك. قـال: فـاحلف. قـال: إذا أحلف. فحلف عند المقام بالله الخالق رب هذا البيت ما هن لك.

فقيل له: لا سبيل لك عليه.

فقام رب الذود بين الركن والمقام باسطا يديه يدعـو علـى صاحبـه، فمـا بـرح مقامـه يدعو عليه حتى دله فذهب عقله، فجعل يصيح بمكة: ما لى وللذود، مـا لى ولفـلان رب الذود.

فبلغ ذلك عبد المطلب، فجمع الـذود فدفعهـا إلى المظلـوم فخـرج بهـا، وبقـى الآخر مدلها حتى تردى من جبل فمات فأكلته السباع.

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يقول: لو وجـدت قـاتل الخطـاب فـى الحـرم ما هجته.

وكان يقول: لأن أذنب بركبة سبعين ذنبًـا أحـب إلى مـن أن أذنـب ذنبًـا واحـدًا فـى الحرم. وركبه خارج الحرم، محاذية لذات عرق.

وذكر رضى الله عنه، يومًا وهو خليفة ما كان يعاقب به من حلف ظلمًـا، يعنـى فـى الحرم، زمن الجاهلية، فقال: إن الناس ليرتكبون ما هو أعظم منها ثـم لا يعجـل لهـم مـن العقوبة مثل ما كان يعجل لأولئك، فما ترون ذلك؟

فقالوا: أنت أعلم يا أمير المؤمنين.

قـال: إن اللـه جـل ثنـاؤه، جعـل فـى الجاهليـة، إذ لا ديـن حرمـة حرمهـا وعظمهـا وشرفها، وجعل العقوبة لمن استحل شيئًا مما حـرم، ليتنكـب عـن انتهـاك مـا حـرم مخافـة

تعجيل العقوبة، فلما بعث الله رسوله ﷺ أوعدهم فيما انتهكوا مما حرم الساعة، فقال: ﴿والساعة أدهى وأمر﴾ [القمر: ٤٦].

فأخر العقاب إلى يوم القيامة، وأراهم الله الاستجابة بعضهم لبعص ليتناهوا عن الظلم، وأخر أهل الإسلام ليوم الجمع، ويستجب الله لمن يشاء، فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين.

ومن المشهور فى هذا الباب أمر إساف ونائلة، وهما صنما قريش اللذان أقاموهما على زمزم ينحرون عندهما. ذكروا أنهما كان رجلاً وامرأة من جرهم، إساف بن بغى، ونائلة بنت ديك، فوقع إساف على نائلة فى الكعبة، فمسخهما الله حجرين. ويقال: أحدثا فيها فمسخهما الله؛ فالله أعلم.

وأمرهما معدود فيما بلغت إليه جرهم من الاستخفاف بحرمة الحرم وقلة مبالاتهم بالبغى فيه، مع ما أراهم الله من عظيم الآية بمسخهما حجرين، فما نهاهم ذلك عن قبيح ما كانوا عليه، حتى أخرجهم الله عن جوار بيته بأيدى آخرين من عباده، فكان من أمرهم مع خزاعة ما كان.

فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمى بغزالى الكعبة وبحجر الركن فدفنها فى زمزم، وانطلق هو ومن معه من جرهم إلى اليمن، وحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزنًا شديدًا. فقال عمرو بن الحارث بن مضاض فى ذلك، وليس بمضاض الأكبر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر[1]
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالى والجدود العواثر[2]
وكنا ولاة البيت من بعد نابت ... نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
ونحن ولينا البيت من بعد نابت ... بعز فما يحظى لدينا المكاثر
ملكنا فعززنا فأعظم بملكنا ... فليس لحى غيرنا ثم فاخر
ألم تنكحوا من خير شخص علمته ... فأبناؤه منا ونحن الأصاهر

---

(١) هذه الأبيات ذكرها فى السيرة وذكر قبل هذا البيت:
وقائلة والدمع سكب مبادر ... وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
انظر: السيرة (١/١٠٩).

(٢) صورف الليالى: شدائدها. والجدود: هو البخت والحظ.

فـإن تنثنــى الدنيــا علينــا بحالهــا فـإن لهــا حــالا وفيهــا التشــاجر
فأخرجنــا منهــا المليـــك بقــدرة كذلــك يــا للنــاس تجــرى المقــادر
أقــول إذا نــام الخلــى ولــم أنــم إذا العــرش لا يبعــد سـهيل وعــامر
وبدلــت منهــا أوجهًــا لا أحبهــا قبــائل منهــا حمــير ويحــابر
وصرنــا أحاديثًــا وكنــا بغبطــة بذلــك عضتنــا الســنون الغوابــر
فسـحت دمـوع العيـن تبكــى لبلــدة بهــا حــرم أمــن وفيهــا المشــاعر
وتبكـى لبيــت ليــس يـؤذى حمامــه يظــل بــه أمنًــا وفيــه العصــافر
وفيــه وحــوش لا تــرام أنيســـة إذا خرجــت منـه فليست تغــادر

وقال عمرو بن الحارث أيضًا يذكر بكرًا وغبشان وساكنى مكة الذين خلفوا فيما بعدهم:

يا أيها النــاس سيروا إن قصركــم أن تصبحوا ذات يـوم لا تسيرونا
حثوا المطى وأرخـوا مـن أزمتهـا قبـل الممـات وقضـوا مـا تقضونـا
كنــا أناسًــا كمـا كنتــم فغيرنــا دهــر فأنتــم كمـا كنـا تكونونـا

قال ابن هشام: هذا ما صح له منها، وحدثنى بعض أهل العلم بالشعر أن هذه الأبيات أول شعر قيل فى العرب، وأنها وجدت مكتوبة فى حجر باليمن ولم يسم لنا قائلها[(١)].

ثم إن غبشان من خزاعة وليت البيت دون بنى بكر بن عبد مناة.

وغبشان لقب، واسمه الحارث، وخزاعة يقال: إنهم من ولد قمعة بن إلياس بن مضر، وأن أباهم عمرو بن لحى، هو عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف، وخزاعة يأبون هذا النسب، ويقولون: إنهم من ولد كعب بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن غسان.

وقد روى أن رسول الله ﷺ قال: «أريت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف يجر قصبه فى النار، فسألته عمن بينى وبينه من الأمم، فقال: هلكوا»[(٢)].

---

(١) انظر: السيرة (١/١١١).
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤/٢٢٤، ٦/٦٩)، كنز العمال للمتقى الهندى (٣٤٠٩٥)، الخطيب البغدادى فى تاريخه (٥/١٧٣)، السيوطى فى الحاوى للفتاوى (٢/٣٧٥)، الطحاوى فى مشكل الآثار (٢/٢٠٧).

فقيل له: ومن عمرو بن لحى؟ قال: أبو هؤلاء الحى من خزاعة، وهو أول من غير الحنيفية دين إبراهيم، وأول من نصب الأوثان حول الكعبة(١).

فإن كان رسول الله ﷺ قال هذا، فرسول الله أعلم وما قال فهو الحق.

وعمرو بن ربيعة الذى تنتسب إليه خزاعة يقال: هو عمرو بن لحى، وإن حارثة بن ثعلبة بن عمرو خلف على أم لحى، ولحى هو ربيعة، بعد أن تأيمت من قمعة، ولحى صغير، فتبناه حارثة وانتسب إليه.

فيكون النسب على هذا صحيحًا بالوجهين، إلى قمعة بالولادة وفق ما روى أن رسول الله ﷺ قاله، وإلى حارثة بن ثعلبة بالتبنى، والانتساب به موجود كثيرًا فى العرب.

فلما وليت خزاعة البيت حفظوه مما كانت جرهم استباحته، وتوافروا على تعظيمه والذب عنه، وكان الذى يليه منهم عمرو بن الحارث الغبشانى، ثم قومه من بعده، وقريش إذ ذاك حلول وصرم(٢) متقطعون وبيوتات متفرقون فى قومهم من بنى كنانة.

فأقامت خزاعة على ولاية البيت، يتوارثون ذلك كابرا عن كابر، حتى كان آخرهم حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى. وبعده انتقلت ولاية البيت إلى قصى بن كلاب.

وكان من حديث قصى(٣) أنه لما هلك أبوه كلاب بن مرة، خلف ولديه زهرة وقصيا، مع أمهما فاطمة بنت سعد بن سيل من عذرة، وزهرة يومئذ رجل، وقصى فطيم، فقدم مكة بعد مهلك كلاب حاج مع قضاعة فيهم ربيعة بن حرام بن ضنة بن عبد كبير بن عذرة، فتزوج فاطمة بنت سعد فاحتملها إلى بلاده، فاحتملت ابنها قصيا لصغره، وأقام زهرة فى قومه.

فولدت فاطمة لربيعة رزاحًا، فكان أخا قصى لأمه، وكان لربيعة بنون ثلاثة من امرأة أخرى، وهم: حن ومحمود وجلهمة، بنو ربيعة.

---

(١) انظر: السيرة (١/٨١)

(٢) قال فى اللسان (مادة صرم): الصرم بالكسر: الأبيات المجتمعة المنقطعة من الناس، وهو الفرقة من الناس ليسوا بالكثير والجمع أصرم وأصاريم وصرمان.

(٣) انظر: السيرة (١/١١٥ - ١٢٠).

وأقام قصى بأرض قضاعة لا ينسب إلا إلى ربيعة بن حرام.

فناضل يومًا رجلاً من قضاعة يدعى رفيعًا، فنضله قصى، وهو يومئذ شاب، فغضب المنضول، فوقع بينهما حتى تقاولا وتنازعا، فقال رفيع: ألا تلحق ببلدك وبقومك، فإنك لست منا!.

فرجع قصى إلى أمه، وقد وجد فى نفسه مما قال، فسألها عن ذلك فقالت: أو قد قال هذا؟ أنت والله يا بنى أكرم منه نفسًا ووالدًا ونسبًا وأشرف منزلاً، أنت ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشى، وقومك بمكة عند البيت الحرام وفيما حوله، تفد العرب إلى ذلك البيت، وقد قالت لى كاهنة رأتك: هذا يلى أمرًا جليلاً، فطب نفسًا.

فأجمع قصى الخروج إلى قومه واللحوق بهم، وكره الغربة بأرض قضاعة، وضاق ذرعًا بالمقام فيهم، فقالت له أمه: لا تعجل حتى يدخل عليك الشهر الحرام، فتخرج فى حاج العرب، فإنى أخشى عليك أن يصيبك بعض الناس.

فأقام قصى حتى إذا دخل الشهر الحرام وخرج حاج قضاعة خرج معهم، وهم يظنون أنه إنما يريد الحج ثم يرجع إلى بلاده، حتى قدم مكة، فلما فرغ من الحج أقام بها، وعالجه القضاعيون على الخروج معهم فأبى.

وكان رجلاً جلدًا نهدًا نسيبًا، فلم ينشب أن خطب إلى حليل بن حبشية ابنته حبى، فعرف حليل النسب ورغب فى الرجل فزوجه، وحليل يومئذ يلى أمر مكة والحكم فيها وحجابة البيت.

فأقام قصى معه بمكة، وولدت له حبى بنيه عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبدًا.

فلما انتشر ولد قصى وكثر ماله وعظم شرفه هلك حليل، فرأى قصى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبنى بكر، وأن قريشًا قرعة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وصريح ولده.

فكلم رجالاً من قريش وبنى كنانة، ودعاهم إلى إخراج خزاعة وبنى بكر من مكة، فأجابوه إلى ذلك، فكتب عند ذلك قصى إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة، يدعوه إلى نصرته والقيام معه، فخرج رزاح ومعه إخوته لأبيه، حن ومحمود وجلهمة، فيمن تبعهم من قضاعة فى حاج العرب، وهم مجمعون لنصر قصى والقيام معه.

فلما اجتمع الناس بمكة وفرغوا من الحج ولم يبق إلا أن يصدر الناس، كان أول ما تعرض له قصى من المناسك أمر الإجازة للناس بالحج.

وكانت صوفة هى التى تلى ذلك مع الدفع بهم من عرفة ورمى الجمار، وهم ولد الغوث بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر[١].

والغوث هو أول من ولى ذلك منهم.

وذلك أن أمه كانت امرأة من جرهم، وكانت لا تلد، فنذرت لله إن هى ولدت ولدًا أن تصدق به على الكعبة عبدًا لها يخدمها ويقوم عليها، فولدت الغوث وكان يقوم على الكعبة فى الدهر الأول مع أخواله من جرهم، فولى الإجازة بالناس من عرفة لمكانه الذى كان به من الكعبة، وولده من بعده حتى انقرضوا.

فقال مر بن أد أبو الغوث لوفاء نذر أمه:

إنى جعلت رب من بنيه ... ربطة بمكة العليه
فباركن لى بها إليه ... واجعله لى من صالح البريه

وكان الغوث بن مر، زعموا، إذا دفع بالناس قال:

لا هم إنى تابع تباعه ... إن كان إثم فعلى قضاعه

وذلك أن قضاعة كان منهم أحياء يستحلون الحرمة فى الجاهلية، فكانت صوفة تدفع بالناس من عرفة، وتجيز بهم إذا نفروا من منى إذا كان يوم النفر أتوا لرمى الجمار، ورجل من صوفة يرمى للناس، لا يرمون حتى يرمى، فكان ذوو الحاجات المتعجلون يأتونه فيقولون له: قم فارم حتى نرمى معك. فيقول: لا والله حتى تميل الشمس. فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التعجيل يرمونه بالحجارة ويستعجلونه بذلك، ويقولون له: ويلك قم فارم بنا. فيأبى عليهم، حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ورمى الناس معه.

فإذا فرغوا من رمى الجمار وأرادوا النفر من منى أخذت صوفة بجانبى العقبة فحبسوا الناس وقالوا: أجيزى[٢] صوفة. فلم يجز أحد من الناس حتى يرموا، فإذا نفذت صوفة ومضت خلى سبيل الناس فانطلقوا بعدهم، فكانوا كذلك حتى انقرضوا.

---

(١) انظر: السيرة (١/١١٦).

(٢) أجيزى: جزت الطريق وجاز الموضع: أى سار فيه وسلكه، وأجازه: حلفه وقطعه، وأجازه: أنفذه. انظر: اللسان (مادة جوز).

فورثهم ذلك من بعدهم بالقعدد بنو سعد بن زيد مناة بن تميم، وكانت من بنى سعد فى آل صفوان بن الحارث بن شجنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد.

فكان صفوان هو الذى يجيز للناس بالحج من عرفة، ثم بنوه من بعده، حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام كرب بن صفوان.

وفى ذلك يقول ابن مغراء السعدى:

لا يبرح الناس ما حجوا معرفهم   حتى يقال أجيزوا آل صفوانا

فأما قول ذى الإصبع العدوانى، واسمه حرثان بن عمرو، وقيل له ذو الإصبع لحية لدغته فى إصبعه فقطعها:

عذير الحى من عدوا   ن كانوا حية الأرض[(١)]
بغى بعضهم ظلمًا   فلم يرع على بعض
ومنهم كانت الساد   ت والموفون بالقرض
ومنهم من يجيز النا   س بالسنة والفرض
ومنهم حكم يقضى   فلا ينقض ما يقضى

وإنما قال ذلك لأن الإفاضة من المزدلفة كانت فى عدوان، وهو عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان، يتوارثون ذلك كابرًا عن كابر، حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام أبو سيارة عميلة بن الأعزل.

قال حويطب بن عبد العزى: رأيت أبا سيارة يدفع بالناس من جمع على أتان له عقوق. وذكروا أنه أجاز عليها أربعين سنة[(٢)].

قالوا: وكان إذا وقف بالناس قال: اتقوا الله ربكم، وأصلحوا أموالكم، واحفظوا جيرانكم، وقاتلوا أعداءكم، اللهم حبب بين نسائنا، وبغض بين رعائنا، واجعل أمر الناس بأيدى صلحائنا؛ ثم يقول: أفيضوا على بركة الله.

وفيه يقول شاعر من العرب:

نحن دفعنا عن أبى سياره   وعن مواليه بنى فزاره

---

(١) حية الأرض: يقال حية فلان وحية الوادى، إذا كان مهيبًا شديد الشكيمة حاميًا لحوزته، أراد أنهم كانوا ذوى إرب وشدة لا يضيعون ثأرًا. انظر: اللسان (مادة حيا).
(٢) انظر: السيرة (١/١١٤).

حتى أجاز سالما حماره مستقبل القبلة يدعو جاره

قوله: «حكم يقضى» يعنى عامر بن ظرب العدوانى، وكانت العرب لا يكون بينها ثائرة ولا عضلة[١] فى قضاء إلا أسندوا ذلك إليه ثم رضوا بما قضى فيه.

فاختصم إليه، في بعض ما كانوا يختلفون فيه، فى رجل خنثى له ما للرجل وله ما للمرأة، أيجعله رجلاً أو امرأة؟ ولم يأتوه بأمر كان أعضل منه.

فقال: حتى أنظر فى أمركم، فوالله ما نزل بى مثل هذه منكم يا معشر العرب.

فاستأخروا عنه، فبات ليلته ساهرًا يقلب أمره وينظر فى شأنه فلا يتوجه له من وجه، وكانت له جارية يقال لها: سخيلة، ترعى عليه غنمه، فكان يعاتبها إذا سرحت فيقول: صبحت والله يا سخيل. وإذا راحت عليه يقول: مسيت والله يا سخيل. وذلك أنها كانت تؤخر السرح حتى يسبقها بعض الناس، وتؤخر الإراحة حتى يسبقها بعض الناس.

فلما رأت سهره وقلة قراره على فراشه قالت: ما لك لا أبالك! ما عراك فى ليلتك هذه؟! قال: ويلك دعينى، أمر ليس من شأنك. ثم عادت له بمثل قولها، فقال فى نفسه: عسى أن تأتى مما أنا فيه بفرج. فقال: ويحك، اختصم إلى فى ميراث خنثى، أأجعله رجلاً أو امرأة؟ فوالله ما أدرى ما أصنع وما يتوجه لى فيه وجه.

فقالت: سبحان الله! لا أبالك! اتبع القضاء المبال، أقعده، فإن بال من حيث يبول الرجل فهو رجل، وإن بال من حيث تبول المرأة فهو امرأة. قال: مسى سخيل بعدها أو ضحى، فرجتها والله. ثم خرج على الناس حين أصبح، فقضى بالذى أشارت إليه[٢].

وهذا كله من الخبر معترض قطع اتصال حديث صوفة وقصى، فنرجع الآن إليه ونصله بموضع انقطاعه.

حيث ذكر أن صوفة هى التى كانت تلى الإجازة بالناس من منى والدفع بهم من عرفة، وأن قصيا عزم على انتزاع ذلك من أيديهم والقيام به دونهم، واستدعى لمظاهرته على ذلك أخاه رزاحًا فوصله مع من ذكر وصوله معه.

فلما كان ذلك العام فعلت صوفة مثل ما كانت تفعل، قد عرفت ذلك لها العرب، وهو دين فى أنفسهم من عهد جرهم وخزاعة.

---

(١) العضلة: الأمر الشديد، وقيل: الإعوجاج، والعضلة أيضًا من أسماء الداهية.

(٢) انظر: السيرة (١/١١٥).

فأتاهم قصى بمن معه من قومه من قريش وكنانة وقضاعة عند العقبة، فقال: لنحن أولى بهذا الأمر منكم.

فقاتلوه، فاقتتل الناس قتالاً شديدًا، ثم انهزمت صوفة وغلبهم قصى على ما كان بأيديهم من ذلك.

وانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصى، وعرفوا أنه سيمنعهم كما منع صوفة، وأنه سيحول بينهم وبين الكعبة وأمر مكة، فلما انحازوا عنه بادأهم وأجمع لحربهم، وخرجت له خزاعة وبنو بكر فالتقوا، فاقتتلوا قتالاً شديدًا بالأبطح، حتى كثرت القتلى فى الفريقين جميعًا، وفشت الجراح فيهم وأكثر ذلك فى خزاعة.

ثم إنهم تداعوا إلى الصلح وإلى أن يحكموا بينهم رجلاً من العرب، فحكموا يعمر ابن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن قصى.

فقضى بينهم أن قصيا أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة، وأن كل دم أصابه قصى من خزاعة وبنى بكر موضوع يشدخه[١] تحت قدميه، وأن ما أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة ففيه الدية مؤداة، وأن يخلى بين قصى وبين الكعبة ومكة.

فسمى يعمر بن عوف يومئذ الشداخ، لما شدخ من الدماء، ووضع منها، ويقال: الشداح أيضًا.

فولى قصى البيت وأمر مكة، وجمع قومه من منازلهم إلى مكة، وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه، إلا أنه قد أقر العرب على ما كانوا عليه، وذلك أنه كان يراه دينًا فى نفسه لا ينبغى تغييره.

فأقر آل صفوان وعدوان والنسأة ومرة بن عوف على ما كانوا عليه؛ حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله[٢].

وبنو مرة بن عوف هم أهل البسل وقد تقدم ذكرهم.

وأما النسأة[٣] فهم بنو فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر.

---

(١) يشدخه: الشدخ الكسر فى كل شىء رطب، وقيل: هو التهشيم يعنى به كسر اليابس وكل أجوف. وقال الليث: الشدخ كسرك الشىء الأجوف كالرأس ونحوه. انظر: اللسان (مادة اشدخ).

(٢) انظر: السيرة (١/١١٦).

(٣) انظر: السيرة (١/٥٤).

وهم الذين كانوا ينسأون الشهور على العرب فى الجاهلية، فيحلون الشهر من أشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر، ففيه أنزل الله سبحانه: **﴿إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين﴾** [التوبة: ٣٧].

وكان أول من نسأ الشهور منهم على العرب، فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ما حرم: القلمس، وهو حذيفة بن عبد بن فقيم بن عدى، وتوارث ذلك بنوه من بعده، حتى كان آخرهم الذى قام عليه الإسلام أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية بن قلع بن عباد بن حذيفة، وهو القلمس.

قال الزبير: وكان أبعدهم ذكرًا وأطولهم أمرًا، يقال: إنه نسأ أربعين سنة.

وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فحرم الأشهر الحرم الأربعة: رجبًا، وذا القعدة، وذا الحجة، والمحرم. فإذا أراد أن يحل منها شيئًا أحل المحرم فأحلوه، وحرم مكانه صفرًا فحرموه، ليواطئوا عدة الأربعة الأشهر الحرم.

فإذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال: اللهم إنى قد أحللت أحد الصفرين، الصفر الأول، ونسأت الآخر للعام المقبل.

وفى ذلك يقول عمير بن قيس، جذل الطعان، أحد بنى فراس بن غنم بن مالك بن كنانة، يفخر بالنسأة على العرب:

لقد علمت معد أن قومى ... كرام الناس إن لهم كرامًا[1]

فأى الناس فاتونا بوتر ... وأى الناس لم نعلك لجاما[2]

ألسنا الناسئين على معد ... شهور الحل نجعلها حراما

فهذا كان شأن النسأة فى الجاهلية، فأقره قصى على ما كان عليه، مع سائر ما ذكر إقراره العرب عليه، حتى جاء الإسلام فهدم الله به ذلك كله.

فكان قصى أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكًا أطاع له به قومه، فكانت إليه

---

(١) أن لهم كرامًا: أراد أن لهم آباء كرامًا أو أخلاقًا كرامًا.

(٢) الوتر: قيل طالب الثأر، وقيل: هو الظلم فى الزَّحل، وقيل هو الزحل عامة. وقوله: لم نعلك لجامًا: أى لم نزجرهم كما ينزجر الفرس باللجام. وتقول: أعلكت الفرس لجامه، إذا رددته من نشاطه فعلك اللجام.

الحجابة والسقاية، والرفادة، والندوة، واللواء. فحاز شرف مكة كله، وقطع مكة رباعًا بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها.

ويزعم الناس أن قريشًا هابوا قطع الشجر من الحرم في منازلهم، فقطعها قصى بيده وأعوانه؛ فسمته قريش مجمعًا، لما جمع من أمرها، وتيمنت بأمره، فما تنكح امرأة ولا يزوج رجل من قريش، ولا يشاورون في أمر نزل بهم، ولا يعقدون لواءً لحرب قوم غيرهم إلا في داره، يعقده لهم بعض ولده، ولا يعذر غلام إلا في داره، ولا تدرع جارية[1] من قريش إلا في داره، يشق عليها فيها درعها إذا بلغت ذلك، ثم تدرعه ثم ينطلق بها إلى أهلها.

ولا تخرج عير من قريش فيرحلون إلا من داره، ولا يقدمون إلا نزلوا في داره.

فكان أمره في قريش في حياته ومن بعد موته كالدين المتبع، لا يعمل بغيره.

واتخذ لنفسه الندوة، وجعل بابها إلى المسجد الكعبة، ففيها كانت قريش تقضي أمورها.

ولما فرغ قصى من حربه انصرف أخوه رزاح إلى بلاده بمن معه من قومه، فلما استقر في بلاده نشره الله ونشر حبًا، فهما قبيلا عذرة اليوم.

فهذا حديث قصى في ولاية البيت بعد حليل بن حبشية وإخراج خزاعة عنه[2].

وخزاعة تزعم أن حليلا أوصى بذلك قصيًا وأمره به حين انتشر له من ابنته من الولد ما انتشر، وقال: أنت أولى بالكعبة وبالقيام عليها وبأمر مكة من خزاعة فعند ذلك طلب قصى ما طلب.

قال ابن إسحاق: ولم يسمع ذلك من غيرهم؛ فالله أعلم.

وقد ذكر الواقدى الأمرين على نحو ما ذكر ابن إسحاق.

قال: وقد سمعنا في ذلك وجهًا آخر، ذكر أن أبا غبشان رجلاً من خزاعة، كان ولى الكعبة فباع حجابتها من قصى بن كلاب بيعًا. وذكر غيره أنه باع منه مفتاح الكعبة بزق خمر. فلذلك قيل: أخسر صفقة من أبي غبشان.

---

(١) تدرع جارية: من درع: ودرع المرأة: قميصها وهو أيضًا الثوب الصغير في بيتها والجمع أدرع. وفي التهذيب: الدرع: ثوب تجوب المرأة وسطه وتجعل له يدين وتخيط فرجته. انظر: اللسان (مادة درع).

(٢) انظر: السيرة (١/١١٥).

وذكر الواقدى أيضًا بإسناد له، أن رجلاً من قضاعة يقال له: أبو الشموس؛ حدث عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهو خليفة حديث قصى بن كلاب، وكيف استعان بإخوته على خزاعة، فاستمع له عمر وتعجب لأول الحديث وقال: ذكرتنا أمرًا كان دثر منا، فالحمد لله رب العالمين، إن الله عز وجل ليصنع لهذا الحى من قريش، وهم أولى الناس أن يتقوا الله وتحسن سيرة من ولى منهم، بصنع الله لهم، جعل فيهم الإمامة وقبل ذلك النبوة.

قالوا: فلما كبر قصى ورق، وكان عبد الدار بكره، وكان عبد مناف قد شرف فى زمان أبيه وذهب كل مذهب، وعبد العزى وعبد، قال قصى لعبد الدار: أما والله يا بنى لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك.

لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له، ولا يعقد لقريش لواءً إلا أنت بيدك، ولا يشرب رجل بمكة إلا من سقايتك، ولا يأكل أحد من أهل الحرم طعامًا إلا من طعامك، ولا تقطع قريش أمرًا من أمورها إلا فى دارك.

فأعطاه دار الندوة التى لا تقضى قريش أمرًا من أمورها إلا فيها، وأعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة.

وكانت الرفادة خرجًا تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها إلى قصى بن كلاب، فيصنع به طعامًا للحاج فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد(١).

وذلك أن قصيا فرضها على قريش، فقال لهم حين أمرهم به: يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج حتى يصدروا عنكم».

ففعلوا، فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خرجًا فيدفعونه إليه، فيصنعه طعامًا للناس أيام منى، فجرى ذلك من أمره فى الجاهلية على قومه حتى قام الإسلام، ثم جرى فى الإسلام إلى يومنا هذا، فهو الطعام الذى يصنعه السلطان كل عام بمنى للناس حتى ينقضى الحج.

فمضى أمر قصى فى عبد الدار ابنه، وجعل إليه كل ما كان بيده من أمر قومه؛ وكان قصى لا يخالف ولا يرد عليه شىء صنعه.

---

(١) انظر: السيرة (١/ ١٢٠).

ثم إن قصيا هلك، فأقام أمره فى قومه وفى غيرهم بنوه من بعده. فاختطوا مكة رباعًا بعد الذى كان قصى قطع لقومه بها، فكانوا يقطعونها فى قومهم وفى غيرهم من حلفائهم ويبيعونها.

فأقامت قريش على ذلك معهم ليس بينهم اختلاف ولا تنازع(١).

ثم إن بنى عبد مناف بن قصى: عبد شمس وهاشمًا والمطلب ونوفلاً أجمعوا أن يأخذوا ما فى يدى بنى عبد الدار بن قصى مما كان قصى جعل إلى عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، ورأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم، فتفرقت عند ذلك قريش، فكانت طائفة منهم مع بنى عبد مناف على رأيهم يرون أنهم أحق به من بنى عبد الدار لمكانهم فى قومهم، وكانت طائفة مع بنى عبد الدار يرون ألا ينزع منهم ما كان قصى جعل إليهم.

فكان صاحب أمر بنى عبد مناف، عبد شمس بن عبد مناف؛ وذلك أنه كان أسنهم.

وكان صاحب أمر بنى عبد الدار عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار.

وكانت بنو أسد بن عبد العزى بن قصى، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو تيم بن مرة ابن كعب، وبنو الحارث بن فهر مع بنى عبد مناف.

وكان بنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، وبنو جمح بن عمرو بن هصيص، وبنو عدى بن كعب مع بنى عبد الدار.

وخرجت عامر بن لؤى ومحارب بن فهر، فلم يكونوا مع واحد من الفريقين.

فعقد كل قوم على أمرهم حلفا مؤكدًا على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضًا ما بل بحر صوفة(٢).

فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبًا(٣) فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند

---

(١) انظر: السيرة (١/١٢٠)

(٢) قال فى اللسان (مادة صوف): صوف البحر شىء على شكل هذا الصوف الحيوانى واحدته صوفة، ومن الأبديات قولهم: لا آتيك ما بل بحر صوفة.

(٣) قال فى السيرة: يزعمون أن بعض نساء بنى عبد مناف قد أخرجته لهما، ولم يسمها. وقال السهيلى فى الروض الأنف: سماها الزبير فى موضعين من كتابه فقال: هى أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وتوأمة أبيه. انظر: الروض الأنف (١/١٥٣).

الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدًا على أنفسهم، فسموا المطيبين.

وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفًا مؤكدًا على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضًا، فسموا الأحلاف.

ثم سوند بين القبائل ولز بعضها ببعض، فعبئت عبد مناف لبنى سهم، وعبئت بنو أسد لبنى عبد الدار، وعبئت زهرة لبنى جمح، وعبئت تيم لبنى مخزوم، وعبئت بنو الحارث بن فهر لبنى عدى، ثم قالوا: لتغن كل قبيلة من أسند إليها.

فبينما الناس على ذلك قد أجمعوا للحرب إذ تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار كما كانت، ففعلوا، ورضى كل واحد من الفريقين بذلك، وتحاجز الناس عن الحرب، وثبت كل قوم مع من حالفوا، حتى جاء الله بالإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «ما كان من حلف فى الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة»(١).

فهذا حلف المطيبين(٢).

وقد كان فى قريش حلف آخر بعده، وهو حلف الفضول(٣)، تداعت إليه قبائل من قريش، فاجتمعوا إليه فى دار عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، لشرفه وسنه، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول.

واختلف فى السبب الذى دعا قريشًا إلى هذا الحلف، ولم سمى بهذا الاسم، فأما ما

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٦/٣٣٥).

(٢) انظر: السيرة (١/١٢٠ - ١٢٢).

(٣) قال السهيلى فى الروض الأنف (١/١٥٥): قال ابن قتيبة: كان قد سبق قريشًا إلى مثل هذا الحلف جرهم فى الزمن الأول، فتحالف منهم ثلاثة هم ومن تبعهم، أحدهم: الفضل بن فضالة، والثانى: الفضل بن وداعة، والثالث: فضيل بن الحارث، هذا قول القتبى. وقال الزبير: الفضيل ابن شراعة، والفضل بن وداعة، والفضل بن قطاعة، فلما أشبه حلف قريش الآخر فعل هؤلاء الجرهميين سمى: حلف الفضول، والفضول جمع فضل، وهى أسماء أولئك الذين تقدم ذكرهم، وهذا الذى قال ابن قتيبة حسن.

دعاهم إليه، فذكر الزبير وغيره أن رجلاً من أهل اليمن من بنى زبيد قدم مكة معتمرًا ومعه بضاعة له، فاشتراها رجل من بنى سهم، ويقال: إنه العاص بن وائل، فلوى الرجل بحقه، فسأله ماله فأبى عليه، وسأله متاعه فأبى عليه، فجاء إلى بنى سهم يستعديهم عليه، فأغلظوا له، فعرف أن لا سبيل إلى ماله، فطوف فى قبائل قريش يستعين بهم، فتخاذلت القبائل عنه، فلما رأى ذلك قام على الحجر، ويقال: بل أشرف على أبى قبيس حين أخذت قريش مجالسها ثم نادى بأعلى صوته ثم قال:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائى الدار والنفر
وأشعث محرم لم يقض حرمته ... بين الإله وبين الحجر والحجر
أقائم من بنى سهم بذمتهم ... أم ذاهب فى ضلال مال معتمر

فلما سمعت ذلك قريش أعظموه وتكلموا فيه، فقال المطيبون: والله لئن قمنا فى هذا لتغضبن الأحلاف، وقال الأحلاف: والله لئن تكلمنا فى هذا ليغضبن المطيبون. فقال ناس من قريش: تعالوا فلنكن حلفًا فضولاً دون المطيبين ودون الأحلاف، فلذلك قيل له: حلف الفضول.

فاجتمعوا فى دار عبد الله بن جدعان، وصنع لهم طعامًا كثيرًا، وكان رسول الله ﷺ يومئذ معهم قبل أن يوحى إليه، فاجتمعت بنو هاشم وبنو المطلب وزهرة وأسد وتيم، فتحالفوا على أن لا يظلم بمكة قريب ولا غريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه، حتى يأخذوا له بحقه ويردوا إليه مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم، ثم عمدوا إلى ماء من ماء زمزم فجعلوه فى جفنة، ثم بعثوا به إلى البيت فغسلت فيه أركانه، ثم أتوا به فشربوه، ثم انطلقوا إلى الرجل الذى تعدى على الرجل المستصرخ، العاص بن وائل أو غيره. فقالوا: والله لا نفارقك حتى تؤدى إليه حقه.

فأعطى الرجل حقه، فمكثوا كذلك لا يظلم أحد حقه بمكة إلا أخذوه له، وقال رسول الله ﷺ: «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت»[1].

وحكى الزبير أيضًا أنه إنما سمى حلف الفضول لأنهم تحالفوا على أن لا يتركوا لأحد عند أحد فضلا إلا أخذوه. وقيل: إنما سمى بذلك لأنه لما تداعى له من ذكر من قبائل قريش كره ذلك سائر المطيبين والأحلاف بأسرهم، وسموه حلف الفضول، عيبًا

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٦/١٦٧)، القرطبى فى تفسيره (٦/٣٣، ١٠/١٦٩)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٢/٢٩١).

له، وقالوا: هذا من فضول القوم.

وقيل: بل كان هذا الحلف على مثل حلف تقدم إليه نفر من جرهم يقال لهم: الفضل وفضال والفضيل، فسمى لذلك هذا الآخر حلف الفضول، وأيًا ما كان من ذلك، فهى مأثره لقريش من مآثرها الكرام، وآثارها العظام، نالتهم فيه بركة حضور رسول الله ﷺ، فهو وإن كان فعلاً جاهليا دعتهم السياسة إليه، فقد صار لحضور رسول الله ﷺ له وما قاله بعد النبوة فيه وأكده من أمره، حكمًا شرعيا وفعلاً نبويًا.

وقد نشأ بين حسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما، وبين الوليد بن عتبة بن أبى سفيان زمن معاوية، والوليد يومئذ أمير المدينة من قبله منازعة فى مال كان بينهما بذى المروة، فكأن الوليد تحامل على حسين فى حقه لسلطانه، فقال له حسين: أحلف بالله لتنصفنى من حقى أو لآخذن سيفى ثم لأقومن فى مسجد رسول الله ﷺ، ثم لأدعون بحلف الفضول.

فقال عبد الله بن الزبير وهو عند الوليد: وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفى ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعًا. وبلغت المسور بن مخرمة الزهرى فقال مثل ذلك. وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمى فقال مثل ذلك. فلما بلغ ذلك الوليد أنصف الحسين من حقه حتى رضى. ولم تكن بنو عبد شمس دخلت فى هذا الحلف.

وقد سأل عبد الملك بن مروان عن ذلك محمد بن جبير بن مطعم إذ قدم عليه حين قتل ابن الزبير، واجتمع الناس على عبد الملك بن مروان، وكان محمد بن جبير أعلم قريش، فلما دخل عليه قال: يا أبا سعيد، ألم نكن نحن وأنتم، يعنى بنى عبد شمس وبنى نوفل ابنى عبد مناف، فى حلف الفضول؟ قال: أنت أعلم. قال عبد الملك: لتخبرنى يا أبا سعيد بالحق من ذلك. فقال: لا والله، لقد خرجنا منه نحن وأنتم. قال: صدقت.

فكان عتبة بن ربيعة بن عبد شمس يقول: لو أن رجلاً وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس، حتى أدخل فى حلف الفضول.

وكانت لقريش أحلام عظام، كانوا منها فى جاهليتهم على مثل السلطان الضابط، عناية من الله بهم ومنا منه سبحانه عليهم، هم سكان الحرم، وأهل الله وحجاب بيته، وأهل السقاية والرفادة والرياسة واللواء والندوة ومكارم مكة، وكانوا على إرث من دين أبويهم إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما، من قرى الضيف ورفد الحاج وتعظيم

الحرم ومنعه من البغى فيه والإلحاد، وقمع الظالم ومنع المظلوم.

إلا أنه دخلت على أوليتهم أحداث غيرت أصول الحنيفية عندهم، وطال الزمان حتى أفضى ذلك بهم إلى جهالات بشرائع الدين وضلالات عن سنن التوحيد فتدارك الله ذلك كله بنبيه ﷺ، فهدى من الضلالة وعلم من الجهالة.

فيقال: إنه كان أول من غير الحنيفية دين إبراهيم ونصب الأوثان حول الكعبة ودعا إلى عبادتها: عمرو بن لحى بن قمعة بن إلياس بن مضر.

روى أبو هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعى: «يا أكثم، رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف يجر قصبه فى النار، فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به ولا بك منه». فقال أكثم: عسى أن يضرنى بشبهه يا نبى الله، قال: «لا، لأنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامى»[1].

فالبحيرة[2]: عند العرب الناقة تشق أذنها ولا يركب ظهرها ولا يُجَزُّ وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف، أو يتصدق به، وتهمل لآلهتهم.

والسائبة: التى ينذر الرجل إن برئ من مرضه أو أصاب أمرًا يطلبه أن يسيبها ترعى لا ينتفع بها.

والوصيلة: التى تلد أمها اثنين فى كل بطن، فيجعل صاحبها لآلهته الإناث منها ولنفسه الذكور، فتلدها أمها ومعها ذكر فى بطن فيقولون: وصلت أخاها، فيسيب أخوها معها فلا ينتفع به.

والحامى: الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره، فلم يركب ولم يجز وبره وخلى فى إبله يضرب فيها، لا ينتفع منه بغير ذلك.

فلما بعث الله رسوله ﷺ أنزل عليه: ﴿**ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون**﴾ [المائدة: ١٠٣].

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٥٦/٧)، ابن كثير فى تفسيره (٢٠٤/٣)، الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٦٧٧).

(٢) انظر: السيرة (٩٠/١ - ٩٢)، أمر البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى.

وذكر بعض أهل العلم أن عمرو بن لحى خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق وهم من ولد عملاق، ويقال: عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟ قالوا: هذه أصنام نعبدها ونستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا.

فقال لهم: أفلا تعطوننى منها صنمًا فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنمًا يقال له: «هبل»؛ فقدم به مكة، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

قال ابن إسحاق: ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسيح فى البلاد، إلا حمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة. حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوه من الحجارة، وأعجبهم حتى خلفت الخلوف[1] ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات[2].

وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها، من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدى البدن والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه.

فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك تملكه وما ملك»، فيوحدونه بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم، ويجعلون ملكها بيده! يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾ [يوسف: ١٠٦]، أى ما يوحدوننى بمعرفة حقى إلا جعلوا معى شريكًا من خلقى.

وقد كانت لقوم نوح أصنام عكفوا عليها، قص الله تبارك وتعالى خبرها على رسوله ﷺ، فقال: ﴿**وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرًا وقد أضلوا كثيرًا**﴾ [نوح: ٢٣].

وذكر الواقدى بإسناد له عن أبى هريرة أن أول ما عبدت الأصنام فى زمن نوح عليه

---

(١) الخلوف: جمع خلاف، وهو القرن بعد القرن.

(٢) انظر: السيرة (٨٢/١).

السلام، وأن ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا كانوا رجالاً صالحين من قوم نوح، أهل عبادة وفضل، فماتوا، فوجد عليهم أهلوهم وتوحش الناس لفقدهم، فقال لهم رجل: ألا أصورهم لكم صورًا من خشب فتنظرون إليهم وتسكنون إلى رؤيتهم؟ قالوا: بلى إن قدرت، قال: أنا أقدر على تصويرهم، ولا أقدر أن أنفخ الروح فيهم.

فجاء بالصور كهيئتهم أحياءً، فأخذ أهل كل بيت صورة صاحبهم فوضعوها فى منزلهم ينظرون إليها، فأذهب ذلك بعض حزنهم. فكانوا على ذلك ما شاء الله، حتى هلك ذلك القرن، ثم خلف قرن آخر ثم ثالث بعده فكانوا على ما كان عليه القرن الأول حتى هلكوا.

ثم خلف القرن الرابع، فقالوا: لو أنا عبدنا هؤلاء لقربونا إلى الله وشفعوا لنا عنده، ولا يزيدونا إلا خيرًا إنما نريد ما يقربنا منه، فعبدوها حتى هلكوا، وعبدها من بعدهم. فلما غرقت الأرض زمن نوح عليه السلام، غرقت تلك الأصنام، فمكثت ما شاء الله أن تمكث، ثم استخرجها عمرو بن لحى ففرقها فى القبائل. فالله تعالى أعلم.

وقد خرج البخارى فى صحيحه من حديث عبد الله بن عباس موقوفًا عليه فى التفسير نحو ما ذكره الواقدى مختصرًا، أن ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرا أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشياطين إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون إليها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت.

قال ابن إسحاق: واتخذ أهل كل دار فى دارهم صنمًا يعبدونه، فإذا أراد الرجل منهم سفرًا تمسح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره، وإذا قدم من سفره تمسح به، وكان أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله، فلما بعث الله رسوله محمد ﷺ بالتوحيد قالت قريش: ﴿**أجعل الآلهة إلهـا واحدًا إن هذا لشىء عجاب**﴾ [ص: ٥][1].

---

(١) ذكر الإمام أحمد فى مسنده (١/٢٢٧) أن هذه الآية نزلت حين مرض أبو طالب فدخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل وشكوا النبى ﷺ لعمه أبى طالب فقال له أبو طالب: أى ابن أخى ما بال قومك يشكونك يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وأكثروا عليه من القول وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم إنى أريدهم على ملة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدى إليهم بها العجم الجزية»، ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة، نعم وأبيك عشرًا، قالوا: فما هى؟ قال: «لا إله إلا الله»، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أجعل=

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدى إليها كما تهدى للكعبة، وتطوف بها كطوافها، وتنحر عندها، وهى تعرف فضل الكعبة عليها، لأنها قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده.

وسيمر فى تضاعيف هذا الكتاب بعض أخبار هذه الطواغيت وكيف جعل الله عاقبة أمرها خسرًا، فأزهق الحق باطلها وعفى الإسلام آثارها، وأكمل الله تعالى دينه، وتم نوره ونعمته، ونصر دين الهدى والحق، فأظهره على الدين كله.

ومع إصفاق العرب مضرها ويمنها على هذا الضلال، فقد كان وقع إلى بعضهم باليمن دين اليهودية فدانوا به، ووقع أيضًا دين النصرانية بنجران من أرض العرب على ما نذكره.

فأما موقع اليهودية باليمن فمن جهة تبع الآخر، وهو تبان أسعد أبو كرب بن كلكى ابن كرب بن زيد، وهو تبع الأول بن عمرو ذى الأذعار بن أبرهة ذى المنار. وتبان أسعد هو الذى قدم المدينة وساق الحبرين من يهود إلى اليمن، وعمر البيت الحرام وكساه.

وكان قد جعل طريقه حين أقبل من المشرق على المدينة، وكان قد مر بها فى بدأته فلم يهج أهلها وخلف بين أظهرهم ابنًا له فقتل غيلة، فقدمها، وهو مجمع لإخرابها واستئصال أهلها وقطع نخلها.

فجمع له هذا الحى من الأنصار، ورئيسهم عمرو بن ظلة أخو بنى النجار، وقد كان رجل من بنى عدى بن النجار يقال له: أحمر، عدا على رجل من أصحاب تبع، حين نزل بهم، فقتله. وذلك أنه وجده في عذق له يجده[1]، فضربه بمنجله فقتله، وقال: إنما التمر لمن أبره[2]. فزاد ذلك تبعًا حنقًا عليهم.

فاقتتلوا، فتزعم الأنصار أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل! فيعجبه ذلك منهم، ويقول: والله إن قومنا لكرام.

=الآلهة﴾ الآية، فزل فيهم: ﴿ص والقرآن ذى الذكر﴾.

وأخرجه الترمذى فى كتاب التفسير (٣٢٣٢). وذكره ابن كثير فى البداية (٣/١٣٥).

(١) العذق: كل غصن له شعب، وقيل: هى النخلة عند أهل الحجاز، ويجده: أى يقطعه.

(٢) أبره: أى أصلحه، والأبر: العامل، والمؤتبر: رب الزرع، والمأبور: الزرع والنخل المصلح. انظر: اللسان (مادة أبر).

فبينا تبع على ذلك من حربهم إذ جاءه حبران من أحبار يهود من بنى قريظة عالمان راسخان، حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها، فقالا له: أيها الملك: لا تفعل، فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة. فقال لهما: ولم ذلك؟ قالا: هى مهاجر نبى يخرج من هذا الحرم من قريش فى آخر الزمان، تكون داره وقراره.

فتناهى ورأى أن لهما علمًا، وأعجبه ما سمع منهما، فانصرف عن المدينة واتبعهما على دينهما.

وهذا الحى من الأنصار يزعمون أنه إنما كان حنق تبع على هذا الحى من يهود، الذين كانوا بين أظهرهم، وإنما أراد هلاكهم فمنعوهم منه، ثم انصرف عنهم، ولذلك قال فى شعره:

حنقًا على سبطين حلا يثربا   أولى لهم بعقاب يوم مفسد

وذكر ابن هشام أن الشعر الذى فيه هذا البيت مصنوع[1].

وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها، فوجه إلى مكة وهى طريقه إلى اليمن، حتى إذا كان بين عسفان وأمج[2] أتاه نفر من هذيل بن مدركة فقالوا له: أيها الملك: ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة؟ قال: بلى. قالوا: بيت بمكة يعبده أهله ويصلون عنده[3].

وإنما أراد الهذليون هلاكه بذلك، لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك وبغى عنده. فلما أجمع لما قالوا أرسل إلى الحبرين، فسألهما عن ذلك، فقالا: ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك، وما نعلم بيتًا لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره، ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعًا.

---

(١) قال السهيلى فى الروض الأنف (١/٢٩): الشعر الذى زعم ابن هشام أنه مصنوع، قد ذكره فى كتاب التيجان وهو قصيد مطول أوله:

ما بال عينيك لا تنام كأنما   كحلت مآقيها بسم الأسود

انتهى باختصار.

(٢) أمج: بفتح أوله وثانيه وبالجيم، قرية جامعة ما بين مكة والمدينة على أميال من قديد لها سور، وهى كثيرة المزارع وأهلها من خزاعة، وبها آثار كثيرة وبها نخل، وهى محلة بنى نمرة وجماعة من الناس. انظر: الروض المعطار (صـ ٣٠، ٣١).

(٣) انظر: السيرة (١/٣٧).

قال: فماذا تأمرانى أن أصنع إذا قدمت عليه؟ قالا: تصنع عنده ما يصنع أهله، تطوف به وتعظمه وتكرمه، وتحلق رأسك عنده، وتذلل له حتى تخرج من عنده.

قال: فما يمنعكما أنتما من ذلك؟ قالا: أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم، وإنه لكما أخبرناك، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها حوله، وبالدماء التى يهريقون عنده، وهم نجس أهل شرك؛ أو كما قالا له.

فعرف نصحهما وصدق حديثهما، فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم. ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت ونحر عنده، وحلق رأسه، وأقام بمكة ستة أيام فيما يذكرون ينحر بها للناس ويطعم أهلها ويسقيهم العسل.

ورأى فى المنام أن يكسو البيت فكساه الخصف[1]، ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك، فكساه المعافر، ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك، فكساه الملاء والوصائل، فكان تبع فيما يزعمون أول من كسا البيت.

وأوصى به ولاته من جرهم، وأمرهم بتطهيره، وأن لا يقربوه دمًا ولا ميتة ولا مئلاة[2] وهى المحائض وجعل له بابًا ومفتاحًا. ثم خرج موجهًا إلى اليمن بمن معه من جنوده وبالحبرين، حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه، فأبوا عليه، حتى يحاكموه إلى النار التى كانت باليمن.

ويقال: إنه لما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك، وقالوا: لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا. فدعاهم إلى دينه وقال: إنه خير من دينكم. قالوا: فحاكمنا إلى النار، قال: نعم.

وكان باليمن فيما يزعم أهل اليمن، نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم.

فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به فى دينهم، وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما متقلديها، حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذى تخرج منه، فخرجت النار عليهم، فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها، فذمرهم من حضرهم من الناس وأمروهم بالصبر لها. فصبروا حتى غشيتهم فأكلت الأوثان وما قربوا معها، ومن حمل ذلك من

---

(١) الخصف: سفائف تسف من سعف النخل، فيسوى منها شقائق تلبس بيوت الأعراب، وقيل: هى ثياب غلاظ. انظر: اللسان (مادة/ خصف).

(٢) مئلاة: هى خرقة الحائض وهى أيضًا خرقة النائحة.

رجال حمير.

وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما تعرق جباههما لم تضرهما. فأصفقت عند ذلك حمير على دينه. من هنالك وعن ذلك كان أصل اليهودية باليمن.

قال ابن إسحاق(١): وقد حدثنى محدث أن الحبرين ومن خرج من حمير إنما اتبعوا النار ليردوها وقالوا: من ردها فهو أولى بالحق فدنا منها رجال حمير بأوثانهم ليردوها، فدنت منهم لتأكلهم، وحادوا عنها ولم يستطيعوا ردها، ودنا منها الحبران بعد ذلك، وجعلا يتلوان التوراة وتنكص(٢) عنهما حتى رداها إلى مخرجها الذى خرجت منه.

فأصفقت عند ذلك حمير على دينهما. فالله أعلم أى ذلك كان.

وكان رئام بيتًا لهم يعظمونه وينحرون عنده ويكلمون منه إذ كانوا على شركهم، فقال الحبران لتبع: إنما هو شيطان يفتنهم فخل بيننا وبينه. قال: فشأنكما به. فاستخرجا منه فيما يزعم أهل اليمن، كلبًا أسود، فذبحاه ثم هدما ذلك البيت.

قال ابن إسحاق(٣): فبقاياه اليوم كما ذكر لى، بها آثار الدماء التى كانت تهراق عليه. وتبع هذا هو أحد الملوك الذين وطئوا البلاد ودوخوا الأرض ودانت لهم الممالك، ويقال: إنه المسمى فى قوله تعالى: ﴿**أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم**﴾ [الدخان: ٣٧]، ذلك لأنه لما آمن فى آخر عمره ووحد، خالفته حمير فتفرقوا عنه، فانتقهم الله منهم.

وحكى الحسن بن أحمد الهمدانى: أنه أول ملك بشر برسول الله ﷺ وآمن به، وهو رتب الملوك وأبناء الملوك من قومه فى قبائل العرب والعجم ومدائنها وأمصارها، وكان لكل قبيلة من العرب ولكل حى من العجم ملك من قومه، إما حميرى وإما كهلانى يسمع له ويطاع.

ويذكر أنه جمع الملوك وأبناء الملوك والأقاول وأبناء الأقاول من قومه، وقال لهم:

أيها الناس: إن الدهر نفد أكثره ولم يبق إلا أقله، وإن الكثير إذا قل إلى النقصان

---

(١) انظر: السيرة (١/٤٠ - ٤١).

(٢) تنكص: من النكوص: وهو الإحجام عن شىء، وقيل: هو الرجوع إلى الوراء، وقيل: هو القهقرى. انظر: اللسان (مادة/ نكص).

(٣) انظر: السيرة (١/٤١).

أجرى منه إلى الزيادة، سارعوا إلى المكارم، فإنها تقربكم إلى الفلاح، واعملوا، على أنه من سلم من يومه لم يسلم من غده، ومن سلم من الغد لا يسلم مما بعده، وإنكم لتؤوبون مآب الآباء والأجداد وتصيرون إلى ما صاروا إليه، والموت كل يوم أقرب إلى المرء من حياته منه، ولكل زمان أهل، ولكل دائرة سبب، وسبب عطلان هذه الفترة التى من عز فيها بز من هو دونه، ظهور نبى يعز الله به دينه ويخصه بالكتاب المبين، على يأس من المرسلين، رحمة للمؤمنين وحجة على الكافرين، فليكن ذلك عندكم وعند أبنائكم بعدكم وأبناء أبنائكم قرنا فقرنا وجيلاً فجيلا، ليتوقعوا ظهوره وليؤمنوا به وليجتهدوا فى نصره على كافة الأحياء، حتى يفىء الناس له إلى أمر الله.

وأنشد له:

شهدت على أحمد أنه	رسول من الله بارى النسم
فلو مد دهرى إلى دهره	لكنت وزيرًا له وابن عم
وألزمت طاعته كل من	على الأرض من عرب أو عجم
ولكن قولى له دائمًا	سلام على أحمد فى الأمم

فى أبيات ذكرها، وأشعار غير هذا أثبت فى «إكليله» كثيرًا منها.

قال: وذكروا أن الملوك وأبناء الملوك من حمير وكهلان لم تزل تتوقع ظهور النبى ﷺ وتبشر به، وتوصى بالطاعة له والإيمان به والجهاد معه والقيام بنصره، منذ ذلك العصر إلى أن ظهر رسول الله ﷺ، فكانوا بذلك حين بعث من أحرص الناس على نصره وطاعته.

فمنهم من سمع له وأطاع وآمن به قبل أن يراه، ومنهم من وصل إليه كتابه فسمع وأطاع وآمن وصدق، ومنهم من آواه ونصره وأيده وجاهد فى سبيل الله دونه، نطق بذلك الكتاب المنير فى قوله: ﴿**والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ [الحشر: ٩].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم**﴾ [المائدة: ٥٤، ٥٥] إلى آخر الآية.

قال الهمدانى: عن أبى الحسن الخزاعى يقال: إنهم همدان. ثم أشار إلى ذكر سيف

ابن ذى يزن للنبى ﷺ وما ألقاه من أمره إلى جده عبد المطلب عند وفادته عليه.

قال: وذكروا أنه لم يكن لسيف بن ذى يزن ذلك العلم فى قصة النبى ﷺ إلا من جهة تبع، وما تناهى إليه مما كان ألقاه إليهم وعرفهم به من خبر النبى ﷺ، وسنذكر خبر سيف هذا فى موضعه إن شاء الله.

وأما موقع النصرانية[1] بأرض العرب، فقد كان بنجران بقايا من أهل دين عيسى ابن مريم على الإنجيل، أهل فضل واستقامة من أهل دينهم، لهم رأس يقال له عبد الله ابن الثامر، وكان موقع أصل ذلك الدين بنجران، وهى بأوسط أرض العرب فى ذلك الزمان، وأهلها وسائر العرب كلها أهل أوثان يعبدونها أن رجلاً من بقايا أهل ذلك الدين يقال له: «فيميون»، وقع بين أظهرهم فحملهم عليه فدانوا به.

فحدث وهب بن منبه: أن فيميون كان رجلاً صالحًا مجتهدًا زاهدًا فى الدنيا مجاب الدعوة، وكان سائحًا ينزل القرى، لا يعرف فى قرية إلآ خرج منها إلى قرية لا يعرف بها، وكان لا يأكل إلا من كسب يده، وكان بناء يعمل الطين، وكان يعظم الأحد، فإذا كان يوم الأحد لم يعمل فيه شيئًا، وخرج إلى فلاة من الأرض، فصلى فيها حتى يمسى.

قال: وكان فى قرية من قرى الشام يعمل عمله ذلك مستخفيًا، ففطن لشأنه رجل من أهلها يقال له صالح، فأحبه صالح حبا لم يحب شيئًا كان قبله مثله، فكان يتبعه حيث ذهب ولا يفطن له فيميون، حتى خرج مرة فى يوم الأحد إلى فلاة من الأرض كما كان يصنع، وقد أتبعه صالح، وفيميون لا يدرى، فجلس صالح منه منظر العين مستخفيًا منه لا يحب أن يعلم بمكانه، وقام فيميون يصلى، فبينا هو يصلى إذ أقبل نحوه التنين، الحية ذات الرءوس السبعة، فلما رآها فيميون دعا عليها فماتت، ورآها صالح ولم يدر ما أصابها فخاف عليه فعيل عوله فصرخ: يا فيميون التنين قد أقبل نحوك.

فلم يلتفت إليه وأقبل على صلاته حتى فرغ منها.

وأمسى فانصرف وعرف أنه قد عرف، وعرف صالح أنه قد رأى مكانه، فقال له: يا فيميون تعلم والله أنى ما أحببت شيئًا قط حبك، وقد أردت صحبتك والكينونة معك حيثما كنت.

قال: ما شئت، أمرى كما ترى، فإن علمت أنك تقوى عليه فنعم. فلزمه صالح، وقد كاد أهل القرية يفطنون لشأنه، وكان إذا ما جاءه العبد به الضر دعا له فشفى، وإذا

(١) راجع السيرة (٤٦/١)، وما بعدها. أمر عبد الله بن الثامر، وأصحاب الأخدود.

دعى إلى أحد به ضر لم يأته.

وكان لرجل من أهل القرية ابن ضرير، فسأل عن شأن فيميون، فقيل له: إنه لا يأتى أحدًا دعاه، ولكنه رجل يعمل للناس البنيان بالأجر، فعمد الرجل إلى ابنه ذلك فوضعه فى حجرته وألقى عليه ثوبًا، ثم جاءه فقال: يا فيميون، إنى قد أردت أن أعمل فى بيتى عملاً، فانطلق معى حتى تنظر إليه فأشارطك عليه.

فانطلق معه حتى دخل حجرته، ثم قال له: ما تريد أن تعمل فى بيتك هذا؟ قال: كذا وكذا. ثم انتشط الثوب عن الصبى وقال: يا فيميون: عبد من عباد الله أصابه ما ترى فادع الله له. فدعا له فيميون فقام الصبى ليس به بأس[1].

وعرف فيميون أنه قد عرف، فخرج من القرية، واتبعه صالح، فبينا هو يمشى فى بعض الشام إذ مر بشجرة عظيمة فناداه منها رجل فقال: يا فيميون ما زلت أنتظرك وأقول: متى هو جاء، حتى سمعت صوتك فعرفت أنك هو، لا تبرح حتى تقوم على، فإنى ميت الآن.

قال: فمات. وقام عليه حتى واراه، ثم انصرف ومعه صالح، حتى وطئا بعض أرض العرب، فاحتفظتهما سيارة من بعض العرب، فخرجوا بهما حتى باعوهما بنجران، وأهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد فى كل سنة، إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلى النساء، ثم خرجوا إليها فعكفوا عليها يومًا.

فابتاع فيميون رجل من أشرافهم، وابتاع صالحًا آخر، فكان فيميون إذا قام من الليل يصلى فى بيت أسكنه إياه سيده، استسرج له البيت نورًا حتى يصبح، من غير مصباح، فرأى ذلك سيده فأعجبه ما يرى منه، فسأله عن دينه فأخبره به، وقال له فيميون: إنما أنتم فى باطل، إن هذه النخلة لا تضر ولا تنفع، لو دعوت عليها إلهى الذى أعبد أهلكها، وهو الله وحده لا شريك له، فقال له سيده: فافعل، فإنك إن فعلت دخلنا فى

---

(١) قال فى الروض الأنف (٤٦/١): ذكر الطبرى قصة الرجل الذى دعى لابنه فشفى بأتم مما ذكره ابن إسحاق، قال: فيميون حين دخل الرجل وكشف له عن ابنه: اللهم عبد من عبادك دخل عليه عدوك فى نعمتك ليفسدها عليه فاشفه وعافه وامنعه منه، فقام الصبى ليس به بأس، فتبين من هذا أن الصبى كان مجنونًا لقوله: دخل عليه عدوك: يعنى الشيطان، وليس هذا فى حديث ابن إسحاق.

دينك وتركنا ما نحن عليه.

فقام فيميون فتطهر وصلى ركعتين، ثم دعا الله عليها، فأرسل الله ريحًا فجعفتها من أصلها فألقتها. فاتبعه عند ذلك أهل نجران على دينه، فحملهم على الشريعة من دين عيسى ابن مريم عليه السلام، ثم دخلت عليهم الأحداث التى دخلت على أهل دينهم بكل أرض، فمن هنالك كانت النصرانية بنجران، فيما ذكر وهب بن منبه فى حديثه هذا.

وأما محمد بن كعب القرظى، وبعض أهل نجران، فذكروا أن أهل نجران كانوا أهل شرك، يعبدون الأوثان، وكان فى قرية من قراها ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر، فلما نزلها فيميون ولم يسمه محمد بن كعب ولا شركاؤه فى الحديث، قالوا: رجل نزلها ابتنى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التى بها الساحر، فجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر، فبعث الثامر ابنه عبد الله مع غلمان أهل نجران، فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من صلاته وعبادته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه، حتى أسلم فوحد الله وعبده، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام، حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم، وكان يعلمه، فكتمه إياه، فقال: يا ابن أخى إنك لن تحمله، أخشى عليك ضعفك عنه.

والثامر أبو عبد الله بن الثامر، لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان.

فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن به عنه وتخوف ضعفه فيه، عمد إلى قداح فجمعها، ثم لم يبق لله اسمًا يعلمه إلا كتبه فى قدح، لكل اسم قدح، حتى إذا أحصاها أوقد لها نارًا، ثم جعل يقذفها فيها قدحًا قدحًا، حتى إذا مر بذلك الاسم الأعظم قذف فيها بقدحه فوثب القدح حتى خرج منها لم تضره شيئًا، فأخذه ثم أتى صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الذى كتمه، فقال: وما هو؟ قال: هو كذا وكذا قال: وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع، قال أى ابن أخى، قد أصبته فأمسك على نفسك وما أظن أن تفعل.

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحدًا به ضر إلا قال له: يا عبد الله، أتوحد الله وتدخل فى دينى فأدعو الله فيعافيك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم. فيوحد الله ويسلم، ويدعو له فيشفى.

حتى لم يبق بنجران أحد به ضر إلا أتاه فاتبعه على أمره ودعا له فعوفى. حتى رفع شأنه إلى ملك نجران، فدعاه فقال: أفسدت على أهل قريتى وخالفت دينى ودين آبائى، لأمثلن بك.

قال: لا تقدر على ذلك، فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح على رأسه فيقع إلى الأرض ليس به بأس، وجعل يبعث به إلى مياه بنجران بحور لا يقع أحد فيها إلا هلك، فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس..

فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر: إنك والله لا تقدر على قتلى حتى توحد الله فتؤمن بما آمنت به، فإنك إن فعلت سلطك الله على، فقتلتنى. فوحد الله ذلك الملك وشهد شهادة عبد الله بن الثامر، ثم ضربه بعصا فى يده فشجه شجة غير كبيرة فقتله، وهلك الملك مكانه.

واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر، وكان على ما جاء به عيسى من الإنجيل وحكمه، ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث. فمن هنالك كان أصل النصرانية بنجران.

قال ابن إسحاق: فهذا حديث محمد بن كعب القرظى وبعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر، فالله أعلم أى ذلك كان[١].

وحديث عبد الله بن الثامر هذا قد ورد فى الصحيح مرفوعًا إلى النبى ﷺ من طرق ثابتة، خرجه مسلم بن الحجاج من حديث صهيب، وبينه وبين حديث ابن إسحاق اختلاف، وفيه مع ذلك زوائد تحسن لأجلها إعادة الحديث.

فروى عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن صهيب، أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إنى قد كبرت، فابعث إلى غلاما أعلمه السحر.

فبعث إليه غلاما يعلمه، فكان فى طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسنى أهلى، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسنى الساحر.

---

(١) انظر: السيرة (١/٤٦ - ٤٨).

فبينما هو كذلك، إذا أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل. فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس.

فرماها فقتلها، ومضى الناس. فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أى بنى، أنت اليوم أفضل منى، قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل على. وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء، فسمع به جليس للملك، وكان قد عمى، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتنى.

قال: إنى لا أشفى أحدًا، إنما يشفى الله، فإن آمنت بالله، دعوت الله فشفاك. فآمن بالله، فشفاه الله. فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربى، قال: ولك رب غيرى؟! قال: ربى وربك الله.

فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجىء بالغلام فقال له الملك: أى بنى، قد بلغ من سحرك ما يبرىء الأكمة والأبرص وتفعل وتفعل. فقال: إنى لا أشفى أحدًا، إنما يشفى الله.

فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب. فجىء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار فوضع فى مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه. ثم جىء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى، فدعا بالمنشار فوضع فى مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه.

ثم جىء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به، وصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا.

وجاء يمشى إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه فى قرقورة فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك.

فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله.

فقال للملك: إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟.

قال: تجمع الناس فى صعيد واحد، وتصلبنى على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتى، ثم ضع السهم فى كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمنى، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى. فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم فى كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم فى صدغه، فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم فمات.

فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام. فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس.

فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخدت وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه، يعنى فأقحموه فيها. أو قيل له: اقتحم. ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه، اصبرى فإنك على الحق!!.

فهذا حديث مسلم عن عبد الله بن الثامر وأهل نجران، وإن وقعت الأسماء فيه مبهمة، فقد فسرها العلماء بما ورد من ذلك مبينًا فى حديث ابن إسحاق وغيره، وجعلوا ذلك كله حديثًا واحدًا[١].

وذكر ابن إسحاق[٢] أنه لما كان من اجتماع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر ما تقدم الحديث به، سار إليهم ذو نواس بجنوده، فدعاهم إلى اليهودية، وخيرهم بينها وبين القتل، فاختاروا القتل، فخد لهم الأخدود، فحرق بالنار، وقتل بالسيف، ومثل بهم، حتى قتل منهم قريبًا من عشرين ألفًا.

ففى ذى نواس وجنده ذلك أنزل الله على نبيه محمد ﷺ: ﴿**قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد**﴾ إلى آخر الآيات[٣].

والأخدود هنا هو الحفر المستطيل فى الأرض، كالخندق والجدول، ويقال أيضًا لأثر السيف والسوط والسكين ونحوه فى الجلد: أخدود.

---

(١) انظر: غوامض الأسماء المبهمة لابن بشكوال (٥٣٤/٨، ٥٣٥). وانظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (١٧/٦)، الدر المنثور للسيوطى (٣٣٤/٦).

(٢) انظر: السيرة (٤٨/١).

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣٩٠/٨)، والطبرى فى التاريخ (٤٣٦/١).

قال ابن إسحاق: ويقال: كان فيمن قتل ذو نواس عبد الله بن الثامر رأسهم وإمامهم. وحدث عن عبد الله بن أبى بكر أنه حدث أن رجلا من أهل نجران حفر خربة من خرب نجران فى زمن عمر بن الخطاب، فوجدوا عبد الله بن الثامر تحت دفن منها قاعدًا واضعًا يده على ضربة فى رأسه ممسكًا عليها بيده، فإذا أخرت يده عنها تثعبت دمًا، وإذا أرسلت يده ردها عليها فأمسك دمها، فى يده خاتم مكتوب فيه: ربى الله. فكتب فيه إلى عمر، فكتب إليهم: أن أقروه على حاله وردوا عليه الدفن الذى كان عليه. ففعلوا[١].

وذو نواس هذا هو زرعة بن تبان أسعد أبى كرب، وهو تبع الآخر، وقد تقدم خبره، وابنه زرعة ذو نواس هذا كان من صغار بنيه، وصار إليه ملك اليمن، وأمر حمير بعد أبيه بزمان.

وذلك أنه ملك اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة، ربيعة بن نضر بن أبى حارثة ابن عمرو بن عامر، وكان من سادات اليمن وأهل الشرف منها. وهو صاحب الرؤيا التى يعرف من تأويلها استيلاء الحبشة على اليمن، والبشارة بظهور النبى ﷺ.

وذلك أنه رأى رؤياه هالته وفظع بها، فلم يدع كاهنًا ولا ساحرًا ولا عائفًا ولا منجمًا من أهل مملكته إلا جمعه إليه، فقال لهم: إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها، فأخبرونى به وبتأويلها. قالوا: اقصصها علينا نخبرك بتأويلها. قال: إنى إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها، إنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها.

فقال له رجل منهم: فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سطيح[٢] وشق[٣]، فإنه

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣٩١/٨) من طريق ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثنى محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أنه حدث أن رجلاً.... وساق القصة.

(٢) اسم سطيح هو: ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدى بن مازن غسان. وقال السهيلى فى الروض الأنف (٢٧/١): كان سطيح جسمًا ملقى لا جوارح له، فيما يذكرون، ولا يقدر على الجلوس إلا إذا غضب انتفخ فجلس، وكان شعِه شِعَّة إنسان، فيما يذكرون، إنما له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة، ويذكر عن وهب بن منبه أنه قال: قيل لسطيح: أنى لك هذا العلم؟ فقال: لى صاحب من الجن استمع أخبار السماء من طور سيناء حين كلم الله تعالى موسى عليه السلام، فهو يؤدى إلىّ من ذلك ما يؤديه.

(٣) اسم شق هو ابن صعب، بن يشكر بن رهم بن أفرك بن قسر بن عبقر بن أنمار بن إراش، وأنمار أبو بجيلة وخثعم. قاله ابن إسحاق. انظر: السيرة (٣٠/١) وما بعدها.

ليس أحد أعلم منهما، فهما يخبرانه بما سأل عنه. فبعث إليهما، فقدم عليه سطيح قبل شق، فقال: إنى قد رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها، فأخبرنى بها، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها.

فقال: أفعل. رأيت حممة خرجت من ظلمة فوقعت بأرض تهمة فأكلت منها كل ذات جمجمة.

فقال له الملك: ما أخطأت منها شيئًا يا سطيح، فما عندك فى تأويلها؟.

فقال: أحلف بما بين الحرتين من حنش، ليهبطن أرضكم الحبش، فليملكن ما بين أبين[١] إلى جرش[٢].

فقال الملك: وأبيك يا سطيح، إن هذا لنا لغائظ موجع، فمتى هو كائن؟ أفى زمانى أم بعده؟ قال: لا، بل بعده بحين، أكثر من ستين أو سبعين يمضين من السنين.

قال: أفيدوم ذلك من ملكهم أو ينقطع؟ قال: بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين، ثم يقاتلون ويخرجون منها هاربين. قال: ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم؟ قال: يليه إرم بن ذى يزن، يخرج عليهم من عدن فلا يترك منهم أحدًا باليمن.

قال: أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال: نبى زكى، يأتيه الوحى من قبل العلى. قال: وممن هو هذا النبى؟ قال: رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر، يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر.

قال: وهل للدهر من آخر؟ قال: نعم، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون. قال: أحق ما تخبرنى؟ قال: نعم، والشفق والغسق، والقمر إذا اتسق، إن ما أنبأتك لحق، ثم قدم عليه شق، له كقوله لسطيح، وكتمه ما قال سطيح، لينظر أيتفقان أم يختلفان.

قال: نعم، رأيت حممه خرجت من ظلمة فوقعت بين روضة وأكمة فأكلت منها كل ذات نسمة. فلما قال له ذلك عرف أن قد اتفقا وأن قولهما واحد، إلا أن سطيحا

---

(١) أبين: بلاد باليمن، قيل فيه بكسر الألف وفتحها، وهو اسم رجل فى الزمن القديم إليه تنيب عدن وأبين من بلاد اليمن وبينها وبين عدن اثنا عشر ميلاً. انظر: الروض المعطار (صـ١١).

(٢) جرش: بلاد باليمن، وهى من البلاد التى كان أهلها اتخذوا الأصنام بعد دين إسماعيل عليه السلام، وهم مذحج بن أدد، وهم الذين قالوا: ﴿لا تذرون آلهتكم ولا تذورن ودًا ولا سواعًا﴾ انظر: الروض المعطار (صـ١٥٩).

قال: «بأرض تهمة، فأكلت منها كل ذات جمجمة»، وقال شق: «وقعت بين روضة وأكمة فأكلت منها كل ذات نسمة».

فقال: الملك: ما أخطأت يا شق منها شيئًا، فما عندك فى تأويلها؟ قال: أحلف بما بين الحرتين من إنسان، ليهبطن أرضكم السودان، فليغلبن على كل طفلة البنان، وليملكن ما بين أبين إلى نجران[1].

قال له الملك: وأبيك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجع، فمتى هو كائن؟ أفى زمانى أم بعده؟ فقال، لا، بل بعده بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شان، ويذيقهم أشد الهوان.

قال: ومن هذا العظيم الشأن؟ قال: غلام ليس بدنى ولا مدن يخرج من بيت ذى يزن. قال: أفيدوم سلطانه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع برسول مرسل يأتى بالحق والعدل، بين أهل الدين والفضل، يكون الملك فى قومه إلى يوم الفصل.

قال: وما يوم الفصل؟ قال: يوم يجزى فيه الولاة، يدعى فيه من السماء بدعوات، يسمع منها الأحياء والأموات، ويجمع فيه الناس للميقات، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات.

قال: أحق ما تقول؟ قال: إى ورب السماء والأرض وما بينهما من رفع وخفض، إن ما أنبأتك لحق ما فيه أمض، فوقع فى نفس ربيعة بن نضر ما قالا، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور بن خرزاد فأسكنهم الحيرة.

فمن بقية ولد ربيعة بن نضر فيما يزعمون، النعمان بن المنذر، فهو فى نسب اليمن وعلمهم: النعمان بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدى بن ربيعة بن نضر، ذلك الملك.

وقد تقدم قول من قال من العلماء أن النعمان من ولد قنص بن معد. وقد قيل أيضًا إن النعمان من ولد الساطرون صاحب الحضر، وهو حصن عظيم كالمدينة على شاطئ الفرات، وهو الذى ذكره عدى بن زيد فى قوله:

---

(١) نجران: من بلاد اليمن، سميت بنجران بن زيد بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. انظر: الروض المعطار (صـ٥٧٣).

وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجـ ـلة تجبى إليه والخابور
شاده مرمرًا وجلله كلـ ـسًا فللطير في ذراه وكور[1]
لم يهبه ريب المنون فباد الملـ ـك عنه فبابه مهجور

وأما شق وسطيح، فإن شقا هو ابن صعب بن يشكر من بنى أنمار بن نزار أبى بجيلة وخثعم. وكان شق إنسان فيما زعموا، إنما له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحد، ولذلك سمى بشق[2].

وسطيح هو ربيع بن ربيعة من بنى ذبيان بن عدى بن مازن بن غسان، وكانت العرب تسميه الذيبى، وإياه عنى ميمون بن قيس الأعشى بقوله:

ما نظرت ذات أشفار كنظرتها حقا كما نطق الذيبى إذ سجعا

وإنما قيل له سطيح، لأنه كان جسدًا ملقى له رأس وليس له جوارح، فيما ذكروا. وكان لا يقدر على الجلوس، فإذا غضب انتفخ وجلس. وذكر أنه قيل له: أنى لك هذا العلم؟

فقال: لى صاحب من الجن استمع أخبار السماء من طور سيناء، حين كلم الله منه موسى عليه السلام، فهو يؤدى إلى من ذلك ما يؤديه. وعاش سطيح بعد هذا الحديث زمانًا طويلاً، حتى أدرك مولد رسول الله ﷺ.

فذكر الخطابى وغيره من حديث هانئ بن هانئ المخزومى، وأتت عليه مائة وخمسون سنة، أنه لما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجس إيوان كسرى فسقط منه أربع عشرة شرفة، وغاضت بحيرة ساوة، وفاض وادى السماوة، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك ألف عام. وأرى الموبذان إبلاً صعابًا تقود خيلا عرابًا، قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها.

فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك فصبر عليه تشجعًا، حتى إذا عيل صبره رأى ألا يدخر ذلك عن قومه ومرازبته، فلبس تاجه وقعد على سريره، ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده قال: أتدرون فيم بعثت فيكم؟ قالوا: لا، إلا أن يخبرنا الملك.

فبينا هم كذلك، إذ ورد عليه كتاب بخمود النار، فازداد غما إلى غمه، ثم أخبر بما

---

(١) شاده: أى بناه وأعلاه. والمرمر: الرخام. وجلله: أى كساه. وكلسا: هو ما طلى به الحائط من حصى وجيار. وكور: جمع وكر وهو عش الطائر.

(٢) انظر: السيرة (١/٣١).

رأى وما هاله من ذلك. فقال الموبذان: وأنا أصلح الله الملك قد رأيت فى هذه الليلة رؤيا. ثم قص عليه رؤيا فى الإبل. فقال: أى شيء يكون هذا يا موبذان؟ قال: حدث يكون من ناحية العرب. وكان أعلمهم فى أنفسهم.

فكتب عند ذلك كسرى إلى النعمان بن المنذر أن يوجه إليه برجل عالم بما يريد أن يسأله عنه. فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن بقيلة الغسانى. فلما قدم عليه قال له الملك: ألك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ قال: ليخبرنى الملك عما أحب، فإن كان عندى منه علم وإلا أخبرته بمن يعلمه.

فأخبره بالذى وجه إليه فيه. فقال له: علم ذلك عند خال لى يسكن مشارف الشام، يقال له سطيح. قال: فائته فسله عما سألتك عنه، ثم ائتنى بتفسيره. فخرج عبد المسيح حتى أتى إلى سطيح وقد أشفى على الموت، فسلم عليه وكلمه، فلم يرد عليه سطيح جوابا، فأنشأ عبد المسيح يقول:

أصم أم يسمع غطريف اليمن ... أم فاد فازلم به شأو العنن
يا فاصل الخطة أعيت من ومن ... أتاك شيخ الحى من آل سنن
وأمه من آل ذئب بن حجن ... أبيض فضفاض الرداء والبدن
رسول قيل العجم ينمى للوسن ... لا يرهب الوغد ولا ريب الزمن
تجوب بى الأرض علنداة شزن ... ترفعنى وجنًا وتهوى فيه وجن
حتى أتى عارى الجآحى والقطن ... تلفه فى الريح بوغاء الدمن

فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه يقول: عبد المسيح، أتى إلى سطيح، على جمل مشيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك بنى ساسان، لارتجاس الإيوان وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رأى إبلاً صعابًا تقود خيلاً عرابًا قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها.

عبد المسيح، إذا كثرت التلاوة، وظهر صاحب الهراوة، وفاض وادى السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شامًا، يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات، وكل ما هو آتٍ آت.

ثم قضى سطيح مكانه، فلما قدم عبد المسيح على كسرى أخبره بمقالة سطيح. فقال: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكًا قد كانت أمور. فملك منهم عشرة إلى أربع سنين وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضى الله عنه.

فلما هلك ربيعة بن نصر رجع ملك اليمن كله إلى حسان بن تبان أسعد أبى كرب، فسار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض الأعاجم حتى إذا كان بأرض العراق كرهت حمير وقبائل اليمن المسير معه وأرادوا الرجعة إلى بلادهم وأهلهم، فكلموا أخًا له يقال له عمرو وكان معه فى جيشه فقالوا له: اقتل أخاك حسان وتملكك علينا وترجع بنا إلى بلادنا. فأجابهم.

فاجتمعوا على ذلك إلا ذو رعين الحميرى، فإنه نهاه عن ذلك ولم يقبل منه. فقال ذو رعين الحميرى:

ألا من يشترى سهرًا بنوم ... سعيد من يبيت قرير عين

فإما حمير غدرت وخانت ... فمعذرة الإله لذى رعين

ثم كتبهما فى رقعة وختم عليها ثم أتى بها عمرًا فقال له: ضع لى هذا الكتاب عندك. ففعل. ثم قتل عمرو أخاه حسان ورجع بمن معه إلى اليمن(١).

فلما نزل اليمن منع منه النوم وسلط عليه السهر، فلما جهده ذلك سأل الأطباء والحزاة(٢) من الكهان والعرافين عما به؛ فقال له قائل منهم: إنه والله ما قتل رجل أخاه أو ذا رحمه بغيًا على مثل ما قتلت أخاك عليه إلا ذهب نومه وسلط عليه السهر.

فلما قيل له ذلك جعل يقتل كل من أمره بقتل أخيه حسان من أشراف اليمن حتى خلص إلى ذى رعين. فقال له ذو رعين: إن لى عندك براءة. قال: وما هى؟ قال: الكتاب الذى دفعت إليك.

فأخرجه فإذا فيه البيتان، فتركه ورأى أنه قد نصحه. وهلك عمرو، فمرج أمر حمير عند ذلك وتفرقوا، فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت المملكة، يقال له لخنيعة(٣) ينوف ذو شناتر(٤)، فقتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة منهم، فقال قائل من حمير:

تقتل أبناها وتنفى سراتها ... وتبنى بأيديها لها الذل حمير

---

(١) انظر: السيرة (١/٤١).

(٢) الحزاة: جمع حاز، والحازى هو الذى ينظر فى الأعضاء وفى خيلان الوجه يتكهن، وقال الليث: هو الكاهن.

(٣) لخنيعة: قال ابن دريد: وهو من اللخع، وهو استرخاء فى الجسم.

(٤) ذو شناتر: الشناتر هو الأصابع بلغة حمير، واحدها: شنترة.

تدمـر دنياهـا بطيـش حلومهـا وما ضيعت مـن دينها فهـو أكثر
كـذاك القـرون قبـل ذاك بظلمهـا وإسرافهـا تأتـى الشـرور فتخسـر

وكان لخنيعة امرءًا فاسقًا يعمل عمل قوم لوط، فكان يرسل إلى الغلام من أبناء الملوك فيقع عليه فى مشربة له قد صنعها لذلك لئلا يملك بعد ذلك، ثم يطلع من مشربته تلك إلى حرسه وجنده قد أخذ مسواكًا فجعله فى فيه علامة للفراغ من خبيث فعله.

حتى بعث إلى زرعة ذى نواس، بن تبان أسعد، أخى حسان، وكان صبيًا صغيرًا حين قتل حسان، ثم شب غلامًا جميلاً وسيمًا ذا هيئة وعقل، فلما أتاه رسوله عرف ما يريد به، فأخذ سكينًا حديدًا لطيفًا فخبأه بين قدمه ونعله، ثم أتاه فلما خلا معه وثب إليه، فواثبه ذو نواس فوجأه حتى قتله، ثم حز رأسه فوضعه فى الكوة التى كان يشرف منها، ووضع مسواكه فى فيه ثم خرج على الناس، فسألوه فأشار لهم إلى الرأس فنظروا فإذا رأس لخنيعة مقطوع، فخرجوا فى أثر ذى نواس حتى أدركوه، فقالوا: ما ينبغى أن يملكنا غيرك إذ أرحتنا من هذا الخبيث فملكوه، واجتمعت عليه حمير وقبائل اليمن، فكان آخر ملوك حمير، ويسمى يوسف، فأقام فى ملكه سنين(١).

قال ابن قتيبة: ثمانيا وستين سنة. إلى أن كان منه فى أهل نجران ما تقدم ذكره، فكان ذلك سببًا لاستئصال ملكه واستيلاء الحبشة على اليمن.

* * *

ذكر دخول الحبشة أرض اليمن
واستيلائهم على ملكها وذكر السبب فى ذلك
مع ما يتصل به من أمر الفيل

ولما انتهى زرعة ذو نواس إلى ما انتهى إليه بأهل نجران من التحريق والقتل، أفلت منهم رجل من سبأ يقال له دوس ذو ثعلبان على فرس له، فسلك الرمل فأعجزهم، فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصر صاحب الروم، فاستنصره على ذى نواس وجنوده، وأخبره بما بلغ منهم، فقال له: بعدت بلادك منا، ولكنى سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين، وهو أقرب إلى بلادك.

فكتب إليه يأمره بنصره والطلب بثأره.

---

(١) انظر: السيرة (١/٤٣).

فقدم دوس على النجاشى بكتاب قيصر، فبعث سبعين ألفًا من الحبشة، وأمر عليهم رجلاً منهم يقال له أرياط، ومعه فى جنده أبرهة الأشرم، فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس، فسار إليه ذو نواس فى حمير، ومن أطاعه من قبائل اليمن، فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه، فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجه فرسه إلى البحر، ثم ضربه فدخل به، فخاض به ضحضاح[1] البحر حتى أفضى به إلى غمره فأدخله فيه، فكان آخر العهد به.

ودخل أرياط اليمن، فملكها[2].

فأقام بها سنين فى سلطانه ذلك، ثم نازعه فى أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبشى، حتى تفرقت الحبشة عليهما، فانحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم، ثم سار أحدهما إلى الآخر، فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط أنك لا تصنع بأن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئًا، فابرز لى وأبرز لك، فأينا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده. فأرسل إليه أرياط: أنصفت.

فخرج إليه أبرهة، وكان رجلاً قصيرًا لحيمًا، وكان ذا دين فى النصرانية، وخرج إليه أرياط، وكان رجلاً عظيمًا جميلاً طويلاً، وفى يده حربة له، وخلف أبرهة غلام له يقال له عتودة يمنع ظهره، فرفع أرياط الحربة فضرب أبرهة يريد يافوخه[3]، فوقعت الحربة على جبهة أبرهة، فشرمت حاجبه وأنفه وعينه وشفته، فبذلك سمى أبرهة الأشرم.

وحمل عتودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله. فانصرف جند أرياط إلى أبرهة، فاجتمعت عليه الحبشة باليمن، وودى أبرهة أرياط. فلما بلغ ذلك النجاشى غضب غضبًا شديدًا وقال: عدا على أميرى فقتله بغير أمرى! ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته.

فحلق أبرهة رأسه وملأ جرابًا من تراب اليمن ثم بعث به إلى النجاشى، وكتب إليه: أيها الملك إنما كان أرياط عبدك، وأنا عبدك، اختلفنا فى أمرك، وكل طاعته لك، إلا أنى كنت أقوى على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس منه وقد حلقت رأسى كله حين

---

(١) الضحضاح: هو الماء القليل يكون فى الغدير، وقيل: هو الماء اليسير، وقيل: هو ما لا غرق فيه ولا له غمر، وقيل: هو الماء إلى الكعبين إلى أنصاف السوق. انظر: اللسان (مادة، ضحح).

(٢) انظر: السيرة (١/٤٩ - ٥٠).

(٣) يافوخه: أى وسط رأسه ويجمع على يآفيخ.

بلغني قسم الملك، وبعثت إليه بجراب من تراب أرضي ليضعه تحت قدميه، فيبر قسمه في.

فلما انتهى ذلك إلى النجاشي رضي عنه، وكتب إليه: أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمرى[١].

فأقام بها، ثم إن أبرهة بنى القليس[٢] بصنعاء، فبنى كنيسة لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض، ثم كتب إلى النجاشي: إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب.

فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من النسأة أحد بني فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة، فخرج حتى أتى القليس فأحدث فيها، ثم لحق بأرضه، فأخبر بذلك أبرهة؛ فقال: من صنع هذا؟ فقيل له: رجل من أهل هذا البيت الذى تحج العرب إليه بمكة، لما سمع قولك: «أصرف إليها حج العرب» غضب فجاء فقعد فيها، أى أنها ليست لذلك بأهل[٣].

فغضب عند ذلك أبرهة، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه. ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثم ساروا وخرج معه بالفيل. وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به، ورأوا جهاده حقا عليهم، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام.

فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله، وما يريد من هدمه وإخرابه.

فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله، فهزم ذو نفر وأصحابه، وأخذ له ذو نفر فأتى به أسيرًا، فلما أراد قتله قال له ذو نفر: أيها الملك لا تقتلنى، فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيرًا لك من قتلى.

وكان أبرهة رجلاً حليمًا، فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق.

---

(١) انظر: السيرة (٥٣/١ - ٥٤).

(٢) القليس: هى الكنيسة التى بناها أبرهة على باب صنعاء، وسميت القليس لارتفاع بنيانها وعلوه.

(٣) انظر: السيرة (٥٦/١).

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلى خثعم[١]: شهران وناهس، ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة، وأخذ له نفيل أسيرًا فأتى به، فلما هم بقتله قال له نفيل: أيها الملك لا تقتلنى فإنى دليلك بأرض العرب، وهاتان يداى لك على قبيلى خثعم، شهران وناهس، بالسمع والطاعة.

فخلى سبيله وخرج به معه يدله، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب ابن مالك الثقفى فى رجال ثقيف، فقالوا له: أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد. يعنون اللات، إنما تريد البيت الذى بمكة، ونحن نبعث من يدلك عليه.

فتجاوز عنهم. واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة، فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة. فخرج أبرهة ومعه أبو رغال، حتى أنزله المغمس، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك، فرجمت قبره العرب، فهو القبر الذى يرجم الناس بالمغمس[٢].

فلما نزل أبرهة المغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها.

فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك.

وبعث أبرهة حناطة الحميرى إلى مكة وقال له: سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول لك: إنى لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم. فإن هو لم يرض حربى فائتنى به.

---

(١) قال فى الروض الأنف: خثعم اسم جبل سمى به بنو عفرس لأنهم نزلوا عنده، ويقال: إنهم تخثعموا بالدم عند حلف عقدوه، وقيل: بل خثعم ثلاث: شهران، وناهس، وأكلب عند أهل النسب هو ابن لهيعة بن نزار.

(٢) المغمس: مكان يبعد عن مكة بثلثى فرسخ، وهو فى طرف الحرم فيه برك محمود فيل أبرهة حين توجه به إلى مكة لأخراب الكعبة بزعمه، والميم الثانية فى المغمس مكسورة وروى فتحها فأما الأولى فمضمومة.

فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له: عبد المطلب بن هاشم. فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة؛ فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك منه طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم أو كما قال فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمته، وإن يخل بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه.

فقال حناطة: فانطلق إليه، فإنه قد أمرنى أن آتيه بك.

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه، حتى أتى المعسكر فسأل عن ذى نفر، وكان له صديقًا، حتى دخل عليه فى محبسه فقال له: يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير فى يدى ملك ينتظر أن يقتله غدوًا أو عشيًا! ما عندى غناء فى شىء مما نزل بك، إلا أن أنيسًا سائس الفيل صديق لى فسأرسل إليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك. قال: حسبى.

فبعث: ذو نفر إلى أنيس فقال له: إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عير مكة يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رءوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتى بعير، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت. قال: أفعل.

فكلم أنيس أبرهة، قال له: أيها الملك، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك، فأذن له فليكلمك فى حاجته. ووصفه له بما وصفه ذو نفر لأنيس.

فإذن له أبرهة، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجمله وأعظمه، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه. ثم قال لترجمانه: قل له: حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان. فقال: حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى. فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتنى حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى! أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه!؟.

قال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع منى. قال: أنت وذاك. ويزعم بعض أهل العلم أنه كان ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة يعمر ابن نفاثة بن عدى بن الدئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وهو يومئذ سيد بنى بكر، وخويلد بن واثلة الهذلى، وهو يومئذ سيد هذيل، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة

على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت، فأبى عليهم، فالله أعلم أكان ذلك أم لا.

فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التى أصاب له، فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شعف الجبال والشعاب، تخوفًا عليهم من معرة الجيش.

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده. فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هـم إن العبـد يمـ ـنع رحله فامنع حلالك[1]

لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدوا محالك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها.

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبى جيشه. وكان اسم الفيل محمودًا، وأبرهة مجمع لهدم البيت والانصراف إلى اليمن، فلما وجهوا الفيل إلى مكة قام نفيل بن حبيب إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه فقال له: ابرك محمود وارجع راشدًا من حيث جئت، فإنك فى بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه فبرك الفيل وخرج نفيل يشتد حتى أصعد فى الجبل.

وضربوا الفيل ليقوم فأبى، وضربوه فى رأسه بالطبرزين[2] ليقوم فأبى، فأدخلوا محاجن لهم فى مراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى، فوجهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك.

وأرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار، يحملها حجر فى منقاره وحجران فى رجليه، أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وليس كلهم أصابت.

وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا ويسألون عن نفيل بن حبيب

---

(١) لاهم: أى اللهم، والعرب تحذف منها الألف واللام للتخفيف، حلالك: جمع حلة وهى جماعة البيوت وربما أريد بها القوم المجتمعون لأنهم يحلون فيها.

(٢) الطبرزين: آلة من الحديد. وقال السهيلى فى الروض الأنف: طبر هو الفأس، وذكر الطبرستان بفتح الباء وقال معناه: شجر قطع بفأس.

ليدلهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته:

أين المفر والإله الطالب   والأشرم المغلوب ليس الغالب

وقال نفيل أيضًا:

ألا حييت عنا يا ردينا   نعمناكم مع الإصباح عينا
ردينة لو رأيت ولا تريه   لدى جنب المحصب ما رأينا
إذا لعذرتني وحمدت أمرى   ولم تأسى على ما فات بينا
حمدت الله إذ أبصرت طيرًا   وخفت حجارة تلقى علينا
فكل القوم يسأل عن نفيل   كأن علىَّ للحُبْشان دينًا[١]

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل، وأصيب أبرهة فى جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة منها اتبعتها مدة تمث قيحًا ودما، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، فيما يزعمون.

ويقال: إنه أول ما رئيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام، وإنه أول ما رئى بها مرائر الشجر الحرمل[٢] والحنظل والعشر[٣] ذلك العام.

فلما بعث الله محمدًا ﷺ كان مما يعد الله على قريش من نعمته عليهم وفضله، ما رد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم، فقال تبارك وتعالى: **﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾**.

وقالت عائشة رضى الله عنها: لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعمين مقعدين يستطعمان.

قال ابن إسحاق: فلما رد الله الحبشة عن مكة وأصابهم ما أصابهم به من النقمة،

---

(١) ذكر هذه الأبيات فى السيرة (١/٦٢). فقال:

ألا حييت عنا يا ردينا   نعمناكم مع الإصباح عينا
أتانا قابسٌ منكم عشاءً   فلم يقدر لقابسكم لدينا

ثم ذكرها سواء.

(٢) الحرمل: حب نبات معروف يخرج السوداء والبلغم إسهالاً.

(٣) العشر: شجر مر يحمل ثمرًا كالأترج وليس فيه منتفع.

أعظمت العرب قريشًا، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم، فقالوا فى ذلك أشعارًا يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة وما رد عن قريش من كيدهم، فقال عبد الله بن الزبعرى السهمى:

تنكلوا عن بطن مكة إنها ... كانت قديمًا لا يرام حريمها
لم تخلق الشعرى ليالى حرمت ... إذ لا عزيز من الأنام يرومها
سائل أمير الحبش عنها ما رأى ... ولسوف ينبى الجاهلين عليمها
ستون ألفًا لم يؤوبوا أرضهم ... بل لم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهم ... والله من فوق العباد يقيمها

وقال أبو قيس بن الأسلت الأنصارى ثم الخطمى، من قصيدة سيأتى ذكرها بجملتها:

فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا ... بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاء مصدق ... غداة أبى يكسوم هادى الكتائب
كتيبته بالسهل تمشى ورجله ... على القاذفات فى رءوس المناقب[1]
فلما أتاكم نصر ذى العرش ردهم ... جنود المليك بين ساف وحاصب
فولوا سراعًا هاربين ولم يؤب ... إلى قومه ملحبش غير عصائب[2]

وقالت سبيعة بنت الأحب بن زبينة من بنى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور، لابنها خارجة بن عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، تعظم عليه حرمة مكة وتنهاه عن البغى فيها وتذكر تبعًا وتذلله لها، والفيل وهلاك جيشه عندها:

أبنى لا تظلم بمكـ ... ـة لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بنـ ... ـى ولا يغرنك الغرور
أبنى من يظلم بمكـ ... ـة يلق أطراف الشرور
أبنى يضرب وجهه ... ويلح بخديه السعير
أبنى قد جربتها ... فوجدت ظالمها يبور
الله آمنها وما ... بنيت بعرصتها قصور
والله آمن طيرها ... والعصم[3] تأمن فى ثبير
ولقد غزاها تبع ... فكسا بنيتها الحبير[4]

---

(١) القاذفات: أعالى الجبال البعيدة. والمناقب: جمع منقبة، وهى الطريق فى رأس الجبل.

(٢) ملحبش: أى من الحبش، والعصائب: الجماعات.

(٣) العصم: جمع أعصم، وهو الوعل، قيل له ذلك لأنه يعتصم بالجبال.

(٤) الحبير: هو الثور الحبير: أى هو الجديد الناعم، وقيل: الثياب الموشية.

وأذل ربـــــى ملكــــــه فيهـــا فـــأوفى بـــالنذور
يمشـــى إليهـــا حافيًـــا بفنائهـــا ألفـــا بعـــير
ويظـــل يطعـــم أهلهـــا لحـــم المهـــارى والجـــزور
يســـقيهم العســـل المصفـــى والرحيـــض مـــن الشـــعير
والفيـــل أهلـــك جيشـــه يرمـــون فيهـــا بـــالصخور
والملـــك فـــى أقصـــى البـــلاد وفـــى الأعـــاجم والجزيـــر
فاسمـــع إذا حـــدثت وافـــهم كيـــف عاقبـــة الأمـــور

ولم يزل شعراء أهل الجاهلية يذكرون ذلك فى أشعارهم معتدين بصنع الله فيه، وقد جرى على ذلك شعراء الإسلام، فقال الفرزدق بن غالب التميمى، يمدح سليمان بن عبد الملك بن مروان ويعرض للحجاج بن يوسف، ويذكر الفيل وجيشه:

فلما طغى الحجاج حين طغى بـه غنى قال إنى مرتق فـى السلالم
فقال كما قال ابن نوح سأرتقى إلى جبل مـن خشية الماء عاصم
رمى الله فى جثمانه مثل ما رمى عـن القبلة البيضاء ذات المحارم
جنودًا تسوق الفيل حتى أعادهم هباءً وكانوا مطرخيمى الطراخم[٣]
نصـر كنصر البيت إذ ساق فيله إليـه عظيم المشركين الأعاجم

قال ابن إسحاق[٢]: فلما هلك أبرهة ملك الحبشة ابنه يكسوم بن أبرهة، وبه كان يكنى، فلما هلك يكسوم ملك اليمن فى الحبشة أخوه مسروق بن أبرهة.

فلما طال البلاء على أهل اليمن، خرج سيف بن ذى يزن الحميرى حتى قدم على قيصر ملك الروم، فشكا إليه ما هم فيه، وسأله أن يخرجهم عنه، ويليهم هو، ويبعث إليهم من شاء من الروم، فلم يشكه.

فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر، وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق، فشكا إليه أمر الحبشة، فقال له النعمان: إن لى على كسرى وفادة فى كل عام، فأقم حتى يكون ذلك؛ ففعل.

ثم خرج معه فأدخله على كسرى، وكان كسرى يجلس فى إيوان مجلسه الذى فيه تاجه، وكان تاجه مثل القلنقل العظيم، فيما يزعمون، يضرب فيه الياقوت والزبرجد

(٣) الطراخم: جمع الطرخم وهو الممتلئ كبرًا المتعظم.
(٢) انظر: السيرة (١/٦٩).

واللؤلؤ بالذهب والفضة، معلقًا بسلسلة من ذهب فى رأس طاقة فى مجلسه ذلك، وكانت عنقه لا تحمل تاجه، إنما يستر بالثياب حتى يجلس فى مجلسه ذلك، ثم يدخل رأسه فى تاجه، فإذا استوى فى مجلسه كشفت عنه الثياب، فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلا برك هيبة له.

فلما دخل عليه سيف بن يزن برك، وقيل: إنه لما دخل عليه طأطأ رأسه، فقال الملك: إن هذا لأحمق! يدخل على من هذا الباب الطويل ثم يطأطئ رأسه!.

فقيل ذلك لسيف، فقال: إنما فعلت هذا لهمى، لأنه يضيق عنه كل شىء. ثم قال: أيها الملك، غلبنا على بلادنا الأغربة.

فقال كسرى: أى الأغربة؟ الحبشة أم السند؟ قال: بل الحبشة، فجئتك لتنصرنى ويكون ملك بلادى لك. قال: بعدت بلادك مع قلة خيرها، فلم أكن لأورط جيشًا من فارس بأرض العرب، لا حاجة لى بذلك.

ثم أجازه بعشرة آلاف درهم وافٍ، وكساه كسوة حسنة. فلما قبض ذلك سيف خرج فجعل ينثر تلك الورق للناس. فبلغ ذلك الملك فقال: إن لهذا لشأنا.

ثم بعث إليه فقال: عمدت إلى حباء الملك تنثره للناس! فقال: وما أصنع بهذا؟! ما جبال أرضى التى جئت منها إلا ذهب وفضة، يرغبه فيها.

فجمع كسرى مرازبته[1] فقال: ماذا ترون فى أمر هذا الرجل وما جاء له؟ فقال قائل: أيها الملك إن فى سجونك رجالاً حبستهم للقتل، فلو أنك بعثتهم معه، فإن يهلكوا كان ذلك الذى أردت، وإن ظفروا كان ملكًا ازددته.

فبعث معه كسرى من كان فى سجونه، وكانوا ثمانمائة رجل، واستعمل عليهم رجلاً منهم يقال له: وهرز وكان ذا سن فيهم وأفضلهم حسبًا وبيتًا، فخرجوا فى ثمان سفائن فغرقت سفينتان ووصلت إلى ساحل عدنٍ ست سفائن.

فجمع سيف إلى وهرز من استطاع من قومه وقال له: رجلى مع رجلك حتى نموت جميعًا أو نظفر جميعًا. قال وهرز: أنصفت.

وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن وجمع إليه جنوده، فأرسل إليهم وهرز ابنًا له ليقاتلهم فيختبر قتالهم، فقتل ابن وهرز، فزاده ذلك حنقًا عليهم. فلما تواقف الناس

(١) مرازبته: أى وزراءه. وقيل: هو الفارس الشجاع المقدم عند الملك.

على مصافهم قال وهرز: أرونى ملكهم. قالوا له: أترى رجلاً على الفيل عاقدًا تاجه على رأسه، بين عينيه ياقوتة حمراء؟. قال: نعم. قالوا: ذلك ملكهم. قال: اتركوه.

فوقفوا طويلاً ثم قال: علام هو؟ قالوا: قد تحول على الفرس. قال: اتركوه. فوقفوا طويلاً. ثم قال: علام هو؟ قالوا: على البغلة. قال وهرز: بنت الحمار! ذل وذل ملكه، إنى سأرميه، فإن رأيتم أصحابه لم يتحركوا فاثبتوا حتى أوذنكم، فإنى قد أخطأت الرجل، وإن رأيتم القوم قد استداروا ولاثوا به فقد أصبت الرجل، فاحملوا عليهم.

ثم أوتر قوسه، وكانت فيما يزعمون، لا يوترها غيره من شدتها، وأمر بحاجبيه فعصبا له، ثم رمى فصك الياقوتة التى بين عينيه فتغلغلت النشابة فى رأسه حتى خرجت من قفاه؟ ونكس عن دابته، واستدارت الحبشة ولاثت به، وحملت عليهم الفرس وانهزموا فقتلوا وهربوا فى كل وجه.

وأقبل وهرز ليدخل صنعاء، حتى إذا أتى بابها قال: لا تدخل رايتى منكسة أبدًا، اهدموا الباب. فهدم، ثم دخلها ناصبًا رايته. وقال فى ذلك أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى، وتروى لابنه أمية بن أبى الصلت:

ليطلب الوتر أمثال ابن ذى يزن	مذيم فى البحر للأعداء أحوالا
يهم قيصر لما حاز رحلته	فلم يجد عنده بعض الذى سالا
حتى أتى ببنى الأحرار يحملهم	إنك عمرى لقد أسرعت قلقالا[1]
لله درهم من عصبة خرجوا	ما إن أرى لهم فى الناس أمثالا
بيضًا مرازبة غلبا أساورة	أسدًا تربب فى الغيضات أشبالا
أرسلت أسدًا على سود الكلاب فقد	أضحى شريدهم فى الأرض فلالا[2]
فاشرب هنيئًا عليك التاج مرتفعًا	فى رأس غمدان دارا منك محلالا[3]
واشرب هنيئًا فقد شالت نعامتهم	وأسبل اليوم فى برديك إسبالا[4]

(١) بنو الأحرار: أراد بهم الفرس، والقلقال: التحرك بسرعة.

(٢) الفلال: جمع فل وهم القوم المنهزمون.

(٣) رأس غمدان: قال ياقوت فى معجم البلدان (٤/ ٢١٠): قيل إنه قصر بناه يشرح بن يحصب على أربعة أوجه وبنى فى داخله قصرًا على سبعة سقوف، وقيل: إن الذى بناه سليمان بن داود عليهما السلام، وقيل: إنه بين صنعاء وطيوه وهدم غمدان فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه.

(٤) شالت نعامتهم: أى هلكوا، والإسبال: إرخاء الثوب.

تلك المكارم لا قعبان من لبن   شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

وأقام وهرز والفرس باليمن، فمن بقية ذلك الجيش من الفرس الأبناء الذين باليمن اليوم.

وكان ملك الحبشة باليمن منذ دخلها أرياط إلى أن أخرجتهم الفرس عنها اثنتين وسبعين سنة، وفق ما ذكره سطيح وشق فى تأويل رؤيا ربيعة بن نصر.

ثم مات وهرز، فأمر كسرى ابنه المرزبان بن وهرز على اليمن، ثم مات المرزبان فأمر كسرى ابنه التينجان بن المرزبان، ثم مات فأمر كسرى ابن التينجان، ثم عزله وولى باذان، فلم يزل عليها حتى بعث الله محمدًا ﷺ[1].

فلما بلغ مبعثه كسرى كتب إلى باذان: إنه بلغنى أن رجلاً من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى، فسر إليه فاستتبه، فإن تاب وإلا فابعث إلى برأسه. فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله ﷺ، فكتب إليه رسول الله ﷺ: إن الله قد وعدنى أن يقتل كسرى فى يوم كذا من شهر كذا.

فلما أتى باذان الكتاب توقف لينظر وقال: إن كان نبيًا فسيكون ما قال. فقتل الله كسرى على يد ابنه شيرويه فى اليوم الذى قال رسول الله ﷺ. فلما بلغ ذلك باذان بعث بإسلام من معه إلى رسول الله ﷺ. فقالت الرسل من الفرس: إلى من نحن يا رسول الله، قال: «أنتم منا وإلينا أهل البيت».

قال الزهرى: فمن ثم قال رسول الله ﷺ: «سلمان منا أهل البيت»[2].

وكأن هذه الأخبار وإن قطعت بعض ما كنا بسبيله من أمر بنى قصى فلها أيضًا من الإفادة بنحو ما قصدناه وحسن الإمتاع بالشأن المناسب لما اعتمدناه ما يحسن اعتراضها وينظم فى سلك واحد مع ما مر من ذلك أو يأتى أغراضها.

وعلينا بمعونة الله فى تجويد الترتيب لذلك كله تطبيق المنفصل ورد هذه الأحاديث المتفرقة فى حكم الحديث المتصل، فنطيل ولا نمل، ونقصر فلا نخل كل ذلك ببركة

---

(١) انظر: السيرة (١/٧٤).

(٢) انظر الحديث فى: المستدرك للحاكم (٣/٥٩٨)، المعجم الكبير للطبرانى (٦/٢٦١)، تفسير الطبرى (٢١/٨٥)، البداية والنهاية لابن كثير (٢/١٨٠، ٤/٩٩)، طبقات ابن سعد (٧/٦٥)، كنز العمال للمتقى الهندى (٣٣٣٤٠)، دلائل النبوة للبيهقى (٣/٤١٨)، كشف الخفاء للعجلونى (١/٥٥٨)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٣٠).

المختار الذى يممنا تخليد أوليته، وتيمنا بخدمة آثاره وسيرته، صلى الله عليه وعلى آله الأكرمين وصحابته.

وكنا انتهينا من شأن بنى قصى بعده، إلى ما تراضوا به بينهم من الصلح على أن تكون السقاية والرفادة لبنى عبد مناف، وتكون حجابة البيت واللواء والندوة لبنى عبد الدار، على نحو ما جعله قصى إلى أبيهم.

فولى السقاية والرفادة هاشم بن عبد مناف. وذلك أن عبد شمس كان رجلاً سفارًا قلما يقيم بمكة، وكان مقلاً ذا ولد كثير، وكان هاشم موسرًا، وكان فيما يزعمون، إذا حضر الحج قام صبيحة هلال ذى الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها، فيحض قومه على رفادة الحاج التى سنها لهم قصى، ويقول لهم فى خطبته: يا معشر قريش، أنتم سادة العرب، أحسنها وجوهًا، وأعظمها أحلامًا، وأوسط العرب أنسابًا، وأقرب العرب بالعرب أرحامًا.

يا معشر قريش، إنكم جيران بيت الله، أكرمكم الله بولايته وخصكم بجواره دون بنى إسماعيل، حفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله، يعظمون حرمة بيته، فهم ضيف الله، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، فأكرموا ضيفه وزواره، فإنهم يأتون شعثًا غبرًا من كل بلد على ضوامر كالقداح، وقد أزحفوا وأرملوا فأقروهم وأعينوهم، فورب هذه البنية لو كان لى مال يحمل ذلك لكفيتكموه، وأنا مخرج من طيب مالى وحلاله، ما لم تقطع فيه رحم، ولم يؤخذ بظلم، ولم يدخل فيه حرام فواضعه، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعله. وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيبًا لم تقطع فيه رحم، ولم يؤخذ غصبًا[١].

فكانت بنو كعب بن لؤى وسائر قريش يجتهدون فى ذلك ويترافدون عليه، ويخرجون ذلك من أموالهم حتى يأتوا به هاشم بن عبد مناف فيضعوه فى داره، حتى أن كان أهل البيت ليرسلون بالشىء اليسير على قدرهم. وكان هاشم يخرج فى كل سنة مالاً كثيرًا. وكان قوم من قريش أهل يسار، ربما أرسل كل إنسان منهم بمائة مثقال هرقلية.

وكان هاشم يأمر بحياض من أدم، فتجعل فى موضع زمزم من قبل أن تُحفر، ثم يستقى فيها من البيار التى بمكة، فيشرب الحاج.

(١) انظر: السيرة (١/ ١٢٠).

وكان يطعمهم أول ما يطعمهم بمكة قبل التروية بيوم، ثم بمنى، وبجمع وعرفة، يثرد لهم الخبز واللحم، والخبز والسمن، والسويق والتمر، ويحمل لهم الماء، فيطعمهم ويسقيهم حتى يصدروا.

وكان اسم هاشم عمرًا، ويقال له: عمرو العلا. وإنما سمى هاشمًا لهشمه الخبز بمكة لقومه، وهو فيما يذكرون أول من سن الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء والصيف. وفى ذلك يقول بعض شعرائهم:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه قوم بمكة مسنتين عجاف[1]

سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الإصياف

وذلك أن قريشًا كانوا قومًا تجارًا، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة، إنما يقدم الأعاجم بالسلع فيشترون منهم ويتبايعون فيما بينهم، ويبيعون ممن حولهم من العرب. فلم يزالوا كذلك حتى ذهب هاشم إلى الشام، فكان يذبح كل يوم شاة، فيصنع جفنة ثريد، ويدعو من حوله فيأكلون.

وكان هاشم من أحسن الناس وأجملهم، إلى شرف نفسه وكرم فعاله. فذكر لقيصر فدعا به فلما رآه وكلمه أعجب به وأدناه. فلما رأى هاشم مكانه منه، طلب منه أمانًا لقومه ليقدموا بلاده بتجاراتهم. فأجابه إلى ذلك. وكتب لهم قيصر كتاب أمان لمن أتى منهم.

فأقبل هاشم بذلك الكتاب، فكلما مر بحى من أحياء العرب أخذ من أشرافهم إيلافًا لقومه يأمنون به عندهم وفى أرضهم من غير حلف، وإنما هو أمان الطريق.

واستوفى أخذ ذلك ممن بين مكة والشام، فأتى قومه بأعظم شىء أتوا به قط بركة، فخرجوا بتجارة عظيمة، وخرج هاشم معهم ليوفيهم إيلافهم الذى أخذ لهم من العرب، فلم يزل يوفيهم إياه، ويجمع بينهم وبين العرب حتى قدم بهم الشام.

فهلك هاشم فى سفره ذلك بغزة من أرض الشام. وكان أول بنى عبد مناف هلكًا.

وخرج المطلب بن عبد مناف، وهو يسمى الفيض لسماحته وفضله، إلى اليمن، فأخذ من ملوكهم أمانًا لمن تجر من قومه إلى بلادهم، ثم أقبل يأخذ لهم الإيلاف ممن

---

(١) هشم الثريد: به سمى هاشم بن عبد مناف أبو عبد المطلب جد النبى ﷺ كان يسمى عمرًا وهو أول من ثرد الثريد وهشمه فسمى هاشمًا، فقالت فيه ابنته هذه الأبيات، وقال ابن برى: الشعر لابن الزبعرى. انظر هذا القول والبيت فى اللسان (١٢/٦١١).

كان على طريقه من العرب، كما فعل أخوه هاشم، حتى أتى مكة، ثم رجع إلى اليمن، فمات بردمان.

وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى ملك الحبشة، فأخذ منه أمانًا كذلك لمن تجر من قريش إلى بلاده، ثم أخذ الإيلاف من العرب الذين على الطريق إليها حتى بلغ مكة، وتوفى بها فقبره بالحجون.

وخرج نوفل بن عبد مناف، وكان أصغر ولد أبيه إلى العراق، فأخذ عهدًا من كسرى لتجار قريش، ثم أقبل يأخذ الإيلاف ممن مر به من العرب حتى قدم مكة، ثم رجع إلى العراق فمات بسلمان من ناحية العراق.

فجبر الله قريشًا بهؤلاء النفر الأربعة من بنى عبد مناف، فنمت أموالهم، واتسعت تجارتهم، فكان بنو عبد مناف يسمون لأجل ذلك المجيزين، والعرب تسميهم أقداح النضار، لطيب أحسابهم، وكرم فعالهم.

وقال مطرود بن كعب الخزاعى يبكيهم جميعًا حين أتاه نعى نوفل منهم، وكان آخرهم هلكًا:

يا ليلة هيجت ليلاتى	إحدى ليالى القسيات[(١)]
وما أقاسى من هموم وما	عالجت من رزء المنيات
إذا تذكرت أخى نوفلاً	ذكرنى بالأوليات
ذكرنى بالأزر الحمر والـ	ـأردية الصفر القشيبات[(٢)]
أربعة كلهم سيد	أبناء سادات لسادات
ميت بردمان وميت بسلـ	ـمان وميت بين غزات[(٣)]
وميت أسكن لحدًا لدى الـ	ـحجون شرقى البنيات
أخلصهم عبد مناف فهم	من لوم من لام بمنجاة
إن المغيرات وأبناءها	من خير أحياء وأموات[(٤)]

---

(١) القسيات: من القسوة أى لا لين عندهن ولا رأفة، والقسى: الشديد.

(٢) القشيبات: واحدها القشب: وهو الجديد والناس تقول ثوب قشيب أى جديد.

(٣) ردمان: بفتح أوله وهو فعلان من الردم وهو موضع باليمن. سلمان: اسم ماء قديم جاهلى وبه قبر نوفل بن عبد مناف، وكان فى الجاهلية طريق إلى تهامة من العراق. غزات: أى غزة.

(٤) المغيرات: المقصود بها بنو المغيرة وهو عبد مناف.

وإنما سماهم المغيرات لأن عبد مناف أباهم كان اسمه المغيرة. فقيل لمطرود فيما يزعمون: لقد قلت فأحسنت، ولو كان أفحل مما هو كان أحسن.

فقال: أنظرونى ليالى. فمكث أيامًا ثم قال:

يا عين جودى وأذرى الدمع وانهمرى ... وابكى على السر من كعب المغيرات

يا عين واسحنفرى بالدمع واحتفلى ... وابكى خبيئة نفسى فى الملمات[(١)]

وابكى على كل فياض أخى ثقة ... ضخم الدسيعة وهاب الجزيلات[(٢)]

محض الضريبة عالى الهم مختلق ... جلد النجيزة ناء بالعظيمات[(٣)]

صعب البديهة لا نكس ولا وكل ... ماضى العزيمة متلاف الكريمات

صقر توسط من كعب إذا نسبوا ... بحبوحة المجد والشم الرفيعات

ثم اندبى الفيض والفياض مطلبا ... واستخرطى بعد فياض بجمات

أمسى بردمان عنا اليوم مغتربا ... يا لهف نفسى عليه بين أموات

وابكى لك الويل إما كنت باكية ... لعبد شمس بشرقى البنيات

وهاشم فى ضريح وسط بلقعة ... تسفى الرياح عليه بين غزات

ونوفل كان دون القوم خالصتى ... أمسى بسلمان فى رمس بمومات

لم ألق مثلهم عجمًا ولا عربا ... إذا استقلت بهم أدم المطيات

أمست ديارهم منهم معطلة ... وقد يكونون زينا فى السريات[(*)]

أفناهم الدهر أم كلت سيوفهم ... أم كل من عاش أزواد المنيات

أصبحت أرضى من الأقوام بعدهم ... بسط الوجوه وإلقاء التحيات

يا عين وابكى أبا الشعث الشجيات ... يبكينه حسرا مثل البليات[(**)]

يبكين أكرم من يمشى على قدم ... يعولنه بدموع بعد عبرات

---

(١) اسحنفرى: أى أديمى الدمع. والخبيئة: الشيء المخبوء يريد أنه ذخيرة عند نزول الشدائد.

(٢) الدسيعة: العطية وضخم الدسيعة أى كثير العطية.

(٣) محض الضريبة: أى مخلص الطبيعة. والمختلق: تام الخلق. والنجيزة: الطبيعة من العين المختلف من كل شيء.

(*) السريات: جمع سرية وهى طائفة من الجيش يبلغ أقصاه أربعمائة وسموا بذلك لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم من الشيء السرى النفيس وقيل سموا بذلك لأنهم ينفذون سرًا وخفية. انظر: اللسان (مادة سرًا).

(**) البليات: جمع بلية، وهى: الناقة كانت تشد فى الجاهلية عند قبر صاحبها حتى تموت، وكانوا يقولون: يبعث صاحبها عليها. انظر: اللسان (مادة بلا).

يبكين شخصًا طويل الباع ذا فخر ... أبى الهضيمة فراج الجليلات
يبكين عمرو العلا إذ حان مصرعه ... سمح السجية بسام العشيات
يبكينه مستكينات على حزن ... يا طول ذلك من حزن وعولات
يبكين لما جلاهن الزمان له ... خضر الخدود كأمثال الحميات
محتزمات على أوساطهن لما ... جر الزمان من أحداث المصيبات
أبيت ليلى أراعى النجم من ألم ... أبكى وتبكى معى شجوى بنياتى
ما فى القروم لهم عدل ولا خطر ... ولا لمن تركوا شروى بقيات
أبناؤهم خير أبناء وأنفسهم ... خير النفوس لدى جهد الأليات
كم وهبوا من طمر سابح أرن ... ومن طمرة نهب فى طمرات
ومن سيوف من الهندى مخلصة ... ومن رماح كأشطان الركيات
ومن توابع مما يفضلون بها ... عند المسائل من بذل العطيات
فلو حسبت وأحصى الحاسبون معى ... لم أحص أفعالهم تلك الهنيات
هم المدلون إما معشر فخروا ... عند الفخار بأنساب نقيات
زين البيوت التى خلوا مساكنها ... فأصبحت منهم وحشًا خليات
أقول والعين لا ترقا مدامعها ... لا يبعد الله أصحاب الرزيات

وكان هاشم بن عبد مناف قد قدم المدينة فتزوج بها سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار، وكانت قبله عند أحيحة بن الجلاح فيما ذكر ابن إسحاق. قال: وكانت لا تنكح الرجال لشرفها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها، إن كرهت رجلاً فارقته.

فولدت لهاشم عبد المطلب فسمته شيبة[1]، فتركه هاشم عندها حتى كان وصيفًا أو فوق ذلك. ثم خرج إليه عمه المطلب ليقبضه فيلحقه ببلده وقومه، فقالت له سلمى: لست بمرسلته معك.

فقال لها المطلب: إنى غير منصرف حتى أخرج به معى، إن ابن أخى قد بلغ وهو غريب فى غير قومه، ونحن أهل بيت شرف فى قومنا نلى كثيرًا من أمرهم، ورهطه وعشيرته وبلده خير له من الإقامة فى غيرهم. أو كما قال.

وقال شيبة لعمه المطلب فيما يزعمون: لست بمفارقها إلا أن تأذن لى. فأذنت له

---

(١) قال الطبرى فى تاريخه (١/١/٥٠١): سمى شيبة لشيبة كانت فى رأسه ويكنى بأبى الحارث والحارث أكبر ولده.

ودفعته إليه، فاحتمله فدخل به مكة مردفه على بعيره، فقالت قريش: عبد المطلب ابتاعه. فبها سمى شيبة: عبد المطلب. فقال المطلب: ويحكم إنما هو ابن أخى هاشم قدمت به من المدينة[١].

وذكر الزبير أن شيبة إنما سمى عبد المطلب، لأن عمه المطلب لما قدم به من يثرب ودخل به مكة ضحوة مردفه خلفه والناس فى أسواقهم ومجالسهم، قاموا يرحبون به ويقولون: من هذا معك؟ فيقول: عبد لى ابتعته بيثرب، فلما كان العشية ألبسه حلة ابتاعها له، ثم أجلسه فى مجلس بنى عبد مناف وأخبرهم خبره، فجعل بعد ذلك يخرج فى تلك الحلة فيطوف فى سكك مكة، وكان أحسن الناس، فيقولون: هذا عبد المطلب، لقول المطلب فيه ذلك، فلج اسمه عبد المطلب، وترك شيبة.

وكان يقال لعبد المطلب: شيبة الحمد، وإنما سمى شيبة لأنه كان فى ذؤابته شعرة بيضاء.

ثم ولى عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب، فأقامها للناس وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون لقومهم من أمرهم قبله، وشرف فى قومه شرفًا لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم.

ويقال: كان يعرف فى عبد المطلب نور النبوة وهيبة الملك.

قال الزبير: ومكارم عبد المطلب أكثر من أن أحيط بها، كان سيد قريش غير مدافع نفسًا وأبا وبيتًا وجمالاً وبهاءً وفعالاً وكمالاً. فصلى الله على المنتخب من ذريته، المخصوص بأولية الفخر وآخريته، وعلى آله الأكرمين وعترته وسلم تسليمًا.

* * *

ذكر حفر عبد المطلب زمزم وما يتصل بذلك من حديث مولد رسول الله ﷺ

قد تقدم الخبر عن زمزم أنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، التى سقاه الله حين ظمأ وهو صغير.

---

(١) انظر: السيرة (١/١٢٥ - ١٢٦).

وكانت جرهم دفنتها حين ظعنوا من مكة بين صنمى قريش إساف ونائلة عند منحر قريش، فبقى أمرها كذلك إلى أن أمر عبد المطلب بن هاشم بحفرها.

فذكر ابن إسحاق(١) وغيره من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه، قال: قال عبد المطلب: إنى لنائم فى الحجر إذ أتانى آت فقال: احفر طيبة. قلت: وما طيبة؟ ثم ذهب عنى. فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه، فجاءنى فقال: احفر برة. فقلت: وما برة؟ ثم ذهب عنى.

فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه، فجاءنى فقال: احفر المضنونة. فقلت: وما المضنونة؟ ثم ذهب عنى. فلما كان الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه فجاءنى فقال: احفر زمزم. قلت: وما زمزم؟.

قال: لا تنزف أبدًا ولا تذم، تسقى الحجيج الأعظم، وهى بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل(٢). فلما بين له شأنها ودل على موضعها وعرف أنه قد صدق، غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث، ليس له يومئذ ولد غيره فحفر.

فلما بدا لعبد المطلب الطى كبر. فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه، فقالوا: يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقًا فأشركنا معك فيها. قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم.

قالوا له: فأنصفنا، فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها. قال: اجعلوا بينى وبينكم من شئتم نحاكمكم إليه. قالوا: كاهنة بنى سعد بن هذيم، قال: نعم. وكانت بأطراف الشام.

فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى أبيه من بنى عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر. قال: والأرض إذ ذاك مفاوز. قال: فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام فنى ماء عبد المطلب وأصحابه، فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم، وقالوا: إنا بمفازة ونحن نخشى على أنفسا مثل ما أصابكم.

فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال: ماذا

(١) انظر: السيرة (١/١٣٠).
(٢) قال السهيلى فى الروض الأنف (١/١٦٩): قرية النمل لا تحرث ولا تبذر وتجلب الحبوب إلى قريتها من كل جانب.

ترون؟ قالوا: ما رأينا إلا تبع لرأيك، فمرنا بما شئت. قال: فإنى أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه فى حفرته ثم واروه حتى يكون آخركم رجلاً واحدًا، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعًا.

قالوا: نعم ما أمرت به، فقام كل رجل منهم فحفر حفرته، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشًا. ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب فى الأرض ولا نبتغى لأنفسنا لعجز، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد، ارتحلوا.

فارتحلوا، حتى إذا فرغوا، ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون، تقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها، فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين من ماء عذب، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستقوا حتى ملأوا أسقيتهم.

ثم دعا القبائل من قريش، فقال: هلم إلى الماء، فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا. فجاءوا فشربوا واستقوا، ثم قالوا: قد والله قضى لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك فى زمزم أبدًا، إن الذى سقاك الماء بهذه الفلاة لهو الذى سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشدًا.

فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة وخلوا بينه وبينها. وفى غير حديث على ابن أبى طالب رضى الله عنه، أن عبد المطلب قيل له حين أمر بحفر زمزم:

ثم ادع بالماء الروى غير الكدر
يسقى حجيج الله فى كل مبر
ليس يخاف منه شيء ما عمر

فخرج عبد المطلب حين قيل له ذلك إلى قريش، فقال: تعلمون أنى قد أمرت أن أحفر زمزم، قالوا: فهل بين لك أين هى؟ قال: لا. قالوا: فارجع إلى مضجعك الذى رأيت فيه ما رأيت فإن يك حقا من الله يبين لك، وإن يك من الشيطان فلن يعود إليك.

فرجع عبد المطلب إلى مضجعه فنام فيه فأتى فقيل له: احفر زمزم، إنك إن حفرتها لم تندم، وهى تراث من أبيك الأعظم لا تنزف أبدًا ولا تذم، تستقى الحجيج الأعظم،

مثل نعام جافل[1] لم يقسم، ينذر فيها ناذر لمنعم، تكون ميراثًا وعقدًا محكم، ليست كبعض ما قد تعلم، وهى بين الفرث والدم.

فزعموا أنه حين قيل له ذلك قال: وأين هى؟ قيل له: عند قرية النمل حيث ينقر الغراب غدًا. فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره، فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها، بين الوثنين إساف ونائلة اللذين كانت قريش تنحر عندهما ذبائحهما.

فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر، فقامت إليه قريش حين رأوا جده، فقالوا: والله لا نتركنك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما. فقال عبد المطلب لابنه الحارث: ذب عنى فوالله لأمضين لما أمرت به.

فلما عرفوا أنه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه، فلم يحفر إلا يسيرًا حتى بدا له الطى، فكبر وعرف أنه قد صدق، فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالين من ذهب، وهما الغزالان اللذان دفنت جرهم فيها حين خرجت من مكة، ووجد فيها أسيافًا قلعية[2] وأدراعًا.

فقالت له قريش: يا عبد المطلب لنا معك فى هذا شرك وحق، قال: لا، ولكن هلموا إلى أمر نَصَفٍ بينى وبينكم، فضرب عليها بالقداح. قالوا: وكيف نصنع؟ قال: أجعل للكعبة قدحين ولى قدحين ولكم قدحين، فمن خرج قدحاه على شىء فهو له ومن تخلف قدحاه فلا شىء له، قالوا: أنصفت.

فجعل قدحين أصفرين للكعبة، وقدحين أسودين لعبد المطلب، وقدحين أبيضين لقريش. ثم أعطوا القداح الذى يضرب بها عند هبل، وهبل صنم فى جوف الكعبة، وهو أعظم أصنامهم، وهو الذى عنى أبو سفيان بن حرب لما نادى يوم أحد: اعل هبل، أى أظهر دينك.

وقام عبد المطلب يدعو الله، وضرب صاحب القداح، فخرج الأصفران على

---

(١) جافل: الجفول هو سرعة الذهاب والندور فى الأرض، يقال: جفلت الإبل جفولاً إذا شردت. انظر: اللسان (مادة جفل).

(٢) قلعية: اسم معدن ينسب إليه الرصاص الجيد، قيل: وهو جبل بالشام، وقيل أيضًا: هو قلعة عظيمة فى أول بلاد الهند من جهة الصين فيه معدن الرصاص القلعى لا يكون إلا فى قلعتها وفى هذه القلعة تضرب السيوف القلعية وهى الهندية العتيقة. انظر: معجم البلدان (٣٨٩/٤).

الغزالين، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطلب، وتخلف قدحا قريش. فضرب عبد المطلب الأسياف بابا للكعبة، وضرب فى الباب الغزالين من ذهب، فكان أول ذهب حليته الكعبة، فيما يزعمون(١).

وذكر الزبير أن عبد المطلب لما أنبط الماء فى زمزم حفرها فى القرار ثم بحرها حتى لا تنزف، ثم بنى عليها حوضًا فطفق هو وابنه ينزعان عليها فيملآن ذلك الحوض، فيشرب منه الحاج. وكان قوم حسدة من قريش لا يزالوان يكسرون حوضه ذلك بالليل ويغتسلون فيه، فيصلحه عبد المطلب حين يصبح.

فلما أكثروا فساده دعا عبد المطلب ربه، فقيل له فى المنام: قل: اللهم إنى لا أحلها لمغتسل، وهى لشارب حل وبل.

فقام عبد المطلب فى المسجد فنادى بالذى أرى، ثم انصرف فلم يكن يفسد حوضه ذلك عليه أحد من قريش أو يغتسل فيه إلا رمى فى جسده بداء، حتى تركوا حوضه ذلك وسقايته فرقًا.

وذكر الزبير أيضًا أن عبد المطلب لما حفر زمزم وأدرك منها ما أدرك وجدت قريش فى أنفسها مما أعطى، فلقيه خويلد بن أسد بن عبد العزى، فقال: يا ابن سلمى، لقد سقيت ماء رغدًا ونثلت عادية حتدًا، قال: يا ابن أسد، أما إنك تشرك فى فضلها، والله لا يساعفنى أحد عليها ببر ولا يقوم معى بأزر إلا بذلت له خيرًا لصهر.

فقال خويلد بن أسد:

أقول وما قولى عليهم بسنة ... إليك ابن سلمى أنت حافر زمزم
حفيرة إبراهيم يوم ابن آجر ... وركضة جبريل على عهد آدم

فقال عبد المطلب: ما وجدت أحدًا ورث العلم الأقدم غير خويلد بن أسد. ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحجاج، وكانت قريش قبل حفر زمزم قد احتفرت بئارًا بمكة(٢)، وكانت خارجًا من مكة آبار حفائر قديمة من عهد مرة بن كعب وكلاب بن

---

(١) انظر: السيرة (١/١٣٢ - ١٣٣).

(٢) قال ابن هشام فى السيرة (١/١٣٣ - ١٣٦): وكانت قريش قبل حفر زمزم قد احتفرت بئارا بمكة، فيما حدثنا زياد بن عبد الله البكائى عن محمد بن إسحاق، ثم أخذ يذكر أسماء الآبار التى حفرت قبل زمزم فقال: حفر عبد شمس بن عبد مناف الطوى، وهى البئر التى بأعلى مكة عند البيضاء، دار محمد بن يوسف الثقفى. وحفر هاشم بن عبد مناف بذر، وهى البئر التى=

مرة وكبراء قريش الأول، منها يشربون، فعفت زمزم على تلك الثار التى كانت قبلها يسقى عليها الحاج.

وانصرف الناس إليها لمكانها من المسجد الحرام، ولفضلها على ما سواها من المياه، ولأنها بئر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وافتخرت بها بنو عبد مناف على قريش كلها وعلى سائر العرب.

وكان عبد المطلب فيما يزعمون[1] والله أعلم، قد نذر حين لقى من قريش ما لقى عند حفر زمزم: لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرن أحدهم لله عز وجل عند الكعبة.

فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء به، فأطاعوه وقالوا: وكيف نصنع؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب اسمه فيه ثم ائتونى ففعلوا، ثم أتوه فدخل بهم على هبل فى جوف الكعبة، وكان على بئر فى جوف الكعبة، فيها يجمع ما يهدى للكعبة، وكان عند هبل قداح سبعة بها يضربون على ما يريدون، وإلى ما تخرج به القداح ينتهون فى أمورهم.

فقال عبد المطلب لصاحب القداح: اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه. وأخبره بنذره الذى نذر، وأعطاه كل رجل منهم قدحه الذى فيه اسمه. وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب بنى أبيه إليه فيما يزعمون، فكان عبد المطلب يرى أن السهم إذا أخطأه فقد أشوى.

فلما أخذ صاحب القداح القداح ليضرب بها، قام عبد المطلب عند هبل يدعو الله،

=عند المستنذر، خطم الخندمة على فم شعب أبى طالب، وحفر سجلة، وهى بئر المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف التى يسقون عليها اليوم، ويزعم بنو نوفل أن المطعم ابتاعها من أسد بن هاشم، ويزعم بنو هاشم أنه وهبها له حين ظهرت زمزم، فاستغنوا بها عن تلك الآبار وحفر أمية بن عبد شمس الحفر لنفسه. وحفرت بنو أسد بن عبد العزى: شفية، وهى بئر بنى أسد. وحفرت بنو عبد الدار: أم أحراد. وحفرت بنو جمح السنبلة، وهى بئر خلف بن وهب. وحفرت بنو سهم: الغمر، وهى بئر بنى سهم. وكانت آبار حفائر خارجا من مكة قديمة من عهد مرة بن كعب، وكلاب بن مرة، وكبراء قريش الأوائل منها يشربون، وهى رم، ورم: بئر مرة بن كعب بن لؤى. وخم، وخم: بئر بنى كلاب بن مرة. والحفر. انتهى باختصار.

(١) انظر: السيرة (١/١٣٦ - ١٣٩)، تاريخ الطبرى (٢/٢٣٩، ٢٤٣)، طبقات ابن سعد (١/٨٨، ٨٩).

ثم ضرب صاحب القداح، فخرج القدح على عبد الله، فأخذ عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها وقالوا: ماذا تريد يا عبد المطلب؟ قال: أذبحه. فقالت له قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبدًا حتى تعذر فيه، لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه فما بقاء الناس على هذا؟!.

وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بنم مخزوم، وكان عبد الله بن أخت القوم، أمه وأم أخويه الزبير وأبى طالب فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم: والله لا تذبحه أبدًا حتى تعذر فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه. وقالت له قريش وبنوه: لا تفعل وانطلق إلى الحجاز فإن بها عرافة لها تابع، فتسألها ثم أنت على رأس أمرك، إن أمرتك بذبحه ذبحته وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته.

فانطلقوا حتى قدموا المدينة، فوجدوها فيما يزعمون، بخيبر، فركبوا حتى جاءوها فسألوها، وقص عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه وما أراد به ونذره فيه. فقالت لهم: ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله.

فرجعوا من عندها، فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله، ثم غدوا عليها فقالت لهم: قد جاءنى الخبر، كم الدية فيكم؟ قالوا: عشرة من الإبل، وكانت كذلك، قالت: فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرة من الإبل، ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم.

فخرجوا حتى قدموا مكة، فلما أجمعوا ذلك من الأمر قام عبد المطلب يدعو الله، ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل، وعبد المطلب عند هبل يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرًا من الإبل، فبلغت الإبل عشرين، وقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، فزادوا عشرًا من الإبل، ومازالوا كذلك يزيدون عشرًا فعشرًا من الإبل ويضربون عليها، كل ذلك يخرج القدح على عبد الله، حتى بلغت الإبل مائة من الإبل، وقام عبد المطلب يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل، فقالت قريش: قد انتهى، رضى ربك يا عبد المطلب.

فزعموا أن عبد المطلب قال: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات، فضربوا على عبد الله وعلى الإبل، وقام عبد المطلب يدعو الله، فخرج القدح على الإبل، ثم عادوا الثانية والثالثة وعبد المطلب قائم يدعو الله، فخرج القدح فى كلتيهما على الإبل.

فنحرت، ثم تركت لا يصد عنها إنسان ولا يمنع.

ثم انصرف عبد المطلب آخذًا بيد عبد الله، فمر به فيما يزعمون، على امرأة من بني أسد بن عبد العزى(١)، وهي أخت ورقة بن نوفل بن أسد، وهي عند الكعبة.

قال الزبير: وكان عبد الله أحسن رجل رئي في قريش قط، فقالت له حين نظرت إلى وجهه: أين تذهب يا عبد الله. قال: مع أبي. قالت: لك مثل الإبل التي نحرت عنك وقع على الآن، قال: أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه.

فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة، وهو يومئذ سيد بني زهرة سنًا وشرفًا، فزوجه ابنته آمنة بنت وهب وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا.

فزعموا أنه دخل عليها حين أملكها مكانه فوقع عليها فحملت برسول الله ﷺ، ثم خرج من عندها فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت، فقال لها: مالك لا تعرضين على اليوم ما عرضت بالأمس، قالت له: فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة، وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل، وكان تنصر واتبع الكتب، أنه كائن في هذه الأمة نبي.

ويقال: إن عبد الله إنما دخل على امرأة كانت له مع آمنة ابنة وهب، وقد عمل في طين له وبه آثار من الطين، فدعاها إلى نفسها، فأبطأت عليه لما رأت به من آثار الطين، فخرج من عندها، فتوضأ وغسل ما كان به من ذلك، ثم خرج عائدًا إلى آمنة، فمر بتلك المرأة فدعته إلى نفسها فأبى عليها، وعمد إلى آمنة فدخل عليها فأصابها، فحملت بمحمد رسول الله ﷺ، ثم مر بامرأته تلك فقال لها: هل لك؟ قالت: لا، مررت بي وبين عينيك غرة فدعوتك فأبيت، ودخلت على آمنة فذهبت بها.

فزعموا أن امرأته تلك كانت تحدث: أنه مر بها وبين عينيه مثل غرة الفرس، قالت: فدعوته رجاء أن تكون تلك بي، فأبى علي ودخل على آمنة فأصابها فحملت برسول الله ﷺ.

---

(١) قال السهيلي في الروض الأنف (١/١٨٠): واسم هذه المرأة رقية بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل تكنى أم فتال وبهذه التكنية وقع ذكرها في رواية يونس بن إسحاق وذكر البرقي عن هشام الكلبي، قال: إنما مر على امرأة اسمها فاطمة بنت مر، كانت من أجمل النساء وأعفهن، وكانت قد قرأت الكتب، فرأت نور النبوة في وجهه فدعته إلى نفسها فلما أبى قالت شعرًا. انتهى باختصار.

فكان رسول الله ﷺ أوسط قومه نسبا، وأعظمهم شرفًا، من قبل أبيه وأمه ﷺ، ويزعمون فيما يتحدث الناس، والله أعلم، أن أمه كانت تحدث أنها أتيت حين حملت به، فقيل لها: إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولى: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، ثم سميه محمدًا.

ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب، أبو رسول الله ﷺ، أن هلك وأمه حامل به. هذا قول ابن إسحاق[١]. وخالفه كثير من العلماء، فقالوا: إن النبى ﷺ كان فى المهد حين توفى أبوه. ذكره الدولابى وغيره. وذكر ابن أبى خيثمة أنه كان ابن شهرين، وقيل أكثر من ذلك. والله أعلم.

وولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين، لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول عام الفيل. قيل: بعد الفيل بخمسين يومًا[٢].

وحكى الواقدى عن سليمان بن سحيم قال: كان بمكة يهودى يقال له يوسف، فلما كان اليوم الذى ولد فيه رسول الله ﷺ قبل أن يعلم به أحد من قريش قال: يا معشر قريش قد ولد نبى هذه الأمة فى بحرتكم هذه اليوم. وجعل يطوف فى أنديتهم فلا يجد خبرا، حتى انتهى إلى مجلس عبد المطلب فسأل فقيل له: ولد لابن عبد المطلب غلام. فقال: هو نبى والتوراة.

وقال حسان بن ثابت: والله إنى لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان أعقل كل ما

---

(١) انظر: السيرة (١/١٤٠ - ١٤١).

(٢) هذا قول ابن إسحاق. انظر: السيرة (١/١٤٢).

وذكره ابن كثير فى البداية باب مولد النبى ﷺ (٢/٢٦٤ - ٢٦٧) وقال: إن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل على قول الجمهور، فقيل: بعده بشهر، وقيل: بأربعين يومًا، وقيل: بخمسين يومًا، وهو أشهر. وعن أبى جعفر الباقر: كان قدوم الفيل للنصف من المحرم ومولد رسول الله ﷺ بعده بخمس وخمسين ليلة، وقال آخرون: بل كان عام الفيل قبل مولد رسول الله ﷺ بعشر سنين قاله ابن أبزى. وقيل: بثلاث وعشرين سنة، رواه شعيب بن شعيب عن أبيه عن جده. وقيل: بعد الفيل بثلاثين سنة، قاله موسى بن عقبة عن الزهرى رحمه الله، واختاره موسى بن عقبة أيضًا رحمه الله. وقال أبو زكريا العجلانى: بعد الفيل بأربعين عاما، رواه ابن عساكر وهذا غريب جدًا، وأغرب منه ما قال خليفة بن خياط: حدثنى شعيب بن حبان عن عبد الواحد بن أبى عمرو عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس، قال: ولد رسول الله ﷺ قبل الفيل بخمس عشرة سنة، وهذا حديث غريب ومنكر وضعيف أيضًا، قال خليفة بن خياط: والمجتمع عليه أنه عليه السلام ولد عام الفيل.

أسمع إذا سمعت يهوديًا يصرخ على أطمة بيثرب: يا معشر يهود. حتى إذا اجتمعوا قالوا: ويلك! مالك! قال: طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به(١).

وذكر ابن السكن من حديث عثمان بن أبى العاص عن أمه فاطمة بنت عبد الله، أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول الله ﷺ ليلاً. قالت: فما شىء أنظر إليه من البيت إلا نور، وإنى لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إنى لأقول لتقعن على.

وذكر ابن مخلد فى تفسيره أن إبليس رن أربع رنات، رنة حين لعن، ورنة حين أهبط، ورنة حين ولد رسول الله ﷺ، ورنة حين أنزلت فاتحة الكتاب!

قال ابن إسحاق(٢): فلما وضعته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام، فائته فانظر إليه. فأتاه ونظر إليه، وحدثته بما رأت حين حملت به، وما قيل لها فيه، وما أمرت أن تسميه.

فيزعمون أن عبد المطلب أخذه فدخل به الكعبة فقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها. ويروى أن عبد المطلب إنما سماه محمدًا لرؤيا رآها.

زعموا أنه أرى فى منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض وطرف فى المشرق وطرف فى المغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها.

فقصها فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض. فلذلك سماه محمدًا، مع ما حدثته أمه.

ولا يعرف فى العرب أحد تسمى بهذا الاسم قبله، سوى نفر سموا به من أجله منهم محمد بن سفيان بن مجاشع التميمى، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح، وآخر من ربيعة.

وكان آباؤهم قد وفدوا على بعض الملوك ممن كان عنده علم بالكتاب الأول، فأخبرهم بمبعث النبى ﷺ وتقارب زمانه، وباسمه، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملاً، فنذر كل واحد منهم إن ولد له ذكر أن يسميه محمدًا.

ففعلوا ذلك رجاء أن يكونه. والله أعلم حيث يجعل رسالاته. وقد وقع فى مواضع أخر أن هؤلاء النفر كانوا أربعة، ولم يذكر فيهم محمد بن أحيحة، وحديثهم مخالف لما ذكرناه خلافًا يسيرًا.

---

(١) ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٩١/١).

(٢) انظر: السيرة (١٤٣/١).

روينا من حديث عبد الملك بن أبى سوية عن أبيه عن جده قال: سألت محمد بن عدى بن ربيعة: كيف سماك أبوك محمدًا؟ فقال: سألت أبى عما سألتنى عنه، فقال: خرجت رابع أربعة من بنى تميم أنا فيهم، وسفيان بن مجاشع بن دارم وأسامة بن مالك ابن خندف ويزيد بن ربيعة، نريد ابن جفنة ملك غسان فلما شارفنا الشام نزلنا إلى غدير عليه شجرات وقربه شخص نائم، فتحدثنا فاستمع كلامنا وأشرف علينا فقال: إن هذه لغة ما هى لغة أهل هذه البلاد. فقلنا: نحن قوم من مضر قال: من أى المضريين؟ قلنا: من خندف. قال: أما إنه يبعث فيكم وشيكًا نبى خاتم النبيين فسارعوا إليه وخذوا بحظكم منه ترشدوا.

فقلت له: ما اسمه؟ قال: محمد: فرجعنا من عند ابن جفنة فولد لكل رجل منا ابن سماه محمدًا. والتمس لرسول الله ﷺ الرضعاء، فاسترضع له من امرأة من بنى سعد بن بكر يقال لها: حليمة بنت أبى ذؤيب(١).

وكانت تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها ترضعه، فى نسوة من بنى سعد بن بكر تلتمس الرضعاء. قالت: وفى سنة شهباء(٢) لم تبق لنا شيئًا.

قالت: فخرجت على أتان لى قمراء(٣) معنا شارف لنا(٤)، والله ما تبض بقطرة ولا ننام ليلتان أجمع من صبينا الذى معنا من بكائه من الجوع، ما فى ثديى ما يغنيه وما فى شارفنا ما يغذيه، ولكنا نرجو الغيث والفرج.

فخرجت على أتانى تلك، فلقد أذمت بالركب حتى شق ذلك عليهم، ضعفًا وعجفًا. حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله

---

(١) هى حليمة بنت أبى ذؤيب، وأبو ذؤيب هو عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناضرة بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن غيلان بن مضر. وانظر ترجمتها: فى الاستيعاب الترجمة رقم (٣٣٣٦)، الإصابة الترجمة رقم (١١٠٥٦)، أسد الغابة الترجمة رقم (٦٨٥٥).

(٢) سنة شهباء: إذا كانت مجدبة بيضاء من الجدب لا يرى فيها خضرة، وقيل الشهباء التى ليس فيها مطر. انظر: اللسان (مادة شهب).

(٣) القمراء: لون يميل إلى الخضرة، وقيل بياض، فيه كدرة يقال: حمار أقمر وأتان قمراء أى بيضاء وليلة قمراء أى مضيئة. انظر: اللسان (مادة قمر).

(٤) الشارف: الناقة التى قد أسنت وقال أبو الأعرابى الشارف الناقة الهمة، والشارف من الإبل المسن والمسنة والجمع شوارف. انظر: اللسان (مادة شرف).

ﷺ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى، فكنا نقول: يتيم ما عسى أن تصنع أمه وجده!! فكنا نكرهه لذلك.

فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعًا غيرى. فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبى: والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعًا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه.

قال: لا عليك أن تفعلى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره.

فلما أخذته رجعت به إلى رحلى، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن، فشرب حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى. ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك. وقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا إنها لحافل[1]، فحلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا ريا وشبعًا.

فبتنا بخير ليلة، يقول صاحبى حين أصبحنا: تعلمى والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة! قلت: والله إنى لأرجو ذلك. ثم خرجنا، وركبت أتانى وحملته عليها معى، فوالله لقطعت بالركب، ما يقدر على شيء من حميرهم، حتى إن صواحبى ليقلن: يا بنت أبى ذؤيب ويحك! اربعى[2] علينا! أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها؟! فأقول لهن: بلى والله إنها لهى. فيقلن: والله إن لها لشأنا.

قالت: ثم قدمنا منازلنا من بنى سعد، ولا أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعًا لبنا، فنحلب ونشرب وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها فى ضرع، حتى كان الحاضر من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب. فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن وتروح غنمى شباعًا لبنا.

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير، حتى مضت سنتان وفصلته. وكان يشب شبابًا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جعفرًا. فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته.

---

(١) حافل: ممتلئة الضرع من اللبن، والحفل اجتماع اللبن فى الضرع، والمحفلة التى اجتمع لبنها فى ضرعها أيامًا.

(٢) اربعى: أى انتظرينا، وهى من ربع يربع إذا وقف وانتظر. انظر: اللسان (مادة ربع).

فكلمنا أمه وقلت لها: لو تركت بنى عندى حتى يغلظ، فإنى أخشى عليه وباء مكة. فلم نزل بها حتى ردته معنا، فرجعنا به.

فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفى بهم لنا خلف بيوتنا إذ أتانا أخوه يشتد، فقال لى ولأبيه ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه.

قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائمًا منتقعًا وجهه. قالت: فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا: ما لك يا بنى؟ قال: «جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئًا لا أدرى ما هو»[(١)].

قالت: فرجعنا به إلى خبائنا وقال لى أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به. قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر[(٢)] ولقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟.

قلت: قد بلغ والله بابنى، وقضيت الذى على، وتخوفت الأحداث عليه، فأديته عليك كما تحبين. قالت: ما هذا شأنك، فاصدقينى خبرك. قالت: فلم تدعنى حتى أخبرتها. قالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟ قلت: نعم.

قالت: كلا والله ما للشيطان عليه سبيل، وإن لبنى لشأنا، أفلا أخبرك خبره، قلت: بلى. قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضاء لى قصور بصرى من أرض الشام.

ثم حملت به، فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء. دعيه عنك وانطلقى راشدة[(٣)].

---

(١) قصة شق صدر النبى، وهو عند حليمة السعدية مشهوره، وقد رواها الإمام مسلم فى صحيحه (١/١٠١، ١٠٢) عن أنس بن مالك: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه فاستخرجه، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم لزمه ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه، يعنى مرضعته، أن محمدًا قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون».

(٢) الظئر: مهموز العاطفة على غير ولدها المرضعة له من الناس والإبل الذكر والأنثى فى ذلك سواء والجمع اظئار. انظر: اللسان (مادة ظئر).

(٣) انظر: السيرة (١٤٤ - ١٤٦).

ويروى أن نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له: يا رسول الله: أخبرنا عن نفسك. قال: «نعم، أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم، ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخ لى خلف بيوتنا نرعى بهما لنا، أتانى رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجًا، فأخذانى فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشقاه فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته فوزننى بعشرة فوزنتهم. ثم قال زنه بمائة من أمته. فوزننى بهم فوزنتهم. ثم قال: زنه بألف من أمته. فوزننى بهم فوزنتهم. فقال: دعه عنك، فلو وزنته بأمته لوزنها»[1].

وكان رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبى إلا وقد رعى الغنم». قيل: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا»[2].

وكان يقول لأصحابه: «أنا أعربكم، أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر»[3].

وزعم الناس فيما يتحدثون[4]، والله أعلم، أن أمه السعدية لما قدمت به مكة أضلها فى الناس وهى مقبلة به نحو أهله، فالتمسته فلم تجده، فأتت عبد المطلب فقالت له: إنى قدمت بمحمد هذه الليلة فلما كنت بأعلى مكة أضلنى، فوالله ما أدرى أين هو.

فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده، فيزعمون أنه وجده ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش فأتيا به عبد المطلب فقالا: هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة. فأخذه عبد المطلب فجعله على عنقه وهو يطوف بالكعبة يعوذه ويدعو له؛ ثم أرسل به إلى أمه آمنة.

---

(١) انظر الحديث فى: تفسير القرطبى (٢/١٣١)، تفسير الطبرى (١/٤٣٥)، الدر المنثور للسيوطى (١/١٣٩، ٥/٢٠٧)، كنز العمال للمتقى الهندى (٣١٨٣٣، ٣١٨٣٤، ٣١٨٣٥، ٣١٨٨٩)، دلائل النبوة للبيهقى (١/٦٩)، طبقات ابن سعد (١/١/٩٦)، البداية والنهاية لابن كثير (٢/٢٧٥).

(٢) انظر الحديث فى: كنز العمال للمتقى الهندى (٩٢٤٢)، البداية والنهاية لابن كثير (٦/٣٢٤).

(٣) انظر الحديث فى: كشف الخفاء للعجلونى (١/٢٣٢)، كنز العمال للمتقى الهندى (٣١٨٨٤)، طبقات ابن سعد (١/١/٧١)، البداية والنهاية لابن كثير (٢/٢٧٧).

(٤) انظر: السيرة (١/١٤٨).

وذكر بعض أهل العلم[1] أن مما هاج أمه السعدية على رده، ما ذكرت لأمه وما أخبرتها عنه، أن نفرًا من الحبشة نصارى رأوه معها حين رجعت به بعد فطامه، فنظروا إليه وسألوها عنه، وقلبوه، ثم قالوا لها: لنأخذن هذا الغلام فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا، فإن هذا غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره. فلم تكد تنفلت به منهم.

وذكر الواقدى أن أمه حليمة السعدية بعد أن رجعت به من عند أمه حضرت به سوق ذى المجاز، وبها يومئذ عراف من هوازن يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليهم، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ وإلى الحمرة فى عينيه وإلى خاتم النبوة، صاح: يا معشر العرب فاجتمع إليه أهل الموسم، فقال: اقتلوا هذا الصبى. وانسلت به حليمة. فجعل الناس يقولون: أى صبى هو؟ فيقول: هذا الصبى. فلا يرون شيئًا، قد انطلقت به أمه، فيقال له: ما هو؟ فيقول: رأيت غلامًا، وآلهتكم، ليغلبن أهل دينكم وليكسرن أصنامكم وليظهرن أمره عليكم. فطلب بعكاظ فلم يوجد.

ورجعت به حليمة إلى منزلها، فكانت بعد هذا لا تعرضه لأحد من الناس. ولقد نزل بهم عراف، فأخرج إليه صبيان أهل الحاضر، وأبت حليمة أن تخرجه إليه، إلى أن غفلت عن رسول الله ﷺ فخرج من المظلة فرآه العراف فدعاه فأبى رسول الله ﷺ ودخل الخيمة، فجهد بهم العراف أن يخرج إليه فأبت. فقال: هذا نبى.

وقد عرضه عمه أبو طالب على عائف من لهب، كان إذا قدم من مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم، فأتاه به أبو طالب وهو غلام مع من يأتيه، قال: فنظر إلى رسول الله ﷺ ثم شغله عنه شيء فقال: الغلام على به. فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه، فجعل يقول: ويلكم ردوا على الغلام الذى رأيت آنفًا، فوالله ليكونن له شأن.

وانطلق به أبو طالب. وكانت حليمة بعد رجوعها به من مكة لا تدعه أن يذهب مكانًا بعيدًا. فغفلت عنه يومًا فى الظهيرة، فخرجت تطلبه حتى تجده مع أخته. فقالت: فى هذا الحر؟! فقالت أخته: يا أمه، ما وجد أخى حرا، رأيت غمامة تظل عليه إذا وقف وقفت وإذا سار سارت، حتى انتهى إلى هذا الموضع.

تقول أمها: أحقا يا بنية؟ قالت: إى والله. قال: تقول حليمة: أعوذ بالله من شر ما يحذر على ابنى. فكان ابن عباس يقول: رجع إلى أمه وهو ابن خمسن سنين. وكان غيره يقول: رجع إليها وهو ابن أربع سنين. هذا كله عن الواقدى.

---

(١) انظر: السيرة (١/١٤٨ - ١٤٩).

قال ابن إسحاق: فكان النبى ﷺ مع أمه آمنة وجده عبد المطلب فى كلاءة الله وحفظه، ينبته الله نباتًا حسنًا لما يريد من كرامته. فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين توفيت أمه بالأبواء بين مكة والمدينة(١).

وكان قد قدمت به إلى أخواله من بنى عدى بن النجار تزيره إياهم، فماتت وهى راجعة به إلى مكة. فكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب.

وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له. فكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابنى فوالله إن له لشأنا.

ثم يجلسه معه عليه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع(٢).

قالوا: وكانت أم أيمن تحدث تقول: كنت أحضن رسول الله ﷺ فغفلت عنه يومًا فلم أدر إلا بعبد المطلب قائمًا على رأسى يقول: يا بركة، قلت: لبيك، قال: أتدرين أين وجدت ابنى؟ قلت: لا أدرى. قال: وجدته مع غلمان قريبًا من السدرة، لا تغفلى عن ابنى، فإن أهل الكتاب يزعمون أن ابنى نبى هذه الأمة، وأنا لا آمن عليه منهم.

وكان لا يأكل طعامًا إلا قال: على بابنى. فيؤتى به إليه.

وحدث كعب بن مالك عن شيوخ من قومه أنهم خرجوا عمارًا، وعبد المطلب يومئذ حى بمكة، ومعهم رجل من يهود تيماء، صحبهم للتجارة يريد مكة أو اليمن، فنظر إلى عبد المطلب، فقال: إنا نجد فى كتابنا الذى لم يبدل أنه يخرج من ضئضى هذا نبى يقتلنا وقومه قتل عاد.

وجلس عبد المطلب يومًا فى الحجر وعنده أسقف نجران: وكان صديقًا له، وهو يحادثه وهو يقول: إنا نجد صفة نبى بقى من ولد إسماعيل، هذه مولده، من صفته كذا وكذا.

وأتى رسول الله ﷺ على هذا الحديث، فنظر إليه الأسقف وإلى عينيه وإلى ظهره وإلى قدميه، فقال: هو هذا. فقال الأسقف: ما هذا منك؟ قال: ابنى. قال الأسقف: لا،

---

(١) انظر: السيرة (١/١٤٩).

(٢) انظر: السيرة (١/١٤٩).

ما نجد أباه حيًّا. قال عبد المطلب: هو ابن ابنى مات أبوه وأمه حبلى به. قال: صدقت. قال عبد المطلب: تحفظوا بابن أخيكم، ألا تسمعون ما يقال فيه؟!.

وخرج رسول الله ﷺ يومًا يلعب مع الغلمان حتى بلغ الردم، فرآه قوم من بنى مدلج فدعوه، فنظروا إلى قدميه وإلى أثره، ثم خرجوا فى طلبه حتى صادفوا عبد المطلب قد لقيه فاعتنقه، فقالوا لعبد المطلب: ما هذا منك؟ قال: ابنى. قالوا: فاحتفظ به، فإنا لم نر قدما قط أشبه بالقدم الذى فى المقام من قدمه.

فقال عبد المطلب لأبى طالب: اسمع ما يقول هؤلاء. فكان أبو طالب يحتفظ به. وقد روى أبو داود السجستانى من حديث ابن عباس، قال: أتى نفر من قريش امرأة كاهنة، فقالوا: أخبرينا بأقربنا شبهًا بصاحب هذا المقام.

قالت: إن جررتم على السهلة عباءة ومشيتم عليها أنبأتكم بأقربكم شبها به. فجروا عليها عباءة، ثم مشوا عليها، فرأت أثر قدم لمحمد ﷺ، فقالت: هذا والله أقربكم شبهًا به.

قال ابن عباس: فمكثوا بعد عشرين سنة، ثم بعث محمد ﷺ. ولما ظهر سيف بن ذى يزن على الحبشة، وذلك بعد مولد النبى ﷺ أتته وفود العرب وأشرافها وشعراؤها يهنئونه ويمدحونه ويذكرون من حسن بلائه وطلبه بثأر قومه.

فأتاه وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم فى أناس من وجوه قريش، فقدموا عليه صنعاء فأذن لهم، فلما دخلوا عليه دنا عبد المطلب منه فاستأذنه فى الكلام، فقال: إن كنت ممن يتكلم بين يدى الملوك فقد أذنا لك.

فقال عبد المطلب: إن الله قد أحلك أيها الملك محلا رفيعًا صعبًا منيعًا، شامخًا باذخًا، وأنبتك منبتا طابت أرومته وعزت جرثومته، وثبت أصله، وبسق فرعه، فى أكرم موطن، وأطيب معدن.

وأنت أيها الملك رأس العرب الذى به تنقاد، وعمودها الذى عليه العماد، ومعقلها الذى يلجأ إليه العباد، سلفك لك خير سلف، وأنت لنا فيه خير خلف، فلم يخمل من أنت سلفه، ولن يهلك من أنت خلفه، نحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذى أبهجنا بكشف الكرب الذى فدحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة.

فقال له سيف: وأيهم أنت أيها المتكلم؟ فقال: أنت عبد المطلب بن هاشم. قال: ابن أختنا؟ قال: نعم؟ قال: أدنه، فأدناه. ثم أقبل عليه وعلى القوم، فقال لهم: مرحبًا وأهلاً، قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم وقبل وسيلتكم، وأنتم أهل الليل والنهار، فلكم الكرامة ما أقمتم والحباء إذا ظعنتم.

ثم أنهضوا إلى دار الضيافة والوفود، فأقاموا شهرًا لا يصلون إليه ولا يأذن لهم بالانصراف. ثم انتبه لهم انتباهة فأرسل إلى عبد المطلب، فقال له: إنى مفوض إليك من سنى علمى أمرًا لو يكون غيرك لم أبح له به، ولكنى رأيتك معدنه فأطلعتك عليه، فليكن عندك مكنونا حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره.

إنى أجد فى الكتاب المكنون والعلم المخزون الذى اختزناه لأنفسنا واجتبيناه دون غيرنا خيرًا عظيمًا وخطرًا جسيمًا، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة، للناس عامة ولرهطك كافة، ولك خاصة.

فقال له عبد المطلب: مثلك أيها الملك سر وبر، فما هو؟ فداك أهل الوبر زمرًا بعد زمر.. فقال: إذا ولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة.

فقال له عبد المطلب: لقد أبت بخير ما آب بمثله وافد، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من ساره إياى ما أزداد به سرورًا.

فقال له ابن ذى يزن: هذا حينه الذى يولد فيه، أو قد ولد، اسمه محمد، يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه، قد ولدناه مرارًا والله باعثه جهارًا وجاعل له منا أنصارًا يعز بهم أولياءه ويذل بهم أعداءه، يضرب بهم الناس عن عرض، ويستبيح بهم كرائم الأرض، ويكسر الصلبان ويخمد النيران ويعبد الرحمن ويدحر الشيطان، قوله فصل وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله.

فقال له عبد المطلب: عز جدك وعلا كعبك ودام ملكك وطال عمرك، فهل الملك سارى بإفصاح، فقد أوضح لى بعض الإيضاح.

فقال له ابن ذى يزن: والبيت والحجب، والعلامات والنصب، إنك يا عبد المطلب لجده غير كذب. فخر عبد المطلب ساجدًا، فقال له: ارفع رأسك ثلج صدرك وعلا أمرك، هل أحسست بشىء مما ذكرت لك؟.

فقال عبد المطلب: كان لى ابن، وكنت عليه رفيقًا، فزوجته كريمة من كرائم قومه، فجاء بغلام فسميته محمدًا، فمات أبوه وأمه، وكفلته أنا.

فقال له ابن ذى يزن: إن الذى قلت لك كما قلت، فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود، فإنهم أعداؤه، ولن يجعل الله عليه سبيلاً، واطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإنى لا آمن أن تدخلهم التعاسة من أن تكون لكم الرياسة، فيطلبون له الغوائل وينصبون له الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم، ولولا أنى أعلم أن الموت مخترمى قبل مبعثه لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير بيثرب دار ملكه، فإنى أجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق أن بيثرب استحكام أمره وأهل النصرة له، وموضع قبره، ولولا أنى أخاف عليه الآفات واحذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنه بذكره، ولكنى صارف ذلك إليك، من غير تقصير بمن معك.

ثم أمر لكل رجل من القوم بعشرة أعبد وعشر إماء، وحلس من البرود، ومائة من الإبل، وخمسة أرطال ذهب، وعشرة أرطال فضة، وكرش مملوءة عنبرًا. وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك كله، وقال له: إذا حال الحول فائتنى. فمات ابن ذى يزن قبل أن يحول الحول، فكان عبد المطلب كثيرًا ما يقول: يا معشر قريش، لا يغبطنى أحدكم بجزيل عطاء الملك وإن كثر، فإنه إلى نفاد، ولكن ليغبطنى بما يبقى لى ولعقبى من بعدى ذكره، وفخره وشرفه. فإذا قيل له: فما ذاك؟ قال: ستعلمون نبأه ولو بعد حين.

وحديث سيف بن ذى يزن هذا عن غير ابن إسحاق وهو عندنا بالإسناد، وقد تقدم ما ألقاه تبع الآخر إلى ملوك حمير وأبنائهم من أمر رسول الله ﷺ، وأن علم سيف بذلك إنما كان من تلك الجهات. والله أعلم.

ثم إن عبد المطلب بن هاشم هلك عن سن عالية مختلف فى حقيقتها(١). أدناها فيما انتهى إلى ووقفت عليه، خمس وتسعون سنة؛ ذكره الزبير.

وأعلاها فيما ذكر الزبير أيضًا، عن نوفل بن عمارة قال: كان عبيد بن الأبرص ترب عبد المطلب، وبلغ مائة وعشرين سنة، وبقى عبد المطلب بعده عشرين سنة.

وقال محمد بن سعيد بن المسيب: لما حضرت الوفاة عبد المطلب وعرف أنه ميت جمع بناته وكن ستا: صفية، وبرة، وعاتكة، وأم حكيم البيضاء، وأميمة وأروى، فقال

---

(١) انظر: السيرة (١/١٤٩).

لهن: ابكين على حتى أسمع ما تقلن قبل أن أموت. فقالت كل واحدة منهن شعرًا ترثيه به وأنشدته إياه، فأشار برأسه، وقد أصمت: أن هكذا فابكينني. وذكر ابن إسحاق تلك الأشعار[١].

وقال ابن هشام: إنه لم ير أحدًا من أهل العلم بالشعر يعرفها[٢].

قال ابن إسحاق: وقال حذيفة بن غانم أخو بنى عدى بن كعب يبكى عبد المطلب بن هاشم، ويذكر فضله، وفضل قصى على قريش وفضل ولده من بعده عليهم:

أعينى جودا بالدموع على الصدر ... ولا تسأما أسقيتما سبل القطر[٣]
وجودا بدمع واشفحا كل شارق ... بكاء امرئ لم يشوه نائب الدهر[٤]
وسحا وجما واسجما ما بقيتما ... على ذى حياء من قريش وذى ستر
على رجل جلد القوى ذى حفيظة ... جليل المحيا غير نكس ولا هذر
على المزد البهلول ذى البأس والندى ... ربيع لؤى فى القحوط وفى العسر
على خير حاف من معد وناعل ... كريم المساعى طيب الخيم والنجر[٥]
على شيبة الحمد الذى كان وجهه ... يضىء سواد الليل كالقمر البدر
وساقى الحجيج ثم للخير هاشم ... وعبد مناف ذلك السيد الفهرى
طوى زمزمًا عند المقام فأصبحت ... سقايته فخرًا على ذى فخر
ليبك عليه كل عان بكربة ... وآل قصى من مقل وذى وفر
بنوه سراة كهلهم وشبابهم ... تفلق عنهم بيضة الطائر الصقر

---

(١) انظر ما ذكره ابن إسحاق فى: السيرة (١/١٥٠ - ١٥٤).

(٢) هذا قول ابن هشام فى السيرة وقد ذكر أنه ذكرها لأنه رواه عن محمد بن سعيد بن المسيب فكتبه. انظر: السيرة (١/١٥٠).

(٣) سبل: أى المطر، وقيل: هو المطر بين السحاب والأرض حين يخرج من السحاب ويخرج من الأرض. انظر: اللسان (مادة سبل).

(٤) كل شارق: الشارق أى كل يوم طلعت فيه الشمس، وقيل: الشارق قرن الشمس. ولم يشوه: الإشواء يوضع موضع الإبقاء، قال أبو منصور: هذا كله من إشواء الرامى وذلك إذا رمى فأصاب الأطراف ولم يصيب المقتل فيوضع الإشواء موضع الخطأ والشىء الهين.

(٥) أورد فى السيرة بعد هذا البيت بيتين لم يذكرهما هنا هما:

وخيرهم أصلاً وفرعًا ومعدنا ... وأحظاهم بالمكرمات وبالذكر
وأولاهم بالمجد والحلم والنهى ... وبالفضل عند المجحفات من الغبر

انظر: السيرة (١/١٥٥).

قصـي الـذى عـادى كنانـة كلهـا ... ورابـط بيت الله فى العسر واليسر
فـإن تـك غالتـه المنايـا وصرفهـا ... فقـد عـاش ميمـون النقيبـة والأمـر
وأبقـى رجـالاً سـادة غيـر عـزل ... مصـاليت أمثـال الردينيـة السـمر
أبـو عتبـة الملقـى إلى حبـاءه ... أغـر هجـان اللـون مـن نفـر غـر
وحمـزة مثـل البـدر يهتـز للنـدى ... نقـى الثيـاب والذمـام مـن الغـدر
وعبـد منـاف مـاجد ذو حفيظـة ... وصول لذى القربى رحيم بذى الصهر
كهولهـم خيـر الكهـول ونسـلهم ... كنسـل الملوك لا تبـور ولا تحـرى
متـى مـا تلاقـى منهـم الدهـر ناشـئا ... تجـده بإجريـا أوائلـه يجـرى
هـم مـلأوا البطحـاء مجـدا وسـؤددا ... إذا استبق الخيرات فى سـالف العصر
وهـم حضـروا والنـاس بـاد فريقهـم ... وليس بهـا إلا شـيوخ بنـى عمـرو
بنوهـا ديـارًا جمـة وطـووا بهـا ... بـئرًا تسح المـاء مـن ثبـج بحـر
لكى يشرب الحجـاج منهـا وغيرهـم ... إذا ابتدروهـا صبـح تابعـة النحـر
ثلاثـة أيـام تظـل ركـابهم ... محبسـة بـين الأخاشـب والحجـر
وقدمًـا غنينـا قبـل ذلـك حقبـة ... ولا نسـتقى إلا بخـم أو الحفـر
هـم يغفـرون الذنـب ينقـم دونـه ... ويعفـون عـن قـول السفاهة والهجر
أخـارج إمـا أهلكـن فـلا تـزل ... لهـم شـاكرًا حتـى تغيـب فـى القـبر
ولا تنـس مـا أسـدى ابـن لبنـى فإنـه ... قد أسدى يدًا محقوقة منك بالشكر
وأنت ابن لبنـى مـن قصـى إذا انتمـوا ... بحيث انتهى قصد الفـؤاد من الصـدر
وأمـك سـر مـن خزاعـة جوهـر ... إذا حصل الأنسـاب يومًـا ذوو الخبر
إلـى سبـأ الأبطـال تنمـى وتنتمـى ... وأكرم بها منسوبة فى ذرى الدهر(*)

ابن لبنى هذا أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب، وهو أبو عتبة الذى ذكره قبل فـى هذا الشعر. وكانت أمه امرأة من خزاعة اسمها لبنى بنت هاجر. ولذلـك قـال: «وأمـك سر من خزاعة»[1].

ونماها إلى سبأ الأبطال بناءً على ما قدمناه من انتماء خزاعة إلى عمرو بـن عـامر، من

(*) أورد فى السيرة بعد هذا البيت بيتين لم يذكرهما هنا هما:

أبـو شـمير منهـم وعمـرو بـن مـالك ... وذو جـدن مـن قومهـا وأبـو الجـبر
وأسعـد قـاد النـاس عشريـن حجـة ... يؤيـد فـى تلـك المواطـن بالنصـر

انظر: السيرة (١/١٥٧، ١٥٨).

(١) انظر: السيرة (١/١٥٨).

غسان وانتفائهم من المضرية. واليد التى ذكر هذا الشاعر أنها ترتبت عليه لأبى لهب: وذكر ابن إسحاق أنه كان أخذ بغرم أربعة آلاف درهم بمكة، فوقف بها، فمر به أبو لهب فافتكه.

ونسب الزبير هذا الشعر لحذافة بن غانم، ودليله قوله فيه:

«أخارج إما أهلكن» ... البيت.

فإن خارجة هو ابن حذافة وحذيفة الذى نسب ابن إسحاق إليه الشعر هو أخو حذافة، ولا يعرف له ابن يسمى خارجة، وإنما هو والد أبى جهم بن حذيفة، واسم أبى جهم عبيد[١]، وهو الذى بعث إليه رسول الله ﷺ بالخميصة ذات الأعلام التى ألهته عن صلاته، وأمر أن يؤتى بأنبجانية.

ولما هلك عبد المطلب، ولى زمزم والسقاية عليها ابنه العباس وهو يومئذ من أحدث إخوته سنًا، فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وهى بيده، فأقرها رسول الله ﷺ على ما مضى من ولايته، وكان رسول الله ﷺ يجله إجلال الولد الوالد.

يقول كريب مولى ابن عباس: وما ينبغى لرسول الله ﷺ أن يجل إلا والدًا أو عمًا، فضيلة خص الله بها العباس دون من سواه. وقال ﷺ: «احفظونى فى عمى عباس، فإن عم الرجل صنو أبيه»[٢].

وطلع يومًا على رسول الله ﷺ فقال: «هذا العباس أجود قريش كفًا وأوصلها»[٣]. ولم يزل العباس سيدًا فى الجاهلية والإسلام، يمنع الجار ويبذل المال ويعطى فى النوائب.

قال الزبير: وكان يقال: كان للعباس بن عبد المطلب ثوب لعارى بنى هاشم، وجفنة

---

(١) هو: أبو جهم بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب القرشى العدوى، قيل: اسمه عامر بن حذيفة، وقيل: عبيد الله بن حذيفة.
انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٩٢٩)، الإصابة الترجمة رقم (٩٧٠٣)، أسد الغابة الترجمة رقم (٥٧٨٠).

(٢) أخرجه الطبرانى فى الصغير (٢٠٧/١)، الخطيب البغدادى فى التاريخ (٦٨/١٠)، الهيثمى فى المجمع (٢٦٩/٩)، المتقى الهندى فى الكنز (٣٣٣٨٩، ٣٣٣٩٥، ٣٣٣٩٦، ٣٣٤١١)، ابن عدى فى الضعفاء (٧٦٨/٢).

(٣) أخرجه ابن كثير فى البداية والنهاية (١٦١/٧)، السيوطى فى اللآلئ المصنوعة (٢٢٣/١)، الحاكم فى المستدرك (٣٢٨/٣، ٣٢٩).

لجائعهم، ومقطرة لجاهلهم. والمقطرة: خشبة ذات سلسلة يحبس فيها الناس. وفى ذلك يقول إبراهيم بن على بن هرمة:

وكانت لعباس ثلاث نعدها إذا ما جناب الحى أصبح أشهبا
فسلسلة تنهى الظلوم وجفنة تناخ فيكسوها السنام المرغبا
وحلمة عصب ما تزال معدة لعار ضريك ثوبه قد تهدبا

وقال ابن شهاب: لقد جاء الله بالإسلام وإن جفنة العباس لتدور على فقراء بنى هاشم، وإن قيده وسوطه لمعد لسفهائهم. قال: فكان ابن عمر يقول: هذا والله الشرف، يطعم الجائع ويؤدب السفيه!.

وكان أبو بكر وعمر فى ولايتهما لا يلقى العباس واحد منهما وهو راكب إلا نزل عن دابته وقادها ومشى مع العباس حتى يبلغ منزله أو مجلسه فيفارقه. وبقى رسول الله ﷺ بعد مهلك جده عبد المطلب مع عمه أبى طالب. وكان عبد المطلب يوصيه به فيما يزعمون.

وذلك أن عبد الله أبا رسول الله ﷺ وأبا طالب أخوان لأب وأم، فكان أبو طالب هو الذى يلى رسول الله ﷺ بعد جده، فكان إليه ومعه[١].

وذكر الواقدى أن أبا طالب كان مقلاً من المال، وكانت له قطعة من الإبل تكون بعرنة، فيبدو إليها فيكون فيها، ويؤتى بلبنها إذا كان حاضرًا بمكة.

فكان عيال أبى طالب إذا أكلوا جميعًا وفرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله ﷺ شبعوا. فكان أبو طالب إذا أراد أن يعشيهم أو يغديهم يقول: كما أنتم حتى يأتى ابنى.

فيأتى رسول الله ﷺ فيأكل معهم فيفضلون من طعامهم؛ وإن كان لبنا شرب رسول الله ﷺ أولهم، ثم يناول العيال القعب فيشربون منه فيروون من عند آخرهم من القعب الواحد، وإن كان أحدهم ليشرب قعبا!. فيقول أبو طالب: إنك لمبارك!. وكان الصبيان يصبحون شعثًا رمصًا ويصبح رسول الله ﷺ دهينًا كحيلاً.

وقالت أم أيمن[٢]، وكانت تحضنه: ما رأيت رسول الله ﷺ شكا جوعا قط ولا

---

(١) انظر: السيرة (١/١٥٩).

(٢) هى: بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصن بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان، غلبت عليها كنيتها. انظر ترجمتها فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٣٢٨٧)، الإصابة الترجمة رقم (١٠٩٢١).

عطشًا، وكان يغدو إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة، فربما عرضنا عليه الغذاء فيقول: لا أريده أنا شبعان.

قال ابن إسحاق[١]: ثم إن أبا طالب خرج فى ركب تاجرًا إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل صب به[٢] رسول الله ﷺ فيما يزعمون، فرق له أبو طالب وقال: والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدًا أو كما قال.

فخرج به معه، فلما نزل الركب بصرى[٣] من أرض الشام، وبها راهب يقال له بحيرى فى صومعة له، وكان إليه علم أهل النصرانية، ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط راهب إليه يصير علمهم عن كتاب فيها فيما يزعمون يتوارثونه كابرًا عن كابر.

فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى وكانوا كثيرًا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم، حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريبًا من صومعته صنع لهم طعامًا كثيرًا، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو فى صومعته، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ فى الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم، ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريبًا منه، فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة وتهصرت[٤] أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته وقد أمر بذلك الطعام فصنع، ثم أرسل إليهم فقال: إنى قد صنعت لكم طعامًا يا معشر قريش وأحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم. فقال له رجل منهم: والله يا بحيرى إن لك اليوم لشأنًا! ما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيرًا، فما شأنك اليوم؟.

قال له بحيرى: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعامًا فتأكلوا منه كلكم. فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه فى رحال القوم، فلما نظر بحيرى فى القوم لم ير الصفة التى يعرف

---

(١) هذه قصة بحيرى، وقد ذكرها ابن إسحاق فى السيرة (١/١٦٠ - ١٦٢).

(٢) صب به: الصبابة الشوق، وقيل: رقته وحرارته، وقيل: رقة الهواء، وصب الرجل إذا عشق يصب صبابا. انظر: اللسان (مادة صبب).

(٣) بصرى: موضع بالشام من أعمال دمشق وهى قصبة كورة حوران مشهورة عند العرب. انظر: معجم البلدان (١/٤٤١).

(٤) تهصرت: قال الجوهرى: هصرت الفض بالكسر إذا أخذت برأسه فأملته إليك، وتهصرت أغصان الشجر أى تهدلت عليه. انظر: اللسان (مادة هصر).

ويجد عنده، فقال: يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى.

فقالوا له: يا بحيرى ما تخلف عنك أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام، وهو أحدث القوم سنا، فتخلف فى رحالهم. فقال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. فقال رجل من قريش: واللات والعزى، إن كان للؤمًا بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا. ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم.

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظًا شديدًا وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى فقال: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه. وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسألنى باللات والعزى شيئًا، فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما». فقال له بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه. قال له: سلنى عما بدا لك.

فجعل يسأله عن أشياء من حاله فى نومه وهيئته وأموره، ويخبره رسول الله ﷺ فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته وأموره ويخبره. ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده. فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب، فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابنى، قال: ما هو بابنك، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا، قال: فإنه ابن أخى. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به.

قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرًا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده[1].

فخرج به عمه أبو طالب سريعًا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام. فزعموا أن نفرًا من أهل الكتاب قد كانوا رأوا من رسول الله ﷺ ما رأى بحيرى فى ذلك السفر الذى كان فيه مع عمه أبى طالب، فأرادوه فردهم عنه بحيرى، وذكرهم الله

---

(١) ذكر قصة بحيرى: الترمذى فى السنن (٣٦٢٠)، ابن أبى شيبة فى المصنف (١١/٤٧٩، ١٤/٢٨٦)، أبونعيم فى الدلائل (١٢٩)، الحاكم فى المستدرك (٢/٦١٦)، ابن حجر فى الفتح (٨/٥٨٧)، ابن هشام فى السيرة (١/١٦٠)، ابن سعد فى الطبقات (١/١٢٠)، الطبرى فى التاريخ (٢/٢٧٧)، ابن عساكر فى تاريخ دمشق (١، ١٠)، السهيلى فى الروض الأنف (١/٢٠٥ - ٢٠٨).

وما يجدون فى الكتاب من ذكره وصفاته، وأنهم إن أجمعوا إلى ما أرادوا لم يخلصوا إليه، حتى عرفوا ما قال لهم وصدقوه بما قال، فتركوه وانصرفوا عنه.

فشب رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه، ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته. حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم حسبًا، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال، تنزهًا وتكرمًا. حتى ما اسمه فى قومه إلا الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

وكان ﷺ يحدث عما كان الله يحفظه به فى صغره وأمر جاهليته، أنه قال: لقد رأيتنى فى غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليها الحجارة، فإنى لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمنى لاكم ما أراه لكمة وجيعة، ثم قال: شد عليك إزارك. قال: فأخذته فشددته علي، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى علي من بين أصحابى(١). وذكر البخارى عنه ﷺ أنه قال: «ما هممت بسوء من أمر الجاهلية إلا مرتين»(٢).

وروى غيره أن إحدى المرتين كان فى غنم يرعاها هو وغلام من قريش، فقال لصاحبه: «اكفنى أمر الغنم حتى آتى مكة»، وكان بها عرس فيها لهو، فلما دنا من الدار ليحضر ذلك ألقى عليه النوم، فنام حتى ضربته الشمس، عصمة من الله له!. والمرة الأخرى مثل الأولى سواء.

وذكر الواقدى عن أم أيمن قالت: كانت بوانة صنمًا تحضره قريش وتعظمه وتنسك له وتحلق عنده وتعكف عليه يومًا إلى الليل فى كل سنة، فكان أبو طالب يحضره مع قومه ويكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد معهم فيأبى ذلك.

قالت: حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عماته غضبن يومئذ أشد الغضب، وجعلن يقلن: إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا. ويقلن: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدًا ولا تكثر لهم جمعًا؟!

فلم يزالوا به حتى ذهب، فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع مرعوبًا فزعا، فقلن له: ما

---

(١) ذكره ابن إسحاق فى السيرة (١/١٦٢ - ١٦٣)، البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣١)، ابن حجر فى فتح البارى (٧/١٨١)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٢/٢٨٧).

(٢) أخرجه الهيثمى فى المجمع (٨/٢٢٦)، المتقى الهندى فى الكنز (٣٥٤٣٨).

دهاك؟ قال: إنى أخشى أن يكون بى لمم. فقلن: ما كان الله عز وجل ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذى رأيت؟.

قال: إنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى: وراءك يا محمد لا تمسه. قالت: فما عاد إلى عيد لهم حتى نبئ صلوات الله عليه وعلى آله.

ولما بلغ رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خويلد، فيما ذكره غير واحد من أهل العلم(١).

وذكر الواقدى بإسناد له إلى نفيسة بنت منية أخت يعلى بن منية، وقد رويناه أيضًا من طريق أبى على بن السكن، وحديث أحدهما داخل فى حديث الآخر مع تقارب اللفظ، وربما زاد أحدهما الشىء اليسير، وكلاهما ينمى إلى نفيسة.

قالت: لما بلغ رسول الله ﷺ، خمسًا وعشرين سنة وليس له بمكة اسم إلا الأمين، لما تكاملت فيه من خصال الخير، قال أبو طالب: يا ابن أخى أنا رجل لا مال لى، وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون منكرة، وليست لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك فى عيراتها فيتجرون لها فى مالها ويصيبون منافع.

فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك، وإن كنت لأكره أن تأتى الشام وأخاف عليك من يهود، ولكن لا تجد من ذلك بدا.

وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام، فتكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع إليهم المال مضاربة. وكانت قريش قومًا تجارًا، ومن لم يكن تاجرًا من قريش فليس عندهم بشىء.

فقال رسول الله ﷺ: فلعلها ترسل إلى فى ذلك. فقال أبو طالب: إنى أخاف أن تولى غيرك، فتطلب أمرًا مدبرًا. فافترقا، وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له، وقبل ذلك ما قد بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته وكريم أخلاقه، فقالت: ما علمت أنه يريد هذا.

---

(١) انظر: السيرة (١/١٦٥)، طبقات ابن سعد (٨/١٤ - ١٩)، الروض الأنف للسهيلى (٤/٢٦٧)، تاريخ الطبرى (٣/١٦١).

ثم أرسلت إليه فقالت: إنه دعانى إلى البعث إليك ما بلغنى من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلاً من قومك. ففعل رسول الله ﷺ، ولقى أبا طالب فذكر له ذلك، فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك.

فخرج مع غلامها ميسرة حتى قدم الشام، وجعل عمومته يوصون به أهل العير، حتى قدم الشام فنزلا فى سوق بصرى فى ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب يقال له: نسطورا. فاطلع الراهب إلى ميسرة وكان يعرفه، فقال: يا ميسرة، من هذا الذى نزل تحت هذه الشجرة؟.

فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرم. فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبى. ثم قال له: فى عينيه حمرة. قال ميسرة: نعم، لا تفارقه.

فقال الراهب: هو هو، وهو آخر الأنبياء، ويا ليت أنى أدركه حين يؤمر بالخروج. فوعى ذلك ميسرة. ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بصرى، فباع سلعته التى خرج بها واشترى، فكان بينه وبين رجل اختلاف فى سلعة، فقال الرجل: احلف باللات والعزى. فقال رسول الله ﷺ: ما حلفت بهما قط. فقال الرجل: القول قولك.

ثم قال لميسرة، وخلا به: يا ميسرة، هذا نبى، والذى نفسى بيده إنه لهو، تجده أحبارنا منعوتًا فى كتبهم فوعى ذلك ميسرة. ثم انصرف أهل العير جميعًا. وكان ميسرة يرى رسول الله ﷺ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر، يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو على بعيره.

قال: وكان الله عز وجل قد ألقى على رسول الله ﷺ المحبة من ميسرة، فكان كأنه عبد لرسول الله. فلما رجعوا وكانوا بمر الظهران تقدم رسول الله ﷺ حتى دخل مكة فى ساعة الظهيرة، وخديجة فى علية لها، معها نساء فيهن نفيسة بنت منية، فرأت رسول الله ﷺ حين دخل وهو راكب على بعيره، وملكان يظلان عليه، فأرته نساءها، فعجبن لذلك.

ودخل عليها رسول الله ﷺ فخبرها بما ربحوا، فسرت بذلك. فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت، فقال لها ميسرة: قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام. وأخبرها بقول الراهب نسطورا، وقول الآخر الذى خالفه فى البيع. قالوا: وقدم رسول الله ﷺ بتجارتها، فربحت ضعف ما كانت تربح، وأضعفت له ما سمت له. فلما استقر عندها هذا، وكانت امرأة حازمة شريفة لبيبة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهى

يومئذ أوسط نساء قريش نسبًا، وأعظمهن شرفًا، وأكثرهن مالاً، وكل قومها كان حريصًا على نكاحها لو يقدر عليه، عرضت عليه نفسها.

فقالت له فيما يزعمون: يا ابن عم، إنى قد رغبت فيك لقرابتك وصيتك فى قومك وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك. فلما قالت له ذلك، ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب يرحمه الله حتى دخل على خويلد بن أسد، فخطبها إليه فتزوجها. هكذا ذكر ابن إسحاق(١).

وذكر الواقدى وغيره من حديث نفيسة، أن خديجة أرسلت إليه دسيسًا، فدعته إلى تزوجها. فلما أجاب رسول الله ﷺ أرسلت إلى عمها عمرو بن أسد فحضر، ودخل رسول الله ﷺ فى عمومته فزوجه أحدهم. وقال عمرو: هذا الفحل لا يقدح أنفه.

قال ابن هشام: وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة(٢). وكانت أول امرأة تزوجها، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت.

قال ابن إسحاق فولدت خديجة لرسول الله ﷺ ولده كلهم، إلا إبراهيم: القاسم وبه كان يكنى والطاهر، والطيب، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة(٣).

فأما القاسم والطاهر والطيب فهلكوا فى الجاهلية. وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام، فأسلمن وهاجرن معه. هذا قول ابن إسحاق فى ذكور البنين، أنهم هلكوا فى الجاهلية(٤).

وقال الزبير بن بكار، وهو من أئمة هذا الشأن: ولدت له القاسم، وعبد الله وهو الطاهر والطيب، ولد بعد النبوة ومات صغيرًا(٥). وفى مسند الفريابى، ما يدل على أنه مات قبل أن يتم رضاعه وبعد النبوة.

---

(١) انظر: السيرة (١/١٦٥ - ١٦٨).

(٢) انظر: السيرة (١/١٦٦).

(٣) انظر: السيرة (١/١٦٦).

(٤) انظر: السيرة (١٦٧).

(٥) قيل: أن عبد الله يسمى الطيب والطاهر وهو ولد بعد النبوة على الصحيح وهو الذى مات بمكة صغيرًا، فقال العاص بن وائل السهمى: قد انقطع ولده فهو أبتر، يعنى النبى، فنزل فيه قوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾. وانظر: المختصر الصغير (٦٨)، تاريخ دمشق لابن عساكر (١/١٠٣ - ١٠٨)، ابن الجوزى فى تلقيح فهوم أهل الأثر (٣٠).

وذلك أن خديجة دخل عليها رسول الله ﷺ بعد موت القاسم وهى تبكى عليه، فقالت: يا رسول الله، لو كان عاش حتى تكمل رضاعته لهون على. فقال: إن له مرضعًا فى الجنة تستكمل رضاعته. فقالت: لو أعلم ذلك لهون على. فقال: إن شئت أسمعتك صوته فى الجنة. فقالت: بل أصدق الله ورسوله.

قال ابن هشام(١): وأما إبراهيم فأمه مارية سرية النبى ﷺ التى أهداها إليه المقوقس من حفن من كورة أنصناء. وهى قبطية من قبط مصر، وهذا هو الصهر الذى ذكره لهم رسول الله ﷺ فى قوله: «الله الله فى أهل الذمة، أهل المدرة السوداء السحم الجعاد، فإن لهم نسبًا وصهرًا»(٢).

قال مولى غفرة: نسبهم أن أم إسماعيل النبى عليه السلام منهم، وصهرهم أن رسول الله ﷺ تسرر فيهم. وفى حديث آخر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا».

قال ابن إسحاق(٣): وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى وكان ابن عمها وكان نصرانيًا قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس، ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه.

فقال ورقة: لئن كان هذا حقا يا خديجة إن محمدًا لنبى هذه الأمة، قد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبى ينتظر، هذا زمانه. أو كما قال. فجعل ورقة يستبطئ الأمر ويقول: حتى متى؟! وقال فى ذلك:

لججت وكنت فى الذكرى لجوجًا ... لهم طالما بعث النشيجا(٤)
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظارى يا خديجا
ببطن المكتين على رجائى ... حديثك أن أرى منه خروجا
بما خبرتنا من قول قس ... من الرهبان أكره أن يعوجا(٥)
بأن محمدًا سيسود يومًا ... ويخصم من يكون له حجيجا

---

(١) انظر: السيرة (١/١٦٧).

(٢) أخرجه المتقى الهندى فى الكنز (٣٤٠٢٣)، الهيثمى فى المجمع (١٠/٦٣)، السيوطى فى جمع الجوامع (٩٦٥٩).

(٣) انظر: السيرة (١/١٦٧).

(٤) النشيجا: هو البكاء مع صوت، والألف الملقحة للإطلاق.

(٥) القس: هو عابد النصارى.

ويظهر فى البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن تموجا
فيلقى من يحاربه خسارا ... ويلقى من يسالمه فلوجا
فيا ليتى إذا ما كان ذاكم ... شهدت فكنت أولهم ولوجا
ولوجًا فى الذى كرهت قريش ... ولو عجت بمكتها عجيجا
أرجى بالذى كرهوا جميعًا ... إلى ذى العرش إن سلفوا عروجا
وهل أمر السفاهة غير كفر ... بمن يختار من سمك البروجا
فإن يبقوا وأبق تكن أمور ... يضج الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلك فكل فتى سيلقى ... من الأقدار متلفة حروجا

وقال ورقة بن نوفل أيضًا فى ذلك، وهو مما رواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق:

أتبكر أم أنت العشية رائح ... وفى الصدر من إضمارك الحزن قادح
لفرقة قوم لا أحب فراقهم ... كأنك عنهم بعد يومين نازح
وأخبار صدق خبرت عن محمد ... يخبرها عنه إذا غاب ناصح
فتاك الذى وجهت يا خير حرة ... بغدو وبالنجدين حيث الصحاصح
إلى سوق بصرى فى الركاب التى غدت ... وهن من الأحمال قعص دوالح
فخبرنا عن كل حبر بعلمه ... وللحق أبواب لهن مفاتح
بأن ابن عبد الله أحمد مرسل ... إلى كل من ضمت عليه الأباطح
وظنى به أن سوف يبعث صادقًا ... كما أرسل العبدان هود وصالح
وموسى وإبراهيم حتى يرى له ... بهاء ومنشور من الذكر واضح
ويتبعه حيا لؤى بن غالب ... شبابهم والأشيبون الجحاجح
فإن أبق حتى يدرك الناس دهره ... فإنى به مستبشر الود فارح
وإلا فإنى يا خديجة فاعلمى ... عن أرضك فى الأرض العريضة سائح

* * *

ذكر بنيان قريش الكعبة
مع ذكر ما أحدثوه فى المناسك

ولما بلغ رسول الله ﷺ خمسًا وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة. قال موسى بن عقبة: وإنما حمل قريشًا على ذلك أن السيل كان أتى من فوق الردم الذى صنعوا فأخربه، فخافوا أن يدخلها الماء، وكان رجل يقال له: مليح سرق طيب الكعبة.

فأرادوا أن يشدوا بنيانها، وأن يرفعوا بابها، حتى لا يدخلها إلا من شاءوا وأعدوا لذلك نفقة، وعمالاً، ثم عمدوا إليها ليهدموها على شفق وحذر من أن يمنعهم الله الذى أرادوا.

قال ابن إسحاق[١]: وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها، وإنما كانت رضما[٢] فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وذلك أن نفرًا سرقوا كنز الكعبة، وإنما كان يكون فى بئر فى جوف الكعبة.

قال: وكان الذى وجد عنده الكنز دويك مولى لبنى مليح بن عمرو، من خزاعة قال ابن هشام: فقطعت قريش يده. وتزعم قريش أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك.

قال: وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها، وكان بمكة رجل قبطى نجار، فتهيأ فى أنفسهم بعض ما يصلحها.

وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التى كان يطرح فيها ما يهدى لها، فتتشرف على جدار الكعبة، وكانت مما يهابون، وذلك أنه كان لا يدخلها أحد إلا احزألت[٣] وكشت[٤] وفتحت فاها، فكانوا يهابونها. فبينا هى يومًا تتشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع، بعث الله إليها طائرًا فاختطفها، فذهب بها.

فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا، عندنا عامل رفيق وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحية.

فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنيانها، قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران ابن مخزوم، فتناول من الكعبة حجرًا فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريش، لا تدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيبًا، لا تدخلوا فيها معر بغى ولا بيع ربًا، ولا مظلمة أحد من الناس. والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم[٥].

---

(١) انظر: السيرة (١/١٦٨).

(٢) رضما: الرضم الحجارة يجعل بعضها على بعض.

(٣) احزألت: أى رفعت رأسها.

(٤) كشت: صوتت باحتكاك بعض جلدها ببعض.

(٥) ذكره الطبرى فى تاريخه (١/٥٢٥)، البيهقى فى الدلائل (٢/٦١).

ثم إن قريشًا تجزأت الكعبة، فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وبنى سهم، وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى، ولبنى أسد بن عبد العزى بن قصى، ولبنى عدى بن كعب رهو الحطيم.

ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم فى هدمها، فأخذ المعول، ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم ترع، ويقال: لم نزع اللهم إنا لا نريد إلا الخير.

ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شىء هدمنا، فقد رضى الله ما صنعنا.

فأصبح الوليد من ليلته غاديًا إلى عمله، فهدم وهدم الناس معه، حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس أساس إبراهيم أفضوا إلى حجارة خضر، كالأسنة آخذ بعضها بعضًا.

وقال ابن إسحاق(١): فحدثنى بعض من يروى الحديث: أن رجلاً من قريش ممن كان يهدمها، أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما، فلما تحرك الحجر تنقضت مكة بأسرها، فانتهوا عن ذلك الأساس.

قال(٢): وحدثت أن قريشًا وجدوا فى الركن كتابًا بالسريانية، فلم يدروا ما هو حتى قرأه لهم رجل من يهود، فإذا هو: أنا الله ذو بكة، خلقتها يوم خلقت السموات والأرض، وصورت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء، لا تزول حتى يزول أخشباها، مبارك لأهلها فى الماء واللبن.

وحدثت أنهم وجدوا فى المقام كتابًا فيه: مكة بيت الله الحرام، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل، لا يحلها أول من أهلها. وزعم ليث بن أبى سليم أنهم وجدوا حجرا فى الكعبة قبل مبعث النبى ﷺ بأربعين سنة إن كان ما يذكر حقًا، مكتوبًا فيه: من يزرع خيرًا يحصد غبطة، ومن يزرع شرًا يحصد ندامة، تعملون السيئات، وتجزون الحسنات!! أجل كما لا يجتنى من الشوك العنب.

---

(١) انظر: السيرة (١/١٧٠ - ١٧١).

(٢) انظر: السيرة (١/١٧١).

قال ابن إسحاق[1]: ثم إن القبائل من قريش، جمعت الحجارة لبنيانها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تجاوزوا وتحالفوا، وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى على الموت، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة، فسموا لعقة الدم. فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسًا، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد، فتشاوروا وتناصفوا.

فزعم بعض أهل الرواية، أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان عامئذ أسن قريش كلها، قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه، أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم؛ ففعلوا. فكان أول داخل رسول الله ﷺ فلما رأوه، قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ: «هلم إلى ثوبًا». فأتى به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعًا». ففعلوا: حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ﷺ، ثم بنى عليه[2].

وكانت الكعبة على عهد النبى ﷺ، ثمانى عشرة ذراعًا، كانت تكسى القباطى، ثم كسيت البرود. وأول من كساها الديباج، الحجاج بن يوسف. هذا قول ابن إسحاق[3]. وقال الزبير: أول من كساها الديباج عبد الله بن الزبير.

وذكر جماعة سواهما منهم الدارقطنى: أن نتلة بنت جناب، أم العباس بن عبد المطلب، كانت قد أضلت العباس يومئذ وهو صغير، فنذرت إن هى وجدته أن تكسو الكعبة الديباج، ففعلت ذلك حين وجدته.

وذكر الزبير أن الذى أضلته نتلة بنت جناب إنما هو ابنها ضرار بن عبد المطلب شقيق العباس، ونذرت أن تكسو البيت إن وجدته، فكسته حين وجدته ثيابًا بيضًا، فالله تعالى أعلم.

---

(١) انظر: السيرة (١/١٧١).

(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣/٤٢٥)، مسند أبى داود الطيالسى (١١٣)، مستدرك الحاكم (١/٤٥٨)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/٥٦، ٥٧)، مصنف عبد الرزاق (٥/٩٨، ١٠٠)، الهيثمى فى المجمع (٣/٢٩٢).

(٣) انظر: السيرة (١/١٧٣).

قال ابن إسحاق[١]: وكانت قريش لا أدرى أقبل الفيل أم بعده ابتدعت أمر الحمس[٢]، رأيًا رأوه وأداروه.

فقالوا: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة وولاة البيت، وقاطن مكة وساكنها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا، ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا، فلا تعظموا شيئًا من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم، وقالوا: قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم.

فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها، وأن يفيضوا منها، إلا أنهم قالوا: نحن أهل الحرم، وليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرمة، ولا نعظم غيرها كما نعظمها، نحن الحمس، والحمس أهل الحرم. ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذى لهم بولادتهم إياهم، يحل لهم ما يحل لهم ويحرم عليهم ما يحرم عليهم.

ثم ابتدعوا فى ذلك أمورًا لم تكن لهم، حتى قالوا: لا ينبغى للحمس أن يأتقطوا الأقط[٣]، ولا يسألوا السمن[٤] وهم حرم، ولا يدخلوا بيتًا من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما كانوا حرما.

ثم رفعوا فى ذلك فقالوا: لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجًا أو عمارًا، ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس، فإن لم يجدوا منها شيئًا طافوا بالبيت عراة، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة، ولم يجد ثياب أحمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل، ألقاها إذا فرغ من طوافه، ثم لم ينتفع بها، ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبدًا، فكانت العرب تسمى تلك الثياب اللقى.

فحملوا على ذلك العرب فدانت به، فوقفوا على عرفات وأفاضوا منها، وطافوا بالبيت عراة، أما الرجال فيطوفون عراة، وأما النساء فتضع إحداهن ثيابها كلها إلا ثوبا مفرجا عليها، ثم تطوف فيه.

---

(١) انظر: السيرة (١/١٧٣ - ١٧٧).

(٢) الحمس: جمع أحمس، وهو شديد الصلب.

(٣) الأقط: شيء يتخذ من المخيض الغنمى، وجمعه أقطان.

(٤) يسلئوا السمن: يقال سلأت السمن وأستلأته إذا طبخ.

فكانوا كذلك حتى بعث الله رسوله محمدًا ﷺ، فأنزل الله عليه حين أحكم له دينه وشرع له سنن حجه: ﴿**ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس**﴾ الآية [البقرة: ١٩٩]. يعنى قريشًا، والناس العرب. فرفعهم فى سنة الحج إلى عرفات والوقوف عليها والإفاضة منها.

وأنزل عليه فيما كانوا حرموا على الناس من طعامهم ولبوسهم عند البيت، حين طافوا عند البيت عراة وحرموا ما جاءوا به من الحل من الطعام: ﴿**يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق**﴾ الآية كلها [الأعراف: ٣١ -٣٢]. فوضع الله أمر الحمس، وما كانت قريش ابتدعت منه عن الناس، بالإسلام حين بعث الله به رسوله(١). ولم يكن رسول الله ﷺ بالموافق قومه على تغيير مشاعر الحج والعدول عن مواقف الناس.

قال جبير بن مطعم: لقد رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى، وإنه لواقف على بعيره بعرفات مع الناس من بين قومه حتى يدفع معهم، توفيقًا من الله له(٢).

وقد تقدم ما أحدثوه فى النسيء، وما أبطل الله من حكمه بقوله سبحانه: ﴿**إنما النسيء زيادة فى الكفر**﴾ [التوبة: ٣٧]، فأغنى ذلك عن إعادته.

* * *

ذكر ما حفظ عن الأحبار والرهبان والكهان من أمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه سوى ما تقدم من ذلك مع ذكر شىء مما سمع من ذلك عند الأصنام أو هتفت به الهواتف

قال ابن إسحاق(٣): وكانت الأحبار من يهود، والرهبان من النصارى، والكهان من العرب، قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لما تقارب من زمانه. أما الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، فعما وجدوا فى كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه.

---

(١) انظر: السيرة (١/١٧٧).

(٢) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٢/٣٠٥).

(٣) انظر: السيرة (١/١٧٧ - ١٨٢).

وأما الكهان من العرب فأتتهم به الشياطين فيما تسترق من السمع، إذ كانت لا تحجب عن ذلك، وكان الكاهن والكاهنة، لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره لا تلقى العرب لذلك فيه بالاً، حتى بعثه الله ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرون فعرفوها.

فلما تقارب أمر رسول الله ﷺ وحضر مبعثه، حجبت الشياطين عن السمع، وحيل بينها وبين المقاعد التى كانت تقعد فيها لاستراقه، فرموا بالنجوم، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله فى العباد.

يقول الله لنبيه ﷺ حين بعثه يقص عليه خبرهم إذ حجبوا: ﴿**قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبًا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبه ولا ولدًا وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططًا وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبًا وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقًا وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدًا وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابًا رصدًا وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا**﴾ [الجن: ١، ١٠].

فلما سمعت الجن القرآن عرفت أنها منعت من السمع قبل ذلك لئلا يشكل الوحى بشىء من خبر السماء فيلتبس على أهل الأرض ما جاءهم من الله فيه، لوقوع الحجة وقطع الشبهة، فآمنوا به وصدقوا. ثم: ﴿**ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسى مصدقًا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم**﴾ [الأحقاف: ٢٩، ٣٠].

وقول الجن: ﴿**وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن**﴾ الآية [الجن: ٦]، هو أن الرجل من العرب من قريش وغيرهم كان إذا سافر فنزل بطن واد من الأرض ليبيت فيه قال: إنى أعوذ بعزيز هذا الوادى من الجن الليلة من شر ما فيه.

وذكر[١] أن أول العرب فزع للرمى بالنجوم، حين رمى بها، ثقيف، وأنهم جاءوا إلى رجل منهم يقال له: عمرو بن أمية، أحد بنى علاج، وكان أدهى العرب وأنكرها رأيًا فقالوا له: يا عمرو، ألم تر ما حدث فى السماء من القذف بهذه النجوم؟.

قال: بلى، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التى يهتدى بها فى البر والبحر، وتعرف

---

(١) انظر: السيرة (١/١٧٩).

بها الأنواء من الصيف والشتاء، لما يصلح الناس فى معايشهم، هى التى يرمى بها فهو والله طى الدنيا، وهلاك هذا الخلق الذى فيها.

وإن كانت نجومًا غيرها، وهى ثابتة على حالها، فهذا لأمر أراد الله به هذا الخلق. فما هو؟!.

وقد قال رسول الله ﷺ لنفر من الأنصار: «ما كنتم تقولون فى هذا النجم الذى يرمى به؟». قالوا: يا نبى الله، كنا نقول حين رأيناها يرمى بها: مات مَلِكٌ، مُلِّكَ مَلِكٌ ولد مولود، مات مولود، فقال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك كذلك، ولكن الله تبارك وتعالى، كان إذا قضى فى خلقه أمرًا سمعه حملة العرش فسبحوا، فسبح من تحتهم لتسبيحهم، فسبح من تحت ذلك، فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهى إلى السماء الدنيا فيسبحوا. ثم يقول بعضهم لبعض: مم سبحتم؟ فيقولون: سبح من فوقنا فسبحنا لتسبيحهم. فيقولون: ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا؟ فيقولون مثل ذلك، حتى ينتهوا إلى حملة العرش، فيقال لهم: مم سبحتم؟ فيقولون: قضى الله فى خلقه كذا وكذا؟ للأمر الذى كان. فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهى إلى السماء الدنيا، فيتحدثوا به، فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاف، ثم يأتون به الكهان فيخطئون بعضًا ويصيبون بعضًا، ثم إن الله حجب الشياطين بهذه النجوم التى يقذفون بها، فانقطعت الكهانة اليوم، فلا كهانة»[(١)].

وذكر أبو جعفر العقيلى بإسناد له، إلى لهيب بن مالك اللهبى قال: حضرت عند رسول الله ﷺ فذكرت عنده الكهانة، فقلت: بأبى أنت وأمى نحن أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين، ومنعهم من استراق السمع عند قذف النجوم، وذلك أنا اجتمعنا إلى كاهن لنا يقال له: خطر بن مالك، وكان شيخًا كبيرًا، قد أتت عليه مائة سنة وثمانون سنة، وكان من أعلم كهاننا، فقلنا: يا خطر، هل عندك علم من هذه النجوم التى يرمى بها؟ فإنا قد فزعنا لها وخفنا سوء عاقبتها.

فقال: ائتونى بسحر، أخبركم الخبر، ألخير أم ضرر، ولأمن أو حذر. قال: فانصرفنا عن يومنا، فلما كان من غد فى وجه السحر أتيناه، فإذا هو قائم على قدميه شاخص فى السماء بعينيه، فناديناه: يا خطر، يا خطر. فأومأ إلينا أن أمسكوا فأمسكنا.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب السلام باب تحريم الكهانة (٥٧١)، الترمذى فى سننه (٣٢٢٤)، الإمام أحمد فى المسند (٢١٨/١)، البيهقى فى الدلائل (٢٣٦/٢، ٢٣٧).

فانقض نجم عظيم من السماء، وصرخ الكاهن رافعًا صوته: أصابه أصابه، خامره عقابه، عاجله عذابه، أحرقه شهابه، زايله جوابه، يا ويحه ما حاله، بلبله بلباله، عاوده خباله، تقطعت حباله، وغيرت أحواله.

ثم أمسك طويلاً وقال: يا معشر بنى قحطان، أخبركم بالحق والبيان، أقسمت بالكعبة والأركان، والبلد المؤتمن السدان، لقد منع السمع عتاة الجان، بثاقب، بكف ذى سلطان من أجل مبعوث عظيم الشأن يبعث بالتنزيل والقرآن وبالهدى وفاصل الفرقان، تبطل به عبادة الأوثان. قال: فقلنا: يا خطر، إنك لتذكر أمرًا عظيمًا، فماذا ترى لقومك؟. فقال:

أرى لقومى ما أرى لنفسى
أن يتبعوا خير بنى الإنس
برهانه مثل شعاع الشمس
يبعث فى مكة دار الحمس
بمحكم التنزيل غير اللبس.

فقلنا له: يا خطر، وممن هو؟ فقال: والحياة والعيش، إنه لمن قريش، ما فى حلمه طيش ولا فى خلقه هيش يكون فى جيش وأى جيش! من آل قحطان وآل أيش. فقلنا: بين لنا من أى قريش هو؟. فقال: والبيت ذى الدعائم، إنه لمن نجل هاشم، من معشر أكارم، يبعث بالملاحم، وقتل كل ظالم. ثم قال: هذا هو البيان، أخبرنى به رئيس الجان. ثم قال: الله أكبر، جاء الحق وظهر، وانقطع عن الجن الخبر. ثم سكت وأغمى عليه، فما أفاق إلا بعد ثالثة، فقال: لا إله إلا الله.

فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، لقد نطق عن مثل نبوة، وإنه ليبعث يوم القيامة أمة وحده».

قال ابن إسحاق[١]: وحدثنى بعض أهل العلم أن امرأة من بنى سهم يقال لها الغيطلة، كانت كاهنة فى الجاهلية، جاءها صاحبها ليلة من الليالى فانقض تحتها[٢]، ثم قال: بدر ما بدر، يوم عقر ونحر. فقالت قريش حين بلغها ذلك: ما يريد؟ ثم جاءها ليلة أخرى فانقض تحتها، ثم قال: شعوب ما شعوب، تصرع فيه كعب لجنوب. فلما بلغ

---

(١) انظر: السيرة (١/١٨٠).

(٢) انقض تحتها: أى تكلم بصوت خفى.

ذلك قريشًا، قالوا: ماذا يريد؟ إن هذا لأمر هو كائن فانظروا ما هو. فما عرفوه حتى كانت وقعة بدر وأحد بالشعب، فعرفوا أنه كان الذى جاء به إلى صاحبته.

قال[١]: وحدثنى على بن نافع الجرشى أن جنبا[٢] بطنًا من اليمن، كان لهم كاهن فى الجاهلية، فلما ذكر أمر رسول الله ﷺ وانتشر فى العرب قالت له جنب: انظر لنا فى أمر هذا الرجل. واجتمعوا له فى أسفل جبله.

فنزل عليهم حين طلعت الشمس فوقف لهم قائمًا متكئًا على قوس له، فرفع رأسه إلى السماء طويلاً، ثم جعل ينزو ثم قال: أيها الناس، إن الله أكرم محمدًا واصطفاه، وطهر قلبه وحشاه، ومكثه فيكم أيها الناس قليل. ثم أسند فى جبله راجعًا من حيث جاء.

وحدثنى من لا أتهم[٣]، أن عمر بن الخطاب بينا هو جالس فى الناس فى مسجد رسول الله ﷺ، إذ أقبل رجل من العرب يريد عمر، فلما نظر إليه عمر قال: إن الرجل لعلى شركه ما فارقه، أو لقد كان كاهنًا فى الجاهلية، فسلم عليه الرجل، ثم جلس، فقال له عمر: هل أسلمت؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فهل كنت كاهنًا فى الجاهلية؟ فقال الرجل: سبحان الله يا أمير المؤمنين! لقد خلت فى واستقبلتنى بأمر ما أراك قلته لأحد من رعيتك منذ وليت، فقال عمر: اللهم غفرًا، قد كنا فى الجاهلية على شر من هذا، نعبد الأصنام ونعتنق الأوثان، حتى أكرمنا الله برسوله وبالإسلام، قال: نعم، والله يا أمير المؤمنين، لقد كنت كاهنًا فى الجاهلية. قال: فأخبرنى، ما جاء به صاحبك، قال: جاءنى قبيل الإسلام بشهر أو شيعه، فقال: ألم تر إلى الجن وإبلاسها[٤] وإياسها من دينها، ولحوقها بالقلاص[٥] وأحلاسها[٦]!.

---

(١) انظر: السيرة (١/ ١٨٠).

(٢) جنبًا: جنب من مزحش وهم عبد الله، وأنس الله، وزيد الله، وأوس الله، وجعفى والحكم وجروة بنو سعد العشيرة بن مزحش، ومزحش هو مالك بن أدد وسموا جنبًا لأنهم جانبوا بنى عمهم صداء ويزيد ابنى سعد العشيرة بن مزحش.

(٣) انظر: السيرة (١/ ١٨١).

(٤) إبلاسها: أبلس الرجل إذا سكت ذليلاً أو مغلوبًا.

(٥) القلاص: القلاص من الإبل: الفتية.

(٦) أحلاسها: جمع حلاس، وهو كساء جلد يوضع على ظهر البعير ثم يوضع عليه الرجل ليقيه من الدبر.

قال ابن هشام: هذا الكلام سجع وليس بشعر، وأنشدنى بعض أهل العلم بالشعر:

عجبت للجن وإبلاسها ... وشدها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما مؤمن الجن كأنجاسها

فقال عمر رضى الله عنه، عند ذلك، يحدث الناس: والله إنى لعند وثن من أوثان الجاهلية فى نفر من قريش، قد ذبح لهم رجل من العرب عجلاً، فنحن ننتظر قسمه ليقسم لنا منه، إذ سمعت من جوف العجل صوتًا ما سمعت قط أنفذ منه، وذلك قبيل الإسلام بشهر أو شيعه يقول: يا ذريح أمر نجيح، رجل يصيح يقول: لا إله إلا الله[(١)].

قال ابن هشام: ويقال: رجل يصيح بلسان فصيح يقول: لا إله إلا الله. وهذا الرجل الذى ظن به عمر رضى الله عنه، ما ظن، هو سواد بن قارب الدوسى[(٢)]، وكان يتكهن فى الجاهلية.

وقد ذكر خبره غير ابن إسحاق، فساقه سياقة أحسن من هذه وأتم، وذكر فيه أنه كان نائمًا على جبل من جبال السراة ليلة من الليالى، فأتاه آت، فضربه برجله وقال: قم يا سواد بن قارب، أتاك رسول من لؤى بن غالب. قال: فرفعت رأسى وجلست فأدبر وهو يقول:

عجبت للجن وتطلابها ... وشدها العيس بأقتابها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما صادق الجن ككذابها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ... ليس قداماها كأذنابها[(٣)]

وأتاه فى الليلة الثانية، فضربه برجله، وقال: قم يا سواد بن قارب، أتاك رسول من لؤى بن غالب. قال: فرفعت رأسى وجلست، فأدبر وهو يقول:

عجبت للجن وأخبارها ... ورحلها العيس بأكوارها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ... ما مؤمنوها مثل كفارها

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى فى كتاب مناقب الأنصار، باب إسلام عمر، رضى الله عنه (٧/حديث رقم ٣٨٦٦).

(٢) هو: سواد بن قارب الدوسى. كذا قال الكلبى، وقال ابن أبى خيثمة: سواد بن قارب سدوسى من بنى سدوس. انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١١١٤)، الإصابة الترجمة رقم (٣٥٩٦)، أسد الغابة الترجمة رقم (٢٣٣٤)، تجريد أسماء الصحابة (٢٤٨/١)، الوافى بالوفيات (٣٥/١٦)، التاريخ الكبير (٢٠٢/٤)، الأعلام (١٤٤/٣).

(٣) انظر الأبيات فى: الاستيعاب (٢٢٤/٢).

فارحل إلى الصفوة من هاشم ليس قداماها كأدبارها

وأتاه فى الليلة الثالثة بعدما نام، فضربه برجله وقال: قم يا سواد بن قارب أتاك رسول الله ﷺ من لؤى بن غالب قال: فرفعت رأسى فجلست، فأدبر وهو يقول:

عجبت للجن وإبلاسها ورحلها العيس بأحلاسها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنوها مثل أرجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم وارم بعينيك إلى رأسها

قال: فلما أصبحت اقتعدت بعيرى فأتيت مكة، فإذا رسول الله ﷺ قد ظهر، فأخبرته الخبر وبايعته. وفى بعض طرق حديثه أنه أنشد رسول الله ﷺ شعرًا منه فى معنى ما جاءه به رئيه[1]:

أتانى رئى بعد هدء وهجعة ولم يك فيما قد بلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة أتاك رسول من لؤى بن غالب
فرفعت أذيال الإزار وشمرت بى العرمس الوجنا هجول السباسب
فأشهد أن الله لا شىء غيره وأنك مأمون على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك من وحى ربنا وإن كان فيما جئت شيب الذوائب
وكن لى شفيعًا حين لا ذو قرابة بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

ولسواد بن قارب هذا مقام حميد فى قومه دوس، حين بلغهم وفاة رسول الله ﷺ، يثبتهم فى الدين ويحضهم على التمسك بالإسلام، سنذكره إن شاء الله مع نظائره بعد استيفاء الخبر عن وفاة رسول الله ﷺ.

وذكر الواقدى بإسناد له قال: كان أبو هريرة يحدث أن قومًا من خثعم كانوا عند صنم لهم جلوسًا، وكانوا يتحاكمون إلى أصنامهم، فيقال لأبى هريرة: هل كنت أنت تفعل ذلك؟ فيقول: قد والله فعلت فأكثرت، فالحمد لله الذى تنقذنى بمحمد ﷺ.

قال أبو هريرة: فبينا الخثعميون عند صنمهم إذ سمعوا هاتفًا يهتف:

يا أيها الناس ذوو الأجسام
ومسندو الحكم إلى الأصنام
أكلكم أوره كالكهام

---

(١) ذكرها فى الاستيعاب (٢/٢٢٤).

ألا تـــرون مـــا أرى أمـــامى
مـن سـاطع يجلـو دجـى الظـلام
ذاك نبـــى ســيد الأنـــام
مــن هاشــم فــى ذروة الســنام
مســتعلن بـــالبلد الحـــرام
جـاء بهـدم الكفـر بالإســلام
أكرمــه الرحمـــن مــن إمـام

قال أبو هريرة: فأمسكوا ساعة حتى حفظوا ذلـك ثـم تفرقـوا، فلـم تمـض بهـم ثالثة حتى فجأهم خبر رسول الله ﷺ أنه قـد ظهـر بمكـة. قـال: فمـا أسـلم الخثعميـون حتـى استأخر إسلامهم ورأوا عبرًا عند صنمهم.

وذكر الواقدى أيضًا أن رجلاً من الأنصار حدث عمر بن الخطـاب رضـى اللـه عنـه، قال: انطلقت أنا وصاحبان لى نريد الشام، حتـى إذا كانـا بقفـرة مـن الأرض نزلنـا بهـا، فبينا نحن كذلك لحقنا راكب، فكنا أربعة وقـد أصابنـا سـغب شـديد، والتفـت فـإذا أنـا بظبية عضباء ترتع قريبًا منى فوثبت إليها. فقال الرجل الذى لحقنـا: خـل سـبيلها، لا أبـا لك، والله لقد رأيتنا ونحن نسلك هـذا الطريـق ونحـن عشـرة أو أكـثر فيختطـف بعضنـا بعضا، فما هو إلا أن كانت هذه الظبية فما يهاج بها أحد.

فأبيت وقلت: لا لعمر الله لا أخليهـا، فارتحلنـا وقـد شـددتها معـى، حتـى إذا ذهـب سدف من الليل إذا هاتف يهتف بنا ويقول:

يـا أيهـا الركـب السـراع الأربعـه
خلـــوا ســـبيل النـــافر المفزعـــه
خلوا عن العضباء فى الوادى سعه
لا تذبحـــن الظبيـــة المروعـــه
فيهـــا لأيتـــام صغـــار منفعـه

قال: فخليت سبيلها، ثم انطلقنا حتى أتينا الشام، فقضينا حوائجنا، ثم أقبلنا حتـى إذا كنا بالمكان الذى كنا فيه هتف بنا هاتف من خلفنا:

إيـاك لا تعجـل وخذهـا مـن ثقـه
فـإن شـر السـير سـير الحقحقـه

قــد لاح نجــم فأضــاء مشــرقه
يخرج مـن ظلمـا عسوف موبقـه
ذاك رســول مفلــح مــن صدقــه
اللــه أعلــى أمــره وحققـــه

قال الرجل: فأتيت مكة فإذا رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام. فقال عمر: الحمد للـه الذى أكرمنا بمحمد ﷺ.

وروينا عن أبى المنذر هشام بن محمد الكلبى بإسناد متصـل إليـه قـال: لقيت شيوخًا من شيوخ طيئ المقدمين، فسألتهم عـن قصة مـازن يعنى مـازن بـن الغضوبـة الطـائى، وسبب إسلامه ووفوده على رسول الله ﷺ وإقطاعه أرض عمان، وذلك بمن الله وفضله.

وكان مازن بأرض عمان بقرية تدعى سنابل. قـال مـازن: فعترت ذات يـوم عتيرة، وهى الذبيحة، فسمعت صوتًا من الصنم يقول: يا مازن أقبل أقبل، فاسـمع مـا لا تجهـل، هذا نبى مرسل، جاء بحق منزل، فآمن بـه كـى تعـزل، عـن حـر نـار تشـعل، وقودهـا بالجندل.

قال مازن: فقلت: إن هذا والله لعجب، ثم عترت بعد أيـام عتـيرة أخـرى، فسـمعت صوتًا أبين من الأول، وهو يقول: يا مازن اسمع تسر، ظهر خير وبطن شر، بعث نبى من مضر، بدين الله الأكبر، فدع نحيتًا من حجر، تسلم من حر سقر.

قال مازن: فقلت إن هذا والله لعجب وإنه لخير يراد بى، وقدم علينا رجـل مـن أهـل الحجاز فقلنا: ما الخبر وراءك؟ قال: خرج بتهامة رجل يقول لمن أتاه: أجيبوا داعى اللـه، يقال له: أحمد.

فقلت: هذا والله نبأ ما سمعت. فثرت إلى الصنم فكسرته جذاذا وشـددت راحلتـى ورحلت، حتى أتيت رسول الله ﷺ فشرح لى الإسلام فأسلمت، فأنشأت أقول:

كسرت يـاجر أجـذاذا وكـان لنـا   ربًـا نطيـف بـه ضـلا بتضـلال
بالهاشـمى هدانـا مـن ضلالتنـا   ولـم يكـن دينـه منـا علـى بـال
يـا راكبًـا بلغـن عمـرا وإخوتهـا   أنـى لمـن قـال ربـى ياجـر قـالى

وقلت: يا رسول الله، إنى امرؤ مولع بالطرب وشـرب الخمـر وبـالهلوك إلى النسـاء، وألحت على السنون، فأذهبن الأموال وأهزلن الذرارى والرجـال، وليس لى ولـد، فـادع الله أن يذهب عنى ما أجد ويأتينى بالحياء، ويهب لى ولدا. فقال النبى ﷺ: «اللهم أبدلـه

بالطرب قراءة القرآن، وبالحرام الحلال، وآتهم بالحياء، وهب له ولدا»[1].

قال مازن: فأذهب الله عنى كل ما أجد، وأخصبت عمان، وتزوجت أربع حرائر، ووهب الله لى حيان بن مازن، وأنشأت أقول:

إليك رسول الله سقت مطيتى ... تجوب الفيافى من عمان إلى العرج

لتشفع لى يا خير من وطئ الحصى ... فيغفر لى ربى فأرجع بالفلج

إلى معشر خالفت فى الله دينهم ... فلا رأيهم رأيى ولا شرجهم شرجى

وكنت امرأ بالزغب والخمر مولعًا ... شبابى حتى أذن الجسم بالنهج

فأصبحت همى فى جهادٍ ونيتى ... فلله ما صومى ولله ما حجى

ومما يلحق بهذا الباب من حسان أخبار الكهان وإن كان بعد المبعث بزمان ولكنه يجتمع مع الأحاديث السابقة فى الدلالة على صدق الرسول، والإعلام بالغيب المجهول، والإرشاد إلى سواء السبيل، ما ذكره أبو على إسماعيل بن القاسم فى أماليه بإسناد له إلى ابن الكلبى عن أبيه قال:

كان خنافر بن التوأم الحميرى كاهنًا، وكان قد أوتى بسطة فى الجسم وسعة فى المال، وكان عاتيًا، فلما وفدت وفود اليمن على النبى ﷺ وظهر الإسلام أغار على إبل لمراد فاكتسحها، وخرج بأهله وماله ولحق بالشحر فحالف جودان بن يحيى الفرضمى، وكان سيد منيعًا، ونزل بواد من أودية الشحر مخصب كثير الشجر من الأيك والعرين.

قال خنافر: وكان رئيى فى الجاهلية لا يغيب عنى، فلما شاع الإسلام فقدته مدة طويلة وساءنى ذلك، فبينا أنا ليلة فى ذلك الوادى نائمًا إذ هوى هوى العقاب، فقال خنافر: قلت شصار؟ فقال: اسمع أقل. قلت: أسمع. فقال: عه تغنم، لكل مدة نهاية وكل ذى أمد إلى غاية. قلت: أجل. فقال: كل دولة إلى أجل ثم يتاح لها حول، انتسخت النحل ورجعت إلى حقائقها الملل، إنك سجير موصول والنصح لك مبذول. إنى آنست بأرض الشام نفرًا من أهل العزام حكامًا على الحكام يذكرون ذا رونق من الكلام، ليس بالشعر المؤلف، ولا بالسجع المتكلف فأصغيت فزجرت، فعاودت فظلفت، فقلت: بم تهينمون وإلام تعتزون؟ فقالوا: خطاب كبار جاء من عند الملك الجبار، فاسمع يا شصار عن أصدق الأخبار، واسلك أوضح الآثار تنج من أوار النار.

قلت: وما هذا الكلام؟ قالوا: فرقان بين الكفر والإيمان، رسول من مضر، ابتعث

---

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل (٢/٣٦، ٢٥٦)، الهيثمى فى المجمع (٨/٢٤٨).

فظهر، فجاء بقول قد بهر، وأوضح نهجًا قد دثر، فيه مواعظ لمن اعتبر، ومعاذ لمن ازدجر، ألف بالآى الكبر.

فقلت: ومن هذا المبعوث من مضر؟ قالوا: أحمد خير البشر، فإن آمنت أعطيت الشبَر، وإن خالفت أصليت سقر. فآمنت يا خنافر، وأقبلت إليك أبادر، فجانب كل نجس كافر، وشايع كل مؤمن طاهر، وإلا فهو الفراق عن لا تلاق.

قلت: من أين أبغى هذا الدين؟ قال: من ذات الإحرين والنفر الميامين أهل الماء والطين. قلت: أوضح. قال: الحق بيثرب ذات النخل، والحرة ذات النعل، فهنالك أهل الفضل والطول والمواساة والبذل.

ثم أملس عنى فبت مذعورًا أراعى الصباح، فلما برق لى النور امتطيت راحلتى وآذنت أعبدى واحتملت بأهلى، حتى وردت الجوف فرددت الإبل على أربابها بحولها وسقايها، وأقبلت أريد صنعاء، فأصبت فيها معاذ بن جبل أميرًا لرسول الله ﷺ، فبايعته على الإسلام، وعلمنى من القرآن. فمن الله على بالهدى بعد الضلالة، والعلم بعد الجهالة، وقلت فى ذلك:

ألم تر أن الله عاد بفضله ... فأنقذ من لفح الزخيخ خنافرا
وكشف لى عن حجمتى عماهما ... وأوضح لى نهجى وقد كان داثرًا
دعانى شصار للتى لو رفضتها ... لصليت جمرًا من لظى الهوب واهرا
فأصبحت والإسلام حشو جوانحى ... وجانبت من أمسى عن الحق نائرًا
وكان مضلى من هديت برشده ... فلله مغو عاد بالرشد آمرا
نجوت بحمد الله من كل قحمة ... تؤرث هلكًا يوم شايعت شاصرًا
فقد أمنتنى بعد ذاك يحابر ... بما كنت أغشى المنديات يحابرا
فمن مبلغ فتيان قومى ألوكة ... بأنى من أقتال من كان كافرا
عليكم سواء القصد لا فل حذكم ... فقد أصبح الإسلام للكفر قاهرا

وذكر ابن هشام أن بعض أهل العلم حدثه، أنه كان لمرداس أبى عباس بن مرداس السلمى وثن يعبده، وهو حجر يقال له: ضمار، فلما حضر مرداسًا الموت قال لعباس: أى بنى اعبد ضمار، فإنه ينفعك ويضرك. فبينما العباس يومًا عند ضمار، إذ سمع من جوف ضمار مناديًا يقول:

قل للقبائل من سليم كلها ... أودى ضمار وعاش أهل المسجد

إن الـذى ورث النبـوة والهـدى بعد ابن مريم مـن قريش مهتـدى
أودى ضمـار وكان يعبد مـرة قبـل الكتـاب إلى النبـى محمـد

فحرق العباس ضمار، ولحق بالنبى ﷺ فأسلم. والأخبار فى هـذا البـاب مما نقـل مـن ذلك عن الكهان، أو سمع عند الأصنام، أو هتفت به هواتـف الجـان كثـيرة جدًا، وقـد أتينا منها بما استحسناه مما ذكره ابن إسحاق، أو ذكره سواه.

قال ابن إسحاق[١]: وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة، عن رجال من قومه قـالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله لنا وهداه، لما كنا نسمع من أحبار يهود.

كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليـس لنـا، وكـانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قـد تقـارب زمـان نبى يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عادٍ وإرم، فكنا كثيرًا ما نسمع ذلـك منهـم فلمـا بعـث الله رسوله محمدًا ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كـانوا يتواعدوننـا بـه، فبادرنـا إليه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآية من البقرة: ﴿**ولما جاءهم كتـاب من عند الله مصدق لما معهم وكـانوا مـن قبـل يستفتحون على الذيـن كفـروا فلمـا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين**﴾ [البقرة: ٨٩][٢].

قال[٣]: وحدثنى صالح بن إبراهيم، عن محمود بـن لبيـد، عـن سـلمة بـن سـلامة بـن وقش، وكان من أصحاب بدر، قال كان لنا جار من يهود فى بنى عبد الأشهل، فخـرج علينا يومًا من بيته حتى وقف على بنى عبد الأشـهل، فذكـر القيامـة والبعـث والحسـاب والميزان والجنة والنار، فقال ذلـك لقـوم أهـل شـرك، أصحـاب أوثـان، لا يـرون أن بعثًـا كائن بعد الموت، فقالوا له: ويحـك يـا فـلان أوتـرى هـذا كائنًـا، أن النـاس يبعثـون بعـد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يجزون فيها بأعمالهم. قال: نعم والـذى يحلـف بـه: ولـود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور فى الدار يحمونـه ثـم يدخلونـه إياه فيطينونـه عليـه، بأن ينجو من تلك النار غدًا، فقالوا له: ويحك يا فلان، وما آية ذلك؟ قال: نبـى مبعـوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده إلى مكة واليمن. قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظـر إلى، وأنـا من أحدثهم سنا، فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه.

---

(١) انظر: السيرة (١/١٨٢).
(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١/٣٢٥)، ابن كثير فى تفسيره (١/١٧٨).
(٣) انظر: السيرة (١/١٨٣).

قال سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله محمدًا ﷺ وهو حى بين أظهرنا، فآمنا به وكفر به بغيًا وحسدًا. فقلنا له: ويحك يا فلان! ألست بالذى قلت لنا فيه ما قلت؟! قال: بلى، ولكن ليس به![١].

قال[٢]: وحدثنى عاصم بن عمر، عن شيخ من بنى قريظة، قال: قال لى: هل تدرى عم كان إسلام ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد، نفر من هدل إخوة بنى قريظة كانوا معهم فى جاهليتهم، ثم كانوا ساداتهم فى الإسلام؟ قال: قلت: لا، قال: فإن رجلاً من يهود من أهل الشام يقال له: ابن الهيبان، قدم علينا قبل الإسلام بيسير، فحل بين أظهرنا، لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلى الخمس أفضل منه، فأقام عندنا، فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا له: اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا. فيقول: لا والله حتى تقدموا بين يدى مخرجكم صدقة. فنقول له: كم؟ فيقول: صاعًا من تمر أو مدين من شعير. فنخرجهما ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقى لنا، فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ونسقى، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث، ثم حضرته الوفاة عندنا. فلما عرف أنه ميت قال: يا معشر يهود، ما ترون أنه أخرجنى من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قلنا: أنت أعلم.

قال: فإنما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبى قد أظل زمانه، وهذه البلدة مهاجرة، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا تسبقن إليه يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء وسبى الذرارى والنساء ممن خالفه، فلا يمنعنكم ذلك منه.

فلما بعث الله رسوله ﷺ وحاصر بنى قريظة قال هؤلاء الفتية، وكنا شبابًا أحداثًا: يا بنى قريظة، والله إنه للنبى الذى عهد إليكم فيه ابن الهيبان، قالوا: ليس به. قالوا: بلى والله، إنه لهو بصفته. فنزلوا فأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهاليهم[٣]. قال ابن إسحاق: فهذا ما بلغنا عن أحبار يهود.

قال[٤]: وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى، عن محمود، عن ابن عباس، قال: حدثنى سلمان الفارسى من فيه، قال: كنت رجلاً فارسيًا من أهل أصبهان، من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٤٦٧/٣).
(٢) انظر: السيرة (١٨٣/١ - ١٨٤).
(٣) أخرجه البيهقى فى الدلائل (٨٠/٢ - ٨١)، وذكره ابن سيد الناس فى عيون الأثر (١٣١/١).
(٤) انظر: السيرة (١٨٤/١ - ١٨٥).

أهل قرية يقال لها: جى، وكان أبى دهقان قريته، وكنت أحب خلق الله إليه، لم يزل به حبه إياى حتى حبسنى فى بيته كما تحبس الجارية، واجتهدت فى المجوسية حتى كنت قطن النار الذى يوقدها، ولا يتركها تخبو ساعة، وكانت لأبى ضيعة عظيمة، فشغل فى بنيان له يومًا، فقال لى: يا بنى، إنى قد شغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى، فاذهب إليها فاطلعها. وأمرنى فيها ببعض ما يريد، ثم قال لى: ولا تحتبس عنى، فإنك إن احتبست عنى كنت أهم إلى من ضيعتى وشغلتنى عن كل شىء من أمرى، فخرجت أريد ضيعته التى بعثنى إليها فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدرى ما أمر الناس، لحبس أبى إياى فى بيته.

فلما سمعت أصواتهم، دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم، ورغبت فى أمرهم وقلت: هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه. فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبى فلم آتها، ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام، فرجعت إلى أبى وقد بعث فى طلبى، وشغلته عن عمله كله، فلما جئته قال: أى بنى أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟! قلت: يا أبت مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم فأعجبنى ما رأيت فى دينهم، فوالله مازلت عندهم حتى غربت الشمس.

قال: أى بنى ليس فى ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، فقلت له: كلا والله، إنه لخير من ديننا، قال: فخافنى، فجعل فى رجلى قيدًا ثم حبسنى فى بيته، وبعثت إلى النصارى، فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبرونى بهم، فقدم عليهم تجار من النصارى، فأخبرونى. فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم، فآذنونى بهم.

قال: فلما أرادوا الرجعة أخبرونى بهم، فألقيت الحديد من رجلى، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام. فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين علمًا؟ قالوا: الأسقف فى الكنيسة. فجئته فقلت له: إنى قد رغبت فى هذا الدين، وأحببت أن أكون معك وأخدمك فى كنيستك، وأتعلم منك، وأصلى معك. قال: ادخل، فدخلت معه، فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئًا منها اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق. فأبغضته بغضًا شديدًا لما رأيته يصنع، ثم مات. واجتمعت النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء،

يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئًا. فقالوا لى: وما علمك بذلك. فقلت: أنا أدلكم على كنزه فأريتهم موضعه فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهبًا وورقًا، فلما رأوها، قالوا: والله لا ندفنه أبدًا. فصلبوه ورجموه بالحجارة.

وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه، فما رأيت رجلاً لا يصلى الخمس، رأى أنه أفضل منه، أزهد فى الدنيا ولا أرغب فى الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهارًا منه، فأحببته حبًا لم أحبه شيئًا قبله، فأقمت معه زمانًا، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان إنى كنت معك وأحببتك حبا لم أحبه شيئًا قبلك وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصى بى، وبم تأمرنى.

فقال: أى بنى، والله ما أعلم اليوم أحدًا على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل[1] وهو فلان، وهو على ما كنت عليه. فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل فقلت له: يا فلان، إن فلانًا أوصانى عند موته أن ألحق بك، وأخبرنى أنك على أمره. فقال لى: أقم عندى.

فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه. فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان إن فلانًا أوصى بى إليك، وأمرنى باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصى بى؟ وبم تأمرنى؟ فقال: يا بنى، والله ما أعلم رجلاً على ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين[2]، وهو فلان فالحق به.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين، فأخبرته خبرى، وما أمرنى به صاحبى فقال: أقم عندى. فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر قلت له: يا فلان إن فلانا كان أوصى بى إلى فلان، ثم أوصى بى فلان إليك، فإلى من توصى بى: وبم تأمرنى.

---

(١) الموصل: فى الجانب الغربى من دجلة، وسميت بهذا الاسم؛ لأنها وصلت بين الفرات ودجلة، وشراب أهلها من ماء الدجلة. انظر: الروض المعطار (صـ٥٦٣)، نزهة المشتاق (١٩٩).

(٢) نصيبين: مدينة فى ديار ربيعة العظمى، وهى من بلاد الجزيرة بين دجلة والفرات، وهى قديمة عظيمة كثيرة الأنهار، ولها نهار عظيم، يقال له الهرماس عليه قناطر حجارة، وأهلها قوم من ربيعة من بنى تغلب، وافتتحها عياض بن غنم الفهرى فى خلافة عمر رضى الله عنه سنة ثمان عشرة، وكانت مدينة رومية، فلما افتتحها عياض أسكنها المسلمين. انظر: الروض المعطار (صـ٥٧٧)، نزهة المشتاق (١٩٩)، آثار البلاد (٤٦٧).

قال: يا بنى، والله ما أعلمه بقى أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه، إلا رجلاً بعمورية[١] من أرض الروم، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته. فلما مات وغيب، لحقت بصاحب عمورية، فأخبرته خبرى، فقال: أقم عندى.

فأقمت عند خير رجل على هدى أصحابه وأمرهم، واكتسبت حتى كانت لى بقرات وغنيمة، ثم نزل به أمر الله، فلما حضر قلت له: يا فلان، إنى كنت مع فلان فأوصى بى إلى فلان، ثم أوصى بى فلان إلى فلان، ثم أوصى بى فلان إليك، فإلى من توصى بى؟ وبم تأمرنى؟.

قال: أى بنى، والله ما أعلمه أصبح على مثل ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه ولكنه قد أظل زمان نبى مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين[٢] بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد، فافعل. ثم مات وغيب.

فمكثت بعمورية، ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بى نفر من كلب تجار. فقلت لهم: احملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغنيمتى هذه، فقالوا: نعم. فأعطيتهموها وحملونى معهم، حتى إذا بلغوا وادى القرى ظلمونى، فباعونى من رجل يهودى عبدًا، فكنت عنده فرأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبى، ولم يحق فى نفسى.

فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة، فابتاعنى منه، فاحتملنى إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبى فأقمت بها. وبعث رسول الله ﷺ وأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر، مع ما أنا فيه من شغل الرق.

ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إنى لفى رأس عذق لسيدى أعمل له فيه بعض العمل، وسيدى جالس تحتى، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه. فقال: يا فلان قاتل الله بنى قيلة، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعمون أنه نبى.

---

(١) عمورية: فى بلاد الروم من ناحية بلاد طوس وتفسيره المشرق، وهى مدينة كبيرة مشهورة فى بلاد الروم وبلاد المسلمين، أزلية، غير أن الفتوح تتوالى عليها من عهد المسلمين والروم، ولها سور حصين، وهى على نهر كبير يصب فى الفرات، ومنها الطريق إلى طرسوس، وبين عمورية والخليج مائة وخمسة وسبعين ميلاً، وكانت منزلاً لبعض ملوك الروم. انظر: الروض المعطار (صـ٤١٣، ٤١٤)، نزهة المشتاق (٢٦٠).

(٢) حرتين: الحرة كل أرض ذات حجارة سود متشيطة من أثر احتراق بركانى.

فلما سمعتها أخذتنى العرواء حتى ظننت أنى سأسقط على سيدى، فنزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ فغضب سيدى فلكمنى لكمة شديدة، ثم قال: ما لك ولهذا، أقبل على عملك. فقلت: لا شىء إنما أردت أن أستثبته عما قال.

وقد كان عندى شىء جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء، فدخلت عليه فقلت له: إنه قد بلغنى أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شىء كان عندى للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم، فقربته إليه. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «كلوا». وأمسك يده فلم يأكل.

فقلت فى نفسى: هذه واحدة، ثم انصرفت عنه، فجمعت شيئًا، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئته به، فقلت: إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها. فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه.

فقلت فى نفسى هاتان ثنتان. ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع[1] الغرقد قد تبع جنازة من أصحابه، على شملتان لى وهو جالس فى أصحابه، فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذى وصف لى صاحبى؟ فلما رآنى رسول الله ﷺ أستدير به، عرف أنى أستثبت فى شىء وصف لى، فألقى الرداء عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكى. فقال لى رسول الله ﷺ: «تحول». فتحولت فجلست بين يديه، فقصصت عليه حديثى كما حدثتك يا ابن عباس.

فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه. ثم شغل سلمان الرق، حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد. قال سلمان: ثم قال لى رسول الله ﷺ: «كاتب يا سلمان». فكاتبت صاحبى على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير[2] وأربعين أوقية.

فقال رسول الله ﷺ: «أعينوا أخاكم» فأعانونى بالنخل، الرجل بثلاثين ودية، والرجل بعشرين ودية، والرجل بخمس عشرة والرجل بعشر، يعين الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت إلى ثلاثمائة ودية، فقال لى رسول الله ﷺ: «اذهب يا سلمان ففقر لها فإذا فرغت فائتنى، أكن أنا أضعها بيدى».

---

(١) بقيع: أصل البقيع فى اللغة الموضع الذى فيه أروم الشجر من ضروب شتى وبه سمى بقيع الغرقد، والغرقد كبار العوسج وهو مقبرة أهل المدينة، وهى داخل المدينة. انظر: معجم البلدان (٤٧٣/١).

(٢) أحييها له بالفقير: أى بالحفر والغرس، بفقرات الأرض إذا حفرتها، ومنها سميت البئر فقرًا.

ففقرت وأعاننى أصحابى حتى إذا فرغت جئته فأخبرته، فخرج معى إليها، فجعلنا نقرب إليه الودى ويضعه رسول الله ﷺ بيده حتى فرغت. فوالذى نفس سلمان بيده، ما ماتت منها ودية واحدة، فأديت النخل وبقى على المال فأتى رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن، فقال: ما فعل الفارسى المكاتب فدعيت له فقال: «خذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان». قلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما على؟! قال: «خذها فإن الله سيؤدى بها عنك». فأخذتها فوزنت لهم منها، والذى نفس سلمان بيده، أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق حرًا. ثم لم يفتنى معه مشهد[1].

وعن سلمان أنه قال: لما قلت: وأين تقع هذه من الذى على يا رسول الله؟! أخذها رسول الله ﷺ فقلبها على لسانه. ثم قال: «خذها فأوفهم منها». فأخذتها فأوفيتهم منها حقهم كله أربعين أوقية[2].

وعنه أيضًا أنه قال لرسول الله ﷺ حين أخبره خبره: أن صاحب عمورية قال له: أيت كذا وكذا من أرض الشام، فإن بها رجلا بين غيضتين، يخرج فى كل سنة من هذه الغيضة إلى هذه الغيضة مستجيزًا، يعترضه ذوو الأسقام. فلا يدعو لأحد منهم إلا شفى، فسله عن هذا الدين الذى تبتغى، فهو يخبرك عنه.

قال سلمان: فخرجت حتى جئت حيث وصف لى، فوجدت الناس قد اجتمعوا بمرضاهم هناك، حتى خرج لهم تلك الليلة مستجيزًا من إحدى الغيضتين إلى الأخرى، فغشيه الناس مرضاهم، لا يدعو لمريض إلا شفى، وغلبونى عليه، فلم أخلص إليه حتى دخل الغيضة التى يريد أن يدخل، إلا منكبه فتناولته فقال: من هذا؟ والتفت إلى، فقلت: يرحمك الله أخبرنى عن الحنيفية دين إبراهيم. قال: إنك لتسأل عن شىء ما يسأل عنه الناس اليوم، قد أظلك زمان نبى يبعث بهذا الدين من أهل الحرم، فائته فهو يحملك عليه. ثم دخل. فقال رسول الله ﷺ: «لئن كنت صدقتنى يا سلمان، لقد لقيت عيسى ابن مريم»[3].

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٤٤٣/٥)، مجمع الزوائد للهيثمى (٣٣٥/٩)، تاريخ بغداد للخطيب البغدادى (١٦٩/١)، المعجم الكبير للطبرانى (٦٠٦٥).

(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٤٤٤/٥)، مجمع الزوائد للهيثمى (٣٣٦/٩)، البداية والنهاية لابن كثير (٣١٠/٢).

(٣) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٣٦٥/١)، طبقات ابن سعد (٥٧/١/٤)، البداية والنهاية لابن كثير (٣١٤/٢).

ومن حديث غير ابن إسحاق، عن أبى سفيان بن حرب قال: خرجت أنا وأمية بن أبى الصلت، وآخر سقط اسمه من كتابى، تجارًا إلى الشام. قال أبو سفيان: فكلما نزلنا منزلاً أخرج أمية سفرًا يقرأه علينا، فكنا كذلك حتى نزلنا بقرية من قرى النصارى، فرأوه وعرفوه وأهدوا له فذهب معهم إلى بيعتهم، ثم رجع فى وسط النهار، فطرح ثوبيه، واستخرج ثوبين أسودين، فلبسهما ثم قال: يا أبا سفيان، هل لك فى عالم من علماء النصارى إليه تناهى علم الكتب تسله عما بدا لك؟. قال: قلت لا أرب لى فيه، والله لئن حدثنى ما أحب لا أثق به، ولئن حدثنى ما أكره لأوجلن منه.

قال: وذهب يخالفه شيخ من النصارى، فدخل علينا فقال، يعنى له وللآخر الذى كان معه: ما منعكما أن تذهبا إلى هذا الشيخ؟ قلنا: لسنا على دينه. قال: وإن، فإنكما تسمعان عجبًا وتريانه. قال: قلنا: لا أرب لنا فى ذلك. قال أثقفيان أنتما؟ قلنا: لا ولكن من قريش. قال: فما منعكما من الشيخ، فوالله إنه ليحبكم ويوصى بكم.

وخرج من عندنا، ومكث أمية عنا حتى جاءنا بعد هدأة من الليل، فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه، فوالله ما قام ولا نام حتى أصبح. قال: فأصبح كئيبًا حزينًا، ساقطًا غبوقه على صبوحه ما يكلمنا، ثم قال: ألا ترحلان؟ قلنا: وهل بك من رحيل؟ قال: نعم، فارحلا.

فرحلنا فسرنا بذلك ليلتين من همه وبثه. ثم قال ليلة: ألا تحدث يا أبا سفيان؟ قلت: وهل بك من حديث! فوالله ما رأيت مثل الذى رجعت به من عند صاحبك. قال: أما إن ذلك شىء لست فيه إنما ذلك شىء وجلت به من منقلبى. قلت: وهل لك من منقلب؟ قال: إى والله لأموتن ولأحاسبن. قلت: فهل أنت قابل أمانى؟ قال: وعلى ماذا؟ قلت: على أنك لا تبعث ولا تحاسب؛ فضحك ثم قال: بلى والله يا أبا سفيان لنبعثن ولنحاسبن، وليدخلن فريق فى الجنة وفريق فى النار. قلت: فى أيتهما أنت أخبرك صاحبك. قال: لا علم لصاحبى بذلك فى ولا فى نفسه.

فكنا فى ذلك ليلتنا، يعجب منا ونضحك منه، حتى قدمنا غوطة دمشق وإياها كنا نريد، فبعنا متاعنا وأقمنا بذلك شهرين، ثم ارتحلنا حتى نزلنا بتلك القرية من قرى النصارى، فلما رأوه جاءوه فأهدوا له، وذهب معهم إلى بيعتهم، حتى جاءنا مع نصف النهار، فلبس ثوبيه الأسودين، فذهب ولم يدعنا إليه كما دعانا أول مرة، ثم جاءنا بعد هدأة من الليل، فطرح ثوبيه، ثم رمى بنفسه على فراشه فوالله ما نام ولا قام، فأصبح

مبثوثًا حزينًا، لا يكلمنا ولا نكلمه ثم قال لى: ألا ترحلان؟ قلت: بلـى إن شئت. قـال: فارحلا.

فرحلنا فسرنا كذلك من بثه وحزنه ليالى. ثم قال لى ليلة: يا أبا سفيان، هل لـك فـى المسير؟ وتخلف هذا الغلام يستأنس بأصحابنا ويستأنسون به؟ قلت له: مـا شئت. قـال: فسر. فسرنا حتى برزنا. قال: هى يا صخر!. قلت: مـا لـك؟. قـال: هـى عـن عتبـة بـن ربيعة أيجتنب المحارم والمظالم؟ قلـت: إى واللـه. قـال: ويصـل الرحـم ويـأمر بصلتهـا؟ قلت: نعم ويصل الرحم ويـأمر بصلتهـا. قـال: وكريـم الطرفـين، واسـط فـى العشـيرة؟ قلت: كريم الطرفين واسط فى العشيرة. قال: فهل تعلـم قرشيًا أشـرف منـه؟ قلـت: لا والله ما أعلم. قال: ومحوج هو؟ قلت: لا بل ذو مال. قال: فكم أتى له؟ قلت: هـو ابـن سبعين نظر إليها قد قاربها، هو لها، هو ابنها. قال: فالسن والشرف أزريـا بـه؟ قلـت: وما لهما أزريا به؟ لا والله بل هما زاداه خيرًا. قال: هو ذاك هل لك فى المبيـت؟ قلـت: هل لك فيه حاجة؟ قال: فاضطجعنا. حتى مر الثقل فسـرنا حتـى نزلنـا فكنـا فـى المنـزل وبتنا.

ثم رحلنا، فلما كـان الليـل قـال: يـا أبـا سـفيان. قلـت: لبيـك. قـال: هـل لـك فـى البارحة؟ قلت: هل لى. قال: فسرنا على ناقتين ناجيتين، حتى إذا برزنا قـال: يـا صخـر، إيه عن عتبة. قلت: إيه عنه. قال: أيجتنب المحارم والمظالم ويأمر بصلـة الرحـم ويصلهـا؟ قلت: ويفعل. قال: ومحوج؟ قلت: ومحوج.

قال: هل تعلم قرشيًا أسود منه؟ قلت: والله ما أعلمـه. قـال: أوكـم أتـى لـه؟ قلـت: سبعون هو لها هو ابنها قد واقعها. قال: فإن السن والشرف أزريا به. قلت: لا واللـه مـا أزريا به ولكنهما زاداه، وأنت قائل شيئًا فقله. قال: والله لا تذكر حديثى حتى يـأتى مـا هو آت. قلت: والله لا أذكره. قال: الذى رأيت أصابنى فإنى جئت هـذا العـالم فسـألته عن أشياء. قلت: أخبرنى عن هذا النبى الذى ينتظر؟ قال: هو رجل مـن العـرب. قلـت: قد علمت فمن أى العرب؟ قال: هو من أهل بيت تحجه العرب. قلت: فينـا بيـت تحجـه العرب. قال: لا، هـم إخوتكـم وجيرانكـم مـن قريـش. قـال: فأصـابنى واللـه شـىء مـا أصابنى مثله قط. وخرج من يدى فوز الدنيا والآخرة، وكنت أرجو أن أكون أنا هو.

قلت: فإذا كان ما كان فصفه لى؟ قال: بلى، هو شاب حين دخل فـى الكهولـة بـدء أمره، إنه يجتنب المحارم والمظالم، ويصل الرحم ويأمر بصلتها، وهـو محـوج ليـس ينـازع

شرفًا كريم الطرفين، متوسط فى العشيرة أكثر جنده من الملائكة قلت: وما آية ذلك؟ قال: قد رجف بالشام منذ هلك عيسى ابن مريم ثمانون رجفة كلها فيهم مصيبة عامة، وبقيت رجفة عامة، فيها مصيبة يخرج على أثرها.

قال أبو سفيان: قلت: وإن هذا هو الباطل، لئن بعث الله رسولاً، لا يأخذه إلا شريفًا مسنًا. قال: والذى يحلف به إن هذا لهكذا يا أبا سفيان. هل لك فى المبيت. فبتنا حتى مر بنا الثقل، فرحلنا حتى إذا كان بيننا وبين مكة ليلتان، أدركنا الخبر من خلفنا: أصاب الشام بعدكم رجفة دمر أهلها وأصابتهم فيها مصيبة عظيمة. قال: كيف ترى يا أبا سفيان؟ قلت: أرى والله ما أظن صاحبك إلا صادقًا.

وقدمنا مكة فقضيت ما كان معى، ثم انطلقت حتى جئت أرض الحبشة تاجرًا، فمكثت بها خمسة أشهر، ثم أقبلت حتى قدمت مكة فبينا أنا فى منزلى، جاءنى الناس يسلمون على، حتى جاءنى فى آخرهم محمد بن عبد الله ﷺ، وعندى هند جالسة تلاعب صبية لها، فسلم على ورحب بى وسألنى عن سفرى ومقدمى، ثم انطلق. فقلت: والله إن هذا الفتى لعجب، ما جاءنا أحد من قريش له معى بضاعة، إلا سألنى عنها وما بلغت ووالله إن له معى لبضاعة، ما هو بأغناهم عنها، ثم ما سألنى فقالت: أو ما علمت بشأنه؟ قلت وفزعت: ما شأنه؟! قالت: والله إنه ليزعم أنه رسول الله. قال: فوقذنى ذلك وذكرنى قول النصرانى، ووجمت حتى قالت لى: ما لك؟ فانتبهت وقلت: إن هذا والله لهو الباطل، لهو أعقل من أن يقول هذا. قالت: بلى والله إنه ليقوله، ويؤتى عليه وإن له لصاحبة معه على أمره. قلت: هو والله باطل.

فخرجت فبينا أنا أطوف إذ لقيته، فقلت: إن بضاعتك قد بلغت وكان فيها خير، فأرسل إليها فخذها، ولست آخذًا فيها ما آخذ من قومك قال: فإنى غير آخذها حتى تأخذ منى ما تأخذ من قومى. قلت: ما أنا بفاعل. قال: فوالله إذًا لا آخذها. قلت: فأرسل إليها. فأخذت منها ما كنت آخذ، وبعثت إليه ببضاعته.

ولم أنشب أن خرجت تاجرًا إلى اليمن فقدمت الطائف فنزلنا على أمية، فتغديت معه ثم قلت: يا أبا عثمان، هل تذكر حديث النصرانى؟ قال: أذكره. قلت: فقد كان، قال: ومن؟ قلت: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. ثم قصصت عليه خبر هند. قال: فالله يعلم أنه تصبب عرقًا ثم قال: يا أبا سفيان لعله، وإن صفته لهيه، ولئن ظهر وأنا حى لأبلين الله فى نصرته عذرًا.

ومضيت إلى اليمن فلم أنشب أن جاءنى هناك استهلاله، وأقبلت حتى قدمت الطائف فنزلنا على أمية بن أبى الصلت. قلت: قد كان من هذا الرجل ما قد بلغك وسمعت. قال: قد كان. قلت: فأين أنت؟ قال: ما كنت لأومن برسول ليس من ثقيف! قال أبو سفيان: فأقبلت إلى مكة ووالله ما أنا منه ببعيد حتى جئت فوجدته هو وأصحابه يضربون ويقهرون، فجعلت أقول: فأين جنده من الملائكة؟! ودخلنى ما دخل الناس من النفاسة.

ووقع فى هذا الحديث من قول أبى سفيان: أن عتبة بن ربيعة ذو مال، ووقع بعد ذلك من قول أبى سفيان أيضًا أنه محوج، ولا يصح أن يجتمع الأمران، وأحدهما غلط من الناقل، والله أعلم.

والمشهور من حال عتبة أنه كان فقيرًا وكان يقال: لم يسد من قريش مملق إلا عتبة وأبو طالب، فإنهما سادا بغير مال. وأما أمية بن أبى الصلت فرجل من ثقيف، لم يرض دين أهل الجاهلية، ولا وفقه الله للدخول فى السمحة الحنيفية.

فكان كما روى عن عروة بن الزبير قال: سئل رسول الله ﷺ عن أمية بن أبى الصلت فقال: «أوتى علما فضيعه». وكما روى عن الحسن وقتادة أنهما قالا فى قول الله تعالى: ﴿**واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين**﴾ [الأعراف: ١٧٥] أنه أمية بن أبى الصلت.

ولغيرهما من العلماء فى المعنى بهذه الآية قول أشهر من هذا، وهو أن المراد بها بلعام بن باعوراء، فالله تعالى أعلم.

قال ابن إسحاق[١]: واجتمعت قريش يومًا فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه، وينحرون له، ويعكفون عنده، فخلص منهم أربعة نفر نجيا[٢]، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض.

قالوا: أجل. وهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى، وزيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شىء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع!!. يا قوم: التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شىء.

---

(١) انظر: السيرة (١/١٩١ - ١٩٢).

(٢) نجى: النجى جماعة يتحدثون سرًا يخفون حديثهم عن غيرهم، وهو لفظ يستوى فيه الواحد والاثنان والجماعة.

فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم.

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية، واتبع الكتب من أهلها. وذكر الزبير بن أبى بكر بإسناد له إلى عروة بن الزبير قال: سئل رسول الله ﷺ عن ورقة بن نوفل. فقال: «لقد رأيته فى المنام عليه ثياب بيض، فقد أظن أن لو كان من أهل النار لم أر عليه البياض». وكان يذكر الله فى شعره فى الجاهلية، ويسبحه وهو الذى يقول:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم ... أنا النذير فلا يغرركم أحد
لا تعبدن إلهًا غير خالقكم ... فإن دعوكم فقولوا بيننا حدد
سبحان ذى العرش سبحانًا يدوم له ... رب البرية فرد واحد صمد
سبحان ذى العرش سبحانًا نعود له ... وقبل سبحه الجودى والجمد
مسخر كل ما تحت السماء له ... لا ينبغى أن ينادى ملكه أحد
لا شىء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويودى المال والولد
لم تغن عن هرمز يومًا خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له ... والإنس والجن فيما بينها برد
أين الملوك التى كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب ... لابد من ورده يومًا كما وردوا

وفى هذا الشعر ألفاظ عن غير الزبير، والبيت الأخير كذلك، وفيه أبيات تروى لأمية بن أبى الصلت.

قال ابن إسحاق[1]: وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى أرض الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان مسلمة، فلما قدماها تنصر وفارق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانيًا، وخلف رسول الله ﷺ بعده على امرأته أم حبيبة، وكان حين تنصر يمر بأصحاب رسول الله ﷺ فيقول: فقحنا وصأصأتم. أى أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر ولم تبصروا بعد.

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده.

وذكر الزبير: أن قيصر ملكه على أهل مكة، وكتب له إليهم كتابًا. فأنفت قريش أن يدنيوا لأحد، وصاح فيه ابن عمه أبو زمعة الأسود بن المطلب بن أسد والناس فى الطواف: إن قريشًا لقاح لا تَمِلك ولا تُملك فمضت قريش على كلامه، ومنعوا عثمان

---

(١) انظر: السيرة (١/١٩٢).

ما جاء يطلب، فرجع إلى قيصر ومات بالشام مسمومًا. يقال: سمه عمرو بن حفنة الغسانى الملك، وكان يقال لعثمان: هذا البطريق، ولا عقب له.

قال ابن إسحاق(١): وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان، والميتة والدم، والذبائح التى تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبد رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه.

قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخًا كبيرًا مسندًا ظهره إلى الكعبة، وهو يقول: يا معشر قريش، والذى نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى. ثم يقول: اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكن لا أعلمه. ثم يسجد على راحلته(٢).

وسأل ابنه سعيد بن زيد وابن عمه عمر بن الخطاب بن نفيل رسول الله ﷺ: أنستغفر لزيد بن عمرو؟ قال: «نعم، فإنه يبعث أمه وحده»(٣).

وقال زيد بن عمرو بن نفيل فى فراق دين قومه:

أربا واحدًا أم ألف رب	أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعًا	كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا ابنتيها	ولا صنمى بنى عمرو أزور
ولا غنما(*) أدين وكان ربا	لنا فى الدهر إذ حلمى يسير
عجبت وفى الليالى معجبات	وفى الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجالاً	كثيرًا كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببر قوم	فيربل منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يعثر ثاب يومًا	كما يتروح الغصن المطير(٤)
ولكن أعبد الرحمن ربى	ليغفر ذنبى الرب الغفور

(١) انظر: السيرة (١/١٩٣).

(٢) ذكره البخارى فى صحيحه تعليقًا فى كتاب مناقب الأنصار، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل (٧/١٤٣).

(٣) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٢/١٢٤)، البداية والنهاية لابن كثير (٢/٢٣٩)، المطالب العالية لابن حجر (٤٠٥٥).

(*) هكذا فى الأصول، وفى السيرة (١/١٩٤): «ولا هبلا».

(٤) ثاب: رجع. يتروح: يهتز ويختضر، وينبت ورقة بعد سقوطه.

فتقوى الله ربكم احفظوها ... متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الأبرار دارهم جنان ... وللكفار حامية سعير
وخزى فى الحياة وإن يموتوا ... يلاقوا ما تضيق به الصدور

وقال زيد بن عمرو بن نفيل، وذكر ابن هشام: أن أكثرها لأمية بن أبى الصلت[1]، فى قصيدة له:

إلى الله أهدى مدحتى وثنائيا ... وقولاً رصينًا لا ينى الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذى ليس فوقه ... إله ولا رب يكون مدانيا
ألا أيها الإنسان إياك والردى ... فإنك لا تخفى من الله خافيا
فإياك لا تجعل مع الله غيره ... فإن سبيل الرشد أصبح باديا
حنانيك إن الجن كانت رجاؤهم ... وأنت إلهى ربنا ورجائيا
رضيت بك اللهم ربا فلن أرى ... أدين إلها غيرك الله ثانيا
وأنت من فضل من ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولاً مناديا
فقلت له إذهب وهارون فادعوا ... إلى الله فرعون الذى كان طاغيا
وقولا له آنت سويت هذه ... بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له آنت رفعت هذه ... بلا عمد أرفق إذا بك بانيا[2]
وقولا له آنت سويت وسطها ... منيرًا إذا ما جنه الليل هاديا
وقولا له من يرسل الشمس غدوة ... فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب فى الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه فى رءوسه ... وفى ذاك آيات لمن كان واعيا
وأنت بفضل منك نجيت يونسًا ... وقد بات فى أضعاف حوت لياليا
وإنى وإن سبحت باسمك ربنا ... لأكثر إلا ما غفرت خطائيا
فرب العباد ألق سيبا ورحمة ... على وبارك فى بنى وماليا

وقال زيد بن عمرو أيضًا:

وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخرًا ثقالا
دحاها فلما رآها استوت ... على الماء أرسى عليها الجبالا

---

(١) أمية بن الصلت بن أبى ربيعة بن عبد عوف بن عقدة بن غيرة. انظر ترجمته فى: الشعر والشعراء (صـ٣٠٠).

(٢) أرفق إذا بك بانيا: هذا على التعجب، أى أرفقك بانيا؟.

وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذبا زلالا
إذا هى سيقت إلى بلدة ... أطاعت فصبت عليها سجالا

ويروى أن زيدًا كان إذا استقبل الكعبة داخل المسجد قال: لبيك حقًّا حقًّا تعبدًا ورقا، عذت بما عاذ به إبراهيم مستقبل القبلة وهو قائم، إذ قال: إنى لك عان راغم، مهما تجشمنى فإنى جاشم، البر أبقى لا الخال، ليس مهجر كمن قال. ويقال: البر أبقى لا الحال(١).

وكان الخطاب بن نفيل قد آذى زيدًا حتى أخرجه إلى أعلى مكة. فنزل حرًا مقابل مكة. وكان الخطاب عمه وأخاه لأمه، وكل به شبابًا من شباب قريش وسفهائهم، فقال لهم: لا تتركوه يدخل مكة. فكان لا يدخلها إلا سرا منهم، فإذا علموا بذلك آذنوا به الخطاب فأخرجوه وآذوه، مخافة أن يفسد عليهم دينهم وأن يتابعه أحد منهم على فراقه(٢).

وكان زيد قد أجمع الخروج من مكة ليضرب فى الأرض يطلب الحنيفية دين إبراهيم، فكانت امرأته صفية بنت الحضرمى كلما رأته تهيأ للخروج أو أراده، آذنت به الخطاب بن نفيل، وكان الخطاب وكلها به وقال: إذا رأيته هم بأمر فآذنينى به(٣).

---

(١) انظر: السيرة (١/١٩٦).

(٢) انظر: السيرة (١/١٩٧)، وهناك أورد شعر قاله فى ذلك وهو:

لاهم إنى محرم لا حله ... وإن بيتى أوسط المحله
عند الصفا ليس بذى مضله

(٣) ذكره فى السيرة وذكر هناك شعر يعاتب فى امرأته على ذلك وهو:

لا تحبسينى فى الهوا ... ن صفى ما دابى ودابه
إنى إذا خفت الهوا ... ن مشيع ذلل ركابه
دعموص أبواب الملو ... ك وجائب للخرق نابه
قطاع أسباب تَذل ... بغير أقران صعابه
وإنما أخذ الهوا ... ن العير إذ يوهى إهابه
ويقول إنى لا أذل ... بصك جنبيه صلابه
وأخى ابن أمى ثم ... عمى لا يواتينى خطابه
وإذا يعاتبنى بسو ... ء قلت أعيانى جوابه
ولو أشاء لقلت ... ما عندى مفاتحه وبابه

انظر السير: (١/١٩٥ - ١٩٦).

ثم خرج يطلب دين إبراهيم ويسأل الرهبان والأحبار، حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها، ثم أقبل فجال الشام كلها، حتى انتهى إلى راهب بميفعة[١] من أرض البلقاء[٢]، كان ينتهي إليه علم النصرانية فيما يزعمون، فسأله عن الحنيفية دين براهيم، فقال: إنك لتطلب دينًا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، ولكن قد أظلك زمان نبى يخرج من بلادك التى خرجت منها يبعث بدين إبراهيم الحنيفية، فالحق به فإنه مبعوث الآن، هذا زمانه.

وقد كان زيد رام اليهودية والنصرانية فلم يرض منها شيئًا، فخرج سريعًا حين قال له ذلك الراهب ما قال، يريد مكة، حتى إذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه. فقال ورقة بن نوفل يبكيه[٣]:

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما ... تجنبت تنورًا من النار حاميًا
بدينك ربا ليس رب كمثله ... وتركك أوثان الطواغى كما هيا
وإدراكك الدين الذى قد طلبته ... ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت فى دار كريم مقامها ... تعلل فيها بالكرامة لاهيا
تلاقى خليل الله فيها ولم تكن ... من الناس جبارًا إلى النار هاويا
وقد تدرك الإنسان رحمة ربه ... ولو كان تحت الأرض سبعين واديا

قال ابن إسحاق[٤]: وكان فيما بلغنى عما كان وضع عيسى ابن مريم فيما جاءه من الله فى الإنجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله ﷺ مما أثبت لهم يحنس الحوارى حين نسخ لهم الإنجيل من عهد عيسى ابن مريم إليهم فى رسول الله ﷺ قال: من أبغضنى فقد أبغض الرب، ولولا أنى صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلى ما كانت لهم خطيئة، ولكن من الآن بطروا، وظنوا أنهم يعزوننى وأيضًا للرب، ولكن لابد من أن تتم الكلمة التى فى الناموس، أنهم أبغضونى مجانًا، أى باطلاً، فلو قد جاء المنحمنا هذا الذى يرسله الله إليكم من عند الرب، روح القسط هو الذى من عند الرب خرج

(١) ميفعة: أصل الميفعة الموضع المرتفع من البقاع.
(٢) البلقاء: مدينة بالشام من عمل دمشق سميت بالبلقاء بن سورية من بنى عبيل بن لوط وهو بناها، وبها كان اجتماع الحكمين أبى موسى وعمرو بن العاص، رضى الله عنهما، فكان من أمرهما ما كان، وقيل كان ذلك بدومة الجندل على عشرة أيام من دمشق. انظر: الروض المعطار (صـ٩٦، ٩٧).
(٣) انظر الأبيات فى: السيرة (١/١٩٨).
(٤) انظر: السيرة (١/١٩٨).

فهو شهيد على، وأنتم أيضًا لأنكم قديمًا كنتم معى، هذا قلت لكم لكيلا تشكوا.

والمنحمنا بالسريانية هو محمد ﷺ، وهو بالرومية البرقليطس.

قال ابن هشام: وبلغنى أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتبًا عندهم، فكلما مات رئيس منهم فأفضت الرياسة إلى غيره ختم على تلك الكتب خاتمًا مع الخواتم التى قبله ولم يكسرها، فخرج الرئيس الذى كان على عهد النبى ﷺ يمشى فعثر، فقال ابنه: تعس الأبعد. يريد النبى ﷺ، فقال له أبوه: لا تفعل فإنه نبى واسمه فى الوضائع. يعنى الكتب. فلما مات لم تكن لابنه همة إلا أن شد فكسر الخواتم، فوجد ذكر النبى ﷺ، فأسلم فحسن إسلامه وحج.

وهو الذى يقول:

إليك تعدو قلقا وضينها
معترضًا فى بطنها جنينها
مخالفًا دين النصارى دينها

وقد جاءت أحاديث حسان بما وقع من صفة النبى ﷺ فى التوراة، لم يذكر ابن إسحاق منها شيئًا. فمن ذلك ما ذكره الواقدى عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله ابن عمرو بن العاص فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة؟ فقال: أجل والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى الفرقان: يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، يفتح بها أعينًا عميًا وآذانًا صما وقلوبًا غلفًا.

قال عطاء: ثم لقيت كعب الأحبار فسألته فما اختلفا فى حرف! وذكر الواقدى أيضًا، عن النعمان السبئى قال: وكان من أحبار اليهود باليمن، فلما سمع بذكر النبى ﷺ قدم عليه فسأله عن أشياء، ثم قال: إن أبى كان يختم على سفر يقول: لا تقرأه على يهود حتى تسمع بنبى قد خرج بيثرب، فإذا سمعت به فافتحه.

قال نعمان: فلما سمعت بك فتحت السفر، فإذا فيه صفتك كما أراك الساعة، وإذا فيه ما تحل وما تحرم، وإذا فيه أنك خير الأنبياء وأمتك خير الأمم واسمك أحمد صلى الله عليك وسلم، وأمتك الحمادون، قربانهم دماؤهم وأناجيلهم صدورهم، لا يحضرون

قتالاً إلا وجبريل معهم، يتحنن الله إليهم كتحنن الطير على أفراخه.

ثم قال لى: إذا سمعت به فاخرج إليه وآمن به وصدق به. فكان النبى ﷺ يحب أن يسمع أصحابه حديثه، فأتاه يومًا فقال النبى ﷺ: «يا نعمان حدثنا»، فابتدأ النعمان الحديث من أوله فرأى رسول الله ﷺ يتبسم، ثم قال: «أشهد أنى رسول الله»[1]، ويقال: إن النعمان هذا هو الذى قتله الأسود العنسى وقطعه عضوًا عضوٌ وهو يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله، وأنك كذاب مفتر على الله عز وجل. ثم حرقه بالنار.

* * *

ذكر المبعث

قال ابن إسحاق[2]: فلما بلغ رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله رحمة للعالمين وكافة للناس. وكان الله قد أخذ له الميثاق على كل نبى بعثه قبله بالإيمان به والتصديق له والنصر على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم، فأدوا من ذلك ما كان عليهم من الحق.

فيه يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى**﴾ أى ثقل ما حملتكم من عهدى ﴿**قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين**﴾ [آل عمران: ٨١]. فأخذ الله ميثاق النبيين جميعًا بالتصديق له والنصر وأدوا ذلك إلى من آمن بهم وصدقهم من أهل هذين الكتابين.

وعن عائشة رضى الله عنها، أن أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به، الرؤيا الصادقة، لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح، وحبب الله إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده[3].

---

(١) أخرجه البخارى (٨٨/٤، ١٠٣/٧)، مسلم كتاب الإيمان (١٧٨)، البيهقى فى الدلائل (١٤٢/١)، السيوطى فى الدر المنثور (٢٧٣/١)، ابن كثير فى البداية (١٩٠/٦)، العجلونى فى كشفا الخفاء (١٤٢/١)، أبو نعيم فى الدلائل (١٦٥).

(٢) انظر: السيرة (١٩٩/١).

(٣) انظر الحديث فى: البخارى فى صحيحه كتاب بدء الوحى (٢٢/١)، صحيح مسلم كتاب الإيمان (٢٥٢/١)، مسند الإمام أحمد (١٥٣/٦، ٢٣٢، ٢٣٣). مستدرك الحاكم (١٨٣/٣، ١٨٤).

وعن بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ حين أراده الله بكرامته وابتدائه بالنبوة، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضى إلى شعاب مكة وبطون أوديتها، فلا يمر رسول الله ﷺ، بحجر ولا شجرة إلا قال: السلام عليك يا رسول الله. فيلتفت حوله عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة، فمكث كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث، ثم جاءه جبريل بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء فى رمضان[(١)].

وعن عبيد بن عمير بن قتادة الليثى، يحدث كيف كان بدء ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين جاءه جبريل قال: كان رسول الله ﷺ يجاور فى حراء من كل سنة شهرًا، وكان ذلك مما تحنث به قريش فى الجاهلية، والتحنث: التبرر.

فكان يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف قبل أن يدخل بيته الكعبة، فيطوف بها سبعًا أو ما شاء الله، ثم يرجع إلى بيته[(٢)].

حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله به فيه ما أراد من كرامته، وذلك الشهر رمضان، خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل بأمر الله.

قال رسول الله ﷺ فجاءنى وأنا نائم بنمط[(٣)] من ديباج فيه كتاب[(٤)]، فقال: إقرأ. قلت: «ما أقرأ» فغتنى به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى، فقال: اقرأ. فقلت: «ما أقرأ» فغتنى[(٥)] به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى فقال: اقرأ، قلت: «ما أقرأ» فغتنى به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى فقال: اقرأ: قلت: «ماذا أقرأ؟»، ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع، قال: ﴿**اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان**

---

(١) ذكره ابن سعد فى الطبقات (١/١٥٧)، البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٤٦)، الحاكم فى المستدرك (٤/٧٠).

(٢) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/١٢).

(٣) النمط: هو ضرب من البسط.

(٤) كتاب: قال فى الروض الأنف: قال بعض المفسرين فى قوله تعالى: ﴿آلم ذللك الكتاب لا ريب فيه﴾ إنها إشارة إلى الكتاب الذى جاء به جبريل حين قال له: اقرأ.

(٥) فغتنى: قال ابن الأثير: الغت والغط سواء كأنه أراد عصرنى عصرًا شديدًا حتى وجدت منه المشقة، كما يجد من يغمس فى الماء قهرًا.

من علق إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [العلق: ١، ٥]، فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى، «فكأنما كتبت فى قلبى كتابًا».

فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، فرفعت رأسى إلى السماء أنظر، فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل.

فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء، فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك، فمازلت واقفًا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى، فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك، ثم انصرف عنى وانصرفت عنه راجعًا إلى أهلى حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفًا إليها. فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعث رسلى فى طلبك فبلغوا مكة ورجعوا إلى، ثم حدثتها بالذى رأيت، فقالت: أبشر يا ابن عمى واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة.

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها، وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع، فقال ورقة: قدوس قدوس، والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة، فقولى له فليثبت، فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة.

فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف، صنع كما كان يصنع، بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة، فقال له: يا ابن أخى، أخبرنى بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال له ورقة: والذى نفسى بيده، إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى، ولتكذبنه ولتؤذينه ولتخرجنه ولتقاتلنه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرًا يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبل يا فوخه، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله(١).

ويروى عن خديجة أنها قالت لرسول الله ﷺ: أى ابن عم، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك؟ قال: «نعم». قالت: فإذا جاءك فأخبرنى به،

---

(١) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (١٤٦/٢، ١٤٩)، فتح البارى لابن حجر (٥٨٨/٨، ٥٨٩).

فجاءه جبريل كما كان يصنع، فقال رسول الله ﷺ: «يا خديجة، هذا جبريل قد جاءنى»، قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى، فقام فجلس عليها، قالت: هل تراه؟ قال: «نعم». قالت: فتحول فاقعد على فخذى اليمنى، فتحول فقعد على فخذها اليمنى، فقالت: هل تراه؟ قال: «نعم». قالت: فتحول فاجلس فى حجرى، فتحول فجلس فى حجرها، ثم قالت له: هل تراه؟ قال: «نعم»؛ فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس فى حجرها، ثم قالت: هل تراه؟ قال: «لا». قالت: يا ابن عم، اثبت وأبشر، فوالله إنه لملك ما هذا بشيطان[1].

ويروى أن خديجة أدخلت رسول الله ﷺ بينها وبين درعها، فذهب عند ذلك جبريل، وابتدىء رسول الله ﷺ بالتنزيل فى رمضان.

يقول الله عز وجل: ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ [البقرة: ١٨١]، وقال: ﴿إنا أنزلناه فى ليلة القدر﴾ [القدر: ١] إلى خاتمة السورة.

وقال: ﴿حم والكتاب المبين إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمرًا من عندنا إنا كنا مرسلين﴾ [الدخان: ١، ٤]، وقال: ﴿إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾ [الأنفال: ٤٢]، يعنى ملتقى رسول الله ﷺ والمشركين ببدر، وذلك يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان.

هكذا أورد ابن إسحاق[2] رحمه الله هذه الآيات كالمستشهد بها على ابتداء التنزيل فى شهر رمضان على رسول الله ﷺ. وفى صورة هذا الاستشهاد نظر. فإن ظاهر قوله سبحانه: ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن﴾ عموم نزول القرآن بجملته فيه. وكذلك قوله: ﴿إنا أنزلناه فى ليلة القدر﴾ و﴿إنا أنزلناه فى ليلة مباركة﴾.

ولم يقع الأمر فى إنزاله على رسوله ﷺ هكذا، بل أنزله الله عليه فى رمضان وفى غيره متفرقًا، آيات وسورًا، بحسب سؤال السائلين، أو أحداث المحدثين، أو ما شاء الله من هداية العالمين.

وقد قيل فى قوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس﴾ أى

---

(١) انظر الحديث فى: الجامع الكبير (٧٢١/٢).
(٢) انظر: السيرة (٢٠٤/١).

الذى أنزل فى شأنه القرآن، أى نزل الأمر من الله عز وجل، بصيامه كتابًا يتلى وقرآنا لا يدرس ولا يبلى.

كما يقال: «نزل القرآن بالصلاة» أى نزل جزء منه بفرضها و«نزل القرآن فى عائشة» رضى الله عنها، وإنما نزلت منه آيات ببراءتها من الإفك. ومثل هذا الإطلاق موجود فى الأحاديث والآثار كثيرًا.

ولنسلم أن معنى قوله: ﴿**أنزل فيه القرآن**﴾ أى ابتدىء فيه إنزاله، فقد قيل ذلك وليس ببعيد فى المفهوم ولا مما تضيق عنه سعة الكلام، ثم نجرى ذلك المجرى الآيتين الأخيرتين، وهما: ﴿**إنا أنزلناه فى ليلة مباركة**﴾، و﴿**إنا أنزلناه فى ليلة القدر**﴾، وإن بعد ذلك فيهما لما ورد من الآثار المصححة لحكم عمومهما حسبما نذكره بعد، فما بال الآية الأخرى التى هى: ﴿**وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان**﴾ تنتظم فى هذا النظام، وقد أعقبها مفسرًا بأن المعنى بذلك يوم بدر، وهو الحق؟!.

وهل كان يوم بدر إلا فى السنة الثانية من الهجرة، وبعد اثنتى عشرة سنة من البعث ونزول الوحى، أو بعد خمس عشرة سنة، على ما ورد من الخلاف فى مدة مكث رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة، ومازال القرآن المكى والمدنى ينزل فى ماضى تلك السنين!.

فإن كان ابن إسحاق عنى ما ذكرناه عنه ونسبناه إليه فقد بينا وجه رده واستوفينا التنبيه عليه، وإن كان عنى غير ذلك فقصر عنه تحرير عبارته أو سقط على الناقل من كلامه ما كان يفى لو بقى بإفهامه، فالله تعالى أعلم. والرجل أولى منا بأن يصيب ويسلم، إلا أنه لا ينكر أن يغلط هذا البشر.

ونعوذ بالله أن نقصد بهذا الاعتداء على ذى علم أو الغض من ذى حق، فإن العلماء هم آباؤنا الأقدمون وهداتنا المتقدمون، بأنوارهم نسرى فنبصر ونستبصر، وإلى غاياتهم نجرى فطورًا نصل وأطوارًا نقصر، فلهم دوننا قصب السبق، ولهم علينا فى كل الأحوال أعظم الحق، إذا أصابوا اعتمدنا، وإذا أخطأوا استفدنا، وإذا أفادوا استمددنا، فجزاهم الله عنا أفضل الجزاء، ووفقنا لتوفية حقوق الأئمة والعلماء.

وبعد: فمن أحسن ما يتقلد فى تلك الآيات الثلاث التى صدر بها كلامه، مما يحفظ حكم عمومها ويطابق ظاهر مفهومها، ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهم أجمعين، أن القرآن أنزل جملة واحدة فى شهر رمضان إلى سماء الدنيا، فجعل فى بيت العزة، ثم أنزل على النبى ﷺ شيئًا فشيئًا إلى حين وفاته.

وقيل للشعبى: شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن، أما كان ينزل فى سائر السنة؟ قال: بلى، ولكن جبريل عليه السلام، كان يعارض محمدًا ﷺ فى شهر رمضان ما أنزل فى ماضى السنة فيمحو الله ما يشاء ويثبت.

قال ابن إسحاق[١]: ثم تتام الوحى إلى رسول الله ﷺ، وهو مؤمن بالله مصدق لما جاءه منه، قد قبله بقبوله وتحمل منه ما حمله على رضا العباد وسخطهم. وللنبوة أثقال ومؤنة لا يحملها، ولا يستطيع بها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله وتوفيقه، لما يلقون من الناس وما يرد عليهم مما جاءوا به عن الله عز وجل.

فمضى رسول الله ﷺ على أمر الله على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى. وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدقت بما جاءه من الله، وآزرته على أمره. فكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء منه.

فخفف الله بذلك عن رسوله، لا يسمع شيئًا يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عليه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس. يرحمها الله[٢].

ثم فتر عن رسول الله ﷺ الوحى حتى شق عليه وأحزنه. فجاءه جبريل بسورة ﴿**والضحى**﴾، يقسم له ربه جل وعلا، وهو الذى أكرمه بما أكرمه به، ما ودعه ولا قلاه.

فقال: ﴿**والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى**﴾، يقول: ما حرمك فتركك، وما أبغضك منذ أحبك، ﴿**وللآخرة خير لك من الأولى**﴾ أى لما عندى من مرجعك إلى خير لك مما عجلت لك من الكرامة فى الدنيا، ﴿**ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾ من الفلج فى الدنيا والثواب فى الآخرة، ﴿**ألم يجدك يتيمًا فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى**﴾[٣].

يعرفه بما ابتدأه به من كرامته فى عاجل أمره، ومنه عليه فى يتمه وعيلته وضلالته، واستنفاذه من ذلك برحمته، ﴿**فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر**﴾ أى لا تكن جبارًا ولا متكبرًا ولا فحاشًا فظًا على الضعفاء من عباد الله، ﴿**وأما بنعمة ربك فحدث**﴾ اذكرها وادع إليها[٤].

---

(١) انظر: السيرة (١/٢٠٤).

(٢) انظر: السيرة (١/٢٠٥).

(٣) انظر: السيرة (١/٢٠٦).

(٤) انظر: السيرة (١/٢٠٧).

فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه وعلى العباد به من النبوة سرًا إلى من يطمئن به إليه من أهله. وافترضت عليه الصلاة، فصلى صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته.

قالت عائشة رحمها الله: افترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أول ما افترضت ركعتين ركعتين كل صلاة، ثم إن الله أتمها فى الحضر أربعًا وأقرها فى السفر على فرضها الأولى ركعتين[١].

وعن بعض أهل العلم أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهمز له بعقبة فى ناحية الوادى فانفجرت له منه عين، فتوضأ جبريل ورسول الله ﷺ ينظر، ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل توضأ، ثم قام به جبريل فصلى به وصلى رسول الله ﷺ بصلاته، ثم انصرف جبريل فجاء رسول الله ﷺ خديجة فتوضأ ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها ثم صلى بها كما صلى به جبريل فصلت بصلاته[٢].

وعن نافع بن جبير بن مطعم، وكان كثير الرواية عن ابن عباس، قال: لما افترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أتاه جبريل فصلى به الظهر حين مالت الشمس، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثله، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشفق، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر. ثم صلى به الظهر حين كان ظله مثله، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلث الليل الأول، ثم صلى به الصبح مسفرًا غير مشرق. ثم قال: يا محمد، الصلاة فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس[٣].

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٤٦٤/١)، سنن أبى داود (١١٩٨)، النسائى (٢٢٥/١)، أحمد فى المسند (٢٧٢/٦).

(٢) انظر الحديث فى: تاريخ الطبرى (٥٣٥/١، ٥٣٦)، مجمع الزوائد للهيثمى (٢٢٣/٩، ٢٢٤)، وذكره السهيلى فى الروض الأنف (٢٨٣/١، ٢٨٤).

(٣) انظر الحديث فى: سنن أبى داود (٣٩٣/١)، سنن الترمذى (١٤٩)، مسند الإمام أحمد (٣٠٨١)، مستدرك الحاكم (١٩٣/١).

وذكره السهيلى فى الروض الأنف (٢٨٤/١)، وقال: هذا الحديث لم يكن ينبغى له أن يذكره فى هذا الموضع، لأن أهل الصحيح متفقون على أن هذه القصة كانت فى الغد من ليلة=

قال ابن إسحاق[١]: ثم كان أول ذكر من الناس آمن برسول الله ﷺ وصلى وصدق بما جاءه من الله تبارك وتعالى، عليٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه، وهو ابن عشر سنين يومئذ.

وكان مما أنعم الله به عليه أنه كان فى حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام. وذلك أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه، وكان من أيسر بنى هاشم: «يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفهما عنه»، قال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لى عقيلاً فاصنعا ما شئتما، ويقال: عقيلاً وطالبًا، فأخذ رسول الله ﷺ عليًّا فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا فضمه إليه، فلم يزل عليٌّ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبيًا فاتبعه على وآمن به وصدقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه[٢].

وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه على بن أبى طالب مستخفيًا من أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا. فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا ثم إن أبا طالب عثر عليهما يومًا وهما يصليان فقال لرسول الله: يا ابن أخى، ما هذا الدين الذى أراك تدين به؟! قال: «أى عم، هذا دين الله ودين ملائكته ورسله، ودين أبينا إبراهيم». أو كما قال ﷺ. «بعثنى الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه». أو كما قال.

فقال أبو طالب: أى ابن أخى، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشىء تكرهه ما بقيت[٣].

=الإسراء، وذلك بعد ما نبئ بخمسة أعوام، وقد قيل: إن الإسراء كان قبل الهجرة بعام ونصف، وقيل: بعام، فذكره ابن إسحاق فى بدء نزول الوحى، وأول أحوال الصلاة.

(١) انظر: السيرة (١/٢٠٨ - ٢٠٩).

(٢) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٢/١٦٢).

(٣) انظر الحديث فى: تاريخ الطبرى (٢/٣١٣).

وذكروا أنه قال لعلى: أى بنى ما هذا الدين الذى أنت عليه؟. فقال: يا أبت، آمنت برسول الله وصدقت بما جاء به وصليت معه لله واتبعته. فزعموا أنه قال له: أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه.

قال ابن إسحاق[1]: ثم أسلم زيد بن حارثة الكلبى مولى رسول الله ﷺ فكان أول ذكر أسلم وصلى بعد على بن أبى طالب، وعن غير ابن إسحاق أن زيدًا أصابه فى الجاهلية سباء فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد وقيل: بل وهبه لها، فوهبته خديجة لرسول الله ﷺ فأعتقه وتبناه، وذلك قبل أن يوحى إليه، وكان حارثة أبوه قد جزع عليه جزعًا شديدًا وبكى عليه حين فقده، فقال:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحى فيرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله ما أدرى وإنى لسائل ... أغالك بعدى السهل أم غالك الجبل
ويا ليت شعرى هل لك الدهر أوبة ... فحسبى من الدنيا رجوعك لى بجل
تذكرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا غربها أفل
وإن هبت الأرواح هيجن ذكره ... فيا طول ما حزنى عليه وما وجل
سأعمل نص العيس فى الأرض جاهدًا ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتى أو تأتى على منيتى ... فكل امرىء فإن وإن غره الأمل

ثم إن أناسًا من كلب حجوا فرأوا زيدًا فعرفهم وعرفوه، فأعلموا أباه ووصفوا له موضعه وعند من هو. فخرج أبوه حارثة وعمه كعب ابنا شراحيل لفدائه.

وقدما مكة فسألا عن النبى ﷺ فدخلا عليه فقالا: يا ابن عبد المطلب بن هاشم، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكون العانى وتطعمون الأسير، جئناك فى ابننا عبدك، فامنن عليه وأحسن إلينا فى فدائه. قال: «من هو؟» قالوا: زيد بن حارثة.

فقال رسول الله ﷺ: «فهلا غير ذلك؟» قالوا: ما هو؟ قال: «أدعوه فأخيره، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحدًا». قالا: قد زدتنا على النصف وأحسنت.

فدعاه فقال: «هل تعرف هؤلاء؟» قال: نعم. قال: «من هذا؟» قال: أبى وهذا عمى. قال: «فأنا من قد علمت ورأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما». قال زيد: ما أنا بالذى اختار عليك أحدًا، أنت منى مكان الأب والعم!، فقالا: ويحك يا زيد! أتختار

(١) انظر: السيرة (١/ ٢١٠).

العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك! قال: نعم، قد رأيت من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذى أختار عليه أحدًا أبدًا. فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ أخرجه إلى الحجر فقال: «يا من حضر، اشهدوا أن زيدًا ابنى يرثنى وأرثه». فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما، فانصرفوا(١).

فدعى: زيد بن محمد، حتى جاء الله بالإسلام فنزلت: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ الآية [الأحزاب: ٤]. فدعى من يومئذ زيد بن حارثة(٢).

قال ابن إسحاق(٣): ثم أسلم أبو بكر بن أبى قحافة، واسمه عتيق، وقيل: عبد الله، وعتيق لقب، لحسن وجهه وعتقه، فيما قال ابن هشام. واسم أبى قحافة عثمان بن عامر ابن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى.

فلما أسلم أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله. وكان أبو بكر رجلاً مؤلفًا لقومه محببًا سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجرًا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه.

قال(٤): فأسلم بدعائه فيما بلغنى، عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى، والزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى، وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب، وسعد بن أبى وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة، وطلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا.

فكان رسول الله ﷺ يقول فيما بلغنى «ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة، ما عكم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه»(٥).

---

(١) انظر الحديث فى: معجم الطبرانى الكبير (٥/٦٦، ١٢/١١٤)، تفسير ابن كثير (٣/٤٦٩) كنز العمال للمتقى الهندى (٣٦٤٩٣، ٣٦٤٩٦).
(٢) ذكره الهيثمى فى المجمع (٩/٢٧٤).
(٣) انظر: السيرة (١/٢١١).
(٤) انظر: السيرة (١/٢١٢٩).
(٥) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (١/١٠٨، ٣/٢٧)، الدلائل للبيهقى (٢/١٦٤).

قال[١]: فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام فصلوا وصدقوا رسول الله ﷺ وصدقوا بما جاءه من الله، ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر.

وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، والأرقم بن أبى الأرقم بن أسد أبى جندب بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى.

وأخواه قدامة وعبد الله ابنا مظعون، وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصى، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن عبد الله بن قرط بن رياح بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى.

وامرأته فاطمة بنت عمه الخطاب بن نفيل أخت عمر بن الخطاب، وأسماء بنت أبى بكر الصديق، وعائشة بنت أبى بكر الصديق وهى صغيرة، وخباب بن الأرت حليف بنى زهرة، وعمير بن أبى وقاص، أخو سعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن مسعود الهذلى، حليف بنى زهرة، وجماعة سوى هؤلاء سماهم ابن إسحاق[٢].

قال: ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به، ثم إن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه وأن ينادى الناس بأمره ويدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستسربه إلى أن أمره الله بإظهار ثلاث سنين فيما بلغنى، من مبعثه، ثم قال الله له: ﴿**فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين**﴾ [الحجر: ٩٤]، ثم قال: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين**﴾ [الشعراء: ١١٤، ١١٥]. وفى موضع آخر: ﴿**واخفض جناحك للمؤمنين وقل إنى أنا النذير المبين**﴾ [الحجر: ٨٩].

قال[٣]: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا فى الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فى شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم ناس من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا

---

(١) انظر: السيرة (١/٢١٢).
(٢) انظر: السيرة (١/٢١٢ - ٢١٦).
(٣) انظر: السيرة (١/٢١٧).

عليهم ما يصنعون، حتى قاتلوهم، فضرب سعد يومئذ رجلاً من المشركين بلحى بعير[١] فشجه. فكان أول دم هريق فى الإسلام.

فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه، حتى ذكر آلهتهم وعابها. فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون.

وحدب[٢] على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ومضى رسول الله ﷺ على أمره الله مظهرًا له، لا يرده عنه شىء.

فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يعتبهم من شىء أنكروه عليه، من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشرافهم إلى أبى طالب، عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس وأبو سفيان بن حرب، وأبو البخترى بن هشام، والحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصى، والأسود ابن المطلب بن أسد بن عبد العزى، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، والعاص بن وائل، ومن مشى منهم.

فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيه. فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقًا، وردهم ردًا جميلاً، فانصرفوا عنه.

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه، ثم شَرِىَ الأمر[٣] بينه وبينهم، حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها، فتذامروا فيه وحض بعضهم بعضًا عليه.

ثم إنهم مشوا إلى أبى طالب مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنًا وشرفًا ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين. أو كما قالوا له.

---

(١) لحى بعير: اللحى العظم الذى على الخد، وهو من الإنسان العظم الذى تنبت عليه اللحية.

(٢) حدب: أى عطف عليه ومنعه، يقال: فلان حدب على فلاذن، إذا كان عاطفًا عليه مانعًا له.

(٣) شرى الأمر: أى كثر واستفحل، يقال: شرى البرق إذا كثر لمعانه، ويقال: شرى الرجل إذا غضب.

ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله ﷺ ولا خذلانه. وذكر أن أبا طالب حين قالت له قريش هذه المقالة بعث إلى رسول الله ﷺ.

فقال له: يا ابن أخى، إن قومك قد جاءونى فقالوا كذا وكذا، للذى قالوا له فأبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق. فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وأنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال له: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته!»، ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى! ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخى، فأقبل عليه، فقال: اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشىء أبدًا[1].

ثم إن قريشًا حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى فى قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره واتخذه ولدًا، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله، فإنما هو رجل كرجل، قال: والله لبئس ما تسوموننى! أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبدًا. فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا، فقال له أبو طالب: والله ما أنصفونى، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على، فاصنع ما بدا لك أو كما قال. فحقب الأمر وحميت الحرب وتنابذ القوم وبادى بعضهم بعضًا[2].

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٣/٤٨)، الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٩٠٩)، وقال: هذا إسناد ضعيف معضل، يعقوب بن عتبة هذا من ثقات أتباع التابعين مات سنة ثمان وعشرين ومائة، وقد وجدت للحديث طريقًا أخرى بسند حسن لكن بلفظ: «ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك، على أن تستشعلوا لى منها شعلة» يعنى الشمس، وقد خرجته فى الأحاديث الصحيحة (٩٢).

(٢) قال فى السيرة بعد أن ذكر ما أورد ابن هشام هنا: فقال أبو طالب عند ذلك، يعرض بالمطعم ابن عدى، ويعم من خذله من بنى عبد مناف، ومن عاداه من قبائل قريش، ويذكر ما سألوه، وما تباعد من أمرهم:

قال[1]: ثم إن قريشًا تذامروا بينهم على من فى القبائل منهم من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه. فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم. ومنع الله تبارك وتعالى، رسوله منهم بعمه أبى طالب، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشًا يصنعون ما يصنعون فى بنى هاشم وبنى المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه، فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليهم، إلا ما كان من أبى لهب.

فلما رأى أبو طالب من قومه ما سره من جدهم وحدبهم عليه جعل يمدحهم ويذكر قديمهم وفضل رسول الله ﷺ فيهم ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم وليحدبوا معه على أمره، فقال:

إذا اجتمعت يومًا قريش لمخفر ... فعبد مناف سرها وصميمها[2]
فإن حصلت أشراف عبد منافها ... ففى هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يومًا فإن محمدًا ... هو المصطفى من سرها وكريمها
تداعت قريش غثها وسمينها ... علينا فلم تظفر وطاشت حلومها[3]
وكنا قديمًا لا نقر ظلامة ... إذا ما ثنوا صعر الخدود نقيمها

= ألا قل لعمرو والوليد ومطعم ... ألا ليت حظى من حياطتكم بكر
من الخور حبحاب كثير رغاؤه ... يرش على الساقين من بوله قطر
تخلف خلف الورد ليس بلاحق ... إذا ما علا الفيفاء قيل له وبر
أرى أخوينا من أبينا وأمنا ... إذا سئلا قالا إلى غيرنا الأمر
بلى لهما أمر ولكن تجرجما ... كما جرجمت من رأس ذى علق صخر
أخص خصوصا عبد شمس ونوفلا ... هما نبذانا مثل ما ينبذ الجمر
هما أغمزا للقوم فى أخويهما ... فقد أصبحا منهم أكفهما صفر
هما أشركا فى المجد من لا أبا له ... من الناس إلا أن يرس له ذكر
وتيم ومخزوم وزهرة منهم ... وكانوا لنا مولى إذا بغى النصر
فوالله لا تنفك منا عداوة ... ولا منهم ما كان من نسلنا شفر
فقد أسفهت أحلامهم وعقولهم ... وكانوا كجفر بئس ما صنعت جفر

انظر: السيرة (١/٢١٩ - ٢٢٠).

(١) انظر: السيرة (١/٢٢٠).

(٢) سرها وصميمها: أى خالصها وكريمها.

(٣) غثها وسمينها: الغث اللحم الضعيف، والسمين الماقبل أو العكس. طاشت حلومها: أى ذهبت عقولها.

ونحمى حماها كل يوم كريهة ونضرب عن أحجارها من يرومها
بنا انتعش العود الذوى وإنما بأكنافنا تندى وتنمى أرومها

ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأيًا نقول فيه، قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن. قال: والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة[١] الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول: مجنون. قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه[٢] ولا وسوسته. قالوا: فنقول شاعر. قال ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر قالوا: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر، قد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عقده[٣]، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق[٤] وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون لسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها[٥].

فلما خشى أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه قال قصيدته التى يعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها، وتودد فيها أشراف قومه، وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم فى ذلك من شعره أنه غير مسلم رسول الله ﷺ ولا تاركه لشىء أبدًا حتى يهلك دونه. وأولها:

---

(١) زمزمة الكاهن: أى كلام خفى لا يُفهم.
(٢) التخالج: اختلاج الأعضاء وتحركها عن غير إراده.
(٣) نفثه وعقده: هذه إشارة إلى ما كان يفعل الساحر إذ كان يأخذ خيطًا فيعقده ثم ينفث عليه بلا ريق.
(٤) العذق: الكثير الشعب والأطراف، ومن رواه عذق فمعناه كثير الماء، والعذق: كل غصن له شعب، وأيضًا هو النخلة عند أهل الحجاز. انظر: اللسان (مادة عذق).
(٥) انظر: السيرة (١/٢٢٢ - ٢٢٤).

ولما رأيت القوم لاود فيهم ... وقد قطعوا كمل العرى والوسائل[١]
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قومًا علينا أظنة ... يعضون غيظًا خلفنا بالأنامل[٢]
صبرت لهم نفسى بسمراء سمحة ... وأبيض عضب من تراث المقاول
وأحضرت عند البيت رهطى وإخوتى ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل
قيامًا معًا مستقبلين رتاجه ... لدى حيث يقضى حلفه كل نافل
وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم ... بمفضى السيول من إساف ونائل
موسمة الأعضاء أو قصراتها ... مخيسة بين السديس وبازل
ترى الودع فيها والرخام وزينة ... بأعناقها معقودة كالعثاكل
أعوذ برب الناس من كل طاعن ... علينا بسوء أو ملح بباطل
ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة ... ومن ملحق فى الدين ما لم نحاول
وثور ومن أرسى ثبيرًا مكانه ... وراق ليرقى فى حراء ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة ... وبالله إن الله ليس بغافل
وبالحجر الأسود إذ يمسحونه ... إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطىء إبراهيم فى الصخر وطأة ... على قدميه حافيًا غير ناعل
وأشواط بين المروتين إلى الصفا ... وما فيهما من صورة وتماثل
ومن حج بيت الله من كل راكب ... ومن كل ذى نذر ومن كل راجل
وبالمشعر الأقصى إذا عمدوا له ... إلال إلى مفضى الشراج القوابل[٣]
وتوقافهم فوق الجبال عشية ... يقيمون بالأيدى صدور الرواحل
وليلة جمع والمنازل من منى ... وهل فوقها من حرمة ومنازل
وجمع إذا ما المقربات أجزنه ... سراعًا كما يخرجن من وقع وابل[٤]
وبالجمرة الكبرى إذا صمدوا لها ... يؤمنون قذفًا رأسها بالجنادل
وكندة إذ هم بالحصاب عشية ... تجيز بهم حجاج بكر بن وائل
حليفان شدا عقد ما اختلفا له ... وردا عليه عاطفات الوسائل

---

(١) الوسائل: جمع وسيلة، وهى الوصلة والقربة، وقيل: هى المنزلة عند الملك.

(٢) أظنة: جمع ظنين، وهو المتهم الذى تظن به التهمة.

(٣) إلال: بالفتح هو جبل بعرفات، وسمى إلال لأن الحجيج إذا رأوه الوا فى السير واجتهدوا ليدركوا الموقف.

(٤) المقربات: الخيل التى تقرب مرابطها من البيوت لكرمها. وابل: المطر الشديد.

وحطمهم سمر الصفاح وسرحه ... وشبرقه وخد النعام الجوافل[١]
فهل بعد هذا من معاذ لعائذ ... وهل من معيذ يتقى الله عاذل
يطاع بنا الأعدا وودوا لو أننا ... تسد بنا أبواب ترك وكابل
كذبتم وبيت الله نترك مكة ... ونظعن إلا أمركم فى بلابل
كذبتم وبيت الله نبزى محمدًا ... ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وينهض قوم فى الحديد إليكم ... نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل[٢]
وحتى نرى ذا الضِغن يركب ردعه ... من الطعن فعل الأنكب المتحامل
وإنا لعمرو الله إن جد ما أرى ... لتلتبسن أسيافنا بالأماثل
بكفى فتى مثل الشهاب سميدع ... أخى ثقة حامى الحقيقة باسل[٣]
وما ترك قوم لا أبالك سيدًا ... يحوط الذمار غير ذرب مواكل[٤]
وأبيض يستسقى الغمام بكفه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده فى رحمة وفواضل[٥]
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً ... عقوبة شر عاجلاً غير آجل
بميزان قسط لا يخيس شعيرة ... له شاهد من نفسه غير عائل

---

(١) سمر: يحتمل أن يكون أصله سمرا بفتح فضم وهو من شجر الطلح. الصفاح: هو جمع صفح، وهو عرض الجبل، ويقال: أسفله حيث يسيل ماؤه، سرحه: السرح: شجر. شبرقة: الشبرق بالكسر نبات غض، وقيل: شجر منبته نجد وتهامة، وثمرته شاكة صغيرة الجرم حمراء مثل الدم وواحدته شبرق. وخد النعام: الوخد ضرب من سير الإبل وهو سعة الخطوة فى المشى.

(٢) الروايا: الإبل التى تحمل الماء. الصلاصل: واحدتها صلصلة وهى الصوت وذات الصلاصل: الزادات التى فيها بقية من الماء يسمع لها صوت حين تسير الإبل.

(٣) سميدع: السيد من الرجال. الباسل: الأسد لكراهة منظره وقبحه، والبسالة الشجاعة، والباسل الشديد، وقيل الشجاع، والجمع بسلاء وبسل.

(٤) جاء فى السيرة قبل هذا البيت بيت آخر وهو:

شهورا وأياما وحولا محرما ... علينا وتأتى حجة بعد قابل
وما ترك قوم .... مواكل

انظر: السيرة (١/٢٢٦).

(٥) ذكر بعد هذا البيت فى السيرة أبيات آخر لم يذكرها هنا. انظرها فى: السيرة (١/٢٢٧ - ٢٢٨).

لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا ... بنى خلف قيضًا بنا والغياطل(١)

ونحن الصميم من ذؤابة هاشم ... وآل قصى فى الخطوب الأوائل

وسهم ومخزوم تمالوا وألبوا ... علينا العدى من كل طمل وخامل

فعبد مناف أنتم خير قومكم ... فلا تشركوا فى أمركم كل واغل(٢)

لعمرى لقد وهنتم وعجزتم ... وجئتم بأمر مخطىء للمفاصل(٣)

فإن يك قومًا نتئر ما صنعتم ... وتحتلبوها لقحة غير باهل(٤)

فأبلغ قصيا أن سينشر أمرنا ... وبشر قصيا بعدنا بالتخاذل

ولو طرقت ليلاً قصيا عظيمة ... إذا ما لجأنا دونهم فى المداخل

ولو صدقوا ضربًا خلال بيوتهم ... لكنا أسى عند النساء المطافل

فإن نك كعب من لوى صميمة ... فلا بد يومًا مرة من تزايل(٥)

فكل صديق وابن أخت نعده ... لعمرى وجدنا غبه غير طائل

سوى أن رهطًا من كلاب بن مرة ... براء إلينا من معقة خاذل(٦)

ونعم ابن أخت القوم غير مكذب ... زهير حسامًا مفردًا من حمائل

أشم من الشم البهاليل ينتمى ... إلى حسب فى حومة المجد فاضل(٧)

لعمرى لقد كلفت وجدًا بأحمد ... وإخوته دأب المحب المواصل

فلا زال فى الدنيا جمالاً لأهلها ... وزينًا لمن والاه رب المشاكل

فمن مثله فى الناس أى مؤمل ... إذا قاسه الحكام عند التفاضل

حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالى إلهًا ليس عنه بغافل(٨)

---

(١) انظر: السيرة (١/٢٢٨).

(٢) الواغل: هو الداخل على القوم فى شرابهم وهو الذى يهجم على الشراب ليشرب معهم وليس منهم.

(٣) ذكر فى السيرة بعد هذا البيت بيتان لم يذكرهما. انظرهما فى: السيرة (١/٢٢٨).

(٤) ذكر فى السيرة بعد هذا البيت أبيات لم يذكرها هنا، انظرهما فى: السيرة (١/٢٢٩).

(٥) هذا البيت لم يذكره فى السيرة.

(٦) ذكر فى السيرة بعد هذ البيت أبيات لم يذكرها هنا، انظرها فى: السيرة (١/٢٢٩).

(٧) أشم: قيل: جبل أشم أى طويل الرأس. البهاليل: جمع بهلول وهو العزيز الجامع لكل خير، وقيل: هو الحيى الكريم.

(٨) الأبيات التى وردت هنا بعد هذا البيت غير موجود فى السيرة بهذا الترتيب فقد ذكرها هناك بترتيب أخر وهو: =

فأيده رب العباد بنصره ... وأظهر دينًا حقه غير باطل
فوالله لولا أن أجئ بسبة ... تجر على أشياخنا فى القبائل
لكنا ابتعناه على كل حالة ... من الدهر جدا غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمد فى أرومة ... تقصر عنها سورة المتطاول
حدبت بنفسى دونه وحميته ... ودافعت عنه بالذرى والكلاكل

والقصيدة أطول من هذا، وإنما تركنا ما تركنا منها اختصارًا.

وذكر ابن هشام أن بعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها[1]، قال: وحدثنى من أثق به قال: أقحط أهل المدينة فأتوا رسول الله ﷺ فشكوا إليه ذلك، فصعد المنبر فاستسقى، فما لبث أن جاء من المطر ما أتاه أهل الضواحى يشكون منه الغرق. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم حوالينا ولا علينا». فانجاب السحاب عن المدينة، فصار حواليها كالإكليل[2]، فقال رسول الله ﷺ: «لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لسره»، فقال له بعض أصحابه: كأنك يا رسول الله أردت لقوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

قال: «أجل»[3].

= فوالله لولا أن أجىء بسبة ... تجر على أشياخنا فى المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة ... من الدهر جدا غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمد فى أرومة ... تقصر عنها سورة المتطاول
حدبت بنفسى دونه وحميته ... ودافعت عنه بالذرا والكلاكل
فأيده رب العباد بنصره ... وأظهر دينا حقه غير باطل
رجال كرام غير ميل نماهم ... إلى الخير آباء كرام المحاصل
فإن تك كعب من لؤى صقيبة ... فلابد يوما مرة من تزايل

انظر: السيرة (١/٢٣٠).

(١) انظر: السيرة (١/٢٣٠).

(٢) الإكليل: هو شبه عصابة مزينة بالجواهر، وقيل: يريد أن الغيم تقشع عنها واستدار بآفاقها، وقيل: هو منزل من منازل القمر وهى أربعة أنجم. انظر: اللسان (مادة كلل).

(٣) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٢/١٥، ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٨/٩٢)، مسلم كتاب الاستسقاء (٨/٩)، النسائى (٣/١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٦، ١٦٧)، سنن ابن ماجه=

قال ابن إسحاق[١]: فلما انتشر أمر رسول الله ﷺ فى العرب وبلغ البلدان، ذكر بالمدينة، ولم يك حى من العرب أعلم بأمر رسول الله ﷺ حين ذكر وقبل أن يذكر من الأوس والخروج، وذلك لما كانوا يسمعون من أخبار يهود، وكانوا لهم حلفاء ومعهم فى بلادهم.

فلما وقع ذكره بالمدينة وتحدثوا بما بين قريش فيه من الاختلاف، قال أبو قيس بن الأسلت الأوسى، وكان يحب قريشًا، وكان يقيم فيهم السنين بامرأته أرنب بنت أسد ابن عبد العزى بن قصى، قصيدة يعظم فيها الحرمة، وينهى قريشًا عن الحرب ويذكر فضلهم وأحلامهم، ويأمرهم بالكف بعضهم عن بعض وعن رسول الله ﷺ، ويذكرهم بلاء الله عندهم ودفعه الفيل عنهم فقال:

ويا راكبًا إما عرضت فبلغن	مغلغلة عنى لؤى بن غالب[٢]
رسول امرىء قد راعه ذات بينكم	على النأى محزون بذلك ناصب
وقد كان عندى للهموم معرس	ولم أقض منها حاجتى ومآربى
أعيذكم بالله من شر صنعكم	وشر تباغيكم ودس العقارب
وإظهار أخلاق ونجوى سقيمة	كوخز الأثافى وقعها حق صائب[٣]
فذكرهم بالله أول وهلة	وإحلال إحرام الظباء الشوازب[٤]

-(١٢٦٩)، مسند الإمام أحمد (٣/١٠٤، ١٨٧، ١٩٤، ٢٦١، ٢٧١، ٤/٢٣٦)، البيهقى فى السنن الكبرى (٣/٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٤/٢٢١)، الدر المنثور للسيوطى (٦/٢٨)، مجمع الزوائد للهيثمى (٣/١٢)، مشكاة المصابيح للتبريزى (٥٩٠٢)، نصب الراية للزيلعى (٢/٢٣٩)، فتح البارى (٢/٤١٣، ٥٠١، ٥٠٨، ٥١٠، ٥١٢، ٥١٩، ١٠/٥٠٤، ١١/١٤٣)، صحيح ابن خزيمة (١٤٢٣، ١٧٨٩)، شرح السنة للبغوى (٤/٤١٤)، كنز العمال للمتقى الهندى (٢٣٥٤٠، ٢٣٥٤٨)، إتحاف السادة المتقين للزبيدى (٧/١٩٥)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/١٠٧، ٥/٨٩، ٦/١٠٢، ١٠٦)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/٨٩، ٦/١٣٩، ١٤٤)، طبقات ابن سعد (١/١/١٧، ١/٢/٤٢)، المعجم الكبير للطبرانى (١٠/٣٤٦)، مصنف ابن أبى شيبة (١٠/٢١٩، ٣٤٦، ١١/٤٨١).

(١) انظر: السيرة (١/٢٣٢).

(٢) مغلغله: قال السهيلى: المغلغلة: الداخل إلى أقصى ما يراد بلوغه منها أى محموة من بلد إلى بلد وقيل: المسرعة من الفلفلة وهى سرعة السير. انظر: اللسان (مادة غلغل).

(٣) الوخز: الطعن الغير نافذ، وقيل: هو الطعن النافذ فى جنب المطعون. الأشافى: جمع إشفى، وهى حديدة يفرز بها الأسكافى.

(٤) أحرام الظباء: التى يحرم صيدها فى الحرم. الشوازب: المضمرات، وقيل: الشازب الضامر اليابس من الناس وغيرهم.

وقـل لهـم واللـه يحكـم حكمـه ... ذروا الحرب تذهب عنكم فى المراحب
متـى تبعثوهـا تبعثوهـا ذميمـة ... هـى الغـول للأقصين أو للأقـارب
تقطـع أرحامًـا وتهلـك أمـة ... وتبرى السديف من سنام وغـارب[٥]
فإيـاكم والحـرب لا تغلقنكـم ... وحوضًا وخيم الماء مر المشارب[٦]
تزيـن للأقـوام ثـم يرونهـا ... بعاقبـة إذ بينـت أم صـاحب[٧]
تحرق لا تشـوى ضعيفًـا وتنتحـى ... ذوى العز منكم بالحتوف الصوائب
ألم تعلموا ما كان فى حـرب داحس ... فتعتبروا أو كـان فى حرب حاطب
وكـم قـد أصابت من شريف مسود ... طويـل العمـاد ضيفه غيـر خائب
ومـاءٍ هريـق فـى الضـلال كأنمـا ... أذاعـت بـه ريح الصبا والجنـائب[٨]
يخبركم عنهـا امـرؤ حـق عـالم ... بأيامهـا والعلـم علـم التجـارب
فبيعوا الحراب ملمحارب واذكـروا ... حسـابكم واللـه خيـر محاسـب
ولى امرىء فاختار دينًا فـلا يكـن ... عليكـم رقيبـا غـير رب الثواقـب
أقيمـوا لنـا دينًـا حنيفًـا فـأنتم ... لنـا غايـة قـد يهتـدى بـالذوائب
وأنتـم لهـذا النـاس نـور وعصمـة ... تؤمـون والأحـلام غـير عـوازب
وأنتم إذا مـا حصـل النـاس جوهـم ... لكـم سره البطحاء شم الأرانـب[٩]
تصونـون أجسـادًا كرامًـا عتيقـة ... مهذبـة الأنسـاب غـير أشـائب
تـرى طـالبى الحاجـات نحـو بيوتكـم ... عصـائب هلكـى تهتـدى بعصـائب

---

(٥) تبرى: تقطع. السديف: هو اللحم الذى يكون فى أعلى ظهر الإبل، وهـو مـا يسمى بالسنام، والغارب: أعلى الظهر.

(٦) ذكر فى السيرة قبل هذا البيت بيتان لم يذكرهما هنا وهما:

وتسـتبدلوا بالأتحميـة بعدهـا ... شليلاً وأصداءً ثياب المحـارب
وبالمسـك الكافـور غبـرًا سوابغًـا ... كـأن قتيريهـا عيـون الجنـادب

انظر: السيرة (٢٣٤/١).

(٧) بينت: أى ظهر أمرها واتضح. أم صاحب: قال السهيلى فى الروض الأنف: أى عجوز كأم صاحب لك إذا لا يصحب الرجل إلا الرجل فى سنه.

(٨) ريح الصبا: ريح معروفة تقابل الدبور، وقيل: الصبا ريح ومهبها المستوى أن تهب من موضع مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار، وينحتها الدبور، وقيل: الصبا ريح تستقبل البيت. انظر: اللسان (مادة صبا).

(٩) سرة: قيل: سرة الشىء، خيره وأعلاه. الشم: ارتفاع فى قصبة الأنف مع استواء أعلاه وإشراف الأرنبة قليلاً. الأرانب: جمع أرنبة وهى القصبة التى فيها ثقب الأنف.

لقـد علـم الأقـوام أن سـراتكم ... على كل حال خير أهل الجباجب[١٠]
فقومـوا فصلـوا ربكـم وتمسـحوا ... بأركـان هـذا البيـت بيـن الأخاشـب
فعندكـم منـه بـلاء ومصـدق ... غـداة أبـى يكسـوم هـادى الكتـائب
كتيبتـه بالسـهل تمسـى ورجلـه ... على القاذفات فى رءوس المناقب[١١]
فلمـا أتـاكم نصـر ذى العرش ردهـم ... جنـود إلـه بـين سـاف وحـاصب
فولـوا سـراعًا هـاربين ولـم يـؤب ... إلى قومـه ملحبـش غـير عصـائب
فـإن تهلكـوا نهـلك وتهـلك عصائب ... يعـاش بهـا قـول امـرىء غيـر كاذب

ثم إن قريشا اشتد أمرهم، للشقاء الـذى أصابهم، فى عـداوة رسـول اللـه ﷺ ومـن أسـلم معـه منهـم، فـأغروا برسـول اللـه ﷺ سـفهاءهم، فكذبـوه وآذوه ورمـوه بالشـعر والسحر والكهانة والجنون، رسول الله ﷺ مظهر لأمر الله لا يستخفى به، مبـاد لهـم بما يكرهون من عيب دينهم، واعتزال أوثانهم، وفراقه إياهم على كفرهم.

فحدث عروة بن الزبير أنه قال لعبد الله بـن عمـرو بـن العـاص: مـا أكـثر مـا رأيـت قريشًا أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يظهرون من عداوتـه؟ قـال: حضرتهـم وقـد اجتمع أشرافهم يومًا فى الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينـا مثـل مـا صبرنـا عليه من أمر هذا الرجل قط! سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسـب آلهتنا، لقد صبرنا معه على أمر عظيم. أو كما قالوا. فبينما هم فى ذلك طلع رسول اللـه ﷺ فأقبل يمشى حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعـض القول.

قال: فعرفت ذلك فى وجه رسـول اللـه ﷺ ثـم مضـى فلمـا مـر بهـم الثانيـة غمـزوه بمثلها، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ﷺ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقـف ثـم قـال: «أتسـمعون يـا معشـر قريـش؟! والـذى نفسـى بيـده لقـد جئتكـم بـالذبح». قـال: فأخذت القوم كلمته حتى مـا منهـم رجـل إلا كأنما علـى رأسـه طـائر واقـع، حتـى أن أشدهم وصاة فيه قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، حتـى إنـه ليقـول: انصـرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً. قال: فانصرف رسول الله ﷺ حتـى إذا كـان الغـد

---

(١٠) الجباجب: بالضم هو المستوى من الأرض وهى هنا أسماء منازل بمنى سميت به لأنـه كـروش الأضاحى تلقى فيها أيام الحج.

(١١) القاذفات: أعالى الجبال، وقيل: هى كل ما أشرف من رءوس الجبال وأعاليهـا. المنـاقب: جمـع منقبة، الطريق الضيق بين دارين أو جبلين لا يستطاع سلوكه.

اجتمعوا فى الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه!.

فبيناهم فى ذلك طلع رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون: أنت الذى تقول كذا وكذا، للذى يقول من عيب آلهتهم. فيقول رسول الله: «نعم أنا الذى أقول ذلك». فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه، فقام أبو بكر دونه وهو يبكى ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله!! ثم انصرفوا عنه. فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا نالوا منه قط(١).

* * *

ذكر إسلام حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه

قال ابن إسحاق(٢): وحدثنى رجل من أسلم، كان واعيةً، أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينة والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ. ومولاة لعبد الله بن جدعان فى مسكن لها تسمع ذلك. ثم انصرف عنه فعمد إلى نادى قريش عند الكعبة فجلس معهم. فلم يلبث حمزة ابن عبد المطلب أن أقبل متوحشًا قوسه راجعًا من قنص له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتى فى قريش وأشده شكيمة.

فلما مر بالمولاة، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفًا من أبى الحكم بن هشام! وجده هاهنا جالسًا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد. فاحتمل حمزة الغضب، لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى لم يقف على أحد، معدًا لأبى جهل إذا لقيه أن يقع به.

فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا فى القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه بها شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه، فأنا على دينه أقول ما يقول، فرد على إن استطعت. فقامت رجال بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل،

---

(١) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٢/٢٧٦)، إتحاف السادة المتقين للزبيدى (٧/٦٦)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٥).

(٢) انظر: السيرة (١/٢٤٠).

فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا. وتم حمزة على إسلامه وعلى ما بايع عليه رسول الله ﷺ من قوله. فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[1].

وعن محمد بن كعب القرظى، قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيدًا، قال يومًا وهو جالس فى نادى قريش، والنبى ﷺ جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أن أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون. فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه.

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السطة فى العشيرة والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبل منا بعضها. فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد أسمع».

قال: يا ابن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا لا تستطيع رده من نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه. أو كما قال له.

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يسمع منه قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاسمع منى». قال: أفعل، قال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرًا ونذيرًا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون**﴾ [فصلت: ١، ٤]. ومضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليها

---

(١) ذكره أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/ ٤٠)، وفى الدلائل (١٩٤)، الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٦٧)، ابن عساكر فى التاريخ (١٢/ ٧٢٠).

يستمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك». فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به.

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدَا لكم[1].

قال ابن إسحاق[2]: ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة فى قبائل قريش فى الرجال والنساء، وقريش تحبس من قدرت على حبسه، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين، ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه.

فبعثوا إليه فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداءٌ، وكان عليهم حريصًا يحب رشدهم ويعز عليه عَنَتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فلما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك، أو كما قالوا به، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تريد به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك، وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا، فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بى ما تقولون، ما جئت بما جئت به أطلب أموالكم ولا

---

(١) انظر الحديث فى: كنز العمال للمتقى الهندى (٣٥٤٢٨)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/٢٠٤، ٢٠٥)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/٦٢ - ٦٤).

(٢) انظر: السيرة (١/٢٤٣).

الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابًا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتمكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لحكم الله حتى يحكم الله بينى وبينكم». أو كما قال ﷺ، قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل شيئًا مما عرضنا عليك فإنك قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلدًا ولا أقل ماء ولا أشد عيشًا منا، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا وليخرق فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل، فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً إلينا كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثنى به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم»، قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكًا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربه هذا وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثنى بشيرًا ونذيرًا». أو كما قال: «فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم».

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفًا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن بك إلا أن تفعل. فقال رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل». قالوا: يا محمد، فما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا إذ لم نقبل منك ما جئتنا به؟ إنه بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله ما نؤمن بالرحمن أبدًا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك، وما بلغت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا.

وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً.

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم، وقام معه عبد الله بن أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك، فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله، فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب، فلم تفعل. أو كما قال له، فوالله لا أؤمن لك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظر، حتى تأتيها، ثم تأتى معك بصك معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك. ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا آسفًا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه.

فلما قام عنهم قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمدًا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإنى أعاهد الله لأجلسن له غدًا بحجر ما أطيق حمله، أو كما قال، فإذا سجد فى صلاته فَضَخْتُ به رأسه، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم. قالوا: والله لا نسلمك لشىء أبدًا فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرًا كما وصف، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدر، وكان بمكة وقبلته إلى الشام، فكان إذا صلى صلى بين الركنين: الركن اليمانى والحجر الأسود وجعل الكعبة بينه وبين الشام.

فقام رسول الله ﷺ يصلى، وقد غدت قريش فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا منتقعًا لونه مرعوبًا قد يبست يداه على حجره حتى قذف الحجر من يده. وقامت إليه رجال قريش فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل لا والله ما رأيت مثل هامته ولا قصرته، ولا أنيابه لفحل قط، فهم بى أن يأكلنى.

قال ابن إسحاق[1]: فذكر لى أن رسول الله ﷺ قال: «ذلك جبريل، لو دنا لأخذه»[2].

---

(١) انظر: السيرة (١/٢٤٦).

(٢) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٢/١٩١).

فلما قال لهم ذلك أبو جهل قام النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف ابن عبد الدار بن قصى، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلامًا حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر. لا والله ما هو بساحر، قد رأينا السحرة نفثهم وعقدهم. وقلتم: كاهن. لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة تخالجهم وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر، لقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه. وقلتم: مجنون. لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه، يا معشر قريش، انظروا فى شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم.

فلما قال لهم ذلك النضر بن الحارث بعثوه وبعثوا معه عقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، وقالوا لهما: سلاهم عن محمد وصِفَا لهم صفته وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء.

فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا!.

فقالت لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فإنه كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبأه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط حتى قدما مكة، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد. أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء، فإن أخبركم عنها فهو نبى، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم.

فجاءوا رسول الله ﷺ فسألوه عن تلك الأشياء، فقال لهم: «أخبركم بما سألتم عنه غدًا»، ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ فيما يذكرون خمس عشرة ليلة لا يحدث الله عز وجل، إليه فى ذلك وحيًا ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف آل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غدًا، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشىء مما

سألناه عنه. وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحى عنه وشق عليه ما يتلكم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف والروح.

فذكر لى أن رسول الله ﷺ قال لجبريل حين جاءه: «لقد احتبست عنى يا جبريل حتى سؤت ظنًا». فقال له جبريل: ﴿**وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا**﴾ [مريم: ٦٤][1].

فلما جاءهم رسول الله ﷺ بما عرفوا من الحق، وعرفوا صدقه فيما حدث وموقع نبوته فيما جاءهم به من علم الغيوب حين سألوه عما سألوه عنه، حال الحسد منهم له بينهم وبين اتباعه وتصديقه، فعتوا على الله وتركوا أمره عيانًا ولجوا فيما هم عليه من الكفر، فقال قائلهم: ﴿**لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾ [فصلت: ٢٦] أى اجعلوه لغوًا وباطلاً، واتخذوه هزوًا لعلكم تغلبونه بذلك، فإنكم إن ناظرتموه وخاصمتموه غلبكم.

فقال أبو جهل بن هشام يومًا وهو يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق: يا معشر قريش، يزعم محمد أنما جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أعظم الناس عددًا وكثرة، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم؟!. فأنزل الله فى ذلك من قوله: ﴿**وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانًا**﴾ [المدثر: ٣١] إلى آخر القصة[2].

فلما قال ذلك بعضهم لبعض، جعلوا إذا جهر رسول الله ﷺ بالقرآن وهو يصلى يتفرقون عنه ويأبون أن يستمعوا له، فكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلى استرق السمع دونهم فرقا منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذا هم فلم يستمع، وإن خفض رسول الله ﷺ صوته فظن الذى يستمع أنهم لا يسمعون شيئًا من قراءته وسمع هو شيئًا دونهم أصاخ يستمع له[3].

---

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (٢٥٢)، ابن حجر فى فتح البارى (٢٨٤/٨).

(٢) ذكره الشوكانى فى فتح القدير (٤٧١/٥)، وقال: أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ولم يذكر له إسنادًا.

(٣) ذكره الطبرى فى تفسيره (١٦٤/١٥).

وقال عبد الله بن عباس[(١)]: إنما نزلت هذه الآية: ﴿**ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً**﴾ [الإسراء: ١١٠] من أجل أولئك النفر[(٢)].

يقول: ﴿**لا تجهر بصلاتك**﴾ فيتفرقوا عنك ﴿**ولا تخافت بها**﴾ فلا يسمعها من يحب أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم، لعله يرعوى إلى بعض ما يستمع فينتفع بذلك.

وكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود فيما حدث به عروة بن الزبير[(٣)] قال: اجتمع يومًا أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا. قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه. قال: دعونى فإن الله سيمنعنى. قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى، وقريش فى أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قال: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ رافعًا بها صوته ﴿**الرحمن علم القرآن**﴾. ثم استقبلها يقرؤها، وتأموه فجعلوا يقولون: ما قال ابن أم عبد؟ ثم قالوا: إنه ليتلوا بعض ما جاء به محمد.

فقاموا إليه فجعلوا يضربون فى وجهه وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه. فقالوا: هذا الذى خشينا عليك. قال: ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها قالوا: لا، حسبك، فقد أسمعتهم ما يكرهون[(٤)].

وذكر الزهرى[(٥)] أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من الليل فى بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئًا.

ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا

(١) انظر: السيرة (١/٢٥٩).
(٢) انظر الحديث فى: صحيح البخارى حديث رقم (٧٤٩٠)، صحيح مسلم كتاب الصلاة (١/١٤٥)، سنن الترمذى (٣١٤٦).
(٣) انظر: السيرة (١/٢٥٩ - ٢٦٠).
(٤) ذكره القرطبى فى تفسيره (٧/١٤٧)، الطبرى فى تاريخه (٢/٣٣٤، ٣٣٥).
(٥) انظر: السيرة (١/٢٦٠ - ٢٦١).

يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة. ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود. فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته فقال: أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها.

قال الأخنس: وأنا والذى حلفت به، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء!!. فمن يدرك هذه؟! والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه. فقام عنه الأخنس وتركه[1].

قال ابن إسحاق[2]: وكان رسول الله ﷺ إذا تلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله قالوا يستهزئون به: قلوبنا فى أكنة لا نفقه ما تقول، وفى آذاننا وقر لا نسمع ما تقول، ومن بيننا وبينك حجاب قد حال بيننا وبينك، فاعمل بما أنت عليه إنا عاملون بما نحن عليه، إنا لا نفقه عنك شيئًا، فأنزل الله عليه فى ذلك من قولهم: ﴿**وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا**﴾ إلى قوله: ﴿**وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورًا**﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

أى كيف فهموا توحيدك ربك، إن كنت جعلت على قلوبهم أكنة وفى آذانهم وقرًا وبينك وبينهم حجابًا بزعمهم؟ أى أنى لم أفعل. ﴿**نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحورًا**﴾ [الإسراء: ٤٧].

أى ذلك ما تواصوا به من ترك ما بعثتك به إليهم. ﴿**انظر كيف ضربوا لك الأمثال فلا يستطيعون سبيلاً**﴾ [الإسراء: ٤٨]، أى أخطأوا المثل الذى ضربوا لك، فلا يصيبون

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٥/٨١).

(٢) انظر: السيرة (١/٢٦١ - ٢٦٢).

به هدى ولا يعتدل بهم فيه قول ﴿**وقالوا أإذا كنا عظامًا ورفاتًا أإنا لمبعوثون خلقًا جديدًا**﴾ [الإسراء: ٤٩] أى قد جئت تخبرنا أنا سنبعث بعد موتنا إذا كنا عظامًا ورفاتًا وذلك ما لا يكون. ﴿**قل كونوا حجارة أو حديدًا أو خلقًا مما يكبر فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة**﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١] أى الذى خلقكم مما تعرفون، فليس خلقكم من تراب بأعز من ذلك عليه. وسئل ابن عباس عن قول الله عز وجل: ﴿**أو خلقًا مما يكبر فى صدوركم**﴾ ما الذى أراد الله به؟ فقال: الموت.

قال ابن إسحاق[١]: ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم، يفتنونهم عن دينهم، منهم من يفتتن من شدة البلاء الذى يصيبه، ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم.

فكان بلال بن رباح وهو ابن حمامة لبعض بنى جمح[٢] مولدًا من مولديهم، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، فكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول وهو فى ذلك البلاء: أحدٌ أحدٌ.

وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب بذلك، وهو يقول: أحد أحد، فيقول: أحد أحد والله يا بلال![٣] ثم يقبل على أمية ومن يصنع ذلك به من بنى جمح فيقول: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانًا.

أى: لأتخذن قبره منسكًا ومسترحمًا، والحنان: الرحمة. حتى مر به أبو بكر الصديق يومًا وهم يصنعون ذلك به فقال لأمية: ألا تتقى الله فى هذا المسكين؟! حتى متى؟!

---

(١) انظر: السيرة (٢٦٢/١).

(٢) بنى جمح: ينتسبون إلى جمح بن عمرو، وهو بطن من العدنانية. انظر: معجم قبائل العرب (٢٠٢/١، ٢٠٣).

(٣) قال ابن كثير فى البداية والنهاية (١٠٧/٣): قد استشكل بعضهم هذا من جهة أن ورقة توفى بعد البعثة فى فترة الوحى، وإسلام من أسلم إنما كان بعد نزول: ﴿يا أيها المدثر﴾ فكيف يمر ورقة ببلال وهو يعذب؟ وفيه نظر.

قال: أنت الذى أفسدته فأنقذه. فقال أبو بكر: أفعل، عندى غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك، أعطيكه به. قال: قد قبلت. قال: هو لك. فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك، وأخذ بلالاً فأعتقه [١].

وأعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب، بلال سابعهم، عامر ابن فهيرة، وأم عبيس [٢]، وزنيرة [٣]، فأصيب بصرها حين أعتقها، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى. فقالت: كذبوا وبيت الله، ما تضر اللات والعزى ولا تنفعان. فرد الله إليها بصرها [٤].

وأعتق النهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار، فمر بهما أبو بكر وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهى تقول: والله لا أعتقكما أبدًا. فقال أبو بكر: حلا يا أم فلان. فقالت: حل أنت، أفسدتهما فأعتقهما. قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا. قال: قد أخذتهما، وهما حرتان، أرجعا إليها طحينها. قالتا: أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها؟ قال: أو ذلك إن شيئتما [٥].

ومر بجارية بنى نوفل حى من بنى عدى، وعمر بن الخطاب يعذبها لتترك الإسلام وهو يومئذ مشرك، فابتاعها أبو بكر فأعتقها. وقال له أبوه أبو قحافة: يا بنى، إنى أراك تعتق رقابًا ضعافًا فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جلداء يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر: يا أبت إنى إنما أريد ما أريد.

فيتحدث أنه ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيه وفيما قال أبوه: ﴿**فأما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى**﴾ إلى آخر السورة [الليل: ٧] [٦].

---

(١) ذكره أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/١٤٨)، ابن سعد فى الطبقات (١/٢٤٣).

(٢) قال ابن عبد البر فى الاستيعاب (٤/٥٠٠): أم عبيس، قال الزبير: كانت فتاة لبنى تيم بن مرة فأسلمت، وكانت ممن يعذب فى الله فاشتراها أبو بكر فأعتقها.

(٣) قال ابن عبد البر فى الاستيعاب (٤/٤٠٦): زنيرة: مولاة أبى بكر الصديق، هى أحد السبعة الذين كانوا يعذبون فى الله، فاشتراهم أبو بكر وأعتقهم. انظر ترجمتها فى: أسد الغابة الترجمة رقم (٦٩٤٨)، الإصابة الترجمة رقم (١١٢٢٢).

(٤) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/١٠٧).

(٥) ذكره ابن كثير فى البداية (٣/١٠٧).

(٦) ذكره الطبرى فى تفسيره (٣٠/٢٢١)، الحاكم فى المستدرك (٢/٥٢٥)، وابن كثير فى تفسيره (٨/٤٤٤).

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه، وكانوا أهل بيت إسلام، إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول فيما بلغني: «صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»(١). فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام.

وكان أبو جهل الفاسق الذي يغري بهم، في رجال من قريش، إذا سمع بالرجل له شرف ومنعة قد أسلم أنبه وأخزاه فقال: تركت دين أبيك وهو خير منك! لنسفهن حلمك ولنفيلن رأيك ولنضعن شرفك. وإن كان تاجرًا قال: والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك. وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به.

وقال سعيد بن جبير لعبد الله بن عباس(٢): أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسًا من شدة الضر الذي به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. حتى إن الجعل ليمر بهم فيقولون له: أهذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم. افتداءً منهم مما يبلغون من جهده(٣).

* * *

ذكر الهجرة إلى أرض الحبشة

قال ابن إسحاق(٤): فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد،

---

(١) انظر الحديث في: مستدرك الحاكم (٣/٣٨٣)، المطالب العالية لابن حجر (٤٠٣٤)، كنز العمال للمتقي الهندي (٣٧٣٦٦، ٣٧٣٦٨)، حلية الأولياء لأبي نعيم (١/١٤٠)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/٥٩).

(٢) انظر: السيرة (١/٢٦٥).

(٣) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٣/١٧١). وقال: وفي مثل هذا أنزل الله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرًا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ الآية، فهؤلاء كانوا معذورين بما حصل لهم من الإهانة والعذاب البليغ، أجارنا الله من ذلك بحوله وقوته.

(٤) انظر: السيرة (١/٢٦٦ - ٢٦٨).

وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه»[١].

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارًا بدينهم إلى الله. فكانت أول هجرة كانت فى الإسلام.

وكان أول من خرج من المسلمين عثمان بن عفان مع امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة معه امرأته سهلة بنت سهيل، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، ومصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى معه امرأته أم سلمة، وعثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح، وعامر بن ربيعة حليف آل الخطاب بن نفيل معه امرأته ليلى بنت أبى حثمة، وسهل بن بيضاء من بنى الحارث بن فهر، وأبو سبرة بن أبى رهم، ويقال: بل أبو حاطب بن عمرو. ويقال: هو كان أول من قدمها.

وكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين، ثم خرج جعفر بن أبى طالب وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة منهم من خرج بأهله ومنهم من خرج بنفسه.

فكان جميع من لحق بأرض الحبشة من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارًا أو ولدوا بها، ثلاثة وثمانين رجلاً، إن كان عمار بن ياسر فيهم، وهو يشك فيه.

وكان مما قيل من الشعر فى الحبشة أن عبد الله بن الحارث بن قيس بن عدى بن سعيد بن سهم، حين أمنوا بأرض الحبشة وحمدوا جوار النجاشى، وعبدوا الله لا يخافون على ذلك أحدًا قال:

يا راكبًا بلغن عنى مغلغلة ... من كان يرجو بلاغ الله والدين[٢]
كل امرىء من عباد الله مضطهد ... ببطن مكة مقهور ومفتون
أنا وجدنا بلاد الله واسعة ... تنجى من الذى والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز ... ى فى الممات وغيب غير مأمون
إنا تبعنا رسول الله واطرحوا ... قول النبى وعالوا فى الموازين
فاجعل عذابك بالقوم الذين بغوا ... وعائذًا بك أن يعلوا فيطغونى

وقال عبد الله بن الحارث أيضًا، يذكر نفى قريش إياهم من بلادهم ويعاتب بعض

---

(١) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/٦٦).

(٢) مغلغلة: بفتح العين هى الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد.

قومه فى ذلك:

أبت كبدى لا أكذبنك قتالهم ... علىّ وتأباه علىّ أناملى
وكيف قتالى معشرًا أدبوكم ... على الحق ألا تأشبوه بباطل
نفتهم عباد الجن من حر أرضهم ... فأضحوا على أمر شديد البلابل[(١)]
فإن تك كانت فى عدى أمانة ... عدى بن سعد عن تقى أو تواصل
فقد كنت أرجو أن ذلك فيهم ... بحمد الذى لا يطبى بالجعائل
وبدلت شبلاً شبل كل ضعيفة ... بذى فجر مأوى الضعاف الأرامل[(٢)]

وقال عبد الله بن الحارث أيضًا:

وتلك قريش تجحد الله حقه ... كما جحدت عاد ومدين والحجر[(٣)]
فإن أنا لم أبرق فلا يَسَعنى ... من الأرض بر ذو فضاء ولا بحر
بأرض بها عبد الإله محمد ... أبين ما فى النفس إذ بلغ النفر

فسمى عبد الله يرحمه الله، المبرق ببيته الذى قال.

وقال عثمان بن مظعون يعاتب أمية بن خلف وهو ابن عمه، وكان يؤذيه فى إسلامه، وكان أمية شريف قومه فى زمانه ذلك:

أتيم بن عمرو للذى جاء بغضه ... ومن دونه الشرمان والبرك أكتع[(٤)]
أأخرجتنى من بطن مكة آمنا ... وأسكنتنى فى صرح بيضاء تقذع
تريش نبالا لا يواتيك ريشها ... وتبرى نبالا ريشها لك أجمع
وحاربت أقواما كراما أعزة ... وأهلكت أقواما بهم كنت تقرع
ستعلم إن نابتك يوما ملمة ... وأسلمك الأوباش ما كنت تصنع

وتيم بن عمرو، الذى يدعو عثمان، هو جمح بن عمرو، كان اسمه تيما.

قال ابن إسحاق[(٥)]: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا واطمأنوا

---

(١) حر أرضهم: هى الأرض الكريمة. البلابل: شدة الهم والوساوس فى الصدور وحديث النفس.
(٢) لا يطبى: أى لا يستمال ولا يستدعى. الجعائل: جمع جعالة وهى الرشوة.
(٣) الحجر: هو اسم ديار ثمود بوادى القرى من المددينة والشام، وقيل: هو من وادى القرى على يوم بين جبال وبها قامت منازل ثمود. انظر: معجم البلدان (٢/٢٢١).
(٤) الشرم: لجة البحر، وقيل: موضع فيه: وقيل: هو أبعد قعره والشروم غمرات البحر واحدها شرم. انظر: اللسان (مادة شرم). البرك: هو جماعة الإبل الباركة، وقيل: اسم موضع.
(٥) انظر: السيرة (١/٢٧٥ - ٢٧٩).

بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم رجلين من قريش جلدين إلى النجاشى، فيردهم عليهم، ليفتنوهم فى دينهم، ويخرجوهم من دارهم، التى اطمأنوا بها وأمنوا فيها.

فبعثوا عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص وجمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته ثم بعثوهما.

فقال أبو طالب، حين رأى ذلك من رأيهم وما بعثوهما فيه، أبياتا يحض النجاشى على حسن جوارهم والدفع عنهم:

ألا ليت شعرى كيف فى النأى جعفر ... وعمرو وأعداء العدو الأقارب
وهل نالت أفعال النجاشى جعفرًا ... وأصحابه أو عاق ذلك شاغب
تعلم أبيت اللعن أنك ماجد ... كريم فلا يشقى لديك المجانب[1]
تَعلَّمْ فإن الله زادك بسطة ... وأسباب خير كلها بك لازب
وأنك فيض ذو سجال غزيرة ... ينال الأعادى نفعها والأقارب

وذكر ابن إسحاق: من حديث[2] أم سلمة زوج النبى ﷺ، قالت: لما نزلنا أرض الحبشة، تعنى مع زوجها الأول أبى سلمة، جاورنا بها خير جار النجاشى، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين منهم جليدين، وأن يهدوا للنجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدما كثيرًا، ولم يتركوا من بطارقته بطريقا إلا أهدوا لهم، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم، ثم قدما إلى النجاشى هداياه، ثم اسألاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا حتى قدما إلى النجاشى، ونحن عنده بخير دار، عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلماه، وقالا لكل بطريق: إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم

---

(١) أبيت اللعن: هذه تحية العرب فى الجاهلية للملوك. المجانب: أراد به الداخل فى حماه.
(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (١/٢٠٢)، مجمع الزوائد (٦/٢٤، ٢٧).

إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا[١]، وأعلم بما عابوا عليهم؛ فقالوا لهما: نعم.

ثم إنهما قربا هداياهما إلى النجاشي فقبلها، ثم قالا له: أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينك، جاءوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم، فهم أعلى بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة، وعمرو بن العاص من أن لا يسمع كلامهما النجاشي. فقالت بطارقته: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

فغضب النجاشى، ثم قال: لاها الله، إذًا لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى، واختارونى على من سواى، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان من أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهم، وأحسنت جوارهم ما جاورونى. ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا كائنا فى ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا، وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل؟.

قالت: فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب، قال: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. قالت: فعدد عليه أمور الإسلام.

---

(١) أعلى بهم عينًا: أى أبصر بهم، وقيل: أى عينهم وأبصارهم فوق عين غيرهم.

فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادكِ، واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك، فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم. قال: فاقرأه عليَّ. فقرأ عليه صدرًا من: ﴿كهيعص﴾، فبكى والله النجاشى حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما يتلى عليهم.

ثم قال لهم النجاشى: إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة[1] واحدة، انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكما أبدًا ولا يكادون.

فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه عنهم غدًا بما أستأصل به خضراءهم[2]. قالت: فقال له عبد الله بن أبى ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا. قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد. ثم غدا عليه، فقال: أيها الملك، إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيما، فسلهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه، ولم ينزل مثلها قط. فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ فقالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائنا فى ذلك ما هو كائن.

قالت: فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون فى عيسى ابن مريم؟ قالت: فقال جعفر ابن أبى طالب: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا، نقول: عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشى بيده إلى الأرض فأخذ منها عودًا، ثم قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت[3] بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضى أى آمنون، من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، فما أحب أن لى دبرًا من ذهب وأنى

---

(١) مشكاة: أى الثقب الذى يوضع فيه الفتيل والمصباح، وهى الكوة غير النافذ.
(٢) استأصل به خضراءهم: أى جماعتهم وقوتهم ومعظمهم، وقيل: شجرتهم التى تفرعوا منها.
(٣) تناخرت: أى تكلمت وكأنه كلام من غضب ونفور.

آذيت رجلاً منكم. ويقال دبرًا، وهو الجبل بلسان الحبشة فيما قال ابن هشام.

ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لى بها، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار، قالت: فوالله إنا لعلى ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه فى ملكه فوالله ما علمتنا حزنا قط كان أشد من حزن حزناه عند ذلك، تخوفًا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشى فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه.

وسار إليه النجاشى وبينهما عرض النيل، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ فقال الزبير بن العوام: أنا قالوا: فأنت. وكان من أحدث القوم سنا، فنفخوا له قربة فجعلنها فى صدره ثم سَبَح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم.

قالت: ودعونا الله للنجاشى بالظهور على عدوه والتمكين له فى بلاده. فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن إذ طلع الزبير يسعى، فلمع بثوبه يقول: ألا أبشروا فقد ظهر النجاشى وأهلك الله عدوه فوالله ما علمتنا فرحنا فرحة قط مثلها.

ورجع النجاشى، وقد أهلك الله عدوه ومكن له فى بلاده واستوسق عليه أمر الحبشة، فكنا عنده فى خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ.

قال الزهرى[1]: فحدثت عروة بن الزبير هذا الحديث، فقال: هل تدرى ما قوله: «ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فى فأطيع الناس فيه» قلت: لا والله.

قال: فإن عائشة أم المؤمنين حدثتنى أن أباه كان ملك قومه، ولم يكن له ولد إلا النجاشى، وكان للنجاشى عم له من صلبه إثنا عشر رجلاً، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة، فقالت الحبشة بينها: لو أنا قتلنا أبا النجاشى وملكنا أخاه، فإنه لا ولد له غير هذا الغلام، وإن لأخيه من صلبه إثنى عشر رجلاً فتوارثوا ملكهم من بعده بقيت الحبشة بعده دهرًا.

فعدوا على أبى النجاشى فقتلوه وملكوا أخاه، فمكثوا على ذلك حينا ونشأ

(١) انظر: السيرة (١/٢٧٩ - ٢٨١).

النجاشي مع عمه، وكان لبيبًا حازمًا من الرجال، فغلب على أمر عمه ونزل منه بكل منزلة، فلما رأت الحبشة مكانه منه قالت بينها: والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمه، وإنا لنتخوف أن يملكه علينا، وإن ملكه علينا ليقتلننا أجمعين، لقد عرف أنا نحن قتلنا أباه.

فمشوا إلى عمه، فقالوا: إما أن تقتل هذا الفتى أو لتخرجنه من بين أظهرنا، فإنا قد خفناه على أنفسنا. قال: ويلكم! قتلت أباه بالأمس وأقتله اليوم! بل أخرجه من بلادكم.

فخرجوا به إلى السوق فباعوه من رجل من التجار بستمائة درهم، فقذفه في سفينة فانطلق به حتى إذا كان العشى من ذلك اليوم هاجت سحابة من سحائب الخريف فخرج عمه يستمطر تحتها فأصابته صاعقة فقتلته.

ففزعت الحبشة إلى ولده فإذا هو محمق ليس في ولده خير، فمرج على الحبشة أمرهم، فلما ضاق عليهم ما هم فيه قال بعضهم لبعض: تعلموا والله أن ملككم الذى لا يقيم أمركم غيره الذى بعتموه غدوة، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه. قالت: فخرجوا في طلبه وطلب الرجل الذى باعوه منه حتى أدركوه فأخذوه منه، ثم جاءوا به فعقدوا عليه التاج وأقعدوه على سرير الملك، فجاءهم التاجر الذى كانوا باعوه منه، فقال: إما أن تعطونى مالى وإما أن أكلمه في ذلك. فقالوا: لا نعطيك شيئًا. قال: إذا والله أكلمه. قالوا: فدونك.

فجاءه فجلس بين يديه، فقال: أيها الملك، ابتعت غلامًا من قوم بالسوق بستمائة درهم، فأسلموا إلى غلامى وأخذوا دراهمى، حيث إذا سرت أدركونى فأخذوا غلامى ومنعونى دراهمى.

فقال لهم النجاشي: لتعطنه دراهمه أو ليضعن غلامه يده في يده فليذهبن به حيث شاء! قالوا: بل نعطيه دراهمه[1].

وكان ذلك أول ما خبر من صلابته في دينه وعدله في حكمه رحمه الله تعالى، وعن عائشة قالت: لما مات النجاشي كان يتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور.

وذكر ابن إسحاق[2] أيضًا، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، أن الحبشة اجتمعت، فقالوا للنجاشي، يعنى عندما وافق جعفر بن أبى طالب على قوله في عيسى ابن مريم:

---

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٣/١٢٣ - ١٢٤).
(٢) انظر: السيرة (١/٢٨١).

إنك فارقت ديننا. وخرجوا عليه، فأرسل إلى جعفر وأصحابه وهيأ سفنًا وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرت فاثبتوا.

ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ويشهد أن عيسى عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم.

ثم جعله فى قبائه عند المنكب الأيمن، وخرج إلى الحبشة وصفوا له، فقال: يا معشر الحبشة، ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى. قال: فكيف رأيتم سيرتى فيكم؟ قالوا: خير سيرة. قال: فما لكم؟ قالوا: فارقت ديننا وزعمت أن عيسى عبد. قال: فما تقولون أنتم فى عيسى؟ قالوا: نقول هو ابن الله. قال النجاشى، ووضع يده على صدره على قبائه: هو يشهد أن عيسى لم يزد على هذا شيئًا. وإنما يعنى على ما كتب. فرضوا وانصرفوا، فبلغ ذلك النبى ﷺ، فلما مات النجاشى صلى عليه واستغفر له[١].

قال ابن إسحاق[٢]: ولما قدم عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى ربيعة على قريش، ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله ﷺ وردهما النجاشى بما يكرهون، وأسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وكان رجلاً ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره، امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ وبحمزة حتى عازوا قريشًا.

فكان عبد الله بن مسعود يقول: ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه[٣].

وقال ابن مسعود فى رواية البكائى عن غير ابن إسحاق: إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا وما نصلى عند الكعبة، حث أسلم عمر، وذكر مثل ما تقدم نصًا إلى آخره.

* * *

---

(١) وردت من الأحاديث الكثير فى صلاة النبى ﷺ على النجاشى، ومنها ما أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٤/٣٦٠، ٣٦٣) عن جرير بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخاكم النجاشى قد مات فاستغفروا له».

(٢) انظر: السيرة (١/٢٨١ - ٢٨٢).

(٣) ذكره الهيثمى فى المجمع (٩/٦٢)، ابن سعد فى الطبقات (١/٢٧٠). الحاكم فى المستدرك (٣/٨٣، ٨٤).

ذكر الحديث عن إسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه

حدث عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أمه، أم عبد الله بنت أبى حثمة قالت: والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر فى بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف على، وهو على شركه، قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا، فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله! فقلت: نعم، والله لنخرجن فى أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجًا! فقال: صحبكم الله! ورأيت له رقة لم أكن أرها، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا. قالت: فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفًا ورقته علينا! قال: أطمعت فى إسلامه؟ قالت: نعم. قال: لا يسلم الذى رأيت حتى يسلم حمار الخطاب! قالت: يأسًا منه لما كان يرى منه من غلظته وقسوته عن الإسلام[1].

قال ابن إسحاق[2]: وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة.

قال: وكان إسلامه فيما بلغنى، أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت قد أسلمت، وأسلم زوجها سعيد بن زيد، وهم مستخفون بإسلامهم من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام من بنى عدى قد أسلم، وكان يستخفى بإسلامه فرقًا من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن.

فخرج عمر يومًا متوشحًا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطًا من أصحابه، قد ذكروا له أنهم اجتمعوا فى بيت عند الصفا، قريبًا من أربعين بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة، وأبو بكر الصديق، وعلى بن أبى طالب، فى رجال من المسلمين.

فلقيه نعيم فقال: أين تريد يا عمر؟ قال: أريد محمدًا هذا الصابىء الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وأعاب دينها وسب آلهتها فأقتله. فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض، وقد قتلت محمدًا! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم.

---

(١) انظر: السيرة (١/٢٨٢).

(٢) انظر: السيرة (١/٢٨٢ - ٢٨٣).

قال: أى أهل بيتى؟ قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة، فقد والله أسلما وتابعًا محمدًا على دينه، فعليك بهما.

فرجع عمر عائدًا إلى أخته وختنه، وعندهما خباب معه صحيفة فيها «طه» يقرؤهما إياها، فلما سمعوا حَسَّ عمر تغيب خباب فى مخدع لهم، أو فى بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر قراءة خباب، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التى سمعت؟ قالا: ما سمعت شيئًا. قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه.

وبطش بختنه سعيد، فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك!.

ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم وارعوى، وقال لها: أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرأون آنفًا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد. وكان عمر كاتبًا، فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاك عليها. قال: لا تخافى، وحلف لها بآلهته ليردنها إليها إذا قرأها. فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه، فقالت له: يا أخى، إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر. فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها «طه» فقرأها، فلما قرأ منها صدرًا قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه. فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال: يا عمر، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإنى سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر. فقال له عند ذلك: فدلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم. فقال له خباب: هو فى بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه.

فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل منهم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحًا السيف فرجع وهو فزع فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحًا السيف. فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرًا قتلناه بسيفه. فقال رسول الله ﷺ: ائذن له. فأذن له الرجل. ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه فى الحجرة فأخذ بحجرته أو بمجمع ردائه ثم جبذه جبذة شديدة. وقال: «ما جاء بك يا ابن الخطاب، فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة!»، فقال عمر: يا رسول الله، جئت لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عنده. قال: فكبر رسول

الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم. فتفرقوا من مكانهم وقد عزوا فى أنفسهم حين أسلم عمر، مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ وينتصفون بهما من عدوهم[١]. فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر.

وقد روى غيرهم إن إسلام عمر فيما تحدثوا به عنه أنه كان يقول: كنت للإسلام مباعدًا وكنت صاحب خمر فى الجاهلية أحبها وأشربها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالحزورة[٢]، فخرجت ليلة أريد جلسائى أولئك فى مجلسهم ذلك فلم أجد فيه منهم أحدًا، فقلت: لو أنى جئت فلانًا الخمار لعلى أجد عنده خمرًا فأشرب منها، فجئته فلم أجده، فقلت: فلو أنى جئت الكعبة فطفت بها سبعًا أو سبعين. فجئت أريد ذلك فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل بينه وبينها الكعبة، فكان مصلاه بين الركنين: الركن الأسود والركن اليمانى، فقلت حين رأيته: والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أستمع ما يقول.

فقلت: لئن دنوت منه لأروعنه، فجئت من قبل الحجر، فدخلت تحت ثيابها، فجعلت أمشى رويدًا ورسول الله ﷺ قائم يصلى يقرأ القرآن حتى قمت فى قبلته مستقبله ما بينى وبينه إلا ثياب الكعبة. فلما سمعت القرآن رق له قلبى! فبكيت ودخلنى الإسلام، فلم أزل قائمًا فى مكانى ذلك حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبى حسين، وكانت طريقه حتى يخرج المسعى ثم يسلك بين دار عباس بن عبد المطلب وبين دار ابن أزهر.

فتبعته حتى إذا دخل بينهما أدركته، فلما سمع حسى عرفنى، فظن أنى إنما تبعته لأوذيه فنهمنى ثم قال: «ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة؟» قلت: جئت لأومن بالله وبرسوله وبما جاء به من عند الله، فحمد الله رسول الله ﷺ ثم قال: «قد هداك الله يا عمر»، ثم مسح صدرى ودعا لى بالثبات، ثم انصرفت عن رسول الله ﷺ ودخل رسول الله ﷺ بيته[٣].

---

(١) انظر الحديث فى: طبقات ابن سعد (٣/٩١)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/٢١٩).
(٢) الحزورة: هى الآن قطعة من المسجد فى مكة.
(٣) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/١٢٩).

قال ابن إسحاق[١]: فالله أعلم أى ذلك كان.

وذكر محمد بن عبد الله بن سنجر الحافظ فى إسلام عمر رضى الله عنه، زيادة لم يذكرها ابن إسحاق، فروى بإسناد له إلى شريح بن عبيد قال: قال عمر بن الخطاب: خرجت أتعرض لرسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد فقمت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أتعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، فقرأ: ﴿**إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون**﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١]، قال: قلت: كاهن علم ما فى نفسى فقرأ: ﴿**ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون**﴾ [الحاقة: ٤٢] إلى آخر السورة.

قال: فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع.

قال ابن إسحاق[٢]: وحدثنى نافع عن ابن عمر قال: لما أسلم عمر قال: أى قريش أنقل للحديث؟ قيل له: جميل بن معمر الجمحى. فغدا عليه وغدوت أتبع أثره أنظر ما يفعل، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت، حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أنى أسلمت ودخلت فى دين محمد؟! فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتبعه عمر، واتبعت أبى، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، وهم فى أنديتهم حول الكعبة، ألا إن ابن الخطاب قد صبأ، قال: يقول عمر من خلفه: كذب ولكنى أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم.

قال: وطلع فقعد، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا، فبيناهم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقميص موشى حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر. قال: فمه، رجل اختار لنفسه أمرًا فماذا تريدون؟ أترون بنى عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبهم. هكذا عن الرجل. فوالله لكأنما كانوا ثوبًا كشط عنه. فقلت لأبى بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت، من الرجل الذى زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهو يقاتلونك؟ جزاه الله خيرًا. قال: أى بنى، ذلك العاص بن وائل السهمى، لا جزاه الله خيرًا[٣].

---

(١) انظر: السيرة (٢٨٦/١).

(٢) انظر: السيرة (٢٨٦/١).

(٣) ذكره ابن كثر فى البداية والنهاية (١٢٩/٣ - ١٣٠).

وهذا الدعاء عليه وله مما زاده ابن هشام عن غير ابن إسحاق.

وعن بعض آل عمر قال عمر[1]: لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أى الناس أشد عداوة لرسول الله ﷺ حتى آتيه فأخبره أنى قد أسلمت، قال: قلت: أبو جهل. وكان عمر ابنًا لحنتمة بنت هشام بن المغيرة، فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه، فخرج إلى فقال: مرحبًا وأهلاً يا ابن أختى، ما جاء بك؟ قلت: جئتك أخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد وصدقت بما جاء به، فضرب الباب فى وجهى وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به.

وفيما رواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق أن عمر رضى الله عنه، قال حين أسلم.

الحمد لله ذى المن الذى وجبت	له علينا أياد كلها عبر
وقد بدأنا فكذبنا فقال لنا	صدق الحديث نبى عنده الخبر
وقد ظلمت ابنة الخطاب ثم هدى	ربى عشية قالوا قد صبا عمر
وقد ندمت على ما كان من زلل	بظلمها حين تتلى عندها السور
لما دعت ربها ذا العرش جاهدة	والدمع من عينها عجلان يبتدر
أيقنت أن الذى تدعوه خالقها	تكاد تسبقنى من عبرة درر
فقلت أشهد أن الله خلقنا	وأن أحمد فينا اليوم مشتهر
نبى صدق أتى بالحق من ثقة	وفى الأمانة ما فى عوده خور

قال ابن إسحاق[2]: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدًا أصابوا به أمنًا وقرارًا، وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشوا فى القبائل، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على نبى هاشم وبنى المطلب، على أن لا يتكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم.

فلما اجتمعوا لذلك كتبوا فى صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم.

فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب فدخلوا معه فى شعبه واجتمعوا إليه وخرج من بنى هاشم أبو لهب إلى قريش فظاهرهم، ولقى هندا

---

(١) انظر: السيرة (١/٢٨٧).

(٢) انظر: السيرة (١/٢٨٧ - ٢٨٨).

بنت عتبة بن ربيعة حين فارق قومه وظاهر عليم قريشًا، فقال لها: يا بنت عتبة، هل نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما؟ قالت: نعم، فجزاك الله خيرًا يا أبا عتبة.

وقال أبو طالب فيما صنعت قريش من ذلك واجتمعوا عليه:

ألا أبلغا عنى على ذات بيننا ... لؤيا وخصا من لؤى بنى كعب
ألم تعلموا أنا وجدنا محمدًا ... نبيًا كموسى خط فى أول الكتب
وأن عليه فى العباد محبة ... ولا خير ممن خصه الله بالحب
وأن الذى لصقتم من كتابكم ... لكم كائن نحسًا كراغية السقب(١)
أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى ... ويصبح من لم يجن ذنبًا كذى الذنب
ولا تبتغوا أمر الوشاة وتقطعوا ... أواصرنا بعد المودة والقرب
وتستجلبوا حربًا عوانًا وربما ... أمر على من ذاقه حلب الحرب
فلسنا ورب البيت نسلم أحمدًا ... لعزاء من عض الزمان ولا كرب
ولما تبن منا ومنكم سوالف ... وأيد أترت بالقساسية الشهب(٢)
بمعترك ضنك ترى كسر القنا ... به والنسور الطخم يعكفن كالشرب
كأن مجال الخيل فى حجراته ... ومعمعة الأبطال معركة الحرب(٣)
أليس أبونا هاشم شد أزره ... وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
ولسنا نمل الحرب حتى تملنا ... ولا نتشكى ما قد ينوب من النكب
ولكننا أهل الحفائظ والنهى ... إذا طار أرواح الكماة من الرعب

فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثًا حتى جهدوا لا يصل إليهم شيء إلا سرًا، مستخفيًا به من أراد صلتهم من قريش.

وقد كان أبو جهل فيما يذكرون، لقى حكيم بن حزام معه غلام يحمل قمحًا يريد به عمته خديجة وهى مع رسول الله ﷺ فى الشعب فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم؟ فقال له أبو البخترى: طعام كان لعمته عنده، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خل سبيل الرجل.

---

(١) كراغية السقب: الراغية من الرُغاء بضم أوله وهو أصوات الإبل. والسقب ولد الناقة.
(٢) تبن: تنفصل. السوالف: صفحات الأعناق. أترت: يعنى قطعت. القساسية: سيوف تنسب إلى قساس وهو جعل لبنى أسد فيه معدن الحديد.
(٣) مجال الخيل: إيجالة الفرسان إياها. حجراته: أى النواحى. معمعة: الصوت.

فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ أبو البخترى لحى بعير فضربه، فشجه ووطئه وطأ شديدًا، وحمزة بن عبد المطلب قريب يرى ذلك وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشمتوا بهم.

ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهارًا وسرًا وجهرًا، مباديًا لأمر الله لا يتقى فيه أحدًا من الناس.

فجعلت قريش حين منعه الله منها وقام عمه وقومه من بنى هاشم وبنى المطلب دونه وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به، يهمزونه ويستهزئون به ويخاصمونه وجعل القرآن ينزل فى قريش بأحداثهم، وفيمن نصب لعداوته، منهم من سمى لنا، ومنهم من نزل فيه القرآن فى عامة من ذكر الله من الكفار.

فكان من سمى لنا من قريش ممن نزل فيه القرآن عمه أبو لهب وامرأته أم جميل بنت حرب بن أمية، حمالة الحطب، وإنما سماها الله عز وجل حمالة الحطب أنها كانت فيما بلغنى، تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر.

وكان أبو لهب يقول فى بعض ما يقول: يعدنى محمد أشياء لا أراها، يزعم أنها كائنة بعد الموت، فماذا وضع فى يدى بعد ذلك! ثم ينفخ فى يديه ويقول: تبا لكما ما أرى فيكما شيئًا مما يقول محمد!

فأنزل الله عز وجل فيهما: ﴿**تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارًا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد**﴾ [المسد: ١، ٥][1].

قال ابن إسحاق[2]: فذكر لى أن أم جميل حين سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من

---

(١) ذكره الشوكانى فى فتح القدير (٥/٧٤٥).
وروى البخارى فى سبب نزول هذا السورة عن ابن عباس أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش: فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدم مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونى؟» قالوا: نعم، قال: «فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد»، فقال أبو لهب ألهذا جمعتنا؟ تبًا لك فأنزل الله ﴿تبت يد أبى لهب وتب﴾ إلى آخرها.
وفى رواية فقام ينفض يديه وهو يقول: تبًا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تبت يد أبى لهب﴾.
(٢) انظر: السيرة (١/٢٩١ - ٢٩٢).

القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفى يدها فهر[١] من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغنى أنه يهجونى، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إنى لشاعرة، ثم قالت:

مذمما عصينا وأمره أبينا

وعن غير ابن إسحاق: ودينه قلينا، ثم انصرفت. فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ فقال: «ما أرتنى، لقد أخذ الله ببصرها عنى»[٢].

وكانت قريش إنما تسمى رسول الله ﷺ مذمما ثم يسبونه، فكان عليه السلام، يقول: «ألا تعجبون لما صرف الله عنى من أذى قريش! يسبون ويهجون مذمما وأنا محمد!»[٣].

وأمية بن خلف الجمحى، كان إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه، فأنزل الله فيه: ﴿**ويل لكل همزة لمزة**﴾ [الهمزة: ١] إلى آخر السورة[٤].

والعاص بن وائل السهمى، كان خباب بن الأرت، قد باع منه سيوفًا عملها له وكان قينا بمكة، فجاءه يتقاضاه، فقال له: يا خباب، أليس يزعم محمد صاحبكم هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم؟! قال: بلى. قال: فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هنالك حقك، فوالله لا تكون أنت وأصحابك يا خباب آثر عند الله منى ولا أعظم حظًا فى ذلك!.

فأنزل الله فى ذلك: ﴿**أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولدًا أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدًا كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه ما يقول ويأتينا فردًا**﴾ [مريم: ٧٧، ٨٠][٥].

---

(١) الفهر: حجر على مقدار ملء الكف.

(٢) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٢/١٩٥)، تفسير ابن كثير (٨م٥٣٦، ٣٥٧)، مجمع الزوائد للهيثمى (٧/١٤٤)، المطالب العالية لابن حجر (٣/٣٩٩). مستدرك الحاكم (٢/٣٦١).

(٣) انظر الحديث فى: صحيح البخارى كتاب المناقب (٣٥٣٣)، مسند الإمام أحمد (٢/٢٤٤، ٣٦٩).

(٤) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/١٣٥).

(٥) انظر الحديث فى: صحيح البخارى كتاب البيوع (٢٠٩١)، صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين (٤/٣٥).

ولقى أبو جهل بن هشام رسول الله ﷺ فيما بلغنى، فقال له: والله يا محمد لتتركن سب آلهتنا أو لنسبن إلهك الذى بعثك، فأنزل الله تعالى: ﴿**ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوًا بغير علم**﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فذكر لى أن رسول الله ﷺ كف عن سب آلهتهم وجعل يدعوهم إلى الله[١].

والنضر بن الحارث بن كلدة، من شياطين قريش ممن كان يؤذى رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا فذكر فيه بالله ودعا فيه إلى الله وحذر قومه ما أصاب الأمم الخالية من نقمة الله، خلفه فى مجلسه إذا قام ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، فهلم فأنا أحدثكم أحسن من حديثه. ثم يحدثهم عن رستم الشيذ واسبنديار وملوك فارس، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا منى؟ والله ما محمد بأحسن حديثا منى، وما أحاديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها، فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿**وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورًا رحيمًا**﴾ [الفرقان: ٥، ٦] وكل ما ذكر فيه الأساطير من القرآن، وأنزل أيضًا فيه: ﴿**ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرًا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرًا فبشره بعذاب أليم**﴾ [الجاثية: ٧، ٨][٢]. وهو القائل: سأنزل مثل ما أنزل الله! فيما ذكر ابن هشام.

قال ابن إسحاق[٣]: وجلس رسول الله ﷺ فيما بلغنى، يومًا مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النضر بن الحارث فجلس معهم فى المجلس، وفيه غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون**﴾ [الأنبياء: ٩٨، ١٠٠][٤].

ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى حتى جلس، فقال له الوليد: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفًا وما قعد، وقد زعم محمد أنا

---

(١) ذكره الطبرى فى تفسيره (٧/٢٠٧).

(٢) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/١٣٦).

(٣) انظر: السيرة (١/٢٩٤ - ٢٩٥).

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٥/٣٧٥).

وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال ابن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمدًا: أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيرا والنصارى تعبد عيسى ابن مريم.

فعجب الوليد ومن كان معه من قول ابن الزبعرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال لهم: «كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته». فأنزل الله عليه: ﴿**إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون**﴾ [الأنبياء: ١٠١]، أى عيسى وعزيرًا ومن عبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابًا من دون الله[١].

ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنها بنات الله: ﴿**وقالوا اتخذ الرحمن ولدًا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون**﴾ إلى قوله: ﴿**ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين**﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٩][٢].

وأنزل فيما ذكر من أمر عيسى أنه يعبد من دون الله وعجب الوليد ومن حضر من حجته وخصومته: ﴿**ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون**﴾ ثم قال: ﴿**إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعونى هذا صراط مستقيم**﴾ [الزخرف: ٥٧، ٦١]، أى ما وضعت على يديه من إحياء الموتى وإبراء الأسقام فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: ﴿**فلا تمترن بها واتبعونى هذا صراط مستقيم**﴾.

والأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة، وكان من أشراف القوم وممن يستمع منه، فكان يصيب من رسول الله ﷺ ويرد عليه، فأنزل الله فيه: ﴿**ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم**﴾ [ن: ١٠، ١٣]، إلى قوله: ﴿**زنيم**﴾.

ولم يقل: «زنيم» لعيب فى نسبه، إن الله لا يعب أحدًا بنسبه ولكنه حقق بذلك نعته

---

(١) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (٧/١٠٤)، مسند الإمام أحمد (١/٣١٧)، مستدرك الحاكم (٣/٢٨٤، ٢٨٥).

(٢) انظر: السيرة (١/٢٩٦).

ليعرف، والزنيم العديد للقوم[(١)]. قال الخطيم التميمى، فى الجاهلية:

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد فى عرض الأديم الأكارع[(٢)]

والوليد بن المغيرة، قال: أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين! فأنزل الله فيه، فيما بلغنى: ﴿**وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا**﴾ إلى قوله: ﴿**ورحمة ربك خير مما يجمعون**﴾ [الزخرف: ٢٠، ٢٢].

وأبى بن خلف الجمحى وعقبة بن أبى معيط، وكانا متصافيين حسنًا ما بينهما، فكان عقبة بن أبى معيط قد جلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه، فبلغ ذلك أبيا فأتى عقبة فقال: ألم يبلغنى أنك جالست محمدًا وسمعت منه؟! ثم قال: وجهى من وجهك حرام أن أكلمك، واستغلظ من اليمين، إن أنت جلست إليه أو سمعت منه، أو لم تأته فتتفل فى وجهه.

ففعل ذلك عدو الله عقبة، فأنزل الله فيه: ﴿**ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانًا خليلاً لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً**﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٩].

ومشى أبى بن خلف إلى رسول الله ﷺ بعظم بال قد ارفَتَّ فقال: يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما [أَرمَّ][(٣)]؟! ثم فته بيده ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «نعم أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا، ثم يدخلك النار»[(٤)]، فأنزل الله فيه: ﴿**وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحيها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا فإذا أنتم منه توقدون**﴾ [يس: ٧٨، ٨٠].

واعترض رسول الله ﷺ [وهو يطوف بالكعبة][(٥)]، فيما بلغنى، الأسود بن المطلب

---

(١) العديد للقوم: الذى يعد فى الناس وليس منهم.

(٢) الأكارع: جمع كراع بضم الكاف بمعنى الأطراف.

(٣) ما بين المعقوفتين ورد فى الأصل: «أرى»، وما أوردناه من السيرة. وأرم: أى بليت.

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير (٦/٢٨٣)، الطبرى فى تفسيره (٢٣/٢١)، الحاكم فى المستدرك (٢/٤٢٩)، الواحدى فى أسباب النزول (٣٠٨).

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل وما أوردناه من السيرة، والمصنف ينقل منها.

والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وكانوا ذوى أسنان فى قومهم، فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت فى الأمر، فإن كان الذى تعبد خيرًا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه!.

فأنزل الله فيهم: ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾، السورة كلها، أى إن كنتم لا تعبدون الله إلا أن أعبد ما تعبدون فلا حاجة لى بذلك منكم، لكم دينكم ولى دين.

وأبو جهل بن هشام، لما ذكر الله شجرة الزقوم تخويفًا بها لهم، قال يا معشر قريش: هل تدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد؟ قالوا: لا. قال: عجوة يثرب بالزبد! والله لئن استمكنا منها لتنزقمنها تزقما(١)!.

فأنزل الله فيه: ﴿**إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم**﴾ [الدخان: ٤٣]، ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله ﷺ ورسول الله يكلمه وقد طمع فى إسلامه، فبينا هو فى ذلك مر به ابن أم مكتوم الأعمى، فكلم رسول الله ﷺ وجعل يستقرئه القرآن، فشق ذلك منه على رسول الله ﷺ حتى أضجره، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد وما طمع فيه من إسلامه، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابسًا، وتركه، فأنزل الله فيه: ﴿**عبس وتولى أن جاءه الأعمى**﴾ إلى قوله: ﴿**فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة**﴾ [عبس: ١، ١٤](٢).

أى: إنما بعثتك بشيرًا ونذيرًا لم أخص بك أحدًا دون أحد، فلا تمنعه ممن ابتغاه ولا تتصد به لمن لا يريده.

قال ابن إسحاق(٣): ولما بلغ أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة فأقبلوا لما بلغهم ذلك، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ذلك كان باطلاً، فلم يدخل أحد منهم، إلا بجوار أو مستخفيًا.

وذكر موسى بن عقبة أن رجوع هؤلاء الذين رجعوا كان قبل خروج جعفر وأصحابه إلى أرض الحبشة، وأنهم الذين خرجوا أولاً قبله ثم رجعوا حين أنزل الله سورة النجم.

---

(١) لتزقمنها تزقمًا: أى تبتلعها ابتلاعًا.

(٢) انظر الحديث فى: سنن الترمذى (٥/٣٣١)، تفسير الطبرى (٣٠/٣٣)، فتح القدير للشوكانى (٥/٥٤٤)، المستدرك للحاكم (٢/٥١٤).

(٣) انظر: السيرة (١/٣٠٠ - ٣٠٢).

قال: وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارة بمثل الذى يذكر به آلهتنا من الشتم والشر.

وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم، وأحزنه ضلالتهم وكان يتمنى هداهم فلما أنزل الله تعالى سورة «النجم» قال: ﴿**أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى**﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، ألقى الشيطان عندها على لسانه كلمات حين ذكر الطواغيت فقال: وإنهم لمن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى(١).

كان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة وذلت بها ألسنتهم وتباشروا بها وقالوا: إن محمدًا قد رجع إلى دينه الأول ودين أبائه. فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر «والنجم» سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك، غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً كبيرًا، فرفع ملء كفه ترابًا فسجد عليه.

فعجب الفريقان كلاهما من اجتماعهم فى السجود لسجود رسول الله ﷺ، فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين، ولم يكن المسلمون سمعوا الذى ألقى الشيطان على ألسنة المشركين.

وأما المشركون فاطمأنت نفوسهم إلى النبى ﷺ وأصحابه لما ألقى الشيطان فى أمنية النبى ﷺ فسجدوا لتعظيم آلهتهم.

وفشت تلك الكلمة فى الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين، عثمان بن مظعون وأصحابه، وحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم وصلوا مع رسول الله ﷺ وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفيه، وحدثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة. فأقبلوا سراعًا وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته، وقال عز من قائل: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته**

---

(١) ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٦٦/٢)، وأشار إلى أن هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، وقد جرح رواتها. وذكره القاضى عياض فى الشفاء (١١٦/٢ - ١٢٣) وقال: يكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، مع ضعف نقلته، واضطراب روايته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلمته.

والله عليم حكيم ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيومنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ [الحج: ٥٢، ٥٤].

فلما بين الله قضاءه فبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضلالتهم وعداوتهم للمسلمين فاشتدوا عليهم. فلهذا الذى ذكره ابن عقبة لم يستطع أحد ممن رجع من أرض الحبشة أن يدخل مكة إلا بجوار أو مستخفيًا، كما ذكر ابن إسحاق.

قال: فكان جميع من قدم مكة منهم ثلاثة وثلاثين رجلاً، دخل منهم بجوار، فيمن سمى لنا: عثمان بن مظعون الجمحى، دخل بجوار من الوليد بن المغيرة، وأبو سلمة بن عبد الأسد بجوار خاله أبى طالب.

فأما عثمان[١] فإنه لما رأى ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء، وهو يغدو ويروح فى أمان الوليد، قال: والله إن غدوى ورواحى آمنا بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى لنقص كبير فى نفسى.

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس، وفت ذمتك وقد رددت إليك جوارك، قال: لم يا ابن أخى؟ لعله آذاك أحد من قومى؟ قال: لا ولكنى أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره. قال: فانطلق إلى المسجد فرد على جوارى علانية كما أجرتك علانية.

فخرجا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان جاء يرد على جوارى. قال: صدق، قد وجدته وفيا كريم الجوار، ولكنى أحببت أن لا أستجير بغير الله. ثم انصرف عثمان، ولبيد بن ربيعة فى مجلس من قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبيد[٢]:

---

(١) هو: عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح بن عمرو بن هصيص القرشى الجمحى، يكنى أبا السائب، وأمه سخيلة بنت العنبس بن أهبان بن حذافة بن جمح، وهى أم السائب وعبد الله. انظر ترجمته فى: الاستيعاب (١٦٥/٣) الترجمة رقم (١٧٩٨).

(٢) هو: لبيد أبى ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب العامرى، ويكنى لبيد بن عقيل وكان من شعراء الجاهلية وأدرك لبيد الإسلام وقدم على رسول الله ﷺ فى وفد بنى كلاب فأسلموا ورجعوا إلى بلادهم. انظر ترجمته فى: الشعر والشعراء (صـ٦٩).

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قال عثمان: صدقت. قال:

وكل نعيم لا محالة زائل

قال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول.

قال لبيد: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم فمتى حدث هذا فيكم! فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه فى سفهاء معه فارقوا ديننا فلا تجدن فى نفسك منه. فرد عليه عثمان حتى شرى أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فحضرها والوليد ابن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا ابن أخى إن كانت عينك عما أصابها لغنية، لقد كنت فى ذمة منيعة، قال: بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها فى الله: وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس. فقال له الوليد: هلم يا ابن أخى إن شئت إلى جوارك. فقال: لا[1].

وأما أبو سلمة بن عبد الأسد، فإنه لما استجار بأبى طالب مشى إليه رجال بنى مخزوم فقالوا: يا أبا طالب هذا منعت منا ابن أخيك محمدًا، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا؟ فقال: إنه استجار بى وهو ابن أختى، وإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى. فقام أبو لهب فقال: يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ما تزالون توثبون عليه فى جواره من بين قومه، والله لتنتهن عنه أو لنقومن معه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد. فقالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة، وكان لهم وليا وناصرًا على رسول الله ﷺ فأبقوا على ذلك.

فطمع فيه أبو طالب حين سمعه يقول ما قال، ورجا أن يقوم معه فى شأن رسول الله ﷺ فقال يحرضه على ذلك:

وإن امرءًا أبو عتيبة عمه ... لفى روضة ما إن يسام المظالما
أقول له وأين منه نصيحتى ... أبا معتب ثبت سوادك قائمًا[2]
ولا تقبلن الدهر ما عشت خطة ... تسب بها إما هبطت المواسما
وول سبيل العجز غيرك منهم ... فإنك لم تخلق على العجز لازما

(١) ذكره أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/١٠٣، ١٠٤)، ابن الأثير فى أسد الغابة (٣/٥٩٨، ٥٩٩).

(٢) ثبت سوادك: يريد كثر قومك ولا تقللهم بفراقك والسواد الشخص.

وحارب فإن الحرب نصف ولن ترى أخا الحرب يعصى الخسف حتى يسالما
وكيف ولم يجنوا عليك عظيمة ولم يخذلوك غانمًا أو مغارما
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا وتيما ومخزومًا عقوقًا ومأثما
بتفريقهم من بعد ود وألفة جماعتنا كيما ينالوا المحارما
كذبتم وبيت الله نبزى محمدًا ولما تروا يومًا لدى الشعب قائمًا

وكان أبو بكر رضى الله عنه، كما حدثت عائشة رضى الله عنها، حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه ما رأى، قد استأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة فأذن له، فخرج مهاجرًا حتى إذا سار من مكة يومًا أو يومين لقيه ابن الدغنة، أخو بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وهو يومئذ سيد الأحابيش فقال: أين يا أبا بكر؟.

قال: أخرجنى قومى وآذونى وضيقوا على. قال: لم؟ فوالله إنك لتزين العشيرة وتعين على النوائب وتفعل المعروف وتكسب المعدوم، فارجع فأنت فى جوارى. فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إنى قد أجرت ابن أبى قحافة فلا يعرضن له أحد إلا بخير، قالت: فكفوا عنه.

وكان لأبى بكر مسجد عند باب داره فى بنى جمح فكان يصلى فيه، وكان رجلاً رقيقًا إذا قرأ القرآن استبكى، فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته، فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة فقالوا له: إنك لم تجر هذا ليؤذينا، إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق وكانت له هيئة ونحو، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم، فائته فأمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء، فمشى ابن الدغنة فقال: يا أبا بكر، إنى لم أجرك لتؤذى قومك، إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت به وتأذوا بذلك منك فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت، قال: أو أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله؟ قال: فاردد على جوارى. قال: قد رددته عليك. فقام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إن ابن أبى قحافة قد رد على جوارى فشأنكم بصاحبكم[(١)].

وعن القاسم بن محمد أن أبا بكر لقيه سفيه من سفهاء قريش وهو عامد إلى الكعبة، فحثا على رأسه التراب، فمر الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل فقال أبو بكر: ألا ترى

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى كتاب الكفالة (٢٢٩٧)، مسند الإمام أحمد (٦/١٩٨).

ما يصنع هذا السفيه؟ قال: أنت فعلت هذا بنفسك، وهو يقول: أى رب ما أحلمك أى رب ما أحلمك![1].

قال ابن إسحاق[2]: ثم إنه قام فى نقض الصحيفة التى تكاتبت فيها قريش على بنى هاشم وبنى المطلب نفر من قريش، ولم يبل أحد فيها أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك بن حسل، وذلك أنه كان ابن أخى نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه، فكان هشام لبنى هشام واصلاً، وكان ذا شرف فى قومه، فكان فيما بلغنى ليلاً بالبعير قد أوقره طعامًا، حتى إذا أقبله فى فم الشعب خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه ليدخل الشعب عليهم، ويأتى به قد أوقره [بُـرًّا][3] فيفعل به مثل ذلك.

ثم إنه مشى إلى زهير بن أمية بن المغيرة، وأمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا زهير، أرضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت لا يباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، أما إنى أحلف بالله، أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدًا.

فقال: ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟ أنما أنا رجل واحد. والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقضها حتى أنقضها. قال: قد وجدت رجلاً. قال: من هو؟ قال: أنا. قال له زهير: ابغنا ثالثًا.

فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له: يا مطعم، أرضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعًا قال: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد. قال: قد وجدت ثانيًا. قال: من هو؟ قال: أنا. قال: أبغنا ثالثًا. قال: قد فعلت. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبى أمية. قال: ابغنا رابعًا.

---

(١) انظر: السيرة (٣٠٦/١).

(٢) انظر: السيرة (٣٠٦/١ - ٣٠٨).

(٣) ما بين المعقوفتين كذا فى الأصل، وفى السيرة: بزًا. وقال السهيلى فى الروض الأنف: بزًا بالزى المعجمة وفى غير نسخة الشيخ أبى بحر: بُرًا، وفى رواية يونس: بزًا أو برًا، على الشك من الراوى.

فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحوًا مما قال للمطعم بن عدى. فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية والمطعم ابن عدى وأنا معك. قال: ابغنا خامسًا.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابتهم ومكانهم. فقال: وهل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد؟ قال: نعم. ثم سمى له القوم. فاتعدوا خطم الحجون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك فأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها. وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير عليه حلة، فطاف بالبيت سبعًا ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباعون ولا يبتاع منهم! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

قال أبو جهل، وكان فى ناحية المسجد: كذبت والله لا تشق. قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت. قال أبو البخترى: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به. قال المطعم بن عدى: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها. وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل تشوُوِر فيه بغير هذا المكان. وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد، وقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم. وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة، فشلت يده فيما يزعمون.

وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال لأبى طالب: «يا عم، إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسمًا هو لله إلا أثبتته ونفت منها القطيعة والظلم والبهتان». قال: أربك أخبرك بهذا؟ قال: «نعم». قال: فوالله ما يدخل عليك أحد. ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إن ابن أخى أخبرنى بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم فإن كانت كما قال فانتهوا عن قطيعتنا، وإن كان كاذبًا دفعت إليكم ابن أخي. قال القوم: رضينا. فتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا فإذا هى كما قال رسول الله ﷺ فزادهم ذلك شرًا، فعند ذلك صنع الرهط من قريش فى نقض الصحيفة ما صنعوا[1].

---

(١) ذكره السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/ ٢٥٠، ٢٥١)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/٩٧).

قال ابن إسحاق[١]: فلما مزقت الصحيفة وبطل ما فيها قال أبو طالب فيما كان من أمر أولئك الذين قاموا فى نقضها يمدحهم:

ألا هل أتى بحرينا صنع ربنا ... على نأيهم والله بالناس أرود[٢]
فنخبرهم أن الصحيفة مزقت ... وأن كل ما لم يرضه الله مفسد
تراوحها إفك وسحر مجمع ... ولم يلف سحر آخر الدهر يصعد[٣]
جزى الله رهطًا بالحجون تتابعوا ... على ملأ يهدى لحزم ويرشد
قعودًا لدى خطم الحجون كأنهم ... مقاولة بل هم أعز وأمجد
أعان عليها كل صقر كأنه ... إذا ما مشى فى رفرف الدرع أحرد
جرى على جل الخطوب كأنه ... شهاب بكفى قابس يتوقد
من الأكرمين من لؤى بن غالب ... إذا سيم خسفًا وجهه يتربد
طويل النجاد خارج نصف ساقه ... على وجهه نسقى الغمام ونسعد
عظيم الرماد سيد وابن سيد ... يحض على مقرى الضيوف ويحشد
ويبنى لأفياء العشيرة صالحًا ... إذا نحن طفنا فى البلاد ويمهد
ألظ بهذا الصلح كل مبرأ ... عظيم اللواء أمره ثم يحمد
قضوا ما قضوا فى ليلهم ثم أصبحوا ... على مهل وسائر الناس رقد
هم رجعوا سهل بن بيضاء راضيًا ... وسر أبو بكر بها ومحمد
متى شرك الأقوام فى جل أمرنا ... وكنا قديمًا قبلها نتودد

---

(١) انظر: السيرة (١/٣٠٩).

(٢) بحرينا: يقصد به من هاجر من المسلمين فى البحر.

(٣) ذكر بعد هذا البيت، أبيات آخره لم يذكرها هنا وهى:

تداعى لها من ليس فيها بقرقر ... فطائرها فى رأسها يتردد
وكانت كفاء رقعة بأثيمة ... ليقطع منها ساعد ومقلد
ويظعن أهل المكتين فيهربوا ... فرائصهم من خشية الشر ترعد
ويترك حراث يقلب أمره ... أيتهم فيهم عند ذاك وينجد
وتصعد بين الأخشبين كتيبة ... لها حدج سهم وقوس ومرهد
فمن ينش من حضار مكة عزه ... فعزتنا فى بطن مكة أتلد
نشأنا بها والناس فيها قلائل ... فلم ننفكك نزداد خيرا ونحمد
ونطعم حتى يترك الناس فضلهم ... إذا جعلت أيدى المفيضين ترعد

انظر: السيرة (١/٣٠٩ - ٣١٠).

وكنـا قديمًـا لا نقـر ظلامـة ... ونـدرك مـا شـئنا ولا نتشـدد
فيـا لقصى هـل لكـم فـى نفوسـكم ... وهـل لكـم فيمـا يجـىء بـه غـد
فإنـى وإياكـم كمـا قـال قائـل ... لديـك البيـان لـو تكلمـت أسـود

أسود هنا اسم جبل كان قتل فيه قتيل لم يعرف قاتله، فقال أولياء المقتول هذه المقالة، يعنون بها أن هذا الجبل لو تكلم لأبان عن القائل ولعرف بالجانى، ولكنه لا يتكلم، فذهبت مقالتهم تلك مثلاً.

قال ابن إسحاق(١): فكان رسول الله ﷺ على ما يرى من قومه يبذل لهم النصيحة ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه، وجعلت قريش حين منعه الله منهم يحذرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب.

فكان طفيل بن عمرو الدوسى(٢) وكان رجلاً شريفًا شاعرًا لبيبًا يحدث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش فقالوا له: يا طفيل إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا(٣)، فرق جماعتنا وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق به بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه.

قال: فوالله مازالوا بى حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئًا ولا أكلمه، حتى حشوت فى أذنى حين غدوت إلى المسجد كرسفًا(٤) فرقًا من أن يبلغنى شىء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه، قال: فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة، فقمت قريبًا منه، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله، فسمعت كلامًا حسنًا، فقلت فى نفسى: واثكل أمى! والله إنى لرجل لبيب شاعر وما يخفى على الحسن من القبيح، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل، فإن كان الذى يأتى به حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته.

---

(١) انظر: السيرة (١/٣١٢ - ٣١٣).

(٢) هو: الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غنم بن دوس الدوسى من دوس. انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٢٨٣)، طبقات ابن سعد (٤/١/١٧٥)، طبقات خليفة (١٣/١١٤)، تاريخ خليفة (١١١) الجرح والتعديل (٤/٤٨٩)، العبر (١/١٤)، تاريخ ابن عساكر (٧/٦٢).

(٣) أعضل بنا: أى أشد أمره ولم يوجد له وجه.

(٤) كرسفًا: الكرسف يعنى القطن.

فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت: يا محمد، إن قومك قالوا لى كذا وكذا، فوالله ما برحوا يخوفوننى امرك حتى سددت أذنى بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى فسمعت قولاً حسنًا، فاعرض على أمرك، فعرض على رسول الله ﷺ الإسلام وتلا على القرآن، فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه ولا أمرًا أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبى الله، إنى امرؤ مطاع فى قومى وإنى راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لى آية تكون لى عونًا عليهم فيما أدعوهم إليه. فقال: اللهم اجعل له آية.

فخرجت إلى قومى حتى إذا كنت على ثنية تطلعنى على الحاضر وقع نور بين عينى مثل المصباح. قلت: اللهم فى غير وجهى، إنى أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت فى وجهى لفراقى دينهم. قال: فتحول فوقع فى رأس سوطى، فجعل أهل الحاضر يتراءون ذلك النور فى سوطى كالقنديل المعلق، وأنا أهبط إليهم من الثنية حتى جئتهم، فلما نزلت أتانى أبى وكان شيخًا كبيرًا، فقلت: إليك عنى يا أبا فلست منك ولست منى. قال: لم يا بنى؟ قلت: أسلمت وتابعت دين محمد. قال: أى بنى فدينى دينك. فقلت: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك، ثم تعال حتى أعلمك ما علمت. فذهب فاغتسل وطهر ثيابه، ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم، ثم أتتنى صاحبتى فقلت لها: إليك عنى فلست منك ولست منى. قالت: لم بأبى أنت وأمى؟! قلت: فرق بينى وبينك الإسلام وتابعت دين محمد. قالت: فدينى دينك. قلت: فاذهبى إلى حنا ذى الشرى.

قال ابن هشام[1]: ويقال: حمى ذى الشرى، فتطهرى منه، وكان ذو الشرى صنمًا لدوس والحنا حمى حموه له، به وشل من ماء يهبط من جبل. فقالت: بأبى أنت وأمى، أتخشى على الصبية من ذى الشرى شيئًا؟ قلت: لا أنا ضامن لذلك. فذهبت فاغتسلت ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام فأسلمت، ثم دعوت دوسًا إلى الإسلام فأبطأوا على، ثم جئت رسول الله ﷺ بمكة، فقلت يا نبى الله، إنه غلبنى على دوس الزنا فادع الله عليهم. فقال: اللهم اهد دوسًا، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم.

فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق، ثم قدمت إلى رسول الله ﷺ بمن أسلم معى من قومى، ورسول الله ﷺ بخيبر حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتًا من دوس، ثم لحقنا

(١) انظر: السيرة (١/٣١٤).

برسول الله ﷺ بخيبر فأسهم لنا مع المسلمين، ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ، حتى فتح الله عليه مكة قلت: يا رسول الله، ابعثنى إلى ذى الكفين، صنم عمرو بن حممة، حتى أحرقه.

قال ابن إسحاق[(١)]: فخرج إليه فجعل وهو يوقد عليه النار يقول:

يا ذا الكفين لست من عبادكا
ميلادنا أقدم من ميلادكا
إنى حشوت النار فى فؤادكا[(٢)]

ثم رجع، فكان بالمدينة حتى قبض الله رسوله، فلما ارتدت العرب خرج مع المسلمين فسار معهم حتى فرغوا من طليحة ومن أرض نجد كلها، ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو بن الطفيل فرأى رؤيا وهو متوجه إلى اليمامة فقال لأصحابه: إنى قد رأيت رؤيا فاعبروها لى. رأيت أن رأسى حلق، وأنه خرج من فمى طائر، وأنه لقيتنى امرأة فأدخلتنى فى فرجها وأرى ابنى يطلبنى طلبًا حثيثًا ثم رأيته حبس عنى.

قالوا: خيرًا؛ قال: أما أنا والله فقد أولتها. قالوا: ماذا؟ قال: أما حلق رأسى فوضعه، وأما الطائر الذى خرج من فمى فروحى، وأما المرأة التى أدخلتنى فى فرجها فالأرض تحفر لى وأغيب فيها، وأما طلب ابنى إياى ثم حبسه عنى فإنى أراه سيجهد أن يصيبه ما أصابنى، فقتل رحمه الله شهيدًا باليمامة، وجرح ابنه جراحة شديدة ثم [استَبَلَّ][(٣)] منها ثم قتل عام اليرموك فى زمان عمر شهيدًا[(٤)].

وذكر ابن هشام[(٥)] أن أعشى بنى قيس بن ثعلبة[(٦)] خرج إلى رسول الله ﷺ يريد

---

(١) انظر: السيرة (١/٣١٤).

(٢) انظر: الأبيات فى الاستيعاب الترجمة رقم (١٢٨٣)، الإصابة الترجمة رقم (٤٢٧٣)، أسد الغابة الترجمة رقم (٢٦١٣).

(٣) ما بين المعقوفتين ورد فى الأصل: «استقل»، وما أوردناه من السيرة. واستبل منها: يقال بل وأبل واستبل المريض من مرضه إذا أفاق وبرىء.

(٤) ذكره بنحوه ابن عبد البر فى الاستيعاب الترجمة رقم (١٢٨٣)، ابن حجر فى الإصابة (٣/٢٨٧) بنحوه مختصرًا، ابن لأثير فى أسد الغابة (٣/٧٨)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/٩٩).

(٥) انظر: السيرة (١/٣١٧ - ٣١٩).

(٦) قال فى كتاب الشعر والشعراء (١٥٤): هو من سعد بن ضبيعة بن قيس، وكان أعمى، ويكنى أبا بصير، وكان أبوه قيس يدعى قتيل الجوع.

الإسلام، وقال قصيدة يمدحه فيها، نذكرها بعد. فلما كان بمكة أو قريبًا منها اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن أمره، فأخبره أنه جاء يريد رسول الله ﷺ ليسلم. فقال له: يا أبا بصير، إنه يحرم الزنا. فقال الأعشى: والله إن ذلك لأمر ما لى فيه من أرب. فقال: يا أبا بصير، فإنه يحرم الخمر[1]. فقال: أما هذه فوالله إن فى النفس منها لعلالات، ولكنى منصرف فأتروى منها عامى هذا ثم آتيه فأسلم.

فانصرف فمات فى عامه ذلك ولم يعد إلى رسول الله ﷺ، هذا ما ذكر ابن هشام فى قصة الأعشى، وظاهره يقتضى أن قصده كان إلى مكة وأن رسول الله ﷺ فيها حينئذ لم يهاجر بعد.

ويعارض هذا الظاهر ما ذكر من تحريم الخمر، فإن أهل النقل مجمعون على أن الخمر إنما حرمت بالمدينة بعد أن مضى بدر وأحد ونزل تحريمها فى سورة المائدة وهى من آخر ما نزل من القرآن فإن صح أن خروج الأعشى كان قبل الهجرة كما فى ظاهر الخبر فلعل المشرك الذى لقيه وأخبره عن رسول الله ﷺ بتحريم الخمر، أراد بهذا القول تنفيره عن الإسلام وإبعاده عنه، مع ما كان من كراهية رسول الله ﷺ أبدًا للخمر وتنزيه الله إياه عنها.

ألا تراه ليلة الإسراء لما عرضت عليه آنية الخمر واللبن اختار اللبن فقيل له: هديت للفطرة، لو أخذت الخمر غوت أمتك. والإسراء إنما كان بمكة فى صدر الإسلام. وقد يمكن أن يكون قصد الأعشى إلى المدينة بعد الهجرة وبعد تحريم الخمر فتلقاه بعض المشركين من قريش ممن لم يكن أسلم بعد.

ولعل هذا هو الأولى بدليل قوله فى قصيدته الآتية بعد:

ألا أيهذا السائلى أين يممت ... فإن لها فى أهل يثرب موعدا

والله أعلم بالحقيقة فى ذلك كله، والقصيدة التى مدح بها رسول الله ﷺ هى قوله:

---

(١) قال السهيلى فى الروض الأنف (١٣٦/٢): هذه غفلة من ابن هشام، ومن قال بقوله: فإن الناس مجمعون على أن الخمر لم ينزل تحريمها إلا بالمدينة بعد أن مضيت بدر وأحد، وحرمت فى سورة المائدة وهى من أخر ما نزل، وفى الصحيحين من ذلك قصة حمزة حين شربها، وغتنه القينتان: ألا يا حمز للشرف النواء، فبقر خواصر الشارفين، واجتنب أسمنتها، وقوله للنبى ﷺ: هل أنتم إلا عبيد لآبائى، وهو ثمل،... الحديث، فإن صح خبر الأعشى وما ذكر له فى الخمر، فلم يكن هذا بمكة، وإنما كان بالمدينة، ويكون القائل له: أما علمت أنه يحرم الخمر من المنافقين أو من اليهود، فالله أعلم.

ألـم تغتمـض عينـاك ليلـة أرمـدا ... وبـت كمـا بـات السـليم مسـهدًا[١]
ومـا ذاك مـن عشـق النسـاء وإنمـا ... تناسـيت قبـل اليـوم خلـة مهـددُا
ولكـن أرى الدهـر الـذى هـو خـائن ... إذا أصلحـت كفـاى عـاد فأفسـدا
كهـولاً وشـبابًا فقـدت وثـروة ... فللـه هـذا الدهـر كيـف تـرددا
ومـا زلـت أبغـى المـال مـذ أنـا يـافع ... وليـدًا وكهـلاً حـين شـبت وأمـردا
وأبتـذل العيـس المراقيـل تعتلـى ... مسـافة مـا بـين النجـير فصرخـدا[٢]
ألا أيهـذا السـائلى أيـن يممـت ... فـإن لهـا فـى أهـل يـثرب موعـدا
فـإن تسـألى عنـى فيـا رب سـائل ... حفى عن الأعشى به حيث [أصهدا][٣]
أجـدت برجليهـا النجـاء وراجعـت ... يداهـا خنفـاًا لينـا غـير أحـردا
وفيهـا إذا مـا هجـرت عجرفيـة ... إذا خلـت حربـاء الظهـيرة أصيـدا[٤]
وآليـت لا آوى لهـا مـن كلالـة ... ولا مـن حفـى حتـى تلاقـى محمـدا
متى مـا تنـاخى عنـد بـاب ابـن هشـام ... تراحـى وتلقـى مـن فواضلـه نـدا
نبيـا يـرى مـا لا تـرون وذكـره ... أغـار لعمـرى فـى البـلاد وأنجـدا[٥]
لـه صدقـات مـا تغـب ونـائل ... وليـس عطـاء اليـوم مانعـه غـدا
أجـدك لـم تسـمع وصـاة محمـد ... نبـى الإلـه حـين أوصـى وأشـهدا
إذا أنـت لـم ترحـل بـزاد مـن التقـى ... ولاقيـت بعـد المـوت مـن قـد تـزودا
ندمـت علـى أن لا تكـون كمثلـه ... فـترصد للمـوت الـذى كـان أرصـدا
فإيـاك والميتـات لا تقربنهـا ... ولا تـأخذن سـهمًا حديـدًا لتقصـدا
وذا النصـب المنصـوب لا تَنْسُـكَنَّه ... ولا تعبـد الأوثـان واللـه فـاعبدا[٦]
ولا تقربـن حـرة كـان سـرها ... عليـك حرامًـا فـانكحن أو تـأبدا

(١) الأرمد: الذى يشتكى عينيه من الرمد. المسهد: الذى منع النوم.
(٢) العيس: الإبل البيض يخالطها حمرة. المراقيل: مأخوذ من الإرقال وهو السرعة فى السير. النجير: موضع فى حضرموت فى اليمن. صرخد: موضع بالجزيرة.
(٣) ما بين المعقفوتين ورد فى الأصل: «أصعدا»، وما أوردناه من السيرة. وأصهدا: أى ذهب.
(٤) العجرفية: أى تخليط من غير استقامة. الحرباء: بكسر فسكون دويبة تكون فى أعلى الشجرة.
(٥) أغار لعمرى: معناه بلغ الغور وهو منخفض من الأرض. أنجد: بلغ النجد وهو ما ارتفع من الأرض.
(٦) النصب: حجارة كان يذبحون لها. النُسك: الدم كانوا يعترون عند أصناهم ثم يطلون رءوس الأصنام بدماء العتائر.

وذا الرحم القربى فلا تقطعنه لعاقبة ولا الأسير المقيدا
وسبح على حين العشيات والضحى ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا
ولا تسخرن من بائس ذى ضرارة ولا تحسبن المال للمرء مُخْلِدًا

قال ابن إسحاق[1]: وقد كان عدو الله أبو جهل مع عداوته رسول الله ﷺ وبغضه إياه، يُذله الله إذا رآه.

حدثنى[2] عبد الملك بن عبد الله بن أبى سفيان الثقفى، وكان واعية، قال: قدم رجل من إراش[3] بإبل له مكة، فابتاعها منه أبو جهل فمطله بأثمانها، فأقبل الإراشى حتى وقف على نادٍ من قريش ورسول الله ﷺ جالس فى ناحية المسجد، فقال: يا معشر قريش، من رجل يؤدينى على أبى الحكم بن هشام، فإنى غريب ابن سبيل وقد غلبنى على حقى.

فقال له أهل ذلك المجلس: أترى ذلك الرجل؟ لرسول الله ﷺ يهزأون به لما يعلمون بينه وبين أبى جهل من العداوة، اذهب إليه فهو يؤديك عليه.

فأقبل الإراشى حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: يا عبد الله، إن أبا الحكم بن هشام غلبنى على حق لى قبله وأنا غريب ابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤدينى عليه، يأخذ لى حقى منه، فأشاروا لى إليك فخذ لى حقى منه يرحمك الله.

قال: انطلق إليه. وقام معه رسول الله ﷺ، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم: اتبعه فانظر ما يصنع.

قال: وخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه فقال: من هذا؟ فقال: محمد. فاخرج إلى. فخرج إليه وما فى وجهه من رائحة، لقد انتقع لونه، فقال: أعط هذا حقه. قال نعم، لا يبرح حتى أعطيه الذى له.

فدخل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه، فأقبل الإراشى حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاه الله خيرًا، فقد والله أخذ لى حقى. وجاء الرجل الذى بعثوا معه فقالوا ويحك، ماذا رأيت؟ قال: عجبًا من العجب! والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج

---

(١) انظر: السيرة (٣١٨/١).

(٢) انظر: السيرة (٣١٨/١ - ٣١٩).

(٣) إراش: هو ابن الغوث أو ابن عمرو بن الغوث ابن بنت مالك وهو والد أنمار الذى ولد بجيله وخثعم.

إليه وما معه روحه، فقال: أعط هذا الرجل حقه. قال: نعم، لا يبرح حتى أخرج إليه حقه. فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إياه، ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء، فقالوا: ويلك! ما لك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط، قال: ويحكم! والله ما هو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملئت رعبًا، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط، والله لو أبيت لأكلنى[١].

وذكر الواقدى عن يزيد بن رومان قال: بينا رسول الله ﷺ جالسًا فى المسجد معه رجال من أصحابه أقبل رجل من بنى زبيد يقول: يا معشر قريش، كيف تدخل عليكم المادة أو يجلب إليكم جلب أو يحل تاجر بساحتكم وأنتم تظلمون من دخل عليكم فى حرمكم. يقف على الحلق حلقة حلقة.

حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فى أصحابه، فقال له رسول الله ﷺ: ومن ظلمك؟ فذكر أنه قدم بثلاثة أجمال كانت خيرة إبله، فسامه أبو جهل ثلث أثمانها ثم لم يسمه بها لأجله سائم، قال: فأكسد على سلعتى وظلمنى. قال رسول الله ﷺ: «وأين أجمالك؟» قال: هى هذه بالحزورة. فقام رسول الله ﷺ معه وقام أصحابه، فنظر إلى الجمال فرأى جمالاً فرهًا. فساوم الزبيدى حتى ألحقه برضاه، فأخذها رسول الله ﷺ فباع جملين منها بالثمن، وأفضل بعيرًا باعه وأعطى أرامل بنى عبد المطلب ثمنه، وأبو جهل جالس فى ناحية من السوق لا يتلكم. ثم أقبل إليه رسول الله ﷺ فقال: «يا عمرو، إياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الأعرابى فترى منى ما تكره». فجعل يقول: لا أعود يا محمد، لا أعود يا محمد، فانصرف رسول الله ﷺ، وأقبل عليه أمية بن خلف ومن حضر من القوم، فقالوا: ذللت فى يدى محمد، فإما أن تكون تريد أن تتبعه وإما رعب دخلك منه. قال: لا أتبعه أبدًا، إن الذى رأيتم منى لما رأيت معه، لقد رأيت رجالاً عن يمينه وشماله معهم رماح يشرعونها إلى، لو خالفته لكانت إياها. أى لأتوا على نفسى.

وذكر محمد بن إسحاق[٢] عن أبيه قال: كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب أشد قريش، فخلا يومًا برسول الله ﷺ فى بعض شعاب مكة، فقال له: يا ركانة، ألا تتقى الله وتقبل ما أدعوك إليه؟! قال: لو أعلم أن الذى تقول حق لا تبعتك. فقال رسول الله ﷺ: أفرأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقول حق؟ قال: نعم. قال: فقم

---

(١) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/٩٤ - ٩٥).

(٢) انظر: السيرة (١/٣١٩ - ٣٢٠).

حتى أصارعك. فقام إليه ركانة فصارعه، فلما بطش به رسول الله ﷺ أضجعه لا يملك من نفسه شيئًا، ثم قال: عد يا محمد. فعاد فصرعه. فقال: يا محمد، إن ذا للعجب أتصرعنى!! قال رسول الله ﷺ: «وأعجب من ذلك إن شئت أن أريكه إن اتقيت الله واتبعت أمرى»، قال: ما هو؟ قال: «أدعو لك هذه الشجرة التى ترى فتأتينى». قال: ادعها. فدعا بها، فأقبلت حتى وقفت بين يدى رسول ﷺ فقال لها: «ارجعى إلى مكانك، فرجعت إلى مكانها»، فذهب ركانة إلى قومه فقال: يا بنى عبد مناف، ساحروا بصاحبكم أهل الأرض، فوالله ما رأيت أسحر منه قط. ثم أخبرهم بالذى رأى وصنع[(١)].

قال ابن إسحاق[(٢)]: ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريبًا من ذلك، من النصارى، يقال: إنهم من أهل نجران، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه فى المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه! ما نعلم ركبًا أحمق منكم. أو كما قالوا. فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيرًا.

فيقال والله أعلم: فيهم نزلت هؤلاء الآيات: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين**﴾ إلى قوله: ﴿**لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين**﴾ [القصص: ٥٢، ٥٥].

فقال[(٣)]: وقد سألت الزهرى فقال: ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلت فى النجاشى وأصحابه. والآيات من المائدة قول الله عز وجل: ﴿**ولتجدن أقربهم مودة**

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٣/١٠٣)، دلائل النبوة للبيهقى (٦/٢٥٠)، أبى داود فى المراسيل (٣٠٨)، البيهقى فى السنن الكبرى (١٠/١٨).

(٢) انظر: السيرة (١/٣٢٠ - ٣٢١).

(٣) انظر: السيرة (١/٣٢١).

للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣].

وكان رسول الله ﷺ إذا جلس فى المسجد فجلس إليه المستضعفون من أصحابه، خباب وعمار وأبو فكيهة يسار وصهيب وأشباههم هزئت بهم قريش وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق! لو كان ما جاء به محمد خيرًا ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصهم الله به دوننا.

فأنزل الله عليهم: **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءًا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم﴾** [الأنعام: ٥٢، ٥٤][(١)].

وهؤلاء أيضًا، ومن قال بقولهم هم الذين عنى الله سبحانه بقوله: **﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرًا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾** [الأحقاف: ١١].

قال ابن إسحاق[(٢)]: وكان رسول الله ﷺ فيما بلغنى كثيرًا ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصرانى يقال له: جبر، عبد لبنى الحضرمى، وكانوا يقولون: والله ما يعلم محمدًا كثيرًا مما يأتى به إلا جبر النصرانى، فأنزل الله فى ذلك من قولهم: **﴿إنما يعلمه بشر لسان الذين يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين﴾** [النحل: ١٠٣][(٣)].

وكان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: دعوه، فإنما هو رجل أبتر، لو قد مات لقد انقطع ذكره واسترحتم منه، فأنزل الله عز وجل، فى ذلك من قوله: **﴿إنا**

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح مسلم كتاب الفضائل (٤/٤٦)، سنن ابن ماجه (٤١٢٧)، تفسير الطبرى (٧/١٢٧).

(٢) انظر: السيرة (١/٣٢٢).

(٣) انظر الحديث فى: مستدرك الحاكم (٢/٣٥٧)، الواحدى فى أسباب النزول (صـ٢٣٥)، تفسير الطبرى (١٤/١١٩، ١٢٠).

أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر﴾ [الكوثر: ١، ٤](١)، أى أعطيناك ما هو خير من الدنيا وما فيها. والكوثر العظيم. وقيل لرسول الله ﷺ: ما الكوثر الذى أعطاك الله؟ قال: «نهر كما بين صنعاء إلى أيلة آنيته كعدد نجوم السماء ترده طير لها أعناق كأعناق الإبل». قال عمر بن الخطاب: إنها يا رسول الله لناعمة. قال: «آكلها أنعم منها»(٢).

ودعا رسول الله ﷺ قومًا إلى الإسلام، فقال له زمعة بن الأسود والنضر بن الحارث والأسود بن عبد يغوث وأبى بن خلف والعاص بن وائل: لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك؟ فأنزل الله فى ذلك: **﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكًا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾** [الأنعام: ٨، ٩](٣).

ومر رسول الله ﷺ بالوليد بن المغيرة وأمية بن خلف وأبى جهل، فهمزوه واستهزأوا به، فغاظه ذلك، فأنزل الله عليه: لا**﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾** [الأنعام: ١٠](٤).

* * *

ذكر الحديث عن مسرى رسول الله ﷺ

قال ابن إسحاق(٥): ثم أسرى برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى

---

(١) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (١٤٣/٧)، أسباب النزول للواحدى (صـ٤٠٤).
(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٢٢٠/٣، ٢٢١، ٢٣٦)، مجمع الزوائد للهيثمى (٣٦٠/١٠، ٣٦١).
(٣) ذكره الشوكانى فى فتح القدير (١٤٧/٢).
(٤) ذكره الشوكانى فى فتح القدير (١٤٨/٢).
(٥) انظر: السيرة (٥/٢ - ٧).
قلت: ولم يذكر ابن إسحاق تحديد السنة التى وقع فيها الإسراء، وقد تعرض ابن كثير فى البداية والنهاية لذلك، فقال: ذكر ابن عساكر أحاديث الإسراء فى أوائل البعثة، وأما ابن إسحاق فذكرها فى هذا الموطن بعد البعثة بنحو من عشر سنين، وروى البيهقى من طريق موسى بن عقبة، عن الزهرى أنه قال: أسرى برسول الله ﷺ قبل خروجه إلى المدينة بسنة... ثم روى عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار، عن يونس بن بكير، عن أسباط بن نصر، عن إسماعيل السدى أنه قال: فرض على رسول الله ﷺ الخمس ببيت المقدس ليلة أسرى به=

وهو بيت المقدس من إيلياء، وقد فشا الإسلام مكة فى قريش وفى القبائل كلها.

فكان من الحديث فيما بلغنى، عن مسراه صلوات الله عليه وسلامه، عن عبد الله بن مسعود، وأبى سعيد الخدرى، وعائشة زوج النبى ﷺ، ومعاوية بن أبى سفيان، وأم هانىء بنت أبى طالب، والحسن بن أبى الحسن، وابن شهاب الزهرى، وقتادة وغيرهم من أهل العلم ما اجتمع فى هذا الحديث، كل يحدث عنه بعض ما ذكر من أمر رسول الله ﷺ حين أسرى به.

وكان فى مسراه وما ذكر منه بلاء وتمحيص وأمر من الله فى قدرته وسلطانه، فيه عبرة لأولى الألباب وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدق.

وكان من أمر الله على يقين، فأسرى به كيف شاء وكما شاء ليريه من آياته ما أراد، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم وقدرته التى يصنع بها ما يريد.

فكان عبد الله بن مسعود، فيما بلغنى عنه، يقول أتى رسول الله ﷺ بالبراق، وهى الدابة التى كانت تحمل عليها الأنبياء قبله، تضع حافرها فى منتهى طرفها، فحمل عليه، ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السموات والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء عليهم السلام قد جمعوا له، فصلى بهم ثم أتى بثلاثة آنية، إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء، قال: فسمعت قائلاً يقول: إن أخذ الماء فغرق وغرقت أمته، وإن أخذ الخمر فغوى وغوت أمته، وإن أخذ اللبن هدى وهديت أمته. قال: «فأخذت إناء اللبن فشربت، فقال له جبريل: هديت وهديت أمتك يا محمد»[1].

قال[2]: وحدثت عن الحسن أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم فى الحجر

=قبل مهاجره بستة عشر شهرًا. فعلى قول السدى يكون الإسراء فى شهر ذى القعدة، وعلى قول الزهرى وعروة يكون فى ربيع الأول. ثم ذكر عن جابر، وابن عباس قالا: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأول، وفيه بعث وفيه عرج به إلى السماء وفيه هاجر ومات. وفيه انقطاع، ثم ذكر أن المقدسى أورد حديثًا لا يصح سند: أن الإسراء كان ليلة السابع والعشرين من رجب والله أعلم. انظر: المنتظم لابن الجوزى (حاشية ٣/٢٦) تحقيقنا.

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٥/٢٨)، ابن حجر فى فتح البارى (٧/٢٥٦)، الهيثمى فى المجمع (١/٧٨)، السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/٢٦٨، ٢٦٩).

(٢) انظر: السيرة (٢/٧).

جاءنى جبريل فهمزنى بقدمه، فجلست فلم أر شيئًا، فعدت لمضجعى، فجاءنى الثانية فهمزنى بقدمه فجلست فلم أر شيئًا، فعدت لمضجعى فجاءنى الثالثة فهمزنى بقدمه فجلست فأخذ بعضدى، فقمت معه فخرج بى إلى باب المسجد، فإذا دابة أبيض، بين البغل والحمار، فى فخذيه جناحان يحفز بهما رجليه. يضع يديه فى منتهى طرفه، فحملنى عليه ثم خرج معى لا يفوتنى ولا أفوته»[(١)].

وفى حديث قتادة أن رسول الله ﷺ قال: «لما دنوت منه لأركبه شمش فوضع جبريل يده على معرفته ثم قال: ألا تستحى يا براق مما تصنع! فوالله ما ركبك عبد لله قبل محمد أكرم عليه منه. فاستحيا حتى ارفض عرقًا ثم قر حتى ركبته»[(٢)].

وفى حديث الحسن من انتهاء جبريل بالنبى ﷺ إلى بيت المقدس وإمامته فيه بمن وجد عنده من الأنبياء، على جميعهم السلام، نحو ما تقدم من ذلك فى حديث ابن مسعود.

قال: ثم أتى بإناءين فى أحدهما خمر وفى الآخر لبن، فأخذ إناء اللبن وترك إناء الخمر، فقال له جبريل: هديت للفطرة وهديت أمتك وحرمت عليكم الخمر.

وذكر تحريم الخمر هنا غريب جدًا، والذى عليه العلماء أن الخمر إنما حرمت بالمدينة بعد سنين من الهجرة.

قال الحسن: ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى مكة، فلما أصبح غدا على قريش فأخبرهم الخبر. فقال أكثر الناس: هذا والله الإمر البين[(٣)]، والله إن العير لتطرد شهرًا من مكة إلى الشام مدبرة وشهرًا مقبلة، أفيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة!. قال: فارتد كثير ممن كان أسلم، وذهب الناس إلى أبى بكر، فقالوا: هل لك يا أبا بكر فى صاحبك! يزعم أنه جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة. فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه. فقالوا: بلى ها هو ذاك فى المسجد يحدث به الناس.

فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟! فوالله إنه

---

(١) انظر الحديث فى: تفسير الطبرى (١٥/٣، ٤).

(٢) انظر الحديث فى: سنن الترمذى (٣٣٣١)، تفسير الطبرى (١٥/١٢، ١٣)، فتح البارى لابن حجر (٧/٢٤٧)، مسند الإمام أحمد (٣/١٦٤).

(٣) الإمر البين: هو الأمر العظيم أو الشنيع، وقيل: هو العجب.

ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد ما تعجبون منه، ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبى الله، أحدثت هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: «نعم». قال: يا نبى الله، فصفه لى فإنى قد جئته.

قال الحسن: فقال رسول الله ﷺ: «فرفع لى حتى نظرت إليه»، فجعل رسول الله ﷺ يصفه لأبى بكر، ويقول أبو بكر: صدقت أشهد أنك رسول الله. كلما وصف له منه شيئًا قال: صدقت أشهد رسول الله. حتى إذا انتهى قال رسول الله ﷺ لأبى بكر: وأنت يا أبا بكر الصديق أشهد أنك. فيومئذ سماه الصديق.

قال الحسن: وأنزل الله فيمن ارتد عن إسلامه لذلك: ﴿**وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانًا كبيرًا**﴾ [الإسراء: ٦٠]، فهذا حديث عن مسرى رسول الله ﷺ، وما دخل فيه من حديث قتادة[١].

قال ابن إسحاق[٢]: وحدثنى بعض آل أبى بكر أن عائشة كانت تقول: ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن أسرى بروحه[٣].

وكان معاوية بن أبى سفيان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة[٤].

فلم ينكر ذلك من قولهما لقول الحسن إن هذه الآية نزلت فى ذلك، قول الله: ﴿**وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس**﴾ ولقوله تعالى فى الخبر عن إبراهيم إذ قال لابنه: ﴿**يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك**﴾ [الصافات: ١٠٢] ثم مضى على ذلك، فعرفت أن الوحى من الله يأتى الأنبياء أيقاظًا ونيامًا.

---

(١) ذكر البخارى فى صحيحه (٤٧١٦) كتاب التفسير باب ﴿وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس﴾، من حديث ابن عباس، قال: هى رؤيا عين رأيها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به والشجرة الملعونة هى شجرة الزقوم. وأخرجه أحمد فى مسنده (١/٢٢١، ٣٧٠)، الترمذى فى كتاب التفسير (٣١٣٤)، الحاكم فى المستدرك (٢/٣٦٢).

(٢) انظر: السيرة (٢/٩).

(٣) ذكره الطبرى فى تفسيره (١٥/١٣).

(٤) ذكره الطبرى فى تفسيره (١٥/١٣).

وكان رسول الله ﷺ يقول: «تنام عينى وقلبى يقظان»[١]. فالله أعلم أى ذلك كان قد جاءه وعاين ما عاين من أمر الله، على أى حاليه كان نائمًا أو يقظان، كل ذلك حق وصدق.

وزعم الزهرى عن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ وصف لأصحابه إبراهيم وموسى وعيسى حين رآهم فى تلك الليلة صلوات الله على جميعهم، فقال: «أما إبراهيم فلم أر رجلاً أشبه بصاحبكم، ولا صاحبكم أشبه به منه، وأما موسى فرجل آدم طويل ضرب جعد أقنى كأنه من رجال شنوءة، وأما عيسى ابن مريم فرجل أحمر بين القصير والطويل، سبط الشعر كثير خيلان الوجه كأنه خرج من ديماس تخال رأسه يقطر ماء وليس فيه ماء، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفى»[٢].

قال ابن هشام[٣]: وكانت صفة رسول الله ﷺ فيما ذكر عمر مولى غفرة، عن إبراهيم بن محمد بن على بن أبى طالب، قال: كان علىٌّ إذا نعت النبى ﷺ يقول: لم يكن بالطويل الممغط ولا القصير المتردد، كان ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد القطط ولا بالسبط كان جعدًا رجلاً، ولم يكن بالمطهم ولا بالمكلثم، وكان أبيض مشربًا أدعج العينين أهدب الأشفار جليل المشاش والكند دقيق المسربة أجرد شثن الكفين والقدمين، إذا تمشى تقلع كأنما يمشى فى صبب، وإذا التفت التفت معًا، بين كتفيه خاتم النبوة، وهو ﷺ خاتم النبيين أجود الناس كفًا وأجرأ الناس صدرًا وأصدق الناس لهجة وأوفى الناس بذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله، ﷺ[٤].

---

(١) انظر الحديث فى: تفسير الطبرى (١٣/١٥).

(٢) انظر الحديث فى: تفسير الطبرى (١٢/١٥).

(٣) انظر: السيرة (١١/٢).

(٤) انظر الحديث فى: سنن الترمذى (٣٦٣٨)، وقال: حديث حسن غريب ليس إسناده بمتصل.
وقال أبو عيسى: سمعت أبا جعفر محمد بن الحسين، يقول: سمعت الأصمعى يقول فى تفسير صفة النبى ﷺ: الممغط: الذاهب طولاً، وقال: سمعت أعرابيًا يقول فى كلامه تمغط فى نشابته، أى مدها مدًا شديدًا. والمتردد: الداخل بعضه فى بعض قصرًا. وأما القطط: فالشديد الجعودة. والرجل: الذى فى شعره حجونة، أى تثن قليل. وأما المطهم: فالبادن الكثير اللحم. والمكلثم: المدور الوجه. والمشرب: الذى فى بياضه حمرة. والأدعج: الشديد سواد العين. والأهدب: الطويل الأشفار. والكتد: مجتمع الكتفين وهو الكامل. والمسربة: هو الشعر الدقيق الذى كأنه قضيب من الصدر إلى السربة. والشثن: الغليظ الأصابع من الكفين والقدمين. والتقلع: أن-

قال ابن إسحاق[(١)]: وكان فيما بلغنى عن أم هانىء بنت أبى طالب أنها كانت تقول: ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو فى بيتى، نام عندى تلك الليلة فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول الله ﷺ فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: يا أم هانىء، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ثم قد صليت معكم صلاة الغداة الآن كما ترين، ثم قام ليخرج فأخذت بطرف ردائه، فتكشف عن بطنه وكأنه قبطية مطوية، فقلت: يا نبى الله، لا تحدث بهذا الناس فيكذبوك ويؤذوك، قال: والله لأحدثنهموه. فقلت لجارية لى حبشية: ويحك، اتبعى رسول الله ﷺ حتى تسمعى ما يقول للناس وما يقولون له، فلما خرج إلى الناس أخبرهم فعجبوا وقالوا: ما آية ذلك يا محمد، فإنا لم نسمع بمثل هذا قط؟ قال: آية ذلك أنى مررت بعير بنى فلان بوادى كذا، فأنفرهم حس الدابة، فند لهم بعير فدللتهم عليه وأنا موجه إلى الشام، ثم أقبلت حتى إذا كانت بضجنان مررت بعير بنى فلان فوجدت القوم نيامًا ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشىء، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثم غطيت عليه كما كان، وآية ذلك أن عيرهم الآن تصوب من البيضاء، ثنية التنعيم، يقدمها جمل أورق عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء، فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجمل، كما وصف لهم، وسألوهم عن الإناء فأخبروهم أنهم وضعوه مملوء ماء ثم غطوه، وأنهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوا ولم يجدوا فيه ماء، وسألوا الآخرين وهم بمكة فقالوا: صدق والله، لقد أنفرنا فى الوادى الذى ذكر وندَّ لنا بعير، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه[(٢)].

قال ابن إسحاق[(٣)]: وحدثنى من لا أتهم، عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لما فرغت مما كان فى بيت المقدس أتي بالمعراج، ولم أر شيئًا قط أحسن منه، وهو الذى يمد إليه ميتكم عينيه إذا حضر، فأصعدنى صاحبى فيه حتى انتهى بى إلى باب من أبواب السماء يقال له: باب الحفظة، عليه ملك من الملائكة يقال له:

=يمشى بقوة. والصبب: الحدور، يقال: إنحدرنا فى صبوب وصبب. وقوله: جليل المشاش: يريد رءوس المناكب. العشرة: الصحبة. والعشير: الصاحب. والبديهة: المفاجأة، يقال: بدهته بأمر أى فجأته.

(١) انظر: السيرة (١٢/٢ - ١٣).

(٢) انظر الحديث فى: تفسير الطبرى (٢/١٥)، تفسير ابن كثير (٣٩/٥)، مجمع الزوائد للهيثمى (٧٦/١، ٤٢/٩)، عيون الأثر لابن سيد الناس (١٧٤/١).

(٣) انظر: السيرة (١٣/٢).

إسماعيل تحت يديه اثنا عشر ألف ملك تحت يدى كل ملك منهم اثنا عشر ألف ملك.

يقول رسول الله ﷺ حين حدث بهذا الحديث: ﴿**وما يعلم جنود ربك إلا هو**﴾ [المدثر: ٣١]، فلما دخل بى قال: «من هذا يا جبريل؟ قال: محمد. قال: أو قد بعث؟ قال: نعم، فدعا لى بخير». وقاله(١).

قال(٢): وحدثنى بعض أهل العلم عمن حدثه عن رسول الله ﷺ أنه قال: ثم تلقتنى الملائكة حين دخلت السماء الدنيا، فلم يلقنى ملك إلا ضاحكًا مستبشرًا، يقول خيرًا ويدعو به، حتى لقينى ملك من الملائكة فقال مثل ما قالوا ودعا بمثل ما دعوا به، إلا أنه لم يضحك، ولم أر منه من البشر مثل ما رأيت من غيره، فقلت لجبريل: من هذا الملك الذى قال لى مثل ما قالت الملائكة ولم يضحك ولم أر منه من البشر مثل الذى رأيت منهم. فقال جبريل: أما إنه لو كان ضحك إلى أحد قبلك أو كان ضاحكًا إلى أحد بعدك لضحك إليك، ولكنه لا يضحك، هذا مالك صاحب النار.

قال رسول الله ﷺ: فقلت لجبريل، وهو من الله بالمكان الذى وصف لكم ﴿**مطاع ثم أمين**﴾ [التكوير: ٢١] ألا تأمره أن يرينى النار؟ فقال: بلى، يا مالك أر محمدًا النار، فكشف عنها غطاءها ففارت وارتفعت حتى ظننت لتأخذن ما أرى.

فقلت لجبريل: مره فليردها إلى مكانها. فأمره، فقال لها: اخبى فرجعت إلى مكانها الذى خرجت منه، فما شبهت رجوعها إلا وقوع الظل، حتى إذا دخلت من حيث خرجت رد عليها غطاءها(٣).

قال أبو سعيد الخدرى فى حديثه(٤) عن رسول الله ﷺ، قال: لما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلاً جالسًا تعرض عليه أرواح بنى آدم، فيقول لبعضها إذا عرضت عليه خيرًا ويسر به، ويقول: روح طيبة خرجت من جسد طيب، ويقول لبعضها إذا عرضت عليه أف، ويعبس بوجهه، روح خبيثة خرجت من جسد خبيث.

قال: قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك آدم تعرض عليه أرواح ذريته، فإذا

---

(١) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٢/٣٩٠)، تفسير ابن كثير (٥/٢٠، ٢٢)، البداية والنهاية (٣/١١٠، ١١١)، الكامل فى الضعفاء لابن عدى (٥/٧٩).

(٢) انظر: السيرة (٢/١٤).

(٣) لم أقف على تخريجه، بهذا اللفظ فيما بين يديه من مصادر.

(٤) تقدم تخريجه.

مرت به روح المؤمن منهم سر بها وإذا مرت به روح الكافر منهم أنف منها وكرهها.

قال: ثم رأيت رجالاً لهم مشافر كمشافر[1] الإبل، في أيديهم قطع من نار كالأفهار[2] يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلمًا.

ثم رأيت رجالاً لهم بطون لم أر مثلها قط، بسبيل آل فرعون، يمرون عليهم كالإبل المهيومة[3] حتى يعرضوا على النار، يطأونهم لا يقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا.

ثم رأيت رجالاً بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث منتن، يأكلون من الغث المنتن ويتركون السمين الطيب، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يتركون ما أحل الله لهم من النساء، ويذهبون إلى ما حرم الله عليهم منهن.

ثم رأيت نساء معلقات بثديهن، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتى أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم. قال: ثم صعد بى إلى السماء الثانية فإذا فيها ابنا الخالة عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا.

قال: ثم أصعد بى إلى السماء الثالثة فإذا فيها رجل صورته كصورة القمر ليلة البدر، قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف بن يعقوب، ثم أصعد بى إلى السماء الرابعة، فإذا فيها رجل، فسألته من هو؟ فقال: هذا إدريس. قال: يقول رسول الله ﷺ: ﴿**ورفعناه مكانًا عليا**﴾ [مريم: ٥٧].

قال: ثم أصعد بى إلى السماء الخامسة فإذا فيها كهل أبيض الرأس واللحية عظيم العثنون لم أر كهلاً أجمل منه. قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا المحبب فى قومه: هارون بن عمران.

قال: ثم أصعد بى إلى السماء السادسة فإذا فيها رجل آدم طويل أقنى كأنه من رجال شنوءة فقلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران.

---

(١) مشافر: جمع شفر، وهو للبعير كالشفة للإنسان والجعفلة للفرس. انظر: اللسان (مادة شفر).

(٢) الأفهار: جمع فهر بكسر فسكون وهو الحجر قدر ما يدق به الجوز ونحوه وتصغيرها فهير. انظر: اللسان (مادة فهر).

(٣) المهيومة: العطشى، وقيل: هو من الداء، وقيل: الهيم الإبل التى يصيبها داء فلا تروى من الماء.

ثم أصعد بى إلى السماء السابعة فإذا كهل جالس على كرسى إلى باب البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون فيه إلى يوم القيامة، لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم ولا صاحبكم أشبه به منه. قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم.

ثم دخل بى الجنة فرأيت فيها جارية لعساء فسألتها لمن أنت؟ وقد أعجبتنى فقالت: لزيد بن حارثة. فبشر بها رسول الله ﷺ زيدًا.

ومن حديث عبد الله بن مسعود[1] أن جبريل لم يصعد به إلى سماء من السموات إلا قالوا له حين يستأذن فى دخولها: من هذا يا جبريل؟ فيقول: محمد. فيقولون: أو قد بعث؟ فيقول: نعم. فيقولون حياه الله من أخ وصاحب. حتى انتهى به إلى السماء السابعة، ثم انتهى به إلى ربه، ففرض عليه خمسين صلاة كل يوم.

قال رسول الله ﷺ: فأقبلت راجعًا فلما مررت بموسى بن عمران، ونعم الصاحب كان لكم، سألنى: كم فرض عليك من الصلاة؟ فقلت: خمسين صلاة فى كل يوم. قال: إن الصلاة ثقيلة وإن أمتك ضعيفة، فارجع إلى ربك فسله أن يخفف عنك وعن أمتك. فرجعت فسألت ربى فوضع عنى عشرًا، ثم انصرفت فمررت على موسى فقال لى مثل ذلك، فرجعت فسألت ربى فوضع عنى عشرًا ثم لم يزل يقول لى مثل ذلك كلما رجعت إليه، فأرجع فأسأل حتى انتهيت إلى أن وضع عنى ذلك إلا خمس صلوات فى كل يوم وليلة.

ثم رجعت على موسى فقال لى مثل ذلك، فقلت: قد راجعت ربى وسألته حتى استحييت منه، فلما أنا بفاعل. فمن أداهن منكم إيمانًا واحتسابًا لهن كان له أجر خمسين صلاة[2].

قال ابن إسحاق[3]: فأقام رسول الله ﷺ على أمر الله صابرًا محتسبًا مؤديًا إلى قومه النصيحة، على ما يلقى منهم من التكذيب والأذى والاستهزاء، وكان عظماء المستهزئين خمسة نفر من قومه، وكانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم: الأسود بن المطلب الأسدى، أبو زمعة، وكان رسول الله ﷺ فيما بلغنى قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه

---

(١) انظر: السيرة (٢/١٧).

(٢) انظر الحديث فى: صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (١/٢٥٩).

(٣) انظر: السيرة (٢/١٩).

واستهزائه به فقال: «اللهم أعم بصره وأثكله ولده»[(١)].

والأسود بن عبد يغوث الزهرى، والوليد بن المغيرة المخزومى، والعاص بن وائل السهمى، والحارث بن الطلاطله الخزاعى. فلما تمادوا فى الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله عليه: ﴿**فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر فسوف يعلمون**﴾ [الحجر: ٩٤، ٩٦].

فأتى جبريل عليه السلام، رسول الله ﷺ وهم يطوفون بالبيت، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمر به الأسود بن المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء فعمى، وسيأتى بعد أنه أصيب له يوم بدر ثلاثة من ولده، ابناه زمعة وعقيل وابن ابنه الحارث بن زمعة، فاستوفى الله سبحانه بذلك فيه لرسوله ﷺ إجابة دعوته عليه بالعمى والثكل.

ثم مر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه فمات منه حبنًا، وعن غير ابن إسحاق أنه لما نزل: ﴿**إنا كفيناك المستهزئين**﴾ [الحجر: ٩٥] نزل جبريل عليه السلام، فحنا ظهر الأسود بن عبد يغوث الزهرى، فقال له رسول الله ﷺ خالى خالى فقال له جبريل: خله عنك، ثم حناه حتى قتله.

قال ابن إسحاق: ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجر سبله، فانتقض به فقتله. ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص رجله، فخرج على حمار له يريد الطائف فربض به على شبرقة فدخلت فى أخمص رجله شوكة فقتلته. ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخض قيحًا فقتله[(٢)].

قال[(٣)]: وكان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ فى بيته أبو لهب، والحكم بن أبى العاص بن أمية، وعقبة بن أبى معيط، وعدى ابن حمراء الثقفى، وابن الأصداء الهذلى، وكانوا جيرانه لم يسلم أحد منهم إلا الحكم.

فكان أحدهم فيما ذكر لى، يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلى، وكان أحدهم يطرحها فى برمته إذا نصبت له حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجرًا يستتر به منهم إذا

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (١٠٥/٣)، تفسير الطبرى (٤٨/١٤)، تفسير ابن كثير (٤٧٠/٤).

(٢) انظر الحديث فى: تفسير ابن كثير (٤٧٠/٤)، تفسير الطبرى (٤٨/١٤).

(٣) انظر: السيرة (٢٦/٢).

صلى. فكان ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود فيقف به على بابه ثم يقول: يا بنى عبد مناف أى جوار هذا؟! ثم يلقيه فى الطريق[١].

قال ابن إسحاق[٢]: ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام، يسكن إليها، وبمهلك أبى طالب عمه، وكان له عضدًا وحرزًا فى أمره ومنعة وناصرًا على قومه، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين.

فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابًا، فدخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى، ورسول الله ﷺ يقول لها: «لا تبكى يا بنية، فإن الله مانع أباك. ويقول بين ذلك: ما نالت منى قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب»[٣].

قال: ولما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشًا ثقله قال بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه ولنعطه منا فإنا والله ما نأمن أن يبتزونا[٤] أمرنا.

فمشوا إلى إبى طالب فكلموه، وهم أشراف قومه، عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل ابن هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب فى رجال من أشرافهم، فقالوا: يا أبا طالب، إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك، فادعه وخذ له منا وخذ لنا منه ليكف عنا ونكف عنه وليدعنا وديننا وندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب فجاء فقال: يا ابن أخى، هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك، فقال رسول الله ﷺ: نعم كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم. فقال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات، قال: تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه.

---

(١) انظر الحديث فى: طبقات ابن سعد (٢٠١/١)، تاريخ الطبرى (٥٥٣/١)، البداية والنهاية لابن كثير (١٣٤/٣، ١٣٥).

(٢) انظر: السيرة (٢٧/١).

(٣) انظر الحديث فى: تاريخ الطبرى (٥٥٣/١)، البداية والنهاية لابن كثير (١٢٢/٣).

(٤) يبتزونا: البز هو السلب ومعناه يسلبوننا إياه ويغلوبننا عليه.

قال: فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟! إن أمرك لعجب. ثم قال بعضهم لبعض: والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه. ثم تفرقوا[(١)].

فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ: والله يا ابن أخى ما رأيتك سألتهم شططًا. فلما قالها طمع رسول الله ﷺ فيه فجعل يقول له: أى عم، فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة. فلما رأى حرص رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخى والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بنى أبيك من بعدى، وأن تظن قريش أنى إنما قلتها جزعًا من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك به. فلما تقارب من أبى طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفتيه فأصغى إليه بأذنيه، فقال: يا ابن أخى، والله لقد قال أخى الكلمة التى أمرته أن يقولها. فقال رسول الله ﷺ: «لم أسمع»[(٢)].

وخرج مسلم بن الحجاج فى صحيحه من حديث المسيب بن حزن قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: «يا عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟! فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»[(٣)].

فأنزل الله عز وجل: ﴿**ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم**﴾ [التوبة: ١١٣]. وأنزل فى أبى طالب فقال لرسوله ﷺ: ﴿**إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين**﴾ [القصص: ٥٦].

وفى الصحيح أيضًا أن العباس قال لرسول الله ﷺ: إن أبا طالب كان يحوطك

---

(١) انظر الحديث فى: المستدرك للحاكم (٤٣٢/٢)، تفسير الطبرى (٧٩/٢٣)، البيهقى فى السنن الكبرى (١٨٨/٩)، أسباب النزول للواحدى (صـ٣٠٩).

(٢) انظر الحديث فى: فتح البارى لابن حجر (٢٣٤/٧)، البداية والنهاية لابن كثير (١٢٣/٣).

(٣) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (١١٩/٢)، صحيح مسلم كتاب الإيمان (٣٩)، طبقات ابن سعد (٧٧/١/١)، تفسير ابن كثير (٢٥٦/٦)، الدر المنثور للسيوطى (١٣٤/٥)، تفسير القرطبى (٢٧٢/٨)، تفسير الطبرى (٣٠/١١).

وينصرك ويغضب لك، فهل ينفعه ذلك؟ قال: «نعم، وجدته فى غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح»(١).

وفيه أيضًا من حديث أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب، فقال: «لعله تنفعه شفاعتى يوم القيامة فيجعل فى ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلى منه دماغه»(٢).

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أهون أهل النار عذابًا أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلى منهما دماغه»(٣).

ويروى أن أبا طالب لما حضرته الوفاة جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال: يا معشر قريش، أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب، فيكم السيد المطاع وفيكم المقدم الشجاع والواسع الباع، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبًا إلا احتزتموه، ولا شرفًا إلا أدركتموه، فلكم بذلك على الناس الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة، وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البنية فإن فيها مرضاة للرب وقوامًا للمعاش وثباتًا للوطأة، صلوا أرحامكم ولا تقطعوها فإن فى صلة الرحم منسأة فى الأجل وزيادة فى العدد، واتركوا البغى والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم، أجيبوا الداعى وأعطوا السائل فإن فيهما شرف الحياة والممات، عليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة، فإن فيها محبة فى الخاص ومكرمة فى العام، وإنى أوصيكم بمحمد خيرًا فإنه الأمين فى قريش والصديق فى العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به، وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وأيم الله لكأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل البر فى الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح مسلم (١٩٥)، مسند الحميدى (٤٦٠).

(٢) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٥/٦٦، ٨/١٤٤)، إتحاف السادة المتقين للزبيدى (١٠/٥١٣)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/٣٤٧)، كنز العمال للمتقى الهندى (٣٤٠٩٢)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/١٢٥)، تفسير القرطبى (٨/١٦٣)، فتح البارى لابن حجر (١١/٤١٧)، السلسلة الصحيحة للألبانى (١/٥٤).

(٣) انظر الحديث فى: صحيح مسلم كتاب الإيمان (٣٦٢)، مسند الإمام أحمد (١/٢٩٠)، مستدرك الحاكم (٤/٥٨١)، مشكاة المصابيح للتبريزى (٥٦٦٨)، مسند أبو عوانة (١/٩٨)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/٣٤٨)، كنز العمال للمتقى الهندى (٩١٥١٢)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/١٢٥).

فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابًا ودورها خرابًا وضعفاؤها أربابًا وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها وأعطته قيادها، دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم، كونوا له ولاة ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد منهم سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسى مدة ولأجلى تأخير لكففت عنه الهزاهز ولدافعت عنه الدواهى.

* * *

ذكر خروج النبى ﷺ إلى الطائف بعد مهلك عمه أبى طالب

قال ابن إسحاق[1]: ولما هلك أبو طالب ونالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكن تنال منه فى حياته، خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف وحده يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه، ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله.

فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ، سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة، عبد ياليل ومسعود وحبيب، بنو عمرو بن عمير بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح، فجلس إليهم رسول الله ﷺ وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك؛ وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك! وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا! لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك، فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم فيما ذكر لى: إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا علىَّ. وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه فيذئرهم ذلك عليه. فلم يفعلوا، أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس.

قال موسى بن عقبة: وقعدوا له صفين على طريقه، فلما مر رسول الله ﷺ بين صفيهم جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة، حتى أدموا رجليه. وزاد سليمان التيمى أنه ﷺ كان إذا أذلقته الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه فيقيمونه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون!.

(١) انظر: السيرة (٢/٢٩).

قال ابن عقبة: فخلص منهم ورجلاه تسيلان دما فعمد إلى حائط من حوائطهم فاستظل فى ظل حبلة منه وهو مكروب موجع، وإذا فى الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة، فلما رآهما كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ورسوله.

وذكر ابن إسحاق[١]: أن الحائط كان لهما، وأن رسول الله ﷺ لما اطمأن، يعنى فى ظل الحبلة، قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك»[٢].

قال: فلما رآه ابنا ربيعة وما لقى، تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له: عداس، فقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب، فضعه فى هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه. ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله ﷺ ثم قال: له: كل. فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال: بسم الله ثم أكل، فنظر عداس فى وجهه ثم قال له: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. فقال له رسول الله ﷺ: من أى البلاد أنت يا عداس وما دينك؟ قال: نصرانى وأنا من أهل نينوى[٣]. فقال له رسول الله ﷺ أمن قرية الرجل الصالح يونس ابن متى؟ قال له عداس: وما يدريك ما يونس ابن متى؟ قال رسول الله ﷺ: ذاك أخى كان نبيا وأنا نبى. فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه. فلما جاءهما عداس قالا له: ويلك، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدى ما فى الأرض شىء خير من هذا، لقد أعلمنى بأمر لا يعلمه إلا نبى. قالا: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه[٤].

---

(١) انظر: السيرة (٢/٣٠).

(٢) انظر الحديث فى: تفسير الطبرى (١/٨٠، ٨١)، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١/٣٥٨).

(٣) نينوى: هى قرية يونس بن متى عليه السلام بالموصل وبسواد الكوفية، ناحية يقال لها نينوى منها كربلاء.

(٤) انظر تخريج الحديث السابق.

وقد خرج البخارى ومسلم من حديث عائشة رضى الله عنها، أنها قالت للنبى ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت على وجهى وأنا مهموم، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فنادانى وقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم». فنادانى ملك الجبال فسلم على فقال: يا محمد ذلك لك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال النبى ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا»[(١)].

وذكر ابن هشام[(٢)] أن رسول الله ﷺ لما انصرف عن أهل الطائف، ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه من تصديقه ونصرته، سار إلى حراء، ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال: أنا حليف والحليف لا يجير. فبعث إلى سهيل بن عمرو فقال: إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب. فبعث إلى المطعم بن عدى فأجابه إلى ذلك، ثم تسلح المطعم وأهل بيته، وخرجوا حتى أتوا المسجد، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ أن ادخل. فدخل رسول الله ﷺ فطاف بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله.

ولأجل هذه السابقة التى سبقت للمطعم، قال رسول الله ﷺ فى أسارى بدر: لو كان المطعم بن عدى حيًّا ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى، لتركتهم له.

وفى انصراف رسول الله ﷺ من الطائف، راجعًا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف مر به النفر من الجن الذين ذكر الله تعالى، فى كتابه ورسول الله ﷺ بنخلة[(٣)] قد قام من جوف الليل يصلى، فمر به أولئك النفر من الجن فيما ذكر ابن إسحاق قال: وهم فيما ذكر لى سبعة نفر من جن أهل نصيبين، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٤/١٣٩)، صحيح مسلم كتاب الجهاد (١١٢)، إتحاف السادة المتقين للزبيدى (٩/٨٨)، مشكاة المصابيح للتبريزى (٥٨٤٨)، فتح البارى لابن حجر (٧/١٦٦)، كنز العمال للمتقى الهندى (٣١٩٨٢)، تفسير ابن كثير (٣/٢٥٩).

(٢) انظر: السيرة (٢/٣١).

(٣) نخلة: موضع على ليلة من مكة، وكان بها لقريش وبنى كنانة بعض الطواغيت التى كانت تعظمها مع الكعبة لأنهم قالوا: ﴿اجعل الآلهة إلهًا واحدًا﴾ فكانت لهم بيوت تعظمها وتطوف بها كطوافها بالكعبة. انظر الروض المعطار (صـ٥٧٦).

قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص الله خبرهم عليه ﷺ(١)، قال عز من قائل: ﴿**وإذ صرفنا إليك نفرًا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسى مصدقًا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم**﴾ [الأحقاف: ٢٩، ٣١].

* * *

ذكر عرض رسول الله ﷺ نفسه على قبائل العرب

قال ابن إسحاق(٢): ثم قدم رسول الله ﷺ مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه، إلا قليلاً مستضعفين ممن آمن به.

فكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه فى المواسم إذا كانت على قبائل العرب، يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبى مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به(٣).

قال ربيعة بن عباد الدؤلى: إنى لغلام شاب مع أبى بمنى، ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول: يا بنى فلان إنى رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به، وخلفه رجل أحول وضىء له غديرتان، عليه حلة عدنية، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله، وما دعا إليه قال ذلك الرجل: يا بنى فلان إن هذا يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه.

قال ربيعة: فقلت لأبى: من هذا الرجل الذى يتبعه يرد عليه ما قال؟ قال: هذا عمه

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٤/٢٤٠)، سنن الترمذى (٣٣٧٩).

(٢) انظر: السيرة (٢/٣٣).

(٣) انظر الحديث فى: الكامل فى التاريخ لابن الأثير (٢/٩٣)، عيون الأثر لابن سيد الناس (٢/٢٥٧).

عبد العزى بن عبد المطلب، أبو لهب[١].

وعن غير ربيعة[٢] أن رسول الله ﷺ أتى كندة فى منازلهم، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فأبوا عليه[٣].

وأتى كلبًا فى منازلهم إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه حتى إنه ليقول لهم: «يا بنى عبد الله: إن الله قد أحسن اسم أبيكم». فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم[٤].

وعرض نفسه على بنى حنيفة فلم يك أحد من العرب أقبح ردا عليه منهم[٥].

ذكر الواقدى بإسناد له عن عامر بن سلمة الحنفى، وكان قد أسلم فى آخر عمر رسول الله ﷺ أنه قال: نسأل الله عز وجل، أن لا يحرمنا الجنة، لقد رأيت رسول الله ﷺ جاءنا ثلاثة أعوام بعكاظ وبمجنة وبذى المجاز يدعونا إلى الله عز وجل، وأن نمنع له ظهره حتى يبلغ رسالات ربه، ويشرط لنا الجنة، فما استجبنا له ولا رددنا جميلاً، لقد أفحشنا عليه وحلم عنا.

قال عامر: فرجعت إلى حجر فى أول عام فقال لى هوذة بن على: هل كان فى موسمكم هذا خبر؟ فقلت: رجل من قريش يطوف على القبائل، يدعوهم إلى الله وحده، وإلى أن يمنعوا ظهره حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة. فقال هوذة: من أى قريش؟ قلت: هو من أوسطهم نسبًا من بنى عبد المطلب.

قال هوذة: أهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟ قلت: هو هو. قال: أما إن أمره سيظهر على ما ها هنا، فقلت: ها هنا قط من بين البلدان؟ قال: وغير ما ها هنا.

ثم وافيت السنة الثانية فقدمت حجرًا، فقال: ما فعل الرجل؟ فقلت: رأيته على حاله فى العام الماضى. قال: ثم وافيت فى السنة الثالثة وهى آخر ما رأيته، وإذا بأمره قد أمر،

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣/٤٩٢، ٤٩٣)، مستدرك الحاكم (١/١٥)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/٣٥)، تاريخ الطبرى (١/٥٥٦)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/١٣٨).

(٢) ذكر فى السيرة (٢/٣٤) هذا الحديث عن ابن شهاب الزهرى.

(٣) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٣/١٣٩)، تاريخ الطبرى (١/٥٥٦).

(٤) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٢/٤١٨)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/١٣٩)، تاريخ الطبرى (١/٥٥٦).

(٥) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٣/١٣٩)، تاريخ الطبرى (١/٥٥٦).

وإذا ذكره كثير فى الناس، وأسمع أن الخزرج تبعته، فقدمت حجرًا، فقال لى هـوذة: ما فعل الرجل؟ فقلت: رأيت أمره قد أمر ورأيت قومه عليه أشداء. فقال هوذة: هـو الـذى قلت لك، ولو أنا تبعناه كـان خيرًا لنـا، ولكنـا نضن بملكنـا. وكـان قومـه قـد توجـوه وملكوه.

قال عامر: فمر بى سليط بن عمرو العـامرى، حين بعثـه رسـول اللـه ﷺ إلى هـوذة، فضيفته وأكرمته وأخبرنى مـن خبر هـوذة، أنـه لـم يسـلم، وقـد رد ردًا دون رد. قـال: فأخبرت سليطًا خبرى لهوذة، فأخبره سـليط رسـول اللـه ﷺ وأسـلم عـامر بـن سـلمة، ومات هوذة بن على سنة ثمان من الهجرة كافرًا علـى نصرانيتـه. ودعـا رسـول اللـه ﷺ بنى عبس إلى الإسلام فلم يقبلوا.

قال أبو وابصة العبسى فيما ذكر الواقـدى: جاءنـا رسـول اللـه ﷺ فـى منزلنـا بمنـى، فدعانا إلى الله، فوالله ما اسـتجبنا لـه، ومـا خير لنـا، وكـان معنـا ميسـرة بـن مسـروق العبسى فقال لنا: أحلف بالله لو صدقنا هذا الرجل وحملناه حتى نحل بـه وسـط رحالنـا لكان الرأى. فقال له القـوم: مـن بـين العـرب نفعـل هـذا؟ قـال: نعـم مـن بـين العـرب، فأحلف بالله ليظهرن أمره، حتى يبلغ كل مبلغ. فقال له القوم: دعنا منك لا تعرضنـا لمـا لا قبل لنا به.

وطمع رسول الله ﷺ فى ميسرة، فكلمه، فقال ميسرة: مـا أحسـن كلامـك وأنـوره، ولكن قومى يخـالفوننى، وإنمـا الرجـل بقومـه. فـانصرف رسـول اللـه ﷺ وخـرج القـوم صادرين إلى أهليهم، فقال لهم ميسرة: ميلوا بنا إلى فدك فإن بها يهود، نسألهم عن هـذا الرجل. فمالوا إلى يهود، فأخرجوا سفرًا لهم فوضعوه، ثم درسوا ذكر النبـى ﷺ، الأمـى العربى يركب الحمار ويجتزىء بالكسرة، وليـس بـالطويل ولا بـالقصير، ولا بـالجعد ولا بالبسط، فى عينيه حمرة مشرب اللـون. قـالوا: فـإن كـان هـذا الـذى دعـاكم فـأجيبوه، وادخلوا فى دينه، فإنا نحسده ولا نتبعه ولنا منه فـى مواطـن بـلاء عظيـم، ولا يبقـى فـى العرب أحد إلا تبعه أو قتله، فكونوا ممن يتبعه.

قال ميسرة: يا قوم والله مـا بقـى شـىء، إن هـذا لأمـر بـين. قـال القـوم: نرجـع إلى الموسم ونلقاه، ورجع القـوم إلى بلادهـم، فـأبى ذلـك عليهـم رجـالهم، فلـم يتبعـه أحـد منهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة مهاجرًا وحـج حجـة الـوداع لقيـه ميسـرة، فعرفـه فقال: يا رسول الله، والله مازلت حريصًا على اتباعك منذ يـوم رأيتـك أنخـت بنـا حتـى

كان ما كان، وأبى الله عز وجل، إلا ما ترى من تأخر إسلامى، وقد مات عامة النفر الذين كانوا معى، فأين مدخلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «من مات على غير الإسلام فهو فى النار». فقال ميسرة: الحمد لله الذى تنقذنى. فأسلم، فحسن إسلامه، وكان له عند أبى بكر الصديق رضى الله عنه، مكان.

وعن ابن إسحاق[١]: أن رسول الله ﷺ أتى بنى عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم يقال له بيحرة بن فراس: والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن تابعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء». قال: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك[٢].

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافى معهم موسمهم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون فى ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان فى موسمهم، فقالوا جاءنا فتى من قريش ثم أحد بنى عبد المطلب يزعم أنه بنى، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا.

فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال: يا بنى عامر، هل لنا من تلاف، هل لذباباها من مطلب؟[٣] والذى نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيلى قط وإنها لحق، فأين رأسكم كان عنكم؟!.

وزاد الواقدى أن رسول الله ﷺ لما قام عن بنى عامر وانصرف إلى راحلته ليركبها أتاه بيجرة، ونسبه الواقدى: بيجرة بن عبد الله بن سلمة، ورجلان معه فنخسوا به راحلته حتى سقط عنها، ويقال: قطعوا بطان راحلته.

قال: فقامت امرأة منهم يقال لها: ضباعة بنت قرط، وكانت قد أسلمت وكانت تحت عبد الله بن جدعان، فكرهته ففارقها وخلف عليها بعده هشام بن المغيرة، وهى أم ابنه سلمة، وصاحت: يا بنى عامر أيؤذى محمد وأنا شاهدة؟! فقام إليهم غطيف

---

(١) انظر: السيرة (٢/٣٤ - ٣٥).
(٢) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٣/١٣٩، ١٤٠)، تاريخ الطبرى (١/٥٥٦).
(٣) قال السهيلى فى الروض الأنف (٢/١٨١): هو مثل يضرب لما فاته منها، وأصله: من ذنابى الطائر إذا أفلت من حباله فطلبت الأخذ بذنابيه.

وغطفان ابنا سهيل وعذرة بن عبد الله بن سلمة بـن قشير، فضربوهـم حتى هزموهم، فقال رسول الله ﷺ حين رآهم صنعوا ما صنعوا: اللهم بارك على هؤلاء، والعن هـؤلاء الآخرين. فأسلم الذين بارك عليهم جميعًا ومات الذين لعن وهم كفار.

وذكر الواقدى أيضًا، من حديث جهم بن أبى جهـم أن رسـول اللـه ﷺ وقـف على بنى عامر يدعوهم إلى الله، فقام رجل منهم فقال له: عجبًا لك والله، أعيـاك قومـك ثـم أعياك أحياء العرب كلها، حتى تأتينا وتردد علينا مرة بعد مـرة! واللـه لأجعلنـك حديثًا لأهل الموسم.

ونهض إلى رسول الله ﷺ وكان جالسًا فكسر الله عز وجل ساقه، فجعل يصيح من رجله، وانصرف رسول الله ﷺ عنه. قال الواقدى بإسناد ذكـره: وأتـى رسـول اللـه ﷺ غسان فى منازلهم بعكاظ، وهم جماعة كثيرة، فجلس إليهم فدعـاهم إلى اللـه تعـالى، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

قال: وأن تمنعوا لى ظهرى حتى أبلغ رسالات ربى ولكـم الجنـة. فقـال رجـل منهـم: هذا والله يا قوم الذى تذكر النصارى فى كتبها والذى يقولـون: بقـى مـن الأنبيـاء نبـى اسمه أحمد، فتعالوا نؤمن به ونتبعه فنكون من أنصاره وأوليائه، فإنهم يزعمون أنه يظهـر على ما بلغ الخف والحافر، فيجتمع لنا شرف الدنيا مع ما يكون بعد الموت.

قال القوم: فنكون نحن أول العرب دخـل فـى هـذا الأمـر فتنصـب لنـا العـرب قاطبـة ويبلغ ملوك بنى الأصفـر فيخرجوننا مـن ديـارهم، ولكننـا نقـف عنـه وننظـر مـا تصنـع العرب، ثم ندخل فيما يدخل فيه الناس.

قال الرجل: يا محمد تأبى عشيرتى أن يتبعوا قولى فيك، ولـو أطـاعونى رشـدوا. قـال رسول الله ﷺ: إن هذه القلوب بيد الله عز وجل. فانصرف عنهـم، ثـم عـاد بعـد ذلـك إليهم فدعاهم إلى الإسلام فقالوا: نرجع إلى من وراءنا ثم نلقاك قابلاً.

فرجعوا فوفد منهم نفر إلى الحارث بن أبى شمر، فذكـروا لـه أمر رسـول اللـه ﷺ. فقال الحارث: إياكـم أن يتبعه رجل منكم، إذا يبيـد ملكـى مـن الشام ويتهمنـى هرقـل. قال: فأمسكوا عن ذكر رسول الله ﷺ.

قال: وأتى رسول الله ﷺ بنى محارب بن خصفة بعكـاظ فوجدهـم فـى محـالهم فيهـم شيخ منهم وهو جالس فـى أصحابـه، فـنزل رسـول اللـه ﷺ عـن راحلتـه ودعـا إلى اللـه

وطلب المنعة حتى يبلغ رسالات ربه، فرد على رسول الله ﷺ أقبح الرد وقال له: عجبًا لك! يأبى قومك أن يتبعوك، وتأتى إلى محارب تدعوهم إلى ترك ما كان عليه آباؤهم! اذهب فإنه غير متبعك رجل من محارب آخر الدهر.

ويقبل إليه سفيه منهم فقال: يا محمد، ما فى بطن ناقتى هذه إن كنت صادقًا؟ فلعمرى إنك لتدعى من العلم أعظم مما سألتك عنه، تزعم أن الله يوحى إليك ويكلمك. فأسكت عنه رسول الله ﷺ، وأقبل إليه رجل منهم يقال له: سلمة بن قيس، وكان رسول الله ﷺ جالسًا قريبًا من منزلهم، فأراد أن يطرحه فى البئر، فقام رسول الله ﷺ فتنحى عن البئر، فجعل سلمة يقول: لو وقعت فى البئر استراح منك أهل الموسم. وأخذ رسول الله ﷺ بزمام راحلته يقودها وهم يرمونها بالحجارة حتى توارى عنهم وهو يقول: «اللهم إنك لو شئت لم يكونوا هكذا، وإن قلوبهم بيدك وأنت أعلم بهم، فإن كان هذا عن سخط بك على فلك العتبى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وذكر قاسم بن ثابت بن حزم العوفى من حديث عبد الله بن عباس، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه، أنه قال: لما أمر الله رسوله ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر الصديق؛ حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب فتقدم أبو بكر فسلم وكان رجلاً نسابة ومقدمًا فى كل خير، فقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة. قال: ومن رأى ربيعة؟ أمن هامتها أم من لهازمها: قالوا: بل من هامتها العظمى، قال: وأى هامتها العظمى أنتم؟ قالوا: ذهل الأكبر[1].

فذكر الحديث فى مناسبة أبى بكر إياهم ومقاولته لهم، وانبراء دغفل بن حنظلة النسابة إليهم من بينهم وهو يومئذ غلام حين بقل وجهه، وموافقته لأبى بكر، حتى اجتذب أبو بكر زمام الناقة ورجع إلى رسول الله ﷺ وهو حديث مشهور تركته لشهرته، مع أن المقصود فيما بعده.

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر فسلم وكان مقدمًا فى كل خير، فقال: ممن القوم؟ قالوا: من شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى النبى ﷺ فقال: بأبى أنت وأمى هؤلاء غرر فى قومهم. وفيهم مفروق بن عمرو وهانىء بن قبيصة والمثنى بن حارثة والنعمان بن شريك، وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم جمالاً ولسانًا، وكانت له غديرتان تسقطان على تربيتيه وكان أدنى القوم مجلسًا من أبى بكر.

---

(١) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (١٨٤/٣ - ١٨٥).

فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ قال له مفروق: إنا لنزيد على ألف ولن تغلب ألف من قلة. فقال أبو بكر: فكيف المنعة فيكم؟ قال: علنيا الجهد ولكل قوم جد، قال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضبًا حين نلقى، وإنا لأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد والسلاح على اللقاح والنصر من عند الله، يديلنا مرة ويديل علينا، لعلك أخو قريش؟.

فقال أبو بكر: أو قد بلغكم أنه رسول الله؟ فها هو ذا. فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك، فالإم تدعو يا أخا قريش؟.

فتقدم رسول الله ﷺ فقال: «أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله، وإلى أن تتؤونى وتنصرونى، فإن قريشًا قد ظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغنى الحميد».

فقال مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿**قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون**﴾ [الأنعام: ١٥١].

فقال مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون**﴾ [النحل: ٩٠].

فقال مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك. وكأنه أراد أن يشركه فى الكلام هانىء بن قبيصة. فقال: وهذا هانىء بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا.

فقال هانىء: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإنى أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك، لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، زلة فى الرأى وقلة نظر فى العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدًا، ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر. وكأنه أحب أن يشركه فى الكلام المثنى بن حارثة فقال: وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا.

فقال المثنى: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانىء بن قبيصة

فى ترك ديننا واتباعنا إياك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر وإنما منزلنا بين صريى اليمامة والسمامة. فقال رسول الله ﷺ ما هذان الصريان؟ فقال: أنهار كسرى ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، وأما ما كان من مياه العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثًا ولا نؤوى محدثًا، وإنى أرى أن هذا الأمر الذى تدعونا إليه هو مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلى مياه العرب فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم فى الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم أتسبحون الله وتقدسونه؟» فقال النعمان: اللهم لك ذا.

فتلا رسول الله ﷺ: **﴿إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا﴾** [الأحزاب: ٤٥]. ثم نهض النبى ﷺ فأخذ بيدى فقال: يا أبا بكر، يا أبا حسن، أية أخلاق فى الجاهلية! ما أشرفها! بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض وبها يتحاجزون فيما بينهم(١).

قال ابن إسحاق(٢): فكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله تعالى من الهدى والرحمة، ولا يسمع بقادم قدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده.

وقدم سويد بن صامت(٣) أخو بنى عمرو بن عوف مكة حاجًا أو معتمرًا، فتصدى له رسول الله ﷺ فدعاه إلى الله وإلى الإسلام فقال له سويد: فلعل الذى معك مثل الذى معى.

---

(١) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/١٨٤ - ١٨٥).

(٢) انظر: السيرة (٢/٣٥).

(٣) هو: سويد بن الصامت الأوسى، لقى النبى ﷺ بسوق ذى المجاز من مكة فى حجة حجها سويد على ما كانوا يحجون عليه فى الجاهلية. انظر ترجمته فى: الاستيعاب (٢/٢٣٥، ٢٣٦) الترجمة رقم (١١٢١).

قال له رسول الله ﷺ: «ما الذى معك؟» قال: مجلة لقمان[1]، يعنى حكمة لقمان. فقال له رسول الله ﷺ: اعرضها على فعرضها عليه. فقال: «إن هذا الكلام حسن والذى معى أفضل من هذا، قرآن أنزله الله على هو هدى ونور».

فتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن. ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتلته الخزرج قبل بعاث. فإن كان رجال من قومه ليقولون: إنا لنراه قد قتل وهو مسلم[2].

وكان سويد إنما يسميه قومه فيهم الكامل، لجلده وشعره وشرفه ونسبه وهو القائل:

ألا رب من تدعو صديقًا ولو ترى ... مقاتله بالغيب ساءك ما يفرى
مقالته كالشهد ما كان شاهدًا ... وبالغيب مأثور على ثغرة النحر
يسرك باديه وتحت أديمه ... نميمة غش تبترى عقب الظهر[3]
تبين لك العينان ما هو كاتم ... من الغل والبغضاء بالنظر الشزر
فرشنى بخير طال ما قد بريتنى ... وخير الموالى من يريش ولا يبرى

ولما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم: هل لكم فى خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله بعثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا وأنزل على الكتاب. ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

---

(١) قال السهيلى فى الروض الأنف (٢/١٨٣): مجلة لقمان وهى الصحيفة وكأنها مفصلة من الجلال والجلالة: أما الجلالة فمن صفة المخلوق، والجلال من صفة الله تعالى وقد أجاز بعضهم أن يقاس المخلوق: جلا وجلالة وأنشد:

فلا ذا جلال هبته لجلالة ... ولا ذا ضياع هن يتركن للفقر

ولقمان كان نوبيًا من أهل آيلة، وهو لقمان بن عنقاء بن سرور فيما ذكروا وابنه الذى ذكر فى القرآن هو ثاران فيما ذكر الزجاج وغيره، وقد قيل فى اسمه غير ذلك، وليس بلقمان بن عاد الحميرى. انتهى.

(٢) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٢/٤١٩)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/١٤٧).

(٣) ذكر هذا البيت ابن عبد البر فى الاستيعاب (٢/٢٣٦) فذكر شطره الأول كما ورد هنا أما الثانى:

.... منحية شر يفترى عقب الظهر

وانظر الأبيات أيضًا فى أسد الغابة الترجمة رقم (٢٣٤٨).

فقال إياس بن معاذ، وكان غلامًا حدثًا: أى قوم، هذا والله خير لكم مما جئتم له. فيأخذ أبو الحيسر جفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس وقال: دعنا منك، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام عنهم رسول الله ﷺ، وانصرفوا إلى المدينة، فكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج[١].

ثم لم يلبث إياس أن هلك، فأخبر من حضر من قومه عند موته أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلمًا، لقد كان استشعر الإسلام فى ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع.

* * *

بدء إسلام الأنصار
وذكر العقبة الأولى

قال ابن إسحاق[٢]: فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه وإنجاز موعوده له، خرج رسول الله ﷺ فى الموسم الذى لقى فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقى رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيرًا، فقال لهم: «من أنتم؟» قالوا: نفر من الخزرج، قال: «أمن موالى يهود؟» قالوا: نعم، قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

وكان مما صنع الله به فى الإسلام أن يهود كانوا معهم فى بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكان قد عزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: «إن نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم».

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه.

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٥/٤٢٧)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/٤٢٠، ٤٢١)، المستدرك للحاكم (٣/١٨٠، ١٨١).

(٢) انظر: السيرة (٢/٣٨).

فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له: إنا تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا[(١)].

وهم فيما ذكر لى[(٢)]، ستة نفر من الخزرج: منهم من بنى النجار: أسعد بن زرارة أبو أمامة[(٣)]، وعوف بن الحارث بن رفاعة وهو ابن عفراء[(٤)]. ومن بنى زريق: رافع بن مالك بن العجلان[(٥)]، ومن بنى سلمة: قطبة بن عامر بن حديدة[(٦)] وعقبة بن عامر بن نابى[(٧)]، وجابر بن عبد الله بن رئاب[(٨)].

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم؛ فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ.

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فيهم من الستة المسمين قبل: أبو أمامة وعوف ورافع وقطبة وعقبة، ومن غير الستة من الخزرج أيضًا:

---

(١) انظر الحديث فى: عيون الأثر لابن سيد الناس (١/٢٦٢)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/٤٣٣، ٤٣٤)، تاريخ الطبرى (١/٥٨٨).

(٢) انظر: السيرة (٢/٣٩ - ٤٠).

(٣) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٣٠)، الإصابة الترجمة رقم (١١١)، أسد الغابة الترجمة رقم (٩٨).

(٤) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٠٢٥)، أسد الغابة الترجمة رقم (٤١٢٨).

(٥) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٧٣٩)، الإصابة الترجمة رقم (٢٥٥٠)، أسد الغابة الترجمة رقم (١٥٩٨)، الثقات (٣/١٢٣)، تجريد أسماء الصحابة (١/١٧٤)، تقريب التهذيب (١/٢٤١)، الجرح والتعديل (٣/٢١٥٩)، تهذيب التهذيب (٣/٢٣٢)، سير أعلام النبلاء (١/٢١٩)، دائرة معارف الأعلمى (١٨/٢٠٢).

(٦) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢١٤٠)، الإصابة الترجمة رقم (٧١٧٣)، أسد الغابة الترجمة (٤٣٠٨)، الثقات (٣/٣٤٧)، الطبقات الكبرى (٩/١٥٩)، تجريد أسماء الصحابة (٢/١٥)، الاستبصار (١٦٣).

(٧) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٨٤٤)، الإصابة الترجمة رقم (٥٦١٩).

(٨) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٨٩)، الإصابة الترجمة رقم (١٠٢٧)، أسد الغابة الترجمة رقم (٦٤٦)، طبقات خليفة الترجمة رقم (٦٢٣)، التاريخ الكبير (٢/٢٠٧)، الجرح والتعديل (٢/٤٩٢)، مشاهير علماء الأمصار الترجمة رقم (٢٥)، تهذيب الكمال (١٨٢)، تاريخ الإسلام (٣/١٤٣)، تذكرة الحفاظ (١/٤٠)، تذهيب التهذيب (١/٩٩)، خلاصة تذهيب الكمال (٥٠)، شذرات الذهب (١/٨٤)، تهذيب ابن عساكر (٣/٣٨٩).

ذكوان بن عبد قيس بن خلدة الزرقى[(١)]، وعبادة بن الصامت[(٢)]، ويزيد بن ثعلبة[(٣)] من بنى غصينة من بلى حليف لهم، والعباس بن عبادة بن نضلة العجلانى[(٤)]، ومعاذ بن الحارث بن رفاعة[(٥)]، وهو ابن عفراء، ومن الأوس: أبو الهيثم بن مالك بن التيهان[(٦)]، وعويم بن ساعدة[(٧)]، فلقوه بالعقبة، وهى العقبة الأولى.

قال عبادة بن الصامت: كنت ممن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنى عشر رجلاً، بايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن تفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأتى ببهتانًا نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف. قال: «فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأصبتم بحد فى الدنيا فهو كفارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله، إن شاء عذب وإن شاء غفر»[(٨)].

---

(١) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٧١٠)، الإصابة الترجمة رقم (٢٤٤٢)، أسد الغابة الترجمة رقم (١٥٣١)، تجريد أسماء الصحابة (١/١٦٧)، الوافى بالوفيات (١٤/٣٨)، الاستبصار (٤٧)، الجرح والتعديل (٣/٢٠٣٨).

(٢) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٣٨٠)، الإصابة الترجمة رقم (٤٥١٥)، أسد الغابة الترجمة رقم (٢٧٩١).

(٣) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٧٩١)، الإصابة الترجمة رقم (٩٢٦١)، أسد الغابة الترجمة رقم (٥٥٣٦)، الثقات (٣/٤٤٥)، تجريد أسماء الصحابة (٢/١٣٥)، الطبقات الكبرى (١/٢٢٠).

(٤) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٣٨٥)، الإصابة الترجمة رقم (٢٥٢٥)، أسد الغابة الترجمة رقم (٢٧٩٨)، الوافى بالوفيات (١٦/٦٣٤)، تجريد أسماء الصحابة (١/٢٩٥)، الثقات (٣/٢٨٨).

(٥) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٤٥٠)، الإصابة الترجمة رقم (٨٠٦٨).

(٦) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٣٢٤٦)، الإصابة الترجمة رقم (١٠٦٨٩)، أسد الغابة الترجمة رقم (٦٣٣١)، تجريد أسماء الصحابة (٢/٢١٠)، التاريخ لابن معين (٢/١٤٨)، تنقيح المقال (٣/٢٤).

(٧) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٠٧٥)، الإصابة الترجمة رقم (٦١٢٧)، أسد الغابة الترجمة رقم (٤١٣٨)، طبقات ابن سعد (٣/٢/٣٠)، مشاهير علماء الأمصار (١٠٧)، حلية الأولياء (٢/١١)، تهذيب الكمال (١٠٦٨)، تهذيب التهذيب (٨/١٧٤)، خلاصة تذهيب الكمال (٣٠٦).

(٨) انظر الحديث فى: صحيح البخارى كتاب مناقب الأنصار (٣٨٩٢، ٣٨٩٣)، صحيح=

قال ابن إسحاق[١]: فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين، فكان مصعب يسمى المقرىء بالمدينة، وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عدس أبى أمامة، وكان يصلى بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض[٢].

* * *

إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير على يدى مصعب بن عمير رضى الله عنه

ذكر ابن إسحاق عمن سمى من شيوخه[٣] أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بنى عبد الأشهل ودار بنى ظفر، فدخل به حائطًا من حوائط بنى ظفر، فجلسا فيه واجتمع إليهما رجال ممن أسلم.

فلما سمع بذلك سعد بن معاذ[٤] وأسيد بن حضير[٥] وهما يومئذ سيدا قومهما بنى عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، قال سعد لأسيد: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتى ولا أجد عليه مقدما.

-مسلم كتاب الحدود (٣/٤٣)، مسند الإمام أحمد (٥/٣١٦)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/٢٤٦، ٢٤٧)، مستدرك الحاكم (٢/٦٢٤).

(١) انظر: السيرة (٢/٤٣).

(٢) انظر الحديث فى: تاريخ الطبرى (١/٥٥٩)، فتح البارى لابن حجر (٧/٢٦٤).

(٣) انظر: السيرة (٢/٤٤).

(٤) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٩٦٣)، الإصابة الترجمة رقم (٣٢١٣)، أسد الغابة الترجمة رقم (٢٠٤٦)، طبقات خليفة (٧٧)، التاريخ الكبير (٤/٦٥)، الجرح والتعديل (٤/٩٣)، تهذيب الكمال (٤٧٧)، العبر (١/٧)، تهذيب التهذيب (٣/٤٨١)، خلاصة تذهيب الكمال (٦٣٥)، شذرات الذهب (١/١١).

(٥) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٥٤)، الإصابة الترجمة رقم (١٨٥)، أسد الغابة الترجمة رقم (١٧٠)، تجريد أسماء الصحابة (١/٢١)، تهذيب الكمال (١/١١٣)، تقريب التهذيب (١/٧٨)، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١/٩٨)، الوافى بالوفيات (٩/٢٥٨)، سير الإعلام (١/٢٩٩)، تهذيب التهذيب (١/٣٤٧)، الجرح والتعديل (٢/١١٦٣)، الأنساب (١/٢٧٨)، الرياض المستطابة (٢٩).

فأخذ أسيد حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه. قال: فوقف عليهما متشتما فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا، اعتزلانا إن كانت بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره. قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما ذكر عنهما: والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم فى إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تتشهد شهادة الحق ثم تصلى.

فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين ثم قال لهما: إن ورائى رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن، سعد ابن معاذ. ثم انصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟ قال كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت. وقد حدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك[(١)].

فقام سعد مغضبًا مبادرًا متخوفًا للذى ذكر له من بنى حارثة، فأخذ الحربة من يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا. ثم خرج إليهما فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدًا إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا ثم قال: يا أبا أمامه، والله لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى، أتغشانا فى دارينا بما نكره!.

وقد قال أسعد لمصعب بن عمير: أى مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان. فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره.

قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن. قالا: فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟.

قالا: تغتسل فتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى ركعتين. فقام فاغتسل

---

(١) ليخفروك: أخفره أى نقض عهده وخاس به وغدره، وأخفر الذمة لم يف بها.

وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق وركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامدًا إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به.

فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا، أفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة[١]. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم حرام على حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

قال: فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة. ورجع مصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون[٢]، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف، وتلك أوس الله، وهم من الأوس بن حارثة.

وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت[٣] وكان شاعرًا لهم قائدًا يسمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ ومضى بدر وأحد والخندق، وقال فيما رأى من الإسلام وما اختلف الناس فيه من أمره:

أرب الناس أشياء المت ... يلف الصعب منها بالذلول

أرب الناس إما إن ضللنا ... فيسرنا لمعروف السبيل

فلولا ربنا كنا يهودًا ... وما دين اليهود بذى شكول[٤]

ولولا ربنا كنا نصارى ... مع الرهبان فى جبل الجليل

ولكنا خلقنا إذ خلقنا ... حنيفًا ديننا عن كل جيل[٥]

نسوق الهدى ترسف مذعنات ... مكشفة المناكب فى الجلول

* * *

---

(١) أيمننا نقيبة: النقيبة أيمن النعل، وقال ابن بزرج: اللهم نقيبة أى نفاذ رأى، ورجل ميمون النقيبة: مبارك النفس، مظفر بما يحاول. انظر: اللسان (مادة نقب).

(٢) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٤٣٨/٢، ٤٣٩)، مجمع الزوائد للهيثمى (٤٢/٦).

(٣) انظر ترجمته فى: طبقات فحول الشعراء (٢٢٦/١).

(٤) قال السهيلى فى الروض الأنف: شكول جمع شكل، وشكل الشىء بالفتح هو مثله، والشكل بالكسر الدل والحسن، فكأنه أراد أن دين اليهود بدع فليس له شكول أى: ليس له نظير فى الحقائق ولا مثيل يعضده من الأمر بالمعروف المقبول.

(٥) حنيفًا: من حنف إذا مال، أى مائلاً عن الأديان الباطلة، والميل هو الصنف من الناس.

ذكر العقبة الثانية

قال ابن إسحاق[(١)]: ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة، وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، حين أراد الله ما أراد من كرامته والنصر لنبيه وإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله.

حدث كعب بن مالك[(٢)]، وكان ممن شهد العقبة وبايع بها رسول الله ﷺ، قال: خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين وقد صلينا وفقهنا، ومعنا البراء بن معرور[(٣)] سيدنا وكبيرنا، فلما وجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة قال لنا البراء: يا هؤلاء، إنى قد رأيت رأيًا ووالله ما أدرى أتوافقونى عليه أم لا. فقلنا: وما ذاك؟ قال: رأيت ألا أدع هذه البنية منى بظهر، يعنى الكعبة، وأن أصلى إليها. فقلنا: والله ما بلغنا أن نبينا يصلى إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه. فقال: إنى لمصل إليها. فقلنا له: لكنا لا نفعل.

فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام وصلى إلى الكعبة، حتى قدمنا مكة، فلما قدمناها وقد كنا عبنا عليه ما صنع، قال لى: يا ابن أخى انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى أسأله عما صنعت فى سفرى هذا فإنه والله لقد وقع فى نفسى منه شىء لما رأيت من خلافكم إياى فيه، فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ وكنا لا نعرفه لم نره قبل ذلك، فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عنه فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا. فقال: هل تعرفان العباس عمه؟ قلنا: نعم. وقد كنا نعرف العباس، كان لا يزال يقدم علينا تاجرًا. قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس.

فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالس معه، فسلمنا ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله ﷺ للعباس: هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟ قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه وهذا كعب بن مالك، فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ:

---

(١) انظر: السيرة (٢/٤٨ - ٤٩).

(٢) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٢٣١)، الإصابة الترجمة رقم (٧٤٤٧)، شذرات الذهب (١/٥٦)، تهذيب الكمال (١١٤٧)، تاريخ الإسلام (٢/٢٤٣)، تهذيب التهذيب (٨/٤٤٠، ٤٤١)، خلاصة تذهيب الكمال (٣٢١)، طبقات خليفة (١٠٣).

(٣) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٧١)، الإصابة الترجمة رقم (٦٢٢)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٩٢)، طبقات ابن سعد (٣/٢/١٤٦)، شذرات الذهب (١/٩)، العبر (١/٣)، الاستبصار (١٤٢).

ألشاعر؟ قال: نعم. فقال له البراء بن معرور: يا نبى الله، إنى خرجت فى سفرى هذا وقد هدانى الله للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البنية منى بظهر، فصليت إليها، وخالفنى أصحابى فى ذلك، حتى وقع فى نفسى منه شيء فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: قد كنت على قبلة لو صبرت عليها. فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ وصلى معنا إلى الشام. قال: وأهله يزعمون أنه صلى إلى الكعبة حتى مات، وليس كما قالوا، نحن أعلم به منهم[١].

قال كعب[٢]: ثم خرجنا إلى الحج وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام[٣]، أبو جابر، سيد من ساداتنا أخذناه معنا وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا فكلمناه وقلنا: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك أن تكون حطبًا للنار غدا.

ثم دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، فأسلم وشهد معنا وكان نقيبًا. فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا، نسيبة بنت كعب أم عمارة[٤]، إحدى نساء بنى مازن بن النجار، وأسماء بنت [عمرو بن عدى بن نابى][٥]، أم منيع[٦]، إحدى نساء بنى سلمة، فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له.

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣/٤٦١)، صحيح ابن خزيمة (٤٢٩)، الهيثمى فى المجمع (٦/٤٢، ٤٣).

(٢) انظر: السيرة (٢/٤٩ - ٥٠).

(٣) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٦٣٣)، الإصابة الترجمة رقم (٤٨٥٦)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٠٨٦)، تجريد أسماء الصحابة (١/٣٢٥)، تاريخ الإسلام (٢/٢٠٥)، سير أعلام النبلاء (١/٣٢٤)، حلية الأولياء (٢/٤)، الأعلام (٤/١١).

(٤) انظر ترجمتها فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٣٦٢٤)، الإصابة الترجمة رقم (١٢١٨٣)، أسد الغابة الترجمة رقم (٧٥٥٠)، تهذيب التهذيب (١٢/٤٧٤)، خلاصة تذهيب الكمال (٤٩٩).

(٥) ما بين المعقوفتين ورد فى الأصل: «عدى بن عمرو»، والتصحيح من السيرة والاستيعاب.

(٦) انظر ترجمتها فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٣٢٦٣)، الإصابة الترجمة رقم (٦٧١٢)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٢٧٤).

فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال: يا معشر الخزرج، وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوسها، إن محمدًا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده.

فقلنا له: قد سمعنا ما قلت. فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.

فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرًا عن كابر.

فاعترض القول، والبراء يكلم رسول الله ﷺ، أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا ونحن قاطعوها، يعنى اليهود، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟.

قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم. قال كعب: وقد قال رسول الله ﷺ: أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبًا يكونون على قومهم بما فيهم.

فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبًا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، من الخزرج: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع[1]، وعبد الله بن رواحة[2]، ورافع بن مالك

---

(١) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٩٣٦)، الإصابة الترجمة رقم (٣١٦١)، أسد الغابة الترجمة رقم (١٩٩٤)، طبقات ابن سعد (٧٧/٢/٣)، تاريخ خليفة (٧١)، الجرح والتعديل (٨٢/٤ - ٨٣)، الاستبصار (١١٤).

(٢) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٥٤٨)، الإصابة الترجمة رقم (٤٦٩٤)، أسد الغابة الترجمة رقم (٢٩٤٣)، الثقات (٢٢١/٣)، حلية الأولياء (١١٨/١، ١٢١)، تجريد أسماء الصحابة (٣١٠/١)، تهذيب التهذيب (٢١٢/٥)، تهذيب الكمال (٦٨١/٢)، تقريب التهذيب (٤١٥/١)، خلاصة تذهيب (٥٥/٢)، الوافى بالوفيات (١٦٨/١٧)، سير أعلام النبلاء (٢٣٠/١)، الأعلام (٨٦/٤).

ابن العجلان، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة بن دليم[١]، والمنذر بن عمرو[٢]. ومن الأوس: أسيد بن حضير، وسعد ابن خيثمة[٣]، ورفاعة بن عبد المنذر[٤].

قال ابن هشام[٥]: وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان ولا يعدون رفاعة.

فقال رسول الله ﷺ للنقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومى»، قالوا: نعم[٦].

وحدث[٧] عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة، أخو بنى سالم بن عوف: يا معشر الخزرج: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر، والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإنا

---

(١) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٩٤٩)، الإصابة الترجمة رقم (٣١٨١)، أسد الغابة الترجمة رقم (٢٠١٢)، طبقات ابن سعد (١٤٢/٢/٣)، مشاهير علماء الأمصار الترجمة رقم (٢٠١)، تهذيب الكمال (٤٧٤)، تهذيب التهذيب (٤٧٥/٣)، خلاصة تذهيب الكمال (٢١٣٤)، شذرات الذهب (٢٨/١).

(٢) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٥٢٣)، الإصابة الترجمة رقم (٨٢٤٢)، أسد الغابة الترجمة رقم (٥١١٤)، الثقات (٣٨٦/٣)، الاستبصار (١٠٠)، الأعلام (٢٩٤/٧)، تجريد أسماء الصحابة (٩٥/٢).

(٣) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٩٣٤)، الإصابة الترجمة رقم (٣١٥٥)، أسد الغابة الترجمة رقم (١٩٨٦)، شذرات الذهب (٩/١)، سير أعلام النبلاء (٢٦٦/١)، الوافى بالوفيات (٢١٦/١٥)، الأعلام (٨٤/٣)، تجريد أسماء الصحابة (٢١٣/١).

(٤) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٧٨٠)، الإصابة الترجمة رقم (٢٦٧٥)، أسد الغابة الترجمة (١٦٩٢)، تجريد أسماء الصحابة (١٨٤/١)، سير أعلام النبلاء (١٣٥/١، ١٨٥)، الوافى بالوفيات (١٧١/١٤)، تهذيب التهذيب (٢٨٢/٣)، تقريب التهذيب (٢٥١/١)، حلية الأولياء (٣٦٦/١)، خلاصة تذهيب (٣٢٧/١).

(٥) انظر: السيرة (٥٤/٢).

(٦) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (١٦٢/٣)، فتح البارى لابن حجر (٢٩٢/٧)، تاريخ الطبرى (٥٦٢/١، ٥٦٣).

(٧) انظر: السيرة (٥٥/٢).

نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة. قالوا: ابسط يدك. فبسط يده فبايعوه[1].

قال عاصم: والله، ما قال ذلك العباس إلا ليشد العقد لرسول الله ﷺ في أعناقهم. وقال غيره: ما قاله إلا ليؤخر القوم تلك الليلة رجاء أن يحضرها عبد الله بن أبي بن سلول فيكون أقوى لأمر القوم. فالله أعلم أي ذلك كان.

قال ابن إسحاق[2]: فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده، وبنو عبد الأشهل يقولون: بل أبو الهيثم بن التيهان.

وفي حديث معبد بن كعب عن أخيه عبد الله، عن أبيه قال: كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور، ثم بايع القوم، فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرح الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب، وهي المنازل، هل لكم في مذمم والصباء معه قد اجتمعوا على حربكم.

فقال رسول الله ﷺ: «هذا أزب العقبة هذا ابن أزيب، ويقال ابن أزيب، أتسمع أي عدو الله، أما والله لأفرغن لك»، ثم قال رسول الله ﷺ: «ارفضوا إلى رحالكم»، فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى بأسيافنا. فقال رسول الله ﷺ: «لم أومر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم». فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاؤونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم.

فانبعث من هنالك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه. وصدقوا، لم يعلموه، وبعضنا ينظر إلى بعض.

ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام المخزومي[3]، وعليه نعلان له جديدان فقلت

---

(١) انظر الحديث في: مجمع الزوائد للهيثمي (٦/٤٨)، مسند الإمام أحمد (٤/١١٩، ١٢٠)، تاريخ الطبري (١/٥٦٣)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/١٦٢).

(٢) انظر: السيرة (٢/٥٦ - ٥٧).

(٣) انظر ترجمته في: الاستيعاب الترجمة رقم (٤٥٢)، الإصابة الترجمة رقم (١٥٠٩)، أسد الغابة الترجمة رقم (٩٧٩)، تهذيب الكمال (٢٢٣)، تهذيب التهذيب (١/١١٦)، خلاصة تذهيب الكمال (٦٩)، تهذيب ابن عساكر (٤/٨)، العقد الثمين (٤/٣٢).

له كلمة، كأنى أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا: يا أبا جابر مـا تستطيع وأنت سيد من ساداتنا أن تتخذ مثل نعلى هذا الفتى مـن قريش؟! فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه، ثم رمى بهما إلى فقال: والله لتنتعلنهما، قال: يقول أبو جابر: مه، أحفظت والله الفتى، فاردد إليه نعليه. قلت: والله لا أردهما، فأل والله صالح، والله لئن صدق الفأل لأسلبنه[١].

وفى حديث غير كعب أنهم أتوا عبد الله بن أبى سلول، فقالوا: مثل ما ذكر كعب من القول، فقال لهم: إن هذا لأمر جسيم، ما كان قومى ليتفوتوا على بمثل هذا، وما علمته كان، فانصرفوا عنه.

ونفر الناس من منى، فتنطس[٢] القوم الخبر، فوجدوه قد كان، وخرجوا فى طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر والمنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة، وكلاهما كان نقيبًا، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسع[٣] رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة، يضربونه ويجذبونه بجمته، وكان ذا شعر كثير.

قال سعد: فوالله، إنى لفى أيديهم إذ طلع علىَّ نفرٌ من قريش فيهم رجل وضيء أبيض شعشاع حلو من الرجال، قال فقلت فى نفسى: إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا، فلما دنا منى، رفع يده فلكمنى لكمة شديدة، فقلت فى نفسى: لا والله، ما عندهم بعد هذا من خير، فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى إذ أوى إلى رجل ممن معهم، فقال لى: ويحك! أما بينك وبين أحد من قريش تجارة ولا عهد؟ فقلت: بلى والله لقد كنت أجيز لجبير بن مطعم تجارة وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى، وللحارث بن حرب ابن أمية. قال: ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما.

قال: ففعلت، وخرج ذلك الرجل إليهما، فوجدهما عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ليهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جوارًا، قالا: ومن هو؟ قال: سعد بن عبادة، قالا: صدق والله، إن كان ليجيز لنا تجارنا ويمنعهم

(١) انظر الحديث فى: مستدرك الحاكم (٣/١٨١)، فتح البارى لابن حجر (٣/٢٦٢).

(٢) تنطس القوم: تنطس عن الأخبار أى بحث وكل مبالف فى شىء متنطس وتنطست الأخبار تجسستها. انظر: اللسان (مادة تنطس).

(٣) النسع: هو سير يضفر على هيئة لأعنة النعال تشد به الرحال، والجمع أنساع ونسوع ونسع، والقطعة منه نسعة، وقيل: هو سير مضفور يجعل زمامًا وغيره وقد تنسج عريضة تجعل على صدور البعير. انظر: اللسان (مادة نسع).

أن يظلموا ببلده، قال: فجاءا فخلصا سعدًا من أيديهم، وكان الذى لكم سعدًا سهيل ابن عمرو[١].

قال ابن هشام: والذى أوى له أبو البحترى بن هشام.

قال ابن إسحاق[٢]: فكان أول شعر قيل فى الهجرة بيتين قالهما ضرار بن الخطاب ابن مرداس[٣]، أخو بنى محارب بن فهر. قال:

تداركت سعدًا عنوة فأخذته ... وكان شفاء لو تداركت منذرًا
ولو نلته ظلت هناك جراحة ... وكان حقيقًا أن يهان ويهدرا

فأجابه حسان بن ثابت[٤] فقال:

ولست إلى عمرو ولا المرء منذر ... إذا ما مطايا القوم أصبحن ضمرًا
فلولا أبو وهب لمرت قصائد ... على شرف البرقاء يهوين حسرا
أتفخر بالكتان لما لبسته ... وقد تلبس الأنباط ريطا مقصرا
فلا تك كالوسنان يحلم أنه ... بقرية كسرى أو بقرية قيصرا
ولا تك كالثكلى وكانت بمعزل ... عن الثكل لو كان الفؤاد تفكرا
ولا تك كالشاة التى كان حتفها ... بحفر ذراعيها فلم ترض محفرا
ولا تك كالعاوى فأقبل نحره ... ولم يخشه سهم من النبل مضمرا
فإنا ومن يهدى القصائد نحونا ... كمستبضع تمرا إلى أرض خيبرا

قال[٥]: فلما قدموا المدينة أظهروا الإسلام، وفى قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك، منهم: عمرو بن الجموح، وكان ابنه معاذ شهد العقبة وبايع بها رسول الله ﷺ، وكان عمرو سيدًا من سادات بنى سلمة، وشريفًا من أشرافهم، وكان

---

(١) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٢/٤٤، ٤٤٩)، مسند الإمام أحمد (٣/٤٦٠، ٤٦٢)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/٤٥)، مستدرك الحاكم (٣/٢٥٢).

(٢) انظر: السيرة (٢/٥٨ - ٥٩).

(٣) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٢٦٠)، الإصابة الترجمة رقم (٤١٩٣)، أسد الغابة الترجمة رقم (٢٥٦٣)، تجريد أسماء الصحابة (١/٢٧١)، الثقات (٣/٢٠٠)، الوافى بالوفيات (١٦/٣٦٣)، تاريخ بغداد (١/٢٠٠).

(٤) انظر ترجمته فى: الاستيعاب (١/٤٠٠) الترجمة رقم (٥٢٥)، الإصابة الترجمة رقم (١٧٠٩)، أسد الغابة الترجمة رقم (١١٥٣).

(٥) انظر: السيرة (٢/٦٠).

قد اتخذ فى داره صنمًا من خشب، يقال له: مناة، كما كانت الأشراف يصنعون، يتخذه إلهًا يعظمه، ويطهره، فلما أسلم فتيان بنى سلمة، ابنه معاذ، ومعاذ بن جبل فى فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه فى بعض حفر بنى سلمة، وفيها عذر الناس، منكسًا على رأسه.

فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم، من عدا على آلهتنا هذه الليلة، ثم يغدو يلتمسه، حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه، ثم قال: أما والله، لو أعلم من فعل بك هذا لأخزيته، فإذا أمسى ونام عمرو، عدوا عليه ففعلوا به مثل ذلك، فيغدو فيجده فى مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويطهره ويطيبه، ثم يعدون عليه إذا أمسى، فيفعلون به مثل ذلك، فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يومًا، فغسله وطهره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال له: إنى والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك، فلما أمسى ونام عمرو، عدوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة فيها عذر من عذر الناس، وغدا عمرو بن الجموح فلم يجده فى مكانه.

فخرج يتتبعه حتى وجده فى تلك البئر منكسًا مقرونا بكلب ميت، فلما رآه أبصر شأنه، وكلمه من أسلم من قومه فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف يذكر صنمه ذلك، وما أبصره من أمره، ويشكر الله الذى أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة:

والله لو كنت إلهًا لم تكن ... أنت وكلب وسط بئر فى قرن[(١)]
أف لملقاك إلهًا مستدن ... الآن فتشناك من سوء الغبن[(٢)]
الحمد لله العلى ذى المنن ... الواهب الرزاق ديان الدين
هو الذى أنقذنى من قبل أن ... أكون فى ظلمة قبر مرتهن

قال ابن إسحاق[(٣)]: وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له فى الحرب ولم تحلل له الدماء، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله تبارك وتعالى، والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل، فكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم

---

(١) القرن: بفتح القاف والراء، قيل: هو شىء من لحاء شجر يفتل منه حبل، وقيل: الحبل من اللحاء، وقيل: هو الخصلة المفتولة من العهن.

(٢) مستدن: أى ذليل مستبعد، وقال السهيلى فى الروض الأنف: هو من السدانة وهى خدمة البيت. والغبن: يكون فى الرأى تقول غبن رأى فلان كما تقول سفهت نفس فلان.

(٣) انظر: السيرة (٢/٧٤ - ٧٥).

عن بلادهم، فهم من بين مفتون فى دينه وبين معذب فى أيديهم وبين هارب فى البلاد، منهم بأرض الحبشة، ومنهم بالمدينة وفى كل وجه.

فلما عتت قريش على الله وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذبوا نبيه وعذبوا ونفوا من عبده ووحده وصدق نبيه واعتصم بدينه، أذن الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ فى القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم، فكانت أول آية أنزلت فى إذنه فى الحرب وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم، فيما بلغنى عن عروة بن الزبير، وغيره من العلماء[١]، قول الله تبارك وتعالى: ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكانهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور**﴾ [الحج: ٣٩، ٤١].

ثم أنزل الله عليه: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة**﴾ أى حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ﴿**ويكون الدين لله**﴾ [البقرة: ١٩٣] أى وحتى يعبد الله لا يعبد غيره.

* * *

بدء الهجرة إلى المدينة

قال ابن إسحاق[٢]: فلما أذن الله تبارك وتعالى لرسوله فى الحرب، وبايعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: إن الله قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها، فخرجوا أرسالاً وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة[٣].

فكان أول من هاجر إليها من أصحاب رسول الله ﷺ من قريش من بنى مخزوم: أبو

---

(١) انظر الحديث فى: سنن الترمذى (٣١٧١)، سنن النسائى الكبرى (٦/٤١١)، المستدرك للحاكم (٢/٦٦)، تفسير ابن كثير (٥/٤٣٠).

(٢) انظر: السيرة (٢/٧٧).

(٣) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/١٦٩).

سلمة بن عبد الأسد[١]، هاجر إليها قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، وكان قدم مكة من أرض الحبشة، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجرًا[٢].

قالت أم سلمة: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لى بعيره ثم حملنى عليه وحمل معى ابنى سلمة فى حجرى، ثم خرج بى يقود بعيره، فلما رأته رجال بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها فى البلاد؟! قالت: فنزعوا خطام البعير من يده فأخذونى منه، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة، فقالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. فتجاذبوا بنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده! وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسنى بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة، ففرق بينى وبين زوجى وبين ابنى، فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح فما أزال أبكى حتى أمسى، سنة أو قريبًا منها. حتى مر بى رجل من بنى عمى فرأى ما بى فرحمنى فقال لبنى المغيرة: ألا تحرجون من هذه المسكينة! فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها.

فقالوا لى: الحقى بزوجك إن شئت. ورد بنو عبد الأسد إلى عند ذلك ابنى، فارتحلت بعيرى ثم أخذت بنى فوضعته فى حجرى، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة وما معى أحد من خلق الله، قلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجى.

حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة[٣]، أخا بنى عبد الدار، فقال: إلى أين يا بنت أبى أمية؟ قلت: أريد زوجى بالمدينة. قال: أوما معك أحد؟ قلت: لا والله، إلا الله وبنى هذا! قال: والله مالك من مترك. فأخذ بخطام البعير يقودنى معه يهوى بى، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه كان إذا بلغ

---

(١) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٣٠٤٣)، الإصابة الترجمة رقم (١٠٠٤٩)، أسد الغابة الترجمة رقم (٥٩٧٨)، تهذيب الكمال (١٦١٠)، تقريب التهذيب (٤٣٠/٢)، تهذيب التهذيب (١١٥/١٢).

(٢) انظر الحديث فى: فتح البارى لابن حجر (٢٦٨/٧)، تاريخ الطبرى (٥٦٥/١).

(٣) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٧٩٠)، الإصابة الترجمة رقم (٥٤٥٦)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٥٨٠)، الثقات (٢٦٠/٣)، تجريد أسماء الصحابة (٣٧٣/١)، تقريب التهذيب (١٠/٢)، تهذيب التهذيب (١٢٤/٧)، تهذيب الكمال (٩١٠/٢)، الجرح والتعديل (١٠٥٥/٦)، سير أعلام النبلاء (١٠/٣).

المنزل أناخ بى ثم استأخر عنى، حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى فحط عنه ثم قيده فى الشجر، ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فرحله ثم استأخر عنى فقال: اركبى، فإذا ركبت واستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه فقادنى حتى ينزل بى، فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة، فلما نظرنا إلى قرية بنى عمرو بن عوف وكان أبو سلمة بها، قال: زوجك فى هذه القرية فادخليها على بركة الله. ثم انصرف راجعًا إلى مكة، فكانت أم سلمة تقول: ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة، وما رأيت صاحبا كان أكرم من عثمان بن طلحة[١].

قال ابن إسحاق[٢]: ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبى سلمة، عامر بن ربيعة[٣] حليف بنى عدى بن كعب، معه امرأته ليلى بنت أبى حثمة بن غانم[٤]، ثم عبد الله بن جحش بن رئاب من بنى غنم بن ذودان بن أسد بن خزيمة حليف بنى أمية ابن عبد شمس، احتمل بأهله وبأخيه أبى أحمد [عبد][٥] بن جحش[٦]، وكان أبو أحمد رجلاً ضرير يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد، وكان شاعرًا وكانت عنده الفرعة بنت أبى سفيان بن حرب، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب.

فغلقت دار بنى جحش هجرة، فمر بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام فنظر إليها عتبة تخفق أبوابها يبابًا ليس فيها ساكن، فتنفس الصعداء ثم قال:

وكل دار وإن طالت سلامتها يومًا ستدركها النكباء والحوب

ولما خرج بنو جحش من دارهم عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها من عمرو بن علقمة أخى بنى عامر بن لؤى، فذكر ذلك عبد الله بن جحش، لما بلغه لرسول الله ﷺ،

---

(١) ذكر هذه القصة ابن حجر فى الإصابة (٨/٢٤٠)، البخارى فى التاريخ الكبير (٤/٨٠).

(٢) انظر: السيرة (٢/٧٧ - ٧٩).

(٣) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٣٣٥)، الإصابة الترجمة رقم (٤٣٣٩)، أسد الغابة الترجمة رقم (٢٦٩٣)، تجريد أسماء الصحابة (١/٢٨٤).

(٤) انظر ترجمتها فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٣٥١٦)، الإصابة الترجمة رقم (١١٧١٢)، أسد الغابة الترجمة رقم (٧٢٦١).

(٥) ما بين المعقوفتين ورد فى الأصل: «عبيد»، والتصحيح من السيرة، والاستيعاب.

(٦) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٣٨٨، ٢٨٦٠)، الإصابة الترجمة رقم (٩٥٠٥)، أسد الغابة الترجمة رقم (٥٦٦٩).

فقال له رسول الله ﷺ: «ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها دارًا فى الجنة خيرًا منها؟» قال: بلى. قال: «فذلك لك».

فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة كلمة أبو أحمد فى دارهم، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال الناس لأبى أحمد: يا أبا أحمد، إن رسول الله ﷺ يكره أن ترجعوا فى شىء أصيب منكم فى الله. فأمسك عن كلام رسول الله ﷺ.

وكان بنو غنم بن ذودان أهل الإسلام قد أوعبوا إلى المدينة مع رسول الله ﷺ هجرة رجالهم ونساءهم، فقال أبو أحمد بن جحش يذكر هجرة بنى أسد بن خزيمة من قومه إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسوله، وإيعابهم فى ذلك حين دعوا إلى الهجرة:

ولو حلفت بين الصفا أم أحمد ... ومروتها بالله برت يمينها
لنحن الأولى كنا بها ثم لم نزل ... بمكة حتى عاد غثا سمينها
بها خيمت غنم بن ذودان وانبنت ... وما أرعدت غنم وخف قطينها
إلى الله تعدو بين مثنى وواحد ... ودين رسول الله بالحق دينها

وقال أبو أحمد أيضًا:

ولما رأتنى أم أحمد غاديًا ... بذمة من أخشى بغيب وأرهب
تقول فإما كنت لا بد فاعلاً ... فيمم بنا البلدان ولتنأ يثرب
فقلت لها ما يثرب بمظنة ... وما يشأ الرحمن فالعبد يركب
إلى الله وجهى والرسول ومن يقم ... إلى الله يومًا وجهه لا يخيب
فكم قد تركنا من حميم مناصح ... وناصحة تبكى بدمع وتندب
يرى أن وترًا نأينا عن بلادنا ... ونحن نرى أن الرغائب نطلب(١)
دعوت بنى غنم لحقن دمائهم ... وللحق لما لاح للناس ملحب
أجابوا بحمد الله لما دعاهم ... إلى الحق داع والنجاح فأوعبوا
وكنا وأصحابًا لنا فارقوا الهدى ... أعانوا علينا بالسلاح وأجلبوا(٢)
كفوجين أما منهما فموفق ... على الحق مهدى وفوج معذب
طغوا وتمنوا كذبة وأزلهم ... عن الحق إبليس فخابوا وخيبوا

(١) الوتر: طلب الثأر، يريد أنه يستحق أن يطالبوا مخرجهم به. النأى: البعد. الرغائب: جمع رغيبة، وهى من العطاء الكثير.

(٢) أجلبوا: يروى بالجيم وبالحاء المهملة فمن رواه بالحاء المهملة فمعناه أعانوا، ومن واه بالجيم فمعناه أحدثوا جلبه وهى الصياح.

ورغنا إلى قول النبى محمد فطاب ولاة الحق منا وطيبوا
نمت بأرحام إليهم قريبة ولا قرب بالأرحام إذ لا تقرب
فأى ابن أخت بعدنا يأمننكم وأية صهر بعد صهرى يرقب
ستعلم يومًا أينا إذ تزايلوا وزيل أمر الناس للحق أصوب

ثم خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وعياش بن أبى ربيعة المخزومى[1]، حتى قدما المدينة.

قال عمر رضى الله عنه: لما أردنا الهجرة إلى المدينة اتعدت أنا وعياش بن أبى ربيعة، وهشام بن العاص التناضب من أضاة بنى غفار[2] فوق سرف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه. فأصبحت أنا وعياش عندها وحبس عنا هشام وفتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا بقباء، وخرج أبو جهل والحارث أخوه إلى عياش، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما حتى قدما علينا فقالا له: إن أمك نذرت أن لا تمس رأسها بمشط حق تراك ولا تستظل من شمس حتى تراك.

فرق لها، فقلت له: يا عياش، والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك لامتشطت! ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت. فقال: أبر قسم أمى، ولى هناك مال فآخذه.

قلت: والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما. فأبى على إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك قلت: أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتى هذه فإنها نجيبة ذلول، فالزم ظهرها فإن رابك من القوم ريب فانج عليها.

فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: والله يا أخى لقد استغلظت بعيرى هذا أفلا تعقبنى على ناقتك هذه؟ قال: بلى. قال: فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه رباطًا ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن!.

---

(١) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٠٣٢)، الإصابة الترجمة رقم (٦١٣٨)، أسد الغابة الترجمة رقم (٤١٤٥).

(٢) أضاة بنى غفار: الأضاءة الماء المستنقع من سيل، ويقال: هو مسيل الماء إلى الغدير، وغفار قبيلة من كنانة على عشرة أميال من مكة. انظر: معجم البلدان (١/٢١٤).

وفى غير حديث عمر أنهما دخلا به مكة نهارًا موثقًا ثم قالا: يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا[١].

قال عمر رضى الله عنه، فى حديثه: فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفًا ولا عدلاً ولا توبة، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تبارك وتعالى، فيهم وفى قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿**يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون**﴾ [الزمر: ٥٣][٢].

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: فكتبتها بيدى فى صحيفة وبعثت بها إلى هشام ابن العاص، قال: فقال هشام: لما أتتنى جعلت أقرؤها بذى طوى أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم فهمنيها. فألقى الله فى قلبى أنها إنما نزلت فينا وفيما كنا نقول فى أنفسنا ويقال فينا. فرجعت إلى بعيرى فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة. هذا ما ذكر ابن إسحاق فى شأن هشام.

وذكر ابن هشام عمن يثق به[٣] أن رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينة: من لى بعياش ابن أبى ربيعة، وهشام بن العاص؟ فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: أنا لك يا رسول الله بهما. فخرج إلى مكة فقدمها مستخفيًا، فلقى امرأة تحمل طعامًا، فقال لها: أين تريدين يا أمة الله؟ فقالت: أريد هذين المسجونين تعنيهما، فتبعها حتى عرف موضعيهما، وكانا محبوسين فى بيت لا سقف له، فلما أمسى تسور عليهما ثم أخذ مروة فوضعها تحت قيديهما ثم ضربهما بسيفه فقطعهما، فكان يقال لسيفه ذو المروة لذلك.

ثم حملهما على بعيره وساق بهما فعثر فدميت إصبعه فقال:

هل أنت إلا إصبع دميت   وفى سبيل الله ما لقيت

---

(١) انظر: السيرة (٢/٨٢).

(٢) انظر الحديث فى: مستدرك الحاكم (٢/٤٣٥)، السنن الكبرى للبيهقى (٩/١٤)، دلائل النبوة (٢/١٤٦)، تفسير الطبرى (٢٤/١١)، طبقات ابن سعد (٣/٢٧١)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/٦١)، كشف الأستار (٢/٣٧٠).

(٣) انظر: السيرة (٢/٨٣).

ثم قدم بهما المدينة على رسول الله ﷺ(١).

ثم تتابع المهاجرون أرسالا، فنزل طلحة بن عبيد الله وصهيب بن سنان على خبيب ابن إساف. بالسبخ، ويقال: بل نزل طلحة على أسعد بن زرارة.

قال ابن هشام(٢): وذكر لى أن صهيبًا حين أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكًا حقيرًا فكثر مالك عندنا وبلغت الذى بلغته، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك! والله لا يكون ذلك.

فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى؟ قالوا: نعم. قال: فإنى قد جعلت لكم مالى. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب»(٣)!.

قال ابن إسحاق(٤): وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين، ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة، ولم يتخلف معه أحد بمكة من المهاجرين، إلا من حبس أو فتن، إلا على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق، وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة فيقول له: لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحبًا. فيطمع أبو بكر أن يكونه(٥).

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ، وعرفوا أنه مجمع لحربهم، فاجتمعوا له فى دار الندوة، وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمرًا إلا فيها، يتشاورون ما يصنعون فى أمره.

فاعترض لهم إبليس فى هيئة شيخ جليل عليه بت(٦)، فوقف على باب الدار فى

---

(١) ذكره ابن حجر فى فتح البارى (٥٥٧/١)، وقال: من زيادات ابن هشام فى السيرة.

(٢) انظر: السيرة (٨٤/٢).

(٣) انظر الحديث فى: الحلية لأبى نعيم (١٥١/١، ١٥٣)، مستدرك الحاكم (٣٩٨/٣)، طبقات ابن سعد (٢٢٧/٣، ٢٢٨)، البداية والنهاية لابن كثير (١٧٣/٣، ١٧٤)، المطالب العالية لابن حجر (٣٥٥٢/٣).

(٤) انظر: السيرة (٢ - ٨٧).

(٥) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (٦٢/٦)، وقال: رواه الطبرانى وفيه عبد الرحمن بن بشير الدمشقى ضعفه أبو حاتم.

(٦) بت: بفتح الباء وتشديد التاء، الكساء الغليظ من صوف جيد أو خز يلبس كالعباءة ويدل على المكانة والشرف، وجمعه بتوت.

اليوم الذى اتعدوا له، ويسمى يوم الزحمة، فلما رأوه واقفًا على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون وعسى أن لا يعدمكم منه رأيًا ونصحًا قالوا: أجل، فادخل. فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قريش وغيرهم.

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأيًا، فتشاوروا ثم قال قائل: احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابًا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، زهيرًا والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم.

فقال الشيخ النجدى: لا والله، ما هذا لكم برأى، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه. فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأى فانظروا فى غيره.

فتشاوروا ثم قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدى: لا والله، ما هذا لكم برأى، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال لما يأتى به؟! والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حى من أحياء العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد، أديروا فيه رأيًا غير هذا، فقال أبو جهل: والله إن لى فيه لرأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم، قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفًا صارمًا ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعًا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم.

فقال الشيخ النجدى: القول ما قاله الرجل، هو الرأى لا رأى غيره. فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له. فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه، فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه

حتى ينام فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلى بن أبى طالب: نم على فراشي وتسج بردى هذا الحضرمى الأخضر فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شىء تكرهه منهم. وكان رسول الله ﷺ ينام فى برده ذلك إذا نام[١].

فاجتمعوا له وفيهم أبو جهل، فقال وهو على بابه: إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان لكم فيه ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم نار تحرقون فيها! وخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب فى يده ثم قال: نعم، أنا الذى أقول ذلك، أنت أحدهم.

وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه، وجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات: ﴿**يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لا يبصرون**﴾ [يس: ٩].

حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمدًا. قال: خيبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفلا ترون ما بكم؟!

فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يطلعون فيرون عليًا على الفراش متسجيًا برد رسول الله ﷺ فيقولون: والله، إن هذا لمحمد نائمًا عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام على عن الفراش، فقالوا: والله لقد صدقنا الذى كان حدثنا[٢].

فكان مما أنزل الله من القرآن فى ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له قول الله سبحانه: ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾ [الأنفال: ٣٠][٣].

---

(١) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٢/٤٦٨)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/١٧٦)، طبقات ابن سعد (١/٢١٢).

(٢) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٣/١٧٧)، فتح القدير للشوكاني (٤/٥١٠).

(٣) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (١/٣٤٨)، مجمع الزوائد للهيثمى (٧/٢٧)، مستدرك الحاكم (٣/٤).

وأذن الله تبارك وتعالى، عند ذلك لنبيه فى الهجرة.

* * *

ذكر الحديث عن خروج رسول الله ﷺ
وأبى بكر الصديق رضى الله عنه مهاجرين إلى المدينة

حدث[١] عروة بن الزبير، عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان لا يخطىء رسول الله ﷺ أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار، إما بكرة وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذى أذن الله فيه لرسوله فى الهجرة والخروج من مكة من بين ظهرانى قومه، أتانا بالهاجرة فى ساعة كان لا يأتى فيها، قالت: فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا من حدث.

فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس عليه رسول الله ﷺ وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء، فقال رسول الله ﷺ: أخرج عنى من عندك. فقال: يا نبى الله، إنما هما ابنتاى، وما ذاك فداك أبى وأمى؟.

فقال: «إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة». فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، قال: «الصحبة». قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك أن أحدًا يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ!.

ثم قال: يا نبى الله، إن هاتين الراحلتين قد كنت أعددتهما لهذا. وكان أبو بكر رجلاً ذا مال، فكان حين استأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة، فقال له: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا»، قد طمع بأن رسول الله ﷺ إنما يعنى نفسه، فابتاع راحلتين، فحبسهما فى داره يعلفهما إعدادًا لذلك.

واستأجر عبد الله بن أريقط رجلاً من بنى الديل بن بكر وكان مشركًا، يدلهما الطريق، ودفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

قال ابن إسحاق[٢]: ولم يعلم بخروج رسول الله ﷺ حين خرج أحد، إلا على بن أبى طالب، وأبو بكر الصديق، وآل أبى بكر. أما على فإن رسول الله ﷺ أخبره بخروجه، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت

(١) انظر: السيرة (٢/٩١).
(٢) انظر: السيرة (٢/٩٢).

عنده للناس، ولم يكن بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته.

فلما أجمع عليه السلام الخروج أتى أبا بكر فخرجا من خوخة[(١)] لأبى بكر فى ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار بثور، جبل بأسفل مكة، فدخلاه.

وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهارًا ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر، فكان يفعل ذلك، وأمر عامر بن فهيرة[(٢)] مولاه أن يرعى غنمه نهاره، ثم يريحها عليهما إذا أمسى فى الغار، فكان عامر يرعى رعيان أهل مكة فإذا أمسى أراح عليهما، فاحتلبا وذبحا، فإذا غدا عبد الله بن أبى بكر من عندهما إلى مكة، تبع عامر أثره بالغنم حتى يعفى عليه، وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام بما يصلحهما.

وذكر ابن هشام[(٣)] عن الحسن بن أبى الحسن قال: انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً فدخل أبو بكر قبله فلمس الغار لينظر فيه سبع أو حية، يقى رسول الله ﷺ بنفسه[(٤)].

ولما فقدت قريش رسول الله ﷺ طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها، وبعثوا القافة يتبعون أثره فى كل وجه، فوجد الذى ذهب قبل ثور أثره هناك، فلم يزل يتبعه حتى انقطع له لما انتهى إلى ثور. وشق على قريش خروج رسول الله ﷺ عنهم، وجزعوا لذلك، فطفقوا يطلبونه بأنفسهم فيما قرب منهم، ويرسلون من يطلبه فيما بعد عنهم، وجعلوا مائة ناقة لمن رده عليهم، ولما انتهوا إلى فم الغار، وقد كانت العنكبوت ضربت على بابه بعشاش بعضها على بعض، بعد أن دخله رسول الله ﷺ فيما ذكروا، قال قائل منهم: ادخلوا الغار، فقال أمية بن خلف: وما أربكم إلى الغار؟ إن عليه لعنكبوتًا أقدم من ميلاد محمد!

---

(١) خوخة: هى الكوة فى الجدار تؤدى الضوء، وقيل: هى باب صغير كالنافذة الكبيرة تكون بين بيتين ينصب عليها باب. انظر: اللسان (مادة خوخ).

(٢) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٣٤٦)، الإصابة الترجمة رقم (٤٤٣٣)، تلقيح المقال (٦٠٥٩/٢).

(٣) انظر: السيرة (٩٢/٢ - ٩٣).

(٤) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (١٨٠/٣)، فتح البارى لابن حجر (٢٧٩/٧).

قالوا: فنهى النبى ﷺ يومئذ عن قتل العنكبوت، وقال: «إنها جند من جنود الله»[(١)].

وخرج أبو بكر البزار فى مسنده من حديث أبى مصعب المكى، قال: أدركت زيد ابن أرقم، والمغيرة بن شعبة، وأنس بن مالك، يحدثون: أن النبى ﷺ لما كان ليلة بات فى الغار، أمر الله تبارك وتعالى شجرة فنبتت فى وجه الغار فسترت وجه النبى ﷺ، وأمر الله العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأمر الله عز وجل، حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار، وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبى ﷺ على قدر أربعين ذراعًا، معهم قسيهم وعصيهم، تقدم رجل منهم فنظر فرأى الحمامتين، فرجع فقال لأصحابه: ليس فى الغار شىء، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد.

فسمع قول النبى ﷺ فعرف أن الله قد درأ بهما عنه، فشمت عليهما وفرض جزاءهما، واتخذت فى حرم الله ففرخن. أحسبه قال: فأصل كل حمام فى الحرم من فراخهما.

وذكر قاسم بن ثابت فيما تولى شرحه من الحديث أن الله أنبت الراءة على باب الغار لما دخله رسول الله ﷺ، وأبو بكر رضى الله عنه، قال: وهى شجرة معروفة. قال غيره: تكون مثل قامة الإنسان، ولها زهر أبيض تحشى به المخاد للينه وخفته.

وحكى الواقدى: أن رسول الله ﷺ لما دخل الغار، دعا بشجرة كانت أمام الغار، فأقبلت حتى وقفت على باب الغار، فحجبت أعين الكفار وهم يطوفون فى الجبل.

وقال أبو بكر لرسول الله ﷺ يومئذ: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما!»[(٢)].

وأقام رسول الله ﷺ وأبو بكر معه فى الغار ثلاثًا، حتى إذا مضت الثلاثة وسكن عنهما الناس، أتاهما صاحبهما الذى استأجرا ببعيريهما، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر بسفرتهما، ونسيت أن تجعل لها عصامًا[(٣)]، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣/٢٤٠).

(٢) انظر الحديث فى: سنن الترمذى (٣٠٩٦)، مسند الإمام أحمد (٤/١)، طبقات ابن سعد (٣/١/١٢٣)، الدر المنثور للسيوطى (٣/٢٤٢)، كنز العمال للمتقى الهندى (٣٢٦١٤، ٣٢٥٦٨)، شرح السنة للبغوى (١٣/٣٦٦)، إتحاف السادة المتقين للزبيدى (٧/٦٨، ١١١)، مشكاة المصابيح للتبريزى (٥٨٦٨).

(٣) العصام: الحبل أو شبهه يشد على فم المزادة ونحوها ليحفظ باقيها أو تعلق منها فى وتد.

فيها عصام، فتحل نطاقها فتجعله عصامًا، ثم تعلقها بـه، فكـان يقـال لهـا: ذات النطـاق لذلك فيما ذكر ابن إسحاق(١).

وأما ابن هشام(٢) فذكر أنها إنما يقال لها: ذات النطاقين، وهو المشـهور عنهـا رضـى الله عنها، وذكر أنه سمع غير واحد من أهل العلم يفسره بأنهـا شـقت نطاقهـا باثنين، فعلقت السفرة بواحد وانتطقت بالآخر.

قال ابن إسحاق: فلما قرب أبو بكر الراحلتين إلى رسول اللـه ﷺ قـدم لـه أفضلهمـا، ثم قال: اركب فداك أبى وأمى. فقـال رسـول اللـه ﷺ: إنـى لا أركـب بعيرًا ليـس لى. قال: فهى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى. قالا: لا، ولكن ما الثمن الذى ابتعتهـا بـه؟ قال: كذا وكذا. قال: قد أخذتها بذلك. فركبا وانطلقا، وأردف أبـو بكـر خلفـه مـولاه عامر بن فهيرة ليخدمهما فى الطريق(٣).

قال(٤): فحدثت عن أسماء بنت أبى بكر قالت: لما خرج رسول اللـه ﷺ وأبـو بكـر أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل، فقالوا: أين أبـوك يـا ابنـة أبـى بكـر؟ قلـت: لا أدرى والله. فرفع أبو جهل يده وكان فاحشًا خبيثًا فلطم خدى لطمة طـرح منهـا قرطـى، ثـم انصرفوا فمكثنا ثلاث ليال ما ندرى أين وجه رسول الله ﷺ حتى أقبل رجـل مـن الجـن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب، وإن النـاس ليتبعونـه يسـمعون صوتـه وما يرونه، حتى خرج من أعلى مكة وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلا خيمتى أم معبد

هما نزلا بالبر ثم تروحا ... فأفلح من أمسى رفيق محمد

ليهن بنى كعب مكان فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد

قالت أسماء: فلمـا سـمعنا قولـه عرفنـا حيـث وجـه رسـول اللـه ﷺ وأن وجهـه إلى المدينة(٥).

---

(١) انظر: السيرة (٢/٩٣).

(٢) انظر: السيرة (٢/٩٣ - ٩٤).

(٣) انظر الحديث فى: صحيح البخارى كتاب الإيجارة (٢٢٦٣)، مسند الإمام أحمد (٦/٤٧٣، ٤٧٥).

(٤) انظر: السيرة (٢/٩٤).

(٥) انظر الحديث فى: الحاكم فى المستدرك (٣/٩، ١٠)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/١٩٢ - ١٩٤).

وعن غير ابن إسحاق وهو عندنا بالإسناد من طرق، أن أم معبد هذه امرأة من بنى كعب من خزاعة، وأن رسول الله ﷺ حين خرج من مكة مهاجرًا إلى المدينة هو وأبو بكر ومولاة عامر بن فهيرة ودليلهما الليثى عبد الله بن الأريقط مروا على خيمتى أم معبد الخزاعية[(١)] وكانت امرأة برزة جلدة تحتبى بفناء القبة ثم تسقى وتطعم، فسألوها لحمًا وتمرًا ليشتروه منها فلم يصيبوا عندها شيئًا من ذلك، وكان القوم مرملين مسنتين، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كسر الخمية فقال: «ما هذه الشاة يا أم معبد؟» قالت: شاة خلفها الجهد عن المغنم. قال: «هل بها من لبن؟» قالت: هى أجهد من ذلك. قال: «أتأذنين أن أحلبها؟» قالت: نعم، بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلبًا فاحلبها، فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح بيده ضرعها وسمى الله ودعا لها فى شاتها فتفاجت عليه ودرت واجترت، ودعا بإناء يربض الرهط فحلب فيه ثجا حتى علاه البهاء، ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا وشرب آخرهم، ثم أراضوا، ثم حلب فيه ثانيًا بعد بدء حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها وبايعها وارتحلوا عنها.

فقل ما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد[(٢)] يسوق أعنزًا عجافًا يتساوكن هزلاً ضخامهن قليل، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد؛ والشاء عازب حيال ولا حلوب فى البيت؟ قالت: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك من حاله كذا وكذا. قال: صفيه لى يا أم معبد: قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة أبلج الوجه حسن الخلق لم يعبه ثجلة ولم تزر به صعلة وسيم قسيم فى عينيه دعج وفى وعج وفى أشفاره غطف وفى عنقه سطع وفى صوته صحل وفى لحيته كثافة، أزج أقرن إن صمت فعليه الوقار وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل وأبهاه من بعيد وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق فصل لا نزر ولا هذر كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن، ربعة لا يائس من طول ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظرًا وأحسنهم قدرًا، له رفقاء يحفون به إن قال أنصتوا لقوله وإن أمر تبادروا لأمره محفود محشود لا عابس ولا مفند.

---

(١) هى: عاتكة بنت خالد بن منقذ بن ربيعة، أم معبد الخزاعية، ويقال: عاتكة بنت خالد بن مهاجرًا. انظر ترجمتها فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٣٤٥٧)، الإصابة الترجمة رقم (١١٤٥١)، أسد الغابة الترجمة رقم (٧٠٨٦).

(٢) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٣٢٠٩)، الإصابة الترجمة رقم (١٠٥٥١)، أسد الغابة الترجمة رقم (٦٢٦٢).

قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولقد هممت أن أصحبه ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً[1]. وأصبح صوت بمكة عال يسمعون الصوت بمكة علا يسمعون الصوت ولا يدرون من صاحبه، وهو يقول:

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين قالا خيمتى أم معبد
هما نزلاها بالهدى فاهتدت به ... فقد فاز من أمسى رفيق محمد
فيا لقصى ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا تجارى وسؤدد
ليهن بنى كعب مقام فتاتهم ... ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت ... له بصريح ضرة الشاة مزبد
فغادرها رهنا لديها لحالب ... يرددها فى مصدر ثم مورد

فلما سمع بذلك حسان بن ثابت جعل يجاوب الهاتف ويقول:

لقد خاب قوم زال عنهم نبيهم ... وقدس من يسرى إليهم ويغتدى
ترحل عن قوم فضلت عقولهم ... وحل على قوم بنور مجدد
هداهم به بعد الضلالة ربهم ... وأرشدهم من يتبع الحق يرشد
وهل يستوى ضلال قوم تسكعوا ... عمى وهداة يهتدى بمهتدى
لقد نزلت منهم على أهل يثرب ... ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
نبى يرى ما لا يرى الناس حوله ... ويتلو كتاب الله فى كل مسجد
وإن قال فى يوم مقالة غائب ... فتصديقها فى اليوم أو فى ضحى الغد
ليهن أبا بكر سعادة جده ... بصحبته من يسعد الله يسعد

وذكر أبو منصور محمد بن سعد الماوردى بإسناد له إلى قيس بن النعمان قال: لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر معه يستخفيان فى الغار فمرًا بعبد يرعى غنمًا فاستسقياه من اللبن فقال: والله ما لى شاة تحلب، غير أن هاهنا عناقا حملت أول الشاء. فقال رسول الله ﷺ: «ائتنا بها». فدعا لها رسول الله ﷺ بالبركة ثم حلب عسا فسقى أبا بكر، ثم حلب آخر فسقى الراعى، ثم حلب فشرب.

فقال العبد: من أنت؟ فوالله ما رأيت مثلك قط! فقال رسول الله ﷺ: «أتراك إن

---

(١) انظر الحديث فى: طبقات ابن سعد (١/١/١٥٥)، دلائل النبوة للبيهقى (١/٢٧٨)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/٥٦)، إتحاف السادة المتقين للزبيدى (٧/١٥٩، ١٨٦)، مشكاة المصابيح للتبريزى (٥٩٤٣)، كنز العمال للمتقى الهندى (٤٦٣٠٠).

حدثتك تكتم على؟» قال: نعم، قال: «فإنى محمد رسول الله». قال: أنت الذى تزعم قريش أنك صابئ؟ قال: «إنهم ليقولون ذلك».

قال العبد: فإنى أشهد أنك رسول الله، وأن ما جئت به الحق، وأنه ليس يفعل فعلك إلا نبى، ثم قال العبد: أتبعك؟ قال: «لا، حتى تسمع بنا أنا قد ظهرنا»(١).

وخرج البرقانى فى مصافحته من حديث البراء بن عازب(٢) رضى الله عنهما، وأورده الإمامان البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديثه قال: اشترى أبو بكر رضى الله عنه، من عازب رحلاً بثلاثة عشر درهمًا، فقال أبو بكر لعازب: مر البراء أن يحمله إلى أهلى. فقال له عازب: حتى تحدثنى كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكم.

قال: ارتحلنا من مكة فأحثثنا يومنا وليلتنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصرى هل أرى من ظل نأوى إليه، فإذا أنا بصخرة فانتهيت إليها فإذا بقية ظل لها، فنظرت بقية ظلها فسويته وفرشت لرسول الله ﷺ فروة وقلت: اضطجع يا رسول الله، فاضطجع، ثم ذهبت أنظر ما حوله هل أرى من الطلب أحدًا، فإذا أنا براعى غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها مثل الذى أريد، يعنى الظل. فسألته فقلت: لمن أنت يا غلام؟ قال: فلان، رجل من قريش سماه، فعرفته، فقلت: هل فى غنمك من لبن؟ قال: نعم، قلت: هل أنت حالب لى؟ قال: نعم، فاعتقل شاة من غنمه فأمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه، فقال هكذا، فضرب إحدى يديه على الأخرى فحلب لى كثبة من لبن وقد رويت معى لرسول الله ﷺ إداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد استيقظ، قلت: يا رسول الله اشرب، فشرب حتى رضيت، وقلت: قد آن الرحيل يا رسول الله، فارتحلنا والقوم يطلبوننا فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم(٣) على فرس له،

---

(١) ذكره ابن حجر فى المطالب العالية (٤٢٩٥).

(٢) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٧٤)، الإصابة الترجمة رقم (٦١٨)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٨٩)، مشاهير علماء الأمصار الترجمة رقم (٢٧٢)، جمهرة أنساب العرب (٣٤١)، العقد الفريد (٢٨٢/٥)، الوافى بالوفيات (١٠٤/١٠)، مرآة الجنان (١٤٥/١)، تقريب التهذيب (٩٤/١)، خلاصة تذهيب التهذيب (٤٦)، شذرات الذهب (٧٧/١، ٧٨)، طبقات الفقهاء (٥٢)، تاريخ الطبرى (١٩٢/١٠).

(٣) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٩٢١)، الإصابة الترجمة رقم (٣١٢٢)، أسد الغابة=

فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، وبكيت، قال: «لا تحزن إن الله معنا!».

قال: فلما دنا فكان بيننا وبينه قدر رمحين أو ثلاثة قلت: هذا الطلب يا رسول الله ﷺ قد بلغنا، وبكيت، قال: «ما يبكيك؟» فقلت: أما والله ما على نفسى أبكى، ولكنى أبكى عليك، فدعا عليه رسول الله ﷺ: «اللهم اكفناه بما شئت»، فساخت فرسه فى الأرض إلى بطنها، فوثب عنها وقال: يا محمد، قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجينى مما أنا فيه، فوالله لأعمين على من ورائى من الطلب، وهذه كنانتى فخذ منها سهمًا فإنك ستمر على إبلى وغنمى بمكان كذا وكذا، فخذ منها حاجتك، فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لى فى إبلك»، ودعا له، فانطلق راجعًا إلى أصحابه. وفى حديث البخارى ومسلم: فجعل لا يلقى أحدًا إلا قال: قد كفيتكم ما هنا. فلا يلقى أحدًا إلا ردة. قال: ووفى لنا[1].

وعن سراقة بن مالك بن جعشم فيما أورده ابن إسحاق[2] قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجرًا إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم. قال: فبينما أنا جالس فى نادى قومى أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال: والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على آنفا، إنى لأراهم محمدًا وأصحابه، قال: فأومأت إليه، يعنى أن أسكت، ثم قلت: إنما هم بنو فلان يتبعون ضالة لهم. قال: لعله. ثم سكت.

فمكثت قليلاً ثم قمت فدخلت بيتى، ثم أمرت بفرسى فقيد لى إلى بطن الوادى وبسلاحى فأخرج لى من دبر حجرتى، ثم أخذت قداحى التى أستقسم بها، ثم انطلقت فلبست لامتى، ثم أخرجت قداحى، فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره: لا يضره. وكنت أرجو أن أرده على قريش فآخذ المائة، فركبت على أثره، فبينا فرسى يشتد بى عثر بى فسقطت عنه، فقلت: ما هذا؟! ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها

=الترجمة رقم (١٩٥٥)، تجريد أسماء الصحابة (٢١٠/١)، تقريب التهذيب (٢٨٤/١)، تهذيب التهذيب (٤٥٦/٣)، تهذيب الكمال (٤٦٦/١)، شذرات الذهب (٣٥/١)، الأعلام (٨٠/٣)، الأنساب (١١٦/٧)، العقد الثمين (٥٢٣/٤).

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٢٤٦/٤، ٥/٤)، صحيح مسلم (٢٣١٠)، مسند الإمام أحمد (٢/١، ٣)، مصنف ابن أبى شيبة (٣٢٨/١٤)، دلائل النبوة للبيهقى (٤٧٨/٢، ٤٨٥)، مجمع الزوائد للهيثمى (٥٢/٦)، شرح السنة للبغوى (٣٦٩/١٣)، الدر المنثور للسيوطى (٢٣٩/٣)، فتح البارى لابن حجر (٨/٧).

(٢) انظر: السيرة (٩٦/٢ - ٩٧).

فخرج السهم الذى أكره: لا يضره. فأبيت إلا أن أتبعه، فركبت فى أثره، فبينا فرسى يشتد بى عثر بى فرسى وذهبت يداه فى الأرض وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعها دخان كالإعصار، فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى وأنه ظاهر، فناديت القوم: أنا سراقة بن جعشم، انظرونى أكلمكم، فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه.

فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر رضى الله عنه: «قل له: ما تبتغى؟» قال: تكتبوا لى كتابًا يكون آية بينى وبينك. قال: «اكتب يا أبا بكر».

فكتب لى كتابًا فى عظم أو فى رقعة أو فى خرقة ثم ألقاه إلى، فأخذته فجعلته فى كنانتى، ثم رجعت فلم أذكر شيئًا مما كان، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله ﷺ وفرغ من حنين والطائف خرجت ومعى الكتاب لألقاه فلقيته بالجعرانة فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار فجعلوا يقرعوننى بالرماح ويقولون: إليك إليك ماذا تريد؟، فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته، والله لكأنى أنظر إلى ساقه فى غرزه كأنها جمارة، فرفعت يدى بالكتاب ثم قلت: يا رسول الله هذا كتابك لى، أنا سراقة بن جعشم. فقال رسول الله ﷺ: يوم وفاء وبر ادْنُ. فدنوت فأسلمت. ثم تذكرت شيئًا أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره، إلا أنى قلت: يا رسول الله الضالة من الإبل تغشى حياضى وقد ملأتها لإبلى، هل لى من أجر فى أن أسقيها؟ قال: «نعم، فى كل ذات كبد حرى أجر»[1]. ثم رجعت إلى قومى فسقت إلى رسول الله ﷺ صدقتى.

وفى حديث آخر عن غير ابن إسحاق أن سراقة بن مالك بن جعشم هذا كان شاعرًا مجيدًا، وأنه قال يخاطب أبا جهل بن هشام بعد انصرافه عن رسول الله ﷺ:

أبا حكم والله لو كنت شاهدا ... لأمر جوادى إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمدًا ... رسول ببرهان فمن ذا يقاومه
عليك بكف القوم عنه فإننى ... أرى أمره يومًا ستبدو معالمه
بأمر يود الناس فيه بأسرهم ... بأن جميع الناس طرا يسالمه

وذكر ابن إسحاق من رواية يونس بن بكير عنه شعرًا نسبه إلى أبى بكر الصديق

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (١٧٥/٤)، سنن ابن ماجه (٣٦٨٦)، مستدرك الحاكم (٦١٩/٣)، مسند الحميدى (٩٠٢)، مجمع الزوائد للهيثمى (١٣١/٣) وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات.

رضى الله عنه يذكر فيه مسيره مع رسول الله ﷺ وقصة الغار وأمر سراقة، وهو:

قال النبى ولم يجزع يوقرنى ... ونحن فى سدفة من ظلمة الغار
لا تخش شيئًا فإن الله ثالثنا ... وقد توكل لى منه بإظهار
وإنما كيد من تخشى بوادره ... كيد الشياطين كادته لكفار
والله مهلكهم طرا بما كسبوا ... وجاعل المنتهى منهم إلى النار
وأنت مرتحل عنهم وتاركهم ... إما غدوا وإما مدلج سارى
وهاجر أرضهم حتى يكون لنا ... قوم عليهم ذوو عز وأنصار
حتى إذا الليل وارتنا جوانبه ... وسد دون الذى نخشى بأستار
سار الأريقط يهدينا وأنيقه ... ينعين بالقرم نعيًا تحت أكوار
يعسفن عرض الثنايا بعد أطولها ... وكل سهب رقاق الترب موار
حتى إذا قلت قد أنجدن عارضها ... من مدلج فارس فى منصب وار
يردى به مشرف الأقطار معتزم ... كالسيد ذى اللبدة المستأسد الضارى
فقال كروا فقلنا إن كرتنا ... من دونها لك نصر الخالق البارى
إن يخسف الأرض بالأحوى وفارسه ... فانظر إلى أربع فى الأرض غوار
فهيل لما رأى أرساغ مقربه ... قد سخن فى الأرض لم تحفر بمحفار
فقال هل لكم أن تطلقوا فرسى ... وتأخذوا موثقى فى نصح أسرار
وأصرف الحى عنكم إن لقيتهم ... وأن أعور منهم عين عوار
فادع الذى هو عنكم كف عدوتنا ... يطلق جوادى وأنتم خير أبرار
فقال قولاً رسول الله مبتهلاً ... يا رب إن كان منه غير إخفار
فنجه سالمًا من شر دعوتنا ... ومهر مطلقًا من كلم آثار
فأظهر الله إذ يدعو حوافره ... وفاز فارسه من هول أخطار

وسراقة بن مالك هذا الذى أظهر الله فيه هذا العلم العظيم من أعلام نبوة نبينا محمد ﷺ، قد أظهر الله فيه أثرًا آخر من الآثار الشاهدة له عليه السلام بأن الله أطلعه من الغيب فى حياته ما ظهر مصداقه بعد وفاته.

روى سفيان بن عيينة، عن أبى موسى، عن الحسن، أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبست سوارى كسرى؟!»[1] قال: فلما أتى عمر رضى الله عنه، بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة بن مالك فألبسه إياهما.

---

(١) انظر الحديث فى: إتحاف السادة المتقين للزبيدى (١٨/٧)، كشفا الخفاء للعجلونى (٦٧٤/١).

وكان سراقة رجلاً أزب كثير شعر الساعدين، وقال له: ارفع يديك فقل: الله أكبر! الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز الذى كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابيًا من بنى مدلج!! ورفع بها عمر رضى الله عنه، صوته.

قال ابن إسحاق(١): وذكر إسنادًا رفعه إلى أسماء بنت أبى بكر، قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وخرج معه أبو بكر احتمل أبو بكر ماله كله، خمسة آلاف أو ستة، فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره، فقال: والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه. فقلت: يا أبت إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا. فأخذت أحجارًا فوضعتها فى كوة كان أبى يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوبًا ثم أخذت بيده فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه ثم قال: لا بأس إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفى هذا بلاغ لكم، ولا والله ما ترك لنا شيئًا، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك(٢).

وذكر ابن إسحاق الطريق التى سلك برسول الله ﷺ وبأبى بكر الصديق رضى الله عنه دليلهما عبد الله بن أريقط، والمناقل التى سار بهما عليهما إلى أن قدم بهما قباء على بنى عمرو بن عوف لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول يوم الاثنين، حين اشتد الضحى وكادت الشمس تعتدل(٣).

وقال غير ابن إسحاق: قدمها لثمان خلون من ربيع الأول.

وقال ابن الكلبى: خرج من الغار يوم الاثنين أول يوم من ربيع الأول، ووصل المدينة يوم الجمعة لاثنتى عشرة منه. فالله تعالى أعلم.

وذكر ابن إسحاق(٤): من حديث عبد الرحمن بن [عويم](٥) بن ساعدة، قال: حدثنى رجال من قومى من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: لما سمعنا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة توكفنا قدومه، فكنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظره، فوالله

(١) انظر: السيرة (٢/٩٥ - ٩٦).
(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٦/٣٥٠)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/٥٩).
(٣) انظر: السيرة (٢/٩٨ - ٩٩).
(٤) انظر: السيرة (٢/١٠٠).
(٥) ما بين المعقوفتين ورد فى الأصل: «عويمر»، والتصحيح من السيرة والاستيعاب.
وانظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٤٥٦)، الإصابة الترجمة رقم (٦٢٤٤)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٣٧٢)، التاريخ الكبير (٥/٣٢٥).

ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال، فإذا لم نجد ظلا دخلنا، وذلك فى أيام حارة.

حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا، وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت، فكان أول من رآه رجل من يهود وقد رأى ما كنا نصنع وأنا ننتظر قدوم رسول الله ﷺ علينا، فصرخ بأعلى صوته: يا بنى قيلة هذا جدكم قد جاء.

فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وهو فى ظل نخلة ومعه أبو بكر فى مثل سنه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك، وركبه الناس، وما يعرفونه من أبى بكر حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفناه عند ذلك(١).

قال ابن إسحاق(٢): فنزل رسول الله ﷺ فيما يذكرون على كلثوم بن هدم(٣)، أخى بنى عمرو بن عوف. ويقال: بل نزل على سعد بن خيثمة.

ويقول من يذكر نزوله على كلثوم أنه ﷺ كان إذا خرج من منزل كلثوم جلس للناس فى بيت سعد بن خيثمة، لأنه كان عزبًا لا أهل له، فمن هناك يقال: نزل عليه. وكان يقال لبيت سعد: بيت العزاب، لأنه كان منزل المهاجرين منهم. فالله أعلم أى ذلك كان(٤).

ونزل أبو بكر الصديق رضى الله عنه، على خبيب بن إساف(٥)، أحد بنى الحارث ابن الخزرج بالسنح، ويقال: على خارجة بن زيد بن أبى زهير(٦) منهم.

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى كتاب مناقب الأنصار (٢٨١/٧، ٢٨٢)، طبقات ابن سعد (٢٣٣/١)، دلائل النبوة للبيهقى (٤٩٨/٢، ٤٩٩)، شرح السنة للبغوى (١٠٩/٧).

(٢) انظر: السيرة (١٠٠/٢).

(٣) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٢٣٧)، الإصابة الترجمة رقم (٧٤٥٩)، أسد الغابة الترجمة رقم (٤٤٩٤)، طبقات ابن سعد (١٤٩/٢/٣)، تاريخ خليفة (٥٥)، الاستبصار (٢٩٣).

(٤) ذكره الطبرى فى تاريخه (٥٧١/١)، ابن كثير فى السيرة (٢٧٠/٢)، ابن سعد فى الطبقات (٢٣٣/١).

(٥) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٦٥١)، الإصابة الترجمة رقم (٢٢٢٤)، أسد الغابة الترجمة رقم (١٤١٣)، تجريد أسماء الصحابة (١٥٦/١)، الاستبصار (١٨٦)، تبصير المنتبه (٩٢٧/٣)، الطبقات الكبرى (٣٦٠/٨).

(٦) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٦٠٨)، الإصابة الترجمة رقم (٢١٤٠)، أسد الغابة=

وأقام علي بن أبي طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ فنزل معه. فكان علي رضي الله عنه، وإنما كانت إقامته بقباء ليلة أو ليلتين، يقول: كانت بقباء امرأة مسلمة لا زوج لها، فرأيت إنسانًا يأتيها من جوف الليل فيضرب عليها بابها فتخرج إليه فيعطيها شيئًا معه فتأخذه.

قال: فاستربت شأنه، فقلت لها: يا أمة الله، من هذا الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئًا لا أدري ما هو، وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف، قد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها ثم جاءني بها فقال: احتطبي بهذا! فكان علي رضي الله عنه، يأثر ذلك في أمر سهل بن حنيف، حين هلك عنده بالعراق[1].

قال ابن إسحاق[2]: فأقام رسول الله ﷺ بقباء في بني عمرو بن عوف يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسس مسجدهم[3]، ثم أخرجه الله تعالى، من بين أظهرهم يوم الجمعة. وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك، فالله أعلم.

فأدركت رسول الله ﷺ الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي، وادي رانوناء، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة[4].

فأتاه عتبان بن مالك[5]، وعباس بن عبادة بن نضلة[6]، في رجال من بني سالم، فقالوا: يا رسول الله، صلى الله عليك، أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة. قال: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة لناقته، فخلوا سبيلها».

=الترجمة رقم (١٣٣٠)، تجريد أسماء الصحابة (١٤٧/١)، سير أعلام النبلاء (٤٣٧/٤، ٤٤٦)، روضات الجنات (٣،٢٧٥)، الاستبصار (١١٥/١)، الثقات (١١١/٣).

(١) ذكره الصالحي في السيرة الشامية (٣٧٩/٣)، ابن سيد الناس في عيون الأثر (٣١٢/١).

(٢) انظر: السيرة (١٠٢/٢).

(٣) انظر الحديث في: صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار (٣٩٣٢).

(٤) ذكره الطبري في تاريخه (٧/٢)، ابن كثير في البداية والنهاية (٢١٣/٣، ٢١٤).

(٥) انظر ترجمته في: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٠٤٢)، الإصابة الترجمة رقم (٥٤١٢)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٥٤١).

(٦) انظر ترجمته في: الاستيعاب (١٣٨٥)، الإصابة الترجمة رقم (٢٥٢٥)، أسد الغابة الترجمة رقم (٢٧٩٨).

فانطلقت حتى إذا وازنت دار بنى بياسة تلقاه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو، فى رجال من بنى بياضة، فقالوا: يا رسول الله، هلم إليها إلى العدد والعدة والمنعة. «قال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فخلوا سبيلها».

حتى إذا مرت بدار بنى ساعدة اعترضه سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو فى رجال منهم، فقالوا: يا رسول الله، هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة، قال: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فخلوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا وازنت دار بنى الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد بن أبى زهير، وعبد الله بن رواحة فى رجال من بلحارث، فقالوا: يا رسول الله، هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة. قال: خلو سبيلها فإنها مأمورة. فخلوا سبيلها، فانطلقت حتى إذا مرت بدار بنى عدى بن النجار وهم أخواله دنيا أم عبد المطلب، سلمى بنت عمرو إحدى نسائهم، اعترضه سليط بن قيس وأبو سليط أسيرة بن أبى خارجة، فى رجال منهم، فقالوا: يا رسول الله، هلم إلى أخوالك إلى العدد والعدة والمنعة. قال. «خلوا سبيلها»، حتى إذا أتت دار بنى مالك بن النجار بركت على باب مسجده، وهو يومئذ مربد لغلامين يتيمين من بنى مالك بن النجار، فى حجر معاذ بن عفراء، فلما بركت ورسول الله ﷺ عليها لم ينزل وثبت، فسارت غير بعيد، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه، ثم تحلحلت ورزمت ووضعت جرانها، فنزل عنها رسول الله ﷺ فاحتمل أبو أيوب رحله فوضعه فى بيته.

ونزل عليه رسول الله ﷺ حتى بنى مسجده ومساكنه، وسأل عن المربد لمن هو؟ فقال له معاذ بن عفراء: هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو، وهما يتيما له وسأرضيهما منه، فاتخذه مسجدًا، فأمر به رسول الله ﷺ أن يبنى، وعمل فيه رسول الله ﷺ ليرغب المسلمين فى العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا[1].

فقال قائل من المسلمين:

لئن قعدنا والنبى يعمل ... لذاك منا العمل المضلل

وحدث[2] أبو أيوب قال: لما نزل على رسول الله ﷺ فى بيتى نزل فى السفل وأنا

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى كتاب مناقب الأنصار (٣٩٠٦)، صحيح مسلم كتاب الجهاد (١٢٩/٣)، مسند الإمام أحمد (٣٨١/٢)، سنن أبى داود حديث رقم (٤٥٣). سنن ابن ماجه (٧٤٢).

(٢) انظر: السيرة (١٠٦/٢ - ١٠٧).

وأم أيوب فى العلو، فقلت له: يا نبى الله بأبى أنت وأمى! إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى، فاظهر أنت فكن فى العلو وننزل نحن فنكون فى السفل. فقال: «يا أبا أيوب، إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن تكون فى سفل البيت»[(١)].

فلقد انكسر حب لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء، تخوفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شىء فيؤذيه.

فكنا نصنع له العشاء ثم نبعث به إليه، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه، نبتغى بذلك البركة، حتى بعثنا إليه بعشائه وقد جعلنا له فيه بصلاً أو ثومًا، فرده رسول الله ﷺ ولم أر ليده فيه أثرًا، فجئته فزعًا فقلت: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك، وكنت إذا رددته علينا تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغى بذلك البركة. قال: :نى وجدت فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجى، فأما أنتما فكلوه. فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة بعد[(٢)].

قال ابن إسحاق[(٣)]: وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس، ولم يوعب أهل هجرة من مكة بأهليهم وأموالهم إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسوله ﷺ، إلا أهل دور مسمون، بنو مظعون من بنى جمح، وبنو جحش ابن رئاب، حلفاء بنى أمية، وبنو البكير من بنى سعد بن ليث، حلفاء بنى عدى بن كعب، فإن دورهم غلقت بمكة هجرة، ليس فيها ساكن.

فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة إذ قدمها شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة، بنى له فيها مسجده ومساكنه. قال: وكانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ فيما بلغنى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن، نعوذ بالله أن نقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل، أنه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، أيها الناس، فقدموا لأنفسكم تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه، ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولى فبلغك وآتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك؟ فلينظرن يمينًا وشمالاً فلا يرى شيئًا، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم. فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٥/٤١٥)، صحيح مسلم كتاب الفتن (٣/١٧١).
(٢) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢٠١)، مستدرك الحاكم (٣/٤٦٠)، ورواه أبو بكر بن أبى شيبة وابن أبى عاصم كما فى الإصابة (١/٤٠٥).
(٣) انظر: السيرة (٢/١٠٧).

يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[(١)].

قال ابن إسحاق[(٢)]: ثم خطب رسول الله ﷺ الناس مرة أخرى فقال: «إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلح من زينه الله فى قلبه، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر، فاختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه، أحبوا ما أحب الله، أحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقس عنه قلوبكم، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى، فقد سماه الله خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد، والصالح من الحديث ومن كل ما أوتى الناس الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده، والسلام عليكم»[(٣)].

قال ابن إسحاق[(٤)]: وكتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم، واشترط عليهم وشرط لهم[(٥)].

---

(١) انظر ذكر أول خطبة للنبى ﷺ فى: المنتظم لابن الجوزى (٣/٦٥)، تاريخ الطبرى (٢/٣٩٤)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢١٣).

(٢) انظر: السيرة (٢/١٠٩).

(٣) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/٢١٤).

(٤) انظر: السيرة (٢/١٠٩).

(٥) ذكر ابن هشام فى السيرة نص ما اشتراطه النبى ﷺ على المهاجرين والأنصار، فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبى ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون الأولى، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على رعبتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم=

.. ..

=الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النبت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل «وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر، ولا ينصر كافر على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا، وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط مؤمنًا قتلا عن بينة، فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه، وأهل بيته، وإن اليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف، وإن البر دون الإثم، وإن موالى ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لا ينحجز على ثار جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى=

وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار، فقال فيما بلغنا ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل: تآخوا فى الله أخوين أخوين. ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال: هذا أخى. فكان رسول الله ﷺ، سيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين الذى ليس له خطير ولا نظير من العباد، وعلى بن أبى طالب أخوين.

ثم سمى ابن إسحاق نفرًا ممن آخى بينهم رسول الله ﷺ من أصحابه تركنا ذكرهم اختصارًا[١].

قال: وهلك فى تلك الأشهر أبو أمامة أسعد بن زرارة، والمسجد يبنى، أخذته الذبحة أو الشهقة، فقال رسول الله ﷺ: «بئس الميت أبو أمامة ليهود ولمنافقى العرب، يقولون: لو كان نبيًا لم يمت صاحبه! ولا أملك لنفسى ولا لصاحبى من الله شيئًا»[٢].

ولما مات أبو أمامة اجتمعت بنو النجار إلى رسول الله ﷺ وكان أبو أمامة نقيبهم، فقالوا: يا رسول الله، إن هذا كان منا حيث قد علمت، فاجعل منا رجلاً مكانه يقيم فى أمرنا ما كان يقيم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «أنتم أخوالى وأنا أولى بكم، فأنا نقيبكم»[٣]. وكره رسول الله ﷺ أن يخص بها بعضهم دون بعض. فكان من فضل بنى النجار الذى يعدون على قومهم أن كان رسول الله ﷺ نقيبهم.

=الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه وتلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك، فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب فى الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم، وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة».

قال ابن هشام: ويقال: مع البر المحسن من أهل هذه الصحيفة.

قال ابن إسحاق: «وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ».

انظر: السيرة (٢/١٠٩ - ١١٢)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢٢٤، ٢٢٥)،

(١) انظر السيرة (٢/١١٣ - ١١٦).

(٢) انظر الحديث فى: سنن ابن ماجه (٣٤٩٢)، مجمع الزوائد للهيثمى (٥/٩٨)، مستدرك الحاكم (٤/٢١٤).

(٣) انظر الحديث فى: مستدرك الحاكم (٣/١٨٦)، طبقات ابن سعد (٣/٦١١).

قال ابن إسحاق[(١)]: فلما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين واجتمع أمر الأنصار، استحكم أمر الإسلام فقامت الصلاة وفرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود وفرض الحلال والحرام وتبوأ الإسلام بين أظهرهم، وكان هذا الحى من الأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان.

وقد كان رسول الله ﷺ حين قدمها إنما يجتمع إليه الناس للصلاة فى حين مواقيتها بغير دعوة، فهم رسول الله ﷺ أن يجعل بوقًا كبوق يهود الذى يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة.

فبيناهم على ذلك رأى عبد الله بن زيد أخو بلحارث بن الخزرج النداء، فأتى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله، إنه طاف فى هذه الليلة طائف، مر بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسًا فى يده، فقلت: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعوا به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حى على الصلاة، حى على الصلاة، حى على الفلاح، حى على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.

فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فإنه أندى صوتًا منك».

فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو فى بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ وهو يجر رداءه وهو يقول: يا نبى الله والذى بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذى رأى. فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد»[(٢)].

وذكر ابن هشام[(٣)] عن عبيد بن عمير أن عمر بن الخطاب بينا هو يريد أن يشترى خشبتين للناقوس عندما ائتمر به النبى ﷺ وأصحابه إذ رأى فى المنام أن لا تجعلوا الناقوس، بل أذنوا بالصلاة، فذهب عمر إلى النبى ﷺ ليخبره بالذى رأى، فما راعه إلا

---

(١) انظر: السيرة (١١٧/٢).

(٢) انظر الحديث فى: سنن أبى داود (٤٩٩)، مسند الإمام أحمد (٤٣/٤)، السنن الكبرى للبيهقى (٣٩١/١)، سنن الدارمى (١١٨٧)، سنن الترمذى (١٨٩)، سنن الدارقطنى (٢٤١/١)، تلخيص الحبير لابن حجر (٢٠٨/٢)، البخارى فى خلق أفعال العباد (صـ٤٨)، الإرواء للألبانى (٢٦٥/١).

(٣) انظر: السيرة (١١٨/٢).

بلال يؤذن، وقد جاء النبى ﷺ الوحى بذلك. فقال رسول الله ﷺ حين أخبره: «سبقك بذلك الوحى»[(١)].

قال ابن إسحاق[(٢)]: فلما اطمأنت برسول الله ﷺ داره وأظهر الله بها دينه وسره بما جمع من المهاجرين والأنصار من أهل ولايته.

قال أبو قيس صرمة بن أبى أنس[(٣)]، أخو بنى عدى بن النجار، يذكر ما أكرمهم الله تبارك وتعالى، به من الإسلام، وما خصهم به من نزول رسول الله ﷺ عليهم:

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة ... يذكر لو يلقى صديقًا مواتيًا
ويعرض فى أهل المواسم نفسه ... فلم ير من يؤوى ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه ... فأصبح مسرورا بطيبة راضيا
وألفى صديقًا واطمأنت به النوى ... وكان له عونًا من الله [هاديا][(*)]
يقص لنا ما قال نوح لقومه ... وما قال موسى إذ أجاب المناديا
فأصبح لا يخشى من الناس واحدًا ... قريبًا ولا يخشى من الناس نائيا
بذلنا له الأموال من جل مالنا ... وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
ونعلم أن الله لا شىء غيره ... ونعلم أن الله أفضل هاديا
نعادى الذى عادى من الناس كلهم ... جميعًا وإن كان الحبيب المصافيا
أقول إذا أدعوك فى كل بيعة ... تباركت قد أكثرت لاسمك داعيا
أقول إذا جاوزت أرضًا مخوفة ... حنانيك لا تظهر على الأعاديا
فطأ معرضًا إن الحتوف كثيرة ... وإنك لا تبقى لنفسك باقيا
فوالله ما يدرى الفتى كيف يتقى ... إذا هو لم يجعل له الله واقيا
ولا تجعل النخل المقيمة ربها ... إذا أصبحت ريا وأصبح ثاويا

وكان أبو قيس هذا رجلاً قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح وفارق الأوثان واغتسل من الجنابة وتطهر من الحائض من النساء وهم بالنصرانية، ثم أمسك عنها، ودخل بيتًا له فاتخذه مسجدًا لا يدخل عليه فيه طامث ولا جنب، وقال: أعبد رب

---

(١) انظر الحديث فى: مصنف عبد الرازق (١/٤٥٦).

(٢) انظر: السيرة (٢/١١٩).

(٣) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٢٤٤)، أسد الغابة الترجمة رقم (٢٥٠١)، تجريد أسماء الصحابة (١/٢٦٤)، الأعلام (٣٠/٢٠٣)، تبصرة المنتبه (٣/٩٩٨).

(*) ما بين المعقوفتين كذا فى الأصل وورد فى السيرة «باديا».

إبراهيم. حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فأسلم وحسن إسلامه وهو شيخ كبير، وكان قوالاً بالحق معظمًا لله فى جاهليته يقول فى ذلك أشعارًا حسانًا، هو الذى يقول[(١)]:

يقول أبو قيس وأصبح غاديا ... ألا ما استطعتم من وصاتى فافعلوا
أوصيكم بالله والبر والتقى ... وأعراضكم والبر بالله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحسدنهم ... وإن كنتم أهل الرياسة فاعدلوا
وإن نزلت إحدى الدواهى بقومكم ... فأنفسكم دون العشيرة فاجعلوا
وإن ناب غرم فادح فارفقوهم ... وما حملوكم فى الملمات فاحملوا
وإن أنتم أمعرتم فتعففوا ... وإن كان فضل الخير فيكم فأفضلوا[(٢)]

وقال أبو قيس أيضًا[(٣)]:

سبحوا الله شرق كل صباح ... طلعت شمسه وكل هلال
عالم السر والبيان لدينا ... ليس ما قال ربنا بضلال
وله الطير تستدير وتأوى ... فى وكور من آمنات الجبال
وله الوحش بالفلاة تراها ... فى حقاف وفى ظلال الرمال
وله هودت يهود ودانت ... كل دين إذا ذكرت عضال
وله شمس النصارى وقاموا ... كل عيد لديهم واحتفال
وله الراهب الحبيس تراه ... رهن بؤس وكان ناعم بال
يا بنى الأرحام لا تقطعوها ... وصلوها قصيرة من طوال
واتقوا الله فى ضعاف اليتامى ... ربما يستحل غير الحلال
واعلموا أن لليتيم وليا ... عالمًا يهتدى بغير السؤال
ثم مال اليتيم لا تأكلوه ... إن مال اليتيم يرعاه والى
يا بنى النجوم لا تخزلوها ... إن خزل النجوم ذو عقال
يا بنى الأيام لا تأمنوها ... واحذروا مكرها ومر الليالى
واعلموا أن أمرها لنفاد الـ ... ـخلق ما كان من جديد وبالى
واجمعوا أمركم على البر والتقـ ... ـوى وترك الخنا وأخذ الحلال

---

(١) انظر الأبيات فى: السيرة (٢/١١٩).

(٢) أمعرتم: قال السهيلى: معناها افتقرتم، وقيل أمعر: أى افتقر وفنى زاده كمعر تمعيرًا، وأمعرت الأرض: لم يكن فيها نبات أو قل ماؤها.

(٣) انظر الأبيات فى: السيرة (٢/١٢٠).

قال ابن إسحاق[(١)]: ونصب عند ذلك أحبار يهود لرسول الله ﷺ العداوة بغيًا وحسدًا وضغنًا لما خص الله به العرب من أخذه رسوله منهم.

وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج، ممن كان عسى على جاهليته فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك والتكذيب بالبعث، إلا أن الإسلام قهرهم بظهوره واجتماع قومهم عليه، فظهروا بالإسلام واتخذوه جنة من القتل، ونافقوا فى السر فكان هواهم مع يهود لتكذيبهم النبى ﷺ وجحودهم الإسلام.

وكانت أحبار يهودهم الذين يسألون رسول الله ﷺ ويتعنتونه ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل، إلا ما كان من عبد الله بن سلام ومخيريق فكان القرآن ينزل فيما يسألون عنه إلا قليلاً من المسائل فى الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها.

وكان من حديث عبد الله بن سلام[(٢)] وإسلامه، وكان حبرًا عالمًا، قال: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكف له، فكنت مسرًا لذلك صامتًا عليه حتى قدم المدينة، فلما نزل بقباء فى بنى عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا فى رأس نخلة لى أعمل فيها، وعمتى خالدة بنت الحارث تحتى جالسة، لما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرت، فقالت لى عمتى حين سمعت تكبيرتى: خيبك الله! لو كنت سمعت موسى بن عمران قادمًا ما زدت!.

فقلت لها: أى عمة، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بعث بما بعث به. فقالت: أى ابن أخى، أهو النبى الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ فقلت لها: نعم. فقالت: فذاك إذا، قال: ثم رحت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى أهلى فأمرتهم فأسلموا وكتمت إسلامى من يهود. ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن يهود قوم بهت، وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبنى عنهم، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى، فإنهم إن علموا به بهتونى وعابونى.

---

(١) انظر: السيرة (١٢٢/٢).

(٢) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٥٧٩)، الإصابة الترجمة رقم (٤٧٤٣)، أسد الغابة الترجمة رقم (٢٩٨٦)، شذرات الذهب (٤٠/١، ٥٣)، تهذيب التهذيب (٢٤٩/٥)، تقريب التهذيب (٤٢٢/١)، خلاصة تذهيب (٦٤/٢)، الوافى بالوفيات (١٩٨/١٧)، الأعلام (٩٠/٤)، الثقات (٢٢٨/٣)، الرياض المستطابة (١٩٣).

قال: فأدخلنى رسول الله ﷺ فى بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه ثم قال لهم: أى رجل الحصين بن سلام فيكم؟ فقالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا.

فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة باسمه وصفته، فإنى أشهد أنه رسول الله ﷺ وأومن به وأصدقه وأعرفه. قالوا: كذبت. ثم وقعوا بى! فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا نبى الله أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور؟! قال: فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى، وأسلمت عمتى خالدة فحسن إسلامها[(١)].

قال ابن إسحاق[(٢)]: وكان من حديث مخيريق، وكان حبرًا عالمًا غنيًا كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد فى علمه، وغلب عليه إلف دينه فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أحد، وكان يوم السبت، قال: يا معشر يهود، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبت لكم، ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ وأصحابه بأحد وعهد إلى من وراءه من قومه: إن قتلت هذا اليوم فأموالى لمحمد يصنع فيها ما أراه الله.

فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل، وقبض رسول الله ﷺ أمواله، فعامة صدقاته بالمدينة منها. وكان ﷺ فيما بلغنى يقول: «مخيريق خير يهود»[(٣)].

قال[(٤)]: وحدثنى عبد الله بن أبى بكر، قال: حدثت عن صفية ابنة حيى أنها قالت: كنت أحب ولد أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر، لم ألقهما مع ولد لهما إلا أخذانى دونه، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة غدا عليه أبى وعمى مغلسين، فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلى واحد منهما مع ما بهما من الغم، وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى: أهو هو؟ قال: نعم والله.

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى كتاب الأنبياء (٣٣٢٩)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/٥٣٠، ٥٣١)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢١١).

(٢) انظر: السيرة (٢/١٢٦).

(٣) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢٣٧، ٤/٣٦)، طبقات ابن سعد (١/٥٠٢)، عيون الأثر لابن سيد الناس (١/٣٣٤).

(٤) انظر: السيرة (٢/١٢٦ - ١٢٧).

قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما فى نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[(١)].

وكان هذان الأخوان الشقيان من أشد يهود للعرب حسدًا لما خصهم الله برسوله ﷺ، فكانا جاهدين فى رد الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله عز وجل فيهما: **﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير﴾** [البقرة: ١٠٩].

ومر شأس بن قيس، وكان شيخا قد [عمى][(٢)] عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار.

فأمر شابًا من يهود كان معه فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعاث وما كان فيه وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار. وكان يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس، وكان عليها يومئذ حضير أبو أسيد بن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى فقتلا جميعًا.

ففعل الشاب ما أمره به شأس، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب وهما أوس بن قيظى وجبار بن صخر فتاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة. وغضب الفريقان جميعًا وقالوا: قد فعلنا موعدكم الظاهرة وهى الحرة، السلاح السلاح.

فخرجوا إليها، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين، الله الله! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم.

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من

---

(١) ذكره ابن سيد الناس فى عيون الأثر (١/٣٣٥).

(٢) ما بين المعقوفتين كذا فى الأصل وورد فى السيرة «عسا»، وعسا: أى اشتد وقوى، يريد أنه تمكن فى كفره فصعب إخراجه منه. انظر: السيرة (٢/١٦٢).

الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، وقد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس.

فأنزل الله تبارك وتعالى، فى شأن شأس وما صنع: ﴿**يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجًا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون**﴾ [آل عمران: ٩٩][1].

وأنزل الله فى أوس بن قيظى وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شأس من أمر الجاهلية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون**﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠٣].

قال[2]: وحدثت عن سعيد بن جبير أنه قال: أتى رهط من يهود رسول الله ﷺ فقالوا له: يا محمد، هذا الله خلق الخلق، فمن خلقه؟ قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى انتقع لونه، ثم ساورهم غضبًا لربه، فجاءه جبريل فسكنه فقال: خفض عليك يا محمد، وجاءه من الله بجواب ما سألوه عنه: ﴿**قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد**﴾.

فلما تلاها عليهم قالوا: فصف لنا يا محمد كيف خلقه؟ كيف ذراعة؟ كيف عضده؟ فغضب رسول الله ﷺ أشد من غضبه الأول وساورهم، فأتاه جبريل فقال له مثل ما قال أول مرة، وجاءه من الله تبارك وتعالى بجواب ما سألوه عنه، يقول الله جل وعلا: ﴿**وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ [الزمر: ٦٧][3].

---

(١) ذكره الطبرى فى تفسيره (٤/١٦).

(٢) انظر: السيرة (٢/١٧٨).

(٣) انظر الحديث فى: صحيح مسلم كتاب التفسير (٤/١٩)، صحيح البخارى (٤٨١١)، تفسير ابن جرير (١/٣٧٨).

ودخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه، بيت المدراس على يهود، فوجد منهم ناسًا كثيرًا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر من أحبارهم يقال له: أشيع، فقال أبو بكر لفنحاص: ويلك يا فنحاص؟ اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة والإنجيل.

فقال فنحاص لأبى بكر: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى، ولو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيًا ما أعطانا الربا! فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربًا شديدًا، وقال: والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت رأسك أى عدو الله. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ وقال: يا محمد، انظر ما صنع بى صاحبك.

فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولاً عظيمًا، إنه زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه.

فجحد ذلك فنحاص، وقال: ما قلت ذلك. فأنزل الله عز وجل، فيما قال فنحاص ردًا عليه وتصديقًا لأبى بكر: ﴿**لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق**﴾ [آل عمران: ١٨١][1].

ونزل فى أبى بكر وما بلغه فى ذلك من الغضب: ﴿**ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور**﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وكان ممن انضاف إلى يهود من المنافقين من الأوس والخزرج فيما ذكروا والله أعلم[2]: من الأوس: جلاس بن سويد بن الصامت من بنى حبيب بن عمرو بن عوف، وهو القائل، وكان ممن تخلف عن غزوة تبوك: لئن كان هذا الرجل صادقًا لنحن شر من الحمر.

---

(١) انظر الحديث فى: تفسير الطبرى (٤/١٢٩)، تفسير ابن كثير (٢/١٥٣).

(٢) انظر: السيرة (٢/١٢٧ - ١٣٠).

وكان في حجره عمير بن سعد، خلف جلاس على أمه بعد أبيه، فقال له عمير: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إليّ، وأحسنه عندى وأعزهم عليّ أن يصيبه شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لفضحنك، ولئن صمت عليها ليهلكن دينى، ولإحداهما أيسر على من الأخرى.

ثم مشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال جلاس، فحلف جلاس لرسول الله ﷺ بالله لقد كذب على عمير وما قلت ما قال.

فأنزل الله فيه: **﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيرًا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابًا أليمًا فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير﴾** [التوبة: ٧٤][(١)].

فزعموا أنه تاب فحسنت توبته حتى عرف منه الإسلام والخير. وأخوه الحارث بن سويد، قتل المجذر بن زياد البلوى. وذلك أن المجذر فيما ذكر ابن هشام، قتل أباه سويد بن الصامت بعض الحروب إذ كانت بين الأوس والخزرج، فلما كان يوم أحد طلب الحارث غرة المجذر ليقتله بأبيه، فقتله.

وذكر ابن إسحاق[(٢)] أن سويدا إنما قتله معاذ بن عفراء غيلة فى غير حرب، رماه بسهم فقتله قبل يوم بعاث. قال: وكان رسول الله ﷺ فيما يذكرون قد أمر عمر بن الخطاب بقتل الحارث إن هو ظفر به ففاته فكان بمكة، ثم بعث إلى أخيه جلاس يطلب التوبة ليرجع إلى قومه. فأنزل الله تبارك وتعالى فيه: **﴿كيف يهدى الله قومًا كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين﴾** [آل عمران: ٨٦]. إلى آخر القصة.

ونبتل بن الحارث من بنى ضبيعة بن زيد بن مالك، وهو القائل: إنما محمد أذن، من حدثه شيئًا صدقه. فأنزل الله تعالى: **﴿ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾** [التوبة: ٦١][(٣)].

---

(١) ذكره الطبرى فى تفسيره (١٠/١٢٧)، ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٠).

(٢) انظر: السيرة (٢/١٢٩).

(٣) انظر الحديث فى: أسباب النزول للواحدى (صـ٢٠٦)، الشوكانى فى فتح القدير (٢/٥٢٩).

وفيه قال رسول الله ﷺ فيما ذكر: «من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل ابن الحارث»[١]، وكان جسميًا أدلم ثائر شعر الرأس أحمر العينين.

وذكر أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال: إنه يجلس إليك رجل أدلم[٢] ثائر شعر الرأس أسفع الخدين[٣] أحمر العينين كأنهما قدران من صفر كبده أغلظ من كبد الحمار، ينقل حديثك إلى المنافقين، فاحذره. وكان تلك صفة نبتل بن الحارث فيما يذكرون.

وعمرو بن خذام، وعبد الله بن نبتل، وحارثة بن عامر بن العطاف وابناه زيد ومجمع وهم ممن اتخذ مسجد الضرار. وكان مجمع، غلامًا حدثا قد جمع من القرآن أكثره، وكان يصلى بهم فيه، فلما كان زمان عمر بن الخطاب كلم فى مجمع ليصلى بقومه بنى عمرو بن عوف فى مسجدهم، فقال: لا، أوليس بإمام المنافقين فى مسجد الضرار!.

فقال له مجمع: يا أمير المؤمنين، والله الذى لا إله إلا هو ما علمت بشىء من أمرهم، ولكنى كنت غلامًا قارئًا للقرآن وكانوا لا قرآن معهم، فقدمونى أصلى بهم وما أرى أمرهم إلا على أحسن ما ذكروا. فزعموا أن عمر رضى الله عنه، تركه فصلى بقومه[٤].

ومن الخزرج، ثم من بنى عوف: عبد الله بن أبى بن سلول، وكان رأس المنافقين وإليه يجتمعون. وهو الذى قال فى غزوة بنى المصطلق: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. وسيأتى ذكر ذلك مستوفى وبيان سببه عند الانتهاء إلى غزوة بنى المصطلق، إن شاء الله تعالى.

وقدم رسول الله ﷺ المدينة وسيد أهلها عبد الله بن أبى هذا، لا يختلف عليه فى شرفه من قومه اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين، حتى جاء الإسلام، ومعه فى الأوس رجل، هو فى قومه من الأوس شريف مطاع، أبو عامر عبد عمرو بن صيفى بن النعمان أحد بنى ضبيعة بن زيد، وهو أبو حنظلة الغسيل يوم أحد، وكان قد ترهب ولبس المسوح، فكان يقال له الراهب، فشقيا بشرفهما!.

أما عبد الله بن أبى فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ويملكوه عليهم، فجاءهم

---

(١) انظر: الحديث فى: البداية والنهاية (٣/٢٣٨).

(٢) أدلم: الرجل الأدلم: الطويل الأسود، ويقال: هو المسترخى الشفتين.

(٣) أسفع الخدين: أسفع من السفعة وهى حمرة تضرب إلى السواد.

(٤) انظر: السيرة (٢/١٣١).

الله تبارك وتعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك، فلما انصرف عنه قومه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكًا، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهًا مصرًا على نفاق وضغن[١].

وحدث أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ قال: ركب رسول الله ﷺ إلى سعد بن عبادة يعوده من شكو أصابه على حمار عليه ألحاف فوقه قطيفة فركبه فخطمه[٢] بحبل من ليف وأردفنى خلفه، فمر بعبد الله بن أبى وحوله رجال من قومه، فلما رآه رسول الله ﷺ تذمم أن يجاوزه حتى ينزل، فنزل فسلم ثم جلس فتلا القرآن ودعا إلى الله وذكر به وحذر وبشر وأنذر، وعبد الله زام لا يتكلم، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ قال: يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقا، فاجلس فى بيتك فمن جاءك فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغشه به ولا تأته فى مجلسه بما يكره.

فقال عبد الله بن رواحة فى رجال كانوا عنده من المسلمين: بل فاغشنا به وائتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا، فهو والله ما نحب ومما أكرمنا الله به وهدانا له.

فقال عبد الله حين رأى من خلاف قومه ما رأى:

متى ما يكن مولاك خصمك لم تزل ... تذل ويصرعك الذين تصارع
وهل ينهض البازى بغير جناحه ... وإن جد يومًا ريشه فهو واقع[٣]

قال: وقام رسول الله ﷺ فدخل على سعد بن عبادة وفى وجهه ما قال عدو الله ابن أبى، فقال: والله يا رسول الله، إنى لأرى فى وجهك شيئًا: لكأنك سمعت شيئًا تكرهه؟ قال: «أجل». ثم أخبره بما قال ابن أبى. فقال سعد: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فإنه ليرى أن قد سلبته ملكا!.

وأما أبو عامر فأبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام، وأتى رسول الله ﷺ حين قدم المدينة فقال: ما هذا الدين الذى جئت به؟ قال: «جئت بالحنيفية دين إبراهيم». قال: فأنا عليها. فقال له رسول الله ﷺ: «إنك لست عليها».

قال: إنك أدخلت يا محمد فى الحنيفية ما ليس منها. قال: «ما فعلت ولكنى جئت بها بيضاء نقية». قال: الكاذب أماته الله طريدًا غريبًا وحيدًا، يعرض برسول الله ﷺ،

---

(١) انظر: السيرة (٢/١٨٩ - ١٩٠).

(٢) الاختطام: أن يجعل على رأس الدابة وأنفها حبل يمسك منه الراكب.

(٣) انظر الأبيات فى: السيرة (١٩١ - ١٩٢).

فقال رسول الله ﷺ: «أجل، فمن كذب يفعل الله ذلك به»[(١)].

فكان هو ذلك عدو الله، خرج إلى مكة ببضعة عشر رجلاً مفارقًا للإسلام ولرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا: الراهب، ولكن قولوا الفاسق»[(٢)]. فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام فمات بها طريدًا غريبًا وحيدًا!.

قال ابن إسحاق[(٣)]: وكان ممن تعوذ بالإسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق من أحبار يهود، من بنى قينقاع: سعد بن حنيف، ونعمان بن أوفى، وعثمان بن أوفى، وزيد بن اللصيت، وهو الذى قال حين ضلت ناقة رسول الله ﷺ: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته! فقال رسول الله ﷺ، ودل على ناقته وجاءه الخبر بما قال عدو الله فى رحله: «إن قائلاً قال: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته، وإنى والله ما أعلم إلا ما علمنى الله، وقد دلنى الله عليها فهى فى هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها». فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله ﷺ وكما وصف[(٤)].

وكان هؤلاء المنافقون المسمون وغيرهم ممن لم يسم يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم ويستهزئون بدينهم.

فاجتمع يومًا فى المسجد منهم ناس فرآهم رسول الله ﷺ يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم رسول الله ﷺ فأخرجوا من المسجد إخراجًا عنيفًا.

فقام أبو أيوب خالد بن زيد إلى عمرو بن قيس أحد بنى غنم بن مالك بن النجار، وكان صاحب آلهتهم فى الجاهلية، فأخذ برجله فسحبه حتى أخرجه من المسجد، وهو يقول: أتخرجنى يا أبا أيوب من مربد بنى ثعلبة!.

ثم أقبل أبو أيوب أيضًا، إلى رافع بن وديعة أحد بنى النجار فلببه بردائه ثم نتره نترًا شديدًا ثم لطم وجهه وأخرجه من المسجد وهو يقول: أف لك منافقًا خبيثًا، أدراجك يا منافق من مسجد رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر الحديث فى: المنتظم لابن الجوزى (١٨٤/٣)، عيون الأثر لابن سيد الناس (٣٥١/١).
(٢) انظر الحديث فى: عيون الأثر لابن سيد الناس (٣٥١/١).
(٣) انظر: السيرة (١٣٥/٢).
(٤) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٢٣٢/٥).

وقام عمارة بن حزم إلى زيد بن عمرو، وكان طويل اللحية، فأخذ بلحيته فقاده بها قودًا عنيفًا حتى أخرجه من المسجد، ثم جمع عمارة يديه فلدمه بهما فى صدره لدمة خر منها. قال: يقول: خدشتنى يا عمارة! قال: أبعدك الله يا منافق، فما أعد الله لك من العذاب أشد من ذلك، فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ.

وقام أبو محمد، رجل من بنى النجار، وكان بدريًا، إلى قيس بن عمرو فجعل يدفع فى قفاه حتى أخرجه من المسجد. وكان قيس غلامًا شابًا لا يعلم فى المنافقين شاب غيره.

وقام رجل من بلحارث يقال له: عبد الله بن الحارث إلى رجل يقال له: الحارث بن عمرو وكان ذا جمة فأخذ بجمته يسحبه عنيفًا على ما مر به من الأرض حتى أخرجه من المسجد.

قال: يقول المنافق: لقد أغلظت يا ابن الحارث. فقال له: إنك أهل لذلك يا عدو الله لما أنزل الله فيك، فلا تقرب مسجد رسول الله ﷺ فإنك نجس. وقام رجل من بنى عمرو بن عوف إلى أخي ذوى بن الحارث فأخرجه من المسجد إخراجًا عنيفًا وأفف منه[١] وقال: غلب عليك الشيطان وأمره.

فهؤلاء من حضر المسجد يومئذ، من المنافقين فأمر رسول الله ﷺ بإخراجهم[٢].

ففى هؤلاء من أحبار يهود والمنافقين من الأوس والخزرج نزل صدر سورة البقرة إلى المائة منها، فيما بلغنى والله أعلم.

وقدم على رسول الله ﷺ المدينة وفد نصارى نجران، ستون راكبًا، فدخلوا عليه المسجد حين صلى العصر عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية، فى جمال رجال بنى الحارث بن كعب، يقول بعض من رآهم يومئذ، من أصحاب رسول الله ﷺ: ما رأينا بعدهم وفدًا مثلهم.

وحانت صلاتهم فقاموا يصلون فى المسجد، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم. فصلوا إلى المشرق، وكان فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، فى الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم: العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم الذى لا يصدرون

---

(١) أفف منه: أى قال له أف، وهى كلمة تقال لكل ما يثقل ويضجر منه.

(٢) انظر: السيرة (١٣٧/٢).

إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح، والسيد ثمالهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أحد بنى بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم وكان أبو حارثة هذا قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه فى دينهم، فكان ملوكهم قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم(١).

فلما وجهوا إلى رسول الله ﷺ من نجران، جلس أبو حارثة على بغلة له موجهًا [إلى رسول الله ﷺ](٢) وإلى جنبه أخ له يقال له: كرز بن علقمة، ويقال كوز بن علقمة، فعثرت بغلة أبى حارثة فقال كوز: تعس الأبعد. يريد رسول الله ﷺ. فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست: قال: ولم يا أخى؟ قال: والله إنه للنبى الذى كنا ننتظره. فقال له كوز: فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟! قال: ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلآ خلافه، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى.

فأضمر عليها منه أخوه كوز بن علقمة حتى أسلم بعد ذلك، فهو كان يحدث عنه هذا الحديث(٣).

وكان أبو حارثة هذا ممن كلم رسول الله ﷺ هو والعاقب والسيد، وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف من أمرهم فى عيسى عليه السلام، يقولون: هو الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، ويقولون: هو ولد الله كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله، إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض. سبحان الله عما يصفون، عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون. ويقولون: هو ثالث ثلاثة. وما من إله إلا إله واحد.

ففى كل هذا من قولهم قد نزل القرآن مدحضا حججهم ومبطلا دعاويهم، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل. قال الله العظيم: ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار**﴾ [المائدة: ٧٢].

---

(١) انظر: السيرة (٢/ ١٨٠).

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل، وما أوردناه من السيرة.

(٣) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٥/ ٣٨٢، ٣٨٣)، البداية والنهاية لابن كثير (٥/ ٥٩)، طبقات ابن سعد (١/ ٣٥٧).

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا الله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾ [المائدة: ٧٢، ٧٥].

وقال عز من قائل: **﴿وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾** [التوبة: ٣٠، ٣١].

ولما كلموا رسول الله ﷺ أمرهم بالإسلام، فقال له حبران ممن كلمه منهم: قد أسلمنا. فقال لهما: «إنكما لم تسلما فأسلما». فقالا: بلى قد أسلمنا قبلك. فقال: «كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدًا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير». قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت رسول الله ﷺ فلم يجيبهما(١).

فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم كله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها.

فافتتح السورة بتنزيه نفسه سبحانه مما قالوا، وتوحيده إياها بالخلق والأمر، ردًا عليهم ما ابتدعوا من الكفر وجعلوا معه من الأنداد ليعرفهم بذلك ضلالتهم. فقال جل قوله وتعالى جده: **﴿آلم الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾** [آل عمران: ١، ٦].

ثم استمر سبحانه فيما شاء من التبيان لهم والإعذار إليهم والاحتجاج عليهم، وإرشاد عباده المؤمنين إلى سبيل الضراعة إليه بأن لا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم، وأن يهب لهم من لدنه رحمة، وما وصل بذلك من قوله الحق وذكره الحكيم.

---

(١) انظر الحديث فى: فتح البارى لابن حجر (٦٩٩/٧)، تفسير ابن كثير (٤١/٢)، فتح القدير للشوكانى (٤٦٦/١).

ثم استقبل لهم أمر عيسى وكيف كان بدء ما أراد به، فقال: ﴿**إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليهم**﴾.

ثم ذكر امرأة عمران ونذرها لله ما فى بطنها محررًا، أى تعبده له سبحانه لا ينتفع به لشيء من الدنيا، ثم ما كان من وضعها مريم وتعويذها إياها وذريتها بالله من الشيطان الرجيم.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتًا حسنًا وكفلها زكريا**﴾ أى ضمها وقام عليها بعد أبيها وأمها.

ثم قص خبرها وخبر زكريا وما دعا به وما أعطاه، إذ وهب له يحيى، ثم ذكر مريم وقول الملائكة لها: ﴿**يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الركعين**﴾. يقول الله جل وعز: ﴿**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم**﴾ أى يستهمون عليها، أيهم يخرج سهمه يكفلها. ﴿**وما كنت لديهم إذ يختصمون**﴾ أى ما كنت معهم إذ يختصمون فيها.

يخبره بخفى ما كتموا منه من العلم، تحقيقًا لنبوته وإقامة للحجة عليهم بما يأتيهم به مما أخفوا منه. ثم قال تعالى: ﴿**إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين**﴾.

أى هكذا كان أمره لا ما يقولون فيه، وإن هذه حالاته التى يتقلب بها فى عمره كتقلب بنى آدم فى أعمارهم صغارًا وكبارًا، إلا أن الله خصه بالكلام فى مهده آية لنبوته، وتعريفًا للعباد مواقع قدرته. ﴿**قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك يخلق ما يشاء**﴾.

أى يصنع ما أراد ويخلق ما يشاء من بشر أو غير بشر. ويصور فى الأرحام ما يشاء وكيف يشاء بذكر وبغير ذكر. ﴿**إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون**﴾.

ثم أخبرها بما يريد به من كرامته وتعليمه الكتاب والحكمة والتوراة المنزلة على موسى قبله والإنجيل المنزل عليه، وجعله رسولاً إلى بنى إسرائيل، مؤيدًا من الايات بما

هو صادر عن إذنه موقوف على مشيئته تحقيقًا لما أراد من نبوته، كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، وغير ذلك مما أيده الله به من العجائب المصدقة له، وأمره إياهم بتقوى الله وطاعته وقوله لهم: ﴿**إن الله ربى وربكم**﴾ تبريا من الذى يقولون فيه واحتجاجًا لربه عليهم. ﴿**فاعبدوه هذا صراط مستقيم**﴾ أى هذا الهدى قد حملتكم عليه وجئتكم به. ﴿**فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله**﴾ إلى آخر قولهم.

ثم ذكر رفعه إياه إليه حين اجتمعوا لقتله، فقال: ﴿**ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين**﴾. ثم أخبرهم ورد عليهم فيما أقروا لليهود بصلبه، كيف رفعه وطهره منهم فقال: ﴿**إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة**﴾ ثم القصة حتى انتهى إلى قوله: ﴿**ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين**﴾.

أى قد جاءك الحق من ربك فلا ترتابن به ولا تمترين فيه، وإن قالوا: كيف خلق عيسى من غير ذكر فقد خلقت آدم من تراب بتلك القدرة من غير أنثى ولا ذكر، فكان كما كان عيسى لحمًا ودمًا وشعرًا وبشرًا، فليس خلق عيسى من غير ذكر بأعجب من هذا.

﴿**فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم**﴾ أى من بعد ما قصصت عليك من خبره وكيفية أمره ﴿**فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾.

نبتهل: ندعو باللعنة، ونبتهل أيضًا، نجتهد بالدعاء. ﴿**إن هذا لهو القصص الحق**﴾ أى ما أخبرتك به من أمر عيسى ﴿**وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾. فدعاهم الله إلى النصف وقطع عنهم الحجة.

فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله عز وجل، فى شأن عيسى وفصل القضاء بينه وبينهم بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك، فقالوا: يا أبا القاسم، دعنا ننظر فى أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه.

فانصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح، ما ترى؟ فقال: «والله، يا معشر النصارى لقد علمتم أن محمدًا لنبى مرسل، ولقد جاءكم من خبر صاحبكم بالحق، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيًا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا ألف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم».

فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا أن لا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونرجع إلى ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضى.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «ائتونى العشية أبعث معكم القوى الأمين». فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يقول: ما أحببت الإمارة قط حبى إياها يومئذ، رجاء أن أكون صاحبها، فرحت إلى الظهر مهجرًا، فلما صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر سلم ثم نظر عن يمينه ويساره فجعلت أتطاول له ليرانى، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة ابن الجراح، فدعاه فقال: أخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه. قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة[١].

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدمها وهى أوبأ أرض الله من الحمى، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم حتى جهدوا فما كانوا يصلون إلا وهم قعود، وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ فخرج عليهم صلوات الله عليه، وهم يصلون كذلك، فقال لهم: «اعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم». فتجشم المسلمون القيام على ما بهم من الضعف والسقم التماس الفضل![٢].

وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه، ممن أصابته الحمى، وكذلك مولياه عامر بن فهيرة وبلال، قالت عائشة: فدخلت أعودهم قبل أن يضرب علينا الحجاب وهم فى بيت واحد وبهم ما لا يعلمه إلا الله من الوعك، فدنوت من أبى بكر فقلت له: كيف

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى كتاب المغازى (٤٣٨٠)، صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة (٤/٥٥).

(٢) انظر الحديث فى: صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين (١/١٢٠)، سنن النسائى (١٦٥٨)، سنن أبى داود (٩٥٠)، سنن ابن ماجه (١٢٢٩، ١٢٣٠، ١٢٣١)، مسند الإمام أحمد (٢/١٩٣، ٣/٤٢٥، ٦/٦١، ٧١)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢٢٤)، فتح البارى لابن حجر (٢/٦٨٢).

كـل امـرىء مصبـح فـى أهله والمـوت أدنـى مـن شراك نعله

فقلت: والله ما يدرى أبى ما يقول، ثم دنوت إلى عامر فقلت: كيف تجدك يا عـامر؟ فقال:

لقـد وجـدت المـوت دون ذوقـه إن الجبـان حتفـه مـن فوقـه

كـل امـرىء مجاهـد بطوقـه كالثـور يحمـى جلـده بروقـه

قالت: وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته وقال:

ألا ليـت شعرى هـل أبيتن ليلـة بـواد وحـولى إذخـر وجليـل

وهـل أردن يومًـا ميـاه مجنـة وهـل يبـدون لى شامـة وطفيـل

قالت عائشة: فذكرت لرسول الله ﷺ ما سمعت منهم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهـم حبب لنا المدينة كما حببت إلينا مكـة أو أشـد، وبـارك لنـا فـى مدهـا وصاعهـا، وانقـل وباءها إلى مهيعة»[(١)]، وهى الجحفة.

* * *

شروع رسول الله ﷺ فى حرب المشركين وذكر مغازيه التى أعز الله بها الإيمان والمؤمنين

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ تهيأ لحربه وقام فيما أمره الله تبارك وتعالى بـه من جهاد عدوه وقتال مَنْ أمره الله بقتاله ممن يليه من مشركى العرب.

وخرج غازيًا فى صَفَر على رأس اثنى عشر شهرًا من مَقْدمه المدينة.

حتى بلغ وَدّان وهى غزوة الأبواء[(٢)]، يريد قريشًا وبنى ضمرة من بكر بـن عبـد مناة ابن كنانة، فوادعته فيها بنو ضمرة، وكان الذى وادعه منهـم عليهـم مَخْشىُّ بـن عمـرو الضمرى، وكان سيدهم فى زمانه ذلك.

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى كتـاب منـاقب الأنصـار (٣٩٢٦)، صحيـح مسـلم كتـاب الحج (٢/٤٨٠)، مسند الإمام أحمد (٥/٣٠٩)، السنن الكـبرى للبيهقـى (٣/٣٣٢)، الـترغيب والترهيب للمنذرى (٢/٢٢٦)، دلائل النبوة للبيهقى (٢/٥٦٩)، موطأ الإمام مالك (٢/١٤).

(٢) راجع هذه الغزوة فى: المغازى للواقدى (١/١١، ١٢)، طبقات ابن سعد (٢/١/٣، ٤)، تاريخ الطبرى (٢/٤٠٧)، البداية والنهاية (٣/٢٤٦).

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيدًا، فأقام بها.

وبعث فى مقامه ذلك عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصى[1] فى ستين أو ثمانين راكبًا من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد.

فسار حتى بلغ ماءً بالحجاز بأسفل ثنية المُرَّة، فلقى بها جمعًا عظيمًا من قريش، فلم يكن بينهم قتال، إلاَّ أن سعد بن أبى وقاص قد رمى يومئذٍ بسهم، فكان أول سهم رُمِىَ به فى سبيل الله.

وقال سعد فى رميته تلك فيما يذكرون:

ألا هل أتى رسول الله أنى ... حميت صحابتى بصدور نبلى

أذود بها أوائلهم ذيادًا ... بكل حزونة وبكل سهل

فما يعتد رامٍ فى عدوٍّ ... بسهمٍ يا رسول الله قبلى

فى أبيات ذكرها ابن إسحاق، وذكر ابن هشام أن أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لسعد.

ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حاميةٌ.

وفرَّ من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهرانى[2] وعتبة بن غزوان[3]، وكانا مسلمين ولكنهما خرجا ليتوصلا بالكفار.

ويقال: إن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال فى غزوة عبيدة هذه:

---

(١) انظر ترجمته فى: الثقات (٣/٣١٢)، الاستبصار (١٥٨، ٣٠١)، تجريد أسماء الصحابة (١/٣٦٩)، الأعلام (٤/١٩٨)، سير أعلام النبلاء (١/٢٥٦)، الإصابة ترجمة رقم (٥٣٩١)، أسد الغابة ترجمة رقم (٣٥٣٤).

(٢) انظر ترجمته فى: طبقات ابن سعد (٣/١/١٤٤)، طبقات خليفة (٦١، ٦٧، ١٦٨)، التاريخ الكبير (٨/٥٤)، التاريخ الصغير (٦٠، ٦١)، المعارف (٢٦٣)، الجرح والتعديل (٨/٤٢٦)، حلية الأولياء (١/١٧٢، ١٧٦)، تهذيب التهذيب (١٠/٢٨٥)، شذرات الذهب (١/٣٩)، الإصابة ترجمة رقم (٨٢٠١)، أسد الغابة ترجمة رقم (٥٠٧٦).

(٣) انظر ترجمته فى: طبقات ابن سعد (٣/١/٦٩)، التاريخ الكبير (٦/٥٢٠، ٥٢١)، المعارف (٢٧٥)، الجرح والتعديل (٦/٣٧٣)، حلية الأولياء (١/١٧١، ١٧٢)، تهذيب التهذيب (٧/١٠٠)، شذرات الذهب (١/٢٧)، سير أعلام النبلاء (١/٣٠٤)، الإصابة ترجمة رقم (٥٤٢٧)، أسد الغابة ترجمة رقم (٣٥٥٦).

أمن طيف سلمى بالبطاح الدمائث ... أرقيت وأمر فى العشيرة حادث[(١)]
ترى من لؤى فرقةً لا يصدها ... عن الكفر تذكيرٌ ولا بعث باعث
رسولٌ أتاهم صادقٌ فتكذبوا ... عليه وقالوا لست فينا بماكث
إذا ما دعوناهم إلى الحق أدبروا ... وهروُّا هَريرَ المحجرات اللواهث[(٢)]
فكم قد مَتَتْنا فيهم بقرابة ... وترك التقى شىءٌ لهم غير كارث
فإن يرجعوا عن كفرهم وعقوقهم ... فما طيبات الحِلِّ مثل الخبائث
وإن يركبوا طغيانهم وضلالهم ... فليس عذاب الله عنهم بلاَبِثِ
ونحن أناسٌ من ذؤابة غالبٍ ... لنا العز منها فى الفروع الأثائثِ
فأولى بربٍّ الراقصات عشيةً ... حراجيج تجرى فى السريح الرَّثائثِ
كأدم ظباءٍ حول مكة عكف ... يردن حياض البئر ذات النَّبائثِ
لئن لم يفيقوا عاجلاً من ضلالهم ... ولست إذا آليت قولا بحانث
لتبتدرنهم غارةٌ ذات مصدق ... تحرم أطهار النساء الطوامث

وكانت راية عبيدة أول راية عقدها رسول الله ﷺ فى الإسلام.

وبعض العلماء يزعم أنه بعثه حين أقبل من غزوة الإبواء قبل أن يصلى إلى المدينة، وأنه بعث فى مقامه بالمدينة حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص فى ثلاثين راكبًا من المهاجرين، فلقى أبا جهل بذلك الساحل فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فحجز مجدى بن عمرو الجهنى، وكان موادعًا للفريقين.

فانصرف بعض القوم عن بعض، ولم يك بينهم قتال.

وبعض الناس يقول: كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحدٍ من المسلمين، وذلك أن بعثه وبعث عبيدة كانا معًا، فشبه ذلك على الناس.

وقد زعموا أن حمزة قال فى ذلك شعرًا يذكر فيه أن رايته أول راية عقدها رسول الله ﷺ.

فإن كان حمزة قال ذلك فقد صدق إن شاء الله، لم يكن يقول إلا حقًّا، فالله أعلم أى ذلك كان.

---

(١) الدمائث: أى الرمال اللينة.

(٢) هروا: أى وثبوا كما تثب الكلاب. والمجحرات: أى الكلاب التى اجحرت، أى لجئت إلى مواضعها.

فأما ما سمعنا من أهل العلم عندنا: فعبيدة بن الحارث أول من عقد له.

والشعر المنسوب لحمزة رضى الله عنه:

ألا يـا لقومـى للتحكـم والجهـل	وللنقـص مـن رأى الرجـال وللعقـل
وللراكبينـا بالمظـالم لـم نطـأ	لهم حرمـات مـن سـوام ولا أهـل[1]
كأنـا تَبَلْنَـاهم ولا تَبْـلَ عندنـا	لهـم غير أمر بالعفـاف وبـالعدل[2]
وأمـر بإسـلام فـلا يقبلونـه	ويـنزل منهـم مثـل منزلـة الهـزل
فمـا برحـوا حتـى انتدبـت بغـارة	لهم حيث حلوا ابتغـى راحـة الفضـل
بـأمر رسـول اللـه أول خـافق	عليه لـواءٌ لـم يكـن لاح مـن قبـل
لـواءٌ لديـه النصـر مـن ذى كرامـةٍ	إلـهٍ عزيـز فعلـه أفضـل الفعـل
عشـية سـاروا حاشـدين وكلنـا	مراجلـه مـن غيـظ أصحابـه تغلـى
فلمـا تراءينـا أنـاخوا فعقلـوا	مطايا وعقلنـا مـدى غـرض النبـل
فعلنـا لهـم حبـل الإلـه نصيرنـا	وليس لكـم إلا الضلالـة مـن حبـل
فثـار أبـو جهـل هنـالك باغيًـا	فخـاب ورد اللـه كيـد أبـى جهـل
ومـا نحـن إلا فـى ثلاثـين راكبًـا	وهـم مئتـان بعـد واحـدة فضـل
فيـال لُـؤَىٍّ لا تطيعـوا غواتكـم	وفيئوا إلى الإسلام والمنهج السهل[3]
فإنـى أخـاف أن يصـب عليكـم	عـذابٌ فتدعـوا بالندامـة والثُّكْـل

ثم غزا رسول اللـه ﷺ فـى ربيـع الأول يريـد قريشًـا حتـى بلـغ بـواط[4] مـن ناحيـة رضوى، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدًا.

ثم غزاهم فسلك على نقب بنى دينار على فيفاء الحبار، فـنزل تحت شـجرة ببطحـاء ابن أزهر، يقال لها: ذات الساق، فصلى عندها، فَثَمَّ مسجده ﷺ، وصنع له عندها طعـام فأكل منه وأكل الناس معه، فموضع أثافى البُرْمة معلوم هنالك، واستقى له من ماء يقـال له: المشرب المُشْتَرِب.

ثم ارتحل حتى هبط بَلْيَل، ثم سلك فرش ملل حتى لقـى الطريـق بصحيرات اليمـام، ثم اعتدل به الطريق حتى نزل العشيرة من بطن يَنْبع، فأقام بها جمادى الأولى وليـالى مـن

(١) السوام: أى الإبل الراعية، وقيل: هى المرسلة فى المرعى.

(٢) تبلناهم: أى عاديناهم.

(٣) فيئوا: أى ارجعوا. والمنهج: أى الطريق الواضح.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/٨)، البداية والنهاية (٣/٢٤٦).

جمادى الآخرة. ووادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدًا.

وبعث سرية فيما بين ذلك من غزوة سعد بن أبى وقاص فى ثمانية رهطٍ من المهاجرين، فبلغ الخرَّار من أرض الحجاز، ثم رجع ولم يلق كيدًا.

ولم يقم رسول الله ﷺ بالمدينة حين قدم من غزوة العشيرة[١] إلا ليالى قلائل لا تبلغ العشر، حتى أغار كُرز بن جابر الفهرى[٢] على سرح المدينة.

فخرج ﷺ فى طلبه حتى بلغ واديًا يقال له: سفوان من ناحية بدر، وفاته كرز فلم يدركه. وهى غزوة بدر الأولى.

ثم رجع إلى المدينة.

وبعث عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدى[٣] فى رجب مقفلة من تلك الغزاة، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، وهم: أبو حذيفة بن عتبة، وسعد بن أبى وقاص، وعكاشة بن محصن، وعتبة بن غزوان، وعامر بن ربيعة، وواقد بن عبد الله التميمى، وخالد بن البكير، وسهيل بن بيضاء. وكتب له كتابًا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدًا.

فلما سار عبد الله يومين فتح الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلةَ بين مكة والطائف، فترصد بها قريشًا وتعلم لنا من أخبارهم».

فقال عبد الله: سمعًا وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرنى رسول الله ﷺ أن أمضى إلى نخلة أرصد فيها قريشًا حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهانى أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها، فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ.

فمضى ومضى معه أصحابه، لم يختلف عنه منهم أحد، وسلك على الحجاز حتى إذا

---

(١) راجع هذه الغزوة فى: المغازى للواقدى (١/١٢، ١٣)، طبقات ابن سعد (٢/١/٤، ٥)، تاريخ الطبرى (٢/٤٠٨)، البداية والنهاية (٣/٢٤٦).

(٢) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٧٤٠٩)، أسد الغابة ترجمة رقم (٤٤٤٩).

(٣) انظر ترجمته فى: الثقات (٣/٢٣٧)، صفوة الصفوة (١/٣٨٥)، حلية الأولياء (١/١٠٨، ١٠٩)، شذرات الذهب (١/٥٤)، تجريد أسماء الصحابة (١/٣٠٢)، تهذيب التهذيب (٥/١٤٣)، الجرح والتعديل (٥/٢٢، ١٠١).

كان بمعدن فوق الفرع يقال له: بحران أضل سعد بن أبى وقاص وعتبه بن غزوان بعيرًا لهما كانا يعتقبانه، فتخلفا فى طلبه.

ومضى عبد الله فى بقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به عيرٌ لقريش تحمل زبيبًا، وأدَمًا، وتجارة من تجارة قريش، فيها عمرو بن الحضرمى، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومى وأخوه نوفل، والحكم بن كيسان، فلما رآهم القوم هابوهم، وقد نزلوا قريبًا منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن، وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا، وقالوا: عمارٌ لا بأس عليكم منهم، وتشاور القوم فيهم، وذلك فى آخر يوم من رجب، فقالوا: والله لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمنعن منكم به، ولئن قتلتوهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام.

فتردد القوم وهابوا ثم شجعوا أنفسهم وأجمعوا قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم.

فرمى واقد بن عبد الله عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم، وأفلت القوم نوفلٌ فأعجزهم.

وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة.

وعزل عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ خمس تلك الغنيمة وقسم سائرها بين أصحابه، وذلك قبل أن يفرض الله الخمس من المغانم فلما أحل الله الفىء بعد ذلك وأمر بقسمه وفرض الخمس فيه، وقع على ما كان عبد الله صنع فى تلك العير.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: «ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام»[1]. فوقف العير والأسيرين وأبَى أن يأخذ من ذلك شيئًا.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط فى أيدى القوم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمدٌ وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال.

فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان. وقالت يهود، تفاءلُ بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبد

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢٤٩).

الله: عمرو: عَمِرت الحرب، والحضرمى: حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله: وقدت الحرب: فجعل الله تبارك وتعالى ذلك عليهم لا لهم.

فلما أكثر الناس فى ذلك، أنزل الله على رسوله: ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتالٌ فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله**﴾ [البقرة: ٢١٧].

أى إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم، والفتنة أكبر من القتل، أى قد كانوا يفتنون المسلم فى دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل.

فلما نزل القرآن بهذا من الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّفق، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت قريش فى فدائهما، فقال رسول الله ﷺ: «لا، حتى يقدم صاحبانا، يعنى سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان، فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما، نقتل صاحبيكم». فقدم سعد وعتبة، فأفدى الأسيرين عند ذلك منهم.

فأما الحكم فأسلم فحسن أسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى استشهد يوم بئر معونة، وأما عثمان فلحق بمكة فمات بها كافرًا.

فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن طمعوا فى الأجر، فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم**﴾ [البقرة: ٢١٨]، فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء.

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى تلك الغزوة أبياتًا، ويقال بل عبد الله بن جحش، قالها حين قالت قريش: قد أحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، فسفكوا فيه الدم وأخذوا المال وأسروا الرجال:

تعدون قتلا فى الحرام عظيمةً ... وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمدٌ ... وكفرٌ به والله راءٍ وشاهد

وإخراجكم من مسجد الله أهله   لئلا يرى فى البيت الله ساجدُ
فإنــا وإن عيرتمونــا بقتلــه   وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسد
سقينا من ابـن الحضرمى رماحنا   بنخلة لما أوقد الحرب واقدُ
دمًا وابن عبد الله عثمان بيننا   ينازعه غُلٌّ من القيد عاقد

* * *

غزوة بدر الكبرى[1]

قال ابن إسحاق[2]: ثم إن رسول الله ﷺ سمع بأبى سفيان بن حرب مقبلاً من الشام فى عير لقريش عظيمة.

فندب المسلمين إليهم، وقال: «هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها»[3].

فانتدب الناس، فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حَرْبا.

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار، ويسأل من لقى من الرُّكبان، تخوفًا، حتى أصاب من بعضهم خبرًا باستنفار رسول الله ﷺ له ولعيره، فحذر عند ذلك، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى، فبعثه إلى مكة ليخبر قريشًا بذلك، ويستنفرهم إلى أموالهم، فخرج ضمضم سريعًا.

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب[4] قد رأت قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث رؤيا أفزعتها، فقالت لأخيها العباس: يا أخى، والله لقد رأيتُ الليلة رؤيا لقد أفظعتنى وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم عنى ما أحدثك، فقال لها: وما رأيت؟.

---

(١) ذكرها ابن الجوزى فى المنتظم (٣/٩٧)، الواقدى فى المغازى (١/١٩)، ابن سعد فى الطبقات (٢/١/٦ ط الشعب)، الطبرى فى تاريخه (٢/٤٢١)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/٢٥٦)، ابن الأثير فى الكامل فى التاريخ (٢/١٤).

(٢) انظر السيرة (٢/٢١١).

(٣) انظر الحديث فى: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/١/٦)، الدر المنثور للسيوطى (٣/١٦٨)، تفسير ابن كثير (٣/٥٥٧)، تفسير القرطبى (٧/٣٧٣)، تفسير الطبرى (٩/١٢٢)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢٥٦).

(٤) انظر ترجمتها فى: طبقات ابن سعد (٨/٤٣)، المعارف (١١٨)، الإصابة ترجمة رقم (١١٤٥٥)، أسد الغابة ترجمة رقم (٧٠٨٨).

قالت: رأيت راكبًا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته: ألا أنفروا يالَغَدرِ لمصارعكم فى ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبَيْناهم حوله، مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها، ألا أنفروا يالغَدَرِ إلى مصارعكم فى ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس[1] فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دارٌ إلا دخلتها منها فلقة.

قال العباس: والله إن هذه لرؤيا، وأنت فاكتميها ولا تذكريها لأحد.

ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة، وكان له صديقًا، فذكرها له واستكتمه إياها، فذكرها الوليد لأبيه عتبة، ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش.

قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت وأبو جهل فى رهطٍ من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآنى قال: يا أبا الفضل، إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا.

فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم، فقال لى أبو جهل يا بنى عبد المطلب، متى حدثت فيكم هذه النَّبِيئة؟ قال: قلت: وما ذاك؟ قال: الرؤيا التى رأت عاتكة، فقلت: وما رأت؟.

قال يا بنى عبد المطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساءكم؟ قال: زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال: انفروا فى ثلاثٍ، فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقًّا ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شىء نكتب عليكم كتابًا أنكم أكذَبُ أهل بيت فى العرب.

قال العباس: فوالله، ما كان منى إليه كبير، إلا أنى جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأت شيئًا، ثم تفرقنا.

فلما أمسيتُ لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب إلا أتتنى، فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع، ثم لم يكن عندك غِيَرة بشىء مما سمعت؟ فقلت: قد والله فعلت، وما كنا منى إليه من كبير، وإيم الله لأتعرضن له فإن عاد لأكفيكُنَّه.

قال: فغدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب، أرى أنه قد فاتنى

---

(١) أبو قبيس: جبل مشرف على مكة من شرقيها. انظر: معجم البلدان (١/ ٨٠).

أمر أحب أن أدركه منه، فدخلت المسجد فرأيته، وكان رجلاً خفيفًا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر، فوالله، إنى لأمشى نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال، فأقع به، إذ خرج نحو باب المسجد يشتد، فقلت فى نفسى: ماله، لعنة الله؟! أكل هذا فرقًا منى أن أشاتمه! وإذا هو قد سمع ما لم أسمع، صوت ضمضم بن عمرو [الغفارى] وهو يصرخ ببطن الوادى واقفًا على بعيره قد جدعه وحول رحله وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث.

قال: فشغلنى عنه، وشغله عنى ما جاء من الأمر.

فتجهز الناس سراعا وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك.

فكانوا بين رجلين، إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً.

وأوعبت قريش فلم يتخلف من أشرافها أحد، إلا أن أبا لهب تخلف وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة. وكانت عليه لأبى لهب أربعة آلاف درهم، فاستأجره بها على أن يجزىء عنه بعثة.

وأجمع أمية بن خلف القعود - وكان شيخا جليلا جسيما ثقيلاً - فأتاه عقبة بن أبى معيط وهو جالس فى المسجد بين ظهرى قومه بمجمرة فيها نار ومجمر حتى وضعها بين يديه، ثم قال: يا أبا على، استجمر فإنما أنت من النساء! فقال: قبحك الله وقبح ما جئت به. ثم تجهز وخرج مع الناس.

ولما فرغوا من جهازهم وأجمعوا السير ذكروا حربا كانت بينهم وبين بنى بكر ابن عبد مناة بن كنانة، وقالوا: إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا، فكاد ذلك يثبتهم، فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن جعشم المدلجى، وكان من أشراف بنى كنانة، فقال: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه.

فخرجوا سراعًا.

وخرج رسول الله ﷺ فى ليال مضت من شهر رمضان فى أصحابه، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار(١)، وكان أبيض، وكان أمام

---

(١) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٨٠٢٠)، أسد الغابة ترجمة رقم (٤٩٣٦).

رسول الله ﷺ رايتان سوداوان، إحداهما مع على بن أبى طالب - رضى الله عنه - والأخرى مع بعض الأنصار، وجعل على الساقة قيس بن أبى صعصعة أخا بنى مازن بن النجار، وكانت راية الأنصار مع سعد بن معاذ فيما قال ابن هشام.

فسلك رسول الله ﷺ طريقة من المدينة إلى مكة حتى إذا كان قريبًا من الصفراء بعث بسبس بن عمرو[1]، وعدى بن أبى الزغباء[2] الجهينيين إلى بدر يتجسسان له الأخبار عن أبى سفيان وغيره.

فمضيا حتى نزلا بدرًا، فأناخا إلى تل قريب من الماء، فسمعا جاريتين من جوارى الحاضر تتلازما على الماء، والملزومة تقول لصاحبتها: إنما ترد العير غدًا أو بعده فأعمل لهم ثم أقضيك. فقال مجدى بن عمرو، وكان على الماء: صدقت، ثم خلص بينهما.

فلما سمع بذلك عدى وبسبس، انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه.

ثم تقدم أبو سفيان العير حذرًا حتى ورد الماء، فقال لمجدى: هل أحسست أحدًا؟ قال: لا، إلا أنى قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا فى شن لهما، ثم انطلقا.

فأتى أبو سفيان مناخهما، فأخذ من أبعار بعيريهما ففته فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب! فأسرع إلى اصحابه فضرب وجه عيره عن الطريق فساحل بها، وترك بدرًا بيساره.

ثم ارتحل رسول الله ﷺ حتى أتى واديا يقال له: «ذفران»، فجزع فيه، ثم نزل.

وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فأخبر الناس واستشارهم.

فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون»، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْكِ الغِمادِ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

---

(١) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٨١٠)، أسد الغابة ترجمة رقم (٤٠٥)، تجريد أسماء الصحابة (٤٨/١)، معرفة الصحابة (١٧٥/٣).

(٢) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٥٤٩٨)، أسد الغابة ترجمة رقم (٣٦١٣)، الثقات (٣١٦/٣)، تجريد أسماء الصحابة (٣٧٧/١).

فقال رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا على»[1]. وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم من بلادهم إلى عدو، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل»[2]، قال: فقد آمنا بك وصدقناك؛ وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذاى بعثك بالحق لو استعرضت بناهذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بناعدونا غدًا، إنا لصبر فى الحرب صدق عند اللقاء لعل يريك منا ما تقربه عينك، فسر بنا على بركة الله.

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا فإن الله تبارك وتعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن انظر إلى مصارع القوم»[3].

ثم ارتحل رسول الله ﷺ من «ذفران»[4] حتى نزل قريبًا من بدر فركب هو ورجل من أصحابه، قيل: هو أبو بكر الصديق، حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا اخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك». قال: أوذاك بذاك، قال: «نعم»، قال الشيخ: فإنى بلغنى أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذى به رسول الله ﷺ، وبلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذى به قريش. فلما فرغ من خبره، قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «نحن من ماء»[5]. ثم انصرف عنه رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (٣٥٦/٩)، دلائل النبوة للبيهقى (٣٧٧/٢، ٣٨١).

(٢) انظر الحديث فى: سنن أبى داود (٥٢٣٣)، مسند الإمام أحمد (٢٥٥/١، ٢٨٤، ٤٣٨/٣، ٢٨٦/٥، ٣٧٢، ٣٨١)، الدر المنثور للسيوطى (٢٠٥/٥)، كنز العمال للمتقى الهندى (٣١٣٧٩).

(٣) انظر الحديث فى: تفسير ابن كثير (٧٢/٣)، فتح البارى لابن حجر (٣٣٦/٧).

(٤) ذفران: واد قرب واد الصفراء والذفر كل ريح من طيب أو نتن. انظر: معجم البلدان (٦/٣).

(٥) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٢٦٤/٣).

قال: يقول الشيخ: ما من ماء! أمن ماء العراق؟

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه، فلما أمسى بعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عليه، فأصابوا راوية لقريش فيهما غلامان لبعضهم، فأتوا بهما فسألوهما، ورسول الله ﷺ قائم يصلى، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبى سفيان، فضربوهما، فلما أذلقوهما قالا: نحن لأبى سفيان، فتركوهما.

وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه، ثم سلم وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما! صدقا والله، إنهما لقريش، أخبرانى عن قريش. فقالا: هم وراء هذا الكثيب الذى ترى». قال: «كم القوم؟» قالا: كثير. قال: «ما عدتهم؟» قالا: ما ندرى. قال: «كم ينحرون كل يوم؟» قالا: يوما تسعًا ويومًا عشرًا. قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة والألف»(١).

ثم قال لهما: «من فيهم من أشراف قريش؟» قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البخترى بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر، وطعيمة بن عدى، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية ابن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود.

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»(٢).

وأقبلت قريش؛ فلما نزلوا الجحفة رأى جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف رؤيا، فقال: إنى أرى فيما يرى النائم، وإنى لبين النائم واليقظان، إذ نظرت إلى رجل أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له، ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وابو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف وفلان، فعدد رجالا ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش، ثم رأيته ضرب فى لبة بعيره ثم أرسله فى العسكر فيما بقى خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح من دمه.

---

(١) انظر الحديث فى: تفسير ابن كثير (٢/١٣، ٤/١١)، تفسير الطبرى (٣/١٣١)، الدر المنثور للسيوطى (٣/١٦٦).

(٢) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢٧٧، ٢٧٨)، تاريخ الطبرى (٢/٢٨)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/٧٥، ٧٦)، دلائل النبوة للبيهقى (٣/٤٢).

فبلغت أبا جهل فقال: وهذا - أيضا - نبى آخر من بنى المطلب! سيعلم غدًا من المقتول إن نحن التقينا.

قال: ولما رأى أبو سفيان قد أحرز عيره أرسل إلى قريش: إنكم خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها اله، فارجعوا.

قال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، وكان موسمًا للعرب لهم به سوق كل عام، فنقيم عليه ثلاثًا، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها، فامضوا.

وقال الأخنس بن شريق الثقفى: يا بنى زهرة، وكان حليفًا لهم: قد نجى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوه بن جنبها وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا فى غير ضيعة، لا ما يقول هذا.

فرجعوا فلم يشهدها زهرى واحد، أطاعوه وكان فيهم مطاعًا.

ولم يكن بقى من قريش بطن إلا قد نفر منهم ناس إلا بنو عدى بن كعب، لم يخرج منهم رجل واحد، فرجعت بنو زهرة مع الأخنس، فلم يشهد بدرًا من هذين القبيلين أحد.

وكان بين طالب بن أبى طالب وكان فى القوم، وبين بعض قريش محاورة، فقالوا: والله لقد عرفنا يا بنى هاشم وإن خرجتم معنا أن هواكم لمع محمد. فرجع طالب إلى مكة مع من رجع، وقال:

لا هم إما يغزون طالب   فى عصبة مخالفا محارب
فى مقنب من هذه المقانب   فليكن المسلوب غير السالب
وليكن المغلوب غير الغالب

ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى خلف العقنقل والقلب ببدر فى العدوة الدنيا إلى المدينة.

وبعث الله - عز وجل - السماء، وكان الوادى دهسًا، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشًا منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه.

فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاءوا أدنى ماء من بدر نزلوا به.

فذكروا أن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتاخر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟

فقال: «بل هو الرأى والحرب والمكيدة». قال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بنا حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ثم نتقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأى»[1]. فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فساروا حتى إذا اتى ماء إلى القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضًا على القليب الذى نزل عليه فملىء ماء ثم قذفوا فيه الآنية.

وقال سعد بن معاذ: يا نبى الله، ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد حبا لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله - عز وجل - بهم يناصحونك ويجاهدون معك.

فأثنى رسول الله ﷺ عليه خيرًا ودعا له بخير، ثم بنى لرسول الله ﷺ عريش فكان فيه.

وارتحلت قريش حين أصبحت فأقبلت، فلما رآها رسول الله ﷺ تصوب من الكثيب الذى جاءوا منه، قال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى به، اللهم أحنهم الغداة»[2].

وقد كان خفاف بن أيماء بن رحضة الغفارى أو أبوه بعث إلى قريش حين مروا به ابنا له بجزائر أهداها لهم، وقال: إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا. فأجابوه: أن وصلتك رحم، قد قضيت الذى عليك، فلعمرى لئن كنا إنما نقاتل الناس ما بنا ضعف عنهم، ولئن كنا إنما نقاتل الله كما يزعم محمد ما لأحد بالله من طاقة!

فلما نزل الناس أقبل نفر من قريش فيهم حكيم بن حزام حتى وردوا حوض رسول

---

(١) انظر الحديث فى: مستدرك الحاكم (٤/٤٢٦، ٤٢٧).

(٢) انظر الحديث فى: صحيح مسلم (٣/٥٨)، مسند الإمام أحمد (٢٠٨، ٢٢١)، تاريخ الطبرى (٢/٣٠)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢٦٨).

الله ﷺ، فقال: «دعوهم». فما شرب منه يومئذ رجل إلا قتل، إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنه لم يقتل، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه، فكان إذا اجتهد فى يمينه قال: لا، والذى نجانى من يوم بدر[١].

ولما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحى فقالوا: احزر لنا أصحاب محمد. فدار بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم، فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصونه، ولكن أمهلونى حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد، وضرب فى الوادى حتى أبعد فلم ير شيئا، فرجع إليهم فقال: ما رأيت شيئًا، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فروا رأيكم.

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى فى الناس فأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر منها بخير إلى آخر الدهر، قال: وما ذلك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمى. قال: قد فعلت، أنت على بذلك إنما هو حليفى فعلى عقله وما أصيب من ماله، فأت ابن الحنظلية - يعنى أبا جهل - فإنى لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره.

ثم قام عتبة خطيبًا فقال:

يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا، والله لئن أصبتموه لا يزال رجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد، وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذى أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم، ولم تعرضوا منه ما تريدون.

وقد كان رسول الله ﷺ رأى عتبة فى القوم على جمل له أحمر فقال: «إن يك عند أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا»[٢].

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل فوجدته قد نثل درعًا له من جرابها فهو يهيئها، فقلت له: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلنى إليك بكذا وكذا، للذى قال. فقال: انتفخ والله سحره حين رأى محمدًا وأصحابه، كلاً والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا

---

(١) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٣/٢٩٨)، الطبرى فى تاريخه (٢/٣٠).
(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (١/١١٧)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/٧٥، ٧٦).

وبين محمد وما بعتبة ما قال: ولكنه قد رأى أن محمدًا وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه، فقد تخوفكم عليه.

ثم بعث إلى عامر بن الحضرمى، فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينيك، فقم فانشد خفرتك، ومقتل أخيك.

فقام عامر بن الحضرمى فاكتشف ثم صرخ: واعمراه، واعمراه! فحميت الحرب وحقب أمر الناس واستوسقوا على ما هم عليه من الشر وأفسد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة.

فلما بلغ عتبة قول أبى جهل: انتفخ والله سحره، قال: سيعلم مصفر استه من انتفخ سحره أنا أم هو؟!

ثم التمس عتبة بيضة ليدخلها فى رأسه فما وجد فى الجيش بيضة تسعة من عظم هامته، فلما ذلك اعتجر على رأسه ببرد له.

وخرج الأسود بن عبد الأسد المخزومى وكان رجلاً شرسًا سيىء الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه.

فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فضربه فأطن قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دمًا، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد. زعم أن يبر يمينه، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله فى الحوض.

ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة بين اخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة حتى إذا نصل من الصف دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة، وهم: عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء، وعبد الله بن رواحة. فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. قالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة وقم يا علىّ»[1]. فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم، فقال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال على: على. قالوا: نعم، أكفاء كرام.

فبارز عبيدة، وكان أسن القوم، عتبة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علىٌّ الوليد.

فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله. وأما علىٌّ فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة

---

(١) انظر الحديث فى: سنن أبى داود (٢٦٦٥)، من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه.

وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه، وكر حمزة وعليٌ بأسيافهما على عتبة فذففا عليه، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه.

وذكر ابن عقبة، أنه لما طلب القوم المبارزة فقام إليهم ثلاثة نفر من الأنصار، استحيا النبى ﷺ من ذلك لأنه كان أول قتال التقى فيه المسلمون والمشركون ورسول الله ﷺ شاهد معهم، فأحب النبى ﷺ أن تكون الشوكة ببنى عمه، فناداهم أن ارجعوا إلى مصافكم، وليقم إليهم بنو عمهم. فعند ذلك قام حمزة وعلىّ وعبيدة.

ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض، وأمر رسول الله ﷺ أصحابه أنه لا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: «إن أكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل»[1].

ورسول الله ﷺ فى العريش معه أبو بكر الصديق، وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ: أَحَدٌ، أَحَدٌ.

وعدل رسول الله ﷺ - يومئذ - صفوف أصحابه وفى يده قدح يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية - حليف بنى عدى بن النجار - وهو مستنتل من الصف - أى بارز - فطعن فى بطنة بالقدح وقال: «استو يا سواد». فقال: يا رسول الله أوجعتنى، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى. فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: «استقد»، فاعتنقه فقبل بطنه، فقال له: «ما حملك على هذا يا سواد؟»[2] قال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك، فدعا له بخير، وقاله له.

ثم عدل رسول الله ﷺ الصفوف ورجع إلى العريش، فدخله ومعه فيه أبو بكر، ليس معه فيه غيره، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد». وأبو بكر يقول: يا نبى الله، بعض مناشدتك ربك، فإن الله منجز لك ما وعدك.

وخفق رسول الله ﷺ خفقة وهو فى العريش، ثم انتبه فقال: «أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله! هذا جبريل آخذًا بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع»[3]. يريد الغبار.

ورُمى مِهْجَعٌ مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتله، فكان أول قتيل من المسلمين.

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٣٩٨٤، ٣٩٨٥)، سنن أبى داود (٢٦٦٣).
(٢) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢٧١)، تاريخ الطبرى (٢/٣٢).
(٣) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢٨٤).

ثم رُمى حارثة بن سراقة - أحد بنى عدى بن النجار - وهو يشرب من الحوض بسهم فأصاب نحره فقتله.

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرضهم، ثم قال: «والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»(١).

فقال عمير بن الحمام، أخو بنى سلمة وفى يده تمرات يأكلهن: بخ بخ! أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء! ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل حتى قُتل.

وقال - يومئذ - عوف بن الحارث وهو ابن عفراء: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده؟ فقال: «غمسه يده فى العدو حاسرًا»(٢) فنزع درعًا كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل.

وقاتل عكاشة بن محصن الأسدى حليف بنى عبد شمس يوم بدر بسيفه حتى انقطع فى يده، فاتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب، فقال: «قاتل بهذا يا عكاشة»(٣)، فلما أخذه هذه فعاد فى يده سيفًا طويل القامة شديد المتن أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمى العون، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قتل فى الردة وهو عنده، قتله طليحة الأسدى.

ثم إن رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشًا ثم قال: «شاهت الوجوه»(٤)، ثم نفحهم بها، ثم أمر أصحابه فقال: «شدوا»، فكانت الهزيمة عليهم.

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح مسلم كتاب الإمارة (١٤٥/٣)، مسند الإمام أحمد (١٣٦/٣، ١٣٧)، مستدرك الحاكم (٤٢٦/٣).

(٢) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٢٧١/٣).

(٣) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٩٨/٣، ٩٩)، المغازى للواقدى (٩٣/١).

(٤) انظر الحديث فى: صحيح مسلم فى كتاب الجهاد باب (٢٨) رقم (٨١)، مسند الإمام أحمد (٣٠٣/١، ٣٦٨، ٢٨٦/٥)، مستدرك الحاكم (١٦٣/١، ١٥٧/٣)، مجمع الزوائد للهيثمى (٨٤/٦، ١٨٤، ٤/٨، ٢٢٨)، دلائل النبوة للبيهقى (١٤١/٥، ٢٤٠/٦)، فتح البارى لابن حجر (١٦٩/٧، ٣٢/٨)، الدر المنثور للسيوطى (١٧٤/٥، ٢٢٤، ٢٢٦، ٣٤٥)، كنز العمال للمتقى الهندى (٣٦٩٧، ٢٩٩٢٤، ٢٩٩٢٥، ٣٠٢١٣، ٣٠٢٠٤)، تفسير ابن كثير (٥٧١/٣، ٥٨٦، ٦٩/٤)، تفسير القرطبى (٩٨/٨، ١٦، ٢٦٣)، البداية والنهاية لابن كثير (٢٨٤/٣).

وجعل الله تلك الحصباء عظيمًا شانها، لم تترك من المشركين رجلاً إلا ملأت عينيه.

واستولى عليهم المسلمون معهم الله وملائكته يقتلونهم ويأسرونهم ويجدون النفر كل رجل منهم مُنْكَبٌّ على وجهه لا يدرى أين يتوجه، يعالج التراب ينزعه من عينيه.

فقتل الله من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم.

فلما وضع القوم أيديهم يأسرون وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله ﷺ متوشح السيف فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ خوف كرة العدو عليه، رأى رسول الله ﷺ فى وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس، فقال له: «لكأنك والله يا سعد تكره ما يصنع القوم؟»[1] فقال: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان فى القتل أحب إلى من استقبال الرجال.

وقال رسول الله ﷺ يومئذ لأصحابه: «إنى قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم أخرجوا كرهًا، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقى منكم أحدًا من بنى هاشم فلا يقتله، ومن لقى أبا البخترى بن هشام فلا يقتله، ومن لقى العباس عم رسول الله فلا يقتله، فإنه إنما خرج مستكرهًا». فقال أبو حذيفة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس! والله لئن وجدته لألحمنه السيف. فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص». قال عمر: والله، إنه لأول يوم كنانى فيه رسول الله ﷺ بأبى حفص. «أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟»[2] فقال عمر: يا رسول الله، دعنى فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق.

فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ولا أزال منها خائفًا إلا أن تكفرها عنى الشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيدًا رحمه الله.

وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبى البخترى لأنه كان أكف القوم عنه بمكة، وكان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شىء يكرهه، وكان ممن قام فى نقض الصحيفة التى كتبت قريش على بنى هاشم وبنى المطلب.

فلقيه المجذر بن زياد البلوى حليف الأنصار - يوم بدر - فقال له: إن رسول الله

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢٨٤)، تاريخ الطبرى (٢/٣٤)، الكامل فى التاريخ لابن الأثير (٢/١٢٦).

(٢) انظر الحديث فى: تاريخ الطبرى (٢/٣٤)، عيون الأثر لابن سيد الناس (١/٣٩٨).

ﷺ قد نهانا عن قتلك، ومع أبى البخترى زميل له خرج معه من مكة، قال: وزميلى؟ قال المجذر: لا والله ما نحن بتاركى زميلك، ما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بك وحدك.

قال: إذا والله لأموتن أنا وهو جميعًا، لا تحدث عنى نساء مكة إنى تركت زميلى حريصا على الحياة، وقال يرتجز:

لن يسلم ابن حرة زميله   حتى يموت أو يرى سبيله

ثم اقتتلا فقتله المجذر، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: والذى بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به فأبى إلا أن يقاتلنى فقاتلته فقتلته.

هذا الذى ذكر ابن إسحاق فى قتل أبى البخترى(1).

وقال موسى بن عقبة: يزعم ناس أن أبا اليسر قتل أبا البخترى ويأبى أعظم الناس إلا أن المجذر هو الذى قتله.

ثم أضرب ابن عقبة عن القولين، وقال: بل قتله - غير شك - أبو داود المازنى وسلبه سيفه فكان عند بنيه حتى باعه بعضهم من بعض بنى أبى البخترى.

وكان المجذر قد ناشده أن يستأسره، وأخبره بنهى رسول الله ﷺ عن قتله، فأبى أبو البخترى أن يستأسر وشد عليه المجذر بالسيف وطعنه الأنصارى، يعنى أبا داود المازنى، بين ثدييه فأجهز عليه فقتله.

ويومئذ قال المجذر فيما ذكروا:

إما جهلت أو نسيت نسبى   فأثبت النسبة أنى من بلى
الطاعنين برماح اليزنى   والضاربين الكبش حتى ينحنى
بشر بيتم من أبوه البخترى   أو بشرن بمثلها منى بنى
أنا الذى يقال أصلى من بلى   أطعن بالصعدة حتى تنثنى
وأعبط القرن بعضب مشرفى   أرزم للموت كإرزام المرى
فلا ترى مجذرًا يفرى فرى

وقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه: كان أمية بن خلف لى صديقا بمكة، وكان اسمى عبد عمرو، فلما أسلمت تسميت عبد الرحمن، فكان يلقانى فيقول: يا عبد عمرو، أرغبت عن اسم سماكه أبوك؟ فأقول نعم. فيقول: فإنى. لا أعرف الرحمن،

(1) انظر السيرة (٢/٢٣٣).

فاجعل بينى وبينك شيئًا أدعوك به، أما أنت فلا تجيبنى باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف. فقلت له: يا أبا علىّ، اجعل ماشئت. قال: فأنت عبد الإله. فقلت: نعم.

حتى إذا كان يوم بدر مررت به وهو واقف مع ابنه على آخذ بيده ومعى أدراع لى قد استلبتها فأنا أحملها، فلما رآنى قال: يا عبد عمرو. فلم أجبه فقال: يا عبد الإله. فقلت: نعم. قال: هل لك فىَّ فأنا خير لك من هذه الأدراع؟ قلت: نعم.

فطرحت الأدراع من يدى وأخذت بيده ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط! أما لكم حاجة فى اللبن؟ يريد الفداء.

وقال عبد الرحمن: قال لى أمية وأنا بينه وبين ابنه آخذ بأيديهما: من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة فى صدره؟ زائده قلت: ذلك حمزة بن عبد المطلب. قال: ذلك الذى فعل بنا الأفاعيل.

قال عبد الرحمن: فوالله، إنى لأقودهما إذ رآه بلال، وكان هو الذى يعذبه بمكة على ترك الإسلام، فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت فيضجعه على ظهره ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد. فيقول بلال: أحد أحد. فلما رآه قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجوت، قال: قلت أى بلال أبأسيرى؟!

قال: لا نجوت إن نجا. قلت: أتسمع يا ابن السوداء؟ قال: لا نجوت إن نجا. ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا.

فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل المسكة، وأنا اذب عنه، فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنة فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط، فقلت: انج بنفسك، ولا نجاء به، فوالله ما أغنى عنك شيئا، فهبروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما، فكان عبد الرحمن يقول: رحم الله بلالاً، ذهبت أدراعى وفجعنى بأسيرى.

وقاتلت الملائكة يوم بدر. قال ابن عباس: ولم تقاتل فى يوم سواه، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عددًا ومددًا لا يضربون، وكانت سماهم يوم بدر عمائم بيضاء، قد أرسلوها فى ظهروهم، ويوم حنين عمائم حمرًا.

وذكر ابن هشام[1] عن على - رضى الله عنه - فى سيماهم يوم بدر مثل ما قال ابن عباس، إلا جبريل، فإن فى حديث على أنه كانت عليه عمامة صفراء.

وقال ابن عباس: حدثنى رجل من غفار قال: أقبلت أنا وابن عم لى حتى أصعدنا فى حيل يشرف بنا على بدر، ونحن مشركان ننظر لمن تكون الدبرة فننتهب مع من ينتهب؛ فبينا نحن فى الجبل إذ دنت منا سحابة فسمعنا فيها حمحمة الخيل، فسمعت قائلا يقول: أقدم حيزوم. فأما ابن عمى فانكشف قناع قلبه فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت.

وقال أبو أسيد الساعدى بعد أن ذهب بصره، وكان شهد بدرًا: لو كنت اليوم ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب الذى خرجت منه الملائكة، لا أشك ولا أتمارى.

وقال أبو داود المازنى: إنى لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى، فعرفت أنه قد قتله غيرى.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من عدوه أمر بأبى جهل أن يلتمس فى القتلى، وقال لهم: «انظروا إن خفى عليكم فى القتلى إلى أثر جرح فى ركبته، فإنى ازدحمت يومًا أنا وهو على مأدبة لعبد الله بن جدعان ونحن غلامان وكنت أشف منه بيسير، فدفعته فوقع على ركبتيه فجحشت فى إحداهما جحشًا لم يزل أثره به»[2].

---

(١) انظر السيرة (٢/٢٣٧).

(٢) ذكر ابن الجوزى فى المنتظم (٣/١١٥) فى ذكر مقتل أبى جهل قصة أصح من هذا وهى فى صحيح البخارى، فقال: أخبرنا عبد الأول، قا: أخبرنا الداوودى، قال: أخبرنا ابن أعين، قال: أخبرنا الفربرى، قال: حدثنا البخارى، قال: أخبرنا مسدد، قال: حدثنا يوسف بن يعقوب الماجشون، عن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبيه، عن جده عبد الرحمن، أنه قال: بينا أنا واقف فى الصف يوم بدر، فنظرت عن يمينى وعن شمالى، فإذا أنا بغلامين من الأنصار، حديثه أسنانهما، تمنيت لو كنت بين أضله منهما، فغمزنى أحدهما، فقال: يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، وما حاجتك إليه يا ابن أخى؟ قال: بلغنى أنه يسب رسول الله ﷺ، والذى نفسى بيده لئن رأيته لم يفارق سوادى سوداه حتى يموت الأعجل منا، قال: فغمزنى الآخر، فقال لى مثلها، فتعجبت لذلك ثم لم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس، فقلت لهما: ألا تريان هذا صاحبكما الذى تسألان عنه، فابتدراه فاستقبلهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: «أيكما قتله؟» فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: «مسحتما سيفيكما؟»، قالا: لا، فنظر رسول الله ﷺ فى السيفين، فقال: «كلاكما قتله»، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح.

=

وكان من حديث عدو الله يوم بدر أنه لما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قال: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة. فكان هو المستفتح، وأقبل يرتجز وهو يقول:

ما تنقم الحرب العوان منى   بازل عامين حديث سنى
لمثل هذا ولدتنى أمى

وكان أول من لقيه ذكر معاذ بن عمرو بن الجموح أخو بنى سلمة، قال: سمعت القوم وأبو جهل فى مثل الحربة يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه.

فلما سمعتها جعلته من شأنى فصمدت نحوه، فلما أمكننى حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقة، فضربنى ابنه عكرمة على عاتقى فطرح يدى فتعلقت بجلدة من جنبى، وأجهضنى القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومى وإنى لأسحبها خلفى، فلما آذتنى وضعت عليها قدمى ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها وعاش بعد ذلك معاذ هذا - رحمه الله - إلى زمان عثمان رضى الله عنه.

ثم مر بأبى جهل، وهو عقير، معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قتل.

فمر عبد الله بن مسعود بأبى جهل حين أمر رسول الله ﷺ بالتماسه فى القتلى. قال عبد الله: وقد كان ضبث بى مرة بمكة فآذانى ولكزنى، فوجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلى على عنقه ثم قلت له: أخزاك الله يا عدو الله! قال: وبماذا أخزانى؟ أعمد من رجل قتلتموه، أخبرنى لمن الدائرة اليوم؟ قلت: لله ولرسوله.

ثم احتزت رأسه، ثم جئت به رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبى جهل. فقال: «آلله الذى لا إله غيره؟»[(١)] وكانت يمين رسول الله ﷺ، قلت: نعم، والله الذى لا إله غيره. ثم ألقيت رأسه بين يديه، فحمد الله.

وخرج مسلم فى صحيحه عن عبد الرحمن بن عوف، قال: بينا أنا واقف فى الصف

= وقال ابن الجوزى هما: معاذ بن عمرو، ومعاذ بن عفراء.
قلت: والحديث أخرجه: البخارى فى صحيحه (٦/٢٤٦)، مسلم فى صحيحه كتاب الجهاد والسير (٣/٤٢)، أحمد فى المسند (١/١٩٣).

(١) انظر الحديث فى: السنن الكبر للبيهقى (٩/٦٢)، تاريخ الطبرى (٢/٣٧)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢٨٨).

يوم بدر نظرت عن يمينى وشمالى، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثه أسنانهما، فتمنيت لو كنت بين اضلع منهما فغمزنى أحدهما، فقال: يا عم، هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم وما حاجتك إليه يا ابن أخى؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا. قال: فتعجبت لذلك، فغمزنى الآخر فقال مثلها.

قال: فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذى تسألان عنه.

فابتدراه، فضرباه بسيفيهما حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: «أيكما قتله؟» فقال كل واحد منهما: أنا قتلته. فقال: «هل مسحتما سيفيكما؟» قالا: لا، فنظر فى السيفين، فقال: «كلاكما قتله». وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح. والرجلان: معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء.

وذكر ابن عقبة أن رسول الله ﷺ وقف يوم بدر على القتلى، فالتمس أبا جهل فلم يجده، حتى عرف ذلك فى وجه رسول الله ﷺ فقال: «اللهم لا يعجزن فرعون هذه الأمة».

فسعى له الرجال حتى وجده عبد الله بن مسعود مصروعًا، بينه وبين المعركة غير كبير، مقنعًا فى الحديد واضعًا سيفه على فخذيه، ليس به جرح ولا يستطيع أن يحرك منه عضوًا، وهو مكب ينظر إلى الأرض، فلما رآه ابن مسعود طاف حوله ليقتله وهو خائف أن ينوء إليه، فلما دنا منه وأبصره لا يتحرك ظن أنه مثبت جراحًا، فأراد أن يضربه بسيفه، فخاف أن لا يعنى شيئا فأتاه من ورائه، فتناول قائم سيف أبى جهل فاستله وهو مكب لا يتحرك، ثم رفع سابغة البيضة عن قفاه، فضربه فوقع رأسه بين يديه، ثم سلبه، فلما نظر إليه إذا هو ليس به جراح وأبصر فى عنقه حدرًا وفى يديه وكتفه مثل آثار السياط.

فأتى ابن مسعود النبى ﷺ فأخبره بقتله، والذى رأى به، فقال النبى ﷺ، زعموا: «ذلك ضرب الملائكة».

وأمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا فى القليب فطرحوا فيه إلا ما كان من أمية ابن خلف، فإنه انتفخ فى درعه فملأها، فذهبوا ليحركوه فتزايل، فأقروه وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة.

ويقال: إنهم ألقوا فى القليب وقف عليهم رسول الله ﷺ فقال: «يا أهل القليب، بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم، كذبتمونى وصدقنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس. يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا، فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا».

فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتكلم قومًا موتى؟

فقال لهم: «لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق».

قالت عائشة: والناس يقولون: لقد سمعوا ما قلت لهم، وإنما قال رسول الله ﷺ: «لقد علموا»[(١)].

وفى حديث أنس أن المسلمين قالوا لرسول الله ﷺ حين نادى أصحاب القليب: يا رسول الله، أتنادى قومًا قد جيفوا. فقال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى»[(٢)].

وذكر ابن عقبة نحوًا من ذلك عن نافع عن عبد الله بن عمر.

وقال حسان بن ثابت:

عرفت ديار زينب بالكثيب ... كخط الوحى فى الورق القشيب
تداولها الرياح وكل جون ... من الوسمى منهمر سكوب
فأمسى رسمها خلقا وأمست ... يبابا بعد ساكنها الحبيب
فدع عنك التذكر كل يوم ... ورد حرارة الصدر الكئيب
وخبر بالذى لا عيب فيه ... بصدق غير أخبار الكذوب
بما صنع المليك غداة بدر ... لنا فى المشركين من النصيب
غداة كأن جمعهم حراء ... بدت أركانه جنح الغروب
فلاقيناهم منا بجمع ... كأسد الغاب مردان وشيب
أمام محمد قد وازروه ... على الأعداء فى لقح الحروب
بأيديهم صوارم مرهفات ... وكل مجرب ماضى الكعوب

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٦/٢٧٦)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/٩٠، ٩١)، مستدرك الحاكم (٣/٢٢٤)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢٩٢).

(٢) انظر الحديث فى: صحيح مسلم كتاب الجنة (٤/٧٧)، سنن النسائى (٢٠٧٤)، مسند الإمام أحمد (٢/٣١).

بنـو الأوس الغطـارف وآزرتهـا بنو النجـار فـى الديـن الصليـب
فغادرنـا أبـا جهـل صريعـا وعتبـة قـد تركنـا بـالجبوب
وشـيبة قـد تركنـا فـى رجـال ذوى حسب إذا نسبوا حسـيب
ينـاديهم رسـول اللـه لمـا قذفنـاهم كبـاكب فـى القليـب
ألـم تجـدوا كلامـى كـان حقـا وأمـر اللـه يـأخذ بـالقلوب
فما نطقـوا ولـو نطقـوا لقالـوا صدقت وكنـت ذا رأى مصيـب

ولما أمر رسول الله ﷺ أن يلقوا فى القليب أخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب، فنظر رسول الله ﷺ - فيما ذكر - فى وجه أبى حذيفة بن عتبة فإذا هو كئيب قد تغير، فقال: «يا أبا حذيفة، لعلك دخلك من شأن أبيك شيء؟»[1] أو كما قال ﷺ.

قال: لا والله يا رسول الله، ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه، ولكنى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له، أحزننى ذلك.

فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له خيرًا.

وكان فى قريش فتية أسلموا ورسول الله ﷺ بمكة، فلما هاجر إلى المدينة حبسهم آباؤهم وعشائرهم بمكة، وفتنوهم فافتتنوا، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر فأصيبوا به جميعًا، فنزل فيهم من القرآن فيما ذكر: ﴿**إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرًا**﴾ [النساء: ٩٧].

وأولئك الفتية: الحارث بن زمعة بن الأسود، وأبو قيس بن الفاكه، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلى بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج.

ثم إن رسول الله ﷺ أمر بما فى العسكر مما جمع الناس فجمع.

فاختلف فيه المسلمون، فقال من جمعه: هو لنا. وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه: والله لولا نحن ما أصبتموه، لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم.

وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ مخافة أن يخالف إليه العدو:

والله، ما أنتم بأحق به منا، ولقد رأينا أن نقتل العدو إذ منحنا الله أكتافهم، ولقد

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٢/٢٩٤).

رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه، ولكنا خفنا على رسول الله ﷺ كرة العدو فقمنا دونه، فما أنتم بأحق به منا.

فكان عبادة بن الصامت إذا سئل عن الأنفال، قال: فينا معاشر أَصحاب بدر أنزلت حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسوله ﷺ فقسمه بيننا عن بواء. يقول: على السواء. فكان فى ذلك تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله، وصلاح ذات البين.

ثم بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة بشيرا إلى أهل العالية بما فتح الله على رسوله وعلى المسلمين، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة، قال أسامة بن زيد: فأتانا الخبر - حين سوينا على رقية بنت رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ خلفنى عليها مع زوجها عثمان - أن زيد بن حارثة قد قدم.

قال: فجئته وهو واقف بالمصلى وقد غشيه الناس وهو يقول: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام، وزمعة بن الأسود، وأبو البخترى بن هشام، وأمية ابن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج. قلت: يا أبه أحق هذا؟ قال: نعم والله يا بنى.

ثم أقبل رسول الله ﷺ قافلا إلى المدينة ومعه الأسارى من المشركين، وفيهم عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث، حتى إذا خرج رسول الله ﷺ من مضيق الصفراء، نزل على كثيب يقال له: سير إلى سرحة به، فقسم هنالك النفل الذى أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء.

ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء، لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين، فقال لهم سلمة بن سلامة بن وقش: ما الذى تهنئوننا به؟ فوالله، إنْ لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن المعلقة فنحرناها، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «أى ابن أخى؟ أولئك الملأ»[1].

حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالصفراء، قتل النضر بن الحارث، قتله على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية، قتل عقبة بن أبى معيط، فقال عقبة حين أمر بقتله: فمن للصبية يا محمد؟ قال: «النار»[2].

---

(١) انظر الحديث فى: تاريخ الطبرى (٣٨/٢)، البداية والنهاية لابن كثير (٣٠٥/٣).

(٢) انظر الحديث فى: تاريخ الطبرى (٣٨/٢)، مجمع الزوائد للهيثمى (٨٩/٦).

فقتله عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح، فى قول ابن عقبة وابن إسحاق. وقال ابن هشام[١]: قتله على بن أبى طالب رضى الله عنه.

وقالت قتيلة أخت النضر بن الحارث لما بلغها مقتل أخيها:

يا راكبا إن الأثيل مظنة	من صبح خامسة وأنت موفق[٢]
أبلغ بها ميتا بأن تحية	ما إن تزال بها النجائب تخفق[٣]
منى إليك وعبرة مسفوحة	جادت بواكفها وأخرى تخنق
هل يسمعنى النضر إن ناديته	أم كيف يسمع ميت لا ينطق
أمحمد يا خير ضَنْءِ كريمة	فى قومها والفحل فحل معرق[٤]
ما كان ضرك لو مننت وربما	منَّ الفتى وهو المغيظ المحنق
أو كنت قابل فدية فلينفقن	بأعز ما يغلو به ما ينفق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة	وأحقهم إن كان عتق يعتق
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه	لله أرحام هناك تشقق

قال ابن هشام: فيقال، والله أعلم: إن رسول الله ﷺ لما بلغه هذا الشعر قال: «لو بلغنى هذا قبل مقتله لمننت عليه»[٥].

ثم مضى رسول الله ﷺ حتى قدم المدينة قبل الأسارى بيوم، وقد كان فرقهم بين أصحابه، وقال: استوصوا بالأسارى خيرًا.

وكان أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه فى الأسارى، قال: وكنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر، وكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصونى بالخبز، وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع فى يد رجل منهم كسرة من الخبز إلا نفحنى بها، قال: فاستحى فأردها عليه فيردها على ما يمسها!

قال: ومر بى أخى مصعب ورجل من الأنصار يأسرنى، فقال له: شد يديك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك، فقال له أبو عزيز - فيما ذكر ابن هشام - يا أخى،

---

(١) انظر السيرة (٢/٢٤٩).

(٢) الأثيل: تصغير أثل، والأثل: هو شجر الطرفاء، ثم سمى به موضع قرب المدينة بين بدر، ووادى الصفراء. ومظنة: موضع لحصول الظن.

(٣) النجائب: كرام الإبل. تخفق: تسرع.

(٤) ضن: النسل والولد. المعرق: الكريم الذى يأتى بنسل كرام.

(٥) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٣/٣٠٦).

هذه وصاتك بى! فقال له مصعب: إنه أخى دونك، فسألت أمه عن أغلى ما فدى به قرشى، فقيل لها: أربعة آلاف درهم، فبعثت ففدته بها.

وذكر قاسم بن ثابت فى دلائله: أن قريشا لما توجهت إلى بدر مر هاتف من الجن على مكة - فى اليوم الذى أوقع بهم المسلمون - وهو ينشد بأبعد صوت ولا يرى شخصه:

أزار الحنيفيون بدرًا وقيعة سينقض منها ركن كسرى وقيصرا
أبادت رجالاً من لؤى وأبرزت خرائد يضربن الترائب حسرا
فيا ويح من أمسى عدو محمد لقد جار عن قصد الهدى وتحيرا

فقال قائلهم: من الحنيفيون؟ فقالوا: هو محمد وأصحابه، يزعمون أنهم على دين إبراهيم الحنيف، ثم لم يلبثوا أن جاءهم الخبر اليقين.

وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش: الحيسمان بن عبد الله الخزاعى. فقالوا: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وأبو البخترى بن هشام، فلما جعل يعدد أشراف قريش، قال صفوان بن أمية وهو قاعد فى الحجر: والله إن يعقل هذا، فسلوه عنى. قالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟ قال: ها هو ذاك جالس فى الحجر، وقد والله رأيت اباه وأخاه حين قتلا.

وقال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: كنت غلامًا للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت فأسلم العباس، وأم الفضل، وأسلمت، وكان العباس يهاب قومه، ويكره خلافهم، فكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق فى قومه، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله وأخزاه، ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزة، وكنت أعمل الأقداح فى حجرة زمزم، فوالله، إنى لجالس فيها أنحت أقداحى وعندى أم الفضل جالسة، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه بشر حتى جلس إلى طنب الحجرة ظهره إلى ظهرى.

فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم. فقال أبو لهب: هلم إلى فعندك لعمرى الخبر، فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخى، أخبرنى كيف كان أمر الناس؟ قال: والله، ما هو إلا أن لقينا القوم منحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ويأسروننا كيف شاءوا، وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس،

لقينا رجالاً بيضًا على خيل بلق بين السماء والأرض، واله ما تليق شيئًا، ولا يقوم لها شىء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدى ثم قلت: تلك والله الملائكة! فرفع أبو لهب يده فضرب وجهى ضربة شديدة، وثاورته فاحتملنى وضرب بى الأرض، ثم برك عَلَىَّ يضربنى وكنت رجلاً ضعيفًا، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فضربته به ضربة فلقت فى رأسه شجة منكرة. وقالت أتستضعفه أن غاب عنه سيده! فقام موليا ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته.

وذكر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه أن العدسة قرحة كانت العرب تتشاءم بها، ويرون أنها تعدى أشد العدوى.

فلما أصابت أبا لهب تباعد عنه بنوه، وبقى بعد موته ثلاثًا لا تقرب جنازته، ولا يحاول دفنه، فلما خافوا السُّبَّةَ فى تركه حفروا له ثم دفعوه بعود فى حفرته، وقذفوه بالحجارة من بعيد، حتى واروه.

وقال ابن إسحاق فى رواية يونس بن بكير عنه: إنهم لم يحفروا له ولكن أسندوه إلى حائط وقذفوا عليه الحجارة من خلف الحائط، حتى واروه.

ويروى أن عائشة - رضى الله عنها - كانت إذا مرت بموضعه ذلك غطت وجهها.

وخرج البخارى فى صحيحه: أن أبا لهب رآه بعض أهله فى المنام بشرحيبة، أى حالة، فقال: مالقيت بعدكم راحة، غير أنى سقيت فى مثل هذه - وأشار إلى النقرة بين السبابة والإبهام - بعتقى ثويبة.

وثويبة هذه أرضعت رسول الله ﷺ وارضعت عمه حمزة وابا سلمة بن عبد الأسد.

وروى غير البخارى أن الذى رأى أبا لهب من أهله هو أخوه العباس، وأنه قال: مكثت حولاً بعد موت أبى لهب لا أراه فى نوم، ثم رأيته فى شر حال، فقال: ما لقيت بعدكم راحة، إلا أن العذاب يخفف عنى كل يوم اثنين.

وذلك أن رسول الله ﷺ ولد يوم الاثنين، فبشرت أبا لهب بمولده ثويبة مولاته، فقالت له: أشعرت أن آمنة ولدت غلامًا لأخيك عبد الله؟ فقال لها: اذهبى فأنت حرة، فنفعه ذلك وهو فى النار، كما نفع أخاه ابا طالب ذبه عن رسول الله ﷺ واجتهاده فى منعه ونصرته، فهو أهون أهل النار عذابًا.

ويفعل الله ما يشاء مما يطابق سابق تقديره، وقد قضى الله - سبحانه - بإحباط عمل الكافرين، فمحال أن يقيم لهم يوم القيامة وزنًا، أو ينالوا عنده بشىء قدموه مما يتصور بصورة الأعمال الصالحة نعيمًا، إلا أنه ربما جعل التفاوت بين جماهيرهم وبين شاء منهم بمقدار العذاب، فيضاعفه على قوم أضعافا، ويضع من شدائده عن آخرين تخفيفًا.

وكل عذاب الله شديد، فنعوذ برضا مولانا الكريم من سخطه، وبمعافاته من عقوبته.

وحدث محمد بن إسحاق بن يسار عن يحيى بن عباد، عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير، قال: ناحت قريش على قتلاهم، ثم قالوا: لا تفعلوا فيبلغ محمدًا وأصحابه فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا فى أسراكم حتى تستأنوا بهم لا يأرب عليكم محمد وأصحابه فى الفداء.

قال: وكان الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده: زمعة وعقيل ابناه، والحارث بن زمعة وهو ابن ابنه، وكان يحب أن يبكى عليهم، فسمع نائحة من الليل فقال لغلام له وقد ذهب بصره، انظر هل أحل النحب؟ هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلى ابكى على أبى حكيمة - يعنى زمعة - فإن جوفى قد احترق!

فلما رجع إليه الغلام، قال: إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته. قال: فذاك حين يقول الأسود:

أتبكى أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكى على بكر ولكن ... على بدر تقاصرت الجدود

فى أبيات ذكرها ابن إسحاق[1].

وقد تقدم دعاء رسول الله ﷺ على الأسود بن عبد المطلب هذا بأن يعمى الله بصره ويثكله ولده، فاستجيب له وفق دعائه، سبق العمى أولا إلى بصره، ثم أصيب يوم بدر بمن سمى آنفا من ولده، فتمت إجابة الله سبحانه رسوله فيه.

وكان فى الأسارى أبو وداعة السهمى، فقال رسول الله ﷺ: «إن له بمكة ابنا كيسا تاجرًا ذا مال، وكأنكم به قد جاءكم فى طلب فداء أبيه»[2]، فلما قالت قريش: لا

---

(١) انظر السيرة (٢/٢٥٣).
(٢) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (٦/٩٠)، تاريخ الطبرى (٢/٤١).

تعجلو بفداء أسراكم لا يأرب عليكم محمد وأصحابه، قال المطلب بن أبى وداعة، وهو الذى كان رسول الله ﷺ عنى، صدقتم لا تعجلوا. وانسل من الليل فقدم المدينة فأخذ اباه بأربعة آلاف درهم.

ثم بعثت قريش فى فداء الأسارى، فقدم مكرز بن حفص بن الأحنف فى فداء سهيل بن عمرو وكان الذى أسره مالك بن الدخشم أخو بنى سالم بن عوف، فلما قاولهم فيه مكرز وانتهى إلى رضاهم قالوا: هات الذى لنا، قال: اجعلوا رجلى مكان رجله، وخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه. فخلوا سبيل سهيل، وحبسوا مكرزًا مكانه عندهم، فقال مكرز:

فديت بأذواد ثمان سبا فتى ينال الصميم غرمها لا المواليا
رهنت يدى والمال أيسر من يدى على ولكنى خشيت المخازيا
وقلت سهيل خيرنا فاذهبوا به لأبنائنا حتى ندير الأمانيا

وكان سهيل قد قام فى قريش خطيبًا عندما استنفرهم أبو سفيان، فقال: يا لغالب أتاركون أنتم محمدًا والصبا من أهل يثرب يأخذون عيرانكم وأموالكم، من أراد مالاً فهذا مالى، ومن أراد قوة فهذه قوة.

فيروى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال لرسول الله ﷺ لما أسر سهيل يوم بدر: يا رسول الله، انزع ثنتيتى سهيل بن عمرو يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيبا فى موطن أبدًا.

فقال رسول الله ﷺ: «لا أمثل به، فيمثل الله بى، وإن كنت نبيا! إنه عسى أن يقوم مقاما لا تذمة»[1].

فصدق الله ورسوله، وكان لسهيل بعد وفاته ﷺ فى تثبيت أهل مكة على الإيمان مقام سيأتى ذكر حديثه فى موضعه إن شاء الله.

وكان عمرو بن أبى سفيان بن حرب أسيرًا فى يدى رسول الله ﷺ من أسارى بدر، فقيل لأبى سفيان بن حرب: أفد عمرًا ابنك. فقال: أيجمع على دمى ومالى، قتلوا حنظلة وأفدى عمرًا؛ دعوه فى أيديهم يمسكونه ما بدا لهم!

---

(١) انظر الحديث فى: كنز العمال للمتقى الهندى (١٣٣٩٥، ١٣٤٤٧، ١٣٤٤٨)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/٣١٠).

فبينا هو كذلك محبوس بالمدينة عند رسول الله ﷺ إذ خرج سعد بن النعمان بن أكال أخو بنى عمرو بن عوف معتمرًا، ومعه مرية له، وكان شيخًا مسلمًا فى غنم له بالبقيع، فخرج من هنالك معتمرًا ولا يخشى الذى صنع به، لم يظن أنه يحبس بمكة، إنما جاء معتمرًا، وقد كان عهد قريشًا لا يعرضون لأحد جاء حاجًا أو معتمرًا إلا بخير، فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة فحبسه بابنه عمرو. ثم قال:

أرهط ابن أكال أجيبوا دعاءه ... تعاقدتم لا تسلموا السيد الكهلا
فإن بنى عمرو لئام أذلة ... لئن لم تفكوا عن أسيرهم الكبلا

فأجابه حسان بن ثابت فقال:

ولو كان سعد يوم مكة مطلقا ... لأكثر فيكم قبل أن يؤسر القتلا
بعضب حسام أو بصفراء نبعة ... تحن إذا ما أنبضت تحفز النبلا

ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ فأخبروه خبره، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبى سفيان، فيفكوا به صاحبهم، ففعل رسول الله ﷺ فبعثوا به إلى أبى سفيان، فخلى سبيل سعد.

وكان فى الأسارى - أيضا - أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس، ختن رسول الله ﷺ زوج ابنته زينب، وكان ﷺ يثنى عليه فى صهره خيرًا، وكان من رجال مكة المعدودين مالاً وأمانة وتجارة، وهو ابن أخت خديجة - رضى الله عنها - وهى سألت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى أن يزوجه، وكان لا يخالفها، فزوجه، وكانت تعده بمنزلة ولدها.

فلما أكرم الله رسوله ﷺ بنبوته، آمنت به خديجة وبناته، فصدقنه ودن بدينه، وشهدن أن الذى جاء به هو الحق، وثبت أبو العاص على شركه.

فلما بادى رسول الله ﷺ قريشًا بأمر الله تبارك وتعالى وبالعداوة، قالوا: إنكم فرغتم محمدًا من همه، فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن. فمشوا إلى أبى العاص فقالوا له: فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت. قال: لا ها الله، إذًا لا أفارق صاحبتى، وما أحب أن لى بها امرأة من قريش.

ثم مشوا إلى عتبة بن أبى لهب وكان رسول الله ﷺ قد زوجه رقية أو أم كلثوم، فقالوا له: طلق ابنة محمد ونحن ننكحك أى امرأة من قريش شئت، فقال: إن زوجتمونى ابنة أبان بن سعيد بن العاص، أو ابنة سعيد بن العاص فارقتها. فزوجوه بنت سعيد بن

العاص وفارقها، ولم يكن دخل بها، فأخرجها الله من يده كرامة لها وهوانًا له. وخلف عليها عثمان بن عفان بعده.

وكان رسول الله ﷺ لا يحل بمكة ولا يحرم، مغلوبا على أمره، وكان الإسلام قد فرق بين زينب ابنته وبين أبى العاص، إلا أنه كان لا يقدر أن يفرق بينهما، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه، حتى هاجر رسول الله ﷺ.

فلما سارت قريش إلى بدر سار فيهم أبو العاص فأصيب فى الأسارى، فكان بالمدينة عند رسول الله ﷺ، فلما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ فى فداء أبى العاص بمال وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى بها، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذى لها فافعلوا»[1] قالوا: نعم يا رسول الله. فأطلقوه وردوا عليها مالها.

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه أن يخلى سبيل زينب إليه، أو وعده أبو العاص بذلك، أو شرطه عليه رسول الله ﷺ فى إطلاقه، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله ﷺ فيعلم ما هو.

إلا أنه لما خرج أبو العاص إلى مكة وخلى سبيله، بعث رسول الله ﷺ مكانه زيد بن حارثة، ورجلاً من الأنصار، فقال: كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباها، حتى تأتيانى بها. فخرجا وذلك بعد بدر بشهر أو سبعة، فلما قدم أبو العباس مكة أمرها باللحوق بأبيها، فخرجت تتجهز.

قالت زينب: بينا أنا أتجهز بمكة لقيتنى هند ابنة عتبة، فقالت: يا ابنة محمد ألم يبلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ قالت: ما أردت ذلك. قالت: أى ابنة عم لا تفعلى، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك فى سفرك أو بمال تتبلغين به إلى أبيك، فإن عندى حاجتك، فلا تضطنى منى فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال. قالت زينب: فوالله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل، ولكنى خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك، وتجهزت.

---

(١) انظر الحديث فى: سنن أبى داود (٢٦٩٢)، مسند الإمام أحمد (٢٧٦/٦)، السنن الكبرى للبيهقى (٣٢٢/٦)، مستدرك الحاكم (٤٥/٤)، مشكاة المصابيح للتبريزى (٣٩٧٠).

ولما فرغت بنت رسول الله ﷺ من جهازها قدم إليها كنانة بن الربيع[1] أخو زوجها بعيرًا فركبته، وأخذ قوسه وكنانته ثم خرج بها نهارًا يقود بها وهى فى هودج لها، وتحدث بذلك رجال قريش، فخرجوا فى طلبها حتى أدركوها بذى طوى، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود الفهرى، فروعها هبار بالرمح وهى فى هودج لها، وكانت حاملاً - فيما يزعمون - فلما ريعت طرحت ذا بطنها.

وبرك حموها كنانة ونثر كنانته ثم قال: والله، لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهمًا. فتكركر الناس عنه، وأتى أبو سفيان بن حرب فى جلة من قريش فقال: أيها الرجل، كف عنا نبلك حتى نكلمك. فكف، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تصب، خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد. فيظن الناس إذا خرجت إليه ابنته علانية على رءوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك عن ذل أصابنا عن مصيبتنا التى كانت، وأن ذلك من ضعف ووهن، ولعمرى! ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا فى ذلك من ثورة ولكن أرجع المرأة، حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها، فسلها سرًا وألحقها بأبيها. ففعل، فأقامت ليالى حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدما بها على رسول الله ﷺ.

ولما انصرف الذين خرجوا إلى زينب لقيتهم هند بنت عتبة فقالت لهم:

أفى السلم أعيار جفاء وغلظة   وفى الحرب أشباه النساء العوارك

وأمر رسول الله ﷺ بسرية بعثها بتحريق هبار بن الأسود أو الرجل الذى سبق معه إلى زينب إن ظفروا بهما، ثم بعث إليهم فقال: «إنى كنت قد أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا الله عز وجل، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما»[2].

وأقام أبو العاص بمكة وأقامت زينت عند رسول الله ﷺ، حين فرق بينهما الإسلام، حتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجرًا إلى الشام، وكان رجلاً مأمونًا، بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها معه، فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلاً لقيته سرية لرسول الله ﷺ فأصابوا ما معه وأعجزهم هاربًا، فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله

---

(١) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٧٤٧٩)، أسد الغابة ترجمة رقم (٤٥٠٦).

(٢) انظر الحديث فى: مصنف ابن أبى شيبة (٣٨٩/١٢).

أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ فاستجار بها فأجارته، وجاء فى طلب ماله، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الصبح فكبر وكبر الناس معه صرخت زينب من صفة النساء: أيها الناس: إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع. فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال: «أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟» قالوا: نعم، قال: «أما والذى نفس محمد بيده، ماعلمت بشىء حتى سمعت ما سمعتم، إنه يجير على المسلمين أدناهم».

ثم انصرف، فدخل على ابنته فقال: «أى بنية، أكرمى مثواه ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين له»[١]. وبعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص فقال لهم: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالا، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم، فأنتم أحق به»[٢]. قالوا: يا رسول الله، بل نرده عليه، فردوه عليه، حتى إن الرجل ليأتى بالدلو ويأتى الرجل بالشنه والإداوده، حتى إن الرجل ليأتى بالشظاظ حتى ردوا عليه ماله بأسره لا يفقد منه شيئا، ثم احتمل إلى مكة فأدى إلى كل ذى مال من قريش ماله ثم قال: يا معشر قريش، هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيا كريمًا. قال: فإنى أشهد لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها، أسلمت. ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ.

وحكى ابن هشام عن أبى عبيدة[٣]، أن أبا العاص لما قدم من الشام ومعه أموال المشركين قيل له: هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال، فإنها للمشركين؟ فقال: بئس ما أبدأ به إسلامى أن أخون أمانتى.

ومن رسول الله ﷺ على نفر من الأسارى من قريش بغير فداء، منهم أبو عزة عمرو ابن عبد الله الجمحى، كان محتاجا ذا بنات، فكلم رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، لقد عرفت مالى من مال، وإنى لذو حاجة وذو عيال، فامنن على. فمن عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحدًا، فقال أبو عزة فى ذلك يمدح رسول الله ﷺ

---

(١) انظر الحديث فى: نصب الراية للزيلعى (٣/٢١١)، سنن البيهقى (٩/٩٥)، مستدرك الحاكم (٣/٢٣٦، ٢٣٧).

(٢) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٤/٨٥)، مستدرك الحاكم (٣/٢٣٧).

(٣) انظر السيرة (٢/٢٦٤).

ويذكر فضله على قومه:

ومن مبلغ عنى الرسول محمدا بأنك حق والمليك حميد
وأنت امرؤ تدعو إلى الحق والهدى عليك من الله العظيم شهيد
وأنت امرؤ بوئت فينا مباءة لها درجات سهلة وصعود
فإنك من حاربته لمحارب شقى ومن سالمته لسعيد
ولكن إذا ذكرت بدرا وأهله تأوب ما بى حسرة وقعود(١)

وذكر موسى بن عقبة أن المسلمين جهدوا على أبى عزة هذا عندما أسر ببدر أن يسلم، فقال: لا، حتى أضرب فى الخزرجية يومًا إلى الليل.

وما وقع فى شعره ومحاورته رسول الله ﷺ مما يقتضى التصريح برسالته، فلا أعلم له مخرجًا، إن صح، إلا أن يكون ذلك من جملة ما قصد به أبو عزة أن يخدع رسول الله ﷺ، فعاد على عدو الله ما ائتمر، ولم يخدع إلا نفسه وما شعر، وذلك أنه لما أخذت قريش قبل أحد فى الإعداد لحرب رسول الله ﷺ طلبًا بثأرهم فى يوم بدر قال صفوان ابن أمية لأبى عزة هذا: يا أبا عزة، إنك امرؤ شاعر، فأعنا بلسانك، فاخرج معنا، فقال: إن محمدًا قد منَّ علىَّ فلا أريد أن أظاهر عليه. قال: بلى، فأعنا بنفسك، فلك الله على إن رجعت أن أعينك، وإن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى، يصيبهن ما أصابهن من عز ويسر.

فخرج أبو عزة يسير فى تهامة ويدعو بنى كنانة ويقول:

أيا بنى عبد مناة الرزام أنتم حماة وأبوكم حام
لا تعدمونى نصركم بعد العام لا تسلمونى لا يحل إسلام

ثم كان من الأمر يوم أحد ما كان، وخرج رسول الله ﷺ بعد الوقعة مرهبا لعدوه حتى انتهى إلى حمراء الأسد، فأخذ رسول الله ﷺ فى وجهه ذلك أبا عزة الجمحى، فقال: يا رسول الله، أقلنى. فقال رسول الله ﷺ: «والله لا تمسح عارضيك بمكة، تقول: خدعت محمدًا مرتين، اضرب عنقه يا زبير»(٢). فضرب عنقه.

وذكر ابن هشام - فيما بلغه عن سعيد بن المسيب - أن رسول الله ﷺ قال له: «إن

---

(١) ذكر قصته ابن حجر فى فتح البارى (١٠/٥٤٧)، العجلونى فى كشف الخفاء (٢/٥٠٥)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/٣١٢، ٣١٣)، ابن سيد الناس فى عيون الأثر (١/٤١٢).
(٢) انظر الحديث فى: فتح البارى لابن حجر (١٠/٥٤٧)، السنن الكبرى للبيهقى (٩/٦٥).

المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، اضرب عنقه، يا عاصم بن ثابت»[1] فضرب عنقه.

وكان عمير بن وهب[2] شيطانا من شياطين قريش، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ وأصحابه بمكة ويلقون منه عنتًا، وكان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر، فجلس عمير مع صفوان بن أمية فى الحجر بعد مصاب أهل بدر بيسير، فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال له صفوان: فوالله، إن فى العيش خير بعدهم. فقال عمير: صدقت والله، أما والله لولا دين على ليس له عندى قضاء وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لى فيهم علة، ابنى أسير فى أيديهم.

فاغتنمها صفوان فقال: على دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا لا يسعنى شيء ويعجز عنهم، قال: عمير: فاكتم عنى شأنى وشأنك، قال: أفعل. ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم، ثم انطلق حتى قدم المدينة. فبينا عمر بن الخطاب فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحًا السيف، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر، وهذا الذى حرش بيننا[3] وحزرنا للقوم[4] يوم بدر.

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبى الله، هذا عدو الله عمير بن وهب، قد جاء متوشحًا سيفه. قال: «فأدخله علىّ». فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلببه بها وقال لرجال من الأنصار كانوا معه: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه هذا الخبيث فإنه غير مأمون. ثم دخل به، فلما رآه رسول الله ﷺ كذلك قال: «أرسله يا عمر، أدن يا عمير». فدنا ثم قال: أنعموا صباحا، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله ﷺ: «قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام، تحية أهل الجنة» قال: أما والله إن كنت بها يا محمد لحديث عهد. قال: «فما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه، قال: «فما

---

(١) انظر الحديث فى: السنن الكبرى للبيهقى (٩/٦٥)، مشكل الآثار للطحاوى (٢/١٩٧)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/٥١)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/١/٣٠).

(٢) انظر ترجمته فى: الجرح والتعديل (٦/٢٠٩١)، الإصابة ترجمة رقم (٦٠٧٣)، أسد الغابة ترجمة رقم (٤٠٩٦)، البداية والنهاية (٣/١١٣، ٥/٨).

(٣) حرش بيننا: أى أفسد بيننا.

(٤) حزرنا للقوم: أى قدر عددنا.

بال السيف فى عنقك؟» فقال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت شيئًا! قال: «أصدقنى، ما الذى جئت له؟» قال: ما جئت إلا لذلك. قال: «بلى، قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له، والله حائل بينك وبين ذلك». قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا المساق. ثم شهد بشهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: «فقهوا أخاكم فى دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره»[1] ففعلوا.

ثم قال: يا رسول الله، إنى كنت جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وأنا أحب أن تأذن لى فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم.

فأذن له رسول الله ﷺ فلحق بمكة. وكان صفوان حين خرج عمير يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر. وكان يسأل عنه الركبان، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبدًا ولا ينفعه بنفع أبدًا، فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام ويؤذى من خالفه أذى شديدًا، فأسلم على يديه ناس كثير.

وعمير هذا أو الحارث بن هشام - يشك ابن إسحاق - هو الذى رأى إبليس حين نكص على عقبيه يوم بدر فقال: أين أى سراق؟ ومثل عدو الله فذهب. فأنزل الله - تبارك وتعالى - فيه: ﴿**وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم**﴾ [الأنفال: ٤٨] فذكر استدراج إبليس إياهم بتشبهه بسراقة بن مالك بن جعشم لهم حين ذكروا ما بينهم وبين بنى بكر من الحرب، يقول الله عز وجل: ﴿**فلما تراءت الفئتان**﴾ ونظر عدو الله إلى جنود الله من الملائكة قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين على عدوهم ﴿**نكص على عقبيه وقال إنى بريء منكم إنى أرى ما لا ترون**﴾ وصدق عدو الله الكذوب، رأى ما لم يروا وقال: ﴿**إنى اخاف الله**

---

(١) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (٨/٢٨٦، ٢٨٧)، الخصائص الكبرى للسيوطى (١/٣٤٤)، تاريخ الطبرى (٢/٤٤، ٤٦)، المغازى للواقد (١/١٢٥)، عيون الأثر لابن سيد الناس (١/٤١٣، ٤١٤).

والله شديد العقاب﴾ فذكر أنهم كانوا يرونه فى كل منزل فى صورة سراقة لا ينكرونه، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان نكص على عقبية فأوردهم ثم أسلمهم.

وفى ذلك يقول حسان بن ثابت:

قومى الذين هم آووا نبيهم ... وصدقوه وأهل الأرض كفار
إلا خصائص أقوام هم سلف ... للصالحين مع الأنصار أنصار
مستبشرين بقسم الله قولهم ... لما أتاهم كريم الأصل مختار
أهلا وسهلا ففى أمن وفى سعة ... نعم النبى ونعم القسم والجار
فأنزلوه بدار لا يخاف بها ... من كان جارهم دارًا هى الدار
وقاسموهم بها الأموال إذ قدموا ... مهاجرين وقسم الجاحد النار
سرنا وساروا إلى بدر لحينهم ... لو يعلمون يقين العلم ما ساروا
دلاهم بغرور ثم أسلمهم ... إن الخبيث لمن والاه غرار
وقال إنى لكم جار فأوردهم ... شر الموارد فيه الخزى والعار
ثم التقينا فولوا عن سراتهم ... من منجدين ومنهم فرقة غاروا

ويروى أن قريشا رأوا سراقة المدلجى بعد وقعة بدر، وهو الذى تمثل لهم إبليس فى صورته يوم بدر كما تقدم، فقالوا له: ياسراقة، أخرمت الصف وأوقعت فينا الهزيمة؟! فقال: والله ما علمت بشىء من أمركم حتى كانت هزيمتكم، وما شهدت معكم. فما صدقوه حتى اسلموا وسمعوا ما أنزل الله فى ذلك، فعلموا أنه كان إبليس تمثل لهم.

ولما انقضى أمر بدر، أنزل الله - تبارك وتعالى - فيه من القرآن «الآنفال» بأسرها.

وكان جميع من شهد بدرًا من المسلمين من المهاجرين والأنصار، من شهدها ومن ضرب له بسهمه وأجره ثلاثمائة رجل وأربعة عشر رجلاً، من المهاجرين ثلاثة وثمانون رجلاً: ثلاثة منهم ضرب لهم بسهامهم وأجورهم ولم يشهدوا، وهم: عثمان بن عفان، تخلف على امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ لمرضها الذى توفيت فيه قبل أن يرجع رسول الله ﷺ من بدر، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه. قال: وأجرى يا رسول الله ﷺ؟ قال: «وأجرك». وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد، كانا بالشام فرجعا بعد رجوع رسول الله ﷺ من بدر، فضرب لكليهما بسهمه. قال: وأجرى يا رسول الله؟ قال: وأجرك.

ومن الأوس: واحد وستون، اثنان منهم ضرب لهما بسهميهما: عاصم بن عدى

العجلانى، رده رسول الله ﷺ بعد أن خرج معه وضرب له بسهم، وخوَّات بن جبير ضرب له، أيضًا، بسهمه.

ومن الخزرج مائة وسبعون رجلاً، منهم الحارث بن الصمة كُسِر به بالروحاء فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه.

واستشهد يومئذ من المسلمين مع رسول الله ﷺ أربعة عشر رجلاً: ستة من قريش: عبيدة بن الحارث بن المطلب، وعمير بن أبى وقاص الزهرى، وذو الشمالين بن عبد عمرو حليف بنى زهرة، وعاقل بن البكير حليف لبنى عدى، ومهجع مولى عمر بن الخطاب، وصفوان بن بيضاء.

ومن الأنصار ثمانية نفر، خمسة من الأوس: سعد بن خيثمة، ومبشر بن عبد المنذر من بنى عمرو بن عوف، ويزيد بن الحارث الذى يقال له: ابن فُسْحم من بنى الحارث ابن الخزرج، وعمير بن الحمام من بنى سلمة، ورافع بن المعلى من بنى جشم.

وثلاثة من الخزرج من بنى النجار: حارثة بن سراقة، وعوف ومعوذ ابنا الحارث بن رفاعة منهم، وهم ابنا عفراء، رحمة الله على جميعهم ورضوانه.

وكان من المسلمين يوم بدر من الخيل فرس الزبير بن العوام، وفرس مرثد بن أبى مرثد الغنوى، وفرس المقداد بن عمرو البهرانى.

وذكر ابن إسحاق أن جميع من أحصى له من قتلى قريش من المشركين يوم بدر خمسون رجلاً. وقال ابن هشام[1]: حدثنى أبو عبيدة عن أبى عمرو أن قتلى بدر من المشركين كانوا سبعين رجلاً والأسرى كذلك، وهو قول ابن عباس وسعيد بن المسيب. وفى كتاب الله تبارك وتعالى: ﴿**أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها**﴾ يقول لأصحاب أحد، وكان من أستشهد منهم سبعين رجلاً، يقول: قد أصبتم يوم بدر مثلى من استشهد منكم يوم أحد: سبعين قتيلاً وسبعين أسيرًا.

وأنشدنى أبو زيد الأنصارى لكعب بن مالك من قصيدة له ينعى قتلى بدر:

فأقام بالعطن المعطن منهم سبعون عتبة منهم والأسود

وكان مما قيل فى يوم بدر من الشعر: قول حمزة بن عبد المطلب يرحمه الله، ومن أهل العلم من ينكرها له:

---

(١) انظر السيرة (٢/٣٠٧).

ألم تر أمرًا كان من عجب الدهر ... وللحين أسباب مبينة الأمر
وما ذاك إلا أن قومًا أفادهم ... فخانوا تواص بالعقوق وبالكفر
عشية راحوا نحو بدر بجمعهم ... فكانوا رهونا للركية من بدر[١]
وكنا طلبنا العير لم نبغ غيرها ... فساروا إلينا فالتقينا على قدر
فلما التقينا لم تكن مثنوية ... لنا غير طعن بالمثقفة السمر
وضرب ببيض يختلى الهام حدها ... مشهرة الألوان بينة الأثر
ونحن تركنا عتبة الغى ثاويا ... وشيبة فى القتلى تجرجم فى الجفر
وعمرو ثوى فيمن ثوى من حماتهم ... فشقت جيوب النائحات على عمرو
جيوب نساء من لؤى بن غالب ... كرام تفر عن الذوائب من فهر
أولئك قوم قتلوا فى ضلالهم ... وخلوا لواء غير محتضر النصر
لواء ضلال قاد إبليس أهله ... فخاس بهم إن الخبيث إلى غدر
وقال لهم إذ عاين الأمر واضحا ... برئت إليكم ما بى اليوم من صبر
فإنى أرى ما لا ترون وإننى ... أخاف عقاب الله والله ذو قسر[٢]
فقدمهم للحين حتى تورطوا ... وكان بما لم يخبر القوم ذا خبر[٣]
فكانوا غداة البئر ألفا وجمعنا ... ثلاث مئين كالمسدمة الزهر[٤]
وفينا جنود الله حين يمدنا ... بهم فى مقام ثم مستوضح الذكر
فشد بهم جبريل تحت لوائنا ... لدى مأزق فيه مناياهم تجرى[٥]

وقال على بن أبى طالب - رضى الله عنه - فى يوم بدر، ولم ير ابن هشام أحدًا يعرفها من أهل العلم بالشعر:

ألم تر أن الله أبلى رسوله ... بلاء عزيز ذى اقتدار وذى فضل[٦]
بما أنزل الكفار دار مذلة ... فلاقوا هوانا من إسار ومن قتل
فأمسى رسول الله قد عز نصره ... وكان رسول الله أرسل بالعدل
فجاء بفرقان من الله منزل ... مبينة آياته لذوى العقل

---

(١) الرهون: جمع رهن. والركية: البئر المطوية بالحجارة.

(٢) القسر: الغابة والقهر.

(٣) تورطوا: وقعوا فى هلكة.

(٤) المسدمة: الفحول من الإبل. والزهر: جمع أزهر وأراد به البيض.

(٥) المأزق: الموضع الضيق فى الحرب.

(٦) أبلى رسوله: منَّ عليه وصنع له صنعًا حسنًا.

فأمن أقوام بذاك وأيقنوا   فأمسوا بحمد الله مجتمعى الشمل
وأنكر أقوام فزاغت قلوبهم   فزادهم ذو العرش خبلا على خبل
وأمكن منهم يوم بدر رسوله   وقوما غضابا فعلهم أحسن الفعل
بأيديهم بيض خفاف عصوا بها   وقد حادثوها بالجلاء وبالصقل
فكم تركوا من ناشئ ذى حمية   صريعٍ ومن ذى نجدة منهم كهل
تبيت عيون النائحات عليهم   تجود بإسيال الرشاش وبالوبل
نوائح تنعى عتبة الغى وابنه   وشيبة تنعاه وتنعى أبا جهل
وذا الرجل تنعى وابن جدعان فيهم   مسلبة حرى مبينة الثكل[1]
ثوى منهم فى بئر بدر عصابة   ذوى نجدات فى الحروب وفى المحل
دعا الغى منهم من دعا فأجابه   وللغى أسباب مرمقة الوصل
فأضحوا لدى دار الجحيم بمعزل   عن الشغب والعدوان فى أشغل الشغل

وقال كعب بن مالك أخو بنى سلمة يذكر بدرًا:

عجبت لأمر الله والله قادر   على ما أراد ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقى معشرًا   بغوا وسبيل البغى فى النار جائر
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم   من الناس حتى جمعهم متكاثر
وسارت إلينا لا تحاول غيرنا   بأجمعها كعب جميعًا وعامر
وفينا رسول الله والأوس حوله   له معقل منهم عزيز وناصر
وجمع بنى النجار تحت لوائه   يمشون فى الماذى والنقع ثائر
فلما لقيناهم وكل مجاهد   لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره   وأن رسول الله بالحق ظاهر
وقد عريت بيض خفاف كأنها   مقابيس يزهيها لعينيك شاهر
بهن أبدنا جمعهم فتبددوا   وكان يلاقى الحين من هو فاجر
فكب أبو جهل صريعًا لوجهه   وعتبة قد غادرته وهو عائر
وشيبة والتيمى غادرن فى الوغى   وما منهم إلا بذى العرش كافر
فأمسوا وقود النار فى مستقرها   وكل كفور فى جهنم صائر

---

(١) ذا الرجل: أراد به الأسود بن المطلب بن عبد المخزومى، الذى خرج من صفوف المشركين يريد أن يقتحم على المسلمين ليشرب من حوضهم، وقد عاهد الله أن يشرب منه أو يموت فضربه حمزة فقطع قدمه. والحرى: المحترقة الجوف.

تلظى عليهم وهى قد شب حميها ... بزبر الحديد والحجارة ساجر
وكان رسول الله قد قال أقبلوا ... فولوا وقالوا إنما أنت ساحر
لأمر أراد الله أن يهلكوا به ... وليس لأمر حمه الله زاجر

ولضرار بن الخطاب الفهرى فى هذا الروى شعر، ذكر ابن إسحاق أن كعب بن مالك أجابه عنه بهذا الشعر الذى كتبناه آنفًا، والأظهر من مقتضى الشعر أن ضرارًا هو الذى أجاب كعب بن مالك ونقض عليه. وهذا شعر ضرار:

عجبت لفخر الأوس والحين دائر ... عليهم غدًا والدهر فيه بصائر
وفخر بنى النجار إن كان معشر ... أصيبوا ببدر كلهم ثم صابر
فإن تك قتلى غودرت من رجالنا ... فإنا رجال بعدهم سنغادر
وتردى بنا جرد عناجيج وسطكم ... بنى الأوس حتى يشفى النفس ثائر
ووسط بنى النجار سوف نكرها ... لها بالقنا والدارعين زوافر
فنترك صرعى تعصب الطير حولهم ... وليس لهم إلا الأمانى ناصر
وتبكيهم من أهل يثرب نسوة ... لهن بها ليل عن النوم ساهر
وذلك أنا لا تزال سيوفنا ... بهن دم ممن يحاربن مائر
فإن تظفروا فى يوم بدر فإنما ... بأحمد أمسى جدكم وهو ظاهر
وبالنفر الأخيار هم أولياؤه ... يحامون فى اللأواء والموت حاضر
يعد أبو بكر وحمزة فيهم ... ويدعى على وسط من أنت ذاكر
أولئك لا من نتجت فى ديارها ... بنو الأوس والنجار حين تفاخر
ولكن أبوهم من لؤى بن غالب ... إذا عدت الأنساب كعب وعامر
هم الطاعنون الخيل فى كل معرك ... غداة الهياج الأطيبون الأكاثر

ومن شعر حسان بن ثابت يعرض بالحارث بن هشام وفراره عن يوم بدر:

إن كنت كاذبة الذى حدثتنى ... فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرة ولجام[1]

فأجابه الحارث بن هشام - فيما ذكر - فقال:

الله أعلم ما تركت قتالهم ... حتى علوا فرسى بأشقر مزبد
وعرفت أنى إن أقاتل واحد ... أقتل ولا ينكى عدوى مشهدى
فصددت عنهم والأحبة فيهم ... طمعا لهم بعقاب يوم مفسد

---

(١) الطمرة: الفرس الكثير الجرى.

وقال حسان بن ثابت أيضًا، ويقال: إنها لعبد الله بن الحارث السهمى، يشبه أنها من قصيدة:

مستشعرى حلق الماذى يقدمهم جلد النحيزة ماض غير رعديد[1]
أعنى رسول الإله الحق فضله على البرية بالتقوى وبالجود
وقد زعمتم بأن تحموا ذماركم وماء بدر زعمتم غير مورود[2]
ثم وردنا ولم نسمع لقولكم حتى شربنا رواء غير تصريد[3]
مستعصمين بحبل غير منجذم مستحكم من حبال الله ممدود
فينا الرسول وفينا الحق نتبعه حتى الممات ونصر غير محدود

وقال حسان بن ثابت أيضًا:

ألا ليت شعرى هل أتى أهل مكة إبارتنا الكفار فى ساعة العسر
قتلنا سراة القوم عند مجالنا فلم يرجعوا إلا بقاصمة الظهر
فكم قتلنا من كريم مرزء له حسب فى قومه نابه الذكر
تركناهم للعاويات يتبنهم ويصلون نارًا بعد حامية القعر
لعمرك ما حامت فوارس مالك وأشياعهم يوم التقينا على بدر

وقال عبيدة بن الحارث بن المطلب فى يوم بدر، يذكر مبارزته هو وحمزة وعلىّ عدوهم، وما كان من إصابة رجله يومئذ. قال ابن هشام: وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له:

ستبلغ عنا أهل مكة وقعة يهب لها من كان عن ذاك نائيا
بعتبة إذ ولى وشيبة بعده وما كان فيها بكر عتبة راضيا[4]
فإن تقطعوا رجلى فإنى مسلم أرجى بها عيشا من الله دانيا
مع الحور أمثال التماثيل أخلصت مع الجنة العليا لمن كان عاليا
وبعت بها عيشا نغرفت صفوه وعالجته حتى فقدت الأدانيا[5]

---

(١) مستشعرى: لابس، تقول: استشعرت الثوب إذا لبسته. والماذى: الدروع اللينة البيض. والنحيزة: الطبيعة. والرعديد: الجبان.

(٢) الرواء: التملؤ من الماء. والتصريد: تقليل الشرب.

(٣) الذمار: ما وجب على المرء أن يحميه.

(٤) بكر عتبة: يريد ولده الأول.

(٥) تعرقت: مزجت، تعرقت التراب إذا مزجته.

وأكرمنى الرحمن من فضل منه بثوب من الإسلام غطى المساويا
وما كان مكروها إلىَّ قتالهم غداة دعا الأكفاء من كان داعيا
لقيناهم كالأسد تعثر بالقنا نقاتل فى الرحمن من كان عاصيا
فما برحت أقدامنا من مقامنا ثلاثتنا حتى أزيروا المنانيا

قال ابن هشام[1]: لما أصيبت رجل عبيدة قال: أما والله لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لعلم أنى أحق منه بما قال حين يقول:

كذبتم وبيت الله نبزى محمدًا ولما نطاعن حوله ونناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ولما هلك عبيدة بن الحارث من مصاب رجله قالت هند ابنة أثاثة بن عباد بن المطلب ترثيه وكانت وفاته بالصفراء، وبها دفن يرحمه الله تعالى:

لقد ضمن الصفراء مجدا وسؤددا وحلما أصيلا وافر اللب والعقل
عبيدة فابكيه لأضياف غربة وأرملة تهوى لأشعث كالجذل
وبكيه للأقوام فى كل شتوة إذا احمر آفاق السماء من المحل
وبكيه للأيتام والريح زفزف وتشتيت قدر طال ما أزبدت تغلى
فإن تصبح النيران قد مات ضوؤها فقد كان يذكيهن بالحطب الجزل
لطارق ليل أو لملتمس القرى ومستنبح أضحى لديه على رسل

وقال طالب بن أبى طالب يمدح النبى ﷺ، ويبكى أصحاب القليب من قريش:

ألا إن عينى أنفدت ماءها سكبا تبكى على كعب وما إن ترى كعبا
ألا إن كعبا فى الحروب تخاذلوا وأرداهم ذا الدهر واجترحوا ذنبا
وعامر تبكى للملمات غدوة فياليت شعرى هل أرى لهما قربا
هما أخواى لن يعدا لغية تعد ولن يستام جارهما غصبا
فيا أخوينا عبد شمس ونوفلا فدًا لكما لا تبعثوا بيننا حربا
ولا تصحبوا من بعد ود وألفة أحاديث فيها كلكم يشتكى النكبا
ألم تعلموا ما كان فى حرب داحس وجيش أبى يكسوم إذ ملأوا الشعبا
فلولا دفاع الله لا شىء غيره لأصبحتم لا تمنعون لكم سربا
فما إن جنينا فى قريش عظيمة سوى أن حمينا خير من وطئ التربا
أخا ثقة فى النائبات مرزأ كريما ثناه لا بخيلا ولا ذربا

(١) انظر السيرة (٢/٣٢٧).

يطيف به العافون يغشون بابه يؤمون بهرًا لا نزورا ولا صربا
فوالله لا تنفك نفسى حزينة تململ حتى تصدقوا الخزرج الضربا

وكانت وقعة بدر يوم الجمعة، لسبع عشرة من شهر رمضان، وكان فراغ رسول الله ﷺ منها فى عقبة أو فى شوال بعده.

فلما قدم المدينة لم يقم بها إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بنى سليم، فبلغ ماء من مياههم يقال له: الكدر[1]، فأقام عليه ثلاث ليال، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدًا، فأقام بها بقية شوال وذا القعدة وأفدى فى إقامته تلك جل الأسارى من قريش[2].

وكان أبو سفيان بن حرب حين رجع فل قريش من بدر نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدًا ﷺ، فخرج فى مائتى راكب من قريش لتبر يمينه، فسلك النجدية حتى نزل بصدر قناة، على بريد أو نحوه من المدينة، ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير تحت الليل، فأتى حيى بن أخطب فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح له وخافه، فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم، وكان سيد بنى النضير فى زمانه ذلك وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه فأذن له فقراه وسقاه وبطن له من خبرالناس، ثم خرج فى عقب ليلته حتى أتى أصحابه، فبعث رجالا منهم، فأتوا ناحية العريض فحرقوا بها أصوار نخل وقتلوا رجلا من الأنصار وحليفًا له فى حرث لهما، ثم انصرفوا راجعين، ونذر بهم الناس، فخرج رسول الله ﷺ فى طلبهم حتى بلغ قرقرة الكدر، ثم انصرف وقد فاته أبو سفيان بن حرب وأصحابه، وطرحوا من أزوادهم يتخففون منها للنجاء، وكان أكثر ما طرحوه السويق، فهجم المسلمون على سويق كثير، فسميت غزوة السويق، فقال المسلمون حين رجع بهم رسول الله ﷺ: يا رسول، أتطمع لنا أن تكون غزوة؟ قال: «نعم»[3].

ثم غزا رسول الله ﷺ نجدًا يريد غطفان، وهى غزوة ذى أمر، فأقام بنجد ثم رجع ولم يلق كيدًا.

---

(١) وهذه الغزوة تعرف بغزوة: قرقرة الكدر، كما فى الطبقات الكبرى (٢/٣١)، أو: قرارة الكدر، كما فى المغازى للواقدى (١/١٩٦). وتراجع هذه الغزوة فى: البداية والنهاية لابن كثير (٣/٣٤٤)، المنتظم لابن الجوزى (٣/١٥٦).

(٢) انظر السيرة (٣/٥).

(٣) انظر الحديث فى: الدلائل للبيهقى (٣/١٦٦)، التاريخ للطبرى (٢/٥٠)، الكامل فى التاريخ (٢/٣٩، ٤٠).

ثم غزا قريشًا حتى بلغ بحران[١]، معدنًا بالحجاز من ناحية الفرع، ثم رجع منه إلى المدينة ولم يلق كيدًا، وذلك بعد مقامه به نحوًا من شهرين، ربيع الآخر وجمادى الأولى من سنة ثلاث.

* * *

أمر بنى قينقاع

وكان فيما بين ما ذكر من غزو رسول الله ﷺ أمر بنى قيقناع.

وكانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ وحاربوا فيما بين بدر وأحد.

وكان رسول الله ﷺ جمعهم فى سوقهم، ثم قال: «يا معشر يهود احذروا من الله مثل مانزل بقريش من النقمة وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل، تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم»[٢].

قالوا: يا محمد، إنك ترى أنا قومك! لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس.

فقال ابن عباس[٣]: ما أنزل هؤلاء الآيات إلا فيهم: ﴿**قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار**﴾ [آل عمران: ١٢،١٣].

وكان منشأ أمرهم: أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته بسوق قينقاع" وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديا، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فأغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع.

---

(١) ذكرها ابن الأثير فى الكامل (٢/١٤٢)، والطبرى فى تاريخه (٢/٥٢)، والواقدى فى المغازى (١/١٩٦، ١٩٧).

(٢) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/٣).

(٣) انظر السيرة (٣/٨).

فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أُبَىّ بن سلول، حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أحسن فى موالى، وكانوا حلفاء الخزرج، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد أحسبن فى موالى، فأعرض عنه رسول الله ﷺ فأدخل يده فى جيب درع رسول الله ﷺ وكان يقال لها: ذات الفضول، فقال له: «أرسلنى»! وغضب ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً، ثم قال: «ويحك أرسلنى». قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة! إنى والله امرؤا أخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ: «هم لك»(١).

ولما حاربت بنو قينقاع تشبث عبد الله بن أبى بأمرهم وقام دونهم، قال: مشى عبادة بن الصامت، وكان أحد بنى عوف، لهم من حلفه مثل الذى لهم من عبد الله بن ابى، إلى رسول الله ﷺ فخلعهم إليه وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وقال: يا رسول الله، أتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم.

ففيه وفى عبد الله بن أبى نزلت [هذه] القصة من المائدة: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين فترى الذين فى قلوبهم مرض**﴾ يريد عبد الله بن أُبَىّ ﴿**يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين**﴾. ثم القصة فى قوله: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾ وذلك لتولى عبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا، وتبرية، من بنى قينقاع وحلفهم وولايتهم ﴿**ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون**﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٦].

* * *

سرية زيد بن حارثة(٢)

ولما كان من وقعة بدر ما كان، خافت قريش طريقهم التى كانوا يسلكون إلى

---

(١) انظر الحديث فى: تاريخ للطبرى (٢/٤٩)، الطبقات لابن سعد (٢/٢٩).

(٢) هذه السرية ذكرها الواقدى فى المغازى (١/١٩٧، ١٩٨)، وابن سعد فى الطبقات (٢/٣٦)، وابن الأثير فى التاريخ (٢/١٤٥).

الشام، فسلكوا طريق العراق، فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب، ومعه فضة كثيرة وهى عظم تجارتهم، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فلقيهم على القردة - ماء من مياه نجد - فأصاب تلك العير وما فيها وأعجزه الرجال فقدم بها على رسول الله ﷺ.

فذلك الذى يعنى حسان بن ثابت بقوله فى غزوة بدر الآخره يؤنب قريشًا فى أخذهم تلك الطريق:

دعو فلجات الشام قد حال دونها ... جلاد كأفواه المخاض الأوارك[1]

بأيدى رجال هاجروا نحو ربهم ... وأنصاره حقا وأيدى الملائك

إذا سلكت للغور من بطن عالج ... فقولا لها ليس الطريق هنالك[2]

* * *

مقتل كعب بن الأشرف

ولما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة بشيرين إلى من بالمدينة من المسلمين بفتح الله عليه وقتل من قتل من المشركين ببدر، قال كعب بن الأشرف وكان رجلا من طيىء، ثم أحد بنى نبهان، وأمه من بنى النضير، حين بلغه هذا الخبر: أحق هذا؟ أترون أن محمدًا قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان؟ فهؤلاء اشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير لى من ظهرها.

فلما تبين عدو الله الخبر، خرج حتى قدم مكة، فجعل يحرض على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار، ويبكى أصحاب القليب من قريش، ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم.

فقال رسول الله ﷺ: من لى من ابن الأشراف؟ فقال له محمد بن مسلمة الأشهلى: أنا لك به يا رسول الله ﷺ أنا أقتله قال: فافعل إن قدرت على ذلك.

فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعلق به نفسه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه فقال له: لم تركت الطعام والشراب؟ فقال يا رسول الله،

---

(١) الفلجات: العيون الجارية. والمخاض: الإبل الحوامل. والأوارك: الإبل التى ترعى الآراك، وهو شجر السواك.

(٢) الغور: الأرض المنخفضة. وبطن عالج: أى موضع كثير الرمل.

قلت لك قولا لا أدرى هل أفين لك به أم لا. قال: إنما عليك الجهد، قال: يا رسول الله، لابد لنا من أن نقول. قال: قولوا ما بدا لكم فأنتم فى حل من ذلك.

فاجتمع فى قتله محمد بن مسلمة، وسلكان بن سلامة أبو نائلة، وعباد بن بشر والحارث بن أوس، وكلهم من بنى عبد الأشهل، وأبو عبس بن جبر أخو بنى حارثة، ثم قدموا إلى عدو الله ابن الأشرف سلكان بن سلامة وكان أخاه من الرضاعة، فجاءه فتحدث معه ساعة ثم قال: ويحك يا ابن الأشرف! إنى قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عنى، قال: أ فعل، قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء، عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس. فقال كعب: أنا ابن الأشرف! أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول. فقال له سلكان: إنى قد أردت أن تبيعنا طعامًا ونرهنك ونوثق لك. قال: أترهنونى نساءكم؟ قال: كيف نرهنك نساءنا وأنت أشب أهل يثرب وأعطرهم. قال: أترهنونى أبناءكم؟ قال: لقد أردت أن تفضحنا، يسب ابن أحدنا فيقال: رهن فى وسق شعير! ثم قال له: إن معى أصحابًا لى على مثل رأيى وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم وتحسن فى ذلك ونرهنك من الحلقة ما فيه وفاء وأراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا بها. قال: إن فى الحلقة لوفاء.

فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم وأمرهم أن يأخذوا السلاح ويجتمعوا إليه، فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ، فمشى معهم صلوات الله عليه إلى بقيع الغرقد فى ليلة مقمرة، ثم وجههم وقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم. ثم رجع إلى بيته.

فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة، وكان حديث عهد بعرس، فوثب فى ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها وقالت: إنك امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون هذه الساعة. قال: إنه أبو نائلة لو وجدنى نائما ما أيقظنى. فقالت: والله إنى لأعرف فى صوته الشر. فقال لها كعب: لو يدعى الفتى لطعنة لأجاب!

فنزل فتحدث معهم ساعةوتحدثوا معه، فقالوا له: هل لك يا ابن الأشرف إلى أن نتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث فيه بقية ليلتنا هذه. قال: إن شئتم.

فخرجوا يتماشون، فمشوا ساعة، ثم إن أبا نائلة شام يده فى فود رأسه ثم شم يده، فقال: ما رأيت كالليلة طيبًا أعطر قط، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها، حتى اطمأن، ثم مشى ثم عاد لمثلها، فأخذ بفود رأسه.

ثم قال: اضربوا عدو الله، فضربوه فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئًا. قال محمد ابن مسلمة: فتذكرت معولاً كان فى سيفى حين رأيت أسيافنا لا تغنى شيئًا، فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار، قال: فوضعته فى ثنيته ثم تحاملت عليه حتى بلغت غايته فوقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح فى رجله أو رأسه أصابه بعض أسيافنا، فخرجنا حتى أسندنا فى حرة العريض وقد ابطأ علينا الحارث بن أوس صاحبنا ونزفه الدم، فوقفنا له ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا فاحتملناه فجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل وهو قاءم يصلى، فسلمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل عدو الله، وتفل على جرح صاحبنا، ثم رجعنا إلى أهلينا فأصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعدو الله، فليس بها يهودى إلا وهو يخاف على نفسه.

وذكر ابن عقبة أن كعب بن الأشرف لما قدم على قريش يستنفرهم على رسول الله ﷺ قال له أبو سفيان والمشركون، نناشدك الله، أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأينا أهدى فى رأيك وأقرب إلى الحق، فإنا نطعم الجزور الكوماء ونسقى اللبن على الماء ونطعم ما هبت الشمال.

فقال: ابن الأشرف: أنتم أهدى سبيلا، فأنزل الله فيه والله أعلم بما ينزل: ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا**﴾ [النساء: ٥١].

وذكر ابن إسحاق أن هذه الآية إنما نزلت فى حيى بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق وجماعة غيرهما من أحبار يهود، ليس ابن الأشرف مذكورًا فيهم، وهم الذين حزبوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله ﷺ، فلما قدموا على قريش قالوا: هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتاب الأول فسلوهم: أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم فقالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممن اتبعه. فأنزل الله تعالى فيهم الآية المذكورة. فالله تعالى أعلم.

قال ابن إسحاق: وقال رسول الله ﷺ: من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه. فوثب محيصة بن مسعود الأوسى على ابن سنينة من تجار يهود، وكان يلابسهم ويبايعهم فقتله، فلما قتله جعل أخوه حويصة بن مسعود ولم يكن أسلم يومئذ وكان أسن من محيصة، يضربه ويقول: أى عدو الله أقتلته، وأما والله لرب شحم فى بطنك من ماله فقال محيصة: والله لقد أمرنى بقتله من لو أمرنى بقتلك لضربت عنقك! قال: فوالله إن كان

لأول إسلام حويصة. قال: أو الله لو أمرك محمد بقتلى لقتلتنى؟ قال: نعم، والله لو أمرنى بضرب عنقك لضربتها، قال: والله إن دينا بلغ منك هذا لعجب! فأسلم حويصة، وقال محيصة فى ذلك:

يلوم ابن أمى لو أمرت بقتله ... لطبقت ذفراه بأبيض قاضب[(١)]
حسام كلون الملح أخلص صقله ... متى ما أصوبه فليس بكاذب[(٢)]
وما سرنى أنى قتلتك طائعا ... وأن لنا ما بين بصرى ومأرب[(٣)]

وذكر ابن هشام أن هذا عرض لمحيصة بعد غزوة بنى قريظة وظفر رسول الله ﷺ بهم، وأن رسول الله ﷺ دفع إليه منهم كعب بن يهوذا. قال: وكان عظيمًا فيهم، ليقتله، فقال له أخوه حويصة وكان كافرًا: أقتلت كعب بن يهوذا؟ قال: نعم. قال: أما والله لرب شحم قد نبت فى بطنك من ماله، إنك للئيم. فقال له محيصة: لقد أمرنى بقتله من لو أمرنى بقتلك لقتلتك. فعجب من قوله، ثم ذهب عنه متعجبًا فذكروا أنه جعل ينتفض من الليل فيعجب من قول أخيه محيصة حتى أصبح وهو يقول: والله إن هذا لدين. ثم أتى النبى ﷺ فأسلم.

* * *

غزوة أحد[(٤)]

وكان من حديث أحد أنه لما قتل الله من قتل من كفار قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيرهم، مشى عبد الله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية فى رجال ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر فكلموا ابا سفيان ومن كانت له فى تلك العير تجارة من قريش، وقالوا لهم: إن محمدًا قد وتركم وقتل خياركم، فأعينوا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأرًا بمن اصاب منا. ففعلوا.

ففيهم يقال: أنزل الله عز وجل: **﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾** [الأنفال: ٣٦].

---

(١) طبقت: قطعت. والزفران: عظمان ناتئان خلف الأذنين. والقاضب: القاطع.

(٢) الحسام: السيف القاطع.

(٣) بصرى: مدينة بالشام. ومأرب: مدينة باليمن.

(٤) انظر السيرة (٣/ ٢٠).

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ حين فعل ذلك أبو سفيان وأصحاب العير، وحركوا لذلك من أطاعهم من القبائل وحرضوهم عليه وخرجوا بجدهم وجدهم وأحابيشهم[١] ومن تابعهم من بنى كنانة وأهل تهامة، وخرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة وأن لا يفروا، فخرج أبو سفيان بن حرب وكان قائد الناس بهند بنت عتبة، وكذلك سائر أشراف قريش وكبرائهم خرجوا معهم بنسائهم.

وكان جبير بن مطعم قد أمر غلامه وحشيا الحبشى بالخروج مع الناس وقال له: إن قتلت حمزة عم محمد بعمى طعيمة بن عدى فأنت عتيق. فكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشى أو مر بها قالت: ويها أبا دسمة، وهى كنيته، اشف واشتف.

فأقبلوا حتى نزلوا بعينين - جبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادى مقابل المدينة.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ والمسلمون قد نزلوا حيث نزلوا، قال عليه السلام: «إنى قد رأيت والله خيرًا، رأيت بقرًا تذبح، ورأيت فى ذباب سيفى ثلمًا، فأما البقر، فهى ناس من أصحابى يقتلون، وأما الثلم الذى فى ذباب سيفى فهو رجل من أهل بيتى يقتل، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها»[٢].

وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج، وكان عبد الله بن أبى يرى رأى رسول الله ﷺ فى ذلك، فقال رجل من المسلمين ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد وغيره ممن كان فاته بدر: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنا عنهم. فقال عبد الله بن أبى: يا رسول الله، أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم الصبيان والنساء بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا.

---

(١) أحابيشهم: أحياء من القارة انضموا إلى بنى ليث فى الحرب التى وقعت بينهم وبين قريش قبل الإسلام.

(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣/٣٥١)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٠٧)، الدلائل للبيهقى (٣/٢٢٥، ٢٦٦)، تفسير الطبرى (٤/٤٦، ٤٧).

فلم يزل برسول الله ﷺ الناس الذين كان من أ مرهم حب لقاء العدو، حتى دخل رسول الله ﷺ فلبس لأمته، وذلك يوم الجمعة حين فرغ رسول الله ﷺمن الصلاة، وقد مات فى ذلك اليوم رجل من الأنصار يقال له: مالك بن عمرو، أخو بنى النجار، فصلى عليه رسول الله ﷺ، ثم خرج عليهم وقد ندم الناس، فقالوا: يا رسول الله، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد ﷺ عليك. فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغى للنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل»[1].

فخرج فى ألف من أصحابه، حتى إذا كانوا بين المدينة وأحد انخذل عنه عبد الله بن أبى بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصانى، ما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس. فرجع بمن اتبعه من أهل النفاق والريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام يقول: يا قوم، أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم عند ما حضر من عدوهم. قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال. فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الإنصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى الله عنكم نبيه.

ومضى رسول الله ﷺ حتى سلك فى حرة بنى حارثة، فذب فرس بذنبه فأصاب كَلاَّبَ سيفٍ فاستله، فقال رسول الله ﷺ وكان يحب الفأل ولا يعتاف:

«يا صاحب السيف، شم سيفك، فإنى أرى السيوف ستسل اليوم»[2].

ثم قال رسول الله ﷺ: «من رجل يخرج بنا على القوم من كثب، أى من قرب، من طريق لا تمر بنا عليهم»، فقال أبو خيثمة أخو بنى حارثة: أنا يا رسول الله.

فنفذ به فى حرة بنى حارثة وبين أموالهم حتى سلك فى مال لمربع بن قيظى، وكان منافقا ضرير البصر، فلما سمع حس رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين قام يحثى فى وجوههم التراب ويقول: إن كنت رسول الله فإنى لا أحل لك أن تدخل حائطى. وذكر أنه أخذ حفنة من تراب فى يده ثم قال: والله لو أعلم أنى لا اصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك. فابتدره القوم ليقتلوه فقال رسول الله ﷺ: «لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر»[3].

---

(١) انظر الحديث فى: الدر المنثور للسيوطى (٢/٦٨)، تفسير الطبرى (٤/٤٦)، تفسير ابن كثير (٢/٩١).

(٢) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٤).

(٣) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٤).

ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشِّعْب من أحد فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال: «لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال»[(١)].

وقد سرحت قريش الظهر والكراع فى زروع كانت للمسلمين، فقال رجل من الأنصار: أترعى زرع بنى قيلة ولما نضارب!

وتعبى رسول الله ﷺ للقتال وهو فى سبعمائة رجل، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بنى عمرو بن عوف، وهو معلم يومئذ بثياب بيض، والرماة خمسون رجلاً، فقال: انضح الخيل عنا لا يأتوننا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك.

وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير أخى بنى عبد الدار.

وتعبأت قريش وهم ثلاث آلاف ومعهم مائتا فرس قد جنبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل.

وقد كان أبو عامر عبد عمرو بن صيفى من الأوس، خرج عن قومه إلى مكة مباعدًا لرسول الله ﷺ، فكان يعد قريشًا أن لو لقى قومه لم يختلف عليه منهم رجلان، فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر فى الأحابيش وعبدان أهل مكة، فنادى: يا معشر الأوس أنا أبو عامر. قالوا: فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق. وبذلك سماه رسول الله ﷺ، وكان يسمى فى الجاهلية الراهب، فلما سمع ردهم عليه، قال: «لقد أصاب قومى بعدى شر! ثم قاتلهم قتالاً شديدًا ثم راضخهم[(٢)] بالحجارة»[(٣)].

وقال أبو سفيان - يومئذ - لأصحاب اللواء من بنى عبد الدار يحرضهم بذلك: يا بنى عبد الدار، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه. فهموا به وتواعدوه قالوا: أنحن نسلم إليك لواءنا! ستعلم غدًا إذا التقينا كيف نصنع. وذلك أراد أبو سفيان.

فاقتتل الناس حتى حميت الحرب.

---

(١) انظر الحديث فى: الدر المنثور للسيوطى (٦١/٥).

(٢) راضخهم: رماهم.

(٣) انظر الحديث فى: تاريخ الطبرى (٥١٢/٢).

وقاتل أبو دجانة[(١)] سماك بن خرشة أخو بنى ساعدة، حتى أمعن فى الناس، وقد كان رسول الله ﷺ قال لسيف عنده: «من يأخذ هذا السيف بحقه؟» فقام إليه رجال فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «أن تضرب به فى العدو حتى ينحنى»[(٢)]. قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه. فأعطاه إياه، وكان أبو دجانة رجلاً شجاعًا يختال عند الحرب، وكان إذا أعلم بعصابة له حمراء فاعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل، فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسه، ثم جعل يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ حين رآه يتبختر: «إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن»[(٣)].

وكان الزبير بن العوام قد سأل رسول الله ﷺ ذلك السيف مع من سأله منه فمنعه إياه، فقال: وجدت فى نفسى حين سألته إياه فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة، وقلت: أنا ابن صفية عمته ومن قريش وقد قمت إليه فسألته إياه قبله فأعطاه إياه وتركنى! والله لأنظرن ما يصنع، فأتبعه، فأخرج عصابة حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت! وهكذا كانت تقول له إذا تعصب لها، فخرج وهو يقول:

أنا الذى عاهدنى خليلى ... ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر فى الكيول ... أضرب بسيف الله والرسول[(٤)]

فجعل لا يلقى أحدًا إلا قتله، وكان فى المشركين رجل لا يدع جريحًا إلا ذفف عليه: فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما، فالتقيا فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه، وضربه أبو دجانة فقتله، ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ثم عدل السيف عنها، قال الزبير: فقلت الله ورسوله أعلم.

---

(١) انظر ترجمته فى: أسد الغابة ترجمة رقم (٥٨٦٣)، الإصابة ترجمة رقم (٩٨٦٦)، تنقيح المقال (١٥/٣)، ريحانة الأدب (٩٥/٧)، معجم رجال الحديث (١٥١/٢١).

(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (١٢٣/٣)، مستدرك الحاكم (٢٣٠/٣)، مصنف ابن أبى شيبة (٢٠٦/١٢، ٤٠١/١٤)، مجمع الزوائد للهيثمى (١٠٩/٦، ١٢٤/٩)، كنز العمال للمتقى الهندى (١٠٩٧٢، ١٠٩٧٣)، البداية والنهاية لابن كثير (١٥/٤).

(٣) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٢٣٤/٣)، البداية والنهاية لابن كثير (١٥/٤).

(٤) الكيول: آخر الصفوف فى الحرب.

وقال أبو دجانة: رأيت إنسانًا يخمش الناس خمشًا شديدًا فصمدت إليه، فلما حملت عليه السيف ولول فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.

وقاتل حمزة بن عبد المطلب حتى قتل أحد النفر الذين كانوا يحملون اللواء من بنى عبد الدار، وكان جبير بن مطعم قد وعد غلامه وحشيا بالعتق إن قتل حمزة بعمه طعيمة ابن عدى المقتول يوم بدر، قال وحشى: فخرجت مع الناس وكنت رجلا حبشيًا أقذف بالحربة قذف الحبشة قل ما أخطىء بها شيئًا، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأورق يهد الناس بسيفه هدًا ما يقوم له شىء، فوالله إنى لأتهيأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو منى إذ تقدمنى إليه سباع بن عبد العزى الغبشانى، فلما رآه حمزة قال له: هلم إلى يا بن مقطعة البظور. وكانت أمه ختَّانة بمكة، قال: فضربه ضربة فكأنما أخطأ رأسه، قال: وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه وذهب لينوء نحوى فغلب وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتى ورجعت إلى العسكر فقعدت فيه، ولم تكن لى بغيره حاجه، إنما قتلته لأعتق.

فلما قدمت مكة عتقت، ثم أقمت حتى افتتح رسول الله ﷺ مكة هربت إلى الطائف فكنت بها، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا تعيت على المذاهب، فوالله إنى لفى ذلك إذ قال لى رجل: ويحك إنه والله ما يقتل أحدًا من الناس دخل فى دينه، فلما قال لى ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ المدينة فلم يرعه إلا بى قائما على رأسه أتشهد شهادة الحق، فلما رآنى قال: أوحشىّ؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: أقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة، فحدثته فلما فرغت قال: ويحك! غيب عنى وجهك. فكنت أتنكَّبه ﷺ حيث كان لئلا يرانى حتى قبضه الله تعالى.

فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب خرجت معهم وأخذت بحربتى التى قتلت بها حمزة، فلما التقى الناس رأيت مسيلمة قائما فى يده السيف وما أعرفه، فتهيأت له وتهيأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى كلانا يريده، فهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فيه وشدَّ عليه الأنصارى فضربه بالسيف، فربك أعلم أينا قتله، فإن كنت قتلته فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله ﷺ، وقد قتلت شر الناس!

وذكر ابن إسحاق[1] بإسناد له إلى عبد الله بن عمر، وكان شهد اليمامة قال: سمعت يومئذ صارخًا يقول: قتله العبد الأسود.

---

(١) انظر السيرة (٣/٣٣).

قال ابن إسحاق: فبلغنى أن وحشيا لم يزل يحد فى الخمر حتى خلع من الديوان. فكان عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، يقول: قد علمت أن الله لم يكن ليدع قاتل حمزة.

قال ابن إسحاق[١]: وقاتل مصعب بن عمير[٢] دون رسول الله ﷺ حتى قتل، قتله ابن قميئة الليثى، وهو يظن أنه رسول الله ﷺ، فرجع إلى قريش فقال: قتلت محمدًا.

فلما قتل مصعب أعطى رسول الله ﷺ اللواء على بن أبى طالب، فقاتل على ورجال من المسلمين.

ولما اشتد القتال يومئذ جلس رسول الله ﷺ تحت راية الأنصار وأرسل إلى على أن قدم الراية، فتقدم فقال: أنا أبو القصم، فناداه أبو سعد بن أبى طلحة: هل لك ياأبا القصم فى البراز من حاجة؟ قال: نعم. فبرزا بين الصفين فاختلفا ضربتين فضربه على فصرعه ثم انصرف ولم يجهز عليه، فقال له أصحابه: أفلا أجهزت عليه؟ فقال: إنه استقبلنى بعورته فعطفتنى عليه الرحم وعرفت أن الله قد قتله.

ويقال: إن أبا سعد هذا خرج بين الصفين وطلب من يبارزه مرارًا فلم يخرج إليه أحد، فقال: يا أصحاب محمد، زعمتم أن قتلاكم فى الجنة وقتلانا فى النار، كذبتم واللات لو تعلمون ذلك حقا لخرج إلى بعضكم. فخرج إليه علىّ فاختلفا ضربتين فقتله علىّ. وقد قيل: إن سعد بن أبى وقاص هو الذى قتل أبا سعد هذا.

وقاتل عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح[٣]، فقتل مسافع بن طلحة وأخاه الجلاس ابن طلحة، كلاهما يشعره سهمًا[٤] فيأتى أمه فيضع رأسه فى حجرها فتقول: يا بنى من أصابك؟ فيقول: سمعت رجلاً يقول رمانى: خذها وأنا ابن أبى الأقلح. فنذرت إن أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر، وكان عاصم قد عاهد الله أن لا يمس مشركًا ولا يمسه مشرك أبدًا، فتمم الله له ذلك حيًا وميتًا حسب ما نذكره عند مقتل عاصم على الرجيع - ماء لهذيل - إن شاء الله تعالى.

---

(١) انظر السيرة (٣/٣٤).

(٢) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٨٠٢٠)، أسد الغابة ترجمة رقم (٤٩٣٦).

(٣) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٤٣٦٥)، أسد الغابة ترجمة رقم (٢٦٦٥).

(٤) يشعره سهمًا: أى يصيبه به فى جسده، فيصير له مثل الشعار، والشعار ما ولى الجسد من الثياب.

والتقى يوم أحد حنظلة بن أبى عامر الغسيل وأبو سفيان، فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود بن شعوب قد علا أبا سفيان فضربه شداد فقتله، فقال رسول الله ﷺ: إن صاحبكم - يعنى حنظلة - لتغسله الملائكة فسلوا أهله ما شأنه؟ فسئلت صاحبته، فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة. فقال: رسول الله ﷺ: «لذلك غسلته الملائكة»[1].

ثم أنزل نصره على المسلمين وصدقهم وعده فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر ونهكوهم قتلا.

وقد حملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرات، كل ذلك تنضح بالنبل فترجع مفلولة، وكانت الهزيمة لا شك فيها.

فلما أبصر الرماة الخمسون أن الله قد فتح لإخوانهم قالوا: والله ما نجلس هنا لشىء، قد أهلك الله العدو، وإخواننا فى عسكر المشركين، فتركوا منازلهم التى عهد إليهم رسول الله ﷺ أن لا يتركوها، وتنازعوا وفشلوا، وعصوا الرسول فأوجفت الخيل فيهم قتلا، ولم يكن نبل ينضحها ووجدت مدخلا عليهم، فكان ذلك سبب الهزيمة على المسلمين بعد أن كانت لهم.

قال الزبير بن العوام رضى الله عنه: والله، لقد رأيتنى أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها منكشفات هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير، إذا مالت الرماة إلى العسكر حتى كشفنا القوم عنه، وخلوا ظهورنا للخيل، فأتتنا من خلفنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمدًا قد قتل، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء، حتى ما يدنو منه أحد من القوم.

وانكشف المسلمون فأصاب فيهم العدو، ويقال: إن الصارخ هو الشيطان.

وكان يوم بلاء وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم من المسلمين بالشهادة. حتى خلص العدو إلى رسول الله ﷺ فدث بالحجارة حتى وقع لشقه فأصيبت رباعيته وكلمت شفته وشج فى وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل ﷺ يمسحه وهو يقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم»[2].

---

(١) انظر الحديث فى: السنن الكبرى للبيهقى (٤/١٥)، دلائل النبوة للبيهقى (٣/٢٤٦)، إرواء الغليل للألبانى (٣/١٦٧)، السلسلة الصحيحة للألبانى (١/٥٨١).

(٢) انظر الحديث فى: سنن ابن ماجه (٤٠٢٧)، مسند الإمام أحمد (٣/٢٠٦)، الدر المنثور=

فأنزل الله عليه فى ذلك: ﴿**ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون**﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وكان الذى كسر رباعيته وجرح شفته عتبة بن أبى وقاص وشجه عبد الله بن شهاب الزهرى فى جبهته وجرح ابن قميئة وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته، ووقع صلوات الله عليه فى حفرة من الحفر التى عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون، فأخذ على بن أبى طالب بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائمًا. ومص مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجهه ثم ازدرده، فقال رسول الله ﷺ: «من مس دمه دمى لم تصبه النار»(١).

وقال ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على الأرض فلينظر إلى طلحة»(٢).

ونزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجهه ﷺ فسقطت ثنيته، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى، فكان ساقط الثنيتين.

وكان سعد بن أبى وقاص يقول: والله، ما حرصت على قتل رجل قط حرصى على قتل عتبة بن أبى وقاص - وهو أخوه - وإن كان ما علمت لسىء الخلق مبغضًا فى قومه، ولقد كفانى منه قول رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على من دمى وجه رسوله»(٣).

وقال رسول الله ﷺ حين غشيه القوم: «من رجل يشرى لنا نفسه؟» فقام زياد بن السكن فى نفر خمسة من الأنصار، وبعض الناس يقولون: إنما هو عمارة بن زياد بن السكن، فقاتلوا دون رسول الله ﷺ رجلا ثم رجلا، يقتلون دونه، حتى كان آخرهم زياد أو عمارة، فقاتل حتى أثبتته الجراحة، ثم جاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه،

=للسيوطى (٢/ ٧١)، إتحاف السادة المتقين (٧/ ٩٢)، تفسير ابن كثير (٢/ ٩٨)، فتح البارى لابن حجر (٧/ ٣٦٦)، المغنى عن حمل الأسفار للعراقى (٢/ ٣٥٢)، أخلاق النبوة (٧٢)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٢٣).

(١) انظر الحديث فى: تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٦/ ١١٢)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٢٤).

(٢) انظر الحديث فى: المعجم الكبير للطبرانى (١/ ٧٦)، السنة لابن أبى عاصم (٢/ ٦١٤)، كنز العمال للمتقى الهندى (٣٣٣٦٩)، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٧/ ٨٠).

(٣) انظر الحديث فى: موارد الظمآن للهيثمى (٢٢١٢)، دلائل النبوة للبيهقى (٣/ ٢٦٥)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٣٠).

فقال رسول الله ﷺ: «أدنوه منى»[١]. فأدنوه منه فوسده قدمه، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ.

وقاتلت أم عمارة نسيبه بنت كعب المازنية، يومئذ قالت: خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو فى أصحابه والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمى عن القوس، حتى خلصت الجراح إلىّ.

قالت أم سعد بنت سعد بن الربيع: فرأيت على عاتقها جراحًا أجوف له غور فقلت: من أصابك بهذا، قالت: ابن قميئة أقمأه الله، لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا. فاعترضته أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربنى هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كانت عليه درعان.

وترس دون رسول الله ﷺ أبو دجانة بنفسه، يقع النبل فى ظهره وهو منحن عليه، حتى كثر فيه النبل.

ورمى سعد بن أبى وقاص دون رسول الله ﷺ، قال سعد: فلقد رأيته يناولنى النبل ويقول: «أرم فداك أبى وأمى»[٢] حتى إنه ليناولنى السهم ماله من نصل فيقول: «ارم به».

ورمى رسول الله ﷺ يوم أحد عن قوسه حتى اندقت سيتها.

وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان[٣] فردها رسول الله ﷺ بيده فكانت أحسن عينيه وأحدهما.

---

(١) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٣/٢٣٥).

(٢) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٤/٤٧، ٥/١٢٤، ٨/٥٢)، صحيح مسلم فى كتاب فضائل الصحابة (٤١، ٤٢)، سنن الترمذى (٢٨٢٩، ٣٧٥٣)، السنن الكبرى للبيهقى (٩/١٦٢)، دلائل النبوة للبيهقى (٣/٢٣٩)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/٢٧، ٨/٧٢).

(٣) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٧٠٩١)، أسد الغابة ترجمة رقم (٤٢٧٧)، طبقات خليفة (٨١، ٩٦)، تاريخ خليفة (١٥٣)، التاريخ الكبير (٧/١٨٤، ١٨٥)، تاريخ الفسوى (١/٣٢٠)، الجرح والتعديل (٧/١٣٢)، تاريخ ابن عساكر (١٤/٢٠٠)، تهذيب الكمال (١١٢٣)، تاريخ الإسلام (٢/٥٠)، العبر (١/٢٧)، تهذيب التهذيب (٨/٣٥٧، ٣٥٨)، خلاصة تذهيب الكمال (٣١٥)، شذرات الذهب (١/٣٤).

وأصيب فم عبد الرحمن بن عوف فهتم وجرح عشرين جراحة أو أكثر، أصابه بعضها فى رجله فعرج.

وأتى أنس بن النضر عم أنس بن مالك وبه سمى، إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله فى رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قد قتل محمد رسول الله. قال: فما تصنعون بالحياة بعده! قوموا على ما مات عليه رسول الله ﷺ. ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل، رحمه الله تعالى.

وروى حميد عن أنس، أن عمه أنس بن النضر هذا غاب عن قتال يوم بدر، فقال: غبت عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين لئن أشهدنى الله قتالا ليرين الله ماأصنع، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال: اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، يعنى المشركين، وأعتذر إليك مما جاء به هؤلاء، يعنى المسلمين، ثم مشى بسيفه فلقيه سعد بن معاذ فقال: أى سعد، والذى نفسى بيده إنى لأجد ريح الجنة دون أحد! واها لريح الجنة. فقال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. فوجدناه بين القتلى وبه بضع وثمانون جراحة من ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم، وقد مثلوا به حتى عرفته أخته ببنانه.

قال أنس: كنا نقول أنزلت هذه الآية: ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾ [الأحزاب: ٢٣] فيه وفى أصحابه.

قال ابن إسحاق[١]: وكان أول من عرف رسول الله ﷺ بعد الهزيمة وتحدث الناس بقتله: كعب بن مالك الأنصارى، قال: عرفت عينيه تزهران تحت المغفر فناديت بأعلى صوتى: يا معشر المسلمون أبشروا، هذا رسول الله ﷺ، فأشار إلى أن أنصت. فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ نهضوا به ونهض معهم نحو الشِّعْب، معه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام والحارث بن الصمة، ورهط من المسلمين.

فلما أسند رسول الله ﷺ فى الشعب أدركه أبى بن خلف وهو يقول: أين محمد: لا نجوت إن نجوت! فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال: «دعوه»[٢].

---

(١) انظر السيرة (٣/٤٦).
(٢) انظر الحديث فى: مستدرك الحاكم (٣/٦٢٤)، سنن ابن ماجه (٥٣٠)، مجمع الزوائد للهيثمى (٣/١٩).

فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، يقول بعض القوم: فلما أخذها رسول الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعراء من ظهر البعير إذا انتفض بها، ثم استقبله فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مرارًا.

وكان أبى بن خلف يلقى رسول الله ﷺ بمكة فيقول: يا محمد، إن عندى العوذ، فرسا أعلفه كل يوم فرقًا من ذرة أقتلك عليه. فيقول رسول الله ﷺ: «أنا أقتلك إن شاء الله»[١].

فلما رجع إلى قريش وقد خدشه فى عنقه خدشًا غير كبير فاحتقن الدم قال: قتلنى والله محمد! فقالوا له: ذهب والله فؤادك! والله إن بك بأس. قال: إنه قد كان قال لى بمكة: أنا أقتلك. فوالله لو بصق على لقتلنى.

فمات عدو الله بسرف وهم قافلون به إلى مكة.

وقد قال رسول الله ﷺ فيما قاله يومئذ: «اشتد غضب الله على رجل قتله رسول الله»[٢]. فسحقا لأصحاب السعير.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الشعب خرج على بن أبى طالب حتى ملأ درقته من المهراس، فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه، فوجد له ريحًا فعافه ولم يشرب منه، وغسل عن وجهه الدم فصب على رأسه وهو يقول: «اشتد غضب الله على من دمى وجه رسوله»[٣].

فبينا رسول الله ﷺ فى الشعب معه أولئك النفر من أصحابه إذا علت عالية من قريش الجبل فقال: «اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا»[٤] فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل.

ونهض رسول الله ﷺ إلى صخرة من الجبل ليعلوها فلم يستطع، وقد كان بدن

---

(١) انظر الحديث فى: تفسير القرطبى (٣٨٥/٧)، البداية والنهاية لابن كثير (٣٥/٤)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٢/١/٢).

(٢) انظر الحديث فى: مستدرك الحاكم (٢٧٥/٤)، شرح السنة للبغوى (٣٣٧/١٢)، كنز العمال للمتقى الهندى (٢٩٨٨٥، ٢٩٨٨٧).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر الحديث فى: تفسير الطبرى (٩٠/٤)، البداية والنهاية لابن كثير (٣٦/٤)، دلائل النبوة للبيهقى (٢٣٨/٣).

وظاهر بين درعين فجلس تحته بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها، فقال ﷺ: «أوجب طلحة»[1].

وصلى رسول الله ﷺ الظهر - يومئذ - قاعدًا من الجراح التى أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعودًا.

ولما خرج ﷺ إلى أحد رفع حسيل بن جابر وهو اليمان أبو حذيفة بن اليمان، وثابت بن قيس فى الآكام مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران: لا اب لك! ما ننتظر؟ فوالله إن بقى لواحد منا من عمره إلا ظمء حمار، إنما نحن هامة اليوم أو غد، أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحق رسول الله ﷺ، لعل الله يرزقنا شهادة معه؟ فأخذا اسيافهما ثم خرجا حتى دخلا فى الناس ولم يعلم بهما.

فأما ثابت فقتله المشركون، وأما حسيل فاختلفت عليه أسياف المسلمين فقتلوه وهم لا يعرفونه، فقال حذيفة: أبى! قالوا: والله إن عرفناه. وصدقوا. قال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. فأراد رسول الله ﷺ أن يديه فتصدق حذيفة بديته على المسلمين، فزاده عند رسول الله خيرًا.

وكان ممن قتل يوم أحد مخيرق من أحبار اليهود، وقد تقدم خبره وكيف قال - يومئذ - ليهود: لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق. فتعللوا عليه بأنه يوم السبت، فقال لهم: لا سبت لكم. وأخذ سيفه وعُدَّته فلحق برسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قتل بعد أن قال: إن أصبت فمالى لمحمد يصنع فيهما يشاء. وفيه قال رسول الله ﷺ: «مخيريق خير يهود»[2].

وكان عمرو بن ثابت وقش أصيرم بنى عبد الأشهل يأبى الإسلام على قومه، فلما

---

(١) انظر الحديث فى: سنن الترمذى (٣٧٣٨)، مسند الإمام أحمد (١/١٦٥)، السنن الكبرى للبيهقى (٦/٣٧٠، ٩/٤٦)، مستدرك الحاكم (٣/٢٥، ٣٧٣)، موارد الظمآن للهيثمى (٢٢١٢)، الترغيب والترهيب للمنذرى (٢/٢٨١)، فتح البارى لابن حجر (٧/٣٦١، ١٢/٩١)، مشكاة المصابيح للتبريزى (٦١١٢)، شرح السنة للبغوى (١٤/١٢٠)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/١/١٥٥)، السنة لابن أبى عاصم (٢/٦١٢)، كنز العمال للمتقى الهندى (٣٣٣٦٤)، دلائل النبوة للبيهقى (٣/٢٣٨).

(٢) انظر الحديث فى: الطبقات الكبرى لابن سعد (١/٢/١٨٣)، دلائل النبوة لأبى نعيم (١/١٨)، البداية والنهاية لابن كثير (٣/٢٣٧، ٤/٣٦)، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٣/٢٤٥، ١٠/٨٧).

كان يوم أحد بدا له فى الإسلام فأسلم، ثم أخذ سيفه فغزا حتى دخل فى عرض الناس فقاتل حتى أثبتته الجراحة، فبينا رجال من بنى الأشهل يلتمسون قتلاهم فى المعركة إذا هم به، فقالوا: والله إن هذا للأصيرم، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الحديث. فسألوه ما جاء بك عمرو؟ أحدب على قومك أم رغبة فى الإسلام؟ قال: بل رغبة فى الإسلام، آمنت بالله وبرسوله وأسلمت ثم أخذت سيفى فغدوت مع رسول الله ﷺ، ثم قاتلت حتى أصابنى ما أصابنى. ثم لم يلبث أن مات فى ايديهم، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال: «إنه لمن أهل الجنة»[1].

وكان أبو هريرة يقول: حدثونى عن رجل دخل الجنة لم يصل قط؟ فإذا لم يعرفه الناس سألوه من هو؟ فيقول: أصيرم بنى عبد الأشهل؟

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه وقالوا له: إن الله قد عذرك. فأتى رسول الله ﷺ فقال: إن بنى يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك فيه، فوالله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة. فقال له رسول الله ﷺ: «أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك». وقال لبنيه: «ما عليكم أن لا تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة»[2] فخرج معه فقتل، يرحمه الله.

ووقعت هند بنت عتبة[3] والنسوة اللاتى معها يمثلن بالقتلى من المسلمين يجدعن الاذان والأنوف، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأنوفهم خدما وقلائد، وأعطت خدمها وقلائدها وقرطها وحشيا قاتل حمزة، وبقرت عن كبد حمزة - رضى الله عنه - فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها، ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها:

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر[4]
ما كان عن عتبة لى من صبر ... ولا أخى وعمه وبكر

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٥/٤٢٨، ٤٢٩).

(٢) انظر الحديث فى: إتحاف السادة المتقين (١٠/٣٣٢)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/٣٧).

(٣) انظر ترجمتها فى: الإصابة ترجمة رقم (١١٨٦٠)، أسد الغابة ترجمة رقم (٧٣٥٠)، الثقات (٢/٤٣٩)، أعلام النساء (٥/٢٣٩)، تجريد أسماء الصحابة (٢/٣١٠)، أزمنة التاريخ الإسلامى (١٠٠٨)، تلقيح فهوم أهل الأثر (٣١٩)، ودر السحابة (٨٢٤).

(٤) السعر: أى الالتهاب.

شفيت نفسى وقضيت نذرى شفيت وحشى غليل صدرى
فشكر وحشى علىّ عمرى حتى ترم أضلعى فى قبرى

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب، فقالت:

خزيت فى بدر وبعد بدر يا منه وقاع عظيم الكفر
صبحك الله غداة الفجر بالهاشمين الطوال الزهر
بكل قطاع حسام يفرى حمزة ليثى وعلى صقرى
إذ رام شيب وأبوك غدرى فخضبا منه ضواحى النحر
ونذرك السوء فشر نذر

وقد كان الحليس بن زبان أخو بنى الحارث بن عبد مناة، وهو يومئذ سيد الأحابيش، مر بأبى سفيان وهو يضرب فى شدق حمزة بن عبد المطلب بزح الرمح ويقول: ذق عقق، فقال الحليس: يا بنى كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحمًا. فقال: ويحك، اكتمها عنى فإنها كانت زلة.

ثم إن أبا سفيان حين أراد الإنصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته: أنعمت فعال، إن الحرب سجال يوم بيوم بدر، اعل هبل. أى ظهر دينك.

فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عمر فأجبه، فقل: الله أعلى وأجل، لا سواء، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار»(١).

وفى الصحيح من حديث البراء أن أبا سفيان قال: إنه لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبى ﷺ: «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال قالوا: «الله مولانا ولا مولى لكم»(٢).

وفيه أيضًا: أن أبا سفيان أشرف يوم أحد فقال: أفى القوم محمد؟ فقال: لا تجيبوه. فقال: أفى القوم ابن أبى قحافة؟ قال: لا تجيبوه. قال: أفى القوم ابن الخطاب؟ فلما لم يجبه أحد قال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله قد أبقى الله لك ما يخزيك.

قال ابن إسحاق: فلما أجاب عمر أبا سفيان قال له: هلم إلى يا عمر، فقال رسول

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/٣٨).
(٢) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٤/٨٠)، مسند الإمام أحمد (٤/٢٩٣)، دلائل النبوة للبيهقى (٣/٢١٣)، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٦/٣٩٨).

الله ﷺ لعمر: «ايته فانظر ما شأنه»[1]. فجاءه فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر: أقتلنا محمدًا؟ قال عمر: اللهم لا وإنه ليسمع كلامك الآن، قال: أنت أصدق عندى من ابن قميئه وابر. لقول ابن قميئة لهم: إنى قد قتلت محمدًا، ثم نادى أبو سفيان: إنه قد كان فى قتلاكم مثل، والله مارضيت وما سخطت، وما أمرت وما نهيت.

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر العام القابل. فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه قل: «نعم، هو بيننا وبينكم مَوْعِد»[2].

ثم بعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فقال: «اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم»[3]؛ فخرج على فرآهم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة.

وفرغ الناس لقتلاهم وانتشروا يبتغونهم، فلم يجدوا قتيلا إلا وقد مثلوا به إلا حنظلة ابن أبى عامر فإن أباه كان مع المشركين فتركوه له، وزعموا أن أباه وقف عليه قتيلا فدفع صدره بقدمه وقال: قد تقدمت إليك فى مصرعك هذا، ولعمر الله إن كنت لواصلا للرحم برًا بالوالدة.

وقال رسول الله ﷺ: «من رجل ينظر لى ما فعل سعد بن الربيع، أفى الأحياء هو أم فى الأموات؟»[4] فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل. فنظر فوجده جريحًا فى القتلى وبه رمق، قال فقلت له: إن رسول الله ﷺ أمرنى أن أنظر أفى الأحياء أنت أم فى الأموات؟ قال: أنا فى الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ عنى السلام وقل له: إن سعد بن الربيع يقول: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًّا عن أمته، وأبلغ قومك السلام عنى وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف. قال: ثم لم أبرح حتى مات. فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته خبره.

---

(١) انظر الحديث فى: تفسير الطبرى (٢/٩٠).

(٢) انظر الحديث فى: التاريخ لابن كثير (٤/٣٨)، تاريخ الطبرى (٢/٧١).

(٣) انظر الحديث فى: تاريخ الطبرى (٢/٧١)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٣٨)، المغازى للواقدى (١/٢٩٨).

(٤) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٣/٢٨٥)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/٣٩).

وفى سعد هذا يقول أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - وقد دخل عليه رجل وعلى صدره بنت لسعد جارية صغيرة يرشفها ويقبلها فقال الرجل: من هذه؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه: بنت رجل خير منى، سعد بن الربيع، كان من النقباء ليلة العقبة وشهد بدرًا، واستشهد يوم أحد.

وخرج رسول الله ﷺ يلتمس حمزة بن عبد المطلب فوجده ببطن الوادى قد بقر بطنه عن كبده ومثل به فجدع أنفه وأذناه، فقال رسول الله ﷺ حين رأى ما رأى: «لولا أن تحزن صفية ويكون سُنّةً من بعدى لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرنى الله على قريش فى مواطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم»[1].

فلما رأى المسلمون حزن الرسول ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يومًا من الدهر لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب. فأنزل الله تعالى، فيما قاله من ذلك رسوله صلوات الله عليه وسلامه: ﴿**وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون**﴾ [النحل: ١٢٦،١٢٧]، فعفا رسول الله ﷺ وصبرونهى عن المُثْلَة.

ويقال: إن رسول الله ﷺ لما وقف على حمزة قال: «لن أصاب بمثلك أبدًا! ما وقفت موقفًا قط أغيظ إلى من هذا»[2]. ثم قال: «جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة مكتوب فى أهل السموات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله»[3].

ثم أمر به رسول الله ﷺ فسجى ببرده، ثم صلى عليه فكبر سبع تكبيرات، ثم أتى بالقتلى، يوضعون إلى حمزة وصلى عليهم وعليه معهم، حتى صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة.

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب[4] إليه، وكان أخاها لأبيها وأمها فقال رسول الله

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٣٩/٤).

(٢) انظر الحديث فى: فتح البارى لابن حجر (٣٧١/١)، البداية والنهاية لابن كثير (٤٠/٤).

(٣) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤٠/٤).

(٤) انظر ترجمتها فى: طبقات ابن سعد (٤١/٨)، طبقات خليفة (٣٣١)، تاريخ خليفة (١٤٧)، المعارف (١٢٨)، تاريخ الإسلام (٣٨١٢)، الإصابة ترجمة رقم (١١٤١١).

ﷺ لابنها الزبير بن العوام: «القها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها». فقال لها: يا أمه، إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعى. قالت ولم؟ وقد بلغنى أن قد مُثِّل بأخى، وذلك فى الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله. فلما أخبر الزبير بذلك رسول الله ﷺ قال له: «خل سبيلها». فأتته فنظرت إليه فصلت عليه واسترجعت واستغفرت له.

ثم أمر به رسول الله ﷺ فدفن.

وزعم آل عبد الله بن جحش أن رسول الله ﷺ دفن عبد الله بن جحش مع حمزة فى قبره، وهو ابن أخته أميمة بنت عبد المطلب، وكان قد مثل به كما مثل بخاله حمزة، إلا أنه لم يبقر عن كبده وجدع أنفه وأذناه، فلذلك يقال له: المجدع فى الله.

وكان فى أول النهار قد لقى سعد بن أبى وقاص فقال له عبد الله: هلم يا سعد فلندع الله وليذكر كل واحد منا حاجته فى دعائه وليؤمن الآخر. فقال سعد: يا رب إذا لقيت العدو فلقنى رجلاً شديدًا بأسه شديدًا حرده أقاتله فيك ويقاتلنى ثم ارزقنى الظفر عليه حتى أقتله وأسلبه سلبه. فأمن عبد الله بن جحش ثم قال: اللهم ارزقنى رجلاً شديدًا بأسه شديدًا حرده أقاتله فيك ويقاتلنى فيقتلنى ثم يجدع أنفى وأذنى، فإذا لقيتك غدًا قلت لى: يا عبد الله، فيم جدع أنفك وأذناك؟ فأقول: فيك يا رب وفى رسولك. فتقول لى: صدقت. فأمن سعد على دعوته.

قال سعد: كانت دعوة عبد الله خيرًا من دعوتى، لقد رأيته النهار وإن أذنيه وأنفه معلقان فى خيط، ولقيت أنا فلان من المشركين فقتلته وأخذت سلبه.

وذكر الزبير أن سيف عبد الله بن جحش انقطع يوم أحد فأعطاه رسول الله ﷺ عرجونا فعاد فى يده سيفًا منه، فقاتل به فكان ذلك السيف يسمى العرجون، ولم يزل هذا يتوارث حتى بيع من بغا التركى بمائتى دينار.

واحتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة فدفنوهم بها، ثم نهى رسول الله ﷺ عن ذلك قال: «ادفنوهم حيث صرعوا»[1].

ولما أشرف صلوات الله عليه وسلامه يوم أحد على القتلى قال: «أنا شهيد على هؤلاء، إن ما من جريح يجرح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه اللون لون

---

(١) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٣/٢٩٠).

دم والريح ريح مسك، انظروا أكثر هؤلاء جمعًا للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه فى القبر»[١]. وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة فى القبر الواحد.

وقال - يومئذ - حين أمر بدفن القتلى: «انظروا عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو بن حرام، فإنهما كانا متصافيين فى الدنيا فاجعلوهما فى قبر واحد»[٢].

وذكر مالك بن أنس فى مُوطَّئه أن السيل حفر قبرهما بعد زمان فحفر عنهما ليغيرا من مكانهما، فوجدا لم يتغيرا كأنما ماتا بالأمس، وكان أحدهما قد جرح فوضع يده على جرحه فدفن وهو كذلك فأميطت يده عن جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت، وكان بين أحد وبين يوم حفر عنهما ست وأربعون سنة.

ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعًا إلى المدينة فلقيته حَمْنَة بنت جحش، فلما لقيت الناس نعى لها أخوها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: «إن زوج المرأة منها لبمكان»[٣] لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها وصياحها على زوجها.

ومر رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم، فذرفت عيناه فبكى، ثم قال: «لكن حمزة لا بواكى له»[٤].

فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير إلى دار بنى عبد الأشهل أمرا نساءهما أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله ﷺ، ففعلن فلما سمع رسول الله ﷺ بكاءهن على حمزة خرج عليهن وهن على باب المسجد يبكين عليه، فقال: «ارجعن

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/٤١، ٤٢)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/١/٧).

(٢) انظر الحديث فى: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/٥٦٢)، موطأ مالك (٢/٤٧٠/٤٩).

(٣) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٣/٣٠١)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/٤٦).

(٤) انظر الحديث فى: سنن ابن ماجه (١٥٩١)، مسند الإمام أحمد (٢/٤٠، ٨٤، ٩٢)، السنن الكبرى للبيهقى (٤/٧٠)، مستدرك الحاكم (١/٣٨١، ٣/١٩٥)، المعجم الكبير للطبرانى (٣/١٥٩، ١١/٣٩٢)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٢٠)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/١/٣١، ٣/١/٥، ١٠، ١١)، مصنف ابن أبى شيبة (٣/٣٩٤)، مصنف عبد الرزاق (٦٦٩٤)، دلائل النبوة للبيهقى (٣/٢١٦، ٣٠١)، كنز العمال للمتقى الهندى (٣٦٩٤٥).

يرحمكن الله، فقد آسيتن[١] بأنفسكن»[٢]. وقيل: إنه لما سمع بكاءهن قال: «رحم الله الأنصار، فإن المواساة منهم ما علمت لقديمة، مروهن فلينصرفن».

ومر رسول الله فى انصرافه بامرأة من بنى دينار وقد أصيب زوجها وأخوها و أبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين. قالت: أرونيه حتى أنظر إليه. فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل! تريد صغيرة.

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة فقال: «اغسلى عن هذا دمه يا بنية، فوالله لقد صدقنى اليوم»[٣]، وناولها على بن أبى طالب سيفه فقال: وهذا فاغسلى عنه دمه، فوالله لقد صدقنى اليوم. فقال رسول الله ﷺ: «لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة»[٤].

وكان يقال لسيف رسول الله ﷺ: ذو الفقار. ونادى مناد يوم أحد:

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على

وقال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب: «لا يصيب المشركون منا مثلها حتى يفتح الله علينا»[٥].

وكان يوم أحد السبت للنصف من شوال.

فلما كان الغد منه يوم الأحد أذن مؤذن رسول الله ﷺ بطلب العدو، وأذن مؤذنه: أن لا يخرجن معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس.

فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام فقال: يا سول الله، كان أبى خلفنى على أخوات لى سبع وقال: «يا بنى لا ينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسى، فتخلف على أخواتك. فتخلفت عليهن. فأذن له رسول الله ﷺ فخرج معه.

وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهبًا للعدو ليبلغهم أنه خرج فى طلبهم فيظنوا به قوة، وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم.

---

(١) آسيتن: أى عزيتن وعاونتن.

(٢) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/٤٧)، دلائل النبوة للبيهقى (٣/٣٠١، ٣٠٢).

(٣) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/٤٧).

(٤) انظر الحديث فى: مستدرك الحاكم (٣/٢٤)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/٤٧).

(٥) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/٤٧).

وشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد أخوان من بنى الأشهل فرجعا جريحين، قال أحدهما: فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج فى طلب العدو قلت لأخى أو قال لى: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟! والله ما لنا من دابة نركبها وما منا إلا جريح ثقيل. فخرجنا وكنت أيسر جرحًا منه، فكان إذا غلب حملته عقبة ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

وانتهى رسول الله ﷺ فى خروجه ذلك إلى حمراء الأسد، على ثمانية أميال من المدينة. فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة.

وقد مر به هنالك معبد بن أبى معبد الخزاعى، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح رسول الله بتهامة، صفقتهم معه لا يخفون عنه شيئًا كان بها، ومعبد يومئذ مشرك فقال: يا محمد، أماو الله لقد عز علينا ما أصابك فى أصاحبك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم.

ثم خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد، حتى لقى ابا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا: أصبنا حد أصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم! لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم. فلما رأى أبو سفيان معبدًا قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقًا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط. فقال: ويحك ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل. قال: فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم. قال: فإنى أنهاك عن ذلك، والله لقد حملنى ما رأيت على أن قلت فيه أبياتًا من الشعر. قال: وما قلت؟ قال قلت:

كادت تهد من الأصوات راحلتى ... إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل(١)

تردى بأسد كرام لا تنابلة ... عند اللقاء ولا ميل معازيل(٢)

فظلت عدوا أظن الأرض مائلة ... لما سموا برئيس غير مخذول

فقلت ويل ابن حرب من لقائكم ... إذا تغطمطت البطحاء بالجيل(٣)

---

(١) تهد: تسقط من الإعياء لهول ما رأت من صوت الجيش وكثرته. والجرد: الخيل العتاق. والأبابيل: الجماعات.

(٢) تردى: أى تسرع. والتنابلة: القصار. والميل: أى الذى لا رمح له.

(٣) أبو حرب: هو أبو سفيان. وتغطمطت: أى اهتزت وارتجت. والجيل: الصنف من الناس.

إنـى نذيـر لأهـل البسـل ضاحيـة ... لكـل ذى إربـة منهـم ومعقـول
مـن جيـش أحمـد لا وخـشًا قنابلـة ... وليس يوصف ما أنـذرت بالقيـل

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه.

ومر به ركب من عبد القيس فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: ولم؟ قالوا: نريد الميرة. قال: فهل أنتم مبلغون عنى محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه وأحمل لكم بهذه غدًا زبيبًا بعكاظ إذا ما أتيتموها؟ قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم. فمر الركب برسول الله ﷺ وهم بحمراء الأسد فأخبروه بالذى قال أبو سفيان وأصحابه فقالوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل»[1].

ويقال: إنهم لما هموا بالرجعة إلى المدينة ليستأصلوا - كما زعموا - بقية أصحاب رسول الله ﷺ قال لهم صفوان بن أمية: لا تفعلوا فإن القوم قد حربوا وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذى كان، فارجعوا. فرجعوا.

فقال النبى ﷺ وهو بحمراء الأسد حين بلغه أنهم هموا بالرجعة: «والذى نفسى بيده لقد سومت[2] لهم حجارة لو صبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب»[3].

وأخذ رسول الله ﷺ فى وجهه قبل رجوعه إلى المدينة معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس جد عبد الملك بن مروان أبا أمه وأبا عزة الجمحى، وكان رسول الله ﷺ أسره ببدر ثم من عليه، وقد تقدم ذكر ذلك وذكر مقتله إياه فى هذه الأخذة الثانية صدر غزوة أحد، ولجأ معاوية بن المغيرة إلى عثمان بن عفان فاستأمن له رسول الله ﷺ فأمنه على أنه إن وجد بعد ثلاث قتل، فأقام بعدها وتوارى. فبعث النبى زيد بن حارثة وعمار بن ياسر وقال: «إنكما ستجدانه بموضع كذا»[4]. فوجداه فقتلاه.

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (١/٣٢٦)، المعجم الكبير للطبرانى (١٢/١٢٨)، الدر المنثور للسيوطى (٢/١٠١، ٥/٣٣٨)، دلائل النبوة للبيهقى (٣/٣١٧)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/١/٤٨)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/٥٠)، السلسلة الصحيحة للألبانى (١٠٧٩)، زاد المسير لابن الجوزى (٥/٣٣٦، ٥٠٥)، تفسير ابن كثير (٥/١٩٦)، تفسير الطبرى (٤/١١٩، ٢٩/٩٥)، تاريخ بغداد للخطيب البغدادى (١١/٨٦).

(٢) سومت: علمت.

(٣) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/٥١).

(٤) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/٥١).

وكان يوم أحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص، اختبر الله بـه المؤمنـين ومحـن بـه المنـافقين ممن كان يظهر الإيمان بلسانه وهو مستخف بالكفر فـى قلبـه، وأكـرم اللـه فيـه مـن أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته.

وكان مما أنزل الله - تبارك وتعالى - من القـرآن فـى شـأن أحـد سـتون آيـة مـن آل عمران فى طاعة من أطاع، ونفاق من نافق، وصفة ما كان فى يومهـم، وتعزيـة المؤمنـين فى مصيبتهم ومعاتبة من عاتب منهم.

يقول الله تبارك وتعالى - لنبيه ﷺ: **﴿وإذ غدوت من أهلك تبـوىء المؤمنـين مقـاعد للقتال والله سميع عليم﴾**. أى سميع لما يقولون عليم بما يخفون.

﴿إذ همـت طائفتـان منكـم أن تفشـلا﴾ أى تتخـاذلا. والطائفتـان: بنـو سـلمة مـن الخزرج وبنـو حارثـة مـن الأوس، وهمـا الجناحـان، يقـول اللـه تبـارك وتعـالى: **﴿والله وليهما﴾** أى المدافع عنهما ما همتا بـه مـن ذلـك برحمتـه وعائذتـه حتـى سـلمتا ولحقتـا بنبيهما. وقيل: إنه لما أنزل الله - تعالى - فى هاتين الطائفتين قالتا: ما نحب أنـا لـم نهـم بما هممنا لتولى الله إيانا فى ذلك.

﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾، أى من كان به ضعف من المؤمنين فليتوكـل علـى وليستعن بى أعنه على أمره وأدفع عنه حتى أبلغ به وأقويه على نيته.

﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ أقل عددًا وأضعف قوة **﴿فاتقوا اللـه لعلكـم تشكرون﴾** أى فاتقونى فإنه شكر نعمتى.

﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكـة مـنزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويـأتوكم مـن فورهـم هـذا يمددكـم ربكـم بخمسـة آلاف مـن الملائكة مسـومين﴾، أى إن تصبروا لعـدوى وتطيعـوا أمـر ويـأتوكم مـن وجههـم هـذا أمددكم بهذا العدد من الملائكة مسومين أى معلمين.

﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصـر إلا مـن عنـد اللـه العزيز الحكيم﴾، أى ما سميت لكم من سميته من جنود ملائكتى إلا لتستبشروا بذلـك وتطمئن قلوبكم إليه، لما أعـرف مـن ضعفكـم، ومـا النصـر إلا مـن عنـد اللـه لسـلطانى وقدرتى، وذلك أن العزة والحكم لى لا إلى أحد من خلقى.

ثم قال لمحمد ﷺ: **﴿ليس لك من الأمر شـىء أو يتـوب عليهـم أو يعذبهـم فإنهم**

ظالمون﴾، أى ليس لك من الحكم شىء فى عبادى إلا ما أمرتك به فيهم، أو أتوب عليهم برحمتى فإن شئت فعلت، أو أعذبهم بذنوبهم فبحقى فإنهم ظالمون أى عصوا فاستوجبوا ذلك بمعصيتهم إياى.

ثم استقبل ذكر المصيبة التى نزلت بهم والبلاء الذى أصابهم والتمحيص لما كان فيهم واتخاذه الشهداء منهم، فقال تعزية لهم وتعريفًا لهم فيما صنعوا وفيما هو صانع بهم: **﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾**، أى قد مضت منى وقائع نقمة فى أهل التكذيب برسلى والشرك، فى عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين، فرأوا مثلاتٍ قد مضت منى فيهم ولمن هو على مثل ما هم عليه: **﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾**، أى نور وأدب لمن أطاعنى وعرف أمرى.

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾، أى لا تضعفوا ولا تبتئسوا على ما أصابكم **﴿وأنتم الأعلون﴾** لكم تكون العاقبة والظهور **﴿إن كنتم مؤمنين﴾** أى أن كنتم صدقتم نبيى بما جاءكم به عنى.

﴿إن يمسسكم قرح﴾ أى جراح **﴿فقد مس القوم قرح مثله﴾** أى جراح مثلها **﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾** أى نصرفها للبلاء والتمحيص **﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾**، أى حسبتم أن تدخلوا الجنة فتصيبوا كرامة ثوابى ولم أختبركم بالشدة وأبتليكم بالمكاره حتى أعلم صدق ذلك منكم، الإيمان بى والصبر على ما أصابكم فىَّ.

﴿ولقد كنتم تمنون الموت﴾ أى الشهادة **﴿من قبل أن تلقوه﴾** يعنى الذين استنهضوا رسول الله ﷺ إلى الخروج بهم إلى عدوهم يوم أحد لما فاتهم من يوم بدر رغبة فى الشهادة، يقول: **﴿فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾**.

﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾، أى لقول الناس: قتل محمد. وانهزامهم عند ذلك وانصرافهم عن عدوهم. أفئن مات أو قتل رجعتم عن دينكم كفارًا كما كنتم، وتركتم جهاد عدوكم وكتاب ربكم وما خلف نبيه من دينه معكم وعندكم وقد بين لكم فيما جاءكم به عنى أنه ميت عنكم ومفارق لكم؟! **﴿ومن ينقلب على عقبيه﴾** أى يرجع عن دينه **﴿فلن يضر**

الله شيئًا﴾ أى لن ينقص ذلك عز الله ولا ملكه ولا سلطانه ولا قدرته **﴿وسيجزى الله الشاكرين﴾** أى من أطاعه وعمل بأمره.

﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابًا مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين﴾ أى من أراد الدنيا خاصة أتاه منها ما كتب له وماله فى الآخرة من نصيب، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن آتاه منها ما وعد به مع ما يجرى عليه فى دنياه من رزقه المقدر له، وذلك هو جزاء الشاكرين أى المتقين.

﴿وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾، أى وكم من نبى أصابه القتل ومعه جماعات من أنصاره، فما وهنوا لفقد نبيهم وما ضعفوا عن عدوهم وما استكانوالما أصابهم فى الجهاد عن الله وعن دينهم، وذلك هو الصبر **﴿والله يحب الصابرين﴾**.

﴿وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾، أى فقولوا مثل ما قالوا، واعلموا أن ذلك بذنوب منكم فاستغفروه كما استغفروا كما استغفروا، وامضوا على دينكم كما مضوا على دينهم ولا ترتدوا على أعقابكم راجعين، وسلوه كما سألوه أن يثبت أقدامكم وينصركم على القوم الكافرين. فكل هذا من قولهم كان وقد قتل نبيهم، ولم يفعلوا كما فعلتم.

﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ بالظهور على عدوهم **﴿وحسن ثواب الآخرة﴾** الذى به وعدهم **﴿والله يحب المحسنين﴾**.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾ أى عن عدوكم فتذهب دنياكم وآخرتكم.

﴿بل الله مولاكم وهو خير الناصرين﴾ فإن كان ما تقولون بألسنتكم صدقا عن قلوبكم فاعتصموا به ولا تنتصروا بغيره، ولا ترجعوا كفارًا على أعقابكم مرتدين عن دينه.

﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب﴾ الذى به كنت أنصركم عليهم جزاء لهم بما أشركوا بى، فلا تظنوا أن لهم عاقبة نصر ولا ظهورًا عليكم ما اعتصمتم بى

واتبعتم أمرى، وإنما أصابكم منهم ماأصابكم بذنوب قدمتموها لأنفسكم خالفتم بها أمرى وعصيتم فيها نبيى.

﴿**ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون**﴾، أى لقد وفيت لكم ما وعدتكم من النصر على عدوكم إذ تحسونهم بالسيوف أى تستأصلونهم قتلا بإذنى وتسليطى أيديكم عليهم وكفى أيديهم عنكم ﴿**حتى إذا فشلتم**﴾ أى تخاذلتم ﴿**وتنازعتم فى الأمر**﴾ اختلفتم فيه ﴿**وعصيتم**﴾ بترك أمر نبيكم، يعنى الرماة الذين عهد إليهم ألا يفارقوا مكانهم فخالفوا أمره حتى أتى المسلمون من قبلهم ﴿**من بعد ما أراكم ما تحبون**﴾ أى الفتح لا شك فيه وهزيمة القوم عن نسائهم وأموالهم ﴿**منكم من يريد الدنيا**﴾ أى النهب ﴿**ومنكم من يريد الآخرة**﴾ أى الذين جاهدوا فى الله ولم يخالفوا إلى ما نهوا عنه ﴿**ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين**﴾، أى أنه سبحانه وإن عاقب من يشاء من عباده ببعض الذنوب فى عاجل الدنيا أدبا وموعظة، فإنه غير مستوف كل ماله فيهم من الحق بما أصابوا من معصية، فضلا من الله ورحمة.

ثم أنبهم بالفرار عن نبيهم وهو يدعوهم ولا يعطفون عليه فقال: ﴿**إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم**﴾ أى كربا بعد كرب بقتل من قتل من إخوانكم وعلو عدوكم عليكم وما وقع فى أنفسكم حين سمعتم أنه قتل نبيكم ﴿**لكيلا تحزنوا على ما فاتكم**﴾ من الظهور على عدوكم بعد أن رأيتموه بأعينكم ﴿**ولا ما أصابكم**﴾ من قتل إخوانكم بما فرجت عنكم من الكرب بوقاية نبيكم وكشف كرب الشيطان فى الصراخ بقتله بينكم، فكان هذا هو الذى فرج الله به عنهم ما تابع عليهم من الغم، فلما رأوا رسول الله ﷺ حيا بين أظهرهم هان عليهم ما فاتهم من القوم بعد الظهور عليهم والمصيبة التى أصابتهم فيمن قتل منهم.

ثم قال تعالى بعد آيات ذكر فيها ما ذكر من قصة أحد ﴿**وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم**﴾ يعنى عبد الله بن أبى والراجعين عن رسول الله ﷺ حين سار إلى عدوه عن المشركين. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**هم للكفر اقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين**﴾.

ثم قال لنبيه عليه السلام يرغب المؤمنين فى الجهاد ويهون عليهم القتل: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾.

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب» قال الله تبارك وتعالى: فأنا أبلغهم عنكم»[1]؛ فأنزل الله - عز ذكره - على رسوله ﷺ هذه الآيات: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله**﴾ إلى آخرها.

وقال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا»[2].

وسئل عبد الله بن مسعود عن هؤلاء الآيات: ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتًا**﴾ فقال: أما إنا قد سألنا عنها فقيل لنا: إنه لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش فيطلع الله إليهم اطلاعة، فيقول: يا عبادى، ما تشتهون فأزيدكم؟ فيقولون: ربنا لا فوق ما أعطيتنا، الجنة نأكل منها حيث شئنا. ثم يطلع الله إليهم اطلاعه فيقول: يا عبادى، ما تشتهون فأزيدكم؟ فيقولون: ربنا لا فوق ما أعطيتنا، الجنة نأكل منها حيث نشاء، ثم يطلع إليهم اطلاعة فيقول: يا عبادى، ما

---

(١) انظر الحديث فى: سنن أبو داود (٢٥٢٠)، مسند الإمام أحمد (٢٦٦/١)، السنن الكبرى للبيهقى (١٦٣/٩)، مستدركم الحاكم (٨٨/٢، ٢٩٧)، دلائل النبوة للبيهقى (٣٠٤/٣)، مصنف ابن أبى شيبة (٢٩٤/٥)، الدر المنثور للسيوطى (٩٥/٢)، زاد المسير لابن الجوزى (٤٩٩/١)، تفسير ابن كثير (١٤١/٢)، تفسير الطبرى (١١٣/٤)، تفسير القرطبى (٢٦٨/٤).

(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٢٦٦/١)، مستدرك الحاكم (٧٤/٢)، المعجم الكبير للطبرانى (٤٠٥/١٠)، مصنف ابن أبى شيبة (٢٩٠/٥)، إتحاف السادة المتقين (٣٣٨/١٠)، موارد الظمآن للهيثمى (١٦١١)، الدر المنثور للسيوطى (٩٦/٢)، مجمع الزوائد للهيثمى (٢٩٤/٥، ٢٩٨)، كنز العمال للمتقى الهندى (١١٠٩٩)، الترغيب والترهيب للمنذرى (٣٢٣/٢)، تفسير الطبرى (٣٤/٢، ١١٣/٤)، تفسير ابن كثير (١٤٢/٢).

تشتهون فأزيدكم؟ فيقولون: ربنا لا فوق ما أعطيتنا، الجنة نأكل منها حيث شئنا، إلا أنا نحب أن ترد أرواحنا فى أجسادنا ثم تردنا إلى الدنيا فنقاتل فيك حتى نقتل فيك مرة أخرى».

وقال رسول الله ﷺ لجابر بن عبد الله: «ألا أبشرك يا جابر؟»[1] قال: قلت: بلى يا رسول الله. قال: «إن أباك حيث أصيب بأحد أحياه الله، ثم قال: ما تحب يا عبد الله ابن عمرو أن أفعل بك؟ قال: أى رب أحب أن تردنى إلى الدنيا فأقاتل فيك فأقتل مرة أخرى»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده ما من مؤمن يفارق الدنيا يحب أن يرجع إليها ساعة من النهار وأن له الدنيا وما فيها، إلا الشهيد فإنه يحب أن يرد إلى الدنيا فيقاتل فى الله فيقتل مرة أخرى».

واستشهد من المسلمين يوم أحد مع رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار خمسة وستون رجلاً، أربعة من المهاجرين وسائرهم من الأنصار وقتل الله من المشركين يومئذ اثنتين وعشرين رجلاً.

وكان مما قيل من الشعر فى يوم أحد قول كعب بن مالك الأنصارى رحمه الله:

ألا هل أتى غسان عنا ودونهم ... من الأرض خرق سيره متنعنع
صحار وأعلام كأن قتامها ... من البعد نقع هامد متقطع
تظل به البزل العراميس رزحا ... ويخلو به غيث السنين فيمرع
به جيف الحسرى يلوح صليبها ... كما لاح كتان التجار الموضع
به العين والآرام يمشين خلفة ... وبيض نعام قيضه يتقلع
مجالدنا عن ديننا كل فخمة ... مذربة فيها القوانس تلمع
وكل صموت فى الصوان كأنها ... إذا لبست نهى من الماء مترع
ولكن ببدر سائلوا من لقيتم ... من الناس والأنباء بالغيب تنفع
وإنا بأرض الخوف لو كان أهلها ... سوانا لقد أجلوا بليل فأقشعوا

---

(١) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (٩/٣١٧)، إتحاف السادة المتقين (٥/٢٤، ١٠/٣٨٣)، المغنى عن حمل الأسفار للعراقى (١/٢٠٥، ٤/٤٨٠)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/٤٤).

(٢) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/٤٤).

إذا جاء منا راكب كان قوله ... أعدوا لما يزجى ابن حرب ويجمع
ولما ابتنوا بالعرض قال سراتنا ... علام إذا لم نمنع العرض نزرع
وفينا رسول الله نتبع أمره ... إذا قال فينا القول لا نتطلع
تدلى عليه الروح من عند ربه ... ينزل من جو السماء ويرفع
نشاوره فيما نريد وقصدنا ... إذا ما اشتهى أنا نطيع ونسمع
وقال رسول الله لما بدوا لنا ... ذروا عنكم هول المنيات واطمع
وكونوا كمن يشرى الحياة تقربا ... إلى ملك يحيا لديه ويرجع
ولكن خذوا أسيافكم وتوكلوا ... على الله إن الأمر لله أجمع
فسرنا إليهم جهرة فى رحالهم ... ضُحيا علينا البيض لا نتخشع
بملمومة فيها السنور والقنا ... إذا ضربوا أقدامها لا تورع
فجئنا إلى موج من البحر وسطه ... أحابيش منهم حاسر ومقنع
ثلاثة آلاف ونحن نصية ... ثلاث مئين إن كثرنا وأربع
نعاورهم تجرى المنية بيننا ... نشارعهم حوض المنايا ونشرع
تهادى قسى النبع فينا وفيهم ... وما هو إلا اليثربى المقطع
ومنجوفة حرمية صاعدية ... يذر عليها السم ساعة تصنع
وخيل تراها بالفضاء كأنها ... جراد صبا فى قرة يتريع
فلما تلاقينا ودارت بنا الرحى ... وليس لأمر حمه الله مدفع
ضربناهم حتى تركنا سراتهم ... كأنهم بالقاع خشب مصرع
لدن غدوة حتى استفقنا عشية ... كأن ذكاها حر نار تلفع
وراحوا سراعا موجفين كأنهم ... جهام هراقت ماءه الريح مقلع
ورحنا وأخرانا بطاء كأننا ... أسود على لحم ببيشة ظلع
فنلنا ونال القوم منا وربما ... فعلنا ولكن ما لدى الله أوسع
ودارت رحانا واستدارت رحاهم ... وقد جعلوا كل من الشر يشبع
ونحن إناس لا نرى القتل سبة ... على كل من يحمى الذمار ويمنع
جلاد على ريب الحوادث لا ترى ... على هالك عين لنا الدهر تدمع
بنو الحرب لا نعيا بشىء نقوله ... ولا نحن مما جرت الحرب نجزع
بنو الحرب إن نظفر فلسنا بفحش ... ولا نحن من أظفارها نتوجع

وقال حسان بن ثابت يجيب عبد الله بن الزبعرى عن كلمة له على روى هذا الجواب يفخر فيها بيوم أحد، وكلتا الكلمتين ينكرها بعض أهل العلم لمن نسبت إليه:

أشـاقتك مـن أم الوليـد ربـوع بلاقـع مـا مـن أهلهـن جميـع
عفـاهن ضيفـى الريـاح وواكـف من الدلو زجاف السحاب هموع
فلـم يبـق إلا موقـد النـار حولـه رواكـد أمثـال الحمـام كنـوع(١)
فـدع ذكـر دار بـددت بـين أهلهـا نـوى لمتينـات الحبـال قطـوع
وقـل إن يكـن يـوم بـأحد يعـده سـفيه فـإن الحـق سـوف يشـيع
فقـد صابرت فيـه بنو الأوس كلهـم وكـان لهـم ذكـر هنـاك رفيـع
وحـامى بنـو النجـار فيـه وصـابروا ومـا كـان منهـم فـى اللقـاء جـزوع
أمـام رسـول اللـه لا يخذلونـه لهـم نـاصر مـن ربهـم وشـفيع
وفـوا إذ كفرتـم يـا سـخين بربكـم ولا يسـتوى عبـد وفـى ومضيـع
بـأيديهم بيـض إذا حمـش الوغـى فلابـد أن يـردى لهـن صريـع(٢)
كمـا غـادرت فـى النقـع عتبة ثاويـا وسـعدًا صريعـا والوشـيج شـروع(٣)
وقد غـادرت تحـت العجاجـة مسندًا أبيًـا وقـد بـل القميـص نجيـع
يكـف رسـول اللـه حيـث تنصبـت علـى القـوم ممـا قـد يـثرن نقـوع
أولئـك قـوم سـادة مـن فروعكـم وفـى كـل قـوم سـادة وفـروع
بهـن نعـز اللـه حتـى يعزنـا وإن كـان أمـر يـا سـخين فظيـع
فـلا تذكـروا قتلـى وحمـزة فيهـم قتيـل ثـوى للـه وهـو مطيـع
فـإن جنـان الخلـد منزلـة لـه وأمـر الـذى يقضـى الأمـور سـريع
وقتـلاكم فـى النـار أفضـل رزقهـم حميـم معـا فـى جوفهـا وضريـع(٤)

وقال كعب بن مالك يجيب ابن الزبعرى وعمرو بن العاص عن كلمتين قالاها فى ذلك:

أبلـغ قريشـا وخـير القـول أصدقـه والصـدق عنـد ذوى الألبـاب مقبـول
أن قـد قتلنـا بقتلانـا سـراتكم أهـل اللـواء ففيمـا يكـثر القيـل
ويـوم بـدر لقينـاكم لنـا مـدد فيـه مـع النصـر ميكـال وجـبريل
إن تقتلونـا فديـن الحـق فطرتنـا والقتـل فـى الحـق عنـد اللـه تفضيـل

(١) رواكد: الحجارة التى كانوا ينصبونها لوضع القدور عليها. وكنوع: أى لاصقة بالأرض.
(٢) حمش: أى اشتد وقوى. ويردى: أى يهلك.
(٣) ثاويًا: أى مقيمًا.
(٤) الضريع: نبات أخضر يرمى به البحر.

وإن تروا أمرنا فى رأيكم سفها ... فرأى من خالف الإسلام تضليل
فلا تمنوا لقاح الحرب واقتعدوا ... إن أخا الحرب أصدى اللون مشغول
إنا بنو الحرب نمريها وننتجها ... وعندنا لذوى الأضغان تنكيل[٥]
إن ينج منها ابن حرب بعدما بلغت ... منه التراقى وأمر الله مفعول[٦]
فقد أفادت له حلما وموعظة ... لمن يكون له لب ومعقول
ولو هبطتم ببطن السيل كافحكم ... ضرب بشاكلة البطحاء ترعيل[٧]
تلقاكم عصب حول النبى لهم ... مما يعدون للهيجا سرابيل[٨]
من جذم غسان مسترخ حمائلهم ... لا جبناء ولا ميل معازيل
يمشون تحت عمايات القتال كما ... تمشى المصاعبة الأدم المراسيل[٩]
أو مثل مشى أسود الظل ألثقها ... يوم رذاذ من الجوزاء مشمول
فى كل سابغة كالنهى محكمة ... قيامها فلح كالسيف بهلول[١٠]
ترد حد قدان النبل خاسئة ... ويرجع السيف عنها وهو مفلول
ولو قذفتم بسلع عن ظهوركم ... وللحياة ودفع الموت تأجيل[١١]
ما زال فى القوم وتر منكم أبدًا ... تعفو السلام عليه وهو مطلول[١٢]

وقال كعب - أيضًا فى يوم أحد من قصيدة يفخر فيها بقومه:

فإن كنت عن شأننا سائلا ... فسل عنه ذا العلم ممن يلينا
بنا كيف نفعل إن قلصت ... عوانا ضروسا عضوضا حجونا
ألسنا نشد عليها العقا ... ب حتى تدر وحتى تلينا
ويوم له وهج دائم ... شديد التهاول حامى الأرينا
طويل شديد أوار القتا ... ل يبغى حواقره المقرفينا
تخال الكماة بأعراضه ... ثمالى على لذة منزفينا

---

(٥) نمريها: نستدرها. والأضغان: أى العداوة.

(٦) التراقى: عظام الصدر.

(٧) شاكلة البطحاء: أى جانبها. والترعيل: أى الضرب السريع.

(٨) الهيجا: أى الحرب.

(٩) المصاعبة: الفحول من الإبل.

(١٠) السالفة: الدرع الكاملة الشاملة.

(١١) سلع: اسم جبل.

(١٢) تعفو: تذهب آثارها. والسلام: الحجارة. ومطول: لم يؤخذ بثأره.

تعـــاور أيمـــانهم بينهـــم   كـــؤوس المنايـــا بحـــد الظبينـــا
شـــهدنا فكنـــا أولى بأســـه   وتحـــت العمايـــة والمعلمينـــا
بخـــرس الحســـيس حســـان رواء   وبصريـــة قـــد أجمـــن الجفونـــا
فمـــا ينفللـــن ومـــا ينحنـــين   ومـــا ينتهـــين إذا مـــا نهينـــا
كـبرق الخريـــف بـــأيدى الكمـــاة   يفجعـــن بـــالطل هامـــا ســـكونا
وعلمنـــا الضـــرب آباؤنـــا   وســـوف نعلـــم أيضًـــا بنينـــا
جـــلاد الكمـــاة وبـــذل التـــلا   د عـــن جـــل أحســـابنا مـــا بقينـــا
إذا مـــر قـــرن كفـــى نســـله   وأورثـــه بعـــده آخرينـــا
تشـــب وتهلـــك آباؤنـــا   وبينـــا نربـــى بنينـــا فنينـــا

وقال حسان بن ثابت يبكي حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه:

أتعـرف الـدار عفـا رسـمها   بعدك صوب السبل الهـاطل(١)
بـــين الســـراديح فأدمانـــة   فمدفـع الروحـاء فـى حـائل(٢)
سـألتها عـن ذاك فاسـتعجمت   لـم تـدر مـا مرجوعـة السـائل(٣)
دع عنـك دارًا قـد عفـا رسـمها   وابـك علـى حمـزة ذى النـائل(٤)
المـالئ الشـيزى إذا أعصفـت   غـبراء فـى ذى الشـبم المـاحل(٥)
والتـارك القـرن لـدى لبـدة   يعثر فـى ذى الخرص الذابـل(٦)
واللابـس الخيـل إذ أجحمـت   كـالليث فـى غابتـه الباسـل
أبيض فـى الـذروة مـن هاشـم   لـم يمـر دون الحـق بالبـاطل
مـال شـهيدًا بـين أسـيافكم   شلت يـدا وحشـى مـن قـاتل(٧)
أى امـرئ غـادر فـى ألـة   مطـرورة مارنـة العـامل(٨)

---

(١) عفا: أى غير ودرس. ورسمها: أى أثرها.

(٢) السراديح: جمع سرادح، وهو الوادى. وأدمانة: اسم موضع. والروحاء: اسم موضع. وحائل: جبل.

(٣) استعجمت: أى لم ترد جوابًا. ومرجوعة السائل: أى رجوع جوابه.

(٤) النائل: أى العطاء.

(٥) الشيزى: الجفان التى تصنع من خشب الشيز.

(٦) القرن: الذى يقاومك فى القتال. واللبدة: أى الغبار الملبد.

(٧) وحشى: هو قاتل حمزة.

(٨) والألة: الحربة التى لها سنان طويل. والمطرورة: أى المحددة. والمارنة: أى اللينة. والعامل: أعلى

أظلمت الأرض لفقدانه ... واسود نور القمر الناصل
صلى عليه الله فى جنة ... عالية مكرمة الداخل
كنا نرى حمزة حرزًا لنا ... فى كل أمر نابنا نازل
وكان فى الإسلام ذا تدرأ ... يكفيك فقد القاعد الخاذل
لا تفرحى يا هند واستحلبى ... دمعا وأذرى عبرة الثاكل
وابك على عتبة إذ قطه ... بالسيف تحت الرهج الجائل
إذا خر فى مشيخة منكم ... من كل عات قلبه جاهل
أرداهم حمزة فى أسرة ... يمشون تحت الحلق الفاضل
غداة جبريل وزير له ... نعم وزير الفارس الحامل

وقال عبد الله بن رواحة يبكى حمزة، وتروى - أيضًا - لكعب بن مالك رضى الله عنهم أجمعين:

بكت عينى وحق لها بكاها ... وما يغنى البكاء ولا العويل
على أسد الإله غداة قالوا ... أحمزة ذاكم الرجل القتيل
أصيب المسلمون به جميعا ... هناك وقد أصيب به الرسول
أبا يعلى لك الأركان هدت ... وأنت الماجد البر الوصول
عليك سلام ربك فى جنان ... مخالطها نعيم لا يزول

وقالت صفية بنت عبد المطلب تبكى أخاها حمزة رضى الله عنهما:

أسائلة أصحاب أحد مخافة ... بنات أبى من أعجم وخبير
فقال الخبير إن حمزة قد ثوى ... وزير رسول الله خير وزير
دعاه الإله الحق ذو العرش دعوة ... إلى جنة يحيا بها وسرور
فذلك ما كنا نرجى ونرتجى ... لحمزة يوم الحشر خير مصير
فوالله لا أنساك ما هبت الصبا ... بكاء وحزنا محضرى ومسيرى
على أسد الله الذى كان مدرها ... يذود عن الإسلام كل كفور
فيا ليت شلوى عند ذاك وأعظمى ... لدى أضبع تعتادنى ونسور
أقول وقد أعيى النعى عشيرتى ... جزى الله خيرًا من أخ ونصير

وقالت نعم امرأة شماس بن عثمان تبكى زوجها شماسًا وأصيب يوم أحد:

أعلى الرمح.

يا عين جودى بفيض غير إبساس ... على كريم من الفتيان لباس
صعب البديهة ميمون نقيبته ... حمال ألوية ركاب أفراس[(١)]
أقول لما أتى الناعى له جزعا ... أودى الجواد وأودى المطعم الكاسى[(٢)]
وقلت لما خلت منه مجالسه ... لا يبعد الله عنا قرب شماس

فأجابها أخوها يعزيها فقال:

اقنى حياءك فى ستر وفى كرم ... فإنما كان شماس من الناس[(٣)]
لا تقتلى النفس إذ حانت منيته ... فى طاعة الله يوم الروع والباس[(٤)]
قد كان حمزة ليث الله فاصطبرى ... فذاق يومئذ من كأس شماس

وقالت هند بنت عتبة حين انصرف المشركون عن أحد:

رجعت وفى نفسى بلابل جمة ... وقد فاتنى بعض الذى كان مطلبى[(٥)]
من أصحاب بدر من قريش وغيرهم ... بنى هاشم منهم ومن أهل يثرب
ولكننى قد نلت شيئا ولم يكن ... كما كنت أرجو فى مسيرى ومركبى

وهذه هند أم معاوية بن أبى سفيان، وكانت امرأة فيها مكارة وذكورة ولها نفس وأنفة، وكان المسلمون قد أصابوا يوم بدر أباها عتبة وعمها شيبة وأخاها الوليد، فأصابها من ذلك ما يصيب من مثله النفوس الشهمة والقلوب الكافرة، فخرجت إلى أحد مع زوجها أبى سفيان تبتغى الانتصار وتطلب الأوتار، فهذا قولها - يرحمها الله - والوتر يقلقها والكفر يخنقها والحزن يحرقها والشيطان ينطقها.

ثم إن الله سبحانه هداها إلى الإسلام وأخذ بحجزتها عن سواء النار، فصلحت حالها وتبدلت أقوالها، حتى قالت لرسول الله ﷺ فيما قالت له: والله يا رسول الله، ما كان على الأرض أهل خباء أحب إلى أن يذلوا من أهل خبائك، وما أصبح اليوم الأرض خباء أحب إلى أن يعزوا من أهل خبائك. أو نحو هذا من القول.

فالحمد لله الذى هدانا برسوله أجمعين، وإياه سبحانه نسأل أن يميتنا على خير ما هدانا إليه، لا مبدلين ولا مغيرين.

* * *

---

(١) البديهة: أول الأمر والرأى. وميمون نقيبته: أى مسعود الفأل. والألوية: جمع لواء، وهو العلم.
(٢) الناعى: الذى يأتى بخبر الميت.
(٣) اقنى حياءك: أى حافظى عليه ولا تخرجى عنه.
(٤) المنية: أى الموت. والروع: أى الفزع. والبأس: أى الشجاعة.
(٥) البلابل: أى الأحزان.

غدر عضل والقارة بأصحاب رسول الله ﷺ

وقدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رهط من عضل والقارة، وهم بنو الهون ابن خزيمة بن مدركة، فقالوا له: يا رسول الله، إن فينا إسلاما فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام.

فبعث معهم ستة من أصحابه: مرثد بن أبى مرثد الغنوى[١] وأمره عليهم، وخالد بن البكير[٢]، وعاصم بن ثابت بن أبى الأقلح، وخبيب بن عدى[٣]، وزيد بن الدثنة[٤]، وعبد الله بن طارق[٥].

فخرجوا حتى إذا كانوا على الرجيع، ماء لهذيل بناحية الحجاز من صدر الهدأة[٦]، غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلا فلم يرع القوم وهم فى رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

فأما مرثد وخالد وعاصم فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهدًا ولا عقدًا أبدًا. وقال عاصم:

ما علتى وأنا جلد نابل والقوس فيها وتر عنابل[٧]

---

(١) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٧٨٩٥)، أسد الغابة ترجمة رقم (٤٨٣١)، البداية والنهاية (٣٥٣/٦)، تجريد أسماء الصحابة (٦٨/٢)، تهذيب الكمال (١٣١٤/٣)، تهذيب التهذيب (٨٢/١٠).

(٢) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٢١٥٣)، أسد الغابة ترجمة رقم (١٣٤٨)، طبقات ابن سعد (٢٨٣/١/٣).

(٣) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٢٢٢٧)، أسد الغابة ترجمة رقم (١٤١٧)، حلية الأولياء (١١٢/١، ١١٤).

(٤) انظر ترجمته فى: أسد الغابة ترجمة رقم (١٨٣٥)، تجريد أسماء الصحابة (١٩٩/١)، الإصابة ترجمة رقم (٢٦٠٥).

(٥) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٤٧٨٧)، أسد الغابة ترجمة رقم (٣٠٢٦).

(٦) الهدأة: موضع بين عسفان ومكة.

(٧) النابل: صاحب النبل. وعنابل: أى غليظ شديد.

تـــزل عــن صفحتهــا المعابــل المـوت حـق والحيـاة باطـــل

وكــل مــا حــم الإلــه نـــازل بالمــرء والمـــرء إليـــه آئـــل

إن لـم أقاتلكـــم فأمـــى هابـــل

ثم قاتل القوم حتى قتل وقتل صاحباه رحمهم الله.

فلما قتل عاصم ارادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد بمكـة، وكانت حين أصاب ابنيها يوم أحد نـذرت لئـن قـدرت على راس عـاصم لتشـربن فـى قحفة الخمر، فمنعه الدبر فقـالوا: دعـوه حتـى يمسـى فتذهـب عنـه فنـأخذه. فبعـث اللـه الوادى فاحتمل عاصمًا فذهب به.

وقد كان عاصم أعطى الله عهدًا أن لا يمس مشركًا وألا يمسه مشرك أبدًا، تنجسًا!

فكان عمر بن الخطاب يقول: يحفظ الله العبد المؤمـن! كـان عـاصم نـذر أن لا يمسـه مشرك ولا يمس مشركًا أبدًا فى حياته، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه فى حياته.

وأما زيد بن الدثنة وخبيب بن عدى وعبد الله بن طـارق فلانـوا ورقـوا ورغبـوا فـى الحياة، فأعطوا بأيديهم فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كـانوا بالظهران[1] انتزع عبد الله بن طارق يده من القران ثم أخذ سيفه واسـتأخر عنـه القـوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره بالظهران.

وأما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة فابتاع خبيبًا حجير بـن أبـى إهاب التميمى لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ليقتله بأبيه.

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بـن خلـف، فبعـث بـه مـع مولى له يقال له: نسطاس إلى التنعيم، فأخرجوه مـن الحـرم ليقتلـوه، واجتمـع رهـط مـن قريش منهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان لما قدم ليقتل: أنشدك الله يـا زيـد، أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنك فى أهلك؟ فقال: واللـه مـا أحـب أن محمدًا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنى جالس فى أهلى!

يقول أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا.

ثم قتله – رحمه الله – نسطاس مولى صفوان.

---

(١) الظهران: واد قرب مكة عنده قرية يقال لها: مرّ، تضاف إلى هذا الوادى، فيقال: واد الظهران. انظر: معجم البلدان (٤/٦٣).

قال ابن عقبة: وزعموا أنهم رموه بالنبل وأرادوا فتنته فلم يزده إلا إيمانًا ويقينًا.

وأما خبيب بن عدى فجلس بمكة فى بيت ماوية مولاة حجير بن أبى إهاب، فكانت تخبر بعد ما أسلمت، قالت: لقد اطلعت عليه يومًا وإن فى يده لقطفا من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه، ووالله ما أعلم فى أرض الله عنبًا يؤكل!

قالت: وقال لى حين حضره القتل: ابعثى إلى بحديدة أتطهر بها للقتل، فأعطيت الموسى غلامًا من الحى فقلت: ادخل بها على هذا الرجل، قالت: فوالله ما هو إلا أن ولى الغلام بها إليه، فقلت: ماذا صنعت؟ أصاب والله الرجل ثأره يقتل هذا الغلام، فيكون رجلاً برجل. فلما ناوله الحديدة أخذها من يده ثم قال: لعمرك ما خافت أمك غدرى حين بعثتك بهذه الحديدة إلىّ؟ ثم خلى سبيله.

ثم خرجوا بخبيب حتى إذا جاءوا به التنعيم ليصلبوه قال لهم: إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا. قالوا له؛ دونك فاركع. فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال: أما والله لولا تظنوا أنى إنما طولت جزعًا من القتل لاستكثرت من الصلاة.

فكان خبيب أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين.

ثم رفعوه على خشبة، فلما أوثقوه قال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا. ثم قال: اللهم أحصهم عددًا واقتلهم بددًا ولا تغادر منهم أحدًا. ثم قتلوه.

فكان معاوية بن أبى سفيان يقول: حضرت - يومئذ - فيمن حضره مع أبى أبى سفيان، فلقد رأيته يلقينى فى الأرض فرقا من دعوة خبيب، وكانوا يقولون: الرجل إذا دعى عليه فاضطجع لجنبه زلت عنه.

وكان ممن حضره - يومئذ - سعيد بن عامر بن جذيم الجمحى(١)، ثم أسلم بعد ذلك واستعمله عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - على بعض الشام، فكانت تصيبه غشية بين ظهرى القوم، فذكر ذلك لعمر وقيل: إن الرجل مصاب. فسأله عمر - رحمه الله - فى قدمة قدمها عليه فقال: يا سعيد، ما هذا الذى يصيبك؟ قال: والله يا أمير

---

(١) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٣٢٨٠)، أسد الغابة ترجمة رقم (٢٠٨٤)، تجريد أسماء الصحابة (١/٢٢٣)، شذرات الذهب (٢)، الجرح والتعديل (٤/ ترجمة ٢٠٥)، حلية الأولياء (١/٣٦٨)، الطبقات الكبرى (٧/٢٤٢، ٤٠٢)، صفة الصفوة (١/٦٦٠)، الوافى بالوفيات (١٥/٣٢٠)، البداية والنهاية (٦/١٠٣).

المؤمنين ما بى من بأس، ولكنى كنت فيمن حضر خبيب بن عدى حين قتل وسمعت دعوته، فوالله ما خطرت على قلبى وأنا فى مجلس قط إلا وغشى على فزادته عند عمر خيرًا.

وذكر ابن عقبة أن خبيبًا وزيدًا قتلا فى يوم واحد، قال: وزعموا أن رسول الله ﷺ قال وهو جالس فى ذلك اليوم الذى قتلا فيه: «وعليكما أو وعليك السلام، خبيب قتلته قريش»، لا ندرى أذكر ابن الدثنة معه أم لا.

وقال خبيب - رحمه الله - لما اجتمع القوم لصلبه:

لقد جمع الأحزاب حولى وألبوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مجمع[1]
وكلهم مبدى العداوة جاهد ... علىَّ لأنى فى وثاق بمضيع
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم ... وقربت من جذع طويل ممنع
إلى الله أشكو غربتى ثم كربتى ... وما أرصد الأحزاب لى عند مصرعى
فذا العرش صبرنى على ما يراد بى ... فقد بضعوا لحمى وقد ياس مطمعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع
وقد خيرونى الكفر والموت دونه ... وقد هملت عيناى من غير مجزع[2]
وما بى حذار الموت إنى لميت ... ولكن حذارى جحيم نار ملفع[3]
ولست أبالى حين أقتل مسلما ... على أى جنب كان فى الله مصرعى
فلست بمبد للعدو تخشعا ... ولا جزعا إنى إلى الله مرجعى

وقال حسان بن ثابت يبكى خبيبًا:

يا عين جودى بدمع منك منسكب ... وابكى خبيبا مع الفتيان لم يؤب
صقرا توسط فى الأنصار منصبه ... سمح السجية محضا غير مؤتشب
قد هاج عينى على علات عبرتها ... إذ قيل نص إلى جذع من الخشب
يا أيها الراكب الغادى لطيته ... أبلغ اليك وعيدًا ليس بالكذب[4]
بنى كهينة أن الحرب قد لقحت ... محلوبها الصاب إذ تمرى لمحتلب
فيها أسود بنى النجار تقدمهم ... شهب الأسنة فى معصوصب لجب

---

(١) ألبوا: أى جمعوا. ومجمع: مكان الاجتماع.

(٢) هملت عيناى: أى سال دمعها.

(٣) الجحيم: أى الملتهب المتقد. والملفع: أى المشتمل.

(٤) الطية: ما انطوت عليه نيتك من الجهة التى تريد أن تتوجه إليها.

وقال حسان - أيضًا - يهجو هذيلاً:

لعمرى لقد شانت هذيل بن مدرك   أحاديث كانت فى خبيب وعاصم
أحاديث لحيان صلوا بقبيحها   ولحيان جرامون شر الجرائم[(١)]
أناس هم من قومهم فى صميمهم   بمنزلة الزمعان دبر القوائم
هم غدروا يوم الرجيع وأسلمت   أمانتهم ذا عفة ومكارم
رسول رسول الله غدرًا ولم تكن   هذيل توقى منكرات المحارم
فسوف يرون النصر يوما عليهم   بقتل الذى يحميه دون المحارم
أبابيل دبر شمس دون لحمه   حمت لحم شهاد عظام الملاحم
لعل هذيلا أن يروا بمصابه   مصارع قتلى أو مقاما لمأتم
ويوقع فيهم وقعة ذات صولة   يوافى بها الركبان أهل المواسم
بأمر رسول الله إن رسوله   رأى رأى ذى حزم بلحيان عالم
قبيلته ليس الوفاء يهمهم   وإن ظلموا لم يدفعوا كف ظالم
إذا الناس حلوا بالقضاء رأيتهم   بمجرى مسيل الماء بين المخارم[(٢)]
محلهم دار البوار ورأيهم   إذا نابهم أمر كرأى البهائم

* * *

غزوة بئر معونة[(٣)]

وبعث رسول الله ﷺ أصحاب بئر معونة فى صفر على رأس أربعة أشهر من أحد.

وكان من حديثهم أن أبا براء ملاعب الأسنة، واسمه عامر بن مالك بن جعفر قدم المدينة على رسول الله ﷺ، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ودعاه إليه، فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام، وقال: يا محمد، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك.

فقال رسول الله ﷺ: «إنى أخشى عليهم أهل نجد»[(٤)]. قال: أنا لهم جار فابعثهم.

---

(١) صلوا بقبيحها: أى أصابهم شرها. وجرامون: أى كاسبون.

(٢) المخارم: مسايل الماء التى يخرمها السيل، أى يقطعها.

(٣) راجع الغزوة فى: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/٥١، ٥٤)، المنتظن لابن الجوزى (٣/١٩٨)، المغازى للواقدى (١/٣٤٦).

(٤) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٢٨)، دلائل النبوة للبيهقى (٣/٣٣٩)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/٧٣).

فبعث رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو أخا بنى ساعدة، المعنق ليموت، فى أربعين رجلاً من أصحابه، منهم الحارث بن الصمة، وحرام بن ملحان، وعروة بن أسماء بن الصلت السلمى، ونافع بن بديل بن ورقاء، وعامر بن فهيرة، فى رجال مسمين من خيار المسلمين.

فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهى بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم، كلا البلدين منها قريب، وهى إلى حرة بنى سليم أقرب.

فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلما أتاهم لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا أن يجيبوه، وقالوا: لن نخفر أبا براء، وقد عقد لهم عقدًا وجوارًا.

فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم: عصية ورعلا وذكوان، فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم رحمهم الله، إلا كعب بن زيد أخا بنى دينار بن النجار – يرحمه الله – فإنهم تركوه وبه رمق فارتث من بين القتلى فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدًا.

وكان فى سرح القوم عمرو بن أمية الضمرى، ورجل من الأنصار من بنى عمرو بن عوف قيل: إنه المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر فقالا: والله إن لهذا الطير لشأنا.

فأقبلا لينظرا فإذا القوم فى دمائهم وإذا الخيل التى اصابهم واقفة.

فقال الأنصارى لعمرو بن أمية: ما ترى؟

قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر. فقال الأنصارى: لكنى ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، وما كنت لتخبرنى عنه الرجال.

ثم قاتل القوم حتى قتل.

وأخذوا عمرو بن أمية أسيرًا، فلما أخبرهم أنه من مضر أطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه.

فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة أقبل رجلان من بنى عامر حتى نزلا معه فى ظل هو فيه فسألهما ممن أنتما؟ فقالا: من بنى عامر. فأمهلهما حتى

إذا ناما عدا عليهما فقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثؤرة من بنى عامر فى ما أصابوه من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان مع العامريين عقد من رسول الله ﷺ وجوار لم يعلم به عمرو بن أمية، فلما قدم عمرو على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر قال: لقد قتيلين لأدينهما. ثم قال رسول الله ﷺ: «هذا عمل أبى براء، قد كنت لهذا كارهًا متخوفًا»(١).

وكان فيمن أصيب - يومئذ - عامر بن فهيرة، فكان عامر بن الطفيل يقول: من رجل منهم لما قتل رأيته رفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء دونه؟ قالوا: هو عامر بن فهيرة.

وذكر ابن عقبة أنه لم يوجد جسد عامر بن فهيرة يومئذ، فيرون أن الملائكة هى وارته، رحمة الله عليه.

وكان جبار بن سلمى فيمن حضرها - يومئذ - مع عامر بن الطفيل ثم أسلم فكان يقول: إن مما دعانى إلى الإسلام أنى طعنت رجلاً منهم بالرمح بين كتفيه، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره، فسمعته يقول: فزت والله! فقلت فى نفسى: مافاز! ألست قد قتلت الرجل؟! حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا: الشهادة. فقلت: فاز لعمر الله.

وأقام رسول الله ﷺ شهرًا يدعو فى صلاة الغداة على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة، يدعو على رعل وذكوان وعصية الذين عصوا الله ورسوله، وأنزل فيمن قتل هنالك قرآن ثم رفع: «بلغوا عنا قومنا أن لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه».

* * *

ذكر غزوة بنى النضير(٢) والسبب الذى هاج الخروج إليهم

وذلك أن رسول الله ﷺ خرج إليهم يستعينهم فى دية العامرين، اللذين قتل عمرة

---

(١) انظر الحديث فى: الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٧/٢)، دلائل النبوة للبيهقى (٣٤١/٣)، مجمع الزوائد للهيثمى (١٢٩/٦)، البداية والنهاية لابن كثير (٧٣/٤).

(٢) راجع هذه الغزوة فى: المغازى للواقدى (٣٦٣/١)، طبقات ابن سعد (٤٠/٢/١)، تاريخ الطبرى (٥٥٠/٢)، الكامل (٦٤/٢)، صحيح البخارى (٨٨/٥)، فتح البارى (٣٢٩/٧)، عيون الأثر (٦١/٢)، الدرر لابن عبد البر (١٦٤)، البداية والنهاية (٧٤/٤)، دلائل النبوة للبيهقى (١٧٦/٣، ٣٥٤).

ابن أمية الضمرى، للجور الذى كان رسول الله ﷺ عقد لهما، فقالوا له لما كلمهم فى ذلك: نعم، ياأبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، اجلس حتى تطعم وترجع بحاجتك.

فجلس رسول الله ﷺ إلى ظل جدار من جدر بيوتهم معه نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى، ينتظرون أن يصلحوا أمرهم.

فخلا بعضهم ببعض والشيطان معهم لا يفارقهم، فائتمروا بقتل رسول الله ﷺ وقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فمن رجل يعلو على هذا البيت فيقلى عليه صخرة فيريحنا منه.

فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، أحدهم، فقال: أنا لذلك وصعد ليفعل.

فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام راجعًا إلى المدينة وترك أصحابه فى مجلسهم، فلما استلبث النبى ﷺ أصحابه قاموا فى طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه فقال: لقيته داخلاً المدينة، فأقبلوا حتى انتهوا إليه فأخبرهم بما كانت يهود أرادت من الغدر به.

وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم، ثم سار بالناس ونزل بهم، فتحصنوا منه فى الحصون.

وعرض عليهم رسول الله ﷺ الجلاء عن أوطانهم وأن يسيروا حيث شاءوا فراسلهم أولياؤهم من المنافقين - عبد الله بن أبى فى رهط من قومه - حين سمعوا ما يراد منهم: أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، إن قاتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم.

فغرتهم أمانى المنافقين، ونادوا النبى ﷺ وأصحابه: إنا والله لا نخرج، ولئن قاتلتنا لنقاتلنك.

فمضى رسول الله ﷺ لأمر الله فيهم، فلما انتهى إلى أزقتهم وحصونهم كره أن يمكنهم من القتال فى دورهم وحصونهم، فحفظ الله له أمره وعزم له على رشده، فأمر بالأدنى فالأدنى من دورهم أن تهدم وبالنخيل أن تحرق وتقطع، وكف الله أيديهم وأيدى المنافقين فلم ينصروهم، وألقى الله فى قلوب الفريقين كليهما الرعب، فهدموا الدور التى هم فيها من أدبارها، فلما كادوا يبلغون آخر دورهم وهم ينتظرون المنافقين

ويتربصون من نصرهم ما كانوا يمنونهم به حتى يئسوا مما عندهم، سألوا رسول الله ﷺ الذى كان عرض عليهم قبل ذلك.

فقاضاهم - صلوات الله عليه وسلامه - على أن يجليهم ويكف عن دمائهم وعلى أن لهم ما استقلت به الإبل من أموالهم إلا الحلقة فقط.

فطاروا بذلك كل مطير وتحملوا بما أقلت إبلهم، حتى إن الرجل ليهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به. فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وكان أشرافهم بنو أبى الحقيق وحيى بن أخطب فيمن سار إلى خيبر، فلما نزلوها دان لهم أهلها.

وخلى بنو النضير الأموال لرسول الله ﷺ، فكانت له خاصة بحكم الله له بها ليضعها حيث شاء، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار، إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك بن خرشة ذكرا فقرًا فأعطاهما رسول الله ﷺ منها.

وكانت اليهود قد عيروا المسلمين حين يهدمون الدور ويقطعون النخل فنادوا: أن محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟ وما ذنب شجرة وأنتم تزعمون أنكم مصلحون فى الأرض؟!

فأنزل الله - سبحانه - فى قصتهم وما ذكروه من قولهم وبيان وجه الحكم فى أموالهم سورة الحشر بأسرها. فقال عز من قائل:

﴿سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾، للذى كان منهم من الهدم من أدبار بيوتهم وهدم المسلمين لما يليهم منها.

﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا﴾ أى بالسيف **﴿ولهم فى الآخرة عذاب النار﴾** أى مع ما لقوه فى الدنيا من النقمة.

ثم قال - تعالى - فيما عابوه من قطع النخيل وعدوه من ذلك فسادًا: **﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله﴾** أى فبأمر الله قطعت، لم يكن ذلك فسادًا بل نقمة أنزلها بهم **﴿وليخزى الفاسقين﴾**.

ثم بين تعالى لرسوله الحكم فى أموالهم وأنها نفل له لا سهم لأحد فيها معه فقال عز ذكره وجل قوله: ﴿**وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير**﴾، فقسمها رسول الله ﷺ فيمن أراه الله من المهاجرين الأولين كما تقدم، وأعطى منها الرجلين المسميين من الأنصار.

وقال على بن أبى طالب يذكر إجلاء بنى النضير وما تقدم قبل ذلك من قتل كعب ابن الأشرف، ويقال: بل قالها رجل من المسلمين غير علىّ:

عرفت ومن يعتدل يعرف ... وأيقنت حقا ولم أصدف[١]
عن الكلم المحكم اللاء من ... لدى الله ذى الرأفة الأراف
رسائل تدرس فى المؤمنين ... بهن اصطفى أحمد المصطفى
فأصبح أحمد فينا عزيزًا ... عزيز المقامة والموقف[٢]
فيا أيها الموعدوه سفاها ... ولم يأت جورًا ولم يعنف[٣]
ألستم تخافون أدنى العذاب ... وما آمن الله كالأخوف
وأن تصرعوا تحت أسيافه ... كمصرع كعب أبى الأشرف
غداة رأى الله طغيانه ... وأعرض كالجمل الأحنف
فأنزل جبريل فى قتله ... بوحى إلى عبده ملطف
فدس الرسول رسولا له ... بأبيض ذى هبة مرهف
فباتت عيون له معولات ... متى ينع كعب لها تذرف[٤]
وقلن لأحمد ذرنا قليلا ... فإنا من النوح لم نشتف
فخلاهم ثم قال اظعنوا ... دحورا على رغم الآنف
وأجلى النضير إلى غربة ... وكانوا بدار ذوى زخرف
إلى أذرعات ردافى وهم ... على كل ذى دبر أعجف[٥]

---

(١) لم أصدف: لم أعرض.

(٢) المقامة: موضع الإقامة.

(٣) السفاه: الضلال. لم يعتف: أى لم يأتى غير العفة.

(٤) معولات: باكيات بصوت مرتفع. ينعى: يذكر خبر قتله. تذرف: تسيل بالدموع.

(٥) أذرعات: بلد فى أطراف الشام يجاور أرض البلقاء ينسب إليها الخمر. انظر: معجم البلدان (١٣٠/١).

ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان: يامين بن عمير بن كعب[(١)]، ابن عم عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب[(٢)]، أسلما خوفا على أموالهما فأحرزاها، وحدث بعض آل يامين أن رسول الله ﷺ قال ليامين: «ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأني؟»[(٣)] فجعل يامين لرجل جعلا على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله، فيما يزعمون.

* * *

غزوة ذات الرقاع[(٤)]

ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد غزوة بنى النضير شهر ربيع وبعض جمادى، ثم غزا نجدًا يريد بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان حتى نزل نخلاً.

وهى غزوة ذات الرقاع وسميت بذلك لأنهم رقعوا فيها راياتهم، وقيل: لأجل شجرة بذلك الموضع يقال لها: ذات الرقاع. وقيل: لما كانوا يعصبون على أرجلهم من الخرق إذ نقبت أقدامهم.

فلقى رسول الله ﷺ هنالك جمعًا من غطفان، فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب وخاف الناس بعضهم بعضا، حتى صلى رسول الله ﷺ يومئذ بالناس صلاة الخوف، ثم انصرف بهم.

وفى هذه الغزوة عرض له رجل من محارب يقال له: غورث، وقد قال لقومه من غطفان ومحارب: ألا أقتل لكم محمدًا؟ قالوا: بلى، وكيف تقتله؟ قال: أفتك به. فأقبل إلى رسول الله ﷺ وهو جالس وسيفه فى حجره فقال: يا محمد، أنظر إلى سيفك هذا؟ قال: «نعم»[(٥)]. فأخذه فاستله ثم جعل يهزه ويهم به فيكبته الله، ثم قال: يا محمد، أما

(١) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٩٢٣٣).
(٢) انظر ترجمته فى: الإكمال (١/٣٩٦٠)، الإصابة ترجمة رقم (١٠٠١٠)، أسد الغابة (٥٩٥٥).
(٣) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/٧٦).
(٤) راجع هذه الغزوة فى: المغازى للواقدى (١/٣٩٥)، طبقات ابن سعد (٢/١/٤٣)، تاريخ الطبرى (٢/٥٥)، الكامل (٢/٦٦)، دلائل النبوة (٣/٣٦٩)، البداية والنهاية (٤/٨٣).
(٥) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٤/٩، ١٠، ١٣، ٧/١٨٩، ٥/١، ١٦، ٦٣، ١٥٣)، صحيح مسلم (٤٢، ٤٤، ٥٦، ٦١، ١٦٧، ٢٥١، ٢٧٥)، سنن الترمذى (٦٦٩، ٧٢٦، ١٢٠٤)، سنن ابن ماجه (١٨١، ٥٥٧، ٨٤٢، ١٢٣٥، ١٤١٤، ٤٣٥، ٥٥٠، ٦٩٦، ٩٧٣، ١١٣٥، ١٢٥٤، ١٧٥٩، ١٨٣٥، ٢٧١٦، ٢٧١٧، ١٤٢٥، ١٤٧٥، ١٤٧٦)=

تخافنى؟ قال: «لا والله ما أخاف منك». قال: أما تخافنى وفى يدى السيف؟ قال: «بلى يمنعنى الله منك»[١]. ثم عمد إلى سيف رسول الله ﷺ فرده عليه.

فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ [المائدة: ١١].

وقيل: إنها إنما نزلت فى عمرو بن جحاش وما هم به من إلقاء الحجر على رسول الله ﷺ يوم وصل إلى بنى النضير مستعيناً بهم فى دية العامريين. فالله أعلم أى ذلك كان.

وحدث جابر بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة ذات الرقاع من نخل فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً أتى زوجها وكان غائبًا، فلما أخبر الخبر حلف أن لا ينتهى حتى يهريق فى أصحاب محمد دمًا، فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ فنزل رسول الله ﷺ منزلاً، فقال: «من رجل يكلؤنا[٢] ليلتنا؟»[٣] قال: فانتدب رجل من المهاجرين، قيل: هو عمار بن ياسر، ورجل من الأنصار، قيل: هو عباد بن بشر، فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال الأنصارى

=١٥١٠، ١٧١٨، ١٩١٥، ١٩٤٥، ٢٩٠٧، ٣٢٣٦، ٣٤٥١)، مسند الإمام أحمد (٢٧/١، ٢٠٤١، ١٠٠/٥)، سنن الدارمى (١٢/١)، السنن الكبرى للبيهقى (١٥٨/١، ١٦٨، ٤٤٢، ٤٣/٩)، مستدرك الحاكم (٢١٤/٢)، مصنف ابن أبى شيبة (٤٣١/٨، ٤٨٠، ٨٨/٩، ٥٢١/١٠، ٥٦٤، ٨/١١، ١٠، ٤١/١٢، ٤٢، ٤٥، ١٤١، ١٤٩/١٤، ٣٠٥، ٣٢٤، ٤٣٥، ٤٣٩، ٥٩٤)، المعجم الكبير للطبرانى (١٧٢/١، ٢٩/٢، ٢٣١، ٢١/٧، ٢٤٦/١١، ٢٤٧، ٢٧٠، ٣٣١، ١٣٤/١٢، ١٥٣، ١٦٧، ١٦٨، ١٨٥، ١٩٩، ٢٠٠، ٤٣١، ٤٣٦، ٤٣٧)، كنز العمال للمتقى الهندى (٤٦٦٠/١٢٨٨٤٦، ١٢٨٥٥، ٣٥٣٤٦، ٣٥٤٤٦، ٣٥٤٨٨، ٣٥٤٩٣، ٣٥٨٦٦، ٣٧٥٢٧، ٣٧٥٦٦، ٣٧٦٦٩، ٤٥٨٩١)، فتح البارى لابن حجر (٨٧/١، ٤٩١/١١)، زاد المسير لابن الجوزى (٦٩/٥)، الترغيب والترهيب للمنذرى (٥٩٥/٣)، البداية والنهاية لابن كثير (٣٤٠/٥، ٣٥٤).

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٨٤/٤).

(٢) يكلؤنا: أى يحفظنا.

(٣) انظر الحديث فى: سنن أبى داود باب (٧٩)، مسند الإمام أحمد (٣٤٤/٣)، السنن الكبرى للبيهقى (١٤٠/١، ١٥٠/٩)، مستدرك الحاكم (١٥٦/١)، البداية والنهاية لابن كثير (٨٥/٤).

للمهاجرى: أى الليل تحب أن أكفيكه أوله أو آخره؟ قال: بل اكفنى أوله فاضطجع المهاجرى فنام، وقام الأنصارى يصلى، وأتى الرجل فلما رأى شخصه عرف أنه ربيئة القوم، فرماه بسهم فوضعه فيه، قال: فانتزعه عنه وثبت قائمًا، ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه فنزعه فوضعه، وثبت قائمًا، ثم عاد له بثالث، فوضعه فيه فنزعه ثم ركع وسجد، ثم أهب صاحبه فقال: اجلس فقد أثبت.قال: فوثب، فلما رآهما الرجل عرف أن قد نذرا به فهرب، فلما رأى المهاجرى ما بالأنصارى من الدماء، قال: سبحان الله، أفلا أهببتنى أول ما رماك؟ قال: كنت فى سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها فلما تابع على الرمى ركعت فآذنتك، وأيم الله لولا أن أضيع ثغرًا أمرنى رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسى قبل أن أقطعها أو أنفذها!

وقال جابر بن عبد الله: خرجت إلى غزوة ذات الرقاع على جمل لى ضعيف، فلما قفل رسول الله ﷺ جعلت الرفاق تمضى وجعلت أتخلف، حتى أدركنى رسول الله ﷺ فقال: «ما لك يا جابر؟» قلت: يا رسول الله، أبطأ بى جملى، قال: «أنخه»[1] فأنختـه وأناخ رسول الله ﷺ ثم قال: «أعطنى هذه العصا من يدك أو اقطع لى عصا من شجرة»[2]، ففعلت، فأخذها رسول الله ﷺ فنخسه بها نخسات ثم قال: «اركب»[3]، فركبت فخرج - والذى بعثه بالحق - يواهق ناقته مواهقة، وتحدثت معه فقال لى: «أتبيعنى جملك هذا يا جابر؟»[4] قلت: يا رسول الله، بل أهبه لك. قال: «لا ولكن بعينه». قلت: فسمنيه. قال: «قد أخذته بدرهم». قلت: لا إذن تغبننى يا رسول الله. قال: «فبدرهمين». قلت: لا. فلم يرفع لى حتى بلغ الأوقية فقلت: أقد رضيت؟ قال: «نعم». قلت: فهو لك. قال: «قد أخذته»[5].

ثم قال: «يا جابر، هل تزوجت بعد؟»[6] قلت: نعم يا رسول الله، قال: «أثيبا أم بكرًا؟» قلت: بل ثيبًا. قال: «أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟» قلت: يا رسول الله، إن

---

(١) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٣/٣٨٢).
(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٢/٥١٧، ٣/٣٧٥)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/٨٦).
(٣) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣/٣٧٦)، المعجم الكبير للطبرانى (١٧/٣٣٦).
(٤) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣/٣١٦)، دلائل النبوة للبيهقى (٣/٣٨٢).
(٥) انظر الحديث فى: سنن الترمذى (٩١٦)، مسند الإمام أحمد (٣/٣٧٦)، سنن الدارقطنى (٣/٤٥).
(٦) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٦/٣٧٦)، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٣/٣٩٠).

أبى أصيب يوم أحد وترك بنات له سبعًا فنكحت امرأة جامعة تجمع رءوسهن وتقوم عليهن. قال: «أصبت إن شاء الله، أما إنه لو قد جئنا صرارًا أمرنا بجزور فنحرت وأقمنا عليها يومنا ذلك وسمعت بنا فنفضت نمارقها»[(١)]. قلت: والله يا رسول الله مالها من نمارق. قال: «إنها ستكون، فإذا أنت قدمت فاعمل عملا كيسا»[(٢)]. قال: فلما جئنا صرارًا أمر رسول الله ﷺ بجزور فنحرت وأقمنا عليها ذلك اليوم، فلما أمسى دخل ودخلنا، فحدثت المرأة الحديث وما قال لى رسول الله ﷺ، قالت: فدونك فسمع وطاعة.

فلما أصبحت أخذت برأس الجمل فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله ﷺ ثم جلست فى المسجد قريبًا منه، وخرج رسول الله ﷺ فرأى الجمل، فقال: «ما هذا؟»[(٣)] فقالوا: يا رسول الله، هذا جمل جاء به جابر. قال: «فأين جابر؟» فدعيت له. فقال: «يا ابن أخى خذ برأس جملك فهو لك». ودعا بلالاً وقال: «اذهب بجابر فأعطه أوقية»[(٤)].

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (١٢٣/٥)، صحيح مسلم فى كتاب الفضائل (٨٤)، سنن النسائى (١٧٢/١)، السنن الكبرى للبيهقى (٢٥٤/١، ٦٧/٦)، مستدرك الحاكم (٣٠٦/٣)، سنن الدرقطنى (٢٢٩/٤)، المعجم الكبير للطبرانى (٨٧/١، ٢٩٠/٢)، موارد الظمآن للهيثمى (٩٩٩، ١٣٣٤)، مسند الإمام أحمد (٣٠٨/٣، ٣٧٦)، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٥٣/٦)، كنز العمال للمتقى الهندى (١٣٥٦٧، ٤٥٦٣٢)، الدر المنثور للسيوطى (٢٤٠/١)، ١١٠/٤)، منحة المعبود للساعاتى (١٠٤٩)، تفسير الطبرى (١٣/١، ١٤)، تفسير ابن كثير (٤٧٥/٨)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦٤/٦)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٨٨/١/٣، ١٦٣/١/٤)، البداية والنهاية لابن كثير (٢٩/٦)، موطأ مالك (٣٦٦).

(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣٧٦/٣).

(٣) انظر الحديث فى: صحيح مسلم فى كتاب صلاة المسافرين (٢٩١)، سنن الترمذى (١٠٩٤)، سنن النسائى (٧٢/٣، ٨٤/٤، ١٦٤/٦، ٢٨٠، ٣٠/٧، ٢٧٣)، مسند الإمام أحمد (٤٣٨/٥)، الطبقات الكبرى لابن سعد (١٥٧/٢/١، ١٦/١/٤، ٢٤، ٥٨، ٥٩)، سنن الدارقطنى (٥٥/٢، ٨٦/٨، ٢١٥)، مصنف ابن أبى شيبة (١٢٢/١، ٣٣٧، ٢٢٥/٣، ٥٥٢/٦، ٧٦/٨، ٨٠، ٣٧٩، ٤٣٧/١١، ٢٨٠/١٤، ٣٢٣)، المعجم الكبير للطبرانى (٣٢٠/١١، ٥/١٢، ٩٤، ٩٥، ١٣/١٧، ٢٤٩، ١٧٢/١٨، ١٨٩)، دلائل النبوة للبيهقى (٩٩/٦)، مجمع الزوائد للهيثمى (٨٦/٥، ٢٦٠/٧، ٦٨/٨، ١٢١، ٣٥/٩، ٨٥، ٨٦، ٩٦، ٣٣٦، ٣٣٨، ٢٤١/١٠، ٢٤٢، ٨٥٢)، السلسلة الصحيحة للألبانى (١٧٩/٣، ٤٤٧)، سنن أبى داود (٤٠٦٨، ٥٢٣٦، ٤٧٤٨)، سنن ابن ماجه (٢١٣٦، ٤١٦٠).

(٤) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٢٠٩٧/٤)، مسند الإمام أحمد (٣٧٥/٣، ٣٧٦).

قال: فذهبت معه فأعطانى أوقية وزادنى شيئًا يسيرًا، فوالله ما زال ينمى عندى ويرى مكانه من بيتنا حتى أصيب أمس فيما أصيب لنا! يعنى يوم الحرة.

قال ابن إسحاق[(١)]: ولما قدم رسول الله ﷺ من غزوة ذات الرقاع أقام بها بقية جمادى الأولى الآخرة ورجب.

ثم خرج فى شعبان إلى بدر لميعاد أبى سفيان، حتى نزله فأقام عليه ثمانى ليال ينتظره.

وخرج أبو سفيان، فى أهل مكة، حتى نزل مجنة من ناحية، الظهران - وبعض الناس يقول غسفان - ثم بداله فى الرجوع، فقال: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، فإن عامكم هذا عام جدب، وإنى راجع فارجعوا. فرجع الناس، فسماهم أهل مكة جيش السويق يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.

وأقام رسول الله ﷺ على بدر ينتظر ابا سفيان لميعاده، فأتاه مخشى بن عمرو الضمرى، وهو الذى كان وادعه على بنى ضمرة فى غزوة ودان فقال: يا محمد، أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: «نعم يا أخا بنى ضمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك»[(٢)]. قال: لا والله يا محمد، مالنا بذلك منك من حاجة.

ومر برسول الله ﷺ، وهو هناك ينتظر أبا سفيان معبد بن أبى معبد الخزاعى فقال وناقته تهوى به، وقد رأى مكان رسول الله ﷺ:

قد نفرت من رفقتى محمد ... وعجوة من يثرب كالعنجد[(٣)]

تهوى على دين أبيها الأتلد ... قد جعلت ماء قديد موعدى

وماء ضجان لها ضحى الغد

وقال عبد الله بن رواحة فى ذلك، ويقال: إنها لكعب بن مالك:

وعدنا أبا سفيان بدرًا فلم نجد ... لميعاده صدقا وما كان وافيا

فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا ... لأبت ذميما وافتقدت المواليا

---

(١) انظر السيرة (١٧٨/٣).

(٢) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٨٨/٤).

(٣) العنجد: حب الزبيب.

تركنا بـه أوصـال عتبـة وابنـه ... وعمرًا أبا جهل تركنـاه ثاويـا
عصيتـم رسـول الله أف لدينكـم ... وأمركم السيئ الذى كـان غاويا
فـإنى وإن عنفتمونـى لقـائل ... فدًا لرسول اللـه أهلـى وماليـا
أطعناه لـم نعدلـه فينـا بغيـره ... شهابا لنا فى ظلمة الليـل هاديـا

وقال حسان بن ثابت فى ذلك:

دعوا فلجات الشام قد حال دونها ... جـلاد كـأفواه المخـاض الأوارك
بأيدى رجال هـاجروا نحو ربهـم ... وأنصـاره حقـا وأيـدى الملائـك
إذا سلكت للغور من بطـن عـالج ... فقـولا لهـا ليـس الطريـق هنـالك
أقمنـا علـى الـرس الـنزوع ثمانيـا ... بـأرعن جـرار عريـض المبـارك
بكـل كميت جوزه نصـف خلقـه ... وقـب طـوال مشـرفات الحـوارك
تـرى العرفـج العـامى تـذرى أصولـه ... مناسم أخفـاف المطـى الرواتـك[1]
فـإن نلـق فـى تطوافنـا والتماسـنا ... فـرات بـن حيـان يكـن رهـن هـالك
وإن تلق قيس بن امرئ القيس بعده ... يـزد فـى سـواد لونـه لـون حـالك
فأبلـغ أبـا سفيـان عنـى رسالـة ... فإنـك مـن غـر الرجـال الصعالـك

ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة فأقام بها حتى مضى ذو الحجة، وهى سنة أربـع من مقدمه المدينة، ثم غزا دومة الجندل[2]، ثم رجع قبل أن يصل إليها ولم يلق كيدًا، ﷺ.

* * *

غزوة الخندق[3]

وكانت فى شوال من سنة خمس فى قول ابن إسحاق.

وكان من الحديث عن الخندق أنه لما أجلى رسول الله ﷺ بنى النضير خرج نفر من اليهود - سلام بن أبى الحقيق وحيى بن أخطب وكنانة بن الربيع النضريون، وهوذة بن

---

(١) مناسم: جمع منسم، وهو طرف خف البعير. والرواتك: أى المسرعة.

(٢) راجع هذه الغزوة فى: المغازى للواقدى (٤٠٢/١)، طبقات ابن سعد (٤٤/١/٢)، تاريخ الطبرى (٥٦٤/٢)، البداية والنهاية (٩٢/٤)، دلائل النبوة (٣٨٩/٣).

(٣) راجع هذه الغزوة فى: المغازى للواقدى (٤٤٠/٢)، طبقات ابن سعد (٤٧/١/٢)، تاريخ الطبرى (٥٦٤/٢)، الكامل (٧٠/٢)، البداية والنهاية (٩٢/٤)، دلائل النبوة (٣٩٢/١٣).

قيس وأبو عمارة الوائليان - فى نفر من بنى النضير وبنى وائل، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، حين قدموا مكة على قريش فاستفزوهم واستنفروهم على رسول الله ﷺ ودعوهم إلى حربه، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه، فهم الذين الله عز وجل فيهم: ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرًا**﴾ [النساء: ٥١ - ٥٢].

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا لذلك واتعدوا له.

ثم خرج أولئك النفر حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى مثل ما دعوا إليه قريشا، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك.

وجعلت يهود لغطفان تحريضا على الخروج نصف تمر خيبر كل عام.

فزعموا أن الحارث بن عوف أخا بنى مرة قال لعيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر ولقومه من غطفان: يا قوم أطيعونى، دعوا قتال هذا الرجل وخلوا بينه وبين عدوة من العرب، فغلب عليهم الشيطان وقطع أعناقهم الطمع ونفذوا لأمر عيينة على قتال رسول الله ﷺ. وكتبوا إلى حلفائهم من بنى أسد، فأقبل طليحة الأسدى، فيمن اتبعه من بنى أسد، وهما الحليفان أسد وغطفان.

وكتبت قريش إلى رجال من بنى سليم أشراف بينهم وبينهم أرحام استمدادًا لهم، فأقبل أبو الأعور بمن اتبعه من سليم مددًا لقريش.

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن فى بنى فزارة والحارث بن عوف فى بنى مرة ومسعر بن رخلية الأشجعى فيمن تابعه من قومه من أشجع، وتكامل لهم ولمن استمدوه فأمدهم جمع عظيم، هم الذين سماهم الله «الأحزاب».

فلما سمع رسول الله ﷺ بخروجهم وبما أجمعوا له من الأمر أخذ فى حفر الخندق وضربه على المدينة، فعمل فيه ﷺ ترغيبًا للمسلمين فى العمل والأجر وعمل معه المسلمون، فدأب فيه ودأبوا حتى أحكموه.

وأبطأ عنهم فى عملهم ذلك رجال من المنافقين وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ويتسللون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التى لا بد له منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه فى اللحوق بحاجته فيأذن له فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة فى الخبر واحتسابا له، فأنزل الله فى أولئك من المؤمنين: ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم**﴾ [النور: ٦٢]. فنزلت هذه الآية فيمن كان من المسلمين من أهل الحِسْبة والرغبة فى الحرب والطاعة لله ولرسوله.

ثم قال تبارك وتعالى، يعنى المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ويذهبون بغير إذن من النبى ﷺ: ﴿**لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾ [النور: ٦٣].

وكانت فى حفر الخندق أحاديث فيها من الله عبرة فى تصديق رسوله وتحقيق نبوته، عاين ذلك المسلمون. فمنها: أنه اشتد عليهم فى بعض الخندق كدية فشكوها إلى رسول الله ﷺ، فدعا بإناء من ماء فتفل فيه ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية فيقول من حضرها: فوالذى بعثه بالحق لانهالت حتى عادت كالكثيب ما ترد فأسًا ولا مسحاة.

ودعت عمرة بنت رواحة أم النعمان بن بشير ابنة لها من بشير فأعطتها حفنة من تمر فى ثوبها ثم قالت: أى بنية، اذهبى إلى ابيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما.

قالت: فأخذتها فانطلقت فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبى وخالى، فقال: تعالى يا بنية، ما هذا معك؟ قالت: قلت: يا رسول الله، هذا تمر بعثتنى به أمى إلى أبى، بشير بن سعد وخالى عبد الله بن رواحة يتغديانه. قال: هاتيه. قالت: فصببته فى كفى رسول الله ﷺ فما ملأتهما ثم أمر بثوب فبسط له، ثم دحا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: اصرخ فى أهل الخندق: أن هلم إلى الغداء. فاجتمع اهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق وإنه ليسقط من أطراف الثوب!

وقال جابر بن عبد الله: عملنا مع رسول الله ﷺ فى الخندق وكنا نعمل فيه نهارًا فإذا أمسينا رجعنا إلى أهالينا، فكانت معى شويهة غير جد سمينة، فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله ﷺ. فأمرت امرأتى فطحنت لنا شيئا من شعير فصنعت لنا منه خبزًا وذبحت تلك الشاة فشويناها لرسول الله ﷺ، فلما أمسينا وأراد رسول الله ﷺ الانصراف عن الخندق قلت: يا رسول الله، إنى قد صنعت لك شويهة كانت عندنا وصنعنا معها شيئًا من خبز هذا الشعير، فأحب أن تنصرف معى إلى منزلى. وإنما أريد أن ينصرف رسول الله ﷺ معى وحده.

فلما قلت له ذلك قال: «نعم». ثم أمر صارخًا فصرخ: أن انصرفوا مع رسول الله ﷺ إلى بيت جابر بن عبد الله. قال: قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون! فأقبل رسول الله ﷺ والناس معه فجلس وأخرجناها إليه، فبرك وسمى الله ثم أكل وتواردها الناس، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس، حتى صدر أهل الخندق عنها.

وحدث سلمان الفارسى قال: ضربت فى ناحية من الخندق فغلظت على ورسول الله ﷺ قريب منى، فلما رآنى أضرب ورأى شدة المكان على نزل فأخذ المعول من يدى فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى، قلت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله! ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: «أوقد رأيت ذلك ياسلمان»: قلت: نعم.

قال: «أما الأولى فإن الله فتح على بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح على بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح بها على المشرق»[1]. فكان أبو هريرة يقول حين فتحت الأمصار فى زمان عمر وزمان عثمان وما بعده: افتتحوا ما بدا لكم، فوالذى نفس أبى هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله محمدًا ﷺ مفاتيحها قبل ذلك.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة فى عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد.

وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع - فى ثلاثة آلاف

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/٩٩).

من المسلمين - فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذرارى والنساء فجعلوا فى الآطام.

وخرج عدو الله حيي بن أخطب حتى أتى كعب بن أسد صاحب عقد بنى قريظة، وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاقده على ذلك وعاهده، فلما سمع كعب بحيى بن أخطب أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه حيي: ويحك يا كعب افتح لى. فقال: ويحك يا حيى إنك امرؤ مشؤوم، وإنى قد عاهدت محمدًا فلست بناقض ما بينى وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقًا، قال: ويحك افتح لى أكلمك. قال: ما أنا بفاعل. قال والله: إن أغلقت دونى إلا على جشيشتك أن آكل معك منها. فأحفظ الرجل ففتح له فقال: ويحك يا كعب! جئتك بعز الدهر وببحر طام! جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمى إلى جنب أحد، قد عاهدونى وعاقدونى على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه.

فقال له كعب: جئتنى والله بذل الدهر، وبجهام قد هراق ماءه فهو يرعد ويبرق وليس فيه شيء، ويحك يا حيى فدعنى وما أنا عليه فإنى لم أر من محمد إلا صدقًا ووفاءً.

فلم يزل حيي بكعب يفتله فى الذروة والغارب حتى سمح له، على أن أعطاه عهدًا من الله وميثاقًا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك.

فنقض كعب بن أسد عهده، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ.

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ، وهو - يومئذ - سيد الأوس وسعد بن عبادة، وهو - يومئذ - سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير فقال: «انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم؟ فإن كان حقا فالحنوا إلى لحنا أعرفه ولا تفتوا فى أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فأجهروا به الناس».

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، نالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: من رسول الله؟! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد؛ فشاتمهم سعد ابن معاذ وشاتموه، وكان رجلا فيه حدة، فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم فما بيننا أربى من المشاتمة.

ثم أقبلا ومن معهما إلى رسول الله ﷺ: فسلموا عليه، ثم قالوا: عضل والقارة. أى كعذر عضل والقارة بأصحاب الرجيع - خبيب وأصحابه - فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين»(١).

وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق من بعض المنافقين، وحتى قال قائل منهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط!.

وأقام عليه المشركون قريبًا من شهر لم يكن بينهم حرب إلا الرمياء. بالنبل والحصار.

فلما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف، وهما قائدا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما المراوضة فى الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح، ثم بعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله، أمرًا تحبه فتصنعه؟ أم شيئًا أمرك الله به لابد لنا من العمل به؟ أم شيئًا تصنعه لنا؟ قال: «بل شىء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا انى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما»(٢).

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعًا، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟! ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

قال رسول الله ﷺ: «فأنت وذلك»(٣). فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتب ثم قال: ليجهدوا علينا.

فأقام رسول الله ﷺ والمسلمون وعدوهم محاصروهم، ولم يكن بينهم قتال، إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبى جهل وهبيرة بن أبى وهب

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (١٠٤/٤)، دلائل النبوة للبيهقى (٤٣٠/٣).
(٢) انظر الحديث فى: المعجم الكبير للطبرانى (٥٧/٣). البداية والنهاية لابن كثير (١٠٥/٤).
(٣) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٤٣٠/٣، ٤٣١).

وضرار بن الخطاب تلبسوا للقتال ثم خرجوا على خليهم حتى مروا بمنازل بنى كنانة فقالوا: تهيأوا يا بنى كنانة للحرب فستعلمون من الفرسان اليوم. ثم أقبلوا تعنق بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة، ما كانت العرب تكيدها! ثم تيمموا مكانًا من الخندق ضيقًا فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم فى السبخة بين الخندق وسلع، وخرج على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم، وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم، وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أحد فلما كان يوم الخندق خرج معلمًا ليرى مكانه، فلما وقف هو وخيله قال: من يبارز؟ فبرز على بن أبى طالب فقال له: يا عمرو إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه، فقال له: أجل؛ فقال له على: فإنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام. قال: لا حاجة لى بذلك. قال: فإنى أدعوك إلى النزال. قال له: ولم يا ابن أخى! فوالله ما أحب أن أقتلك. قال على: لكنى والله أحب أن أقتلك! فحمى عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على على فتنازلا وتجاولا، فقتله علىٌّ.

وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

وذكر ابن إسحاق فى غير رواية البكائى أن عمرًا لما نادى يطلب من يبارزه قام على - رضى الله عنه - وهو مقنع فى الحديد فقال: أنا له يا نبى الله فقال له: «اجلس إنه عمرو» ثم ذكر عمرو النداء وجعل يؤنبهم ويقول: أين جنتكم التى تزعمون أنه من قتل منكم دخلها! أفلا تبرزون إلى رجلاً؟! فقام على فقال: أنا له يا رسول الله. قال: «اجلس إنه عمرو». ثم نادى الثالثة وقال:

ولقد بححت من الندا ... أبجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجع ... وقفة الرجل المناجز
وكذاك أنى لم أزل ... متسرعًا نحو الهزاهز
إن الشجاعة فى الفتى ... والجود من خير الغرائز

فقال علىّ - رضى الله عنه - فقال: أنا له يا رسول الله. فقال: «إنه عمرو» فقال: وإن كان عمرًا. فأذن له رسول الله ﷺ فمشى إليه علىٌّ وهو يقول:

لا تعجلن فقد أتا ... ك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نيـــــــة وبصـــــــــيرة والصـدق منجـى كـل فـائز
إنـــى لأرجـــو أن أقيـــــ ـــم عليـك نائحـة الجنـائز
مـــن ضربـــة نجـلاء يبـــ ـقـى ذكرهـا عنـد الهزاهـز

فقال عمرو: من أنت؟ قال: أنا على، قال: ابن عبد منـاف؟ قـال: أنـا علـى بـن أبـى طالب. فقال: غيرك يا ابن أخى من أعمامك من هو أسـن منـك، فـإنى أكـره أن أهريـق دمك. فقال على: لكنى والله ما أكره أن أهريق دمك. فغضب ونزل فسـل سيفه كأنـه شعلة نار، ثم أقبل نحو على مغضبًا. ويقال: إنه كان علـى فرسـه فقـال لـه علـى: كيـف أقاتلك وأنت على فرسك؟ ولكن تنزل معى. فـنزل عـن فرسـه ثـم أقبـل نحـوه فاستقبله عَلىّ بدرقته فضربه عمرو فيها فقدّها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه، وضربـه علىّ على حبل العاتق فسقط وثار العجاج، وسمع رسول الله ﷺ التكبير فعرف أن عليـا قد قتله، فثم يقول على رضى الله عنه:

أعلـى تقتحـم الفـوارس هكـذا عنـى وعنـه أخـبروا أصحـابى
فـاليوم يمنعنـى الفـرار حفيظتـى ومصمـم فـى الـرأس ليـس بنـابى
أدى عمـير حـين أخلـص صقلـه صـافى الحديـدة يستفيض ثوابـى
فغـدوت ألتمـس القـراع بمرهـف عضـب مـع النـتراء فـى إقـراب
قـال ابـن عبـد حـين شـد أليـة وحلفـت فاستمعوا مـن الكـذاب
أن لا يفـر ولا يهلـل فـالتقى أسـدان يضطربـان كـل ضـراب
نصـر الحجـارة مـن سـفاهة رأيـه ونصـرت ديـن محمـد بصـواب
فصـددت حـين تركتـه متجـدلاً كـالجذع بـين دكـادك وروابـى
وعففـت عـن أثوابـه ولـو أننـى كنـت المجـدل بزنـى أثوابـى
لا تحسـبن اللـه خـاذل دينـه ونبيـه يـا معشـر الأحـزاب

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم الخندق وبنى قريظة: «حم لا ينصرون».

وكانت عائشة - رضى الله عنها - يوم الخندق فى حصـن بنى حارثـة، وكـان مـن أحرز حصون المدينة، وكانت أم سعد بن معاذ معها فى الحصـن، قـالت عائشـة: وذلـك قبل أن يضرب علينا الحجاب، فمر سعد وعليه درع له مقصلة وقد خرجت منها ذراعـه كلها وفى يده حربته يرقد بها - أى يسرع بها - فى نشاط، وهو يقول:

لبـث قليـلا يشـهد الهيجـا حمـل لا بـأس بـالموت إذا حـان الأجـل

فقالت أمه: الحق أى بنى فقد والله أخرت. قـالت عائشـة: فقلـت لهـا: يـا أم سعد،

والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هى. قالت: وخفت عليه حيث أصاب السهم منه، فرمى سعد بسهم فقطع منه الأكحل، رماه حبان بن قيس بن العرقة أحد بنى عامر لؤى، فلما أصابه قال: خذها وأنا ابن العرقة. فقال له سعد: عرق الله وجهك فى النار، اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقى لها فإنه لا قوم أحب إلى أن أجاهد من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، اللهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لى شهادة ولا تمتنى حتى تقرعينى من بنى قريظة.

وكان عبد الله بن كعب بن مالك يقول: ماأصاب سعدًا - يومئذ - إلا أبو أسامة الجشمى حليف بنى مخزوم، وقال فى ذلك شعرًا يخاطب به عكرمة بن أبى جهل:

أعكرم هلا لمتنى إذ تقول لى   فداك بآطام المدينة خالد
ألست الذى ألزمت سعدًا مرشة   لها بين أثناء المرافق عاند
قضى نحبه منها سعيد فأعولت   عليه مع الشمط والعذارى النواهد[1]

فى أبيات ذكرها ابن إسحاق.

ويقال: إن الذى رمى سعدًا خفافة بن عاصم بن حبان. فالله أعلم أى ذلك كان.

وكانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع، أطم حسان بن ثابت، قالت: وحسان معنا فيه مع النساء والصبيان. قالت صفية: فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت، قالت: قلت يا حسان، إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل إليه فقتله. قال: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب! والله لقد علمت ما أنا بصاحب هذا. فلما قال لى ذلك ولم أر عنده شيئًا احتجزت ثم أخذت عمودًا ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت لحسان: انزل فاسلبه فإنى لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل. قال: مالى بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب.

وأقام رسول الله ﷺ واصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة لتظاهر عدوهم عليهم وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم.

---

(١) النحب: الأصل. والشمط: جمع شمطاء، وهى المرأة التى خالط شعرها الشيب. والنواهد: جمع ناهد، أى التى ظهر نهدها.

ثم إن نعيم بن مسعود الأشجعى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى قد أسلمت وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، فمرنى بما شئت.

فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة»[1].

فخرج نعيم حتى أتى بنى قريظة، وكان لهم نديمًا فى الجاهلية فقال: يا بنى قريظة، قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم. قالوا: صدقت فلست عندنا بمتهم. فقال لهم: إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم به أموالكم وابناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، فلا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم تأخذوا حتى منهم رهنًا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمدًا حتى تناجزوه.

قالوا: لقد أشرت بالرأى.

ثم خرج حتى أتى قريشًا فقال لأبى سفيان ومن معه من رجالهم، قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدًا، وإنه قد بلغنى أمر رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحًا لكم فاكتموا عنى قالوا: نفعل. قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه أنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من اشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: نعم. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحدًا.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان، إنكم أصلى وعشيرتى وأحب الناس إلىّ، ولا أراكم تتهموننى. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم؛ قال: فاكتموا عنى. قالوا: نفعل. ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم.

فلما كانت ليلة السبت، وكان ذلك من صنع الله لرسوله ﷺ أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدًا

---

(١) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٣/٤٤٥)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/١١١).

ونفرغ مما بيننا وبينه؛ فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدًا حتى تعطونا رهنًا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدًا، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلادنا ولا طاقة لنا بذلك.

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله، إن الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق. فأرسلوا إلى بنى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدًا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.

فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا: إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم. فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا. فأبوا عليهم.

وخذل الله بينهم، وبعث عليهم الريح فى ليال شاتية شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم.

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم وما فرق الله من جماعتهم دعا حذيفة بن اليمان فبعثه ليلاً لينظر ما فعل القوم، فحدث حذيفة - رحمه الله - وقد قال له رجل من أهل الكوفة: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال نعم يا ابن أخى. قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد. قال الرجل: والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا. فقال حذيفة: يا بن أخى، والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى هويا من الليل ثم التفت إلينا فقال: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسال الله أن يكون رفيقى فى الجنة؟»(١) فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعانى فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى فقال: «يا حذيفة، اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يفعلون ولا تحدثن شيئًا حتى تأتينا»(٢).

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣٩٢/٢)، تفسير الطبرى (٨٠/٢١)، تفسير ابن كثير (٣٨٦/٦)، البداية والنهاية لابن كثير (١١٣/٤).

(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣٩٢/٥)، تفسير ابن كثير (٣٨٦/٦)، تفسير الطبرى (٨٠/٢١)، البداية والنهاية لابن كثير (١١٣/٤).

فذهبت فدخلت فى القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قدرًا ولا نارًا ولا بناء، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه. قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى فقلت: من أنت؟ قال: فلان بن فلان.

وذكر ابن عقبة أنه فعل ذلك بمن يلى جانبيه يمينًا ويسارًا، قال: وبدرهم بالمسألة خشية أن يفطنوا له.

قال حذيفة: ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإنى مرتحل. ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم. ولولا عهد رسول الله ﷺ إلى: «أن لا تحدث شيئًا حتى تأتينى» ثم شئت لقتلته بسهم.

فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى مرط[1] لبعض نسائه، فلما رآنى أدخلنى إلى رجليه وطرح على طرف المرط ثم ركع وسجد وإنى لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر.

وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم.

ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعًا إلى المدينة والمسلمون معه وقد عضهم الحصار، فرجعوا مجهودين فوضعوا السلاح.

فلما كانت الظهر أتى جبريل رسول الله ﷺ معتجرًا بعمامة من إستبرق على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من ديباج.

ويقولون فيما ذكر ابن عقبة: أن رسول الله ﷺ كان فى المغتسل عندما جاءه جبريل وهو يرجل رأسه قد رجَّل أحد شقيه. فجاءه جبريل على فرس عليه اللأمة حتى وقف بباب المسجد عند موضع الجنائز، وإن على وجه جبريل لأثر الغبار، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال له جبريل: غفر الله لك! أقد وضعتم السلاح؟ قال: «نعم». قال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح بعد وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم.

---

(١) المرط: أى الكساء.

فأمر رسول الله ﷺ مؤذنًا فأذن فى الناس: من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة.

وقدم رسول الله ﷺ على بن أبى طالب برايته إلى بنى قريظة وابتدرها الناس، فسار علىّ - رضى الله عنه - حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ، فرجع حتى لقى رسول الله ﷺ بالطريق فقال: يا رسول الله، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابيث. قال: «لم؟ أظنك سمعت منهم لى أذى» قال: نعم. قال: «لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئًا[١]». فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم قال: «يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟»[٢] قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولاً.

ومر رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه فى طريقة قبل أن يصل إلى بنى قريظة، فقال: «هل مرَّ بكم أحد؟» قالوا: يا رسول الله، مر بنا دحية بن خليفة الكلبى على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج. فقال رسول الله ﷺ: «ذلك جبريل بعث إلى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب فى قلوبهم»[٣].

وتلاحق الناس برسول الله ﷺ، فأتى رجال من بعد العشاء الآخرة لم يصلوا العصر لقول رسول الله ﷺ: «لا يصلين أحد العصر إلا ببنى قريظة»[٤] فصلوا العصر بها من بعد العشاء الآخرة، فما عابهم الله بذلك فى كتابه ولا عنفهم به رسوله.

وذكر ابن عقبة أن الناس لما حانت العصر وهم فىالطريق ذكروا الصلاة فقال بعضهم: ألم تعلموا أن رسول الله ﷺ أمركم أن تصلوا العصر فى بنى قريظة. وقال آخرون: هى الصلاة. فصلى منهم طائفة وأخرت الصلاة طائفة حتى صلوها فى بنى قريظة بعد أن غابت الشمس، فذكروا لرسول الله ﷺ من عجل الصلاة ومن أخرها، فذكر أن رسول الله ﷺ لم يعنف واحدة من الطائفتين.

---

(١) انظر الحديث فى: تفسير الطبرى (٢١/٩٥، ٩٦).

(٢) انظر الحديث فى: تفسير الطبرى (٢١/٩٦).

(٣) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٨/١١٧)، إرواء الغليل للألبانى (٣/٤٠٣).

(٤) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٢/١٩، ٥/١٤٣)، صحيح مسلم فى كتاب الجهاد باب (٢٣)، رقم (٦٩)، شرح السنة للبغوى (١٤/١١)، تغليق التعليق لابن حجر العسقلانى (٣٧٧)، فتح البارى لابن حجر (٢/٤٣٦، ٧/٤٠٨، ٤٠٩، ١٣/٢٤٠)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/١١٠، ١١٧).

وحاصر رسول الله ﷺ بنى قريظة خمسًا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله فى قلوبهم الرعب.

وكان حيى بن أخطب دخل مع بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه، فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال لهم كعب بن أسد: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنى عارض عليكم خلالاً ثلاثًا فخذوا أيها شئتم. فقالوا: وما هى؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل وأنه للذى تجدونه فى كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. وقالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدًا ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتم على هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد واصحابه رجالاً مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه وإن نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء. قالوا: أنقتل هؤلاء المساكين؟ فما خير العيش بعدهم! قال: فإذا أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة. قالوا: أنفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ! قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه حازمًا ليلة واحدة من الدهر!

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، أخا بنى عمرو ابن عوف، وكانوا حلفاء الأوس، نستشيره فى أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه، فرق لهم وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم. وأشار بيده إلى حلقة: إنه الذبح.

قال أبو لبابة: فوالله مازالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله. ثم أنطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط فى المسجد إلى عمود من عمده. وقال: لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله على مما صنعت، وعاهد الله: أن لا أطأ بنى قريظة أبدًا ولا أرى فى بلد خنت الله ورسوله فيه أبدًا.

فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره وكان قد استبطأه قال: «أما إنه لو كان جاءنى لاستغفرت له، فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله

عليه»[(١)]. فنزلت توبته على رسول الله ﷺ وهو فى بيت أم سلمة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك؛ قلت: مم تضحك أضحك الله سنك؟ قال: «تيب على أبى لبابة»[(٢)]. قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله. قال: «بلى إن شئت»[(٣)]. قال: فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك. قالت: فثار الناس إليه ليطلقوه فقال لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده. فلما مر عليه خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه.

وذكر ابن هشام[(٤)] أن أبا لبابة أقام مرتبطًا بالجذع ست ليال تأتيه امرأته فى كل وقت صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع.

والآية التى نزلت فى توبته: ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئًا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم**﴾ [التوبة: ١٠٢]، وأنزل الله فى أبى لبابة، فيما روى عن عبد الله بن قتادة:

﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون**﴾ [الأنفال: ٢٧].

ثم إن ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عمير وهم نفر من بنى هدل ليسوا من بنى قريظة ولا بنى النضير، نسبهم فوق ذلك هم بنو عم القوم، أسلموا تلك الليلة التى نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ فأحرزوا دماءهم وأموالهم، وكان إسلامهم فيما زعموا عما كان ألقاه إليهم من أمر رسول الله ﷺ ابن الهيبان القادم عليهم قبل الإسلام متوكفًا لخروج رسول الله ﷺ ومحققًا لنبوته، فنفع الله هؤلاء الثلاثة بذلك واستنقذهم به من النار.

وقد تقدم ذكر خبره فيما مضى من هذا الكتاب.

---

(١) انظر الحديث فى: تفسير الطبرى (٩٧/٢١).

(٢) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (١٧/٤).

(٣) انظر الحديث فى: صحيح مسلم (١٤١٢، ٢١٥١)، السلسلة الصحيحة للألبانى (٣١٣)، صحيح البخارى (٢٦/٤، ١٢٥)، المعجم الكبير للطبرانى (١٠٩/٦، ٢٧٥/٨)، مجمع الزوائد للهيثمى (٣١٢/٣، ٦٧/٥)، كنز العمال للمتقى الهندى (١٧٩٠٥، ٢٩٩٩٣، ٣٠١٥٤، ٣٧١٥٥)، فتح البارى لا بن حجر (٨/٧)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٠/١/١).

(٤) انظر السيرة (٢٠٧/٣).

وخرج فى تلك الليلة عمرو بن سعدى القرظى. فمر بحرس رسول الله ﷺ وعليه محمد بن مسلمة، فلما رآه قال: «من هذا؟» قال: أنا عمرو بن سعدى. وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بنى قريظة فى غدرهم برسول الله ﷺ وقال: لا أغدر بمحمد أبدًا. فقال محمد بن مسلمة حين عرفه: اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام! ثم خلى سبيله، فخرج على وجهه حتى بات فى مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة ثم ذهب فلم يدر أين توجه من الأرض إلى يومه هذا. فذكر شأنه لرسول الله ﷺ فقال: «ذلك رجل نجاه الله برفائه»(١). وبعض الناس يزعم أنه كان أوثق برمة فيمن أوثق من بنى قريظة حين نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأصبحت رمته ملقاة ولا يدرى أين ذهب. فقال رسول الله ﷺ فيه تلك المقالة. فالله أعلم أى ذلك كان.

ولما نزل بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ تواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله، إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت - يريدون بنى قينقاع - وما كان من حصار رسول الله ﷺ لهم ونزولهم على حكمه، وكيف سأله إياهم عبد الله بن أُبَىّ بن سلول فوهبهم له. فلما كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ: «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم» قالوا: بلى. قال: «فذاك إلى سعد بن معاذ»(٢).

وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة من أسلم يقال لها: رفيدة فى مسجده، كانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم فى الخندق: «اجعلوه فى خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب»(٣). فلما حكمه رسول الله ﷺ فى بنى قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطأوا له بوسادة من أدم، وكان رجلاً جسيمًا، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن فى مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم. فلما أكثروا قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم!

فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بنى عبد الأشهل فنعى لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد، عن كلمته التى سمع منه.

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (١٢١/٤).

(٢) انظر الحديث فى: تفسير الطبرى (٩٧/٢١).

(٣) انظر الحديث فى: تفسير الطبرى (٩٧/٢١).

فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم»[1] فاما المهاجرون من قريش فيقولون: إنما أراد الأنصار. وأما الأنصار فيقولون: قد عم بها رسول الله ﷺ المسلمين. فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم. فقال سعد بن معاذ: عليكم عهد الله وميثاقه: أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم. قال: وعلى من ها هنا - فى الناحية التى فيها رسول الله ﷺ - وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالا له. فقال: رسول الله ﷺ «نعم». قال سعد: فإنى أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى والنساء. فقال رسول الله ﷺ: «قد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»[2].

ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله ﷺ فى المدينة فى دار امرأة من بنى النجار، ثم خرج ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق، يخرج بهم إليها أرسالاً. وفيهم عدو الله حيى بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة، والمكثر يقول: كانوا بين الثمان المائة والتسع المائة. وقالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً: يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفى كل موطن لا تعقلون! ألا ترون أن الداعى لا ينزع وأن من ذهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل.

فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ وأتى بعدو الله حيى بن أخطب وعليه حلة فقاحية قد شقها عليه من كل ناحيه قدر أنملة لئلا يسلبها، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسى فى عداوتك ولكن من يخذل الله يخذل! ثم أقبل على الناس فقال: يا أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبت على بنى إسرائيل! ثم جلس فضربت عنقه. فقال فى ذلك

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٨١/٤، ٤٤/٥، ٧٢/٦، ١٣٤)، صحيح مسلم فى كتاب الجهاد باب (٢٢) رقم (٦٤)، سنن أبى داود (٥٢١٥، ٥٢١٦)، سنن الترمذى (٨٥٦)، مسند الإمام أحمد (٢٢/٣، ٧١)، السنن الكبرى للبيهقى (٥٨/٦، ٦٣/٩، ٩٧)، المعجم الكبير للطبرانى (٦/٦)، مجمع الزوائد للهيثمى (١٣٨/٦)، مصنف ابن أبى شيبة (٤٢٥/١٤)، دلائل النبوة (١٨/٤)، كنز العمال للمتقى الهندى (٢٥٤٨٣)، مشكاة المصابيح للتبريزى (٤٦٩٥، ٣٩٦٣٥)، فتح البارى لابن حجر (٣٢٠/١، ٥١/٥، ١٧٧، ٧٨، ٤١١/٧، ٤٩/١١)، زاد المسير لابن الجوزى (١٩٣/٨)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٤/٢/٣، ٥)، شرح السنة للبغوى (٩٢/١١)، السلسلة الصعيفة للألبانى (٣٤٦).

(٢) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (١٠٨/٤).

جبل ابن جوال الثعلبى:

لعمرك ما لام ابـن أخطـب نفسـه ولكنـه مـن يخـذل اللـه يخـذل
لجاهـد حتـى أبلغ النفس عذرهـا وقلقل يبغـى العـز كل مقلقـل[١]

بل ابتغى عدو الله ذل الأبد فوجده، وجاهد الله فجهده، فأصبح برأيه القـائل وسـعيه الخاسر من الذين لهم خزى فى الدينا ولهم فى الآخرة عذاب النار.

وقتل من نساء بنى قريظة امرأة واحدة لم يقتل من نسـائهم غيرهـا، قـالت عائشـة أم المؤمنين رضى الله عنها: والله إنها لعندى تحدث معي وتضحـك ظهـرًا وبطنًـا، ورسـول الله ﷺ يقتل رجالها فى السوق إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة قالت: أنا والله، قلـت لها: ويلك مالك؟ قالت: أقتل. قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته. فـانطلق بهـا فضربـت عنقها. فكانت عائشة تقول: والله لا أنسى عجبًا منهـا، طيـب نفسـها وكـثرة ضحكهـا وقد علمت أنها تقتل.

قال ابن هشام[٢]: هى التى طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته.

وكان الزبير بن باطا القرظى قد من على ثابت قيس بن شـماس فـى الجاهليـة، أخـذه يوم بعاث فجز ناصيته ثم خلى سبيله. فجاءه ثابت لما قتل بنـو قريظـة وهـو شـيخ كبـير فقال: يا أبا عبد الرحمن، هل تعرفنى؟ قال: وهل يجهل مثلى مثلك. قال: فـإنى أردت أن أجزيك بيدك عندى. قال: إن الكريم يجزى الكريم. ثم أتى ثابت رسول اللـه ﷺ فقـال: يا رسول الله، إنه كان للزبير على منة وقد أحببـت أن أجزيـه بهـا فهـب لى دمـه. فقـال رسول الله ﷺ: «هو لك»[٣]. فأتاه فقـال: إن رسـول اللـه ﷺ قـد وهـب لى دمـك فهـو لك، قال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحيـاة؟ فـأتى ثـابت رسـول اللـه ﷺ فقال: بأبى أنت وأمى يا رسول الله امرأتـه وولـده. قـال: «هـم لـك». فأتـاه فقـال: قـد وهب لى رسول الله ﷺ أهلك وولدك فهم لك. قال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فمـا بقاؤهم على ذلك؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ماله. قـال: هـو لـك. فأتاه ثابت فقال: قد أعطانى رسول الله ﷺ مالك فهـو لـك، فقـال: أى ثـابت مـا فعـل الذى كان وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحى، كعب بن أسد؟ قال: قتل. قـال:

---

(١) مقلقل: تحرك.

(٢) انظر السيرة (٣/٢١١).

(٣) انظر الحديث فى: سنن النسائى فى كتاب البيوع باب (٧٧)، مسند الإمام أحمد (٣/٣٠٣)، تغليق التعليق لابن حجر العسقلانى (٧٣٦)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٤١).

فما فعل سيد الحاضر والبادى حيى بن أخطب؟ قال: قتل. قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا عزال بن شموال. قال: قتل. قال: فما فعل المجلسان؟، يعنى بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو بن قريظة. قال: ذهبوا فقتلوا. قال: فإنى أسألك يا ثابت بيدى عندك إلا ألحقتنى بالقوم، فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فيلة دلو ناضح حتى ألقى الأحبة. فقدمه ثابت فضرب عنقه.

فلما بلغ أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - قوله: «ألقى الأحبة» قال: يلقاهم والله فى نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا.

وكان رسول الله ﷺ قد أ مر بقتل كل من أنبت منهم. قال عطية القرظى: وكنت غلامًا فوجدونى لم أنبت فخلوا سبيلى.

وكان رفاعة بن شموال القرظى رجلاً قد بلغ فلاذ بسلمى بنت قيس أم المنذر، أخت سليط بن قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ قد صلت القبلتين معه وبايعته بيعة النساء، فقالت: يا نبى الله، بأبى أنت وأمى هب لى رفاعة، فإنه زعم أنه سيصلى ويأكل لحم الجمل. فوهبه لها فاستحيته.

ثم إن رسول الله ﷺ قسم أموال بنى قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين، وأعلم فى ذلك اليوم سهمان الخيل وسهمان الرجال وأخرج منها الخمس، فكان للفارس ثلاثة أسهم، للفرس سهمان ولفارسه سهم، وللراجل من ليس له فرس سهم. وكانت الخيل يوم بنى قريظة ستة وثلاثين فرسا، وكان أول فىء وقعت فيه السهمان وأخرج منه الخمس، فعلى سنتها وما مضى من رسول الله ﷺ فيها وقعت المقاسم ومضت السنة فى المغازى.

ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصارى الأشهلى بسبايا من سبايا بنى قريظة إلى نجد فابتاع له بهم خيلاً وسلاحًا.

وكان رسول الله ﷺ قد اصطفى لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة من بنى عمرو بن قريظة، فكانت عنده حتى توفى عنها وهى فى ملكه، وكان عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يا رسول الله، بل تتركنى فى ملكك فهو أخف على وعليك فتركها. وكانت حين سباها قد تعصت بالإسلام وابت إلا اليهودية، فعزلها رسول الله ﷺ ووجد فى نفسه لذلك من أمرها، فبينا هو مع أصحابه إذ سمع

وقع نعلين خلفه فقال: «إن هذا لثعلبة بن سعية يبشرنى بإسلام ريحانة»[1]. فجاءه فقال: يا رسول الله، قد أسلمت ريحانة. فسره ذلك من أمرها.

وأنزل الله - عز وجل - فى أ مر الخندق وبنى قريظة القصة فى سورة الأحزاب يذكر فيها ما نزل بهم من البلاء، ويذكر نعمته عليهم وكفايته إياهم حتى فرج عنهم ذلك:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرًا إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدًا وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا﴾ [الأحزاب: ٩-١٢] فى آيات استوفى فيها تعالى ذكر ما شاء من قصتهم.

ثم قال سبحانه: **﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزًا وأنزل الذين ظاهر وهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقًا تقتلون وتأسرون فريقًا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضًا لم تطؤوها وكان الله على كل شىء قديرًا﴾** [الأحزاب: ٢٤ - ٢٧].

فلما انقضى شأن بنى قريظة انفجر بسعد بن معاذ جرحه فمات شهيدًا، يرحمه الله.

فذكروا أن جبريل أتى رسول الله ﷺ حين قبض سعد من خوف الليل معتجرًا بعمامة من استبرق فقال: يا محمد، من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش؟! فقام رسول الله ﷺ سريعًا يجر ثوبه إلى سعد بن معاذ فوجده قد مات.

وقد كان سعد رجلاً بادنًا، فلما حمله الناس وجدوا له خفة، فقال رجال من المنافقين: والله إن كان لبادنا، وما حملنا من جنازة أخف منه. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إن له حملة غيركم، والذى نفس محمد بيده لقد استبشرت الملائكة بروح سعد واهتز له العرش»[2].

---

(١) انظر الحديث فى: الطبقات الكبرى لابن سعد (١٣١/٨)، دلائل النبوة للبيهقى (٢٤/٤).

(٢) انظر الحديث فى: سنن الترمذى (٣٨٤٩/٥)، مستدرك الحاكم (٢٠٧/٣).

وقالت عائشة - رضى الله عنها - لأسيد بن حضير، وهو قافل معها من مكة وبلغه موت امرأة فحزن عليها بعض الحزن: يغفر الله لك أبا يحيى، اتحزن على امرأة وقد أصبت بابن عمك وقد اهتز له العرش؟ تعنى سعدًا.

وقال جابر بن عبد الله: لما دفن سعد ونحن مع رسول الله ﷺ سبح رسول الله ﷺ فسبح الناس معه وكبر فكبر الناس معه فقالوا: يا رسول الله، مم سبحت؟ قال: «لقد تضايق على هذا الرجل الصالح قبره حتى فرجه الله عنه»(١).

ويروى أن رسول الله ﷺ قال: «إن للقبر لضمة لو كان أحد منها ناجيًا لكان سعد ابن معاذ»(٢).

ولسعد يقول رجل من الأنصار:

وما اهتز عرش الله من موت هالك ... سمعنا به إلا لسعد أبى عمرو

وقالت أم سعد حين احتمل نعشه وهى تبكيه:

ويل أم سعد سعدا ... صرامة وحدا
وسؤددا ومجدا ... وفارسا معدا
سد به مسدا

فقال رسول الله ﷺ: «كل نائحة تكذب إلا نائحة سعد بن معاذ»(٣).

وقال حسان بن ثابت يبكى سعدًا:

لقد سجمت من فيض عينى عبرة ... وحق لعينى أن تفيض على سعد
قتيل ثوى فى معرك فجعت به ... عيون ذوارى الدمع دائمة الوجد(٤)
على ملة الرحمن وارث جنة ... مع الشهداء وفدها أكرم الوفد
فإن تك قد ودعتنا وتركتنا ... وأمسيت فى غبراء مظلمة اللحد
فأنت الذى يا سعد أبت بمشهد ... كريم وأثواب المكارم والحمد
بحكمك فى حيى قريظة بالذى ... قضى الله فيهم ما قضيت على عمد

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣/٣٦٠)، مشكاة المصابيح للتبريزى (١٣٥)، إرواء الغليل للألبانى (٣/١٦٦)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٢٨).
(٢) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٢٨).
(٣) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٣٠).
(٤) ثوى: أى أقام. والمعرك: موضع القتال. وذوارى الدمع: أى تسكبه. والوجد: أى الحزن.

فوافـق حكـم اللـه حكمـك فيهـم ... ولم تعف إذ ذكرت ما كـان مـن عهـد
فإن كان ريب الدهـر أمضاك فـى الأُلى ... شـروا هـذه الدنيـا بجناتهـا الخلـد
فنعـم مصـير الصادقـين إذا دعـوا ... إلـى اللـه يومـا للوجاهـة والقصـد

وقال حسان يبكى سعدًا ورجالاً من الشهداء من أصحاب رسول الله ﷺ:

ألا يـا لقومـى هـل لمـا حـم دافـع ... وهل ما مضى من صالح العيش راجع
تذكـر عصـرا قـد مضـى فتهـافتت ... بنـات الحشـا وانهـل منـى المدامـع
صبابـة وجـد ذكرتنـى أخـوة ... وقتلـى مضـى فيهـا طفيـل ورافـع
وسعد فأضحوا فى الجنـان وأوحشـت ... منـازلهم فـالأرض منهـم بلاقـع
وفـوا يـوم بـدر للرسـول وفوقهـم ... ظـلال المنايـا والسـيوف اللوامـع
دعـا فأجـابوه بحـق وكلهـم ... مطيـع لـه فـى كـل أمـر وسـامع
فمـا نكلـوا حتـى تولـوا جماعـة ... ولا يقطـع الآجـال إلا المصـارع
لأنهـم يرجـون منـه شـفاعة ... إذا لـم يكـن إلا النبيـون شـافع
فذلـك يـا خـير العبـاد ملاذنـا ... إجابتنـا للـه والمـوت نـافع
لنـا القـدم الأولى إليـك وخلفنـا ... لأولنـا فـى ملـة اللـه تـابع
ونعلـم أن الملـك للـه وحـده ... وأن قضـاء اللـه لابـد واقـع

ولم يستشهد من المسلمين يوم الخندق إلا ستة نفر كلهم من الأنصار: سعد بن معاذ، وأنس بن أوس بن عتيك، وعبد الله بن سهل الأشهليون، والطفيل بن النعمان، وثعلبة بن غنمة الجشميان. ومن بنى دينار بن النجار كعب بن زيد، أصابه سهم غرب فقتله، رحمة الله عليهم.

واستشهد يوم بنى قريظة من المسلمين خلاد بن سويد من بنى الحارث بن الخزرج، طرحت عليه رحى فشدخته شدخًا شديدًا، فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «إن له لأجر شهيدين».

ومات أبو سنان بن محصن أخو عكاشة بن محصن، ورسول الله ﷺ محاصر بنى قريظة.

ولما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم»[1].

---

(١) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٣/٤٥٨)، تفسير ابن كثير (٦/٣٩٦).

فكان كذلك لم تغزوهم قريش بعد ذلك وكان هو ﷺ يغزوهم حتى فتح الله عليه مكة.

وقال حسان بن ثابت فى يوم الخندق يجيب عبد الله بن الزبعرى شاعر قريش عن كلمة قالها فى ذلك:

هل رسم دارسة المقام بباب ... متكلم لمحاور بجواب
قفر عفا رهم السحاب رسومه ... وهبوب كل مظلة مرباب
ولقد رأيت بها الحلول يزينهم ... بيض الوجوه ثواقب الأحساب(١)
فدع الديار وذكر كل خريدة ... بيضاء آنسة الحديث كعاب(٢)
واشك الهموم إلى الإله وما ترى ... من معشر ظلموا الرسول غضاب
ساروا بأجمعهم إليه وألبوا ... أهل القرى وبوادى الأعراب
جيش عيينة وابن حرب فيهم ... متخمطين بحلبة الأحزاب
حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا ... قتل الرسول ومغنم الأسلاب
وغدوا علينا قادرين بأيدهم ... ردوا بغيظهم على الأعقاب
بهبوب معصفة تفرق جمعهم ... وجنود ربك سيد الأرباب
فكفى الإله المؤمنين قتالهم ... وأثابهم فى الأجر خير ثواب
من بعد ما قنطوا ففرق جمعهم ... تنزيل نصر مليكنا الوهاب
وأقر عين محمد وصحابه ... وأذل كل مكذب مرتاب
عاتى الفؤاد موقع ذى ريبة ... فى الكفر ليس بطاهر الأثواب(٣)
علق الشقاء بقلبه ففؤاده ... فى الكفر آخر هذه الأحقاب

وقال كعب بن مالك فى ذلك - أيضًا - يجيب ابن الزبعرى عن كلمته:

أبقى لنا حدث الحروب بقية ... من خير نحلة ربنا الوهاب
بيضاء مشرقة الذرى ومعاطنا ... حم الجذوع غزيرة الأحلاب
كاللوب يبذل جمها وحفيلها ... للجار وابن العم والمنتاب
ونزائعا مثل السراج نمى بها ... علف الشعير وجزة المقضاب

---

(١) الحلول: البيوت المجتمعة. وثواقب: أى مشرقة.

(٢) الخريدة: أى المرأة الناعمة. والكعاب: أى التى نهد ثديها فى أول ما نهد.

(٣) عاتى الفؤاد: أى قاسيه. وموقع ذى ريبة: أصله من التوقيع فى ظهر الدابة، وهو انسلاخ يكون فيه.

عرى الشوى منها وأردف نحضها ... جرد المتون وسار فى الآراب
قودا تراح إلى الصياح إذ غدت ... فعل الضراء تراح للكلاب
وتحوط سائمة الذمار وتارة ... تردى العدى وتؤوب بالأسلاب
يعدون بالزغف المضاعف شكة ... وبمترصات فى الثقاف صياب
وصوارم نزع الصياقل غلبها ... وبكل أروع ماجد الأنساب
يصل اليمين بمارن متقارب ... وكلت وقيعته إلى خباب
وكتيبة ينفى القران قتيرها ... وترد حد قواجز النشاب
أعيت أبا كرب وأعيت تبعا ... وأبت بسالتها على الأعراب
ومواعظ من ربنا نهدى بها ... بلسان أزهر طيب الأثواب
عرضت علينا فاشتهينا ذكرها ... من بعد ما عرضت على الأحزاب
حكما يراها المجرمون بزعمهم ... حرجا ويفهمها ذوو الألباب
جاءت سخينة كى تغالب ربها ... فليغلبن مغالب الغلاب

ولما قال كعب بن مالك هذا البيت: «جاءت سخينة» إلى آخره. قال له رسول الله ﷺ: «لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا»[1].

وقال كعب أيضًا:

لقد علم الأحزاب حين تألبوا ... علينا وراموا ديننا ما نوادع
أضاميم من قيس بن عيلان أصفقت ... وخندف لم يدروا بما هو واقع[2]
يذودوننا عن ديننا ونذودهم ... عن الكفر والرحمن راء وسامع
إذا غايظونا فى مقام أعاننا ... على غيظهم نصر من الله واسع
وذلك حفظ الله فينا وفضله ... علينا ومن لم يحفظ الله ضائع
هدانا لدين الحق واختاره لنا ... ولله فوق الصانعين صنائع

وقال كعب أيضًا:

ألا أبلغ قريشا أن سلعا ... وما بين العريض إلى الصماد
نواضح فى الحروب مدربات ... وخوص بقيت من عهد عاد
رواكد يزخر المران فيها ... فليست بالجمام ولا الثماد
بلاد لم تثر إلا لكيما ... نجالد إن نشطتم للجلاد

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (١٣٤/٤).
(٢) أضاميم: أى جماعات انضم بعضها إلى بعض. وأصفقت: أى اجتمعت وتوافقت على الأمر.

أثرنـا سـكة الأنبـاط فيهـا ... فلـم نـر مثلهـا جلهـات وادى
قصرنـا كـل ذى حضـر وطـول ... علـى الغايـات مقتـدر جـواد
أجيبونـا إلى مـا نجتذيكـم ... مـن القـول المبيـن والسـداد
وإلا فـاصبروا لجـلاد يـوم ... لكـم منـا إلى شـطر المـذاد
نصبحكـم بكـل أخـى حـروب ... وكـل مطهـم سـلس القيـاد
وكـل طمـرة خفـق حشـاها ... تـدف دفيـف صفـراء الجـراد
وكـل مقلـص الآراب نهـد ... تميـم الخلـق مـن أخـر وهـاد
خيـول لا تضـاع إذا أضيعـت ... خيـول النـاس فـى السنة الجمـاد
ينـازعن الأعنـة مصغيـات ... إذا نـادى إلى الفـزع المنـادى
إذا قـالت لنـا النـذر اسـتعدوا ... توكلنـا علـى رب العبـاد
وقلنـا لـن يفـرج مـا لقينـا ... سوى ضرب القوانس والجهـاد
ولـم فلـم نـر عصبـة فيمـن لقينـا ... مـن الأقـوام مـن قـار وبـاد
أشـد بسـالة منـا إذا مـا ... أردنـاه وألـين فـى الـوداد
إذا مـا نحـن أشـرجنا عليهـا ... جيـاد الجـدل فـى الأرب الشـداد
قذفنـا فـى السـوابغ كـل صقـر ... كريـم غـير معتلـث الزنـاد
أشـم كأنـه أسـد عبـوس ... غـداة بـدا ببطـن الجـزع غـادى
ليظـهر دينـك اللهـم إنـا ... بكفـك فاهدنـا سبـل الرشـاد

وقال حسان بن ثابت يذكر بنى قريظة:

تفـاقد معشـر نصـروا قريشـا ... وليـس لهـم ببلدتهـم نصيـر[1]
هـم أوتـوا الكتـاب فضيعـوه ... وهـم عمـى مـن التـوراة بـور
فهـان علـى سـراة بنـى لؤى ... حريـق بالبويـرة مستطيـر

ولما سمع ذلك أبو سفيان بن الحارث قال:

أدام اللـه ذلـك مـن صنيـع ... وحـرق فـى طرائقهـا السعيـر

فى أبيات ذكرها ابن إسحاق لم يأل قائلها أن صدق حسان.

وقال فى ذلك - أيضًا - جبل بن جوال الثعلبى، وبكى النضير وقريظة ونعى على سعد بن معاذ إسلامه مواليه منهم خلاف ما فعل عبد الله بن أبى فى بنى قينقاع:

---

(١) تفاقد: أى فقد بعضهم بعضًا.

ألا يـا سـعد سـعد بنـى معـاذ لمـا لقيـت قريظـة والنضـير
لعمـرك إن سـعد بنـى معـاذ غـداة تحملـوا لهـو الصبـور
فأمـا الخزرجـى أبـو حباب فقـال لقينقـاع لا تسيـروا

ويقول فى آخرها:

تركتـم قدركـم لا شىء فيهـا وقـدر القـوم حاميـة تفـور

فقال سعد حين بلغه هذا الشعر: من لقيهم فليحدثهم أنهم خانوا الله ورسوله فأخزاهم الله.

* * *

مقتل سلام بن أبى الحقيق

وكان سلام بن أبى الحقيق أبو رافع فيمن حزب الأحزاب على رسول الله ﷺ. وكان مما صنع الله به لرسوله أن هذين الحيين من الأنصار - الأوس والخزرج - كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين، لا تصنع الأوس شيئًا فيه عن رسول الله ﷺ عناء إلا قالت الخزرج: والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ وفى الإسلام. فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئًا قالت الأوس مثل ذلك.

وكانت الأوس قبل أحد قد قتلت كعب بن الأشرف فى عداوته لرسول الله ﷺ وتحريضه عليه، فقالت الخزرج: والله لا يذهبون بها فضلا علينا أبدًا.

فتذاكروا بعد أن انقضى شأن الخندق وبنى قريظة: من رجل لرسول الله ﷺ فى العداوة كابن الأشرف؟ فذكروا ابن أبى الحقيق وهو بخيبر، فاستأذنوا رسول الله ﷺ فى قتله فأذن لهم، فخرج إليه من الخزرج من بنى سلمة خمسة نفر: عبد الله بن عتيك، ومسعود بن سنان، وعبد الله بن أنيس، وأبو قتادة الحارث بن ربعى، وخزاعى بن أسود حليف لهم من أسلم.

فخرجوا، وأمر عليهم رسول الله ﷺ عبد الله بن عتيك ونهاهم أن يقتلوا وليدًا أو امرأة.

فخرجوا حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار ابن أبى الحقيق ليلاً، فلم يدعوا لهم بيتًا فى الدار إلا أغلقوه على أهله، وكان فى علية له إليها عجلة فأسندوا فيها حتى قاموا على بابه، فاستأذنوا، فخرجت عليهم امرأة فقالت من أنتم؟ فقالوا: أناس من العرب نلتمس

الميرة. قالت: ذاكم صاحبكم فادخلوا إليه. قال: فلما دخلنا أغلقنا علينا وعليها الحجرة تخوفا أن يكون دونه مجادلة تحول بيننا وبينه. قال: وصاحت امرأته فنوهت بنا، وابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا، والله ما يدلنا عليه فى سواد الليل إلا بياضه كأنه قبطية ملقاة. قال: ولما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه ثم يذكر نهى رسول الله ﷺ فيكف يده، ولولا ذلك لفرغنا منها بليل، فلما ضربناه بأسيافنا تحامل عليه عبد الله ابن أنيس بسيفه فى بطنه حتى أنفذه وهو يقول: قطنى قطنى، أى حسبى حسبى.

قال: وخرجنا وكان عبد الله بن عتيك رجلاً سىء البصر، فوقع من الدرجة فوثئت يده وثئا شديدًا، قال ابن هشام: ويقال: رجله، وحملناه حتى نأتى منهرًا من عيونهم فندخل فيه. قال: وأوقدوا النيران واشتدوا فى كل وجه يطلبون، حتى إذا يئسوا رجعوا إلى صاحبهم فاكتنفوه وهو يقضى بينهم. فقلنا كيف لنا بأن نعلم أن عدو الله قد مات؟ فقال رجل منا: أنا أذهب فأنظر لكم. فانطلق حتى دخل فى الناس، قال: فوجدتها ورجال يهود حوله وفى يدها المصباح تنظر فى وجهه وتحدثهم وتقول: أما والله لقد سمعت صوت ابن عتيك ثم أكذبت وقلت أنى ابن عتيك بهذه البلاد. ثم أقبلت عليه تنظر فى وجهه ثم قالت: فاظ وإله يهود. فما سمعت من كلمة كانت ألذ إلى نفسى منها.

قال: ثم جاءنا فأخبرنا الخبر، فاحتملنا صاحبنا فقدمنا على رسول الله ﷺ فأخبرناه بقتل عدو الله واختلفنا عنده فى قتله، كلنا ندعيه، فقال رسول الله ﷺ: «هاتوا أسيافكم». فجئناه بها فنظر إليها، فقال لسيف عبد الله بن أنيس: «هذا قتله، أرى فيه أثر الطعام»[١].

وقال حسان بن ثابت يذكر قتل كعب بن الأشرف وقتل سلام بن أبى الحقيق:

لله در عصابة لاقيتهم ... يابن الحقيق وأنت يابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم ... مرحا كأسد فى عرين مغرف[٢]
حتى أتوكم فى محل بلادكم ... فسقوكم حتفا ببيض ذفف[٣]
مستنصرين لنصر دين نبيهم ... مستصغرين لكل أمر مجحف

* * *

(١) انظر الحديث فى: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/١/٦٦).

(٢) مغرف: ملتف الشجر.

(٣) ذفف: سريعة القتل.

ذكر إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رضى الله عنهما

حدث عمرو بن العاص - رحمه الله - قال: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يريون رأيي ويسمعون منى فقلت لهم: تعلموا والله إنى أرى أمر محمد يعلو الأمور علوًا منكرًا، وإنى قد رأيت أمرًا فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا أن نكون تحت يدى محمد، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير.

قالوا: إن هذا لرأى. قلت: فاجمعوا ما نهدى له، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم، فجمعنا له أدمًا كثيرًا، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه، فوالله إنا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمرى، بعثه إليه رسول الله ﷺ فى شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده فقلت لأصحابى: هذا عمرو بن أمية لو قد دخلت على النجاشى سألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنى قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد: قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع فقال لى: مرحبا بصديقى، أهديت لى من بلدك شيئًا؟ قلت: نعم أيها الملك، قد أهديت لك أدما كثيرًا. ثم قربته إليه فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك، إنى قد رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا فأعطينيه لأقتله فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا.

قال: فغضب ثم مد يده وضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لى الأرض لدخلت فيها فرقًا منه، ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه، قال: أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله؟! قلت أيها الملك أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو، أطعنى واتبعه فإنه والله لعلى الحق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده. فقلت: أفتبايعنى له على الإسلام؟ قال: نعم. فبسط يده فبايعته على الإسلام.

ثم خرجت إلى أصحابى وقد حال رأيى عما كان عليه، وكتمت أصحابى إسلامى، ثم خرجت عامدًا إلى رسول الله ﷺ لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم وإن الرجل

لنبى، أذهب والله فأسلم، حتى متى؟! قلت: والله ما جئت إلا لأسلم.

فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع ثم دنوت فقلت: يا رسول الله، إنى أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ولا أذكر ما تأخر. فقال رسول الله ﷺ: «يا عمرو بايع، فإن الإسلام يجب ما كان قبله، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها»[1]، قال: فبايعته وانصرفت.

وذكر ابن إسحاق عمن لا يتهم أن عثمان بن طلحة بن أبى طلحة أخا بنى عبد الدار كان معهما أسلم حين أسلما.

وذكر غيره أن رسول الله ﷺ قال حين رآهم: «رمتكم مكة بأفلاذ كبدها».

وحدث الواقدى بإسناد له قال: قال عثمان بن طلحة: لقينى رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة فدعانى إلى الإسلام فقلت: يا محمد، العجب لك حين تطمع أن أتبعك وقد خالفت قومك وجئت بدين محدث ففرقت جماعتهم وألفتهم وأذهبت بهاءهم. فانصرف، وكنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الاثنين والخميس، فأقبل يومًا يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فغلظت عليه ونلت منه وحلم عنى ثم قال: يا عثمان، لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدى أضعه حيث شئت.

فقلت: لقد هلكت قريش - يومئذ - وذلت. فقال رسول الله ﷺ: «بل عمرت وعزت يومئذ». ودخل الكعبة فوقعت كلمته منى موقعا ظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال: فأردت الإسلام، فإذا قومى يزبروننى زبرًا شديدًا ويزرون برأيى، فأمسكت عن ذكره. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة جعلت قريش تشفق من رجوعه عليها، فهم على ما هم عليه حتى جاء النفير إلى بدر، فخرجت فيمن خرج من قومنا وشهدت المشاهد كلها معهم على رسول الله ﷺ، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة عام القضية غير الله قلبى عما كان عليه ودخلنى الإسلام وجعلت أفكر فيما نحن عليه وما نعبد من حجر لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، وأنظر إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وظلف أنفسهم عن الدنيا فيقع ذلك منى فأقول: ما عمل القوم إلا على الثواب لما يكون بعد الموت.

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٤/١٩٩)، السنن الكبرى للبيهقى (٩/١٢٣)، دلائل النبوة للبيهقى (٤/٣٤٨)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٤٢)، مجمع الزوائد للهيثمى (٩/٣٥١).

وجعلت أحب النظر إلى رسول الله ﷺ، إلى أن رأيته خارجًا من باب بنى شيبة يريد منزله بالأبطح، فأردت أن آتيه وآخذ بيده وأسلم عليه فلم يعزم لى على ذلك، وانصرف رسول الله ﷺ راجعًا إلى المدينة، ثم عزم لى على الخروج إليه، فأدلجت إلى بطن يأجج فألقى خالد بن الوليد، فاصطحبنا حتى نزلنا الهدة فما شعرنا إلا بعمرو بن العاص فانقمعنا عنه وانقمع منا، ثم قال: أين يريد الرجلان؟ فأخبرناه فقال: وأنا أريد الذى تريدان.

فاصطحبنا جميعا حتى قدمنا المدينة على رسول الله ﷺ فبايعته على الإسلام وأقمت حتى خرجت معه فى غزوة الفتح ودخل مكة، فقال لى: «يا عثمان، ايت بالمفتاح»، فأتيته به فأخذه منى ثم دفعه إلى وقال : «خذوها تالدة خالدة ولا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف»[1].

قال عثمان: فلما وليت نادانى فرجعت إليه فقال: «ألم يكن الذى قلت لك؟» فذكرت قوله لى قبل الهجرة بمكة: «لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدى أضعه حيث شئت»، فقلت بلى، أشهد أنك رسول الله!

قال الواقدى: فهذا أثبت الوجوه فى إسلام عثمان.

* * *

غزوة بنى لحيان[2]

وخرج رسول الله ﷺ على رأس ستة أشهر من فتح بنى قريظة إلى لحيان يطلبهم بأصحاب الرجيع - خبيب وأصحابه - وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة.

فلما انتهى إلى منازلهم بغران وهو واد بين أمج وعسفان وجدهم قد حذروا وتمنعوا فى رءوس الجبال. فلما أخطأه من غرتهم ما أراد قال: لو أنا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة. فخرج فى مائتى راكب من أصحابه حتى نزل عسفان ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم ثم كرا وراح رسول الله ﷺ قافلا.

(١) انظر الحديث فى: المعجم الكبير للطبرانى (١١/ ١٢٠)، مجمع الزوائد للهيثمى (٣/ ٢٨٥)، الدر المنثور (٢/ ١٧٥)، كنز العمال للمتقى الهندى (٣٤٧٦٦).

(٢) راجع هذه الغزوة فى: طبقات ابن سعد (٢/ ١/ ٥٦)، المغازى للواقدى (٢/ ٥٣٥)، تاريخ الطبرى (٢/ ٥٩٥)، البداية والنهاية (٤/ ٨١).

فكان جابر بن عبد اللـه يقـول: سـمعت رسـول اللـه ﷺ يقـول حين وجـه راجعًا: «آيبون تائبون إن شاء الله، لربنا حامدون، أعوذ بالله مـن وعثـاء السـفر وكآبـة المنقلـب وسوء المنظر فى الأهل والمال»(١).

* * *

غارة عيينة بن حصن على سرح المدينة
وخروج النبى ﷺ فى أثره، وهى غزوة ذى قرد(٢)

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من غزوة بنى لحيـان لـم يقـم بالمدينـة إلا ليـال قلائـل، حتى أغار عيينة بن حصن فى جبل من غطفان على لقاح رسول اللـه ﷺ بالغابـة، وفيهـا رجل من بنى غفار وامرأة له، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة فى اللقاح.

وكان أول من نذر بهـم سـلمة بـن عمـرو بـن الأكـوع الأسـلمى، غـدا يريـد الغابـة متوشحًا سيفه ونبله ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله معه فرس يقوده، حتـى إذا عـلا ثنيـة الوداع نظر إلى بعض خيولهم فأشرف فى ناحية سلع ثم صرخ: واصباحـاه. ثـم خـرج يشد فى آثار القوم وكان مثل السبع، حتى لحق القـوم فجعـل يردهـم بـالنبل ويقـول إذا رمى:

خذهــا وانــا ابــن الأكــوع   اليــوم يــوم الرضــع

فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هاربًا ثم عارضهم فإذا أمكنه الرمى رمى ثم قال:

خذهــا وانــا ابــن الأكــوع   اليــوم يــوم الرضــع

فيقول قائلهم: أأكيعنا هو أول النهار.

وبلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع فصرخ بالمدينة: الفزع الفزع. فـترامت الخيـل إلى رسول الله ﷺ، فكان أول من انتهى إليه من الفرسان المقداد بن عمـرو، وهـو الـذى يقال له: المقداد بن الأسود. ثم كان أول فارس وقف علـى رسـول اللـه ﷺ بعـد المقـداد من الأنصار عباد بن بشر وسعد بن زيد الأشهليان وأسيد بن ظهير الحارثى، يشـك فيـه، وعكاشة بن محصن، ومحرز بن نضلة الأسديان وأبو قتادة السلمى وأبو عياش، الزرقى.

---

(١) انظر الحديث فى: عمل اليوم والليلة لابن السنى (٥٢٥)، مصنـف ابـن أبـى شـيبة (١٢/٥١٩، ٥٢٠).

(٢) راجع هذه الغزوة فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٥٠)، طبقات ابن سعد (٢/٨٠).

فلما اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ أمر عليهم سعد بن زيد وقال: «اخرج فى طلب القوم حتى ألحقك فى الناس»[(١)]. وقال لأبى عياش: «يا أبا عياش لو أعطيت هذا الفرس رجلا هو أفرس منك فلحق بالناس». قال أبو عياش: فقلت: يا رسول الله، أنا أفرس الناس. ثم ضربت الفرس فوالله ما جرى بى خمسين ذراعًا حتى طرحنى، فعجبت أن رسول الله ﷺ يقول: «لو أعطيته أفرس منك» وأقول: أنا أفرس! فأعطى رسول الله ﷺ فرس أبى عياش هذا - فيما زعموا - معاذ ابن ماعص أو عائذ بن ماعص، فكان ثامنًا.

فخرج الفرسان فى طلب القوم حتى تلاحقوا، وكان أول فارس لحق بالقوم محرز بن نضلة الأخرم، ويقال له أيضًا: قمير، ولما كان الفزع جال فرس لمحمود بن مسلمة فى الحائط وهو مربوط بجذع نخل حين سمع صاهلة الخيل، وكان فرسًا صنيعا جاما، فقال بعض نساء بنى عبد الأشهل: يا قمير، هل لك فى أن تركب هذا الفرس فإنه كما ترى، ثم تلحق برسول الله ﷺ وبالمسلمين؟ قال: نعم فأعطينه إياه فخرج عليه فلم يلبث أن بز الخيل بجمامه حتى أدرك القوم، فوقف لهم بين أيديهم ثم قال: قفوا بنى اللكيعة حتى يلحق بكم من وراءكم من المهاجرين والأنصار، وحمل عليه رجل منهم فقتله، وجال الفرس فلم يقدر عليه حتى وقف على أرية فى بنى عبد الأشهل. فقيل: إنه لم يقتل من المسلمين - يومئذ - غيره، وقد قيل: إنه قتل معه وقاص بن محرز المدلجى.

ولما تلاحقت الخيل قتل أبو قتادة حبيب بن عيينة بن حصن وغشاه برده ثم لحق بالناس، وأقبل رسول الله ﷺ فى المسلمين فإذا حبيب مسجى ببرد أبى قتادة، فاسترجع الناس وقالوا: قتل أبو قتادة، فقال رسول الله ﷺ: «ليس بأبى قتادة، ولكنه قتيل لأبى قتادة وضع عليه برده ليعرفوا أنه صاحبه»[(٢)].

وأدرك عكاشة بن محصن أوبارًا وابنه عمرو بن أوبار وهما على بعير واحد فانتظمهما بالرمح فقتلهما جميعًا، واستنقذوا بعض اللقاح.

وسار رسول الله ﷺ حتى نزل بالجبل من ذى قرد وتلاحق به الناس، وأقام عليه يومًا وليلة، وقال له أبو سلمة بن الأكوع: يا سول الله، لو سرحتنى فى مائة رجل لاستنقذت بقية السرح وأخذت بأعناق القوم، فقال له رسول الله ﷺ: «إنهم الآن ليغبقون فى غطفان»[(٣)].

---

(١) انظر الحديث فى: المعجم الكبير للطبرانى (٧/٣٢)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٤٣).
(٢) انظر الحديث فى: المعجم الكبير للطبرانى (٧/٣١)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٤٣).
(٣) انظر الحديث فى: صحيح مسلم فى كتاب الجهاد (٣/١٣٢/١٤٣٣، ١٤٤١).

فقسم رسول الله ﷺ: فى أصحابه فى كل مائة رجل جزورًا. وأقاموا عليها ثم رجع قافلاً إلى المدينة.

وأفلتت ارمأة الغفارى على ناقة من إبل رسول الله ﷺ حتى قدمت عليه فأخبرته الخبر، فلما فرغت قالت: يا رسول الله، إنى قد نذرت لله أن أنحرها إن نجانى الله عليها، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرينها، إنه لا نذر فى معصية الله ولا فيما لا تملكين، إنما هى ناقة من إبلى، ارجعى إلى أهلك على بركة الله»[1].

فهذا حديث ابن إسحاق عن غزوة ذى قرد.

وخرج مسلم بن الحجاج - رحمه الله - حديثًا فى صحيحه بإسناده إلى سلمة بن الأكوع فذكر حديثًا طويلاً خالف به حديث ابن إسحاق فى مواضع منه، فمن ذلك: أن هذه الغزوة كانت بعد انصراف الرسول ﷺ الحديبية، وجعلها ابن إسحاق قبل ذلك، وكذلك فعل ابن عقبة.

وفيه أن سلمة بن الأكوع[2] استنقذ سرح رسول الله ﷺ بجملته، قال سلمة: فوالله مازلت أرميهم وأعقر بهم فإذا رجع إلى فارس أتيت شجرة فجلست فى أصلها ثم رميته فعقرت به حتى إذا تضايق الجبل فدخلوا فى تضايقه علوت الجبل فجعلت أرديهم بالحجارة. قال: فمازلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وزاء ظهرى وخلوا بينى وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة وثلاثين رمحًا يستخفون، ولا يطرحون شيئًا إلا جعلت عليه آرامًا من الحجارة يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه حتى أتوا متضايقًا من ثنية فإذا هم قد أتاهم فلان بن بدر الفزارى، فجلسوا يتضحون - أى يتغدون - وجلست على رأس قرن. قال الفزارى: ما هذا الذى أرى؟ قالوا: لقينا من هذا البرح، والله ما فارقنا منذ غلس يرمينا حتى انتزع كل شىء فى أيدينا. قال فليقم إليه نفر منكم أربعة، قال: فصعد إلى

---

(١) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (١٨٧/٤).

(٢) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٣٣٧٤)، أسد الغابة ترجمة رقم (٢١٥٥)، طبقات ابن سعد (٣٠٥)، طبقات خليفة ترجمة رقم (٦٨٩)، التاريخ الكبير (٦٩/٤)، المعارف (٢١٢)، المعرفة والتاريخ (٣٣٦/١)، مشاهير علماء الأنصار ترجمة رقم (٨٠)، تهذيب الكمال (٥٢٥)، تاريخ الإسلام (١٥٨/٣)، العبر (٨٤/١)، البداية والنهاية (٦/٩)، تهذيب التهذيب (١٥٠/٤)، شذرات الذهب (٨١/١)، تهذيب ابن عساكر (٢٣٢/٦).

منهم أربعة فى الجبل، فلما أمكنونى من الكلام قلت: هل تعرفوننى؟ قالوا: لا، ومن أنت؟ قلت: أنا سلمة بن الأكوع والذى كرم وجه محمد ﷺ لا اطلب رجلاً منكم إلا أدركته ولا يطلبنى فيدركنى. قال أحدهم: أنا أظن ذلك، فرجعوا.

فما برحت مكانى حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر، فإذا أولهم الأخرم الأسدى، على أثره أبو قتادة الأنصارى وعلى أثره المقداد بن الأسود الكندى فأخذت بعنان الأخرم فولوا مدبرين، قلت: ياأخرم احذرهم لا يقتطعونك حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه، قال: يا سلمة، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق والنار حق فلا تحل بينى وبين الشهادة. قال: فخليته فالتقى هو وعبد الرحمن، قال: فعقر بعبد الرحمن فرسه وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحول على فرسه. ولحق أبو قتادة فارس رسول الله ﷺ بعبد الرحمن فطعنه فقتله، فوالذى كرم وجه محمد لتبعتهم أعدو على رجلى حتى ما أرى من ورائى من أصحاب محمد ﷺ ولا غبارهم شيئًا، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له: ذو قرد ليشربوا منه وهم عطاش فنظروا إلى أعدو وراءهم فحلأتهم عنه. فما ذاقوا منه قطرة، ويخرجون فيشتدون فى ثنية فأعدو فألحق منهم فأمكسه بسهم فى نغض كتفه، قلت:

خذها وانا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع

قال: يا ثكلته أمه أأكوعه بكرة؟ قلت: نعم يا عدو نفسه أكوعه بكرة.

قال: وأردوا فرسين على ثنية فجئت بهما أسوقهما إلى رسول الله ﷺ، ولحقنى عامر بسطيحة فيها مذقة من لبن وسطيحة فيها ماء فتوضأت وشربت ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو على الماء الذى حلأتهم عنه قد أخذ تلك الإبل وكل شىء استنقذته من المشركين وكل رمح وكل بردة، وإذا بلال نحر ناقة من الإبل التى استنقذت من القوم، وإذا هو يشتوى لرسول الله ﷺ من كبدها وسنامها، قلت: يا رسول الله، خلنى فأنتحب من القوم مائة رجل فأتبع القوم فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلته. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه فى ضوء النار قال: «يا سلمة، أتراك كنت فاعلاً؟» قلت: نعم، والذى أكرمك، قال: «إنهم الآن ليقرون بأرض غطفان». قال: فجاء رجل من غطفان فقال: نحر لهم فلان جزورًا فلما كشطوا جلدها رأوا غبارًا فقالوا: إياكم القوم فخرجوا هاربين.

فلما أصبحنا قال رسول الله ﷺ: «كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالنا

سلمة». ثم أعطانى رسول الله ﷺ سهمين: سهم الفارس وسهم الراجل فجمعهما لى جميعًا.

وذكر الزبير بن أبى بكر أن رسول الله ﷺ مر فى غزوة قرد هذه على ماء يقال له: بيسان، فسأل عنه فقيل: اسمه يا رسول الله: بيسان وهو مالح. فقال رسول الله ﷺ: «لا، بل اسمه نعمان وهو طيب». فغير رسول الله ﷺ الاسم وغير الله - تعالى - الماء. فاشتراه طلحة بن عبيد الله ثم تصدق به وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «ما أنت يا طلحة إلا فياض». فسمى طلحة الفياض.

وكان مما قيل من الشعر فى يوم ذى قرد قول حسان بن ثابت:

أظن عيينة إذا زارها ... بأن سوف يهدم فيها قصورا

فأكذبت ما كنت صدقته ... وقلتم سنغنم أمرا كبيرا

وولوا سراعا كشد النعام ... ولم يكشفوا عن ملط حصيرا

أمير علينا رسول المليـ ... ـك أحبب بذاك إلينا أميرا

رسول نصدق ما جاءه ... ويتلوا كتابا مضيئا منيرا

وقال كعب بن مالك:

أيحسب أولاد اللقيطة أننا ... على الخيل لسنا مثلهم فى الفوارس

وإنا أناس لا نرى القتل سبة ... ولا ننثنى عند الرماح المداعس

وإنا لنقرى الضيف من قمع الذرى ... ونضرب رأس الأبلخ المتشاوس(١)

نرد كماة المعلمين إذا انتحوا ... بضرب يسلى نخوة المتقاعس

بكل فتى حامى الحقيقة ماجد ... كريم كسرحان الغضاة مخالس

يذودون عن أحسابهم وتلادهم ... ببيض تقد الهام تحت القوانس

فسائل بنى بدر إذا ما لقيتهم ... بما فعل الإخوان يوم التمارس

إذا ما خرجتم فاصدقوا من لقيتم ... ولا تكتموا أخباركم فى المجالس

وقولوا زللنا عن مخالب خادر ... به وحر فى الصدر ما لم يمارس

وقال شداد بن عارض الجشمى فى يوم ذى قرد لعيينة بن حصن وكان عيينة يكنى أبا مالك:

---

(١) القمع: جمع قمعة، وهى أعلى سنام البعير. والذرا: أى الأسنمة. والأبلخ: أى المتكبر. والمتشاوس: هو الذى ينظر بمؤخر عينه نظرة المتكبر.

فهـلا كـررت أبـا مـالك وخيلـك مدبـرة تقتـل
ذكـرت الإيـاب إلى عسـجر وهيهـات قـد بعـد المقفـل[١]
وطمنـت نفسـك ذا ميعـة مسـح الفضـاء إذا يرسـل
إذا قبضتـه إليـك الشـما ل جاش كمـا اضطـرم المرجـل
فلمـا عرفتـم عبـاد الإلـ ـه لـم ينظـر الآخـر الأول
عرفتـم فـوارس قـد عـودوا طـراد الكمـاة إذا أسـهلوا
إذا طـردوا الخيـل تشقى بهـم فضاحـا وإن يطـردوا يـنزلوا
فيعتصمـوا فـى سـواء المقـا م بـالبيض أخلصها الصيقـل[٢]

* * *

غزوة بنى المصطلق

وهى غزوة المريسيع[٣]

وغزا رسول الله ﷺ بنى المصطلق من خزاعة فى شعبان سنة ست، وكـان بلغـه أنهـم يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبى ضرار أبو جويرية زوج النبى ﷺ.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقـال لـه: المريسيع، فتزاحف الناس واقتتلوا، فهزم اللـه بنـى المصطلـق وقتـل مـن قتل منهـم ونفـل رسوله أبناءهم ونساءهم وأموالهم.

وكان شعار المسلمين فى ذلك اليوم: يا منصور أمت أمت.

وأصاب - يومئـذ - رجـل مـن الأنصـار مـن رهـط عبـادة بـن الصـامت رجـلا مـن المسلمين من بنى كلب بن عوف بن عامر بن أمية بن ليث بن بكر يقال لـه: هشـام ابـن صبابة، وهو يرى أنه من العدو فقتله خطأ.

فبينا الناس على ذلك الماء وردت واردة الناس ومـع عمـر بـن الخطـاب أجير لـه مـن غفار يقال له: جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسـنان بـن وبـر الجهنـى حليف بنى عوف بن الخـزرج على المـاء فـاقتتلا، فصـرخ الجهنـى: يـا معشـر الأنصـار.

---

(١) عسجر: موضع بالقرب من مكة. والمقفل: أى الرجوع.

(٢) أخلصها الصقيل: أى أزال ما عليها من الصدأ.

(٣) راجع هذه الغـزوة فـى: المغـازى للواقـدى (٤٠٤/١)، طبقـات ابـن سـعد (٤٥/١/٢)، تـاريخ الطبرى (٥٩٣/٢)، الكامل (٨١/٢)، البداية والنهاية (١٥٦/٤).

وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين. فغضب عبد الله بن أبى بن سلول فقال: أقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش هؤلاء إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، وأما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضره من قومه - وفيهم زيد بن أرقم غلام حدث - فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فمشى زيد بن أرقم إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، وذلك عند فراغه من عدوه، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله. فقال رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، لا ولكن أذن بالرحيل»[١]. وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها.

فارتحل الناس وقد مشى عبد الله بن أبى إلى رسول الله ﷺ حين بلغة أن زيدًا بلغه ما سمع منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به. وكان فى قومه شريفًا عظيمًا، فقال من حضر من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم فى حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل. حدبًا على ابن أبى ودفعًا عنه.

فلما استقل رسول الله ﷺ وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال: يا نبى الله، والله لرحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها. فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟» قال: وأى صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبد الله بن أبى». قال: وما قال؟ قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل»[٢].

قال: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول الله صلى الله عليك ارفق به، فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أن قد استلبته ملكًا!

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليلتهم حتى أصبح، وسار يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نيامًا، وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس ثم راح

---

(١) انظر الحديث فى: مصنف ابن أبى شيبة (١٢/٥٤٠، ١٤/٤٣٢).

(٢) انظر الحديث فى: تفسير الطبرى (٢٨/٧٥).

بالناس، فهبت عليهم ريح شديدة آذتهم وتخوفوها، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخافوها فإنما هبت لموت عظيم من الكفار»[١]. فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت - أحد بنى قينقاع - وكان من عظماء يهود وكهفًا للمنافقين مات ذلك اليوم.

ونزلت السورة التى ذكر الله فيها المنافقين فى عبد الله بن أبى ومن كان على مثل أمره. فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم ثم قال: «هذا الذى أوفى الله بأذنه»[٢].

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبى الذى كان من أمر أبيه، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرنى فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله فأقتل مؤمنًا بكافر فأدخل النار.

فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا»[٣].

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويؤاخذونه ويعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتله يوم قلت لى اقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته»[٤]! فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى.

وقدم مقيس بن صبابة من مكة متظاهرًا بالإسلام، فقال يا رسول الله، جئتك مسلمًا، وجئتك اطلب دية أخى قتل خطأ، فأمر له رسول الله ﷺ بدية أخيه هشام بن صبابة، فأقام عند رسول الله ﷺ غير كثير ثم عدا على قاتل أخيه فقتله. ثم خرج إلى مكة مرتدًا وقال فى شعر له:

شفى النفس أن بات بالقاع مسندا   تضرج ثوبيه دماء الأخادع[٥]

---

(١) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٦١/٤).

(٢) انظر الحديث فى: كنز العمال للمتقى الهندى (٤٤١٣)، سنن الترمذى (٣٣١٣/٥)، فتح البارى لابن حجر (٥١٤/٨).

(٣) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٦٢/٤)، البداية والنهاية لابن كثير (١٥٨/٤).

(٤) انظر الحديث فى: تفسير الطبرى (٧٦/٢٨)، البداية والنهاية لابن كثير (١٥٨/٤).

(٥) تضرج: أى تلطخ. والأخادع: عروق القفا.

وكانت هموم النفس من قبل قتله ... تلم فتحمينى وطاء المضاجع
حللت به وترى وأدركت ثؤرتى ... وكنت إلى الأوثان أول راجع
ثأرت به فهرا وحملت عقله ... سراة بنى النجار أرباب فارع

وقال أيضًا:

جللته ضربة باتت لها وشل ... من ناقع الجوف يعلوه وينصرم
فقلت والموت تغشاه أسرته ... لا تأمنن بنى بكر إذا ظلموا

وأصاب رسول الله ﷺ من بنى المصطلق سبيا كثيرًا، فشا قسمة فى المسلمين، وكان فيمن أصيب - يومئذ - من السبايا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار، فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها.

قال عائشة رضى الله عنها: وكانت - تعنى جويرية - امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه فى كتابتها، فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ما رايت، فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسى، فجئتك أستعينك على كتابتى، قال: «فهل لك فى خير من ذلك؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضى كتابتك وأتزوجك»(١). قالت: نعم يا رسول الله. قال:« قد فعلت»(٢). وخرج الخبر إلى الناس: أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية. فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ. فأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أعتق بتزوجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها.

وبعث إليهم رسول الله ﷺ بعد إسلامهم الوليد بن عقبة بن أبى معيط، فلما سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم هابهم فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره أن القوم هموا بقتله ومنعوه ماقبلهم من صدقتهم، فأكثر المسلمون فى ذكر غزوهم حتى هم رسول

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٦/٢٧٧).

(٢) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٤/٧٨)، المعجم الكبير للطبرانى (٧/٢٠٥)، موارد الظمآن للهيثمى (١٢١٣)، الطبقات الطبرى لابن سعد (٨/٨٣، ١٠٧)، إتحاف السادة المتقين (٥/٤١)، الدر المنثور للسيوطى (١/١٢)، كنز العمال للمتقى الهندى (١١٥٣٠)، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (١/٣٠٦)، البداية والنهاية لابن كثير (٥/٦٤).

الله ﷺ يأن يغزوهم، فبينا هم فى ذلك قدم وفدهم على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك حين بعثته إلينا، فخرجنا إليه لنكرمه ونؤدى إليه ما قبلنا من الصدقة، فانشمر راجعًا، فبلغنا أنه زعم لرسول الله ﷺ أنا خرجنا إليه لنقتله والله ما جئنا لذلك. فأنزل الله فيه وفيهم: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين**﴾ [الحجرات: ٦].

هكذا ذكر ابن إسحاق(١) أن رسول الله ﷺ بعث إلى بنى المصطلق بعد إسلامهم الوليد بن عقبة ولم يعين مدة توجيهه إياه إليهم، وقد يوهم ظاهره أن ذلك كان بحدثان إسلامهم، ولا يصح ذلك، إذ الوليد من مسلمة الفتح، وإنما كان الفتح فى سنة ثمان بعد غزوة بنى المصطلق وإسلامهم بسنتين، فلا يكون هذا التوجيه إلا بعد ذلك ولا بد.

وقد قال أبو عمر بن عبد البر: لا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أن قوله عز وجل: ﴿**إن جاءكم فاسق بنبأ**﴾ نزلت فى الوليد بن عقبة حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى المصطلق مصدقًا، والله سبحانه أعلم.

وأقبل رسول الله ﷺ من سفره ذلك حتى إذا كان قريبًا من المدينة قال: «أهل الإفك فى الصديقة المبرأة المطهرة عائشة بنت الصديق، رضى الله عنهما، ما قالوا».

فحدثت - يرحمها الله - قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه. فلما كانت غزوة بنى المصطلق أقرع بين نسائه كما كان يصنع فخرج سهمى عليهن معه فخرج بى ﷺ. قالت: وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العلق لم يهبجهن اللحم فيثقلن، وكنت إذا رُحّل لى بعيرى جلست فى هودجى ثم يأتى القوم الذين يرحلون لى ويحملوننى فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير فيشدونه بحباله ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به.

فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك وجه قافلاً حتى إذا كان قريبًا من المدينة نزل منزلاً فبات به بعض الليل ثم أذن فى الناس بالرحيل، فارتحل الناس وخرجت لحاجتى وفى عنقى عقد لى فيه جزع ظفار فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده وقد أخذ الناس فى الرحيل، فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته، وجاء خلافى القوم الذين كانوا يرحلون لى البعير وقد فرغوا من رحلته فأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه كما

---

(١) انظر: السيرة (٣/٢٦٩).

كنت أصنع، فاحتملوه فشدوه على البعير ولم يشكوا أنى فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به، ورجعت إلى العسكر وما فيه داع ولا مجيب قد انطلق الناس، قالت: فتلففت بجلبابى ثم اضطجعت فى مكان وعرفت أنه لو قد افتقدت لرجع إلى.

فوالله إنى لمضطجعة إذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى، وكان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس، فرأى سوادى، فأقبل حتى وقف على، وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رآنى قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ظعينة رسول الله ﷺ! وأنا متلففة فى ثيابى. قال: ما خلفك، رحمك الله؟ قالت: فما كلمته، ثم قرب البعير فقال: اركبى. واستأخر عنى، فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعًا يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت، ونزل الناس فلما اطمأنوا طلع الرجل يقودنى، فقال أهل الإفك ما قالوا. فارتعج العسكر، والله ما أعلم بشىء من ذلك.

ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن اشتكيت شكوًا شديدًا لا يبلغنى من ذلك شىء وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبوى لا يذكرون لى منه قليلاً ولا كثيرًا، إلا أنى قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بى، كنت إذا اشتكيت رحمنى ولطف لى فلم يفعل ذلك فى شكوى ذلك فأنكرت ذلك منه، كان إذا دخل على وعندى أمى تمرضنى قال: كيف تيكم، لا يزيد على ذلك حتى وجدت فى نفسى حين رأيت من جفائه لى. فقلت: يا رسول الله لو أذنت لى فانتقلت إلى أمى فتمرضنى؟ قال: «لا عليك».

فانتقلت إلى أمى ولا علم لى بشىء مما كان، حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة، وكنا قومًا عربًا لا نتخذ فى بيوتنا هذه الكنف التى تتخذ الأعاجم نعافها ونكرهها، إنما كنا نذهب فى فسح المدينة، وإنما كان النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهن، فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى أم مسطح بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف، وكانت أمها خالة أبى بكر الصديق، فوالله إنها لتمشى معى إذ عثرت فى مرطها فقالت: تعس مسطح. قلت: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرًا. قالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر؟ قلت: وما الخبر؟ فأخبرتنى بالذى كان من قول أهل الإفك. قلت: أوقد كان هذا؟ قالت: نعم والله لقد كان.

فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى ورجعت، فوالله مازلت أبكى حتى ظننت

أن البكاء سيصدع كبدى. وقلت لأمى: يغفر الله لك! تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئًا؟ قالت: أى بنية خفضى عليك الشأن، فوالله لقل ما كنت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها.

قالت: وقد قام رسول الله ﷺ فى الناس فخطبهم ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرًا، وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى». قالت: وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبى فى رجال من الخزرج مع الذى قال مسطح وحمنة بنت جحش، وذلك أن أختها زينب كانت عند رسول الله ﷺ ولم يكن من نسائه امرأة تناصينى فى المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيرًا، وأما حمنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضادنى لأختها، فشقيت بذلك.

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة قال أسيد بن خضير: يا رسول الله، إن يكونوا من الأوس نكفكهم وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرك فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم. فقام سعد بن عبادة فقال: كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا. فقال أسيد: كذبت لعمر الله ولكنك منافق تجادل عن المنافقين. قالت: وتثاور الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر.

ونزل رسول الله ﷺ فدعا على بن أبى طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى خيرًا، ثم قال: يا رسول الله، أهلك ولا نعلم منهم إلا خيرًا، وهذا الكذب والباطل. وأما على فإنه قال: يا رسول الله، إن النساء لكثير وإنك لتقدر أن تستخلف، وسل الجارية فإنها ستصدقك. فدعا رسول الله ﷺ بريرة ليسألها، فقام إليها على فضربها ضربًا شديدًا ويقول: اصدقى رسول الله ﷺ، فتقول: والله ما أعلم إلا خيرًا، وما كنت أعيب على عائشة شيئًا إلا أنى كنت أعجن عجينى فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكله.

قالت: ثم دخل على رسول الله ﷺ وعندى أبواى وعندى امرأة من الأنصار فأنا أبكى وهى تبكى معى، فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس، فاتقى الله وإن كنت قارفت سوءًا مما يقول الناس فتوبى إلى الله

فإن يقبل التوبة عن عباده»[1]. قالت: فوالله إن هو إلا أن قال لى ذلك فقلص دمعى حتى ما أحس منه شيئًا. وانتظرت أبوى أن يجيبا رسول الله ﷺ فلم يتكلما.

قالت: وأيم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأنا من أن ينزل الله فى قرآنا يقرأ به فى المسجد ويصلى به، ولكنى كنت أرجوا أن يرى رسول الله ﷺ فى منامه شيئًا يكذب الله به عنى لما يعلم من براءتى أو يخبر خبرًا، فأما قرآن ينزل فى فوالله لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك.

قالت: فلما لم أرى أبوى يتكلمان قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ؟ فقالا: والله ما ندرى بماذا نجيبه. قالت: ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام. قالت: فلما استعجما على استعبرت فبكيت ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدًا، والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أنى منه بريئة لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى، ثم التمست اسم يعقوب فما أذكره فقلت: ولكنى سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿**فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون**﴾ [يوسف: ١٨].

قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه، فسجى بثوبه ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فرغت ولا باليت، قد عرفت أنى بريئة وأن الله غير ظالمى، وأما أبواى فوالذى نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس. ثم سرى عن رسول الله ﷺ، فجلس وإنه ليتحدر منه مثل الجمان وفى يوم شات، فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول: «أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله براءتك»[2] قلت: بحمد الله.

ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن فى ذلك ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش وحسان بن ثابت، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم.

قالت: فلما نزل القرآن ذكر من قال من الفاحشة ما قال من أهل الإفك فقال: ﴿**إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرًا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء**

---

(١) انظر الحديث فى: فتح البارى لابن حجر (٨/٤٧٥)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٦٣).
(٢) انظر الحديث فى: سنن أبى داود (٤/٤٧٣٥)، سنن الترمذى (٥/٣١٨٠).

منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ [النور: ١١] قيل: إنه حسان بن ثابت وأصحابه، ويقال: عبد الله بن أبى وأصحابه.

ثم قال: **﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا وقالوا هذا إفك مبين﴾** أى هلا قلتم إذ سمعتموه كما قال أبو أيوب الأنصارى وصاحبته أم أيوب، وذلك أنها قالت لزوجها: يا أبا أيوب، ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟ قال: بلى وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلته؟ قال: لا والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك.

ثم قال تعالى: **﴿إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم﴾**.

فلما نزل هذا فى عائشة وفيمن قال لها ما قال قال أبو بكر - رحمه الله وكان ينفق على مسطح لقرابته وحاجته: والله لا أنفق على مسطح أبدًا ولا أنفعه بنفع أبدًا بعد الذى قال لعائشة وادخل علينا. قالت: فأنزل الله فى ذلك **﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾** [النور:٢٢] قالت: فقال أبو بكر: بلى، والله إنى لأحب أن يغفر الله لى فرجع إلى مسطح نفقته التى كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا.

وذكر ابن إسحاق[١]: أن حسان بن ثابت مع ما كان منه فى صفوان بن المعطل من القول السيء قال مع ذلك شعرًا يعرض فيه بصفوان ومن أسلم من مضر يقول فيه:

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا ... وابن الفريعة أمسى بيضة البلد

فلما بلغ ذلك ابن المعطل اعترض حسان بن ثابت فضربه بالسيف ثم قال:

تلق ذباب السيف عنى فإننى ... غلام إذا هوجيت لست بشاعر

فوثب عند ذلك ثابت بن قيس بن شماس على صفوان فجمع يديه إلى عنقه بحبل ثم انطلق به إلى دار بنى الحارث بن الخزرج، فلقيه عبد الله بن رواحة فقال: ماهذا؟ قال: أما أعجبك ضرب حسان بالسيف؟ والله مأراه إلا قد قتله. فقال له ابن رواحة: هل علم رسول الله ﷺ بشىء مما صنعت؟ قال: لا والله. قال: لقد اجترأت، أطلق الرجل. فأطلقه.

---

(١) انظر السيرة (٢٧٨/٣).

ثم أتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك لـه، فدعـا حسـان وصفوان، فقـال صفوان: يـا رسول الله، آذانى وهجانى فاحتملنى الغضب فضربته. فقال رسول الله ﷺ لحسـان: «يـا حسان، أتشوهت على قومى أن هداهم الله للإسلام؟» ثم قـال: «أحسـن يـا حسـان فـى الذى أصابك»[1]. قال: هى لك. فأعطاه رسول الله ﷺ عوضًا منها بئر «حاء» ماء كـان لأبى طلحة بالمدينة فتصدق به إلى رسول الله ﷺ ليضعه حيث شـاء فأعطـاه حسـان فـى ضربته، وأعطاه «سيرين» أمة قبطية ولدت له ابنه عبد الرحمن.

وقد روى من وجوه أن إعطاء رسول الله ﷺ إياه سيرين إنمـا كـان لذبـه بلسـانه عـن النبى ﷺ. والله تعالى أعلم.

وكانت عائشة - رحمها الله - تقول: لقد سئل عن ابن المعطـل فوجـدوه حصـورًا لا يأتى النساء ثم قتل بعد ذلك شهيدًا.

وقال بعد ذلك حسان يمدح عائشة - رضى الله عنها - ويعتذر من الـذى كـان فـى شأنها:

حصـان رزان مـا تـزن بريبـة ... وتصبح غرثـى مـن لحـوم الغوافـل[2]
عقيلـة حـى مـن لـؤى بـن غـالب ... كـرام المسـاعى مجدهـم غـير زائـل
مهذبـة قـد طيـب اللـه جنبهـا ... وطهرهـا مـن كـل سـوء وبـاطل
فإن كنت قد قلت الذى قـد زعمتـم ... فـلا رفعـت سـوطى إلى أنـاملى
وكيـف وودى مـا حييت ونصرتـى ... لآل رسـول اللـه زيـن المحـافل
لـه رتـب عـال علـى النـاس كلهـم ... تقـاصر عنـه سـورة المتطـاول
فـإن الـذى قـد قيـل ليس بـلائط ... ولكنـه قـول امـرئ بـى ماحـل

وقال قائل من المسلمين فى ضرب حسان وصاحبيه فى فريتهـم علـى عائشـة رضـى الله عنها:

لقـد ذاق حسـان الـذى كـان أهلـه ... وحمنـة إذ قـالوا هجـيرا ومسـطح
تعـاطوا برجـم الغيـب زوج نبيهـم ... وسخطة ذى العرش الكريم فـأترحوا
وآذوا رسـول اللـه فيهـا فجللـوا ... مخـازى تبقـى عمومهـا وفضحـوا

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (١٦٣/٤)، مجمع الزوائد للهيثمى (٢٣٤/٩).

(٢) الحصان: أى العفيفـة. والـرزان: أى الملازمـة موضعهـا. ومـا تـزن: أى مـا تتهـم. وغرثـى: أى جائعة.

وصبت عليهم محصدات كأنها شآبيب قطر من ذرى المزن تسفح

وقد ذكر أبو عمر بن عبد البر الحافظ أن قومًا أنكروا أن يكون حسان خاض فى الإفك أو جلد فيه، ورووا عن عائشة - رحمها الله - أنها برأته من ذلك، ثم ذكر عن الزبير بن بكار وغيره أن عائشة كانت فى الطواف مع أم حكيم بنت خالد بن العاص وابنة عبد الله بن أبى ربيعة، فتذاكرن حسان فابتدرتاه بالسب فقالت لهما عائشة: ابن الفريعة تسبان! إنى لأرجوا أن يدخله الله الجنة بذبه عن النبى ﷺ بلسانه، أليس القائل:

هجوت محمدًا فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

فإن أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

فقالتا لها: أليس ممن لعنه الله فى الدنيا والآخرة بما قال فيك؟ قلت: لم يقل شيئًا، ولكنه القائل:

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فإن كان ما قد قيل عنى قلته فلا رفعت سوطى إلى أناملى

* * *

غزوة الحديبية

وخرج رسول الله ﷺ فى ذى القعدة من سنة ست معتمرًا لا يريد حربًا، واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ليخرجوا معه، وهو يخشى من قريش الذى صنعوا، أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت.

فأبطأ عليه كثير من الأعراب، وخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلم أنه إنما خرج زائرًا لهذا البيت ومعظمًا له.

حتى إذا كان بعسفان لقيه بسر بن سفيان الكعبى[1] فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدًا وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم. فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم

(١) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٦٤٦)، أسد الغابة ترجمة رقم (٤١١)، تجريد أسماء الصحابة (٤٨/١)، الوافى بالوفيات (١٣٣/١٠)، العقد الثمين (٣٦٧/٩)، تقريب التهذيب (٩٥/٢، ١٦٠، ٢٩٤/٤).

لو خلوا بينى وبين سائر العرب فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة؛ فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة»[١].

ثم قال: «من رجل يخرج بنا على غير طريقهم؟»[٢] فقال رجل من أسلم: أنا، فسلك بهم طريقًا وعرًا أجرل بين شعاب، فلما خرجوا منه وقد شق عليهم وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادى قال رسول الله ﷺ: «قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه». فقالوا ذلك، فقال: «والله إنها للحطة التى عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها»[٣].

فأمر رسول الله ﷺ الناس فقال: «اسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمص فى طريق تخرج على ثنية المرار[٤]»، فهبط الحديبية من أسفل مكة. فسلك الجيش ذلك الطريق، فلما رأت خيل قريش هدة الجيش قد خالفوا عن طريقهم وكفوا راجعين إلى قريش، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك فى ثنية المرار بركت ناقته، فقال الناس: خلأت. فقال: «ما خلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسلون فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها[٥]»، ثم قال للناس: «انزلوا». قيل: يا رسول الله، ما بالوادى ماء ننزل عليه. فأخرج ﷺ سهما من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل فى قليب من تلك القلب، فغرزه غى جوفه فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بديل بن ورقاء فى رجال من خزاعة فكلموه وسألوه ما الذى جاء له، فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربًا وإنما جاء زائرًا للبيت ومعظمًا لحرمته، ثم قال لهم نحوًا قال لبسر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: إنكم تعجلون على محمد، إن محمدًا لم يأت لقتال إنما جاء زائرًا لهذا البيت. فاتهموهم وجبهوهم وقالوا: إن كان جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدًا ولا تحدث بذلك عنا العرب.

ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف أخا بنى عامر بن لؤى، فلما رآه رسول

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣٢٣/٤)، كنز العمال للمتقى الهندى (١١٣٠٧)، تفسير ابن كثير (٣٢٨/٧)، البداية والنهاية لابن كثير (١٦٥/٤).

(٢) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (١٦٥/٤).

(٣) انظر الحديث السابق.

(٤) ثنية المرار: حشيشة مرة إذا أكلتها الإبل قلصت مشافرها.

(٥) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣٢٣/٤)، البداية والنهاية لابن كثير (١٦٥/٤).

الله ﷺ مقبلاً قال: «هذا رجل غادر»[١]. فلما انتهى إليه وكلمة قال له رسول الله ﷺ نحوًا مما قال لبديل وأصحابه. فرجع إلى قريش فأخبرهم. ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زبان، أحد بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة - وكان يومئذ سيد الأحابيش - فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه»[٢]. فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظامًا لما رأى؛ فقال لهم ذلك، فقالوا له: اجلس. فإنما أنت أعرابى لا علم لك؛ فغضب الحليس عند ذلك وقال: يا معشر القوم، والله ما على هذا حالفناكم وما على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظمًا له؟! والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد. فقالوا له: كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفى فقال: يا معشر قريش إنى قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفت أنكم والد وأنى ولد - وكان لسبيعة بنت عبد شمس - وقد سمعت بالذى نابكم فجمعت من أطاعنى من قومى ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى. قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم. فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال: يا محمد، أجمعت أوشاب الناس ثم جئت إلى بيتك لتقضهابهم؟! إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدًا، وأيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك. فرد عليه أبو بكر الصديق - رضى‌الله عنه - وقال: أنحن ننكشف عنه! ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو كلمة والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله فى الحديد، فجعل يقرع يده إذا فعل ذلك ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك. فيقول عروة: ويحك ما أفظك وأغلظك. فتبسم رسول الله ﷺ. فقال: من هذا يا محمد؟ قال: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة»[٣]. قال: أى غدر هل غسلت سوءتك إلا بالأمس! يريد أن المغيرة

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٤/٣٢٤)، تفسير ابن كثير (٧/٣٢٨)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٦٦).

(٢) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٦٦).

(٣) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٤/٣٢٤)، المطالب العالية لابن حجر (٤٣٤٧)، تفسير ابن كثير (٧/٣٢٩).

كان قتل قبل إسلامه ثلاثة عشر رجلاً من ثقيف فتهايج الحيان من ثقيف بنو مالك رهط المقتولين والأحلاف رهط المغيرة، فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح ذلك الأمر.

وكلم رسول الله ﷺ عروة بنحو مما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حربًا حربًا فقام من عنده وقد رأى ما يصنع به أصحابه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقا إلا ابتدروه ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إنى قد جئت كسرى فى ملكة وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه، وإنى والله ما رأيت ملكًا فى قوم قط مثل محمد فى أصابه! ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشيء أبدًا فروا رأيكم.

ودعا رسول الله ﷺ خراش بن أمية الخزاعى[1] فحمله على بعير له وبعثه إلى قريش ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به الجمل وأرادوا قتله فمنعته الاحابيش، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ.

وبعثت قريش أربعين رجلاً أو خمسين وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحدًا، فأخذوا أخذًا، فأتى بهم رسول الله ﷺ فخلى سبيلهم.

ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال: يا رسول الله، إنى أخاف قريشًا على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى: عثمان بن عفان.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه جاء زائرًا لهذا البيت ومعظمًا لحرمته؛ فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره.

وقال له فيما ذكره غير ابن إسحاق: أقبل وأدبر ولا تخف أحدًا بنو سعيد أعزة الحرم.

فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا له حين فرغ: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. قال: ما كنت لأفعل

(١) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٢٢٣٨)، أسد الغابة ترجمة رقم (١٤٢٨)، الثقات (١٠٧/٣)، الطبقات الكبرى (١٣٩/٤)، تجريد أسماء الصحابة (١٥٧/١)، المغازى للواقدى (٦٠٠)، الجرح والتعديل (٣٩٢/٣)، تاريخ الطبرى (٦٣١/٣)، الوافى بالوفيات (٣٠١/١٣).

حتى يطوف به رسول الله ﷺ. فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، فقال حين بلغه ذلك: «لا نبرح حتى نناجز القوم»[١].

ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم على الموت. وكان جابر يقول: بايعنا على ألا نفر.

فبايع رسول الله ﷺ الناس ولم يختلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس لصق بإبط ناقته يستتر بها من الناس.

ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى كان من أمر عثمان باطل. وقد كان رسول الله ﷺ بايع لعثمان: ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال: «هذه يد عثمان».

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو وقالوا: إيت محمدًا فصالحه ولا يكون فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبدًا.

فأتى سهيل، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل»[٢].

فلما انتهى إليه سهيل تكلم فأطال الكلام وتراجعًا، ثم جرى بينهما الصلح.

فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى. قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى. قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطى الدنية[٣] فى ديننا! قال أبو بكر: يا عمر، الزم غرزه فإنى أشهد أنه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ألست برسول الله؟ قال: «بلى». قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى». قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى»[٤]. قال: فعلام

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (١٦٧/٤).
(٢) انظر الحديث فى: السنن الكبرى للبيهقى (٢٢١/٩)، دلائل النبوة للبيهقى (١٤٥/٤).
(٣) الدنية: الذل والصغار والخسيس من الأمر.
(٤) انظر الحديث فى: صحيح مسلم (١٤١٢، ٢١٥١)، السلسلة الصحيحة للألبانى (٣١٣)، صحيح البخارى (٢٦/٤، ١٢٥)، المعجم الكبير للطبرانى (١٠٩/٦، ٢٧٥/٨)، مجمع الزوائد للهيثمى (٣١٢/٣، ٦٧/٥)، كنز العمال للمتقى الهندى (١٧٩٠٥، ٢٩٩٩٣، ٣٠١٥٤، ٣٧١٥٥)، فتح البارى لا بن حجر (٨/٧)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٠/١/١).

نعطى الدنية فى ديننا؟! قال: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى»[(١)]. فكان عمر يقول: مازلت أتصدق واصوم واصلى وأعتق من الذى صنعت - يومئذ - مخافة كلامى الذى تكلمت به حين رجوت أنه يكون خيرًا.

ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم»[(٢)]، فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم. فقال رسول الله ﷺ: «اكتب باسمك اللهم»[(٣)]. فكتبها ثم قال: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو». فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال رسول الله ﷺ: «اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو. اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال[(٤)]، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه»[(٥)].

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن فى عقد محمد وعهده. وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن فى عقد قريش وعهدهم.

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٢٠١/٥)، صحيح مسلم فى كتاب النكاح (١٣٥)، السنن الكبرى للبيهقى (٢٢٩/٧)، التاريخ الكبير للبخارى (٢١٧/٣)، تفسير ابن كثير (٦٩/٤، ٣٣٠/٧)، زاد المسير لابن الجوزى (٤٢٥/٧)، موارد الظمآن للهيثمى (١٣٠٥، ١٧٠٥، ٢١٢٨)، البداية والنهاية لابن كثير (٣٥٦/٤)، الطبقات الكبرى لابن سعد (١٠٩/١/٢، ١١٣).

(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٢٦٨/٣، ٨٦/٤، ٣٢٥، ٣٣٠)، السنن الكبرى للبيهقى (٢٢٠/٩، ٢٢٧)، مصنف عبد الرزاق (٩٧٢٠)، مجمع الزوائد للهيثمى (١٤٥/٦، ١٤٦)، تفسير ابن كثير (٣٦/١، ٣٢٤/٧)، تفسير الطبرى (٥٩/٢٦، ٦٣)، فتح البارى لابن حجر (٥٠٢/٧)، كنز العمال للمتقى الهندى (١٦٢٧، ٣٠١٥١، ٣٠١٥٤)، البداية والنهاية لابن كثير (١٧٥/٤).

(٣) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٨٦/٤، ٣٢٥، ٣٣٠)، تفسير ابن كثير (٣٢٤/٧)، تفسير الطبرى (٢٦، ٥٩، ٦٣)، فتح البارى لابن حجر (٣٣١/٥، ٥٠٢/٧)، كنز العمال للمتقى الهندى (٣٠١٥٤).

(٤) الأسلال: أى السرقة الخفية. والأغلال: أى الخيانة.

(٥) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣٤٢/١، ٨٧/٤)، تفسير الطبرى (١٠١/١٣).

«وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب: السيوف فى القرب لا تدخلها بغيرها».

فبينا رسول الله يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل ابن عمرو يرسف[1] فى الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ.

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون فى الفتح لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما يحمل عليه رسول الله ﷺ فى نفسه دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون.

فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبة ثم قال: يا محمد، قد لجت القضية بيتى وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: صدقت. فجعل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى؟! فزاد الناس ذلك إلى ما بهم.

فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدرهم»[2].

فوثب عمر بن الخطاب مع أبى جندل يمشى إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب! - ويدنى قائم السيف منه - يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضن الرجل بأبيه ونفذت القضية.

فلما فرغ من الكتاب اشهد رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين، أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد ابن أبى وقاص ومحمود بن مسلمة، ومكرز بن حفص وهو مشرك وعلى بن أبى طالب وهو كان كاتب الصحيفة.

وكان رسول الله ﷺ مضطربًا فى الحل وكان يصلى فى الحرم، فلما فرغ من الصلح

---

(١) انظر ترجمته فى: الثقات (٥/٥٦٨)، الإصابة ترجمة رقم (٩٦٩٩)، أسد الغابة ترجمة رقم (٥٧٧٥).

(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٤/٣٢٥)، تفسير ابن كثير (٧/٣٣٠)، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٧/١٣٥)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٦٩).

قام إلى هديه فنحره ثم جلس فحلق رأسه وأهدى عامئذ فى هداياه جملا لأبى جهل فى رأسه برة من فضة ليغيظ بذلك المشركين. فلما رآه الناس قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون، وكان فيهم - يومئذ - من قصر فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «يرحم الله المحلقين». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «يرحم الله المحلقين»[(١)]. قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصرين»[(٢)]. فقالوا: يا رسول الله، فلم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: «لم يشكوا»[(٣)].

ثم انصرف رسول الله ﷺ من جهه ذلك قافلاً، حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح: ﴿**إنا فتحنا لك فتحًا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيمًا**﴾.

ثم ذكر القصة فيه وفىَ أصحابه، حتى إذا انتهى إلى ذكر البيعة فقال: ﴿**إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا**﴾. ثم ذكر من تخلف عنهم من الأعراب فاستوفى قصتهم. ثم قال: ﴿**لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبًا ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزًا حكيمًا وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطًا مستقيمًا وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديرًا**﴾. ثم قال: ﴿**وهو**

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣٥٣/١، ١٦/٢، ٧٠/٤، ٤٠٢/٦)، السنن الكبرى للبيهقى (١٣٤/٥)، مشكل الآثار للطحاوى (١٤٤/٢)، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (١٠١/٢)، كنز العمال للمتقى الهندى (١٢٧٣٨، ١٢٧٣٩)، البداية والنهاية لابن كثير (١٦٩/٤، ١٨٩/٥)، مصنف ابن أبى شيبة (٤٥٢/١٤، ٤٥٣)، دلائل النبوة للبيهقى (١٥١/٤).

(٢) انظر الحديث فى: صحيح مسلم (٩٤٥، ٦٤٩)، سنن الترمذى (٩١٢)، سنن ابن ماجه (٣٠٤٤)، مسند الإمام أحمد (٢٥٣/١، ٧٩/٢، ١٣٨، ٢٣١، ٤١١، ٧٠/٤، ٣٨١/٥، ٣٩٣/٦، ٤٠٢)، سنن الدارمى (٦٤/٢)، مصنف ابن أبى شيبة (٤٥٢/١٤، ٤٥٣)، موطأ مالك (٣٩٥)، دلائل النبوة للبيهقى (١٥١/٤)، المعجم الكبير للطبرانى (٢٧٥/١٩)، شرح السنة للبغوى (٢٠٢/٧).

(٣) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣٥٣/١).

الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعلمون بصيرًا﴾، يعنى النفر الذين وجهت قريش بهم ليصيبوا من أصحاب رسول الله ﷺ أحدًا فلم ينالوا شيئًا وأخذوا لرسول الله ﷺ بجملتهم وسيقوا إليه فخلى سبيلهم.

ثم قال بعد: **﴿إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾** يعنى سهيل ابن عمرو حين حمى أن يكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. وأن محمدًا رسول الله: **﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها﴾**، أى التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبد ورسوله.

ثم قال: **﴿لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا﴾** أى لرؤيا رسول الله ﷺ التى رأى أنه سيدخل مكة آمنا لا يخاف. وقد قال لرسول الله ﷺ لما قدم المدينة بعض من كان معه: ألم تقل يا رسول الله أنك تدخل مكة آمنًا؟ قال: «بلى»، قال: «أفقلت لكم من عامى هذا؟» قالوا: لا. قال: «فهو كما قال لى جبريل»[1] فحقق له سبحانه من موعده ما أنجزه له بعد وصدقه بقوله جل قوله: **﴿لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين﴾** معه **﴿فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحًا قريبًا﴾** صلح الحديبية.

يقول الزهرى: فما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس كلهم بعضهم بعضا والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، فلقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر.

قال ابن هشام[2]: والدليل على ما قال الزهرى أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمائة فى قول جابر بن عبد الله ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف.

وذكر ابن عقبة أنه لما كان صلح الحديبية قال رجال من أصحاب رسول الله ﷺ: ما هذا بفتح، لقد صددنا عن البيت وصد هدينا. فبلغ رسول الله ﷺ قول أولئك فقال:

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٤/٣٣١)، تفسير ابن كثير (٨/١٢٠).

(٢) انظر السيرة (٣/٢٩٦).

«بئس الكلام هذا، بل هو أعظم الفتوح، قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردكم سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتوح، أتنسون يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم؟! أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا؟»(١) فقال المسلمون: صدق الله ورسوله فهو أعظم الفتوح، والله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وأمره منا.

وفى الصحيح من حديث سهل بن حنيف أنه قال يوم صفين: يا أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم، فلقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته والله ورسوله أعلم.

وخرج البخارى من حديث البراء بن عازب قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكه فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة والحديبية بئر، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك النبى ﷺ فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم مضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا.

وعن سالم بن أبى الجعد عن جابر بن عبد الله قال: عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ منها ثم أقبل الناس نحوه فقالوا: يا رسول الله، ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا يشرب إلا ما فى ركوتك. قال: فوضع النبى ﷺ يده فى الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون. قال: فشربنا وتوضانا؛ فقلت لجابر كم كنتم يومئذ؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة(٢).

---

(١) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٤/١٦٠)، الدر المنثور للسيوطى (٦/٦٨).

(٢) الحديث عن نبع الماء من بين أصابع النبى ﷺ وانبجاسه وتدفقه وفورانه متعدد المواضع لتكرر حدوثه، وهو محكى فى البخارى الصحيح ج١ ص٨٩، ١٠٠، ١٠٢ (كتاب الوضوء)، ج٥ ص٣٥، ٣٦، ٣٨ (كتاب المناقب)، ج٥ ص٢٦٠، (باب غزوة الحديبية)، مسلم. الجامع الصحيح ج٢ ص١٣٨ - ١٤١ (كتاب المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها)، ج٧ ص٥٩ (كتاب الفضائل، باب معجزات النبى ﷺ)، ج٨ ص٢٣٥، ٢٣٦ (كتاب الزهد والرقائق، حديث جابر الطويل وقصة أبى اليسر). وراجع: ابن جماعة، المختصر الصغير (ص ٦٠).

وذكر ابن عقبة عن ابن عباس قال: لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كلمة بعض أصحابه فقالوا: جهدنا وفى الناس ظهر فانحروه لنا فلنأكل من لحومه ولندهن من شحومه ولنحتذ من جلوده. فقال عمر: لا تفعل يا رسول الله، فإن الناس إن يكن فيهم بقية ظهر أمثل. فقال رسول الله ﷺ: «ابسطوا أنطاعكم وعباءكم»[(١)] ففعلوا، ثم قال: «من كان عنده بقية من زاد وطعام فلينثره» ودعا لهم، ثم قال لهم: «قربوا أوعيتكم»[(٢)]. فأخذوا ما شاءوا.

قال ابن إسحاق[(٣)]: ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة - يعنى من الحديبية - أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد بن حارثة[(٤)] - وكان ممن حبس بمكة - فكتب فيه أزهر بن عبد عوف والأخنس بن شريق إلى رسول الله ﷺ وبعثا رجلاً من بنى عامر بن لؤى ومعه مولى لهم، فقدما على رسول الله ﷺ بالكتاب، فقال ﷺ: «يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا»[(٥)].

فانطلق معهما حتى إذا كان بذى الحليفة جلس إلى جدار وجلس معه صاحباه، فقال أبو بصير. أصارم سيفك هذا يا أخا بنى عامر؟ فقال: نعم. قال أنظر إليه قال: إن شئت فاستله أبو بصير ثم علاه به حتى قتله.

وذكر ابن عقبة أن الرجل هو الذى سل سيفه ثم هزه فقال: لأضربن بسيفى هذا فى الأوس والخزرج يومًا إلى الليل، فقال له أبو بصير: وصارم سيفك هذا؟ فقال: نعم. فقال: ناولنيه أنظر إليه؛ فناوله إياه، فلما قبض عليه ضربه به حتى برد. قال: ويقال: بل تناول أبو بصير سيف الرجل بفيه وهو نائم فقطع إساره ثم ضربه به حتى برد، وطلب الآخر، فجمز مرعوبًا مستخفيا حتى دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس فيه يطن الحصباء من شدة سعيه، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعرًا». قال ابن

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣٥٤/٥)، دلائل النبوة للبيهقى (١١٦/٤)، إتحاف السادة المتقين للزبيدى (٤٧٩/٥)، فتح البارى لابن حجر (٤٦/٨).

(٢) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (١١٩/٤).

(٣) انظر السيرة (٢٩٦/٣).

(٤) انظر ترجمته فى: الإصابة ترجمة رقم (٩٦٣٣)، أسد الغابة ترجمة رقم (٥٧٣٤).

(٥) انظر الحديث فى: السنن الكبرى للبيهقى (٢٢٧/٩).

إسحاق: فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال: «ويحك مالك؟»[١] قال: قتل صاحبكم صاحبى.

فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحًا السيف فقال: يا رسول الله، وفت ذمتك وأدى الله عنك، أسلمتنى بيد القوم وقد امتنعت بدينى أن أفتن فيه أو يعبث بى. فقال رسول الله ﷺ: «ويلمه محش حرب[٢] لو كان معه رجال»[٣].

ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص من ناحية المروة على ساحل البحر بطريق قريش التى كانوا يأخذوا إلى الشام، وبلغ المسلمين الذين كانوا احتسبوا بمكة قول رسول الله ﷺ لأبى بصير: «ويلمه محش حرب لو كان معه رجال» فخرجوا إلى أبى بصير بالعيص، فاجتمع إليه قريب من سبعين رجلا منهم.

وذكر موسى بن عقبة أن أبا جندل بن سهيل بن عمرو الذى رد على قريش مكرها يوم القضية هو الذى انفلت فى سبعين راكبًا أسلموا وهاجروا فلحقوا بأبى بصير وكرهوا الثواء بين أظهر قومهم، فنزلوا مع أبى بصير فى منزل كريه إلى قريش فقطعوا مادتهم من طريق الشام. قال: وكان أبو بصير - زعموا - وهو فى مكانه ذلك يصلى لأصحابه، فلما قدم عليهم أبو جندل كان هو يؤمهم.

واجتمع إلى أبى جندل ناس من غفار وأسلم وجهينه وطوائف من العرب حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل وهم مسلمون، فأقاموا مع أبى جندل وأبى بصير، لا يمر بهم عير لقريش إلا اخذوها وقتلوا أصحابها. وقال فى ذلك أبو جندل فيما ذكره غير ابن عقبة:

أبلغ قريشا عن أبى جندل ... أنا بذى المروة بالساحل
فى معشر تخفق أيمانهم ... بالبيض فيها والقنا الذابل
يأبون أن يبقى لهم رفقة ... من بعد إسلامهم الواصل
أو يجعل الله لهم مخرجا ... والحق لا يغلب بالباطل
فيسلم المرء بإسلامه ... أو يقتل المرء ولم يأتل

(١) انظر الحديث فى: سنن أبو داود (٤٥١٩)، السنن الكبرى للبيهقى (٢٢٦/٤).
(٢) محش حرب: أى أنه يوقد الحرب ويهيجها ويشعل نارها.
(٣) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٢٥٧/٣)، سنن أبى داود فى كتاب الجهاد باب (١٦٧)، مسند الإمام أحمد (٣٣١/٤)، السنن الكبرى للبيهقى (٢٢١/٩، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٨)، دلائل النبوة للبيهقى (١٠٧/٤، ٦٧٣)، الدر المنثور للسيوطى (٧٨/٦)، البداية والنهاية لابن كثير (١٧٦/٤)، مصنف عبد الرزاق (٩٧٢٠).

فأرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب يسألونه ويتضرعون إليه أن يبعث إلى أبى بصير وإلى أبى جندل بن سهيل ومن معهم فيقدموا عليه وقالوا: من خرج منا إليك فأمسكه فى غير حرج، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا بابا لا يصلح إقراره.

فلما كان ذلك من أمرهم علم الذين كانوا أشاروا على رسول الله ﷺ أن يمنع أبا جندل من ابيه بعد القضية أن طاعة رسول الله خير فيما أحبوا وفيما كرهوا، وأن رأيه أفضل من رأيهم ومن رأى من ظن أن له قوة ورأيا، وعلم أن ما خص الله به نبيه من العون والكرامة أفضل.

وكتب رسول الله ﷺ إلى أبى جندل وأبى بصير يأمرهم أن يقدموا عليه ويأمر من معهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم ولا يعرضوا لأحد مر بهم من قريش وعيراتها، فقدم كتاب رسول الله ﷺ - زعموا - على أبى جندل وأبى بصير وأبو بصير يموت، فمات وكتاب رسول الله ﷺ فى يده يقترئه. فدفنه أبو جندل مكانه وجعل عند قبره مسجدًا.

وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ معه أناس من أصحابه ورجع سائرهم إلى أهليهم وأمنت عيرات قريش.

فلم يزل أبو جندل مع رسول الله ﷺ وشهد ما أدرك من المشاهد بعد ذلك وشهد الفتح، ورجع مع رسول الله ﷺ فلم يزل معه بالمدينة حتى توفى صلوات الله عليه وسلامه وقدم أبوه سهيل بن عمرو المدينة أول إمارة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فمكث بها أشهر ثم خرج مجاهدًا إلى الشام وخرج معه ابنه أبو جندل، فلم يزالا مجاهدين حتى ماتا جميعًا هناك، يرحمهما الله.

وهاجرت إلى رسول الله ﷺ فى تلك المدة أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط[1]، فخرج أخواها عمارة والوليد ابنا عقبة حتى قدما على رسول الله ﷺ يسألانه أن يردها عليهما بالعهد الذى بينه وبين قريش فى الحديبية، فلم يفعل، أبى الله ذلك وأنزل فيه على رسوله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن**

---

(١) انظر ترجمتها فى: الإصابة ترجمة رقم (١٢٢٣١)، أسد الغابة ترجمة رقم (٧٥٨٥)، الطبقات الكبرى (٨/٢٣٠)، تهذيب التهذيب (١٢/٤٧٦).

أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم﴾ [الممتحنة: ٩-١٠].

* * *

غزوة خيبر

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية مكث بها ذا الحجة منسلخ سنة ست، وبعض المحرم من سنة سبع.

ثم خرج فى بقية منه إلى خيبر غازيًا.

وكان الله وعده إياها وهو بالحديبية بقوله عز من قائل: **﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه﴾** [الفتح: ٢٠] يعنى بالمعجل صلح الحديبية، والمغانم الموعود بها فتح خيبر.

فخرج إليها رسول الله ﷺ مستنجزًا ميعاد ربه وواثقًا بكفايته ونصره، ودفع الراية إلى على بن أبى طالب - وكانت بيضاء - فسلك على عصر فبنى له فيها مسجدًا، ثم على الصهباء، ثم أقبل بجيشه حتى نزل به بواد يقال له الرجيع فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ، فذكر أن غطفان لما سمعت بمنزله من خيبر جمعوا ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه حتى إذا ساروا منقلة سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حسا ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم فأقاموا فى أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله ﷺ وخيبر.

قال أبو معتب بن عمرو: لما أشرف رسول الله ﷺ على خيبر قال لأصحابه وأنا فيهم: «قفوا»[1]. ثم قال: «اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها» ثم قال: «أقدموا بسم الله»[2]. قال: وكان يقولها لكل قرية دخلها.

---

(١) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (١٣٤/١).

(٢) انظر الحديث فى: مستدرك الحاكم (٤٤٦/١، ١٠٠/٢)، تفسير القرطبى (١٧٥/٨)، مشكل الآثار للطحاوى (٣١٢/٢، ٢١٥/٣)، زاد المسير لابن الجوزى (٢٩٩/٨)، الدر المنثور للسيوطى (٢٢٤/٤)، التاريخ الكبير للبخارى (٤٧٢/٦)، المعجم الكبير للطبرانى (٣٩/٨)، البداية والنهاية لابن كثير (١٨٣/٤)، دلائل النبوة للبيهقى (٢٠٤/٤).

وقال أنس بن مالك: كان رسول الله ﷺ إذا غزا قومًا لم يغر عليهم حتى يصبح، فإن سمع أذانًا أمسك وإن لم يسمع أذانًا أغار، فنزلنا خيبر ليلا، فبات رسول الله ﷺ حتى إذا اصبح لم يسمع أذانًا فركب وركبنا معه، فركبت خلف أبى طلحة وإن قدمى لتمس قدم رسول الله ﷺ واستقبلنا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش قالوا: محمد والخميس معه. فأدبروا هرابًا، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر! إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[(١)].

قال ابن إسحاق[(٢)]: وتدنى رسول الله ﷺ الأموال يأخذها مالا مالا ويفتحها حصنًا حصنًا، فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم، وعنده قتل محمود بن مسلمة، ألقيت عليه رحى منه فقتله، ثم القموص حصن أبى الحقيق، وأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا منهن صفية بنت حيى بن أخطب، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وبنتى عم لها، فاصطفى صفية لنفسه بعد أن سأله إياها دحية بن خليفة الكلبى، فلما اصطفاها لنفسه أعطاه ابنتى عمها، وكان بلال هو الذى جاء بصفية وبأخرى معها فمر بهما على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التى مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: «أغربوا عنى هذه الشيطانة»[(٣)]، وأمر بصفية فحيزت خلفه وألقى عليها رداؤه، فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه، فذكر أن رسول الله ﷺ قال لبلال حين رأى بتلك اليهودية ما رأى: «أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامراتين على قتلى رجالهما؟!»[(٤)].

وكانت صفية قد رأت فى المنام وهى عروس بكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق أن قمرًا وقع فى حجرها، فعرضت رؤياها على زوجها فقال: ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمدًا! فلطم وجهها لطمة حضر عينها منها. فأتى بها رسول الله ﷺ وبها أثر منه فسألها ما هو فأخبرته الخبر.

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (١/١٠٤، ١٥٩، ٢/١٩، ٤/٥٨، ٢٥٣)، صحيح مسلم (١٠٤٣، ١٠٤٤)، سنن النسائى (٦/١٣٢)، مسند الإمام أحمد (٢/١٠٢، ١٦٤، ١٨٦، ٢٤٦، ٢٦٣)، السنن الكبرى للبيهقى (٢/٢٣٠، ٩/٥٥، ٧٩، ٨٠، ١٥٢)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/٢١٥)، موطأ مالك (٤٦٩)، مصنف ابن أبى شيبة (١٤/٤٦١)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/١/٧٧، ٧٩)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٨٣، ١٨٤، ١٩٦)، دلائل النبوة للبيهقى (٤/٢٠٣، ٢٢٧).

(٢) انظر السيرة (٣/٣٠٤).

(٣) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٩٧).

(٤) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٩٧).

ولما أعرس بها رسول الله ﷺ بخيبر أو ببعض الطريق وبات بها فى قبة له، بات أبو أيوب الأنصارى متوشحًا السيف يحرسه ويطيف بالقبة حتى أصبح رسول الله ﷺ، فلما رأى مكانه قال: «ما لك يا أبا أيوب؟» قال: يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى»[1].

وأتى رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع - وكان عنده كنز بنى النضير - فساله عنه فجحد أن يكون يعلم مكانه، فأتى رسول الله ﷺ برجل من يهود فقال: إنى رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة. فقال رسول الله ﷺ لكنانة: أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك؟ قال: نعم. فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض كنزهم ثم سأله ما بقى فأبى أن يريه، فأمر به الزبير بن العوام فقال: عذبه حتى تستأصل ما عنده. فكان الزبير يقدح بزند فى صدره حتى أشرف على نفسه ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن مسلمة.

وفشت السبايا من خيبر فى المسلمين وأكل المسلمون لحوم الحمر من حمرها.

قال ابن عقبة: كانت أرضًا وخيمة شديدة الجهد، فجهد المسلمون جهدًا شديدًا وأصابهم مسغبة شديدة فوجدوا أحمرة إنسية ليهود لم يكونوا أدخلوها الحصن فانتحروها، ثم وجدوا فى أنفسهم من ذلك، فذكروها لرسول الله ﷺ فنهاهم عن أكلها.

قال أبو سليط فيما ذكر ابن إسحاق: أتانا نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الحمر الإنسية والقدور تفور بها فكأناها على وجوهها.

وذكر - أيضًا - أن رسول الله ﷺ قام - يومئذ - فى الناس فنهاهم عن أمور سماها لهم، قال مكحول: نهاهم - يومئذ - عن أربع: عن إتيان الحبالى من النساء، وعن أكل الحمار الأهلى، وعن أكل كل ذى ناب من السباع، وعن بيع المغانم حتى تقسم.

وحدث جابر بن عبد الله ولم يشهد خيبر: أن رسول الله ﷺ حين نهى الناس عن أكل لحوم الحمر أذن لهم فى لحوم الخيل.

---

(١) انظر الحديث فى: كنز العمال للمتقى الهندى (٣٧٨٠٥)، البداية والنهاية لابن كثير (٢١٢/٤).

وافتتح رويفع بن ثابت قرية من قرى المغرب يقال لها: جربه، فقاك خطيبًا فقال: يا أيها الناس، إنى لا أقول لكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول فينا يوم خيبر، قام فينا فقال: «لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أ، يصيب امرأة من السبى حتى يستبرئها، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما حتى يقسم، ولا يحل لامرئ يؤمن يالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فىء المسلمين حتى إذا أعجفها ردها فيه، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبًا من فىء المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه»(١).

وقال عبادة بن الصامت: نهانا رسول الله ﷺ يوم خيبر أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين، وقال: «ابتاعوا تبر الذهب بالورق العين، وتبر الفضة بالذهب العين».

ولما أصاب المسلمين بخيبر ما أصابهم من الجهد أتى بنو سهم من أسلم رسول الله ﷺ. فقالوا: يا رسول الله، لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء. فلم يجدوا عند رسول الله ﷺ شيئًا يعطيهم إياه، فقال: «اللهم إنك قد عرفت حالهم وأن ليست بهم قوة وأن ليس بيدى شىء أعطيهم إياه فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء وأكثرها طعامًا وودكا»(٢). فغدا الناس وفتح الله عليهم حصن الصعب بن معاذ، وما بخيبر كان أكثر طعامًا وودكًا منه.

ولما افتتح رسول الله ﷺ من حصونهم ما افتتح وحاز من الأموال ما حاز انتهوا إلى حصنيهم «الوطيح» و«السلالم» وكانا آخر حصون أهل خيبر افتتاحا، فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة، وخرج مرحب اليهودى من حصنهم قد جمع سلاحه وهو ينادى: من يبارز، ويرتجز:

قد علمت خيبر أنى مرحب   شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن أحيانا وحينا أضرب   إذا الليوث أقبلت تحرب
إن حماى للحمى لا يقرب

---

(١) انظر الحديث فى: سنن أبى داود (٢١٥٨، ٢١٥٩)، مسند الإمام أحمد (٤/١٠٨، ٦/٣٨٥)، إرواء الغليل للألبانى (١/٢٠١)، شرح السنة للبغوى (٩/٣٢١)، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٤/٣٠)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٩٢)، السنن الكبرى للبيهقى (٩/١٢٤).

(٢) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٤/٢٢٣).

فأجابه كعب بن مالك فقال:

قد علمت خيبر أنى كعب مفرج الغمى جرىء صلب
حيث تشب الحرب ثم الحرب معى حسام كالعقيق عضب
نطؤكم حتى يذل الصعب نعطى الجزاء أو يفاء النهب
بكف ماض ليس فيه عتب

فقال رسول الله ﷺ: «من لهذا؟» قال محمد بن مسلمة: أنا له يا رسول الله، أنا والله الموتور الثائر، قتل أخى بالأمس. قال: «فقم إليه، اللهم أعنه عليه»(1). فلما دنا أحدهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة عمرية من شجر العشر فجعل أحدهما يلوذ بها من صحابه، كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها، حتى برز كل واحد منهما لصاحبه وصارت بينهما كالرجل القائم ما فيها فنن، ثم حمل مرحب على محمد بن مسلمة فاتقاه بدرقته فوقع سيفه فيها فعضت به فأمسكته، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله.

ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يقول: من يبارز؟ فخرج إليه الزبير بن العوام، فيما ذكر هشام بن عروة - فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب: يقتل ابنى يا رسول الله، قال: بل ابنك يقتله إن شاء الله. فخرج الزبير فالتقيا فقتله الزبير.

وحدث سلمة بن عمرو بن الأكوع قال: قال رسول الله ﷺ يوم خيبر: «لأعطين الراية غدًا رجلا يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرار(2)» فدعا على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وهو أرمد فتفل فى عينيه ثم قال: «خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك»(3). فخرج وهو يهرول بها هرولة وإنا لخلفه نتبع أثره، حتى ركز رايته فى رضم من حجارة تحت الحصن، فاطلع إليه يهودى من رأس الحصن فقال: من أنت؟ قال: أنا على بن أبى طالب. قال: اليهودى: علوتم وما أنزل على موسى - أو كما قال - فما رجع حتى فتح الله على يديه.

وقال أبو رافع، مولى رسول الله ﷺ: خرجنا مع على - رضى الله عنه - حين بعثه

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣/٣٨٥)، السنن الكبرى للبيهقى (٩/١٣١)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٥٠)، دلائل النبوة للبيهقى (٤/٢١٥)، كنز (٣٠١٢٢).
(٢) انظر الحديث فى: السنة لابن أبى عاصم (٢/٦٠٨)، الأسماء والصفات للبيهقى (٤٩٨).
(٣) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٤/٢١٠).

رسول الله ﷺ برايته، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده، فتناول علىّ بابا كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتنى فى نفر معى سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه.

وحدث أبو اليسر كعب بن عمرو قال: إنا لمع رسول الله ﷺ بخيبر ذات عشية إذ أقبلت غنم لرجل من يهود تريد حصنهم ونحن محاصروهم، فقال رسول الله ﷺ: «من رجل يطعمنا من هذه الغنم؟»(١) فقال أبو اليسر: أنا يا رسول الله، قال: «فافعل». قال: فخرجت أشتد مثل الظليم، فلما رآنى رسول الله ﷺ موليا قال: «اللهم أمتعنا به!»(٢) قال: فأدركت الغنم وقد دخلت أولاها الحصن فأخذت شاتين من أ خراها فاحتضنتهما تحت يدى ثم أقبلت بهما أشتد كأنه ليس معى شىء حتى ألقيتهما عند رسول الله ﷺ فذبحوهما فأكلوهما. فكان أبو اليسر من آخر أصحاب رسول الله ﷺ موتًا، فكان إذا حدث هذا الحديث بكى ثم قال: أمتعوا بى لعمرى حتى كنت من آخرهم!

وحاصر رسول الله ﷺ أهل خيبر فى حصنيهم «الوطيح» و«السلالم» حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم وأن يحقن لهم دماءهم ففعل. وكان رسول الله ﷺ قد حاز الأموال كلها: الشق ونطاة والكتيبة؛ وجميع حصونهم إلا ما كان من ذينك الحصنين، فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله ﷺ سألوه أن يسيرهم وأن يحقن لهم دماءهم ويخلوا له الأموال ففعل.

فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله ﷺ أن يعاملهم فى الأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم وأعمر لها، فصالحهم رسول الله ﷺ على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم، فصالحه أهل فدك على مثل ذلك، فكانت خيبر فيئًا بين المسلمين.

وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب.

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية. وقد سألت أى عضو من الشاة أحب إليه؟ فقيل لها: الذراع فأكثرت فيها من السم. ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع فلاك

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣/٤٢٧)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٤٩).

(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣/٤٢٧)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/١٩٥).

منها مضغة فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بشر فأساغها وأما رسول الله ﷺ فلفظها ثم قال: «إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم»[١]. ثم دعا بها فاعترفت. فقال: «ما حملك على ذلك؟»[٢] قالت: بلغت من قومى ما لم يخف عليك فقلت: إن كان ملكًا استرحت منه؛ وإن نبيًا فسيخبر. فتجاوز عنها رسول الله ﷺ.

ومات بشر بن البراء من أكلته التى أكل.

وذكر ابن عقبة أن رسول الله ﷺ تناول الكتف من تلك الشاة فانتهش منها وتناول بشر عظمًا فانتهش منه؛ فلما استرط رسول الله ﷺ لقمته استرط بشر ما فى فيه، فقال رسول الله ﷺ: «ارفعو أيديكم فإن كتف هذه الشاة يخبرنى أنى بغيت فيها». فقال بشر بن البراء: والذى أكرمك لقد وجدت ذلك فى أكلتى التى أكلت فما منعنى أن ألفظها إلا أنى اعظمت أن أنغصك طعامك، فلما أسغت ما فى فيك لم أكن أرغب بنفسى عن نفسك، ورجوت أن لا تكون استرطتها وفيها بغى.

فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه مثل الطيلسان وماطله وجعه حتى كان لا يتحول إلا ما حول.

قال جابر بن عبد الله: واحتجم رسول الله ﷺ - يومئذ - على الكاهل، حجمه أبو طيبة مولى بنى بياضة. وبقى رسول الله ﷺ بعده ثلاث سنين حتى كان وجعه الذى توفى منه، فدخلت عليه أم بشر، بنت البراء بن معرور تعوده فيما ذكر ابن إسحاق فقال لها: «يا أما بشر: إن هذه لأوان وجدت انقطاع أبهرى من الأكلة التى أكلت مع أخيك بخيبر»[٣].

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٢١١/٤).

(٢) انظر الحديث فى: سنن ابن ماجه (٢٠٦٥)، السنن الكبرى للبيهقى (٣٨٦/٧، ١٤٧/٩)، مستدرك الحاكم (٤٨٣/١، ٣٠١/٣)، المعجم الكبير للطبرانى (٢٢٧/١، ٢٣٦/١١)، مجمع الزوائد للهيثمى (٢٩٥/٨، ٢٩٦، ٣٠٣/٩، ٣٠٤)، مصنف عبد الرزاق (١٥٢٥، ١٥٢٦)، الطبقات الكبرى لابن سعد (١٠٩/٨)، الدر المنثور للسيوطى (٣٥٣/٣، ١٨٣/٦)، مشكاة المصابيح للتبريزى (٣٣٠٢)، فتح البارى لابن حجر (٤٩٧/١٧)، إرواء الغليل للألبانى (١٧٩/٧)، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (١٠٠/٥)، العلل المتناعية لابن الجوزى (٢٢٩/١).

(٣) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٢١١/٤).

قال: فإن كان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ مات شهيدًا مع ما أكرمه الله من النبوة.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر انصرف إلى وادى القرى فحاصر أهله ليالى ثم انصرف راجعًا إلى المدينة.

قال أبو هريرة: لما انصرفنا مع رسول الله ﷺ عن خيبر إلى وادى القرى نزلناها أصلا مع مغرب الشمس، ومع رسول الله ﷺ غلام أهداه له رفاعة بن زيد الجذامى ثم الضبيبى، فوالله إنه ليضع رحل رسول الله ﷺ إذ أتاه سهم غرب فأصابه فقتله، فقلنا: هنيئا له الجنة. فقال رسول الله ﷺ: «كلا والذى نفس محمد بيده، إن شملته - الآن - لتحرق عليه فى النار، كان غلها من فىء المسلمين يوم خيبر»[(١)]. فسمعها رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فأتاه فقال له: يا رسول الله، أصبت شراكين لنعلين لى. فقال: «يقد لك مثلهما من النار»[(٢)].

وخرج مسلم فى صحيحه من حديث عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبى ﷺ فقالوا: فلان شهيد وفلان شهيد حتى مروا على رجل فقالوا: فلان شهيد. فقال رسول الله ﷺ: «كلا، إنى رأيته فى النار فى بردة غلها أو عباءة». ثم قال: «يا بن الخطاب، أذهب فناد فى الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»[(٣)]. قال: فخرجت فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون.

وشهد خيبر مع رسول الله ﷺ نساء من نساء المسلمات، فرضخ لهن عليه السلام من الفىء، ولم يضرب لهن بسهم. حدثت بنت [أبى] الصلت عن امرأة غفارية سمتها قالت: أتيت رسول الله ﷺ فى نسوة من بنى غفار وهو يسير إلى خيبر: فقلن يا رسول الله، قد أردنا الخروج معك إلى وجهك هذا فنداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا. فقال: «على بركة الله»[(٤)]. قالت: فخرجنا معه، فلما افتتح خيبر رضح لنا من

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (١٧٩/٨)، صحيح مسلم فى كتاب الإيمان باب (٤٨)، رقم (١٨٣)، السنن الكبرى للبيهقى (١٠٠/٩)، مستدرك الحاكم (٤٠/٣)، التمهيد لابن عبد البر (٣/٢).

(٢) انظر الحديث فى: مستدرك الحاكم (٤٠/٣).

(٣) انظر الحديث فى: صحيح مسلم، الجامع الصحيح (٧٥/١)، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم الغلول.

(٤) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣٨٠/٦)، السنن الكبرى للبيهقى (٤٠٧/٢)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢١٤/٨)، البداية والنهاية لابن كثير (٢٠٤/٤).

الفىء وأخذ هذه القلادة التى تزين فى عنقى فأعطانيها وعلقها بيده فى عنقى، فوالله لا تفارقنى أبدًا. قالت: فكانت فى عنقها حتى ماتت ثم أوصت أن تدفن معها.

واستشهد بخيبر من المسلمين نحو من عشرين رجلا منهم عامر بن الأكوع عم سلمه ابن عمرو بن الأكوع؛ وكان رسول الله ﷺ قد قال له فى مسيره إلى خيبر: «انزل يا ابن الأكوع فخذ لنا من هناتك»[1] فنزل يرتجز برسول الله ﷺ فقال:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

إنا إذا قوم بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

فقال رسول الله ﷺ: «يرحمك الله»[2]. فقال عمر بن الخطاب: وجبت والله يارسول الله لو أمتعتنا به! فقتل يوم خيبر شهيدًا، وكان قتله أن سيفه رجع عليه وهو يقاتل فكلمه كلما شديدًا فمات منه، فكان المسلمون قد شكوا فيه وقالوا: إنما قتله سلاحه، حتى سأل ابن أخيه سلمة رسول الله ﷺ عن ذلك وأخبره بقول الناس، فقال رسول الله ﷺ: «إنه لشهيد»[3]، وصلى عليه. فصلى عليه المسلمون.

ومنهم الأسود الراعى من أهل خيبر، وكان من حديثه أنه أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر لبعض حصون خيبر ومعه غنم كان فيها أجيرًا لرجل من يهود، فقال: يا رسول الله، أعرض علىَّ الإسلام فعرضه عليه فأسلم. وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحدًا أن يدعوه إلى الإسلام ويعرضه عليه، فلما أسلم قال: يا رسول الله، إنى كنت أجيرًا لصاحب هذه الغنم وهى أمانة عندى فكيف أصنع بها؟ قال: «اضرب فى وجوهها فإنها سترجع إلى ربها» - أو كما قال - فقام الأسود فأخذ حفنة من الحصباء فرمى بها فى وجهها وقال: ارجعى إلى صاحبك فوالله لا أصحبك. وخرجت مجتمعة كأن سائقًا يسوقها حتى دخلت الحصن، ثم تقدم الأسود إلى ذلك الحصن ليقتل مع المسلمين فأصابه حجر فقتله، وما صلى لله صلاة قط، فأتى به رسول الله ﷺ فوضع خلفه وسجى بشملة كانت عليه فالتفت إليه رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه ثم أعرض

---

(١) انظر الحديث فى: السنن الكبرى للبيهقى (١٦/٤)، مجمع الزوائد للهيثمى (١٤٨/٦)، التاريخ الكبير للبخارى (١٠٠/٨)، فتح البارى لابن حجر (٤٦٥/٧)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٧/٢/٤)، البداية والنهاية لابن كثير (١٨٢/٤).

(٢) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (١٨٣/٤).

(٣) انظر الحديث فى: السنن الكبرى للبيهقى (١٦/٤).

عنه فقالوا: يا رسول الله، لم أعرضت عنه؟ قال: «إن معه - الآن - زوجتيه من الحور العين!».

وذكر ابن إسحاق[1] عن عبيد بن أبى نجيح أن الشهيد إذا ما أصيب نزلت زوجتاه من الحور العين عليه ينفضان التراب عن وجهه ويقولان: ترب الله وجه من تربك وقتل من قتلك.

قال: ولما افتتحت خيبر كلم رسول الله ﷺ الحجاج بن علاط السلمى ثم البهزى فقال: يا رسول الله، إن لى بمكة مالا عند صاحبتى أم شيبة بنت أبى طلحة ومالا متفرقًا فى تجار أهل مكة، فأذن لى يا رسول الله فأذن له؛ قال: إنه لابد لى يا رسول الله من أن أقول. قال: قل.

قال الحجاج: فخرجت حتى إذا قدمت مكة وجدت بثنية البيضاء رجالا من قريش يتسمعون الأخبار ويسألون عن أمر رسول الله ﷺ، وقد بلغهم أنه سار إلى خيبر وعرفوا أنها قرية الحجاز ريفًا ومنعة وجالاً، فهم يتحسسون الأخبار ويسألون الركبان، فلما رأونى ولم يكونوا علموا بإسلامى قالوا: الحجاج بن علاط؟ عنده والله الخبر، أخبرنا يا أبا محمد فإنه بلغنا أن القاطع سار إلى خيبر وهى بلد يهود وريف الحجاز. قلت: قد بلغنى ذلك وعندى من الخبر ما يسركم. قال: فالتبطوا بجنبى ناقتى يقولون: إيه يا حجاج؟ قلت: هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط وأسر محمد أسرًا، وقالوا: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم. قال: فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا: قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنظررون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم.

قال: فقلت أعينونى على جمع مالى بمكة على غرمائى فإنى أريد أن أقدم خيبر فأصيب به من أهل محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى ما هنالك. فقاموا فجمعوا إلى مالى كأحث جمع سمعت به وجئت صاحبتى فقلت: مالى - وقد كان لى عندها مال موضوع - لعلى ألحق بخيبر فأصيب من فرص البيع قبل أن يسبقنى التجار.

قال: فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عنى أقبل حتى وقف إلى جنبى وأنا فى خيمة من خيام التجار فقال: يا حجاج، ماهذا الذى جئت به؟ قلت: وهل عندك حفظ لما وضعت عندك؟ قال: نعم. قلت: فاستأخر عنى حتى ألقاك على خلاء

---

(١) انظر السيرة (٣/ ٣٢٠).

فإنى فى جمع مالى كما ترى فانصرف عنى حتى أفرغ قال: حتى إذا فرغت من جمع كل شىء كان لى بمكة وأجمعت الخروج لقيت العباس فقلت: احفظ على حديثى يا أبا الفضل - فإنى أخشى الطلب - ثلاثا ثم قل ما شئت. قال: أفعل. قلت: فإنى والله لقد تركت ابن أخيك عروسًا على بنت ملكهم - يعنى صفية بنت حيى - ولقد افتتح خيبر وانتثل ما فيها وصارت له ولأصحابه. قال: ما تقول يا حجاج؟ قلت: إى والله فاكتم عنى، ولقد أسلمت وما جئت إلا لآخذ مالى فرقا من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاث فأظهر أمرك فهو والله على ما تحب.

قال: حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها، فلما رأوه قالوا: يا أبا الفضل هذا والله التجلد لحر المصيبة! قال: كلا والله الذى حلفتم به، لقد افتتح محمد خيبر وترك عروسًا على ابنة ملكهم وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه. قالوا: من جاءك بهذا الخبر، قال: الذى جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلمًا وأخذ ماله فانطلق ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه. قالوا: يال عباد الله! انفلت عدو الله، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن. ولم ينشبوا أن جاءهم الخبر بذلك.

وقال كعب بن مالك الأنصارى فى يوم خيبر:

ونحن وردنا خيبرا وفروضه ... بكل فتى عارى الأشاجع مذود
جواد لدى الغايات لا واهن القوى ... جرىء على الأعداء فى كل مشهد
عظيم رماد القدر فى كل شتوة ... ضروب بنصل المشرفى المهند
يرى القتل مدحا إن أصاب شهادة ... من الله يرجوها وفوزا بأحمد
يذود ويحمى عن ذمار محمد ... ويدمع عنه باللسان وباليد
وينصره من كل أمر يريبه ... يجود بنفس دون نفس محمد

وذكر ابن عقبة أن بنى فزارة قدموا على أهل خيبر فى أول أمرهم ليعينوهم، فراسلهم رسول الله ﷺ أن لا يعينوهم وأن يخرجوا عنهم على أن يعطيهم من خيبر شيئًا سماه لهم، فأبوا عليه وقالوا: جيراننا وحلفاؤنا. فلما فتح الله خيبر أتاه من كان هناك من بنى فزارة فقالوا: الذى وعدتنا؟ فقال: «لكم ذو الرقيبة» - لجبل من جبال خيبر - قالوا: إذن نقاتلك؛ قال: «موعدكم جنفاء» فلما سمعوا ذلك من رسول الله خرجوا هاربين.

قال ابن إسحاق[١]: وكانت المقاسم على أموال خيبر على الشق ونطاة والكتيبة، وكانت الشق ونطاة فى سهمان المسلمين، وكانت الكتيبة خمس الله وسهم النبى ﷺ وسهم ذوى القربى والمساكين وطعم أزواج النبى ﷺ وطعم رجال مشوا بين رسول الله ﷺ وبين أهل فدك بالصلح.

وقسمت خيبر على أهل الحديبية من شهد خيبر، ومن غاب عنها، ولم يغب عنها إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، فقسم له رسول الله ﷺ كسهم من حضرها. وفى هذه الغزوة بين رسول الله ﷺ سهمان الخيل والرجال، فجعل للفرس سهمين ولفارسه سهمًا وللراجل سهما، فجرت المقاسم على ذلك فيما بعد، ويومئذ عرب العربى من الخيل وهجن الهجين.

وذكر ابن عقبة أنه قدم على رسول الله ﷺ بخيبر نفر من الأشعريين فيهم أبو عامر الأشعرى، قدموا المدينة مع مهاجرة الحبشة ورسول الله ﷺ بخيبر، فمضوا إليه وفيهم أبان بن سعيد بن العاص والطفيل - يعنى ابن عمرو الدوسى ذا النور - وأبو هريرة ونفر من دوس، فرأى رسول الله ﷺ ورأيه الحق أن لا يخيب مسيرهم ولا يبطل سفرهم فشركهم فى مقاسم خيبر وسأل أصحابه ذلك فطابوا به نفسًا.

ولم يذكر ابن عقبة جعفر بن أبى طالب فى هؤلاء القادمين على رسول الله ﷺ بخيبر من أرض الحبشة وهو أولهم وأفضلهم، وما مثل جعفر يتخطى ذكره، ومن البعيد أن يغيب ذلك عن ابن عقبة، فالله أعلم بعذره.

وقد ذكر ابن إسحاق: أن رسول الله ﷺ كان بعث مرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى فيمن كان أقام بأرض الحبشة من أصحابه فحملهم فى سفينتين فقدم بهم عليه وهو بخيبر بعد الحديبية. فذكر جعفرًا أولهم وذكر معه ستة عشر رجلاً قدموا فى السفينتين صحبته. وذكر ابن هشام عن الشعبى أن جعفرًا قدم على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر فقبل رسول الله ﷺ ما بين عينيه والتزمه وقال: «ما أدرى بأيتهما أنا أسر، أبفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟»[٢].

ولما جرت المقاسم فى أموال خيبر اتسع فيها المسلمون ووجدوا بها مرفقًا لم يكونوا

---

(١) انظر السيرة (٣/٣٢٤).

(٢) انظر الحديث فى: مصنف ابن أبى شيبة (١٢/١٠٦، ١٤/٣٤٩)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/١/٧٨)، المعجم الكبير للطبرانى (٢/١٠٧)، البداية والنهاية لابن كثير (٤/٢٠٦).

وجدوه قبل، حتى لقال عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - فيما خرج له البخارى فى صحيحه: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر.

وأقر رسول الله ﷺ يهود خيبر فى أموالهم يعملون فيها للمسلمين على النصف مما يخرج منها كما تقدم.

قال ابن إسحاق: فكان رسول الله ﷺ يبعث إلى أهل خيبر عبد الله بن رواحة خارصًا بين المسلمين وبين يهود فيخرص عليهم، فإذا قالوا: تعديت علينا. قال: إن شئتم فلكم وإن شئتم فلنا. فتقول يهود: بهذا قامت السموات والأرض!

قال: وإنما خرص عليهم عبد الله عامًا واحدًا ثم أصيب بمؤته - يرحمه الله - فكان جبار بن صخر أخو بنى سلمة هو الذى يخرص عليهم بعده.

فأقامت يهود على ذلك لا يرى بهم المسلمون بأسا فى معاملتهم حتى عدوًا فى عهد رسول الله ﷺ على عبد الله بن سهل أخى بنى حارثة فقتلوه، فأتهمهم رسول الله ﷺ والمسلمون عليه وكتب إليهم أن يدوه أو يأذنوا بحرب. فكتبوا يحلفون بالله ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلا، فوداه رسول الله ﷺ من عنده وأقرهم على ما سبق من معاملته إياهم.

فلما توفى رسول الله ﷺ أقرهم أبو بكر الصديق على مثل ذلك حتى توفى، ثم أقرهم عمر صدرًا من إمارته، ثم بلغ عمر أن رسول الله ﷺ قال فى وجعه الذى قبضه الله فيه: «لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان». ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثبت، فأرسل إلى يهود فقال: إن الله قد أذن فى جلائكم، قد بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان»[1] فمن كان عنده عهد من رسول الله فليأتنى به أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله فليتجهز للجلاء. فأجلى عمر منهم من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ.

وقال عبد الله بن عمر: خرجت أنا والزبير والمقداد بن الأسود إلى أموالنا بخيبر نتعاهدها، فلما قدمنا تفرقنا فى أموالنا فعدى على تحت الليل فقرعت يداى من مرفقى، فلما أصبحت استصرخ على صاحباى فأتيانى فأصلحا من يدى؛ ثم قاما بى على عمر فقال: هذا عمل يهود، ثم قام فى الناس خطيبًا فقال: أيها الناس، إن رسول الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم إذا شئنا، وقد عدوا على عبد الله بن عمر

---

(١) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (١٢١/٤).

ففدعوا يديه كما بلغكم مع عدوتهم على الأنصارى قبله لا نشك أنهم أصحابه ليس لنا هناك عدو غيرهم، فمن كان له مال بخيبر فليلحق به فإنى مخرج يهود. فأخرجهم.

ولما أخرج عمر - رضى الله عنه - يهود خيبر ركب فى المهاجرين والأنصار وخرج معه بجبار بن صخر - وكان خارص أهل المدينة وحاسبهم - ويزيد بن ثابت، فهما قسما خيبر على أصحاب السهمان التى كانت عليها، وذلك أن الشق والنطاة اللتين هما سهم المسلمين قسمت فى الأصل على عهد رسول الله ﷺ إلى ثمانية عشر سهمًا: نطاة من ذلك خمسة أسهم والشق ثلاثة عشر سهمًا، ثم قسم كل قسم من هذه الثمانية عشر سهمًا إلى مائة سهم، لكل رجل سهم ولكل فرس سهمان؛ وكانت عدة الذين قسمت عليهم ألف رجل وأربعمائة رجل ومائتى فرس، فذلك ألف سهم وثمانمائة سهم.

* * *

عمرة القضاء(١)

وهى غزوة الأمن

قال ابن إسحاق(٢): ولما رجع رسول الله ﷺ من خيبر إلى المدينة أقام بها شهرى ربيع وما بعده إلى شوال، يبعث فيما بين ذلك سراياه.

ثم خرج فى ذى القعدة فى الشهر الذى صده فيه المشركون معتمرًا عمرة القضاء مكان عمرته التى صدوه عنها، وخرج معه المسلمون ممن كان صد معه فى عمرته تلك، وهى سنة سبع، فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه.

قال ابن عقبة: وتغيب رجال من أشرافهم خرجوا إلى بوادى مكة كراهية أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ غيظًا وحنقًا ونفاسة وحسدًا.

وتحدثت قريش بينها فيما ذكرابن إسحاق: أن محمدًا وأصحابه فى عسرة وجهد وشدة فصفوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه.

فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال:

---

(١) انظر: المغازى للواقدى (٢/٧٣١)، طبقات ابن سعد (٢/١/٨٧)، البداية والنهاية (٤/٢٢٦).
(٢) انظر السيرة (٤/٥).

«رحم الله امرء أراهم اليوم من نفسه قوة»[١] ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه، حتى إذا واراه البيت منهم واستلم الركن اليمانى مشى حتى يستلم الركن الأسود، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرها فكان ابن عباس يقول: كان الناس يظنون أنها ليست عليهم وذلك أن رسول الله ﷺ إنما صنعها لهذا الحى من قريش الذى بلغه عنهم حتى حج حجة الوداع فلزمها فمضت السنة بها.

ولما دخل رسول الله ﷺ مكة فى تلك العمرة وعبد الله بن رواحة يرتجز بين يديه:

خلوا بنى الكفار عن سبيله   خلوا فكل الخير فى رسوله

يا رب إنى مؤمن بقيله   أعرف حق الله فى قبوله

وكان رسول الله ﷺ قد بعث بين يديه جعفر بن أبى طالب إلى ميمونة بنت الحارث ابن حزن الهلالية، فخطبها عليه فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب، وكانت تحته أختها أم الفضل بنت الحارث، وقيل: جعلت أمرها إلى أم الفضل، فجعلت أم الفضل أمرها إلى العباس فزوجها العباس رسول الله ﷺ وأصدقها عنه أربعمائة درهم.

وقضى رسول الله ﷺ نسكه، وأقام بمكة ثلاث ليال، وكان ذلك أجل القضية يوم الحديبية. فلما أصبح رسول الله ﷺ من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو وحويطب عبد العزى. [فى نفر من قريش] ورسول الله ﷺ فى مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن بن عبادة فصاح حويطب: نناشدك الله والعقد إلا خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث. فقال سعد: كذبت لا أم لك إنها ليست بأرضك ولا أرض أبيك والله لا يخرج إلا راضيًا، فقال رسول الله ﷺ وضحك: «يا سعد، لا تؤذ قومًا زارونا فى رحالنا». ثم قال رسول الله ﷺ: «وما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه؟»[٢] قالوا: لا حاجة لنا بطعامك فاخرج عنا.

فأمر رسول الله ﷺ أبا رافع مولاه فأذن بالرحيل، وخلف أبا رافع على ميمونة حتى أتاه بها بسرف وقد لقيت ومن معها عناء وأذى من سفهاء المشركين وصبيانهم، فبنى بها رسول الله ﷺ بسرف ثم أدلج فسار حتى قدم المدينة. ثم كان من قضاء الله سبحانه أن ماتت ميمونة بسرف بعد ذلك بحين، فتوفيت حيث بنى بها.

قال موسى بن عقبة: وذكر أن الله - تعالى - أنزل فى تلك العمرة: **﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾** [البقرة: ١٩٤].

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح مسلم (٢/٢٤٠، ٩٢٣)، مسند الإمام أحمد (١/٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) انظر الحديث فى: الحاكم فى المستدرك (٤/٣١).

وذكر ابن هشام أنها يقال لها: «عمرة القصاص» لأنهم صدوا رسول الله ﷺ عن العمرة فى ذى القعدة فى الشهر الحرام من سنة ست فاقتص منهم رسول الله ﷺ ودخل مكة فى ذى القعدة فى الشهر الحرام الذى صدوه فيه من سنة سبع.

* * *

غزوة مؤتة من أرض الشام(١)

ولما صدر رسول الله ﷺ من عمرة القضاء إلى المدينة أقام بها نحوا من ستة أشهر، ثم بعث إلى الشام فى جمادة الأولى من سنة ثمان بعثة الذين أصيبوا بمؤتة، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال: «إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة».

فتجهز الناس ثم تهيأوا للخروج، وهم ثلاثة الآف، فلما حضر خروجهم ودع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم، فلما ودع عبد الله بن رواحة بكى فقالو: ما يبكيك يا بن رواحة؟ فقال: والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله ويذكر فيها النار: ﴿**وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا**﴾ [مريم:٧١] فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود! فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين. فقال عبد الله بن رواحة:

لكننى أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أوطعنة بيدى حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
جتى يقال إذا مروا على جدثى ... ما أرشد الله من غاز وقد رشدا

ثم إن القوم تهيأو للخروج فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ فودعه ثم قال:

أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن ... فى المرسلين ونصرا كالذى نصروا
إنى تفرست فيك الخير نافلة ... فرأسة خالفت فيك الذى نظروا

يعنى المشركين.

ثم خرج القوم، وخرج رسول الله ﷺ يشيعهم، جتى إذا ودعهم وانصرف عنهم

---

(١) راجع هذه الغزوة فى: المنتظم لابن الجوزى (٣١٨/٣)، المغازى للواقدى (٧٥٥/٢)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٩٢/٢/١)، البداية والنهاية لابن كثير (٢٤١/٤).

قال عبد الله بن رواحة:

خلف السلام على امرىء ودعته ... فى النخل خير مشيع وخليل

وحدث زيد بن أرقم قال: كنت يتيما لعبد الله بن رواحة فى حجرة، فخرج بى فى سفره ذلك مردفى على حقيبة رحلة،فواله إنه ليسير ليلة إذ سمعته ينشد أبياته هذه:

إذ أدنيتنى وحملت رحلى ... مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك فانعمى وخلاك ذم ... ولا أرجع إلى أهلى ورائى
وجاء المسلمون وغادرونى ... بأرض الشام مشتهى الثواء
وردك كل ذى رحم قريب ... إلى الرحمن منقطع الرجاء
هنالك لا أبالى طلع بعل ... ولا نخل أسافلها وراء

فلما سمعتهن بكيت فخفقنى بالدرة وقال: وماعليك يا لكع أن يرزقنى الله الشهادة وترجع بين شعبتى الرحل؟!

ثم مضى القوم حتى نزلوا معان من أرض الشام فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلى مائة ألف منهم.

فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين ينظرون فى أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له. فشجع الناس عبد الله بن رواحة فقال: يا قوم، والله إن الذى تكرهون للذى خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا، فإنما هى إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة، فقال الناس: صدق والله ابن رواحة. فمضى الناس وقال عبد الله فى مجلسهم ذلك:

جلبنا الخيل من أجأ وفرع ... تعر من الحشيش لها العكوم
حذوناها من الصوان سبتا ... أزل كأن صفحته أديم[1]
أقامت ليلتين على معان ... فأعقب بعد فترتها جموم
فرحنا والجياد مسومات ... تنفس فى مناخرها السموم

---

(١) حذوناها: أى جعلنا لها حذاء، وهو النعل. والصوان: حجارة ملس. والسبت: النعال المصنوعة من الجلد المدبوغ.

فــلا وأبـــى مـــآب لنأتينهـــا ... وإن كـــانت بهـــا عـــرب وروم
فعبأنـــــا أعنتهــــا فجـــاءت ... عوابـــس والغبـــار لهـــا بريـــم
بـــذى لجـــب كـــأن البيـــض فيـــه ... إذا بـــرزت قوانســـها النجـــوم
فراضيـــة المعيشـــة طلقتهـــا ... أسنتهـــا فتنكـــح أو تئيـــم

ثم مضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها: مشارف. ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها: مؤتة، فالتقى الناس عندها. فتعبى لهم المسلمون فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بنى عذرة يقال له: قطبة بن قتادة وعلى ميسرتهم رجلاً من الأنصار يقال له: عبابة بن مالك، ويقال: عبادة. ثم التقى الناس فاقتلوا، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط فى رماح القوم، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء. قال أحد بنى مرة بن عوف وكان فى تلك الغزوة: والله لكأنى أنظر إليه حين اقتحم عنها ثم عقرها ثم قاتل القوم حتى قتل وهو يقول:

يـــا حبـــذا الجنـــة واقترابهـــا ... طيبـــة وبـــاردٌ شـــرابها
والروم روم قـــد دنـــا عذابهـــا ... علـــى إذ لا قيتهـــا ضرابهـــا

وكان جعفر أول من عقر فى الإسلام فرسه.

ولما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم قال:

أقســـمت يـــا نفـــس لتنزلنـــه ... لتـــــنزلن أو لتكرهنـــــه
إن أجلـــب النـــاس وشـــدوا الرنـــه ... مـــا لى أراك تكرهـــين الجنـــه
قد طال ما قـــد كنـــت مطمئنـــه ... هل أنت إلا نطفـــة فـــى شنـــه

وقال أيضًا:

يـــا نفـــس إلا تقتلـــى تموتـــى ... هـــذا حمـــام المـــوت قـــد صليـــت
ومـــا تمنيـــت فقـــد أعطيـــت ... إن تفعلـــى فعلهمـــا هديـــت

يعنى صاحبيه زيدًا وجعفرًا. ثم نزل فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال: شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت فى أيامك هذه مالقيت. فأخذه من يده فانتهس منه نهسة ثم سمع الحطمة فى ناحية الناس فقال: وأنت فى الدنيا! ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل.

ثم أخذ الراية ثابت بن أرقم أخو بنى العجلان فقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم. قالوا: أنت. قال ما أنا بفاعل، فاصطلح القوم على خالد بن الوليد. فلما أخذ الراية دافع القوم وخاشى بهم ثم انحاز وانحيز عنه، حتى انصرف بالناس.

ولما أصيب القوم قال رسول الله ﷺ: «أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيدًا، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيدًا»، ثم صمت رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان فى عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون، ثم قال: «أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيدًا». ثم قال: «لقد رفعوا إلى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة ازورارا عن سريرى صاحبيه فقلت: عم هذا؟ فقيل لى: مضيا وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى»[(١)].

وذكر ابن هشام أن جعفرًا أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فأثابه الله بذلك جناحين يطير بهما حيث شاء.

ويقال: إن رجلا من الروم ضربه - يومئذ - فقطعه نصفين.

وذكر ابن عقبة أن رسول الله ﷺ قال بالمدينة لما أصيبوا، قبل أن يأتيه نعيهم: «مر على جعفر بن أبى طالب فى الملائكة يطير كما يطيرون له جناحان». قال: وقدم يعلى ابن منبه على رسول الله ﷺ بخبر أهل مؤتة فقال له رسول الله ﷺ: «إن شئت فأخبرنى وإن شئت أخبرتك». قال: فأخبرنى يا رسول الله فأخبره ﷺ خبرهم كله ووصفه له. فقال: والذى بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفا واحدًا لم تذكره، وإن أمرهم لكما ذكرت. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله رفع لى الأرض حتى رأيت معتركهم».

وحدثت أسماء بنت عميس امرأة جعفر قالت: لما أصيب جعفر وأصحابه دخل على رسول الله ﷺ فقال: «ايتينى ببنى جعفر». وقد كانت غسلتهم ودهنتهم ونظفتهم. قالت: فأتيته بهم فشمهم وذرفت عيناه، فقلت: يا رسول الله بأبى أنت ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «نعم، أصيبوا هذا اليوم». قالت: فقمت أصيح واجتمع إلى النساء. وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: «لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعامًا، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم»[(٢)].

---

(١) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (٦/ ١٦٠).

(٢) انظر الحديث فى: سنن ابن ماجه (١/ ١٦١٠)، سنن الترمذى (٣/ ٩٩٨)، السنن الكبرى للبيهقى (٤/ ٦١).

وقالت عائشة رضى الله عنها: لما أتى نعى جعفر عرفنا فى وجه رسول الله ﷺ الحزن.

ولما انصرف خالد قافلا بالناس ودنوا من المدينة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون، ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة، فقال: خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطونى ابن جعفر. فأتى بعبد الله بن جعفر فأخذه فحمله بين يديه وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون: يا فرار، فررتم فى سبيل الله! فيقول رسول الله ﷺ: «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله»[١].

وقالت أم سلمة زوج النبى ﷺ لامرأة سلمة بن هشام بن العامر بن المغيرة: مالى لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ؟ قالت: والله ما يستطع أن يخرج، كلما خرج صاح به الناس: يافرار، فررتم فى سبيل الله! حتى قعد فى بيته فما يخرج.

وقد قال فيما كان من أمر الناس وأمر خالد ومخاشاته بالناس وانصرافه بهم - قيس ابن المسحر اليعمرى يعتذر مما صنع يومئذ وصنع الناس:

فوالله لا تنفك نفسى تلومنى	على موقفى والخيل قابعة قبل
وقفت بها لا مستجيزًا فنافذًا	ولا مانعا من كان حم له القتل[٢]
على أننى آسيت نفسى بخالد	ألا خالد فى القوم ليس له مثل
وجاشت إلى النفس من نحو جعفر	بمؤتة إذ لا ينفع النابل النبل
وضم إلينا حجزتيهم كليهما	مهاجرة لا مشركون ولا عزل

فبين قيس فى شعره ما اختلف الناس فيه من ذلك: أن القوم حاجزوا وكرهوا الموت وحقق انحياز خالد بمن معه.

وكان مما بكى به أصحاب مؤتة قول حسان بن ثابت:

تأوبنى ليل بيثرب أعسر	وهم إذا ما هوم الناس مسهر[٣]
لذكرى حبيب هيجت لى عبرة	سفوحا وأسباب البكاء التذكر
بلى إن فقدان الحبيب بلية	وكم من كريم يبتلى ثم يصبر
رأيت خيار المؤمنين تواردوا	شعوب وخلفا بعدهم يتأخر

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٢٥٣/٤).

(٢) مستجيزًا: أى منحازًا إلى ناحية.

(٣) تأوبنى: أى عاودنى ورجع إلىَّ.

فلا يبعدن الله قتلى تباعدوا ... جميعًا وأسباب المنية تخطر إلى
غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم ... الموت ميمون النقيبة أزهر
أغر كضوء البدر من آل هاشم ... أبى إذا سيم الظلامة يجسر
فطاعن حتى مال غير موسد ... بمعترك فيه قنا متكسر
فصار مع المستشهدين ثوابه ... جنان وملتف الحدائق أخضر
وكنا نرى فى جعفر من محمد ... وفاء وأمرًا حازما حين يأمر
وما زال فى الإسلام من آل هاشم ... دعائم عز لا يزلن ومفخر
هم جبل الإسلام والناس حولهم ... رضام إلى طود يروق ويقهر
بهاليل منهم جعفر وابن أمه ... علىّ ومنهم أحمد المتخير
وحمزة والعباس منهم ومنهم ... عقيل وماء العود من حيث يعصر
بهم تفرج اللأواء فى كل مأزق ... عماس إذا ما ضاق بالناس مصدر
هم أولياء الله أنزل حكمه ... عليهم وفيهم ذا الكتاب المطهر

وقال كعب بن مالك فى ذلك:

نام العيون ودمع عينك يهمل ... سحا كما وكف الطباب المخضل
فى ليلة وردت علىَّ همومها ... طورًا أحن وتارة أتململ
واعتادنى حزن فبت كأننى ... ببنات نعش والسماك موكل
وكأنما بين الجوانح والحشا ... مما تأوبنى شهاب مدخل
وجدا على النفر الذين تتابعوا ... يوما بمؤتة أسندوا لم ينقلوا
صلى الإله عليهم من فتية ... وسقى عظامهم الغمام المسبل
صبروا بمؤتة للإله نفوسهم ... حذر الردى ومخافة أن ينكلوا
فمضوا أمام المسلمين كأنهم ... فنق عليهن الحديد المرفل
إذ يهتدون بجعفر ولوائه ... قدام أولهم فنعم الأول
حتى تفرجت الصفوف وجعفر ... حيث التقى وعث الصفوف مجدل
فتغير القمر المنير لفقده ... والشمس قد كسفت وكادت تأفل
قوم علا بنيانه من هاشم ... فرعا أشم وسؤددًا ما ينقل
قوم بهم عصم الإله عباده ... وعليهم نزل الكتاب المنزل
فضلوا المعاشر عزة وتكرما ... وتغمدت أحلامهم من يجهل
لا يطلقون إلى السفاه جباهم ... ويرى خطيبهم بحق يفصل

بيض الوجوه ترى بطون أكفهم تندى إذا اعتذر الزمان الممحل
وبهديهم رضى الإله لخلقه وبجدهم نصر النبى المرسل

وقال حسان بن ثابت يبكى جعفرًا:

ولقد بكيت وعز مهلك جعفر حب النبى على البرية كلها
ولقد جزعت وقلت حين نعيت لى من للجلاد لدى العقاب وظلها[1]
بالبيض حين تسل من أغمادها ضربا وإنهال الرماح وعلها
بعد ابن فاطمة المبارك جعفر خير البرية كلها وأجلها
رزءا وأكرمها جميعا محتدا وأعرها متظلما وأذلها
للحق حين ينوب غير تنحل كذبا وأنداها يدًا وأبلها
بالعرف غير محمد لا مثله حى من أحيا البرية كلها

وقال شاعر من المسلمين ممن رجع عن غزوة مؤتة:

كفى حزنا أنى رجعت وجعفر وزيد وعبدالله فى رمس أقبر
قضوا نحبهم لما مضوا لسبيلهم وخلفت للبوى مع المتغير

واستشهد يوم مؤتة من المسلمين سوى الأمراء الثلاثة - رضى الله عنهم - من قريش ثم من بنى عدى بن كعب: مسعود بن الأسود بن حارثة. ومن بنى مالك بن حسل: وهب بن سعد بن أبى سرح. ومن الأنصار: عباد بن قيس من بنى الحارث بن الخزرج، والحارث بن النعمان بن إساف من بنى غنم بن مالك بن النجار، وسراقة بن عمر بن عطية بن خنساء من بنى مازن بن النجار، وأبو كليب ويقال: أبو كلاب، وجابر ابنا عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول وهما لأب وأم. وعمر وعامر ابنا سعد بن الحارث بن عباد من بنى مالك بن أفصى. وهؤلاء الأربعة عن ابن هشام.

* * *

غزوة الفتح

وأقام رسول الله ﷺ بعد بعثه إلى مؤتة جمادى الآخرة ورجبًا.

ثم عدت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة على خزاعة، ولم يزالوا قبل ذلك متعادين، وكان الذى هاج ما بينهم أن حليفًا للأسود بن رزن الديلى خرج تاجرًا، فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه وأخذوا ماله، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة

---

(١) العقاب: اسم لراية الرسول ﷺ.

فقتلوه، فعدت خزاعة قبيل الإسلام على بنى الأسود بن رزن سلمى وكلثوم وذؤيب وهم منحر بنى كنانة وأشرافهم كانوا فى الجاهلية يودون ديتين ديتين لفضلهم فى قومهم، فقتلتهم خزاعة بعرفة عند أنصاب الحرم ثم حجز بينهم الإسلام وتشاغل الناس به.

فلما كان صلح الحديبية دخلت خزاعة فى عقد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر فى عقد قريش. فلما كانت الهدنة اغتنمتها بنو الديل فخرجوا حتى بيتوا خزاعة على الوتير[1] - ماء لهم - فأصابوا منهم رجلاً وتحاجزوا واقتتلوا ورفدت قريش بنى بكر بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفيًا.

فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا منهم وكانوا فى عقده وعهده، خرج عمرو بن سالم الخزاعى الكعبى حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة فوقف عليه وهو جالس فى المسجد بين ظهرى الناس فقال:

يا رب إنى ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولدا وكنا والدا ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... أبيض مثل البدر يسمو صعدا
إن سيم خسفًا وجهه تربدا ... فى فيلق كالبحر يجرى مزبدًا
إن قريشًا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لى فى كداء رصدا ... وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا ... هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعًا وسجدا

يقول: قتلنا وقد أسلمنا.

فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم»، ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء فقال: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب»[2]. ثم خرج بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فأخبروه بما أصيب منهم

---

(١) الوتير: اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة.

(٢) انظر الحديث فى: «دلائل النبوة للبيهقى (٥/٦، ٧)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٦٣، ١٦٤).

ومظاهرة قريش بنى بكر عليهم ثم انصرفوا راجعين إلى مكة.

وقد قال رسول الله ﷺ للناس: «كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد وليزيد فى المدة»(١).

ومضى بديل بن ورقاء فى أصحابه حتى لقوا أبا سفيان بعسفان قد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ ليشد العقد ويزيد فى المدة وقد رهبوا الذى صنعوا، فلما لقى أبو سفيان بديلا قال: من أين أقبلت يا بديل؟ وظن أنه قدأتى رسول الله ﷺ: قال: سيرت فى خزاعة فى هذا الساحل وفى بطن هذا الوادى. قال: أوما جئت محمدًا؟ قال: لا. فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان بديل جاء المدينة لقد علف بها النوى. فأتى مبرك راحلته فأخذ من بعرها ففته فرأى فيه النوى فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمدًا.

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه فقال: يا بنية، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل نجس مشرك، فلم أحب أن تجلس عليه. قال: والله يا بنية لقد أصابك بعدى شر!

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئًا، ثم ذهب إلى أبى بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به. ثم خرج حتى دخل على علىّ بن أبى طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعندها حسن بن على غلام يدب بين يديها فقال: يا على، إنك أمس القوم بى رحما وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت فاشفع لى، قال: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة فقال: يا بنت محمد، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر. قالت: والله ما بلغ بنى ذلك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ. قال: يا أبا حسن، إنى أرى الأمور قد اشتدت على فانصحنى. قال: والله ما أعلم شيئًا يغنى عنك شيئًا ولكنك سيد بنى كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك، قال: أوترى ذلك مغنيًا عنى شيئًا؟ قال: لا والله ما أظنه ولكننى لا اجد لك غير ذلك. فقام أبو

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/٢٨١).

سفيان فقال: أيها الناس، إنى قد أجرت بين الناس. ثم ركب بعيره فانطلق. فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمدًا فكلمته فوالله ما رد على شيئًا ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرًا. ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو. ويقال: أعدى العدو، ثم أتيت عليًا فوجدته ألين القوم، وقد أشار على بشىء صنعته فوالله ما أدرى هل يغنى شيئًا أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرنى أن أجير بين الناس ففعلت. قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا: ويلك! والله ما زاد الرجل على أن لعب بك فما يغنى عنك ما قلت. قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة وهى تحرك بعض جهاز رسول الله ﷺ فقال: أى بنية أمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوه؟ قالت: نعم فتجهز. قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: لا والله ما أدرى.

ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها»[(١)]؛ فتجهز الناس.

وكتب حاطب بن أبى بلتعة عند ذلك كتابا إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر فى السير إليهم ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشًا. فجعلته فى رأسها ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به. وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام فقال: أدركا امرأة كتب معها حاطب إلى قريش يحذرهم ما أجمعنا له فى أمرهم. فخرجا حتى أدركاها فاستنزلاها والتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئا، فقال لها على: أحلف بالله ما كذب رسول الله ولا كُذِبْنَا ولتخرجن هذا الكتاب أو لنكشفنك. فلما رأت الجد منه استخرجت الكتاب من قرون رأسها فدفعته إليه. فأتى به رسول الله ﷺ. فدعا رسول الله ﷺ حاطبًا فقال: «يا حاطب، ما حملك على هذا؟» قال: يا رسول الله، أما والله إنى لمؤمن بالله وبرسوله ما غيرت ولا بدلت، ولكنى كنت امرءً ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليه؛ فقال عمر: يا رسول الله دعنى فلأضرب عنقه فإن الرجل نافق. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[(٢)].

---

(١) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٦٤). البداية والنهاية لابن كثير (٤/٢٨٨٣).

(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (١/٧٩، ٨٠، ١٠٥)، سنن الترمذى (٥/٣٣٠٥)، صحيح البخارى فى كتاب الجهاد والسير (٦/٣٠٠٧).

فأنزل الله فى حاطب: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾** الآيات كلها إلى قوله: **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا حتى تؤمنوا بالله وحده﴾** [الممتحنة: ١-٤] إلى آخر القصة.

ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره حتى نزل بمر الظهران فى عشرة آلاف من المسلمين، وقيل فى اثنى عشر ألفا، فسبعت سليم وقيل: ألفت وألفت مزينة، وفى كل القبائل عدد وإسلام. وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار فلم يتخلف عنه منهم أحد.

وقد كان ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابن عمته عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة لقياه بنيق العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه وكلمته أم سلمة فيهما وهى أخت عبد الله منهما فقالت: يا رسول الله، ابن عمك وابن عمتك وصهرك. قال: «لا حاجة لى بهما، أما ابن عمى فهتك عرضى وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال لى بمكة ما قال». فلما خرج الخبر إليهما بذلك قال أبو سفيان – ومعه بنى له – والله ليأذنن لى أو لآخذن بيد بنى هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما ثم أذن لهما، فدخلا عليه فأسلما، وأنشده أبو سفيان:

لعمرك إنى يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله ... فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى
هدانى هاد غير نفسى وقادنى ... مع الله من طردت كل مطرد

فزعموا أنه لما أنشده هذا البيت ضرب رسول الله ﷺ فى صدره وقال: «أنت طردتنى كل مطرد»[1].

وعميت الأخبار عن رسول الله ﷺ على قريش، فلا يأتيهم خبر عنه ولا يدرون ما هو فاعل.

وخرج فى تلك الليالى أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار. وكان العباس بن عبد المطلب قد لقى رسول الله ﷺ ببعض الطريق مهاجرًا بعياله، وكان قبل ذلك مقيمًا بمكة على سقايته ورسول الله ﷺ عنه راض.

---

(١) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٦٥ – ١٦٧)، مستدرك الحاكم (٣/٤٣، ٤٤).

قال العباس: فلما نزل رسول الله ﷺ مر الظهران قلت: واصباح قريش والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر. فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك فقلت: لعلى أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه. فوالله إنى لأسير عليها والتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا. قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة حمستها الحرب، فيقول أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. قال: فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتى فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم. قال: مالك فداك أبى وأمى؟! قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ فى الناس واصباح قريش والله. قال: فما الحيلة فداك أبى وأمى؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك. فركب خلفى ورجع صاحباه، فجئت به كلما مر بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلته. حتى مررت بنار عمر ابن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إلى، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطىء فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد فدعنى فلأضرب عنقه. قلت: يا رسول الله، إنى قد أجرته؛ ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه فقلت: والله لا يناجيه الليلة رجل دونى. فلما أكثر عمر فى شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف. فقال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بى إلا أنى عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب، فقال رسول الله ﷺ: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فائتنى به»؛ فذهبت به إلى رحلى فبات عندى، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله ﷺ فلما رآه قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟» قال: بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئًا بعد. قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول

الله؟» قال: بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما والله هذه فإن فى نفسى منها شيئًا حتى الآن. قال له العباس: ويحك، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق وأسلم.

قال العباس: قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا. قال: «نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: «يا عباس، احبسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها». قال: فخرجت فحبسته حيث أمرنى رسول الله ﷺ أن أحبسه[١]. فمرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول: سليم. فيقول: مالى ولسليم. ثم تمر القبيلة فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: مزينة. فيقول: مالى ولمزينة. حتى نفذت القبائل ما تمر قبيلة إلا سألنى عنها فإذا أخبرته بهم قال: مالى ولبنى فلان. حتى مر رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد قال: سبحان الله، يا عباس من هؤلاء؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة! والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيمًا. قلت يا أبا سفيان إنها النبوة. قال: فنعم إذن. قلت: النجاء إلى قومك. حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن. فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمس قبح من طليعة قوم. قال: ويحكم، لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم مالا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، وما تغنى عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى ذى طوى وقف على راحلته معتجرًا بشقة برد حبرة حمراء، وإنه ليضع رأسه تواضعًا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن عثنونه ليكاد يمس وسط الرحل.

ولما وقف هناك قال أبو قحافة – وقد كف بصره – لابنة له من أصغر ولده: أى بنية

---

(١) سبق تخريجه.

اظهرى بى على أبى قبيس. فأشرفت به عليه، فقال: أى بنية ماذا ترين؟ قالت: أرى سوادًا مجتمعًا قال: تلك الخيل. قالت: وأرى رجلاً يسعى بين يدى السواد مقبلاً ومدبرًا. قال: أى بنية ذلك الوازع الذى يأمر الخيل ويتقدم إليها. ثم قالت: قد والله انتشر السواد. فقال: قد والله إذن دفعت الخيل فأسرعى بى إلى بيتى. فانحطت به، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته وفى عنق الجارية طوق من ورق فيلقاها رجل فيقتطعه من عنقها.

قالت: فلما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد أتاه أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه ﷺ قال: «هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه!» فقال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه. قال: فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ثم قال له: «أسلم». فاسلم. ورآه رسول الله ﷺ وكأن رأسه ثغامة فقال: «غيروا هذا من شعره»[1]. ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته فقال: أنشد الله والإسلام طوق أختى. فلم يجبه أحد، فقال: أى أخية احتسبى طوقك فوالله إن الأمانة اليوم فى الناس لقليل!

وأمر رسول الله ﷺ حين فرق جيشه من ذى طوى الزبير بن العوام أن يدخل فى بعض الناس من كدى، وكان على المجنبة اليسرى، و أمر سعد بن عبادة أن يدخل فى بعض الناس من كدا، فذكروا أن سعدًا حين وجه داخلا قال: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة».

فسمعها رجل من المهاجرين، قيل: هو عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال: يا رسول الله اسمع ما قال سعد، ما نأمن أن تكون له فى قريش صولة. فقال رسول الله ﷺ لعلى بن أبى طالب: «أدركه فخذ الراية فكن أنت تدخل بها»[2]. ويقال: إنه أمر الزبير بذلك وجعله مكان سعد على الأنصار مع المهاجرين. فسار الزبير بالناس حتى وقف بالحجون وغرز بها راية رسول الله ﷺ.

وذكر غير ابن إسحاق أن ضرار بن الخطاب قال - يومئذ - شعرًا استعطف فيه رسول الله ﷺ على قريش حين سمع قول سعد، وهو من أجود شعر قاله:

يا نبى الهدى إليك لجاحى قريش ولات حين لجاء

---

(١) ذكره الحاكم فى المستدرك (٣/٤٦، ٤٧)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٧٣، ١٧٤).

(٢) انظر الحديث فى: الإصابة لابن حجر (٥/٢٥٤)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٦٩).

حين ضاقت عليهم سعة الأر ض وعاداهم إله السماء
والتقت حلقتا البطان على القو م ونودوا بالصيلم الصلعاء
إن سعدًا يريد قاصمة الظهـ ـر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجى لو يستطيع من الغيـ ـظ رمانا بالنسر والعواء
فانهينه فإنه الأسد الأسـ ـود والليث والغ فى الدماء
فلئن أقحم اللواء ونادى يا حماة اللواء أهل اللواء
لتكونن بالبطاح قريش فقعة القاع فى أكف الإماء

فحينئذ انتزع رسول الله ﷺ الراية من سعد بن عبادة فيما ذكروا. والله أعلم.

وأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد - وكان على المجنبة اليمنى - فدخل من الليط أسفل مكة، فلقيته بنو بكر فقاتلوه فقتل منهم قريب من عشرين رجلاً ومن هذيل ثلاثة أو أربعة، وانهزموا وقتلوا بالحزورة حتى بلغ قتلهم باب المسجد، وهرب فضضهم حتى دخلوا الدور، وارتفعت طائفة منهم على الجبال واتبعهم المسلمون بالسيوف.

وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدى رسول الله ﷺ.

ودخل رسول الله ﷺ من أذاخر فى المهاجرين الأولين حتى نزل بأعلى مكة وضربت هناك قبته. ولما علا رسول الله ﷺ ثنية كداء نظر إلى البارقة على الجبل مع فضض المشركين فقال: ما هذا وقد نهيت عن القتال؟ فقال المهاجرون: نظن أن خالدًا قوتل وبدىء بالقتال فلم يكن بد من أن يقاتل من قاتله، وما كان يا رسول الله ليعصيك ولا ليخالف أمرك. فهبط رسول الله ﷺ من الثنية فأجاز على الحجون.

واندفع الزبير بن العوام بمن معه حتى وقف بباب الكعبة.

وجرح رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أنه قد عهد فى نفر سماهم أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة منهم: عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وكان قد أسلم وكتب الوحى لرسول الله ﷺ ثم ارتد مشركًا ففر يومئذ إلى عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة فغيبه حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن الناس فاستأمن له. فزعموا أن رسول الله ﷺ صمت طويلا ثم قال: «نعم». فلما انصرف عنه عثمان قال رسول الله ﷺ لمن

حوله من أصحابه: «لقد صمت ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه». فقال رجل من الأنصار: فهلا أومأت إلى يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن النبى لا يقتل بالإشارة»[1]. وفى رواية: «إن النبى لا ينبغى أن تكون له خائنة أعين».

ومنهم: عبد الله بن خطل - رجل من بنى تيم بن غالب - كان مسلمًا فبعثه رسول الله ﷺ مصدقا وكان معه رجل مسلم يخدمه فأمره أن يصنع له طعاما ونام، فاستيقظ ولم يصنع له شيئًا فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركًا، وكانت له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ، فأمر بقتلهما معه، فقتلت إحداهما وهربت الأخرى حتى استؤمن لها رسول الله ﷺ فأمنها.

وقيل - يومئذ - لرسول الله ﷺ: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة؛ فقال: «اقتلوه». فقتله سعيد بن حريث المخزومى وأبو برزة الأسلمى اشتركا فى دمه.

ومنهم: الحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد بن قصى وكان ممن يؤذى رسول الله ﷺ بمكة، ولما حمل العباس بن عبد المطلب فاطمة وأم كلثوم بنتى رسول الله ﷺ من مكة يريد بهما المدينة نخس بهما الحويرث هذا فرمى بهما إلى الأرض، فقتله يوم الفتح على بن أبى طالب.

ومنهم: مقيس بن صبابة الليثى، وكان أخوه هشام بن صبابة قد قتله رجل من الأنصار خطأ فقدم مقيس بعد ذلك على رسول الله ﷺ المدينة مظهرًا الإسلام حتى إذا وجد غرة من قاتل أخيه عدا عليه فقتله ثم لحق بقريش مشركًا. وقد تقدم ذكر ذلك فلأجله أمر رسول الله ﷺ بقتله، فقتله نميلة بن عبد الله - رجل من قومه - فقالت أخت مقيس فى ذلك:

لعمرى لقد أخزى نميلة رهطه ... وفجع أضياف الشتاء بمقيس

فلله عينا من رأى مثل مقيس ... إذا النفساء أصبحت لم تخرس

ومنهم سارة مولاة لبنى عبد المطلب ولعكرمة بن أبى جهل، وكانت تؤذى رسول الله ﷺ بمكة فاستؤمن لها فأمنها وبقيت حتى أوطأها رجل من الناس فرسًا فى زمان عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها.

وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو قد جمعوا أناسًا بالخندمة ليقاتلوا، فيهم حماس بن قيس بن خالد أخو بنى بكر، وكان قد أعد سلاحًا

(١) انظر الحديث فى: سنن أبو داود (٢٦٨٣/٣). سنن النسائى (٤٠٧٨/٧).

وأصلح منها فقالت له امرأته: لماذا تعد ما أرى؟ قال: لمحمد واصحابه. قالت: والله ما أراه يقوم لمحمد شيء! قال: والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم! ثم قال:

إن يقبلوا اليوم فما لى علـه   هـذا سلاح كامل وألـه
وذو غرارين سريع السله[1]

ثم شهد الخندمة، فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد ناوشوهم شيئًا من قتال، فقتل كرز بن جابر وخنيس بن خالد كانا فى خيل خالد فشذا عنه وسلكا طريقًا غير طريقه فقتلا جميعًا وأصيب سلمة بن الميلاء الجهنى من خيل خالد، وأصيب من المشركين ناس ثم انهزموا فخرج حماس منهزمًا حتى دخل بيته وقال لامرأته: أغلقى على بابى.

قالت: فأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنك لو شهدت يوم الخندمه   إذ فر صفوان وفر عكرمه
واستقبلتهم بالسيوف المسلمه   يقطعن كل ساعد وجمجمه
ضربا فلا يسمع إلا غمغمه   لهم نهيت خلفنا وهمهمه
لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمه[2]

وقال رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد: «لم قاتلت وقد نهيتك عن القتال؟» قال: هم بدأونا ووضعوا فينا السلاح وأشعرونا النبل، وقد كففت يدى ما استطعت. فقال رسول الله ﷺ: «قضاء الله خير».

وفر - يومئذ - صفوان بن أمية عامدًا للبحر وعكرمة بن أبى جهل عامدًا لليمن، فأقبل عمير بن وهب بن خلف إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبى الله، إن صفوان بن أمية سيد قومه وقد خرج هاربًا منك ليقذف نفسه فى البحر فأمنه صلى الله عليك فإنك قد أمنت الأحمر والأسود. فقال رسول الله ﷺ: «أدرك ابن عمك فهو آمن». قال: يا رسول الله، فأعطنى آية يعرف بها أمانك. فأعطاه رسول الله ﷺ عمامته التى دخل فيها مكة. فخرج بها عمير حتى أدركه بجدة وهو يريد أن يركب البحر فقال: يا صفوان فداك أبى وأمى! الله الله فى نفسك أن تهلكها فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به قال: وَيلك اغرب عنى فلا تكلمنى.

---

(١) ذو غرارين: أى بها سيفًا، والغرار: الحد.

(٢) النهيب: نوع من صياح الأسد. والهمهمة: صوت فى الصدر.

قال: أى صفوان فداك أبى وأمى! أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس ابن عمك، عزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك.

قال: إنى أخافه على نفسى. قال: هو أحلم من ذلك وأكرم. فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ﷺ فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك أمنتنى. قال: «صدق». قال: فاجعلنى فيه بالخيار شهرين. قال: «أنت بالخيار أربعة أشهر»[(١)].

وأقبلت أم حكيم بنت الحارث بن هشام وكانت تحت عكرمة بن أبى جهل وهى مسلمة - يومئذ - فقالت: يا رسول الله، آمن زوجى وائذن لى فى طلبه. فأذن لها وأمنه فأدركته ببعض تهامة وقيل: باليمن فأقبل معها وأسلم، فلما رآه رسول الله ﷺ وثب إليه فرحًا وما عليه رداء.

وكانت فاختة بنت الوليد تحت صفوان بن أمية، وكانت أسلمت أيضًا، فلما أسلم عكرمة وصفوان أقر رسول الله ﷺ كل واحدة منهما عند زوجها على النكاح الأول.

وقالت أم هانىء بنت أبى طالب وكانت عند هبيرة بن أبى وهب المخزومى: لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة فر إلى رجلان من أحمائى من بنى مخزوم فدخل على أخى على بن أبى طالب فقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما بيتى ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة فوجدته يغتسل من جفنة إن فيها لأثر العجين وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ثم صلى ثمانى ركعات من الضحى ثم انصرف إلى فقال: «مرحبا وأهلا يا أم هانىء، ما جاء بك؟» فأخبرته خبر الرجلين وخبر على فقال: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء وأمنا من أمنت فلا يقتلهما»[(٢)].

قال ابن هشام: هما الحارث بن هشام وزهير بن أبى أمية بن المغيرة.

ولما نزل رسول الله ﷺ مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعًا على راحلته ليستلم الركن بمحجن فى يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده، ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة فقال:

«لا إله إلا الله، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة

---

(١) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٥/٩٧)، موطأ مالك (٢/٥٤٣، ٤٤/٥٤٤).
(٢) انظر الحديث فى: صحيح مسلم فى كتاب المسافرين (١/٤٩٨/٨٢)، سنن أبى داود (٣/٢٧٦٣)، سنن الترمذى (٤/١٥٧٩).

أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد السوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل أربعون منها فى بطونها أولادها، يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس لآدم وآدم من تراب». ثم تلا هذه الآية: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾ [الحجرات: ١٣].

ثم قال: «يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل فيكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. ثم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»(١).

ثم جلس رسول الله ﷺ فى المسجد فقام إليه على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ومفتاح الكعبة فى يديه، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة»؟ فدعى له فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء». وقال لعلى فيما حكى ابن هشام: «إنما أعطيكم ما ترزأون لا ما ترزأون»(٢).

وذكر ابن عقبة أن رسول الله ﷺ لما قضى طوافه نزل فأخرجت الراحلة فركع ركعتين ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال: «لولا أن يغلب بنو عبد المطلب على سقياتهم لنزعت منها بيدى». ثم انصرف إلى ناحية المسجد قريبًا من مقام إبراهيم - وكان المقام لاصقًا بالكعبة - فأخذه رسول الله ﷺ ودعا رسول الله ﷺ بسجل من ماء فشرب وتوضأ والمسلمون يبتدرون وضوءه يصبونه على وجوههم والمشركون ينظرون إليهم ويعجبون ويقولون: ما راينا ملكا قط بلغ هذا ولا سمعنا به!

وذكر ابن هشام - أيضًا - أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم، فرأى إبراهيم مصورًا فى يده الأزلام يستقسم بها، فقال: «قاتلهم الله! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام؟! ما شأن إبراهيم والأزلام» ﴿**ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين**﴾ [آل عمران: ٦٧] ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست(٣).

---

(١) انظر الحديث فى: فتح البارى لابن حجر (٦١٢/٧)، السنن الكبرى للبيهقى (١١٨/٩).

(٢) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (١٧٧/٦).

(٣) انظر الحديث فى: سنن أبو داود (٢٠٢٧/٢)، سنن البيهقى (١٥٨/٥)، المطالب العالية لابن حجر (٤٣٦٤/٤).

وعن ابن عباس قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلته فطاف عليها وحول البيت أصنام مشددة بالرصاص فجعل النبى يشير بقضيب فى يده إلى الأصنام وهو يقول: ﴿**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا**﴾ [الإسراء: ٨١] فما أشار إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع لقفاه ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقى صنم إلا وقع. فقال تميم بن أسد الخزاعى:

وفى الأصنام معتبر وعلم ... لمن يرجو الثواب أو العقابا

وأراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثى قتل النبى ﷺ وهو بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ: «أفضالة؟» قال: نعم فضالة يا رسول الله قال: «ماذا كنت تحدث نفسك؟» فقال: لا شىء، كنت أذكر الله. فضحك النبى ﷺ ثم قال: «استغفر الله»، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه. فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شىء أحب إلى منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت: هلم إلى الحديث: فقلت لا. وانبعث فضالة يقول:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك الله والإسلام

لو ما رأيت محمد وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بينا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

وأمر رسول الله ﷺ لما دخل الكعبة عام الفتح بلالا أن يؤذن، وكان دخل معه، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيدًا أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته. وقال أبو سفيان: لا أقول شيئًا، لو تكلمت لأخبرته عنى هذه الحصباء! فخرج عليهم النبى ﷺ فقال: «قد علمت الذى قلتم»[1] ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

وقام رسول الله ﷺ حين افتتح مكة على الصفا يدعو وقد أحدقت به الأنصار، فقالوا فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها.

فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا شىء يا رسول الله. فلم يزل بهم حتى

---

(١) انظر الحديث فى: تفسير ابن كثير (١٣٢/٣).

أخبروه فقال: «معاذ الله! المحيا محياكم والممات مماتكم»[1].

وعدت خزاعة الغد من يوم الفتح على رجل من هذيل يقال لـه: ابـن الأثـوع فقتلـوه وهو مشرك برجل من أسلم يقال له: أحمر بأسا وكـان رجلا شجاعا وكـان إذا نـام غـط غطيطا منكرًا لا يخفى مكانه فكان يبيت فى حيـه معتنزًا، فـإذا بيـت الحى صرخـوا: يـا أحمر. فيثور مثل الأسد لا يقوم لسبيله شـى. فـأقبل غـزى مـن هذيـل يريـدون حـاضره، حتى إذا دنوا من الحاضر قال ابن الأثوع الهـذلى: لا تعجلـوا حتـى أنظـر فـإذا كـان فـى الحاضر أحمر فلا سبيل إليهم فإن له غطيطًا لا يخفى. فاسـتمع فلمـا سـمع غطيطـه مشـى إليه حتى وضع السيف فى صدره ثم تحـامل عليـه حتـى قتلـه. ثـم أغـاروا علـى الحـاضر فصرخوا: يا أحمر ولا أحمر لهم! فلما كان الغد من يـوم الفتـح أتـى ابـن الأثـوع الهـذلى حتى دخل مكة ينظر ويسـأل عـن أمـر النـاس وهـو علـى شـركه فرأتـه خزاعـة فعرفـوه فأحاطوا به وهو إلى جنب جدار من جدر مكة يقولون: أنت قاتل أحمـر؟ قـال: نعـم أنـا قاتل أحمر فمه. إذ أقبل خراش بن أمية مشتملا على السـيف فقـال: هكـذا عـن الرجـل. قال بعض من حضرهم: ووالله ما نظن إلا أنه يريد أن يفـرج النـاس عنـه، فلمـا تفرجـوا حمل عليه فطعنه بالسيف فى بطنه، فوالله لكأنى أنظر إليه وحشوته تسـيل مـن بطنـه وإن عينيه لترنقان فى رأسه وهو يقول: أقد فعلتموها يا معشر خزاعة! حتى انجعف فوقع.

فقال رسول الله ﷺ لما بلغه ما صنع خراش بن أمية: «إن خراشًا لقتال». يعيبه بذلـك. وقام ﷺ فى الناس خطيبًا فقال: «يا أيها الناس، إن الله حـرم مكـة يـوم خلـق السـموات والأرض، فهى حرام من حرام الله إلى يوم القيامة، فلا يحـل لامـرىء يؤمـن باللـه واليـوم الآخر أن يسفك فيها دمًا ولا يعضد فيهـا شـجرًا، لـم تحلـل لأحـد كـان قبلـى ولا تحـل لأحد يكون بعدى، ولـم تحل لى إلا هذه الساعة غضبًـا علـى أهلهـا؛ ألا ثـم قـد رجعـت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول اللـه قـد قـاتل. فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم. يـا معشـر خزاعـة ارفعـوا أيديكـم عـن القتل فقد كثر القتل أن يقع لقد قتلتم قتيلاً لأدينه؛ فمن قتل بعـد مقـامى هـذا فهـم بخـير النظرين إن شاءوا فدم قاتله وإن شاءوا فعقله»[2].

ثم ودى رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذى قتلت خزاعة.

---

(١) انظر الحديث فى: سنن الدارقطنى (٥٩/٢٣٢/٣، ٦٠)، مسند الإمام أحمد (٥٣٨/٢).

(٢) انظر الحديث فى: صحيح مسلم (٩٨٧/٢، ٩٨٨، ٤٤٦)، سنن الترمذى (٨٠٩/٣).

وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصر الصلاة. وكان فتحها لعشر ليال بقين من رمضان سنة ثمان.

وكان مما قيل من الشعر فى فتح مكة قول حسان بن ثابت، وذكر ابن هشام أنه قالها قبل الفتح:

عفت ذات الأصابع فالجواء ... إلى عذراء منزلها خلاء(١)
ديار من بنى الحسحاس قفر ... تعفيها الروماس والسماء(٢)
وكانت لا يزال بها أنيس ... خلال مروجها نعم وشاء
فدع هذا ولكن من لطيف ... يؤرقنى إذا ذهب العشاء
لشعثاء التى قد تيمته ... فليس لقلبه منه شفاء
كأن سيئة من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء
إذا ما الأشربات ذكرن يوما ... فهن لطيب الراح الفداء
نوليها الملامة إن ألمنا ... إذا ما كان مغث أو لحاء
ونشربها فتتركنا ملوكا ... وأسدًا ما ينهنهنا اللقاء
عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأعنة مصغيات ... على أكتافها الأسل الظماء(٣)
تظل جيادنا متمطرات ... يلطمهن بالخمر النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم ... يعز الله فيه من يشاء
وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء
وقال الله قد أرسلت عبدًا ... يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه ... فقلتم لا نقوم ولا نشاء
وقال الله قد يسرت جندًا ... هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا فى كل يوم من معد ... سباب أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوافى من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء

---

(١) عفت: أى درست وتغيرت.

(٢) الحسحاس: الرجل الجواد الذى يطرد الجوع بسخائه. والروامس: الرياح التى تثير التراب فترمى به الآثار.

(٣) مصغيات: أى مستمعات. والأسل: أى الرماح.

ألا أبلــغ أبــا ســفيان عنــى مغلغلــة فقــد بــرح الخفــاء
هجــوت محمــدًا وأجبــت عنــه وعنــد اللــه فــى ذاك الجــزاء
أتهجــوه ولســت لــه بكــفء فشــركما لخيركمــا الفــداء
هجــوت مباركــا بــرا حنيفــا أمــين اللــه شــيمته الوفــاء
أمــن يهجــو رســول اللــه منكــم ويمدحــه وينصــره ســواء
فــإن أبــى ووالــده وعرضــى لعــرض محمــد منكــم وقــاء
لسانى صــارم لا عيــب فيــه وبحــرى لا تكــدره الــدلاء

وقول ابن هشام: إن حسان قال هذا الشعر قبل الفتح ظاهر فى غير ما شىء من مقتضياته، ومن ذلك: مقاولته لأبى سفيان وهو ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ. وقد أسلم قبل الفتح فى طريق رسول الله ﷺ إلى مكة كما تقدم.

وكذلك ذكر ابن عقبة أن حسان قاله فى مخرج رسول الله ﷺ إلى مكة، وأن رسول الله ﷺ لما دخل مكة نظر إلى النساء يلطمن الخيل بالخمر فالتفت إلى أبى بكر فتبسم لقول حسان فى ذلك: يلطمهن بالخمر النساء.

وقال أنس بن زنيم الديلى يعتذر إلى رسول الله ﷺ مما قال فيهم عمرو بن سالم الخزاعى:

وأنــت الــذى تهــدى معــد بــأمره بل الله يهديهم وقــال لــك اشــهد
وما حملت من ناقة فوق رحلها أبــر وأوفــى ذمــة مــن محمــد
أحث على خير وأسبغ نــائلا إذ راح كالسيف الصقيل المهنــد
وأكسى لبرد الخال قبل ابتذاله وأعطى لــرأس السابق المتجــرد
تعلم رسول الله أنك مدركى وأن وعيدًا منك كالأخذ بــاليد
تعلــم رســول اللــه أنــك قــادر على كل صرم متهمين ومنجد
تعلم بأن الركب ركب عويمر هم الكاذبون المخلفون كل موعد
ونبوا رسول الله أنــى هجوته فلا حملت سوطى إلى إذن يدى
سوى أننى قد قلت ويلم فتية أصيبوا بنحس لائط وبأسعد
ذويب وكلثوم وسلمى تتابعوا جميعا فإن لا تدمع العين أكمد
أصابهم مــن لــم يكــن لدمائهم كفاء فعزت عبرتى وتبلــدى

وقال بجير بن زهير بن أبى سلمى فى يوم الفتح:

نفـى أهـل الحبلـق كـل فـج ... مزينـة غـدوة وبنـو خفـاف
ضربناهم بمكـة يـوم فتـح النـ ... ـبى الخـير بـالبيض الخفـاف
صبحنـاهم بسـلع مـن سـليم ... وألـف مـن بنـى عثمـان واف
نطـا أكتـافهم ضربـا وطعنـا ... ورشـقا بالمريشـة اللطـاف(١)
تـرى بـين الصفـوف لهـا حفيفـا ... كما انصاع الفواق مـن الرصـاف
فرحنـا والجيـاد تجـول فيهـم ... بأرمـاح مقومـة الثقـاف
فأبنـا غـانمين بمـا اشـتهينا ... وآبـوا نـادمين علـى الخـلاف
وأعطينـا رسـول اللـه منـا ... مواثقنـا علـى حسـن التصـافى
وقـد سمعـوا مقالتنـا فهمـوا ... غـداة الـروع منـا بانصـراف

وقال عباس بن مرداس السلمى فى فتح مكة:

منـا بمكـة يـوم فتـح محمـد ... ألف تسيل به البطـاح مسوم(٢)
نصـروا الرسـول وشاهدوا أيامـه ... وشـعارهم يـوم اللقـاء مقـدم
فـى مـنزل ثبتـت بـه أقدامهـم ... ضنك كـأن الهـام فيـه الحنتـم
جـرت سـنابكها بنجـد قبلهـا ... حتى استعاد لهـا الحجـاز الأدهـم
اللـه مكنـه لـه وأذلـه ... حكـم السيوف لنا وجـد مزحـم

وقال نجيد بن عمران الخزاعى:

وقد أنشـأ اللـه السـحاب بنصرنـا ... ركام صحاب الهيـدب المتراكب
وهجرتنـا فـى أرضنـا عندنـا بهـا ... كتاب أتى من خير ممل وكـاتب
ومن أجلنا حلت بمكـة حرمـة ... لندرك ثأرًا بالسيوف القواضـب

ولما فتح الله علـى رسوله ﷺ مكـة بعث السـرايا فيمـا حولهـا يدعـو إلى الله، ولـم يأمرهم بقتال.

وكان ممن بعث خالد بن الوليد، وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعيًا ولم يبعثه مقـاتلا، ومعه قبائل من العرب، فوطئوا بنى جذيمة بن عـامر بـن عبـد منـاة بـن كنانـة. فلمـا رآه القوم أخذوا السلاح، فقال خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا. فقال رجل منهـا يقال له جحدم: ويلكم يا بنى جذيمة إنه خالد! والله ما بعد وضـع السـلاح إلا الإسـار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحى أبدًا. فأخذه رجـال مـن قومـه

(١) رشقًا: أى الرمى السريع. والمريشة: أى السهام التى لها ريش.
(٢) البطاح: جمع بطحاء، وهى الأرض السهلة المتسعة. مسوم: أى مرسل.

فقالوا: ياجحدم، أتريد أن تسفك دماءنا؟ إن الناس قد أسلموا ووضعت الحرب وأمن الناس، فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ووضع القوم السلاح لقول خالد.

فلما وضعوه أمر بهم خالد عند ذلك فكتفوا ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم. وقال لهم جحدم حين وضعوا سلاحه ورأى ما يصنع بهم: يا بنى جذيمة ضاع الضرب! قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه.

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء ثم قال: «اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»[1]. وقال رسول الله ﷺ لرجل انفلت منهم فأتاه بالخبر: «هل أنكر عليه أحد؟» فقال: نعم، قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة فنهمه خالد فسكت عنه، وأنكر عليه رجل أحمر مضطرب فرجعه فاشتدت مراجعتهما. فقال عمر بن الخطاب: أما الأول يا رسول الله فابنى عبد الله، وأما الآخر فسالم مولى أبى حذيفة.

وذكروا أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت كأنى لقمت لقمة من حيس فالتذذت طعمها فاعترض فى حلقى منها شىء حين ابتعلتها فأدخل على يده فنزعه». فقال أبو بكر: هذه سرية من سراياك تبعثها فيأتيك منها بعض ما تحب ويكون فى بعضها اعتراض فتبعث عليا فيسهله[2].

ثم لما كان من خالد فى بنى جذيمة ما كان دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فقال: «يا على اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك». فخرج على حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ فودى لهم الدماء وما أصيب من الأموال حتى إنه ليدى لهم ميلغة الكلب، حتى إذا لم يبق شىء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال فقال لهم على حين فرغ منه: هل بقى دم أو مال لم يود لكم؟ قالوا: لا؛ قال: فإنى أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطا لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون.

ففعل ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فقال: «أصبت وأحسنت».

ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة قائمًا شاهرًا يديه حتى إنه ليرى ما تحت منكبيه يقول: «اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»[3]، ثلاث مرات.

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٦٣٨٢/٢)، السنن الكبرى للبيهقى (١١٥/٩).

(٢) ذكره ابن حجر فى فتح البارى (٦٥٥/٧).

(٣) انظر الحديث فى: فتح البارى لابن حجر (٦٥٥/٧).

وقد قال بعض من يعذر خالدًا: إنه قال: ما قاتلت حتى أمرنى بذلك عبد الله بن حذافة السهمى وقال: إن رسول الله ﷺ أمر أن تقاتلهم لامتناعهم من الإسلام.

وحدث ابن أبى حدرد الأسلمى قال: كنت يومئذ فى خيل خالد بن الوليد فقال لى فتى من بنى جذيمة وهو فى سنى وقد جمعت يداه إلى عنقه برمة ونسوة مجتمعات غير بعيد منه: يا فتى. قلت: ما تشاء؟ قال: هل أنت آخذ بهذه الرمة فقائدى إلى هؤلاء النسوة حتى أقضى إليهن حاجة ثم تردنى بعد فتصنعوا بى بعد ما بدا لكم؟ قال قلت: والله ليسير ما طلبت. فأخذت برمته فقدته بها أوقفته عليهن فقال: اسلمى حبيش على نفد العيش:

أريتك إذ طالبتكم فوجدتكم	بحلية أو ألفيتكم بالخوانق
ألم يك أهلا أن ينول عاشق	تكلف إدلاج السرى والودائق
فلا ذنب لى قد قلت إذا أهلنا معا	أثيبى بود قبل إحدى الصفائق
أثيبى بود قبل أن تشحط النوى	وينأى الأمير بالحبيب المفارق

فقالت: وأنت فحييت سبعًا وعشرًا وترًا وثمانيا تترى. قال: ثم انصرفت به فضربت عنقه. فحدث من حضرها أنها قامت إليه حين ضربت عنقه فما زالت تقبله حتى ماتت عنده.

وخرج النسائى هذه القصة فى مصنفة فى باب «قتل الأسارى» من حديث ابن عباس أن النبى ﷺ بعث سرية فغنموا وفيهم وفيهم رجل قال: إنى لست منهم، عشقت امرأة فلحقتها فدعونى أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا بى ما بدا لكم. قال: فإذا امرأة طويلة أدماء فقال: اسلمى حبيش قبل نفد العيش وذكر بعض الشعر المتقدم وبعده: قالت: نعم فديتك. قال: فقدموه فضربوا عنقه فجاءت المرأة فوقفت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر فقال ﷺ: «أما كان فيكم رجل رحيم».

ثم بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى العزى وكانت بنخلة، وكان بيتًا تعظمه قريش وكنانة ومضر كلها، وكان سدنتها وحجابها بنى شيبان من بنى سليم حلفاء بن هاشم، فلما سمع صاحبها السلمى بسير خالد إليها علق عليها سيفه وأسند فى الجبل الذى هو فيه وهو يقول:

أيا عز شدى شدة لا شوى لها	على خالد ألقى القناع وشمرى

أيا عز إن لم تقتلى المرء خالدا   فبوئى بإثم عاجل أو تنصرى

فلما انتهى إليها خالد هدمها. ثم رجع إلى رسول الله ﷺ.

* * *

غزوة حنين[١]

ولما سمعت[٢] هوازن برسول الله ﷺ وما فتح الله عليه من مكة، جمعها مالك بن عوف النضرى، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها، واجتمعت نضر وجشم كلها، وسعد بن بكر وناس من بنى هلال وهم قليل، ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء. وفى بنى جشم دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه شىء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب، وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف.

فلما أجمع السير إلى رسول الله ﷺ حط مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فلما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس وفيهم دريد بن الصمة فى شجار[٣] له يقاد به، فلما نزل قال: «فى أى واد أنتم؟» قالوا: بأوطاس. قال: «نعم مجال الخيل لا حزن ضرس[٤] ولا سهل دهس[٥]، ما لى أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير ويعار الشاء؟» قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أمولهم ونساءهم وأبناءهم. قال: «أين مالك؟» فدعى له فقال: «يا مالك، إنك أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم له ما بعده، ما لى أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء؟» قال: سقت مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم قال: فانقض به، وقال: «راعى ضأن والله! وهل يرد المنهزم شىء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك».

ثم قال: «ما فعلت كعب وكلاب؟» قالوا: لم يشهدها منهم أحد. قال: «غاب

---

(١) راجع هذه الغزوة فى: المنتظم لابن الجوزى (٣/٣٣١ - ٣٤١)، مغازى الواقدى (٣/٨٨٥)، طبقات ابن سعد (٢/١/١٠٨)، تاريخ الطبرى (٣/٧١)، الكامل (٢/١٣٥)، البداية والنهاية (٤/٣٢٢).

(٢) انظر: السيرة (٤/٧١).

(٣) شجار: شبه الهودج إلا أنه مكشوف من أعلى.

(٤) الحزن: المرتفع من الأرض. الضرس: الذى فيه حجارة محددة.

(٥) سهل دهس: هو كل لين سهل لا يبلغ أن يكون رملاً وليس بتراب ولا طين.

الحد[1] والجد لو كان يوم علاء ورفعة لـم تغب عنه كعب وكلاب، ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب، فمن شهدها منكم؟» قالوا: عمرو بن عامر وعوف بن عامر. قال: «ذانك الجذعان[2] لا ينفعان ولا يضران! يا مالك، إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم ثم الق الصُّبَّاءَ[3] على متون الخيل فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك».

قال: والله لا أفعل، إنك قد كبرت وكبر عقلك والله لتطيعنني يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو أرى، قالوا: أطعناك.

فقال دريد ابن الصمة: هذا يوم لم أشهده ولم يفتنى:

ياليتنى فيها جذع أخب فيها وأضع[4]

ثم قال مالك للناس: إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدة رجل واحد.

وبعث مالك بن عوف عيونًا من رجاله، فأتوه وقد تفرقت أوصالهم فقال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالا بيضًا على خيل بلق والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، فوالله ما رده ذلك عن وجهه أن مضى علىما يريد.

ولما سمع بهم نبى الله ﷺ بعث إليهم عبدالله بن أبى حدرد الأسلمى وأمره أن يدخل فى الناس، ويقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن أبى حدرد فدخل فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا عليه من حرب رسول الله ﷺ، وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم له ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر[5].

---

(١) غاب الحد: أى غابت الشجاعة والحدة.

(٢) الجذعان: يريد أنهما ضعيفان بمنزلة الجذع فى سنه.

(٣) الصباء: مفردها صابىء وكانوا يسمون المسلمون صباء.

(٤) يا ليتنى فيها جذع: يتمنى أن يكون فى هذه الحرب شابًا لم تحطمه الأيام. وأخب: من الخبب، وهو ضرب من السير.

(٥) ذكر فى السيرة (٧٣/٤) زيادة فى هذا الموضع فقال: «... فأخبره الخبر، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب، فأخبره الخبر فقال عمر: كذب ابن أبى حدرد، فقال ابن أبى حدرد: إن=

فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعًا وسلاحًا فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال: «يا أبا أمية، أعرنا سلاحك هذا نلقى فيها عدونا غدًا»، فقال صفوان: أغصبا يا محمد؟ فقال: «بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك»، قال: ليس بهذا بأس. فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيهم حملها ففعل(١).

ثم خرج أن رسول الله ﷺ عامدًا لحنين معه ألفان من أهل مكة وعشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكة، فكانوا اثنى عشر ألفًا.

وذكر(٢) أن رسول الله ﷺ قال حين فصل من مكة إلى حنين ورأى كثرة من معه من جنود الله: «لن نغلب اليوم من قلة»(٣). وزعم بعض الناس أن رجلاً من بنى بكرة قالها.

واستعمل رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس(٤) على مكة أميرًا على من تخلف عنه من الناس. ثم مضى رسول الله ﷺ على وجهه يريد لقاء هوازن.

قال ابن عقبة: وكان أهل حنين يظنون حين دنا منهم رسول الله ﷺ يعنى فى توجهه إلى مكة أنه بادىء بهم، وصنع الله لرسوله ما هو أحسن من ذلك، فتح له مكة فأقر بها عينه وكبت بها عدوه.

=كذبتنى فربما كذبت بالحق يا عمر، فقد كذبت من هو خير منى، فقال عمر: يا رسول الله، ألا تسمع ما يقول ابن أبى حدرد؟ فقال رسول الله ﷺ: «قد كانت ضالاً فهداك الله يا عمر».
هكذا وردت هذه الزيادة فى السيرة.
وانظر هذه الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٣٢٤/٤)، دلائل النبوة للبيهقى (١٢١/٥).

(١) انظر الحديث فى: مستدرك الحاكم (٤٨/٣، ٤٩)، السلسلة الصحيحة للألبانى (٦٣١)، السنن الكبرى للبيهقى (٨٩/٦).

(٢) انظر: السيرة (٧٧/٤).

(٣) انظر الحديث فى: مستدرك الحاكم (٤٤٣/١)، سنن أبى داود (٢٦١١/٣)، سنن الترمذى (١٥٥٥/٤).

(٤) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٧٧٥)، الإصابة الترجمة رقم (٥٤٠٧)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٥٣٨)، الثقات (٣٠٤/٣)، تجريد أسماء الصحابة (٣٧٠/١)، تقريب التهذيب (٣/٢) خلاصة تذهيب (٢٠٨/٢)، شذرات الذهب (٥٦/١)، العبر (١٦/١)، تهذيب الكمال (٩٠٠/٢)، مشاهير علماء الأمصار (١٥٥).

فلما خرج ﷺ إلى حنين خرج معه أهل مكة ركبانًا ومشاة، حتى خرج معه النساء يمشين على غير دين نظارًا ينظرون ويرجون الغنائم، ولايكرهون أن تكون الصدمة برسول الله ﷺ وأصحابه.

وحدث[1] أبو واقد الليثى قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثوا عهد بالجاهلية، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة خضراء عظيمة يقال لها: ذات أنواط. يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ويعكفون عليها يومًا، قال: فرأينا ونحن نسير معه سدرة خضراء عظيمة فتنادينا من جنبات الطريق: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر! قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى: ﴿**اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون**﴾ [الأعراف: ١٣٨] فإنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم»[2].

وحدث[3] جابر بن عبدالله قال: لما استقبلنا وادى حنين انحدرنا فى واد من أودية تهامة أجوف حطوط إنما ننحدر فيه انحدارًا قال: وذلك فى عمامة الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى فكمنوا لنا فى شعابه وأحنائه ومضايقه، قد أجمعوا وتهيأوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد.

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ثم قال: «أيها الناس هلم إلى أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله» قال: فلا شيء! حملت الإبل بعضها على بعض وانطلق الناس، إلا أنه قد بقى مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، وفيمن ثبت معه من المهاجرين: أبو بكر وعمرو ومن أهل بيته على بن أبى طالب والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه والفضل بن عباس وربيعة بن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن بن عبيد وهو ابن أم أيمن قتل يومئذ[4].

قال[5]: ورجل من هوازن على جمل له أحمر بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل

---

(١) انظر: السيرة (٤/٧٥).

(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٥/٢١٨)، سنن الترمذى (٤/٢١٨٠).

(٣) انظر: السيرة (٤/٧٥).

(٤) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣/٣٧٦)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٧٩).

(٥) انظر: السيرة (٤/٧٦).

أمام هوازن وهم خلفه، إذا أدرك طعن برمحه وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه، فبينا ذلك الرجل يصنع ما يصنع إذا أهوى له على بن أبى طالب ورجل من الأنصار يريدانه قال: فيأتى على من خلفه فضرب عرقوبى الجمل فوقع على عجزه ووثب الأنصارى على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه فانجعف عن رحله.

قال ابن إسحاق[١]: فلما انهزم الناس ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمة تكلم رجال منهم بما فى أنفسهم من الضغن فقال أحدهم: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر. وإن الأزلام لمعه فى كنانته. وصرخ آخر منهم: ألا بطل السحر اليوم! فقال له صفوان بن أمية وهو يومئذ مشرك فى المدة التى جعل له رسول الله ﷺ: اسكت فض الله فاك! فوالله لأن يربنى رجل من قريش أحب إلىَّ من أن يربنى رجل من هوازن.

وقال شيبة بن عثمان بن أبى طلحة أخو بنى عبدالدار، وكان أبوه قتل يوم أحد، قلت: اليوم أدرك ثأرى، اليوم أقتل محمدًا. قال: فأردت برسول الله لأقتله فأقبل شىء حتى تغشى فؤادى فلم أطق ذلك وعلمت أنى ممنوع منه[٢].

وذكر ابن أبى خيثمة حديث شيبة هذا، قال: لما رأيت النبى ﷺ يوم حنين أعرى ذكرت أبى وعِمى قتلهما حمزة، قلت: اليوم أدرك ثأرى فى محمد، فجئته عن يمينه فإذا أنا العباس قائمًا عليه درع بيضاء، قلت: عمه لن يخذله، فجئته عن يساره فإذا أنا بأبى سفيان بن الحارث، قلت: ابن عمه لن يخله، فجئته من خلفه فدنوت ودنوت حتى لم يبق إلا أن أسور سورة بالسيف فرفع إلى شواظ من نار كأنه البرق فنكصت على عقبى القهقرى، فالتفت رسول الله ﷺ فقال: «يا شيبة ادنه». فدنوت فوضع يده على صدرى فاستخرج الله الشيطان من قلبى فرفعت إليه بصرى فلهو أحب إلى من سمعى وبصرى، فقال لى: «يا شيبة قاتل الكفار»[٣]. فقاتلت معه ﷺ.

وحدث[٤] العباس بن عبد المطلب قال: إنى لمع رسول الله ﷺ آخذ بحكمة بغلته البيضاء قد شجرتها بها وكنت امرءً جسيمًا شديد الصوت ورسول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من أمر الناس: «أين أيها الناس؟» فلم أر الناس يلوون على شىء، فقال: «يا

(١) انظر: السيرة (٤/٧٦ - ٧٧).

(٢) انظر: السيرة (٤/٧٧).

(٣) انظر الحديث فى: البداية والنهاية (٤/٣٣٣)، الدر المنثور للسيوطى (٣/٢٢٦).

(٤) انظر: السيرة (٤/٧٨).

عباس اصرخ: يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب السمرة». قال: فأجابوا: لبيك لبيك. قال: فيذهب الرجل ليثنى بعيره، فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه، فيقذفها فى عنقه، ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله فيؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا، فكانت الدعوى أول ما كانت للأنصار ثم خلصت آخرًا للخزرج، وكانوا صبرًا عند الحرب، فأشرب رسول الله ﷺ فى ركائبه فنظر إلى مجتلد القوم فقال: «الآن حمى الوطيس»(١).

قال جابر بن عبدالله فى حديثه: واجتلد الناس، فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله ﷺ!.

قال: والتفت رسول الله ﷺ إلى أبى سفيان بن الحارث وكان حسن الإسلام وممن صبر يومئذ معه وهو آخذ بثغر بغلته فقال: «من هذا؟» قال: أنا ابن أمك يا رسول الله(٢).

وذكر ابن عقبة أن رسول الله ﷺ لما غشيه القتال يومئذ قام فى الركابين وهو على البغلة. ويقولون: نزل. فرفع يديه إلى الله يدعوه يقول: «اللهم إنى أنشدك ما وعدتنى، اللهم لا ينبغى لهم أن يظهروا علينا». ونادى أصحابه فذمرهم: «يا أصحاب البيعة يوم الحديبية، يا أصحاب سورة البقرة، يا أنصار الله وأنصار رسوله، يا بنى الخزرج». وقبض قبضة من الحصباء فحصب بها وجوه المشركين ونواحيهم كلها. وقال: «شاهت الوجوه»(٣).

فهزم الله أعداءه من كل ناحية حصبهم فيها رسول الله ﷺ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم وغنمهم الله نساءهم وذراريهم وشاههم وإبلهم، وفر مالك بن عوف حتى دخل حصن الطائف فى ناس من أشراف قومه.

---

(١) ذكره الإمام أحمد فى مسنده (١٧٧٥)، مسلم فى صحيحه (١٣٩٨/٣، ٧٦/١٣٩٩).

(٢) لم أقف على تخريجه فيما بين يدى من مصادر، وقصة أبى سفيان بن الحارث أنه كان أخذ بزمام ناقة النبى ﷺ أخرجها البخارى فى صحيحه كتاب المغازى (٤٣١٥/٧) من طريق أبى إسحاق قال: سمعت البراء بن عازب... وفيه: «فيفهم هوزان بالنبل والنبى ﷺ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجامها والنبى ﷺ يقول: «أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب».

(٣) انظر الحديث فى: البداية والنهاية (٣٣٠/٤)، المعجم الكبير للطبرانى (١٨٨/١٠)، مجمع الزوائد للهيثمى (٨٢/٦، ٦١٩/٨)، دلائل النبوة للبيهقى (١٣١/٥)، فتح البارى لابن حجر (٦١٩/٧).

وأسلم عند ذلك ناس كثير من أهل مكة وغيرهم حين رأوا نصر الله ورسوله وإعزاز دينه.

وحدث[١] جبير بن مطعم قال: لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم، فنظرت فإذا نمل أسود مثبوت قد ملأ الوادى ولم أشك أنها الملائكة، فلم تكن إلا هزيمة القوم[٢].

والتفت رسول الله ﷺ يومئذ فرأى أم سليم بنت ملحان، وكانت مع زوجها أبى طلحة وهى حازمة وسطها ببرد لها وإنها لحامل بعبد الله بن أبى طلحة، ومعها جمل أبى طلحة قد خشيت أن يعزها فأدنت رأسه منها فأدخلت يدها فى خزامته مع الخطام فقال رسول الله ﷺ: «أم سليم؟» قالت: نعم، بأبى أنت وأمى يا رسول الله، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم أهل، فقال رسول الله ﷺ: «أو يكفى الله يا أم سليم؟». وقال لها أبو طلحة: ما هذا الخنجر يا أم سليم؟ لخنجر رآه عندها. قالت: خنجر اتخذته إن دنا منى أحد من المشركين بعجته به. فقال أبو طلحة: ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم![٣].

وحدث[٤] أنس: أن أبا طلحة استلب وحده يوم حنين عشرين رجلاً[٥].

وقال أبو قتادة رأيت يوم حنين رجلين يقتتلان: مسلمًا ومشركًا، فإذا رجل من المشركين يريد أن يعين صاحبه المشرك على المسلم فأتيته فضربت يده فقطعتها واعتنقنى بيده الأخرى، فوالله ما أرسلنى حتى وجدت ريح الدم.

ويروى: ريح الموت. فلولا أن الدم نزفه لقتلنى، فسقط فضربته فقتلته وأجهضنى عنه القتال. فلما وضعت الحرب أوزارها وفرغنا من القوم، قال رسول الله ﷺ: من قتل قتيلاً فله سلبه. فقلت: يا رسول الله والله لقد قتلت قتيلاً ذا سلب فأجهضنى عنه القتال

---

(١) انظر: السيرة (٤/٨١ - ٨٢).

(٢) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٥/١٤٦)، تاريخ الطبرى (٢/١٦٩)، تفسير ابن كثير (٤/٧٢).

(٣) انظر الحديث فى: صحيح مسلم كتاب الجهاد باب غزوة النساء مع الرجال (٣/١٤٤٢، ١٤٤٣)، سنن أبو داود (٢٧١٨)، مسند الإمام أحمد (٣/١٠٨، ١٠٩، ١٩٠، ٢٧٩، ٢٨٦).

(٤) انظر: السيرة (٤/٨١).

(٥) انظر الحديث فى: سنن الدارمى (٢/٢٤٨٤)، مسند الإمام أحمد (٣/١١٤، ١٢٣، ١٩٠، ٢٧٩)، مستدرك الحاكم (٣/٣٥٣)، ابن حبان (٧/٤٨١٨).

فما أدرى من استلبه. فقال رجل من أهل مكة: صدق يا رسول الله فأرضه عنى من سلبه. فقال أبو بكر: لا والله لا ترضيه منه تعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن دين الله تقاسمه سلبه! اردد عليه سلب قتيله. فقال رسول الله ﷺ: صدق اردد عليه سلبه.

قال أبو قتادة: فأخذته منه فبعته فاشتريت بثمنه مخرفًا، فإنه لأول مال اعتقدته(١).

ولما انهزمت هوازن استحر القتل من ثقيف فى بنى مالك، فقتل منهم سبعون رجلاً تحت رايتهم، فيهم عثمان بن عبدالله بن ربيعة ومعه كانت راية بنى مالك.

وكانت قبله مع ذى الخمار، فلما قتل أخذها عثمان فقاتل بها حتى قتل، فلما بلغ رسول الله ﷺ قتله قال: «أبعده الله، فإنه كان يبغض قريشًا» (٢).

وكانت راية الأحلاف مع قارب بن الأسود، فلما انهزم الناس هرب هو وقومه من الأحلاف فلم يقتل منهم غير رجلين يقال لأحدهما وهب وللآخر الجلاح، فقال رسول الله ﷺ حين بلغه قتل الجلاح: «قتل اليوم سيد شباب ثقيف، إلا ما كان من ابن هنيدة»(٣). يعنى الحارث بن أويس.

ولما انهزم المشركون أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف وعسكر بعضهم بأوطاس وتوجه بعضهم نحو نخلة، وتبعت خيل رسول الله ﷺ من سلك فى نخلة من الناس ولم تتبع من سلك الثنايا، فأدرك ربيعة بن رفيع وكان يقال له: ابن الدغنة، وهى أمه غلبت على اسمه أدرك دريد بن الصمة فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة، وذلك أنه كان فى شجار له، فأناخ به فإذا شيخ كبير وإذا هو دريد ولا يعرفه الغلام، فقال له دريد: ماذا تريد بى؟ قال: أقتلك. قال: ومن أنت؟ قال: انا ربيعة بن رفيع السلمى. ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئًا فقال: بئس ما سلحتك أمك! خذ سيفى هذا من مؤخر الرحل ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ، فإنى كذلك كنت أضرب الرجال، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة فرب والله يوم قد منعت فيه نساءك.

فزعم بنو سليم أن ربيعة قال: لما ضربته فوقع تكشف فإذا عجانه وبطون فخذيه مثل القرطاس من ركوب الخيل أعراء. فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه فقالت: أما

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح مسلم (٣/١٣٧٠، ١٣٧١، ٤١)، مسند الإمام أحمد (٥/٣٠٦).
(٢) انظر الحديث فى: مصنف عبد الرزاق (١١/١٩٩٠٤).
(٣) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/٣٣٥).

والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثًا[١]. وقالت عميرة بنت دريد ترثى أباها:

قالوا قتلنا دريدًا قلت قد صدقوا   فظل دمعى على السربال ينحدر
لولا الذى قهر الأقوام كلهم   رأت سليم وكعب كيف يأتمر[٢]

وبعث رسول الله ﷺ فى آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعرى[٣] فأدرك بعض المنهزمة فناوشوه القتال، فرمى بسهم فقتل، فأخذ الراية أبو موسى الأشعرى[٤] ففتح الله عليه وهزمهم الله، ويزعمون أن سلمة بن دريد هو الذى رمى أبا عامر.

وذكر ابن هشام[٥] عمن يثق به أن أبا عامر الأشعرى لقى يوم أوطاس عشرة أخوة من المشركين، فحمل عليه أحدهم فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه، فقتله أبو عامر، ثم حمل عليه آخر، فحمل عليه أبو عامر، وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه، فقتله أبو عامر، ثم جعلوا يحملون عليه رجلاً بعد رجل، ويحمل أبو عامر ويقول ذلك، حتى قتل تسعة وبقى العاشر، فحمل على أبى عامر وحمل عليه أبو عامر، وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه. فقال الرجل: اللهم لا تشهد على، فكف عنه أبو عامر فأفلت ثم أسلم بعد فحسن إسلامه، فكان رسول الله ﷺ إذا رآه قال: «هذا شريد أبى عامر»[٦] ورمى أبا عامر يومئذ - فيما ذكر ابن هشام - أخوان من بنى جشم بن معاوية فأصاب أحدهما قلبه والأخر ركبته فقتلاه، وولى الناس أبو موسى الأشعرى فحمل عليهما فقتلهما.

وذكر ابن إسحاق[٧] أن القتل استحر فى بنى نصر بن رئاب، فزعموا أن عبد الله

---

(١) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (١٤٥/٥)، تاريخ الطبرى (١٧٠/٢)، الأصفهانى كتاب الأغانى (١٥/٩، ١٦).

(٢) ذكر فى السيرة بعد هذان البيتان بيت آخر هو:

إذن لصحبهم غبا وظاهرة   حيث استقرت نواهم جحفل دفر

انظر: السيرة (٨٧/٤).

(٣) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٣٠٩٢)، الإصابة الترجمة رقم (١٠١٨٥)، أسد الغابة الترجمة (٦٠٤٣).

(٤) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٣٢٢٦)، الإصابة الترجمة رقم (١٠٥٨٨)، أسد الغابة الترجمة رقم (٦٢٩٤).

(٥) انظر: السيرة (٨٩/٤ - ٩٠).

(٦) انظر الحديث فى: فتح البارى لابن حجر (٦٣٩/٧)، البداية والنهاية لابن كثير (٣٣٨/٤).

(٧) انظر: السيرة (٨٧/٤ - ٨٨).

ابن قيس الذى يقال له: ابن العوراء، وهو أحد بنى وهب بن رئاب، قال: يا رسول الله، هلكت بنو رئاب. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم اجبر مصيبتهم»[(١)].

وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة فوقف فى فوارس من قومه على ثنية من الطريق وقال لأصحابه: قفوا حتى يمضى ضعفاؤكم وتلحق اخراكم. فوقف هنالك حتى مضى من كان لحق بهم منهزمة الناس.

قال ابن هشام[(٢)]: وبلغنى أن خيلاً طلعت ومالك وأصحابه على الثنية فقال لأصحابه: ماذا ترون؟ قالوا: نرى قومًا واضعى رماحهم بين آذان خيلهم طويلة بوادهم. فقال: هؤلاء بنو سليم ولا بأس عليكم منهم، فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادى، ثم طلعت خيل اخرى تتبعها فقال لأصحابه: ماذا ترون، قالوا: نرى أقوامًا عارضى أرماحهم أغفالاً[(٣)] على خيلهم. قال: هؤلاء الأوس والخزرج ولا بأس عليكم منهم، فلما انتهوا إلى أصل الثنية سلكوا طريق بنى سليم ثم اطلع فارس فقال لأصحابه: ماذا ترون؟ قالوا: نرى فارسًا طويل الباد واضعًا رمحه على عاتقه عاصبًا رأسه بملاءة حمراء. فقال: هذا الزبير بن العوام وأحلف باللات ليخالطنكم فاثبتوا له. فلما انتهى الزبير إلى أصل الثنية أبصر القوم فصمد لهم فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها.

وقال رسول الله ﷺ يومئذ: «إن قدرتم على بجاد، رجل من بنى سعد بن بكر، فلا يفلتنكم»، وكان قد أحدث حدثًا، فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهله، وساقوا معه الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، فعنفوا عليها فى السياق فقالت للمسلمين: تعلموا والله أنى لأخت صاحبكم من الرضاعة. فلم يصدقوها حتى أتوا بها النبى ﷺ فلما انتهوا بها إليه قالت: يا رسول الله إنى أختك. قال: وما علامة ذلك؟ قالت عضة عضضتنيها فى ظهرى وأنا متوركتك، فعرف رسول الله ﷺ العلامة فبسط لها رداءه فأجلسها عليه وخيرها، فقال: إذا أحببت فعندى محبة مكرمة وإن أحببت أن أمتعك وترجعى إلى قومك فعلت، قالت: بل تمتعنى وتردنى إلى قومى. فمتعها رسول الله ﷺ وردها إلى قومها. فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلامًا له يقال له: مكحول، وجارية، فزوجت أحدهما الآخر فلم يزل فيهم من نسلهما بقية[(٤)].

---

(١) انظر الحديث فى: الطبقات الكبرى لابن سعد (١٥٢/٢)، الإصابة لابن حجر (١٢١/٤).

(٢) انظر: السيرة (٨٨/٤ - ٨٩).

(٣) أغفالاً: جمع غفل، وهو الذى لا علامة له، يريد أنهم لم يتخذوا لأنفسهم علامة يعرفون بها.

(٤) انظر الحديث فى: تاريخ الطبرى (١٧١/٢)، الإصابة لابن حجر (١٢٣/٨)، الاستيعاب لابن=

وأنزل الله تبارك وتعالى فى يوم حنين ﴿**لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودًا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين**﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

واستشهد من المسلمين يوم حنين من قريش ثم من بنى هاشم: أيمن بن عبيد(١) مولاهم. ومن بنى أسد بن عبد العزى يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب(٢)، جمح به فرس يقال له الجناح فقتل.

ومن الأنصار: سراقة بن الحارث العجلانى(٣). ومن الأشعريين أبو عامر الأشعرى.

ثم جمعت إلى رسول الله ﷺ سبايا حنين وأموالها فأمر بها إلى الجعرانة فحبست بها حتى أدركها هنالك منصرفه عن الطائف على ما يذكر بعد إن شاء الله تعالى.

وقال عباس بن مرداس السلمى(٤) فى يوم حنين(٥):

عفا مجدل من أهله فمتالع ... فمطلا أريك قد خلافا لمصانع

ديار لنا يا جمل إذ جل عيشنا ... رخى وصرف الدهر للحى جامع

حبيبة ألوت بها غربة النوى ... لبين فهل ماض من العيش راجع

فإن تبتغى الكفار غير ملومة ... فإنى وزير للنبى وتابع

دعانا إليه خير وفد علمتم ... خزيمة والمرار منهم وواسع

=عبد البر الترجمة رقم (١٨٧٠، ٤٠٠٣)، أسد الغابة لابن الأثير (١٦٦/٧، ١٦٧).

(١) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٣١)، الإصابة الترجمة رقم (٣٩٤)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٥٣)، تجريد أسماء الصحابة (٤١/١)، معرفة الصحابة (٣٧٢/٢).

(٢) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٨٠٠)، الإصابة الترجمة رقم (٩٢٨٠)، أسد الغابة الترجمة رقم (٥٥٥٢).

(٣) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٩١٦)، الإصابة الترجمة رقم (٣١١٣)، أسد الغابة الترجمة رقم (١٩٤٨).

(٤) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٣٨٧)، الإصابة الترجمة رقم (٤٥٢٩)، أسد الغابة الترجمة رقم (٢٨٠١)، تجريد أسماء الصحابة (٢٩٥/١)، تاريخ جرجان (٢٨١)، تقريب التهذيب (٣٩٩/١)، تهذيب التهذيب (١٣٠/٥)، خلاصة تذهيب (٣٧/٢)، تهذيب الكمال (٦٦٠/٢)، الأعلام (٢٦٧/٣).

(٥) انظر الأبيات فى: السيرة (٩٥/٤ - ٩٦).

فجئنا بألف من سليم عليهم لبوس لهم من نسج داود رائع
نبايعه بالأخشبين وإنما يد الله بين الأخشبين نبايع
فجسنا مع المهدى مكة عنوة بأسيافنا والنقع كاب وساطع
علانية والخيل يغشى متونها حميم وآن من دم الجوف ناقع
ويوم حنين حين سارت هوازن إلينا وضاقت بالنفوس الأضالع
صبرنا مع الضحاك لا يستفزنا قراع الأعادى منهم والوقائع
أمام رسول الله يخفق فوقنا لواء كخدروف السحابة لامع
عشية ضحاك بن سفيان معتص بسيف رسول الله والموت كانع
نذود أخانا عن أخينا ولو نرى مصالا لكنا الأقربين نتابع
ولكن دين الله دين محمد رضينا به فيه الهدى والشرائع
أقام به بعد الضلالة أمرنا وليس لأمر حمه الله دافع

وقال عباس أيضًا[1]:

تقطع باقى وصل أم مؤمل بعاقبة واستبدلت نية خلفا
وقد حلفت بالله لا تقطع النوى فما صدقت فيه ولا برت الحلفا
خفافية بطن العقيق مصيفها وتحتل فى البادين وجرة فالعرفا[2]
فإن تتبع الكفار أم مؤمل فقد زودت قلبى على نأيها شغفا
وسوف ينبيها الخبير بأننا أبينا ولم نطلب سوى ربنا حلفا
وإنا مع الهادى النبى محمد وفينا ولم نستوفها معشر ألفا
بفتيان صدق من سليم أعزة أطاعوا فما يعصون من أمره حرفا
خفاف وذكوان وعوف تخالهم مصاعب زافت فى طروقتها كلفا
كأن النسيج الشهب والبيض ملبس أسودًا تلاقت فى مراصدها غضفا[3]
بنا عز دين الله غير تنحل وزدنا على الحى الذى معه ضعفا
بمكة إذ جئنا كأن لواءنا عقاب أرادت بعد تحليقها خطفا
على شخص الأبصار تحسب بينها إذا هى جالت فى مواردها عزفًا

---

(١) انظر الأبيات فى: السيرة (٤/٩٦ - ٩٧).

(٢) خفافية: منسوبة إلى بنى خفاف وهم حى من سليم. مصيفها: المكان الذى تقيم فيه فى الصيف.

(٣) غضفا: الغضف: جمع أغضف وهو المسترخى الأذنين.

غداة وطئنا المشركين ولم نجد لأمر رسول الله عدلاً ولا صرفا
بمعترك لا يسمع القوم وسطه لنا [زجمة][٤] إلا التذامر والنقفا
ببيض تطير الهام عن مستقرها وتقطف أعناق الكماة بها قطفا
فكاين تركنا من قتيل ملحب وأرملة تدعو على بعلها لهفا
رضا الله ننوى لا رضا الناس نبتغى ولله ما يبدو جميعًا وما يخفى

وقال عباس أيضًا[١]:

ما بال عينك فيها عائر سهر مثل الحماطة أغضى فوقها الشفر
عين تأوبها من شجوها أرق فالماء يغمرها طورًا وينحدر
كأنه نظم در عند ناظمه تقطع السلك منه فهو منتثر
ما بعد منزل من ترجو مودته ومن أتى دونه الصمان فالحفر
دع ما تقدم من عهد الشباب فقد ولى الشباب وزار الشيب والزعر
واذكر بلاء سليم فى مواطنها وفى سليم لأهل الفخر مفتخر
قوم هم نصروا الرحمن واتبعوا دين الرسول وأمر الناس مشتجر
الضاربون جنود الشرك ضاحية ببطن مكة والأرواح تبتدر
حتى رفعنا وقتلاهم كأنهم نخل بظاهرة البطحاء منقعر
ونحن يوم حنين كان مشهدنا للدين عزا وعند الله مدخر
إذ نركب الموت مخضرا بطائنه والخيل ينجاب عنها ساطع كدر
تحت اللوامع والضحاك يقدمنا كما مشى الليث فى غاباته الخدر
فى مأزق من مجر الحرب كلكلها تكاد تأفل منه الشمس والقمر
وقد صبرنا بأوطاس أسنتنا لله ننصر من شئنا وننتصر
حتى تأوب أقوام منازلهم لولا المليك ولولا نحن ما صدروا
فما ترى معشرًا قلوا ولا كثروا إلا قد أصبح منا فيهم أثر

وقال عباس بن مرداس أيضًا رضى الله عنه[٢]:

يا أيها الرجل الذى تهوى به وجناء مجمرة المناسم عرمس

---

(٤) ما بين المعقوفتين ورد فى الأصل: «رحمة»، والتصحيح من السيرة. وزجمة: تقول ما زجم فلان أى ما نطق بكلمة.

(١) انظر الأبيات فى: السيرة (٤/٩٧ - ٩٨).

(٢) انظر الأبيات فى: السيرة (٤/٩٨ - ٩٩).

إمـا أتيـت علـى النبـى فقـل لـه ... حقـا عليـك إذا اطمـأن المجلـس
يا خير من ركب المطى ومـن مشى ... فـوق الـتراب إذا تعـد الأنفـس
إنـا وفينـا بـالذى عاهدتنـا ... والخيـل تقـدع بالكمـاة وتضـرس
إذ سـال مـن أفنـاء بهثـة كلهـا ... جمـع تظـل بـه المخـارم ترجـس
حتـى صبحنـا أهـل مكـة فيلقًـا ... شـهباء يقدمهـا الهمـام الأشـوس
مـن كـل أغلـب مـن سليم فوقـه ... بيضـاء محكمـة الدخـال وقونـس
وعلى حنـين قـد وفـى مـن جمعنـا ... ألـف أمـد بـه الرسـول عرنـدس
كـانوا أمـام المؤمنـين دريئـة ... والشـمس يومئـذ عليهـا أشـمس
نمضـى ويحرسـنا الإلـه بحفظـه ... والله ليـس بضـائع مـن يحـرس
ولقـد حبسـنا بالمنـاقب محبسًـا ... رضـى الإلـه بهـم فنعـم المحبـس
وغـداة أوطـاس شـددنا شـدة ... كفـت العـدو وقيـل منهـا يحبـس
ندعـو هـوازن بالإخـاءة بيننـا ... ثـدى تمـد بـه هـوازن أيـس
حتى تركنـا جمعهـم وكأنـه ... عير تعاقبـه السبـاع مفـرس

وقال عباس بن مرداس أيضًا[1]:

نصرنا رسول الله مـن غضـب لـه ... بـألف كمـى لا تعـد حواسـره
حملنـا لـه فـى عـامل الرمـح رايـة ... يذود بها فى حومة الموت ناصره
ونحن خضبناهـا دمًـا فهـو لونهـا ... غداة حنـين يوم صفـوان شـاجره
وكنـا علـى الإسـلام ميمنـة لـه ... وكـان لنـا عقـد اللـواء وشـاهره
وكنـا لـه يـوم الجنـود بطانـة ... يشـاورنا فـى أمـره ونشـاوره
دعانـا فسمانا الشـعار مقدمـا ... وكنـا لـه عونًـا علـى من ينـاكره
جـزى الله خيرًا مـن نبى محمدًا ... وأيده بـالنصر والله نـاصره

* * *

غزوة الطائف[2]

ولما قدم فل الطائف أغلقوا عليهم أبواب مدينتها، وصنعوا الصنائع للقتال، ولم

---

(١) انظر الأبيات فى: السيرة (٤/٩٩).

(٢) راجع هذه الغزوة فى: المنتظم لابن الجوزى (٣/٣٤١)، مغازى الواقدى (٣/٩٢٢)، طبقات ابن سعد (٢/١/١١٤)، تاريخ الطبرى (٣/٨٢).

يشهد حنينًا ولا الطائف عروة بن مسعود[1] ولا غيلان بن سلمة[2]، كانا بجرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضبور.

ثم سار رسول الله ﷺ إلى الطائف حين فرغ من حنين، فقال كعب بن مالك حين أجمع رسول الله ﷺ السير إليها[3]:

قضينا من تهامة كل ريب ... وخيبر ثم أجممنا السيوفا

نخيرها ولو نطقت لقالت ... قواطعهن دوسًا أو ثقيفا

فلست لحاضن إن لم تروها ... بساحة داركم منا ألوفا

وننتزع العروش ببطن وج ... وتصبح دوركم منكم خلوفا

ويأتيكم لنا سرعان خيل ... يغادر خلفه جمعًا كثيفًا

إذا نزلوا بساحتكم سمعتم ... لها مما أناخ بها رجيفا

بأيديهم قواضب مرهفات ... يزرن المصطلين بها الحتوفا

كأمثال العقائق أخلصتها ... قيون الهند لم تضرب كتيفا

تخال جدية الأبطال فيها ... غداة الروع جاديا مدوفا

أجدهم أليس لهم نصيح ... من الأقوام كان بنا عريفًا

يخبرهم بأنا قد جمعنا ... عتاق الخيل والنجب الطروفا

وأنا قد أتيناهم بزحف ... يحيط بسور حصنهم صفوفًا

رئيسهم النبى وكان صلبًا ... نقى القلب مصطبرًا عزوفا

رشيد الأمر ذا حكم وعلم ... وحلم لم يكن نزقًا خفيفا

نطيع نبينا ونطيع ربا ... هو الرحمن كان بنا رءوفًا

فإن تلقوا إلينا السلم نقبل ... ونجعلكم لنا عضدًا وريفا

وإن تأبوا نجاهدكم ونصبر ... ولا يك أمرنا رعشًا ضعيفا

نجالد ما بقينا أو تنيبوا ... إلى الإسلام إذعانًا مضيفا

---

(١) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٨٢٣)، الإصابة الترجمة رقم (٥٥٤٢)، تجريد أسماء الصحابة (١/٣٨٠)، الأعلام (٤/٢٢٧)، الثقات (٣/٣١٣)، التحفة اللطيفة (٣/١٨٧)، تبصير المنتبه (٤/١٤٩٥)، العبر (١/١٠).

(٢) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٠٩٠)، الإصابة الترجمة رقم (٦٩٤٠)، أسد الغابة الترجمة رقم (٤١٩٠).

(٣) انظر الأبيات فى: السيرة (٤/١٠٦ - ١٠٨).

نجـاهد لا نبـالى مـا لقينـا أأهلكنـا التـلاد أم الطريفـا
وكـم مـن معشـر ألبـوا علينـا صميـم الجـذم منهـم والحليفـا
أتونـا لا يـرون لهـم كفـاء فجدعنـا المسـامع والأنوفـا
بكـل مهنـد لـين صقيـل نسـوقهم بهـا سـوقا عنيفـا
لأمـر اللـه والإسـلام حتـى يقـوم الديـن معتـدلاً حنيفـا
وتنسـى الـلات والعـزى وود ونسـلبها القلائـد والشـنوفا
فأمسوا قـد أقـروا واطمأنـوا ومن لا يمتنـع يقبـل خسوفـا

وسلك رسول الله ﷺ على نخلة اليمانية، وانتهى إلى بحرة الرغاة[1] فابتنى بها مسجدًا فصلى فيه وأقاد فيها يومئذ بدم رجل من هذيل قتله رجل من بنى ليـث فقتلـه بـه، وهـو أول دم أقيد به فى الإسلام، وأمر فى طريقه بحصن مالك بن عوف فهدم.

ثم سلك فى طريق فسأل عن اسمها فقيل له: الضيقة. فقال: «بل هـى اليسرى». ثـم خرج منها حتى نزل تحت سدرة يقال لها: الصـادرة قريبًا مـن مـال رجـل مـن ثقيـف، فأرسل إليه رسول الله ﷺ: «إما أن تخرج، وإما أن نخرب عليك حائطك»، فأبى أن يخرج فأمر بإخرابه.

ثم مضى حتى نزل قريبًا من الطائف، فضرب بـه عسـكره، فقتـل نـاس مـن أصحابـه بالنبل، وذلك أن العسكر اقترب من حائط الطائف، فكـانت النبـل تنـالهم، ولـم يقـدر المسلمون على أن يدخلوا حائطهم، أغلقوه دونهم.

فلما أصيب أولئك النفر من أصحابه بالنبل وضع عسكره عند مسجده الذى بالطائف اليوم فحاصرهم بضعًا وعشرين ليلة، وقيل[2]: بضع عشرة ليلة ومعه امرأتان مـن نسـائه، إحداهما أم سلمة، فضرب لهما قبتين، ثم صلى بينهما، فلما أسلمت ثقيـف بنـى عمـرو بن أمية بن وهب بن معتب بن مالك على مصلاة ذلك مسجدًا، وكانت فيه سارية فيمـا يزعمون لا تطلع الشمس عليها يومًا من الدهر إلا سمع لهـا نقيـض، فحـاصرهم رسـول الله ﷺ وقاتلهم قتالاً شديدًا، وتراموا بالنبل[3].

ورماهم رسول الله ﷺ بالمنجنيق فيما ذكر ابن هشام، قال: وهو أول من رمى به فـى الإسلام إذ ذاك[4].

---

(١) بحرة الرغاء: هو موضع من أعمال الطائف قرب لِيَّة. انظر: معجم البلدان (١/٣٤٦).
(٢) هذا من كلام ابن هشام، قال: ويقال: سبع عشرة ليلة. انظر: السيرة (٤/١٠٩).
(٣) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٤/٣٤٦)، الطبرى فى تاريخه (٢/١٧٢).
(٤) انظر: السيرة (٤/١١٠)، وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٤/٣٤٨).

حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة ثم رجعوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها فرمتهم بالنبل فقتلوا منهم رجالاً، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعتاب ثقيف فوقع الناس فيها يقطعون، وتقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة إلى الطائف فناديا ثقيفًا أن آمنونا حتى نكلمكم فآمنوهما. فدعوا نساء من نساء قريش وبنى كنانة منهن ابنة أبى سفيان ليخرجن إليهما وهما يخافان عليهن السباء فأبين، فلما أبين قال لهما الأسود بن مسعوديا أبا سفيان ويا مغيرة ألا أدلكما على خير مما جئتما له؟ إن مال بنى الأسود حيث علمتما، وكان رسول الله ﷺ نازلاً بينه وبين الطائف بواد يقال له العقيق، إنه ليس بالطائف مال أبعد رشاء وأشد مؤنة ولا أبعد عمارة من مال بنى الأسود، وإن محمدا إن قطعه لم يعمر أبدًا، فكلماه فليأخذه لنفسه او ليدعه لله وللرحم، فإن بيننا وبينه من القرابة ما لا يجهل.

فزعموا أن رسول الله ﷺ تركه لهم. وقال رسول الله ﷺ فيما ذكر لأبى بكر الصديق رضى الله عنه وهو محاصر ثقيفًا: «يا أبا بكر، إنى رأيت إنى أهديت إلى قعبة مملوءة زبدًا، فنقرها ديك، [فهراق][(1)] ما فيها». فقال: ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد. فقال رسول الله ﷺ: «وأنا لا أرى ذلك»[(2)].

ثم إن خويلة بنت حكيم السلمية[(3)]، امرأة عثمان بن مظعون قالت: يا رسول الله أعطنى إن فتح الله عليك الطائف حلى بادية بنت غيلان، أو حلى الفارعة ابنة عقيل. وكانتا من أحلى نساء ثقيف. فذكر أن رسول الله ﷺ قال لها: «وإن كان لم يؤذن فى ثقيف يا خويلة؟» فخرجت خويلة، فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب رضى الله عنه، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما حديث حدثتنيه خويلة، زعمت أنك قلته؟ قال: «قد قلته». قال: أو ما أذن فيهم يا رسول الله؟ قال: «لا». قال: أفلا أؤذن بالرحيل؟ قال: «بلى»، فأذن عمر بالرحيل[(4)].

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل، وما أوردناه من السيرة.

(٢) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٤/٣٥٠).

(٣) انظر ترجمتها فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٣٣٥٥)، الإصابة الترجمة رقم (١١١١٩)، أسد الغابة الترجمة رقم (٦٨٨٨)، تجريد أسماء الصحابة (٢/٢٦٤)، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٣/٣٨٠).

(٤) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٥/١٦٨ - ١٦٩)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٤/٣٥٠).

فلما استقل الناس نادى سعيد بن عبيد: ألا إن الحى مقيم. يقول عيينة بن حصن[١]: أجل، والله مَجَدَةً كِرامًا! فقال له رجل من المسلمين: قاتلك الله يا عيينة؟ أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله ﷺ، وقد جئت تنصره؟ قال: إنى والله ما جئت لأقاتل ثقيفًا معكم، ولكنى أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أتطئها لها تلد لى رجلاً فإن ثقيفًا قوم مناكير.

ونزل على رسول الله ﷺ فى إقامته عليهم عبيد لهم فأسلموا فأعتقهم رسول الله ﷺ، فلما أسلم أهل الطائف تكلم نفر منهم فى أولئك العبيد[٢]، فقال رسول الله ﷺ: «لا، أولئك عتقاء الله»[٣].

واستشهد بالطائف من أصحاب رسول الله ﷺ اثنا عشر رجلاً، سبعة من قريش وأربعة من الأنصار ورجل من بنى ليث[٤].

ثم انصرف رسول الله ﷺ عن الطائف حتى نزل الجعرانة وإليها كان قدم سبى هوازن وأموالهم[٥]، وقال له رجل من أصحابه يوم ظعن عن ثقيف: يا رسول الله، ادع عليهم فقال: «اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم»[٦].

ثم أتاه وفد هوازن بالجعرانة، وقد أسلموا، وكان معه من سبيهم ستة آلاف من الذرارى والنساء ومن الإبل والشاء ما لا يدرى ما عدته، فقالوا: يا رسول الله إنا أهل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا من الله عليك، وقام رجل منهم من سعد بن بكر يقال له: زهير، يكنى بأبى صرد، فقال: يا رسول الله، إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللائى كن يكفلنك، ولو أنا ملحنا للحارث بن

---

(١) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٠٧٨)، الإصابة الترجمة رقم (٦١٦٦)، أسد الغابة الترجمة رقم (٤١٦٦)، تجريد أسماء الصحابة (٤٣٢/١)، الاستبصار (٩٤، ٩٥)، العبر (١٢، ١٣)، الثقات (٣١٢/٣).

(٢) ذكر ابن إسحاق فى السيرة (١١٢/٤)، إنه كان ممن تكلم فيهم الحارث بن كلدة.

(٣) انظر الحديث فى: تاريخ الطبرى (٣٤٨/٤)، دلائل النبوة للبيهقى (١٥٩/٥).

(٤) قد سمهم ابن إسحاق فى السيرة (١١٣/٤ - ١١٤).

(٥) راجع أمر أموال هوازن وسباياها فى: تاريخ الطبرى (١٧٣/٢)، الكامل فى التاريخ (٢٦٨/٢)، الطبقات الكبرى لابن سعد (١٥٢/٢، ١٥٣)، عيون الأثر لابن سيد الناس (١٩٣/٢).

(٦) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣٤٣/٣)، سنن الترمذى (٣٩٤٢/٥).

أبى شمر أو للنعمان بن المنذر، ثم نزلا منا بمثل ما نزلت به رجونا عطفه، وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين. ثم أنشأ يقول:

امنن علينا رسول الله فى كرم ... فإنك المرء نرجوه وننتظر
امنن على بيضة قد عاقها قدر ... مفرق شملها فى دهرها غير
أبقت لنا الحرب هتافًا على حزن ... على قلوبهم الغمـاء والغمر
إن لم تداركهم نعماء تنشرها ... يا أرجح الناس حلمًا حين يختبر
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك تملأه من محضها الدرر
إذ أنت طفل صغير كنت ترضعها ... وإذ يزينك ما تأتى وما تذر
لا تجعلنا كمن شالت نعامته ... واستبق منه فإنا معشر زهر
إنا لنشكر للنعمى وقد كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه ... من أمهاتك إن العفو يشتهر
إنا نؤمل عفوًا منك تلبسه ... هذى البرية أن تعفو وتنتصر
فاعف عفا الله عما أنت راهبه ... يوم القيامة إذ يهدى لك الظفر

فقال رسول الله ﷺ: «أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم»؟ فقالوا: يا رسول الله، خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا. فقال لهم: «أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم وإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا. فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم».

فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ: «أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم»، فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. وقالت الأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال الأقرع بن حابس[1]: أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا.

وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا. فقالت بنو سليم: بلى ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال عباس: وهنتمونى؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما من تمسك منكم

---

(١) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٦٩)، الإصابة الترجمة رقم (٢٣١)، أسد الغابة الترجمة رقم (٢٠٨)، تجريد أسماء الصحابة (٢٦/١)، الوافى بالوفيات (٣٠٧/٩)، تهذيب تاريخ دمشق (٨٩/٣)، تنقيح المقال (١٠٣٤)، الثقات (١٨/٣)، الجامع فى الرجال (٢٨١)، التحفة اللطيفة (٣٣٧/١)، جامع الرواة (١٠٧/١).

بحقه من هذا السبى فله بكل إنسان ست فرائض من أول شىء أصيبه، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم»[١].

وكان عيينة بن حصن أخذ عجوزًا من عجائزهم وقال حين أخذها: أرى عجوزًا، إنى لأحسب أن لها فى الحى نسبًا وعسى أن يعظم فداؤها. فلما رد رسول الله ﷺ السبايا بست فرائض أبى أن يردها، فقال له زهير أبو صرد: خذها عنك فوالله ما فوها ببارد، ولا ثديها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا زوجها بواجد، ولا ردها بماكد، فردها بست فرائض حين قال له زهير ما قال[٢].

وسأل رسول الله ﷺ وفد هوازن: «ما فعل مالك بن عوف؟» فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف. فقال لهم: «أخبروا مالكًا أنه إن أتانى مسلمًا رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل». فأتى مالك بذلك فخاف ثقيفًا أن يعلموا بما قال له رسول الله ﷺ فيحسبوه، فأمر براحلته فهيئت له، وأمر بفرس له فأتى به بالطائف، فخرج ليلاً على فرسه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس فركبها فلحق برسول الله ﷺ فأدركه بالجعرانة أو بمكة، فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل وأسلم فحسن إسلامه[٣]. وقال:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... فى الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى ... ومتى تشأ يخبرك عما فى غد
وأذا الكتيبة عردت أنيابها ... بالسمهرى وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله ... وسط الهباءة خادر فى مرصد

فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه فكان يقاتل بهم ثقيفًا لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيق عليهم فقال أبو محجن بن حبيب الثقفى[٤]:

---

(١) انظر الحديث فى: سنن أبى داود كتاب الجهاد (٢٦٩٤)، السنن الكبرى للبيهقى (٦/٣٣٦، ٣٣٧)، مسند الإمام أحمد (٢/١٨٤، ٢١٨)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٨٧، ١٨٨).

(٢) انظر: السيرة (٤/١١٩)، وذكر هناك زيادة بعد هذا وهى: «... فزعموا أن عيينة لقيه الأقرع بن حابس، فشكا إليه ذلك، فقال: إنك والله ما أخذتها ببيضاء غريرة، ولا نصفا وثيرة». قلت: ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٥/١٩٣)، الهيثمى فى المجمع (٦/١٨٨).

(٣) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٥/١٩٨)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٨٩).

(٤) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٣١٩٣)، الإصابة الترجمة رقم (١٠٥٠٧)، أسد الغابة الترجمة رقم (٦٢٢٨)، تجريد أسماء الصحابة (٢/٢٠٠).

هـــابت الأعـــداء جانبنـــا ثـــم تغزونـــا بنـــو ســـلمه
وأتانـــا مالـــك بهـــم ناقضـًا للعهـــد والحرمـــه

ولما فرغ رسول الله ﷺ من رد سبايا حنين إلى أهلها ركب واتبعه الناس يقولـون: يـا رسول الله، اقسم علينا فيئنـا. للإبـل والغنـم، حتـى ألجأوه إلى شـجرة فـاختطفت عنـه رداءه فقال: «ردوا على ردائى أيها الناس، فوالله إن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعمًـا لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتمونى بخيلاً ولا جبانًا ولا كذوبًا»[١].

ثم قام إلى جنب بعير فأخذ وبرة من سنامه فرفعها ثم قال: «أيهـا النـاس، واللـه مـالى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم فأدوا الخائط والمخيط، فـإن الغلول يكون على أهله عارًا وشنارًا ونارًا يوم القيامة»، فجاء رجل من الأنصار بكبة مـن خيوط شعر فقال: يا رسول الله، أخذت هذه الكبة أعمل بها برذعة بعير لى دبر. فقـال: «أما نصيبى منها فلك». قال: أمـا إذا بلغـت ذلـك فـلا حاجـة لى بهـا. ثـم طرحهـا مـن يده[٢].

ويروى[٣] أن عقيل بن أبى طالب دخـل يـوم حنـين علـى امرأتـه فاطمـة بنـت شـيبة وسيفه متلطخ دمًـا فقـالت: إنـى قـد عرفـت أنـك قـد قـاتلت فمـاذا أصبـت مـن غنـائم المشركين؟ قال: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك. فدفعها إليها فسمع منـادى رسـول الله ﷺ يقول: من أخذ شيئًا فليرده حتى الخائط والمخيـط. فرجـع عقيـل فقـال: مـا أرى إبرتك إلا قد ذهبت! وأخذها فألقاها فى الغنائم.

وأعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهـم، وكـانوا أشـرافًا مـن أشـراف النـاس، يتـألفهم ويتألف بهـم قومهـم، فـأعطى أبـا سـفيان بـن حـرب وابنـه معاويـة وحكيـم بـن حـزام والحارث بن الحارث بن كلدة، والحارث بن هشام، وسهيل بـن عمـرو، وحويطـب بـن عبد العزى وصوفان بـن أميـة، وكـل هـؤلاء مـن أشـراف قريـش، والأقـرع بـن حـابس التميمى وعيينة بن حصن الفزارى ومـالك بـن عـوف النصـرى، أعطـى كـل واحـد مـن هؤلاء المسلمين من قريش وغيرهم مائة بعير، وأعطى دون المائة رجالاً مـن قريـش منهـم

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٢٨٢١/٦)، مسند الإمام أحمد (٨٤/٤)، مصنف عبد الرزاق (٩٤٩٧/٥).

(٢) انظر الحديث فى: السنن الكبرى للبيهقى (١٠٢/٩)، موطأ مالك (٤٥٧/٢، ٤٥٨)، مجمع الزوائد للهيثمى (٣٣٩/٥).

(٣) انظر: السيرة (١٢١/٤).

مخرمة بن نوفل وعمير بن وهب، وأعطى سعيد بن يربوع المخزومى وعدى بن قيس السهمى خمسين خمسين، وأعطى عباس بن مرداس أباعر فسخطها وقال يعاتب فيها النبى ﷺ:

وكانت نهابًا تلافيتها ... بكرى على المهر فى الأجرع
وإيقاظى القوم أن يرقدوا ... إذا هجع الناس لم أهجع
فأصبح نهبى ونهب العبيـ ... ـد بين عيينة والأقرع
وقد كنت فى الحرب ذا تدراء ... فلم أعط شيئًا ولم أمنع
إلا أفائل أعطيتها ... عديد قوائمه الأربع
وما كان حصن ولا حابس ... يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرىء منهما ... ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال رسول الله ﷺ: «اذهبوا فاقطعوا عنى لسانه»[1]، فأعطوه حتى رضى، فكان ذلك قطع لسانه.

وذكر ابن هشام[2] أن عباسًا أتى رسول الله ﷺ: فقال له رسول الله ﷺ: «أنت القائل:

فأصبح نهبى ونهب العبيـ ... ـد بين الأقرع وعيينة»

فقال أبو بكر: بين عيينة والأقرع، فقال رسول الله ﷺ: «هما واحد». فقال أبو بكر: أشهد أنك كما قال الله: ﴿**وما علمناه الشعر وما ينبغى له**﴾ [يس: ٦٩][3].

وذكر ابن عقبة ان عباسًا لما أمر رسول الله ﷺ بقطع لسانه فزع لها وقال: من لا يعرف أمر عباس يمثل به، فأتى به إلى الغنائم فقيل له: خذ منها ما شئت، فقال عباس: إنما أراد رسول الله ﷺ أن يقطع لسانى بالعطاء بعد أن تكلمت فتكرم أن يأخذ منها شيئًا، فبعث إليه رسول الله ﷺ بحلة فقبلها ولبسها.

وقال لرسول الله ﷺ قائل من أصحابه: يا رسول الله، أعطيت عيينة بن حصن والقرع بن حابس مائة مائة وتركت جعيل بن سراقة الضمرى؟ فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح مسلم (٢/٧٣٧، ٧٣٨)، كشفا الخفاء للعجلونى (١/١٨٢، ٤٨٤).
(٢) انظر: السيرة (٤/١٢٣).
(٣) انظر الحديث فى: تاريخ ابن كثير (٤/٣٦٠).

«أما والذى نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلهم مثل عيينة والأقرع ولكنى تألفتهما ليسلما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه»[(١)].

وجاء رجل من بنى تميم يقال له: ذو الخويصرة فوقف على رسول الله ﷺ وهو يعطى الناس فقال: يا محمد، قد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم. فقال رسول الله ﷺ: «أجل، فكيف رأيت؟» قال: لم أرك عدلت. فغضب رسول الله ﷺ ثم قال: «ويحك! إذا لم يكن العدل عندى فعند من يكون؟» فقال عمر بن الخطاب: ألا نقتله؟ فقال: «لا، دعوه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية، ينظر فى النصل فلا يوجد شىء، ثم فى القدح فلا يوجد شىء، ثم فى الفوق فلا يوجد شىء، سبق الفرث والدم»[(٢)].

ولما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى فى قريش وفى قبائل العرب ولم يعط الأنصار شيئًا، وجدوا فى أنفسهم حتى كثرت منهم القالة وحتى قال قائلهم: لقى والله رسول الله ﷺ قومه.

وذكر ابن هشام[(٣)] أن حسان بن ثابت قال يعاتبه فى ذلك:

زاد الهموم فماء العين منحدر ... سحا إذا حفلته عبرة درر
وجدًا بشماء إذ شماء بهكنة ... هيفاء لا ذنن فيها ولا خور
دع عنك شماء إذ كانت مودتها ... نزرًا وشر وصال الواصل النزر
وائت الرسول فقل يا خير مؤتمن ... للمؤمنين إذا ما عدد البشر
علام تدعى سليم وهى نازحة ... قدام قوم هم آووا وهم نصروا
سماهم الله أنصارًا بنصرهم ... دين الهدى وعوان الحرب تستعر
وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا ... للنائبات وما خافوا وما ضجروا
والناس إلب علينا فيك ليس لنا ... إلا السيوف وأطراف القنا وزر
نجالد الناس لا نبقى على أحد ... ولا نضيع ما توحى به السور
ولا تهز جناة الحرب نادينا ... ونحن حين تلظى نارها سعر
كما رددنا ببدر دون ما طلبوا ... أهل النفاق وفينا ينزل الظفر

---

(١) انظر الحديث فى: الطبقات الكبرى لابن سعد (٤/٢٤٦)، حلية الأولياء لأبى نعيم (١/٣٥٣).
(٢) انظر الحديث فى: صحيح مسلم (٢/٧٤٤، ٧٤٥، ١٤٨)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/٢٨٨).
(٣) انظر الأبيات فى: السيرة (٤/١٢٦).

ونحن جندك يوم النعف من أحد   إذ حزبت بطرًا احزابها مضر
فما ونينا ولا خمنا وما خبروا   منا عثارا وكل الناس قد عثروا

فدخل سعد بن عبادة على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت، قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظامًا فى قبائل العرب ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شىء. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومى. قال: «فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة»، فخرج سعد فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أعلمه سعد بهم فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها على فى أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بل الله ورسوله أمن وأفضل، ثم قال: «ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المن والفضل، فقال صلوات الله عليه: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلا فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم، فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءً من الأنصار ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًا. ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا[(١)].

ثم خرج رسول الله ﷺ من الجعرانة معتمرًا، وأمر ببقايا الفىء فحبس بمجنة بناحية مر الظهران، فلما فرغ من عمرته انصرف راجعًا إلى المدينة واستخلف عتاب بن أسيد على مكة وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس فى الدين ويعلمهم القرآن، وأتبع رسول الله ﷺ ببقايا الفىء[(٢)].

ولما استعمل رسول الله ﷺ عتابًا على مكة رزقه فى كل يوم درهمًا، فقام عتاب

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح مسلم (٢/٧٣٥، ٧٣٦، ١٣٥)، صحيح البخارى (٧/٤٣٣٧)، مسند الإمام أحمد (٣/٧٦، ٧٧)، مجمع الزوائد للهيثمى (١٠/٢٩).

(٢) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٤/٣٦٨)، الحاكم فى المستدرك (٣/٣٧٠).

خطيبًا فى الناس فقال: أيها الناس، أجاع الله كبد من جاع على درهم، فقد رزقنى رسول الله ﷺ درهمًا كل يوم فليست بى حاجة إلى أحد[١].

وكانت عمرة رسول الله ﷺ فى ذى القعدة، وقدم المدينةفى بقيتة أو فى أول ذى الحجة[٢].

وحج الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحج عليه وحج عتاب بن أسيد بالمسلمين فيها وهى سنة ثمان، وأقام أهل الطائف على شركهم وامتناعهم فى طائفهم ما بين ذى القعدة إذ انصرف رسول الله ﷺ إلى رمضان سنة تسع.

ولما قدم رسول الله ﷺ من سفره هذا منصرفًا عن الطائف كتب بجير بن زهير بن أبى سلمى إلى أخيه كعب بن زهير يخبره أن رسول الله ﷺ قد قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه، وأن من بقى من شعراء قريش ابن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب قد هربوا فى كل وجه، فإن كانت لك فى نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحدًا جاء تائبًا، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض.

فلما بلغ كعبًا الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه وأرجف به من كان فى حاضره من عدوه، فقالوا: هو مقتول، فلما لم يجد من شىء بدا قال قصيدته التى يمدح فيها رسول الله ﷺ، ويذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به، ثم خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل من جهينة كانت بينه وبينه معرفة، فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح، فصلى معه ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ فقال: هذا رسول الله، فقم إليه فاستأمنه، فذكر أنه قام إلى رسول الله ﷺ حين جلس إليه فوضع يده فى يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير، فوثب عليه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، دعنى وعدو الله أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «دعه عنك، فإنه قد جاءنا تائبًا نازعًا»[٣].

فغضب كعب على الأنصار لما صنع به صاحبهم ومدح المهاجرين دونهم إذ لم يتكلم فيه رجل منهم إلا بخير.

---

(١) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٤/٣٦٨).

(٢) ذكره مسلم فى صحيحه كتاب الحج (٢/٢١٧، ٩١٦)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٤/٣٦٨)، أبو داود (١٩٩٤)، الترمذى (٨١٥)، أحمد فى المسند (١/٢٤٦، ٣٢١).

(٣) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٤/٣٦٩)، مستدرك الحاكم (٣/٥٨٣)، مجمع الزوائد للهيثمى (٩/٣٩٣، ٣٩٤).

والقصيدة التى قالها كعب فى ذلك وذكر أنه أنشدها رسول الله ﷺ فى المسجد:

بانت سعاد فقلبى اليوم مبتول ... متيم عندها لم يجز مكبول
وما سعاد غداة البين إذ برزت ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول[١]
تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت ... كأنه منهل بالراح معلول[٢]
شجت بذى شبم من ماء محنية ... صاف بأبطح أضحى وهو مشمول[٣]
تنفى الرياح القذى عنه وأفرطه ... من صوب غادية بيض يعاليل[٤]
وبلمها خلة لو أنها صدقت ... بوعدها أو لو أن النصح مقبول
لكنها خلة قد سيط من دمها ... فجع وولع وإخلاف وتبديل
فما تدوم على حال تكون بها ... كما تلون فى أثوابها الغول[٥]
كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً ... وما مواعيدها إلا الأباطيل
فلا يغرنك ما منت وما وعدت ... إن الأمانى والأحلام تضليل[٦]
أمست سعاد بأرض لا تبلغها ... إلا العتاق النجيبات المراسيل
ولا يبلغها إلا عذافرة ... فيها على الأين إرقال وتبغيل[٧]
من كل نضاخة الذفرى إذا عرقت ... عرضتها طامس الأعلام مجهول[٨]

---

(١) الأغن: الصبى الصغير الذى فى صوته غُنة، وهى صوت يخرج من الخيشوم. غضيض الطرف: أى فاتر الجفن.

(٢) العوارض: الأسنان. ذى ظلم: الظلم ماء الأسنان وبريقها. الراح: اسم من أسماء الخمر.

(٣) شجت: مُزجت. ذى شبم: أى الماء البارد. المحنية: منتهى الوادى.

(٤) القذى: أراد ما يقع فى الماء من تبن أو غيره. الصوب: المطر. غادية: السحابة التى تمطر بالغدو. اليعاليل: هو رغوة الماء.

(٥) ذكر فى السيرة بعد هذه البيت بيت آخر لم يذكره هنا وهو:

وما تمسك بالعهد الذى زعمت ... إلا كما يمسك الماء الغرابيل

انظر: السيرة (٤/١٣٢).

(٦) ذكر فى السيرة هذا البيت قبل البيت الذى يسبقه هنا. وهناك بيت آخر لم يذكره هنا ورد بعدهما وهو:

أرجو وآمل أن تدنو مودتها ... وما إخال لدينا منك تنويل

انظر: السيرة (٤/١٣٢).

(٧) العذافرة: بضم العين هى الناقة الضخمة. الأين: الفتور والإعياء. الإرقال: ضرب من السير.

(٨) ذكر فى السيرة بعد هذا البيت بيت آخر لم يذكره هنا وهو:

ترمى النجاد بعينى مفرد لهق ... إذا توقدت الحزان والميل

انظر: السيرة (٤/١٣٣).

ضخم مقلدها فعم مقيدها ... في خلقها عن بنات الفحل تفضيل(*)
حرف أخوها أبوها من مهجنة ... وعمها خالها قوداء شمليل(*)
كأن أوب ذراعيها وقد عرقت ... وقد تلفع بالقور العساقيل(*)
أوب يدى فاقد شمطاء معولة ... قامت فجاوبها نكد مثاكيل
نواحة رخوة الضبعين ليس لها ... لما نعى بكرها الناعون معقول
تفرى اللبان بكفيها ومدرعها ... مشقق عن تراقيها رعابيل
تمشى الغواة بجنبيها وقولهم ... إنك يا ابن أبى سلمى لمقتول
وقال كل صديق كنت آمله ... لا ألهينك إنى عنك مشغول
فقلت خلوا طريقى لا أبالكم ... فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يومًا على آلة حدباء محمول
نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت فى الأقاويل

(*) ذكر فى السيرة بعد هذا البيت بيتان لم يذكرهم هنا وهما:
غلباء وجناء علكوم مذكرة ... فى دفها سعةٌ قدامها ميل
وجلدها من أطوم ما يؤيسه ... طلحٌ بضاحية المتنين مهزول
انظر: السيرة (١٣٣/٢).

(*) ذكر فى السيرة بعد هذا البيت أبيات أخرى لم يذكره هنا وهى:
يمشى القراد عليها ثم يزلقه ... منها لبان وأقراب زهاليل
عيرانة قذفت بالنحض عن عرض ... مرفقها عن بنات الزور مفتول
كأنما فات عينيها ومذبحها ... من خطمها ومن اللحيين برطيل
تمر مثل عسيب النخل ذا خصل ... فى غارز لم تخونه الأحاليل
قنواء فى حرتيها للبصير بها ... عتق مبين وفى الخدين تسهيل
تخدى على يسرات وهى لاحقة ... ذوابل مسهن الأرض تحليل
سمر العجايات يتركن الحصى زيما ... لم يقهن رءوس الأكم تنعيل
انظر: السيرة (١٣٤/٤، ١٣٥).

(*) ذكر فى السيرة بعد هذا البيت بيتان لم يذكرهم هنا وهما:
يومًا يظل به الحرباء مصطخدًا ... كأن ضاحية بالشمس مملول
وقال للقوم حاديهم وقد جعلت ... ورق الجنادب يركضن الحصاقيلوا
انظر: السيرة (١٣٥/٤).

لقد أقوم مقامًا لو يقوم به ... يرمى ويسمع ما قد أسمع الفيل
[لظل ترعد من خوف بوادره ... إن لم يكن من رسول الله تنويل
حتى وضعت يمينى ما أنازعها ... فى كف ذى نقمات قولُه القيل
فلهو أخوف عندى إذ أكلمه ... وقيل إنك منسوب ومسئول
من ضيغم بضراء الأرض مخدره ... فى بطن عثر غيل دونه غيل
إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
فى عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال انكاس ولا كشف ... عند اللقاء ولا ميل معازيل
يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ... ضرب إذا عرد السود التنابيل
شم العرانين أبطال لبوسهم ... من نسج داود فى الهيجا سرابيل
بيض سوابغ قد شكت لها حلق ... كأنها حلق القفعاء مجدول
ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم ... قومًا وليسوا مجازيعًا إذا نيلوا
لا يقع الطعن إلا فى نحورهم ... ليس لهم عن حياض الموت تهليل

ويروى أن كعبًا لما أنشد رسول الله ﷺ:

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

أشار رسول الله ﷺ بيده إلى الخلق: «أى اسمعوا». تعجبًا بقوله.

ومن مستجاد شعر كعب بن زهير قوله أيضًا يمدح النبى ﷺ:

تخذى به الناقة الأدماء معتجرًا ... بالبرد كالبدر جلى ليلة الظلم
وفى عطافيه أو أثناء بردته ... ما يعلم الله من دين ومن كرم

ولما قال كعب فى لاميته المتقدمة: «إذا عرد السود التنابيل»، يريد الأنصار وخص المهاجرين بمدحته دونهم غضب عليه الأنصار فقال بعد أن أسلم يمدحهم ويذكر بلاءهم مع رسول الله ﷺ وموضعهم من اليمن، ويقال: إن رسول الله ﷺ حضه على ذلك وقال لما أنشده القصيدة المتقدمة: «لولا ذكرت الأنصار بخير فإن الأنصار لذلك أهل؟»[(١)]، فقال كعب هذه الأبيات:

من سره كرم الحياة فلا يزل ... فى مقنب من صالح الأنصار
ورثوا المكارم كابرًا عن كابر ... إن الخيار هم بنو الأخيار

---

(١) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٤/٣٧٤).

المكرهين السمهرى بأذرع كسوالف الهندى غير قصار
والناظرين بأعين محمرة كالجمر غير كليلة الإبصار
والبائعين نفوسهم لنبيهم للموت يوم تعانق وكرار
يتطهرون يرونه نسكا لهم بدماء من علقوا من الكفار
دربوا كما دربت ببطن خفية غلب الرقاب من الأسود ضوارى
وإذا حللت ليمنعوك إليهم أصبحت عند معاقل الأغفار
ضربوا عليا يوم بدر ضربة دانت لوقعتها جميع نزار
لو يعلم الأقوام علمى كله فيهم لصدقنى الذين أمارى
قوم إذا خوت النجوم فإنهم للطارقين النازلين مقارى
فى الغر من غسان فى جرثومة أعيت محافرها على المحفار[١٠]

وكان عبدالله بن الزبعرى السهمى شاعر قريش ولسانها فى مناقضة حسان بن ثابت وغيره من شعراء رسول الله ﷺ، له فى ذلك أشعار كثيرة ذكرها ابن إسحاق فى مواضعها وأضربنا نحن عنها وعن سائر أشعار الجاهلية لما فيها من تنقص الإسلام والنيل من أهله، فلما كان عام الفتح فر ابن الزبعرى إلى نجران فرماه حسان بن ثابت ببيت واحد ما زاد عليه وهو:

لا تعدمن رجلاً أحلك بغضه نجران فى عيش أحذ لئيم

فلما بلغ ذلك ابن الزبعرى[١] خرج إلى رسول الله ﷺ فأسلم، وقال فى ذلك أشعارًا منها فى أبيات[٢]:

يا رسول الله المليك إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنا بور
إذ أبارى الشيطان فى سنن الغى ومن مال ميله مثبور

وقال أيضًا حين أسلم[٣]:

منع الرقاد بلابل وهموم والليل معتلج الرواق بهيم

---

(١٠) انظر الأبيات فى: السيرة (١٣٨/٤ - ١٣٩).

(١) هو عبد الله بن الزبعرى بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم القرشى السهمى. انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٥٥١)، الإصابة الترجمة رقم (٤٦٩٧)، أسد الغابة الترجمة رقم (٢٩٤٦).

(٢) انظر الأبيات فى: السيرة (٥٤/٤).

(٣) انظر الأبيات فى: السيرة (٥٥/٤)، وقال ابن هشام: وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له.

مـمـا أتــانى أن أحمــد لامنــى ... فيــه فبــت كــأننى محمــوم
يا خير من حملـت على أوصالهـا ... عيرانـة سـرح اليديـن عشـوم
إنـى لمعتـذر إليـك مـن الـذى ... أسديت إذ أنا فى الضلال أهيم
أيـام تـأمرنى بـأغوى خطـة ... سـهم وتـأمرنى بهـا مخـزوم
وأمـد أسباب الـردى ويقودنـى ... أمـر الغـواة وأمرهـم مشئوم
فـاليوم آمـن بـالنبى محمـد ... قلبـى ومخطـىء هـذه محـروم
مضت العـداوة فـانقضت أسبابها ... ودعـت أواصـر بيننـا وحلـوم
فاغفر فدى لك والـداى كلاهمـا ... زللـى فـإنك راحـم مرحـوم
وعليـك مـن علـم المليـك علامـة ... نـور أغـر وخـاتم مختـوم
أعطـاك بعـد محبـة برهانـه ... شـرفًا وبرهـان الإلـه عظيـم
ولقد شهدت بـأن دينـك صـادق ... حـق وأنـك فـى العبـاد جسيم
والله يشـهد أن أحمـد مصطفـى ... متقبـل فـى الصـالحين كريـم
فرم علا بنيانـه مـن هـاشم ... فـرع تمكـن فى الذرى وأروم

* * *

غزوة تبوك[1]

وأقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعد منصرفه عن عمرة الجعرانة ما بين ذى الحجة إلى رجب ثم أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك فى زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه.

وكان رسول الله ﷺ قل ما يخرج فى غزوة إلا ورى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يعمد إليه، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم. فقال ﷺ ذات يوم وهو فى جهازه للجد بن قيس أحد بنى سلمة: «ياجد هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر؟» فقال: يا رسول الله، أو تأذن ولا تفتنى، فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء منى، وإنى أخشى إن رأيت

(١) راجع هذه الغزوة فى: المنتظم لابن الجوزى (٣/٣٦٢)، المغازى للواقدى (٣/٩٨٩)، طبقات ابن سعد (٢/١/١١٨، ١١٩)، تاريخ الطبرى (٣/١٠٠)، البداية والنهاية (٥/٢)، الكامل (٢/١٤٩).

نساء بنى الأصفر أن لا أصبر. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك»، ففيه نزلت: ﴿**ومنهم من يقول ائذن لى ولاتفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين**﴾ [التوبة: ٤٩][1] أى إن كان إنما خشى الفتنة من نساء بنى الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة أكبر لتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه، يقول: وإن جهنم لمن ورائه[2].

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا فى الحر: زهادة فى الجهاد وشكا فى الحق وإرجافًا بالرسول، فأنزل الله فيهم: ﴿**وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيرًا جزاءً بما كانوا يكسبون**﴾ [التوبة: ٨١، ٨٢].

وبلغ رسول الله ﷺ أن ناسًا من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى، يثبطون الناس عنه فى غزوة تبوك، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم البيت وفعل طلحة، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله واقتحم أصحابه فأفلتوا[3] فقال الضحاك فى ذلك:

وكادت وبيت الله نار محمد ... يشيط بها الضحاك وابن أبيرق

وظلت وقد طبقت كبس سويلم ... أنوء على رجلى كسيرًا ومرفقى

سلام عليكم لا أعود لمثلها ... أخاف ومن تشمل به النار يحرق

ثم إن رسول الله ﷺ جد فى سفره وأمر الناس بالجهاز والانكماش، وحض أهل الغنى على النفقة والحملان فى سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان فى ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض»[4].

ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاءون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، سالم بن عمير[5]، وعلبة بن زيد[6]، وأبو ليلى بن كعب[7]، وعمرو

---

(١) انظر الحديث فى: زاد المسير لابن الجوزى (٣/٣٠٥)، دلائل النبوة للبيهقى (٥/٢١٣).

(٢) انظر الحديث فى: تاريخ الطبرى (٢/١٨٢).

(٣) ذكره ابن كثير فى التاريخ (٥/٣).

(٤) انظر الحديث فى: كنز العمال للمتقى الهندى (١١/٥٩٣/٣٢٨٤١)، جامع الجوامع للسيوطى (١/٣٨١).

(٥) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٨٨٥)، الإصابة الترجمة رقم (٣٠٥٣)، أسد الغابة=

ابن حمام، وهرمى بن عبدالله[1]، وعبدالله بن مغفل المزنى[2]، ويقال: عبدالله بن عمرو المزنى[3]، وعرباض بن سارية الفزارى[4]، فاستحملوا رسول الله ﷺ وهم أهل حاجة فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه»، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا أن لا يجدوا ما ينفقون[5].

فذكر أن ابن يامين بن عمير النضرى لقى أبا ليلى بن كعب وابن مغفل وهما يبكيان فقال: ما يبكيكما؟ قالا: جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه فأعطاهما ناضحًا له فارتحلاه وزودهما شيئًا من تمر فخرجنا مع رسول الله ﷺ[6]. وجاء المعذرون من الأعراب فاعتذروا إليه، فلم يعذرهم الله، وذكر أنهم نفر من بنى غفار[7].

=الترجمة رقم (١٩٠٠)، الطبقات الكبرى (٤٨٠/٣)، الوافى بالوفيات (٨٩/١٥)، تاريخ الإسلام (٦٠/١)، تاريخ اليعقوبى (٢٧/٢).

(٦) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٠٥٦)، الإصابة الترجمة رقم (٥٦٧٣)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٧٦١).

(٧) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٣١٨٤)، الإصابة الترجمة رقم (١٠٤٧٧).

(١) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٧٣٧)، الإصابة الترجمة رقم (٩٠٤٨)، أسد الغابة الترجمة رقم (٥٣٦٥).

(٢) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٦٨٥)، الإصابة الترجمة رقم (٤٩٨٨)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٢٠٢)، تاريخ ابن معين (٣٣٣)، سير أعلام النبلاء (٢٠٦/٤)، الوافى بالوفيات (٦٢٨/٧)، تهذيب الكمال (٧٤٥)، تهذيب التهذيب (٤٢/٦)، خلاصة تذهيب الكمال (٢١٥، ٢١٦)، شذرات الذهب (٦٥/١).

(٣) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٦٤٠)، الإصابة الترجمة رقم (٤٨٧٣)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٠٩٧)، تجريد أسماء الصحابة (٣٢٦/١)، تهذيب التهذيب (٣٤١/٥)، تهذيب الكمال (٧١٧/٢)، تاريخ الإسلام (١٠٧/٣)، الثقات (٢٣٨/٣).

(٤) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٠٤٩)، الإصابة الترجمة رقم (٥٥١٧)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٦٣٠)، معرفة الرجال (٢٠٣/٢)، سير أعلام النبلاء (٤١٩/٣)، مشاهير علماء الأمصار الترجمة رقم (٢٣١)، المعين وطبقات المحدثين (٢٤)، مرآة الجنان (١٥٦/١)، تقريب التهذيب (١٧/٢)، خلاصة تذهيب التهذيب (٢٦٩)، شذرات الذهب (٨٢/١).

(٥) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٢١٨/٥)، أسباب النزول (٢١٢)، تفسير الطبرى (١٤٥/١٠، ١٤٦)، فتح القدير للشوكانى (٥٥١/٢).

(٦) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٥/٥)، الطبرى فى تاريخه (١٨٢/٢).

(٧) انظر: السيرة (١٤٣/٤).

ثم استتب برسول الله ﷺ سفره، وأجمع السير وتخلف عنه نفر من المسلمين عن غير شك ولا ارتياب، منهم كعب بن مالك أخو بنى سلمة ومرارة بن الربيع أخو بنى عمرو بن عوف، وهلال بن أمية أخو بنى واقف، وأبو خيثمة أخو بنى سالم، وكانوا نفر صدق لا يتهمون فى إسلامهم.

فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع وضرب عبدالله بن أبى معه على حده عسكره أسفل منه نحو ذباب[1]، وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبدالله بن أُبى فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب.

وخلف رسول الله ﷺ على بن أبى طالب على أهله، وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً له، وتخففًا منه، فلما قالوا ذلك أخذ علىّ سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف فقال: يا نبى الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى أنك استثقلتنى وتخففت منى، فقال: «كذبوا ولكنى خلفتك لما تركت ورائى، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك، أفلا ترضى يا علىُّ أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى»[2]. فرجع علىّ إلى المدينة رضى الله عنه ومضى رسول الله ﷺ على سفره.

ثم إن أبا خيثمة بعد أن سار رسول الله ﷺ أيامًا رجع إلى أهله فى يوم حار، فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائطه قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء وهيأت له طعامًا، فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ فى الضح والريح والحر، وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء فى ماله مقيم! ما هذا بالنصف ثم قال: والله لا أدخل على عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيئا لى زادًا ففعلتا ثم قدم ناضحه فارتحله ثم خرج فى طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل بتبوك.

وقد كان أدرك أبا خيثمة فى الطريق عمير بن وهب الجمحى يطلب رسول الله ﷺ

---

(١) ذباب: ذكره الحازمى بكسر أوله وباءين وقال: جبل بالمدينة له ذكر فى المغازى والأخبار، وعن العمرانى: ذُباب بوزن الذباب الطائر جبل بالمدينة. انظر: معجم البلدان (٣/٣).

(٢) انظر الحديث فى: صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة تبوك (٤٤١٦/٧)، صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل علىّ (٣١/٤، ٣٢)، دلائل النبوة للبيهقى (٢٢٠/٥)، تاريخ ابن كثير (٧/٥).

فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير: إن لى ذنبًا فلا عليك أن تخلف عنى حتى آتى رسول الله ﷺ ففعل حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل. فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة». قالوا: هو والله أبو خيثمة يا رسول الله، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أبا خيثمة!» ثم أخبره خبره فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير[1]. ويروى أن أبا خيثمة! قال فى ذلك[2]:

ولما رأيت الناس فى الدين نافقوا ... أتيت التى كانت أعف وأكرما

وبايعت باليمنى يدى لمحمد ... فلم أكتسب إثمًا ولم أغش محرما

تركت خضيبًا فى العريش وصرمة ... صفايا كراما بسرها قد تحمما

وكنت إذا شك المنافق أسمحت ... إلى الدين نفسى شطره حيث يمما

وكان رسول الله ﷺ حين مر بالحجر نزلها واستقى الناس من بئرها فلما راحوا قال رسول الله ﷺ: «لا تشربوا من مائها ولا يتوضأ منه للصلاة وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئًا، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له».

ففعل الناس ما أمرهم رسول الله ﷺ، إلا أن رجلين من بنى ساعدة خرج أحدهما لحاجته وخرج الآخر فى طلب بعير له، فأما الذى ذهب لحاجته فإنه خنق على مذهبه، وأما الذى ذهب فى طلب بعيره فاحتمله الريح حتى طرحته بجبلى طىء، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: ألم أنهكم أن يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه؟ ثم دعا للذى أصيب على مذهبه فشفى، وأما الذى وقع بجبلى طىء، فإن طيئًا أهدته لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة[3].

ولما مر رسول الله ﷺ بالحجر سجى ثوبه على وجهه، واستحث راحلته ثم قال: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفًا أن يصيبكم ما أصابهم»[4].

فلما أصبح الناس ولا ماء معهم شكوا إلى رسول الله ﷺ، فدعا فأرسل الله سبحانه سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء. قال محمود بن لبيد[5]:

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح مسلم (٤/٥٣/٢١٢٠ - ٢١٢٢)، دلائل النبوة للبيهقى (٥/٢٢٣)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٩٣).

(٢) انظر الأبيات فى: السيرة (٤/١٤٦).

(٣) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٥/٢٤٠)، البداية والنهاية لابن كثير (٥/١١).

(٤) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٦/٣٣٨١)، صحيح مسلم (٤/٣٩، ٢٢٨٦).

(٥) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٣٧٥)، الإصابة الترجمة رقم (٧٨٣٨)، أسد=

لقد أخبرنى رجال من قومى عن رجل من المنافقين معروف نفاقه كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلما كان من أمر الماء بالحجر ما كان ودعا رسول الله ﷺ حين دعا فأرسل الله الصحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويحك! هل بعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارة. قيل لمحمود: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم، والله إن كان الرجل ليعرفه من أخيه ومن أبيه ومن عمه وفى عشيرته ثم يلبس بعضهم بعضًا على ذلك(١).

ثم إن رسول الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته فخرج أصحابه فى طلبها وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه يقال له: عمارة بن حزم وكان عقبيا بدريًا وهو عم بنى عمرو بن حزم وكان فى رحله زيد بن اللصيت القينقاعى، وكان منافقًا، فقال زيد وهو فى رحل عمارة وعمارة عند رسول الله ﷺ: أليس محمد يزعم أنه نبى ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته، فقال رسول الله ﷺ وعمارة عنده: «إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبى ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدى أين ناقته وإنى والله لا أعلم إلا ما علمنى الله وقد دلنى الله عليها وهى فى الوادى من شعب كذا وكذا وقد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتونى بها»؛ فذهبوا فجاءوا بها فرجع عمارة بن حزم إلى رحله فقال: والله لعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفًا عن مقالة قائل أخبره الله عنه. للذى قال زيد بن اللصيت. فقال رجل ممن كان فى رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتى، فأقبل عمارة على زيد يجأ فى عنقه ويقول: يا عباد الله! إن فى رحلى لداهية وما أشعر! اخرج أى عدو الله من رحلى فلا تصحبنى(٢).

فزعم بعض الناس أن زيدًا تاب بعد ذلك وقال بعض: لم يزل متهمًا بشر حتى مات(٣).

ثم مضى رسول الله ﷺ سائرًا فجعل يتخلف عنه الرجل فيقولون: يا رسول الله تخلف فلان. فيقول: «دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد

=الغابة الترجمة رقم (٤٧٨٠)، طبقات ابن سعد (٥/٧٧)، طبقات خليفة الترجمة رقم (٢٠٣٩)، المعرفة والتاريخ (١/٣٥٦)، تهذيب الكمال (١٣١٠)، تذهيب التهذيب (٤/٢٦)، تهذيب التهذيب (١٠/٦٥)، خلاصة تذهيب الكمال (٣١٧)، شذرات الذهب (١/١١٢).

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/١٩٤، ١٩٥)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٥/٩).

(٢) ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٥/٢٢٣)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٥/٩).

(٣) انظر: السيرة (٤/١٤٩).

أراحكم الله منه» حتى قيل: يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره. فقال: «دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»، وتلوم أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا، ونزل رسول الله ﷺ فى بعض منازله فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده. فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذر». فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر يمشى وحده ويموت وحده، ويبعث وحده»[(١)].

فقضى الله سبحانه أن أبا ذر لما أخرجه عثمان رضىالله عنه إلى الربدة وأدركته بها منيته لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه، فأوصاهما أن غسلانى وكفنانى ثم ضعانى على قارعة الطريق فأول ركب يمر بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله فأعينوننا على دفنه فلما مات فعلا ذلك وأقبلو عبدالله بن مسعود فى رهط من العراق عمار، فلم يرعهم إلا بالجنازة على ظهر الطريق قد كادت الإبل تطؤها وقام إليهم الغلام فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه. فاستهل عبدالله يبكى ويقول: صدق رسول الله تمشى وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك! ثم نزل هو وأصحابه فواروه. ثم حدثهم عبدالله بن مسعود حديثه وما قال له رسول الله ﷺ فى مسيره إلى تبوك[(٢)].

وقد كان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بنى عمرو بن عوف وحليف لبنى سلمة من أشجع يقال له: مخشن بن حمير، ويقال: مخشى، يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأننا بكم غدًا مقرنين فى الحبال إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين فقال مخشن بن حمير، والله لوددت أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وأنا نتفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقال رسول الله ﷺ فيما بلغنا لعمار بن ياسر: «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بل قلتم كذا وكذا»، فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون، فقال وديعة بن ثابت

---

(١) انظر الحديث فى: مستدرك الحاكم (٣/٥٠، ٥١)، دلائل النبوة للبيهقى (٥/٢٢٢)، البداية والنهاية لابن كثير (٥/٨)، صحيح ابن حبان (٨/٢٣٤)، مجمع الزوائد للهيثمى (٩/٣٣١، ٣٣٢).

(٢) انظر: السيرة (٤/١٤٩ - ١٥٠).

ورسول الله ﷺ واقف على ناقته فجعل يقول وهو آخذ بحقها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿**ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب**﴾ [التوبة: ٦٥]، وقال مخشن بن حمير: يا رسول الله قعد بى اسمى واسم أبى. فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشن بن حمير فتسمى عبدالرحمن، وسأل الله أن يقتله شهيدًا لا يعلم مكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر(١).

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك اتاه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح رسول الله ﷺ وأعطى الجزية. وأتاه أهل جرباء(٢) وأذرح(٣) فأعطوا الجزية، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا فهو عندهم [فكتب لِيُحَنَّةَ بن رؤبة](٤): «بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر، لهم ذمة الله ومحمد النبى ومن كان منهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثًا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيبة لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقًا يردونه من بر أو بحر(٥).

ثم دعا رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فبعثه إلى أكيدر دومة وهو أكيدر ابن عبدالملك رجل من كندة كان ملكًا عليها وكان نصرانيًا فقال رسول الله ﷺ لخالد: «إنك ستجده يصيد البقر». فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين وفى ليلة مقمرة صائفة وهو على سطح له ومعه امرأته فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر، فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله، قالت: فمن يترك هذه؟ قال: لا أحد، فنزل فأمر بفرسه، فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته، فيهم أخ له يقال له: حسان، فركب وخرجوا معه بمطاردهم، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ فأخذته، وقتلوا أخاه، وكان عليه قباء ديباج مُخَوص بالذهب، فاستلبه خالد فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه عليه، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه، فقال رسول الله ﷺ: «أتعجبون من هذا؟ فوالذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٣٨١، ٣٨٢)، ابن حجر فى الإصابة (٦/٧٥).

(٢) جرباء: كأنه تأنيب الأجرب، موضع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام قرب جبال السراة من ناحية الحجاز. انظر: معجم البلدان (٢/١١٢).

(٣) أذرح: اسم بلد فى أطراف الشام من أعمال السراة، ثم من نواحى البلقاء وعمان مجاورة لأرض الحجاز. انظر: معجم البلدان (١/١٢٩).

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل، وما أوردناه من السيرة.

(٥) ذكر البيهقى فى الدلائل (٥/٢٤٧، ٢٤٨).

الجنة أحسن من هذا»[١]. ثم قدم خالد بأكيدر على رسول الله ﷺ فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله، فرجع إلى قريته، فقال رجل من طيئ يقال له: بجير ابن بجرة، يذكر قول رسول الله ﷺ لخالد: إنك ستجده يصيد البقر، وما صنعت البقر تلك الليلة حتى استخرجته لتصديق قول رسول الله ﷺ:

تبارك سائق البقرات إنى رأيت الله يهدى كل هادى
فمن يك حائدًا عن ذى تبوك فإنا قد أمرنا بالجهاد[٢]

فأقام رسول الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة ولم يجاوزها، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة.

وكان فى الطريق ماء يخرج من وَشَل يروى الراكب والراكبين والثلاثة، بواد يقال له: وادى المشقق، فقال رسول الله ﷺ: «من سبقنا إلى الماء فلا يستقين منه شيئًا، حتى نأتيه»، فسبقه إليه نفر من المنافقين، فاستقوا ما فيه، فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه فلم ير فيه شيئًا، فقال: «من سبقنا إلى هذا؟» فقيل: يا رسول الله فلان وفلان، فقال: «أو لم أنهكم أن تستقوا منه شيئًا حتى آتيه؟» ثم لعنهم رسول الله ﷺ ودعا عليهم، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل فجعل يصب فى يده ما شاء الله أن يصب ثم نضحه به ومسحه بيده ودعا بما شاء الله أن يدعو به، فانخرق من الماء كما يقول من سمعه ما إن حسا كحس الصواعق، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه. فقال رسول الله ﷺ: «لئن بقيتم أو من بقى منكم لتسمعن بهذا الوادى وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه»[٣].

ومات فى هذه الغزوة من أصحاب رسول الله ﷺ: عبدالله ذو البجادين المزنى، وإنما سمى ذا البجادين لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه حتى تركوه فى بجاد ليس عليه غيره، والبجاد: الكساء الغليظ الجافى، فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ فلما كان قريبًا منه شق بجاده باثنين فاتزر بواحد، واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله ﷺ فقيل له: ذو البجادين لذلك[٤].

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح مسلم (١٢٧/١٩١٦/٤)، سنن النسائى (٥٧١٥/٧)، مسند الإمام أحمد (١١١/٣)، الطبقات الكبرى لابن سعد (١٦٦/٢)، دلائل النبوة للبيهقى (٢٥٠/٤٥، ٢٥١).

(٢) انظر الأبيات فى: السيرة (١٥٢/٤).

(٣) انظر الحديث فى: موطأ مالك (١٤٣/٢/١)، البداية والنهاية لابن كثير (١٨/٥)، صحيح مسلم (١٧٨٤/١٠/٤، ١٧٨٥).

(٤) انظر: السيرة (١٥٤/٤).

فكان عبدالله بن مسعود يحدث قال: قمت من جوف الليل وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وإذا عبدالله ذو البجادين قد مات، وإذا هم قد حفروا له ورسول الله ﷺ في حفرته وأبو بكر وعمر يدليانه إليه وهو يقول: أدليا إلى أخاكما فدلياه، فلما هيأه لشقه قال: «اللهم إنى قد أمسيت راضيًا عنه فارض عنه» يقول عبدالله ابن مسعود: يا ليتنى كنت صاحب الحفرة! (١).

وقال أبو رهم الغفارى، وكان ممن بايع تحت الشجرة: غزوت مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك، فسرت ذات ليلة معه قريبًا منه وألقى علينا النعاس، فطفقت أستيقظ وقد دنت راحلتى من راحلته عليه السلام فيفزعنى دنوها منه مخافة أن أصيب رجله في الغرز فما استيقظت إلا لقوله: حس، فقلت: يا رسول الله استغفر لى: قال: «سر». فجعل يسألنى عمن تخلف من بنى غفار فأخبره به، فقال وهو يسألنى: «ما فعل النفر الحمر الطوال الثطاط» (٢)، فحدثته بتخلفهم، قال: «فما فعل النفر السود الجعاد القصار؟» قلت: والله ما أعرف هؤلاء منا. قال: «بلى، الذين هم نعم بشبكة شدخ»، فتذكرتهم في بنى غفار، فلم أذكرهم حتى ذكرت أنهم رهط من أسلم كانوا حلفاء فينا، فقلت: يا رسول الله، أولئك رهط من أسلم حلفاء فينا، فقال رسول الله ﷺ: «ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله امرءً نشيطًا في سبيل الله؟! إن أعز أهلى علىَّ أن يتخلف عنى المهاجرون من قريش والأنصار وغفار وأسلم» (٣).

قال ابن إسحاق (٤): ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذى أوَان بلد بينه وبين المدينة ساعةٌ من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجدًا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه، فقال: «إنى على جناح سفر، وحال شغل». أو كما قال ﷺ: «ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم، فصلينا لكم فيه»، فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم، أخا بنى سالم بن عوف، ومعن بن

---

(١) انظر الحديث في: مجمع الزوائد للهيثمى (٩/٣٦٩)، البداية والنهاية لابن كثير (٥/١٨).

(٢) الثطاط: جمع ثط، وهو قليل شعر اللحية والحاجبين.

(٣) انظر الحديث في: الطبقات الكبرى لابن سعد (٤/١٨٠)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٩٢)، مسند الإمام أحمد (٤/٣٥٠).

(٤) انظر: السيرة (٤/١٥٥ - ١٥٦).

عدى، أو أخاه عاصم بن عدى، أخا بنى العجلان، فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه»، فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف رهط مالك فقال مالك لمعن: انظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى. فدخل إلى أهله فأخذ سعفًا من النخل فأشعل فيه نارًا ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿**والذين اتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين**﴾ [التوبة: ١٠٧] إلى آخر القصة(١).

وقدم رسول الله ﷺ المدينة وقد كان تخلف عنه من تخلف من المنافقين، وأولئك الرهط الثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق: كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لا تكلمن أحدًا من هؤلاء الثلاثة»، وأتاه من تخلف عنه من المنافقين فجعلوا يحلفون له ويعتذرون فصفح عنهم رسول الله ﷺ ولم يعذرهم الله ولا رسوله، فاعتزل المسلمون كلام أولئك النفر الثلاثة.

فحدث(٢) كعب بن مالك قال: ما تخلفت عن رسول الله فى غزوة غزاها قط، غير أنى تخلفت عنه فى غزوة بدر، وكانت غزوة لم يعاتب الله فيها ولا رسوله أحدًا تخلف عنها، وذلك أن رسول الله ﷺ إنما خرج يريد عير قريش فجمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر، وإن كانت غزوة بدر هى أذكر فى الناس منها.

وكان من خبرى حين تخلفت عنه فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة، والله ما اجتمعت لى راحلتان قط حتى اجتمعنا لى فى تلك الغزوة، وكان رسول الله ﷺ قل ما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد واستقبل سفرًا بعيدًا واستقبل غزو عدو كثير، فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته وأخبرهم خبره بوجهه الذى يريد، والمسلمون من تبع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ، يعنى بذلك الديوان، فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ذلك ما لم ينزل فيه وحى من الله تعالى، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار وأحبت الظلال فالناس إليها صعر، فتجهز رسول الله ﷺ وتجهز المسلمون معه، وجعلت أغدو لأتجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة فأقول فى نفسى: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك

(١) انظر الحديث فى: تفسير ابن كثير (١٤٩/٤).
(٢) انظر: السيرة (١٥٧/٤ - ١٥٨).

يتمادى بى حتى شمر بالناس الجد وأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئًا فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئًا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئًا، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفرط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتنى فعلت، فلم أفعل، وجعلت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم يحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصًا عليه فى النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك: ما فعل كعب ابن مالك؟ فقال رجل من بنى سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه والنظر فى عطفيه.

فقال له معاذ: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيرًا. فسكت رسول الله ﷺ، فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ توجه قافلاً حضر لى بثى فجعلت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخط رسول الله ﷺ غدًا؟ وأستعين على ذلك كل ذى رأى من أهلى، فلما قيل لى: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عنى الباطل وعرفت أن لا أنجو منه إلا بالصدق، فأجمعت أن أصدق.

وصبح رسول الله ﷺ المدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاء المخلفون من الأعراب فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وأيمانهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت فسلمت عليه فتبسم تبسم المغضب ثم قال لى: تعاله. فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال لى: «ما خلفك ألم تكن ابتعت ظهرك؟» قلت: يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر لقد أعطيت جدلا، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثًا كذبًا لترضين عنى وليوشكن الله أن يسخط علىّ، ولئن حدثتك اليوم حديثًا صادقًا تجد على فيه إنى أرجو عقباى من الله فيه، ولا والله ما كان لى عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك. فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدقت فيه، فقم حتى يقضى فيك. فقمت.

وثار معى رجال من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلفون فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقى هذا أحد غيرى؟ قالوا:

نعم، رجلان قالا مثل ذلك وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمرى وهلال بن أمية الواقفى، فذكروا لى رجلين صالحين فيهما أسوة حسنة، فقمت حين ذكروهما لى، ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لى نفسى والأرض فما هى بالأرض التى كنت أعرف.

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباى فاستكانا فقعدا فى بيوتهما، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين واطوف بالأسواق لا يكلمنى أحد، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى: هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا! ثم أصلى قريبًا منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى، وإذا التفت نحوه أعرض عنى.

حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك الله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله؟ فسكت فعدت فناشدته، فسكت، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناى ووثبت فتسورت الحائط. ثم غدوت إلى السوق فبينا انا أمشى بالسوق إذا نبطى[1] يسأل عنى من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فجعل الناس يشيرون له إلى، حتى جاءنى فدفع إلى كتابًا من ملك غسان فى سرقة من حرير فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نوسك. قلت حين قرأتها: وهذا من البلاء أيضًا قد بلغ لى ما وقعت فيه أن طمع فى رجل من أهل الشرك فعمدت بها إلى تنور فسجرته بها.

فأقمنا على ذلك حتى مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول الله ﷺ يأتينى فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلقها أم ماذا؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها. وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك، فقلت لامرأتى: الحقى بأهلك وكونى فيهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما هو قاض.

وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع إلا خادم، أفتكره ان أخدمه؟ قال: لا ولكن لا يقربنك. قالت: يا

---

(١) النبطى: واحد النبط وهم قوم من الأعاجم.

رسول الله، والله ما به من حركة، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ولقد تخوفت على بصره. فقال لى بعض أهلى: لو استأذنت رسول الله ﷺ لامرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذنه فيها، ما أدرى ما يقول لى فى ذلك إذا استأذنته وأنا رجل شاب، قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون من حين نهى رسول الله المسلمين عن كلامنا، ثم صليت الصبح خمسين ليلة على طهر بيت من بيوتنا على الحال التى ذكر الله، هنا قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت وضاقت على نفسى، وقد كنت ابتنيت خيمة فى ظهر سلع، فكنت اكون فيها إذ سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. فخررت ساجدًا وعرفت أن قد جاءنى الفرج.

قال: وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا وذهب نحو صاحبى مبشرون، وركض رجل إلى فرسًا وسعى ساع من أسلم، حتى أوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت ثوبى فكسوتهما إياه بشارة، ووالله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، ثم انطلقت أتيمم رسول الله ﷺ، وتلقانى الناس يبشروننى بالتوبة يقولون: ليهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام إلى طلحة بن عبيد الله فحيانى وهنأنى، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره. فكان كعب لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال ووجهه يبرق من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ يوم ولدتك أمك. قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: بل من عند الله. قال: وكان رسول الله ﷺ إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه.

قال: فلما جلست بين يديه، قلت: يا رسول الله، إن من توبتى إلى الله أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. قلت: إنى ممسك سهمى الذى بخيبر. وقلت: يا رسول الله إن الله قد نجانى بالصدق، فإن من توبتى إلى الله أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت. والله ما أعلم أحدًا من الناس أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت لرسول الله ﷺ ذلك أفضل مما أبلانى، والله ما تعمدت من كذبة مذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى.

وأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿**لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهمْ إنه بهم رءوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾ [التوبة: ١٧٧ - ١١٩].

قال كعب: فوالله ما أنعم الله على نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام كانت أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله ﷺ يومئذ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله تبارك وتعالى قال فى الذين كذبوه شر ما قال لأحد: ﴿**سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاءً بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين**﴾ [التوبة: ٩٥ - ٩٦].

قال: وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر هؤلاء الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فعذرهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ما قضى، فلذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿**وعلى الثلاثة الذين خلفوا**﴾ وليس الذى ذكر من تخليفنا لتخلفنا عن الغزوة، ولكن لتخليفه إيانا وإرجائه أمرنا عن من حلف له واعتذر إليه فقبل منه[١].

* * *

ذكر إسلام ثقيف

وقدم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك فى رمضان وقدم عليه فى ذلك الشهر وفد ثقيف.

وكان من حديثهم أن رسول الله ﷺ لما انصرف عنهم اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له رسول الله ﷺ كما يتحدث قومه: إنهم قاتلوك. وعرف رسول الله ﷺ أن فيهم نخوة

(١) انظر الحديث فى: صحيح البخارى كتاب المغازى (٤٤١٨/٧)، صحيح مسلم كتاب التوبة (٥٣/٤) مسند الإمام أحمد (٤٥٤/٣ - ٤٥٩)، سنن الترمذى كتاب التفسير (٣١٠٢)، دلائل النبوة للبيهقى (٢٧٣/٥ - ٢٧٩)، مصنف عبد الرزاق (٩٧٤٤/٥).

الامتناع الذى كان منهم. فقال عروة: يا رسول الله، أنا أحب إليهم من أبكارهم. ويقال: من أبصارهم. وكان فيهم كذلك محببًا مطاعًا.

فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء أن لا يخالفوه لمنزلته فيهم، فلما أشرف لهم على علية له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله، فقيل له: ما ترى فى دمك؟ قال: كرامة أكرمنى الله بها وشهادة ساقها إلى فليس فى إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم فادفنونى معهم. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثله فى قومه لكمثل صاحب ياسين فى قومه»[1].

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرًا، ثم إنهم ائتمروا بينهم ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد بايعوا وأسلموا، فمشى عمرو بن أمية أخو بنى علاج وكان من أدهى العرب إلى عبد ياليل بن عمرو حتى دخل داره وكان قبل مهاجرًا له الذى بينهما سىء ثم أرسل إليه، أن عمرو بن أمية يقول لك: اخرج إلى فقال عبد ياليل للرسول: ويلك أعمرو وأرسلك إلى؟ قال: نعم وها هو ذا واقفا فى دارك. قال: إن هذا لشىء ما كنت أظنه، لعمرو كان أمنع فى نفسه من ذلك. فخرج إليه فلما رآه رحب به فقال له عمرو: إنه قد نزل بنا ما ليست معه هجرة، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت، وقد أسلمت العرب كلها، وليست لكم بحربهم طاقة فاتنظروا فى أمركم[2].

فعند ذلك ائتمرت ثقيف بينها وقال بعضهم لبعض: ألا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع؟ فائتمروا بينهم وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً كما أرسلوا عروة. فكلموا عبد ياليل وكان سن عروة، وعرضوا عليه ذلك فأبى أن يفعل وخشى أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة فقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معى رجالاً. فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك فيكونوا ستة، فبعثوا مع عبد ياليل الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب. ومن بنى مالك: عثمان بن أبى العاص وأوس بن عوف ونمير بن خرشة.

فخرج بهم عبد ياليل وهو ناب القوم وصاحب أمرهم، ولم يخرج بهم إلا خشية من

---

(١) انظر الحديث فى: مستدرك الحاكم (٣/٦١٥، ٦١٦)، تاريخ الطبرى (٢/١٧٩)، دلائل النبوة للبيهقى (٥/٢٩٩، ٣٠٠)، مجمع الزوائد للهيثمى (٩/٣٨٦)، الطبقات الكبرى لابن سعد (١/٣١٢).

(٢) انظر: السيرة (٤/١٦٤ - ١٦٦).

مثل ما صنع بعروة بن مسعود لكى يشغل كل رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه، فلما دنوا من المدينة ونزلوا قناة ألفوا بها المغيرة بن شعبة يرعى فى نوبته ركاب أصحاب رسول الله ﷺ وكانت رعيتها نوبًا عليهم، فلما رآهم ترك الركاب عند الثقفيين وضبر يشتد[1] يبشر رسول الله ﷺ بقدومهم، فلقيه أبو بكر الصديق قبل أن يدخل على رسول الله ﷺ، فأخبره بقدومهم يريدون البيعة والإسلام وأن يشترطوا شروطًا ويكتتبوا من رسول الله ﷺ كتابًا. فقال أبو بكر رضى الله عنه للمغيرة: أقسمت عليك بالله لا تسبقنى إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا أحدثه. ففعل المغيرة. فدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ثم خرج المغيرة إلى أصحابه فروح الظهر معهم وعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية.

ولما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة فى ناحية مسجده كما يزعمون فكان خالد بن سعيد هوالذى يمشى بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى اكتتبوا كتابهم، كتبه خالد بيده وكانوا لا يطعمون طعامًا ياتيهم من رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا وفرغوا من كتابهم.

وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية وهى اللات لا يهدمها ثلاث سنين فأبى ذلك عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى حتى سألوه شهرًا واحدًا بعد مقدمهم فأبى عليهم أن يدعها شيئًا مسمى، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام، فأبى عليهم رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها. وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم فقال رسول الله ﷺ: «أما كسر أوثانكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فلا خير فى دين لا صلاة فيه»، [فقالوا: يا محمد، فسنؤتيكها، وإن كانت دناءة][2]، فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا أمر عليهم عثمان بن أبى العاص وكان من أحدثهم سنًا فقال أبو بكر لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إنى قد رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن[3].

---

(١) ضبر يشتد: أى وثب، ويقال: ضبر الفرس إذا جمع قوائمه ووثب.

(٢) ما بين المعقوفتين سقط فى الأصل، وما أوردناه من السيرة.

(٣) انظر الحديث فى: سنن أبى داود (٣٠٢٦/٣)، مسند الإمام أحمد (٢١٨/٤).

فحدث[١] عثمان بن أبى العاص قال: كان من آخر ما عهد إلى رسول الله ﷺ حين بعثنى على ثقيف أن قال: «يا عثمان تجاوز فى صلاتك واقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة»[٢].

فلما فرغوا من أمرهم وتوجهوا راجعين إلى بلادهم بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فى هدم الطاغية فخرجا مع القوم حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان، فأبى ذلك عليه أبو سفيان وقال: ادخل أنت على قومك. وأقام أبو سفيان بماله بذى الهدم، فلما دخل علاها يضربها بالمعول وقام دونه بنو معتب خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة، وخرج نساء ثقيف حسرا[٣] يبكين عليها ويقلن:

لتبكين دفاع أسلمها الرضاع[٤]

لم يحسنوا المصاع

فلما هدمها المغيرة وأخذ مالها وحليها أرسل إلى أبى سفيان وحليها مجموع ومالها من الذهب والجزع.

وقد كان أبو مليح بن عروة وقارب بن الأسود قدما على رسول الله ﷺ قبل وفد ثقيف حين قتل عروة يريدان فراق ثقيف وأن لا يجامعاهم على شىء أبدًا. فأسلما فقال لهما رسول الله ﷺ: توليا من شئتما. فقالا: نتولى الله ورسوله فقال رسول الله ﷺ: «وخالكما أبا سفيان بن حرب». فقالا: وخالنا أبا سفيان، فلما أسلم أهل الطائف ووجه رسول الله ﷺ أبا سفيان والمغيرة إلى هدم الطاغية سأل أبو مليح رسول الله ﷺ أن يقضى عن أبيه عروة دينًا كأن عليه من مال الطاغية. فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فقال له قارب بن الأسود: وعن الأسود يا رسول الله فاقضه، وعروة والأسود أخوان لأب وأم، فقال رسول الله ﷺ: «إن الأسود مات مشركًا». فقال قارب: يا رسول الله، لكن تصل مسلمًا ذا قرابة، يعنى نفسه، إنما الدين على وإنما أنا الذى أطلب به. فأمر رسول الله ﷺ أبا سفيان أن يقضى دين عروة والأسود من مال الطاغية، فلما جمع

---

(١) انظر: السيرة (١٦٧/٤).

(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٢١/٤)، صحيح مسلم (٣٤٢/١٨٧/١).

(٣) حسرا: بضم الحاء وتشديد السين مفتوحة، جمع حاسرة، وهى المكشوفة الوجه.

(٤) دفاع: هى صيغة مبالغة من الدفع، وإنما سموا طاغيتهم دفاعًا لأنهم كانوا يعتقدون أن الأصنام تدفع عنهم البلاء والمحن. الرضاع: جمع راضع وأريد بهم اللئام.

المغيرة مالها ذكر أبا سفيان بذلك فقضى منه عنهما[١].

هكذا ذكر ابن إسحاق إسلام أهل الطائف بعقب غزوة تبوك في رمضان من سنة تسع قبل حج أبى بكر بالناس آخر تلك السنة. وجعل ابن عقبة قدوم عروة على رسول الله ﷺ ومقتله فى قومه وإسلام ثقيف كل ذلك بعد صدر أبى بكر عن حجه. وبين حديثه وحديث ابن إسحاق بعض اختلاف، رأيت ذكر حديث ابن عقبة وإن كان أكثره معادًا لأجل ذلك الاختلاف، ثم أذكر بعده حجة أبى بكر فى الموضع الذى ذكرها فيه ابن إسحاق.

قال موسى بن عقبة: فلما صدر أبو بكر من حجه بالناس قدم عروة بن مسعود الثقفى على رسول الله ﷺ فأسلم ثم استأذن رسول الله ﷺ فى الرجوع إلى قومه فقال له: إنى أخاف ان يقتلوك، قال: لو وجدونى نائمًا ما أيقظونى. فأذن له فرجع إلى الطائف وقدمها عشاء فجاءته ثقيف يسلمون عليه فدعاهم إلى الإسلام ونصح لهم فاتهموه وأعضوه وأسمعوه من الأذى ما لم يكن يخشاه منهم فخرجوا من عنده حتى إذا أسحر وسطع الفجر قام على غرفة فى داره فأذن بالصلاة وتشهد، فرماه رجل من ثقيف بسهم فقتله فقال رسول الله ﷺ لما بلغه قتله: «مثل عروة مثل صاحب ياسين، دعا قومه إلى الله، فقتلوه»[٢].

وأقبل بعد قتله وفد من ثقيف بضعة عشر رجلاً هم أشراف ثقيف، فيهم كنانة بن عبد ياليل وهو رأسهم يومئذ، وفيهم عثمان بن أبى العاص وهو أصغر القوم حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة يريدون الصلح حين رأوا أن قد فتحت مكة وأسلم عامة العرب، فقال المغيرة بن شعبة: يا رسول الله، أنزل على قومى أكرمهم بذلك فإنى حديث الجرم فيهم. قال: لا أمنعك أن تكرم قومك ولكن تنزلهم حيث يسمعون القرآن. فأنزلهم رسول الله ﷺ فى المسجد وبنى لهم خيامًا لكى يسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلوا. وكان رسول الله ﷺ إذا خطب لم يذكر نفسه، فلما سمعه وفد ثقيف قالوا: يأمرنا ان نشهد أنه رسول الله ولا يشهد به فى خطبته! فلما بلغه قولهم قال: «فإنى أول

---

(١) انظر الحديث فى: الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/٥٠٤، ٥٠٥).

(٢) انظر الحديث فى: مستدرك الحاكم (٣/٦١٥)، طبقات ابن سعد (٥/٣٧٠)، مجمع الزوائد للهيثمى (٩/٣٨٦)، المعجم الكبير للطبرانى (١٧/١٤٨)، الدر المنثور للسيوطى (٥/٢٦٢)، كنز العمال للمتقى الهندى (٣٣٦١٥).

من يشهد أنى رسول الله»[١]. وكانوا يغدون على رسول الله كل يوم ويخلفون عثمان بن أبى العاص على رحالهم لأنه أصغرهم، فكان عثمان كلما رجع الوفد إليه وقالوا بالهاجرة عمد إلى رسول الله ﷺ فسأله عن الدين واستقرأه القرآن، فاختلف إليه عثمان مرارًا حتى فقه فى الدين وعلم. وكان إذا وجد رسول الله ﷺ نائمًا عمد إلى أبى بكر، وكان يكتم ذلك من أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ وأحبه.

فمكث الوفد يختلفون إلى رسول الله ﷺ وهو يدعوهم إلى الإسلام، فقال له كنانة ابن عبد ياليل: هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى قومنا ثم نرجع إليك؟ فقال: «نعم، إن أنتم أقررتم بالإسلام قاضيتكم وإلا فلا قضية ولا صلح بينى وبينكم».

قالوا: أرأيت الزنا؟ فإنا قوم نغترب ولابد لنا منه. قال: «هو عليكم حرام إن الله» يقول: ﴿**ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً**﴾ [الإسراء: ٣٢].

قالوا: فالربا؟ قال: «والربا». قالوا: إنه أموالنا كلها. قال: «فلكم رءوس أموالكم»، قال الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مل بقى من الربا إن كنتم مؤمنين**﴾ [البقرة: ٢٧٨]. قالوا فالخمر؟ فإنها عصير أرضنا ولا بد لنا منها. قال: «إن الله قد حرمها»، قال الله: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾ [المائدة: ٩٠].

فارتفع القوم فخلا بعضهم إلى بعض وقالوا: ويحكم إنا نخاف إن خالفناه يومًا كيوم مكة، انطلقوا فأعطوه ما سأل وأجيبوه. فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: لك ما سألت. أرأيت الربة ماذا نصنع فيها؟ قال: «اهدموها». قالوا: هيهات! لو تعلم الربة أنا نريد هدمها لقتلت أهلنا. فقال عمر: ويحك يا بن عبد ياليل ما أحمقك إنما الربة حجر، قال: إنا لم نأتك يا ابن الخطاب. ثم قال: يا رسول الله، تول أنت هدمها، فأما نحن فلن نهدمها أبدًا، قال رسول الله ﷺ: «فسأبعث إليكم من يكفيكم هدمها». قال كنانة: ائذن لنا قبل رسولك ثم ابعث فى آثارنا، فإنى أعلم بقومى، فأذن لهم رسول الله ﷺ وأكرمهم وحملهم. قالوا: يا رسول الله، أمر علينا رجلاً يؤمنا، فأمر عليهم عثمان بن أبى العاص[٢] لما رأى من حرصه على الإسلام وقد كان علم سورًا من القرآن قبل أن يخرج.

---

(١) ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٥/٣٠٠).

(٢) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٧٩١)، الإصابة الترجمة رقم (٥٤٥٧)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٥٨١)، تهذيب الكمال (٦/٢١٢)، تهذيب التهذيب (٧/١٢٨، ١٢٩)، خلاصة تذهيب الكمال (٩١٣)، شذرات الذهب (١/٣٦)، سير أعلام النبلاء (٢/٣٧٤).

وقال كنانة[1] لأصحابه: أنا أعلمكم بثقيف فاكتموهم إسلامكم وخوفوهم الحرب والقتال وأخبروهم أن محمدًا سألنا امورًا أبيناها عليه، سألنا أن نهدم اللات ونبطل أموالنا فى الربا ونحرم الخمر.

حتى إذا دنوا من الطائف خرجت إليهم ثقيف يتلقونهم، فلما رأوهم قد ساروا العنق وقطروا الإبل وتغشوا ثيابهم كهيئة قوم قد حزنوا أو كذبوا قالت ثقيف بعضهم لبعض: ما جاءوكم بخير. فلما دخلوا حصنهم عمدوا لـلآت فجلسوا عندها، واللات بيت كانوا يعبدونه ويسترونه ويهدون له الهدى يضاهون به بيت الله، ثم رجع كل واحد منهم إلى أهله فجاء كل رجل حامية من ثقيف فسألوه: ماذا جئتم به؟ قالوا: أتينا رجلاً فظا غليظًا يأخذ من أمره ما شاء قد ظهر بالسيف وأداخ العرب ودان له الناس، فعرض علينا أمورًا شدادًا: هدم اللات وترك الأموال فى الربا إلا رءوس أموالكم وحرم الخمر والزنا. قالت ثقيف: والله لا نقبل هذا أبدًا. قال الوفد: أصلحوا السلاح وتهيئوا للقتال ورموا حصنكم.

فمكثت ثقيف بذلك يومين أو ثلاثة تريد القتال ثم ألقى الله الرعب فى قلوبهم وقالوا: والله ما لنا به طاقة أداخ العرب كلها فارجعوا إليه فأعطوه ما سأل وصالحوه عليه. فلما رأى الوفد أنهم قد رعبوا واختاروا الأمن على الخوف وعلى الحرب، قالوا لهم: إنا قد فرغنا من ذلك، قد قاضيناه وأسلمنا وأعطانا ما أحببنا واشترطنا ما أردنا وجدناه اتقى الناس وأوفاهم وأرحمهم وأصدقهم وقد بورك لنا ولكم فى مسيرنا إليه وفيما قاضيناه عليه. فقالت ثقيف: فلم كتمتمونا هذا الحديث وغممتمونا بذلك أشد الغم؟ قالوا: أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان، فأسلموا مكانهم واستسلموا.

فمكثوا أيامًا ثم قدم عليهم رسل رسول الله ﷺ قد أمر عليهم خالد بن الوليد وفيهم المغيرة بن شعبة، فلما قدموا عليهم عمدوا للات ليهدموها وانكفأت ثقيف كلها الرجال والنساء والصبيان حتى خرج العواتق من الحجال وهم لا يرون أنها تهدم ويظنون أنها ستمتنع. فقام المغيرة بن شعبة[2] وقال لأصحابه: لأضحكنكم من ثقيف فأخذ الكرزن

---

(١) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٢٤٣)، الإصابة الترجمة رقم (٧٤٧٨)، أسد الغابة الترجمة رقم (٤٥٠٥).

(٢) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٥١٢)، الإصابة الترجمة رقم (٨١٩٧)، أسد الغابة الترجمة رقم (٥٠٧١)، التاريخ لابن معين (٢/٥٧٩)، ترتيب الثقات (٤٣٧)، الطبقات لابن سعد (٢/٢٨٤)، أنساب الأشراف (١/١٦٨)، مروج الذهب (١٦٥٦)، الكامل فى التاريخ=

فضرب به ثم أخذ يرتكض فارتج أهل الطائف بصيحة واحدة وقالوا: أبعد الله المغيرة قد قتلته الربة! وفرحوا حين رأوه ساقطًا وقالوا: من شاء منكم فليقترب ويجهد على هدمها فوالله لا تستطاع أبدًا. فوثب المغيرة فقال: قبحكم الله يا معشر ثقيف! إنما هى لكاع حجارة ومدر! ثم ضرب الباب فكسره ثم علا على سورها وعلا الرجال معه، فما زالوا يهدمونها حجرًا حجرًا حتى سووها بالأرض وجعل صاحب المفاتيح يقول: ليغضبن الأساس فليخسفن بهم. فلما سمع ذلك المغيرة قال لخالد: دعنى أحفر أساسها. فحفروها حتى أخرجوا ترابها وأخذوا حليها وثيابها. فبهتت ثقيف.

وانصرف الوفد إلى رسول الله ﷺ بحليتها وكسوتها فقسمه رسول الله ﷺ من يومه وحمد الله على نصر نبيه وأغزاز دينه.

* * *

ذكر حج أبى بكر الصديق رضى الله عنه بالناس سنة تسع وتوجيه رسول الله ﷺ على بن أبى طالب بعده بسورة براءة

وبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميرًا على الحج من سنة تسع ليقيم للمسلمين حجهم، ونزلت بعد بعثه إياه «براءة» فى نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه فيما بينه وبينهم: أن لا يصد عن البيت أحدٌ جاءه، ولا يخاف على أحد فى الشهر الحرام، وكان ذلك عهدًا عامًا بينه وبين أهل الشرك، وكان بين ذلك عهود خصائص بينه وبين قبائل العرب إلى آجال مسماة فنزلت فيه وفيمن تخلف من المنافقين عن تبوك وفى قول من قال منهم فكشف الله سرائر قوم كانوا يستخفون بغير ما يظهرون[1].

فقيل لرسول الله ﷺ: لو بعثت بها إلى أبى بكر؟ فقال: «لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى»، ثم دعا على بن أبى طالب فقال: «اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى: أنه لايدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك

=(٣/٤٦١)، المعين من طبقات المحدثين (١٢٤)، العبر (١/٥٦)، مرآة الجنان (١/١٢٤)، سير أعلام النبلاء (٣/٢١)، تقريب التهذيب (٢/٢٦٩)، خلاصة تذهيب التهذيب (٣٢٩)، شذرات الذهب (١/٥٦)، العقد الثمين (٧/٢٥٥).

(١) انظر: السيرة (٤/١٧٠).

ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته»، فخرج على على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر الصديق بالطريق، فلما رآه أبو بكر قال: أمير أم مأمور؟ قال: بل مأمور. ومضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج، والعرب فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله ﷺ وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وبلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدة فهو له إلى مدته، فلم يحجج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان[1].

وكانت براءة تسمى فى زمان رسول الله ﷺ: «المبعثرة» لما كشفت من سرائر الناس، وكانت تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ.

وكان جميع ما غزا رسول الله ﷺ بنفسه سبعًا وعشرين غزاة: غزوة ودان وهى غزوة الأبواء، ثم غزوة بواط من ناحية رضوى، ثم غزوة العشيرة من بطن ينبع، ثم غزوة بدر الأولى يطلب كرز بن جابر، ثم غزوة بدر التى قتل الله فيها صناديد قريش، ثم غزوة بنى سليم حين بلغ الكدر، ثم غزوة السويق يطلب أبا سفيان بن حرب، ثم غزوة غطفان إلى نجد، وهى غزوة ذى أمر، ثم غزوة بحران معدن بالحجاز، ثم غزوة أحد، ثم غزوة حمراء الأسد، ثم غزوة بنى النضير، ثم غزوة ذات الرقاع من نخل، ثم غزوة بدر الآخرة، ثم غزوة دومة الجندل، ثم غزوة الخندق، ثم غزوة بنى قريظة، ثم غزوة بنى لحيان من هذيل، ثم غزوة ذى قرد، ثم غزوة بنى المصطلق من خزاعة، ثم غزوة الحديبية لا يريد قتالاً فصده المشركون، ثم غزوة خيبر، ثم عمرة القضاء، ثم غزوة الفتح، ثم غزوة حنين، ثم غزوة الطائف، ثم غزوة تبوك، قاتل ﷺ فى تسع غزوات منها: بدر، وأحد، والخندق، وقريظة، وبنى المصطلق وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف. وهذا الترتيب عن ابن إسحاق[2]، وخالفه ابن عقبه فى بعضه.

السرايا

وكانت بعوث رسول الله ﷺ وسراياه ثمانية، وثلاثين من بين بعث وسرية: غزوة

(١) انظر الحديث فى: فتح البارى لابن حجر (٧/٦٨٤)، البداية والنهاية لابن كثير (٥/٣٧)، وله شواهد منها ما فى مسند الإمام أحمد (٢/٢٩٩) من طريق: محرز بن أبى هريرة عن أبيه، قال: «كنت مع على بن أبى طالب فكنت أنادى حتى صحل صوتى».

(٢) انظر: السيرة (٤/٢٣٣).

عبيدة بن الحارث أسفل ثنية المرة، وغزوة حمزة بن عبد المطلب ساحل البحر من ناحية العيص، وبعض الناس يقدم غزوة حمزة قبل غزوة عبيدة.

وغزوة سعد بن أبى وقاص الخرار، وغزوة عبدالله بن جحش نخلة، وغزوة زيد بن حارثة القردة، وغزوة محمد بن مسلمة كعب بن الأشرف، وغزوة مرثد بن أبى مرثد الغنوى الرجيع، وغزوة المنذر بن عمرو بئر معونة، وغزوة أبى عبيدة بن الجراح ذا القصة، من طريق العراق، وغزوة عمر بن الخطاب تربة من أرض بنى عامر، وغزوة على ابن أبى طالب اليمن، وغزوة غالب بن عبدالله الكلبى كلب ليث، الكديد فأصاب بنى الملوح[١].

وكان من حديثها أن رسول الله ﷺ بعثه فى سرية وأمره أن يشن الغارة على بنى الملوح وهم بالكديد، قال جندب بن مكيث الجهنى، وكان مع غالب فى سريته هذه: فخرجنا حتى إذا كنا بقديد لقينا الحارث بن مالك وهو ابن البرصاء الليثى فأخذناه فقال: إنى جئت أريد الإسلام وما خرجت إلا إلى رسول الله ﷺ. فقلنا له: إن تك مسلمًا فلن يضرك رباط ليلة، وإن تك على غير ذلك كنا قد استوثقنا منك فشددناه رباطًا ثم خلفنا عليه رجلاً من أصحابنا وقلنا له: إن عازك[٢] فاحتز رأسه.

قال: ثم سرنا حتى اتينا الكديد عند غروب الشمس فكمنا فى ناحية الوادى وبعثنى أصحابى ربيئة لهم[٣]، فخرجت حتى آتى تلا مشرفًا على الحاضر، فأسندت فيه فعلوت فى رأسه فنظرت إلى الحاضر فوالله إنى لمنبطح على التل إذ خرج رجل منهم من خبائه فقال لامرأته: إنى لأرى على التل سوادًا ما رأيته فى أول يومى فانظرى إلى أوعيتك هل تفقدين شيئًا لا تكون الكلاب جرت بعضها. فنظرت فقالت: لا والله ما أفقد شيئًا. قال: فناولينى قوسى وسهمين. فناولته فأرسل سهمًا فوالله ما أخطأ جنبى فأنزعه وأضعه وثبت مكانى. ثم أرسل الآخر فوضعه فى منكبى فأنزعه وأضعه وثبت مكانى. فقال لامرأته: لو كان ربيئة تحرك لقد خالطه سهماى، لا أبالك، إذا أصبحت فابتغيهما فخذيهما لا يمضغهما الكلاب على. ثم دخل.

وأمهلناهم، حتى إذا اطمأنوا وناموا، وكان فى وجه السحر، شننا عليهم الغارة

---

(١) انظر: السيرة (٢٣٣، ٢٣٤).
(٢) عازك: أى غالبك، ومنه قوله تعالى: ﴿وعزنى فى الخطاب﴾ أى غلبنى.
(٣) ربيئة القوم: أى طليعة القوم الذى ينظر لأصحابه.

فقتلنا، واستقنا النعم، وخرج صريخ القوم، فجاءنا دهم لا قبل لنا به، ومضينا بالنعم، ومررنا بابن البرصاء وصاحبه، فاحتملناهما معنا، وأدركنا القوم حتى قربوا منا فما بيننا وبينهم إلا وادى قديد، فأرسل الله الوادى بالسيل من حيث شاء الله تبارك وتعالى، من غير سحابة نراها، ولا مطر، فجاء بشىء ليس لأحد به قوة، ولا يقدر على أن يجاوزه، فوقفوا ينظرون إلينا، وإنا لنسوق نعمهم، وما يستطيع منهم رجل أن يجيز إلينا، حتى فتناهم، فقدمنا بها على رسول الله ﷺ[1].

وغزوة على بن أبى طالب بنى عبدالله بن سعد من أهل فدك، وغزوة أبى العوجاء السلمى أرض بنى سليم، فأصيب بها هو وأصحابه جميعًا، وغزوة عكاشة بن محصن الغمرة، وغزوة أبى سلمة بن عبد الأسد قطنًا ماء من مياه بنى أسد، من ناحية نجد، قتل فيها مسعود بن عروة، وغزوة محمد بن مسلمة القرطاء من هوازن، وغزوة بشير بن سعد بنى مرة بفدك، وغزوته أيضًا بناحية خيبر، وغزوة زيد بن حارثة الجموح، من أرض بنى سليم، وغزوته أيضًا جذام، من أرض خشين، ويقال: من أرض حسمى[2].

وكان من حديثها كما حدث رجال من جذام كانوا علماء بها: أن رفاعة بن زيد الجذامى لما قدم على قومه من عند رسول الله ﷺ بكتابه يدعوهم إلى الإسلام فاستجابوا له لم يلبث أن قدم دحية بن خليفة الكلبى من عند قيصر صاحب الروم، حين بعثه رسول الله ﷺ ومعه تجارة له، حتى إذا كان بواد من أوديتهم أغار عليه الهنيد بن عوص الضليعى بطن منهم وابنه عوص، فأصابا كل شىء كان معه، فبلغ ذلك قومًا من بنى الضبيب رهط رفاعة ممن كان أسلم وأجاب، فنفروا إلى الهنيد وابنه فاستنفذوا ما كان فى أيديهما فردوه على دحية، فخرج دحية حتى قدم على رسول الله ﷺ فأخبره خبره، واستسقاه دم الهنيد وابنه، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وبعث معه جيشًا فأغاروا فجمعوا ما وجدوا من مال أو ناس وقتلوا الهنيد وابنه ورجلين معهما، فلما سمعت بذلك بنو الضبيب ركب نفر منهم فيهم حسان بن ملة فلما وقفوا على زيد بن حارثة قال حسان: إنا قوم مسلمون، فقال له زيد: فاقرأ أم الكتاب، فقرأها حسان، فقال زيد بن حارثة: نادوا فى الجيش: إن الله قد حرم علينا ثغرة القوم التى جاءوا منها إلا من ختر، وإذا أخت حسان فى الأسارى فقال له زيد: خذها، فقالت أم الفزر الصلعية: أتنطلقون ببناتكم وتذرون أمهاتكم؟! فقال أحد بنى الخصيب: إنها بنو

---

(١) انظر الحديث فى: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/١١٩)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/٢٠٣).

(٢) انظر: السيرة (٤/٢٣٦).

الضبيب وسحر ألسنتهم سائر اليوم فسمعها بعض الجيش فأخبر بها زيدًا فأمر بأخت حسان وقد كانت أخذت بحقوقى أخيها ففكت يداها من حقويه وقال لها: اجلسى مع بنات عمك حتى يحكم الله فيكن حكمه.

فرجعوا ونهى الجيش أن يهبطوا إلى واديهم الذى جاءوا منه فأمسوا فى أهليهم، فلما شربوا عتمتهم ركبوا إلى رفاعة بن زيد فصبحوه فقال له حسان بن ملة: إنك لجالس تحلب المعزى ونساء جذام أسارى قد غرها كتابك الذى جئت به، فدعا رفاعة بجمل له، فشد عليه رحله وهو يقول:

هـــل أنت حى أو تنادى حيا[1]

ثم غدا وهم معه مبركين، فساروا إلى جوف المدينة ثلاث ليال، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ ورآهم ألاح إليهم بيده أن تعالوا. من وراء الناس، فلما استفتح رفاعة بن زيد المنطق قال رجل من الناس: يا رسول الله، إن هؤلاء قوم سحرة. فرددها مرتين. فقال رفاعة: رحم الله من لم يحذنا فى يومنا هذا إلا خيرًا.

ثم دفع رفاعة إلى رسول الله ﷺ كتابه الذى كان كتب له، فقال: دونك يا رسول الله قديمًا كتابه حديثًا غدره. فقال رسول الله ﷺ: اقرأه يا غلام وأعلن. فلما قرأ كتابه استخبرهم فأخبره فقال رسول الله ﷺ: كيف أصنع بالقتلى؟ ثلاث مرات فقال رفاعة: أنت أعلم يا رسول الله لا نحرم عليك حلالاً ولا نحل لك حرامًا. فقال أبو زيد بن عمرو أحد من قدم مع رفاعة: أطلق لنا يا رسول الله من كان حيًا ومن قتل فهو تحت قدمى هذه. فقال رسول الله ﷺ: «صدق أبو زيد اركب معهم يا على»، فقال له على: يا رسول الله، إن زيدًا لن يطيعنى، قال: «فخذ سيفى هذا»، فأعطاه سيفه.

فخرجوا فإذا رسول الله لزيد بن حارثة على ناقة من إبلهم، فأنزلوه عنها فقال: «يا على ما شأنى؟» فقال: ما لهم عرفوه فأخذوه، ثم ساروا فلقوا الجيش، فأخذوا ما بأيديهم حتى كانوا ينتزعون لبيد المرأة من تحت الرحل[2].

وغزوة زيد بن حارثة أيضًا الطرف من ناحية نخل من طريق العراق، وغزوته أيضًا وادى القرى لقى فيه بنى فزارة فأصيب بها ناس من أصحابه وارتث زيد من بين القتلى فلما قدم زيد آلى أن لا يمس رأسه غسل من جنابة حتى يغزو بنى فزارة، فلما استبل من

---

(١) انظر البيت فى: السيرة (٤/٢٣٨).

(٢) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٥/٢١٨)، طبقات ابن سعد (٢/٨٨).

جراحه بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى فزارة فى جيش فقتلهم بوادى القرى وأصاب فيهم.

وغزوة عبدالله بن رواحة خيبر مرتين، إحداهما التى أصاب فيها اليسير بن رزام ويقال: ابن رازم[1]، وكان من حديثه أنه كان بخيبر يجمع غطفان لغزو رسول الله ﷺ فبعث إليه رسول الله ﷺ عبدالله بن رواحة فى نفر من أصحابه منهم عبدالله بن أنيس حليف بنى سلمة، فلما قدموا عليه كلموه وقربوا له وقالوا له: إنك إن قدمت على رسول الله ﷺ استعملك وأكرمك. فلم يزالوا به حتى خرج معهم فى نفر من يهود، فحمله عبدالله بن أنيس على بعيره، حتى إذا كان بالقرقرة من خيبر على ستة أميال ندم اليسير على مسيره إلى رسول الله ﷺ، ففطن له عبدالله بن أنيس وهو يريد السيف فاقتحم به ثم ضربه بالسيف فقطع رجله وضربه اليسير بمخرش فى يده من شوحط فأمه ومال كل رجل من أصحاب رسول الله ﷺ على صاحبه من يهود فقتله إلا رجلاً واحدًا أفلت على رجليه. فلما قدم عبدالله بن أنيس على رسول الله ﷺ تفل على شجته فلم تقح ولم تؤذه[2].

وغزوة عبدالله بن عتيك خيبر فأصاب بها أبا رافع بن أبى الحقيق.

وغزوة[3] عبدالله بن أنيس خالد بن سفيان بن نبيح بعثه رسول الله ﷺ إليه وهو بنخلة أبو بعرنة يجمع لرسول الله ﷺ ليغزوه، فقتله. قال عبدالله بن أنيس: دعانى رسول الله ﷺ فقال لى: «إنه بلغنى أن ابن سفيان بن نبيح الهذلى يجمع لى الناس ليغزونى وهو بنخلة أبو بعرنة فأته فاقتله»، فقلت: يا رسول الله، انعته لى حتى أعرفه، قال: «إنك إذا رأيته أذكرك الشيطان، وآية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدت له قشعريرة»، قال: فخرجت متوشحًا سيفى حتى دفعت إليه وهو فى ظعن يرتاد لهن منزلاً وكان وقت العصر، فلما رأيته وجدت ما قال لى رسول الله ﷺ من القشعريرة، فأقبلت نحوه وخشيت أن تكون بينى وبينه محاولة تشغلنى عن الصلاة فصليت وأنا أمشى نحوه وأومىء برأسى، فلما انتهيت إليه قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل فجاءك لذلك، قال: أجل أنا فى ذلك.

---

(١) انظر: السيرة (٤/٢٤١ - ٢٤٢).

(٢) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٥/٢١٩)، ابن سعد فى الطبقات (٢/٩٢)، وليس فيه: «تفل على شجته فلم تقح ولم تؤذه».

(٣) انظر: السيرة (٢٤٢ - ٢٤٣).

قال: فمشيت معه شيئًا حتى إذا أمكننى حملت عليه بالسيف فقتلته، ثم خرجت وتركت ظعائنه منكبات عليه. فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآنى قال: «أفلح الوجه»! قلت: قد قتلته يا رسول الله، قال: «صدقت»، ثم قام بى فأدخلنى بيته فأعطانى عصا، فقال: «أمسك هذه العصا عندك يا عبدالله بن أنيس»، قال: فخرجت بها على الناس، فقالوا: ما هذه لعصا؟ قلت: أعطانيها رسول؛ الله ﷺ وأمرنى أن أمسكها عندى. قالوا: أفلا ترجع إليه فتسأله لم ذلك؟ فرجعت فقلت: يا رسول الله، لم أعطيتنى هذه العصا؟ قال: «آية بينى وبينك يوم القيامة، إن أقل الناس المتخصرون يومئذ»، فقرنها عبدالله بن أنيس بسيفه فلم تزل معه حتى مات ثم أمر بها فضمت فى كفنه ثم دفنا جميعًا[1].

وقال عبدالله فى ذلك:

تركت ابن ثور كالحوار وحوله ... نوائح تفرى كل جيب مقدد
تناولته والظعن خلفى وخلفه ... بأبيض من ماء الحديد مهند
عجوم لهام الدارعين كأنه ... شهاب غضبًا من ملهب متوقد[2]
أقول له والسيف يعج رأسه ... أنا ابن أنيس فارسًا غير قعدد[*]
وقلت له خذها بضربة ماجد ... حنيف على دين النبى محمد
وكنت إذا هم النبى بكافر ... سبقت إليه باللسان وباليد

ومن البعوث أيضًا: بعث مؤتة حيث أصيب جعفر بن أبى طالب وأصحابه، وغزوة كعب بن عمير الغفارى ذات أطلاح من أرض الشام أصيب بها هو وأصحابه جميعًا، وغزوة عيينة بن حصن بنى العنبر من تميم.

وكان من حديثهم أن رسول الله ﷺ بعثه إليهم، فأغار عليهم، وأصاب منهم أناسًا، وسبى منهم أناسًا، وقالت عائشة لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إن عَلَىَّ رقبة من ولد

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣/٤٦٩)، سنن أبو داود (١٢٤٩)، صحيح ابن حبان (٩/٧١١٦)، سنن البيهقى (٣/٢٥٦)، صحيح ابن خزيمة (٢/٩٨٢).

(٢) عجوم: هو من صفات الأبيض وهى صيغة مبالغة من العجم وهو العض. الغضا: شجر يشتد التهاب النار فيه.

(*) ذكر فى السيرة بعد هذا البيت بيت آخر لم يذكره هنا، وهو:

أنا ابن الذى لم ينزل الدهر قدره ... رحيب فناء الدار غير مزند

انظر: السيرة (٤/٢٤٤).

إسماعيل، قال: «هذا سَبْىُ بنى العنبر يقدم الآن، فنعطيك منهم إنسانًا فتُعتقينه»[١].

فلما قدم بسبيهم ركب فيهم وفد من بنى تميم منهم ربيعة بن رفيع، وسبرة بن عمرو والقعقاع بن معبد ووردان بن محرز وقيس بن عاصم ومالك بن عمرو والأقرع بن حابس وفراس بن حابس، فكلموا رسول الله ﷺ فيهم فأعتق بعضًا، وأفدى بعضًا، وذلك هو الذى عنى الفرزدق بقوله[٢]:

وعند رسول الله قام ابن حابس — بخطة سوار إلى المجد حازم
له أطلق الأسرى التى فى حباله — مغللة أعناقها والشكائم
كفى أمهات الخالفين عليهم — غلاء المفادى أو سهام المقاسم

وغزوة غالب بن عبدالله الكليبى أرض بنى مرة وفيها قتل أسامة بن زيد حليفًا لهم يقال له مرداس بن نهيك بن الحرقة من جهينة، قال: أدركته أنا ورجل من الأنصار، فلما شهرنا عليه السلاح قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فلم ننزع عنه حتى قتلناه. هكذا ذكر ابن إسحاق فى حديثه[٣].

وخرج مسلم فى صحيحه عن أسامة بن زيد قال: فكف عنه الأنصارى وطعنته برمحى حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ ذلك النبى ﷺ فقال: «يا أسامة، أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟» قلت: يا رسول الله إنما كان متعوذًا، فقال: «أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟!» فما زال يكررها على حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[٤].

وفى بعض طرق مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأسامة: «لم قتلته؟» قال: يا رسول الله، أوجع فى المسلمين وقتل فلانًا وفلانًا وسمى له نفرًا وإنى حملت عليه فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله. قال رسول الله ﷺ: «أقتلته؟» قال: نعم، قال: «فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: يا رسول الله استغفر لى، قال: «وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة!» فجعل لا يزيده على أن يقول:

---

(١) ذكره ابن حجر فى فتح البارى (٢٠٤/٥).
(٢) انظر الأبيات فى: السيرة (٢٤٥/٤).
(٣) انظر: السيرة (٢٤٦/٤)، والحديث أخرجه الطبرى فى تاريخه (١٤٢/٢)، المتقى الهندى فى الكنز (١٤٦٢).
(٤) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (١٨٣/٥، ٤/٩)، صحيح مسلم كتاب الإيمان (١٥٩)، فتح البارى لابن حجر (١٩١/١٢)، البداية والنهاية لابن كثير (٢٢٢/٤).

«كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة»[(١)].

وفى حديث ابن إسحاق أن أسامة قال: أنظرنى يا رسول الله، إنى أعاهد الله أن لا أقتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله أبدًا[(٢)].

وغزوة عمرو بن العاص ذات السلاسل من أرض بنى عذره، وكان من حديثه أن رسول الله ﷺ بعثه يستنفر العرب إلى الشام، وذلك أن أم أبيه العاص بن وائل كانت امرأة من بلى فبعثه رسول الله ﷺ إليهم يستألفهم لذلك، حتى إذا كان على ماء بأرض جذام يقال له: السلسل وبذلك سميت تلك الغزوة غزوة ذات السلاسل، خاف فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمده فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر وقال لأبى عبيدة حين وجهه: لا تختلفا. فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه قال له عمرو: إنما جئت مددًا لى. قال أبو عبيدة: لا، ولكنى على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه. فقال له عمرو: بل أنت مدد لى. فقال له أبو عبيدة وكان رجلاً لينًا هينًا سهلاً عليه أمر الدنيا: يا عمرو، إن رسول الله ﷺ قال لى لا تختلفا وإنك إن عصيتنى أطعتك، قال: فإنى الأمير عليك وأنت مدد لى. قال: فدونك. فصلى عمرو بالناس[(٣)].

وحدث[(٤)] رافع بن أبى رافع الطائى وهو رافع بن عميرة قال: كنت امرءا نصرانيًا فلما أسلمت خرجت فى تلك الغزاة يعنى غزوة ذات السلاسل فقلت: والله لأختارن لنفسى صاحبًا فصحبت أبا بكر فكنت معه فى رحله فكانت عليه عباءة له فدكية[(٥)] فكان إذانزلنا بسطها وإذا ركبنا لبسها ثم شكها عليه بخلال له وذلك الذى يقول اهل نجد حين ارتدوا كفارًا بعد موت النبى ﷺ ومبايعة الناس بعده لأبى بكر: أنحن نبايع ذا العباءة! جهلوا يومئذ أن فضل الكمال ليس فى ظاهر البهاء وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، قال رافع: فلما دنونا من المدينة قافلين، قلت: يا أبا بكر إنما صحبتك لينفعنى

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح مسلم كتاب الإيمان (١٥٩)، فتح البارى لابن حجر (١٢/١٩٦).

(٢) انظر: السيرة (٤/٢٤٦).

(٣) انظر الحديث فى: صحيح البخارى (٧/٣٦٦٢، ٤٣٥٨)، دلائل النبوة للبيهقى (٤/٣٩٩، ٤٠٠)، صحيح مسلم (٤/٨/١٨٥٦).

(٤) انظر: السيرة (٤/٢٤٧ - ٢٤٨).

(٥) فدكية: منسوبة إلى فدك، وهو موضع بالحجاز، بينها وبين المدينة يومان وقيل: ثلاثة. انظر: معجم البلدان (٤/٢٣٨).

الله بك فانصحنى وعلمنى، قال: لو لم تسلنى ذلك لفعلت، آمرك أن توحد الله لا تشرك به شيئًا، وأن تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج هذا البيت وتغتسل من الجنابة ولا تتأمرن على رجلين من المسلمين أبدًا.

قال قلت: يا أبا بكر، أما أنا والله فإنى أرجو أن لا أشرك بالله أبدًا، وأما الصلاة فلن أتركها أبدًا إن شاء الله، وأما الزكاة فإن يكن لى مالى أؤديها إن شاء الله، وأما الحج فإن أستطع أحج إن شاء الله، وأما الجنابة فسأغتسل منها إن شاء الله وأما الإمارة فإنى رأيت الناس يا أبا بكر لا يشرفون عند رسول الله ﷺ وعند الناس إلا بها فلم تنهى عنها؟ قال: إنما استجهدتنى لجهده لك، وسأخبرك عن ذلك: إن الله تبارك وتعالى بعث محمدًا ﷺ بهذا الدين فجاهد فيه حتى دخل الناس فيه طوعًا وكرهًا، فلما دخلوا فيه كانوا عواذ الله وجيرانه وفى ذمته، فإياك أن تخفر الله[1] فى جيرانه فيتبعك الله فى خفرته، فإن احدكم يخفر فى جاره فيظل نائتًا[2] عضله غضبًا لجاره إن أصيب له شاة أو بعير، فالله أشد غضبًا لجاره.

قال: ففارقته على ذلك، فلما قبض رسول الله ﷺ وأمر أبو بكر على الناس قدمت عليه فقلت: يا أبا بكر، ألم تكن نهيتنى عن أن أتامر على رجلين من المسلمين؟ قال: بلى، وأنا الآن أنهاك عن ذلك. فقلت له: فما حملك على أن تلى أمر الناس؟ قال: لا أجد من ذلك بدا خشيت على أمة محمد الفرقة[3].

وفى هذه الغزاة أيضًا صحب عوف بن مالك الأشجعى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما قال: فمررت بقوم على جزور لهم قد نحروها وهم لا يقدرون على أن يعضوها فقلت: أتعطوننى منها عشيرًا على أن أقسمها بينكم؟ قالوا: نعم.

فأخذت الشفرتين فجزأتها وأخذت منها جزء فحملته إلى أصحابى فاطبخناه فأكلناه، فقال أبو بكر وعمر: أنى لك هذا اللحم يا عوف؟ فأخبرتهما خبره فقالا: والله ما أحسنت حين أطعمتنا هذا، ثم قاما يتقيآن ما فى بطونهما من ذلك. فلما قفل الناس كنت أول قادم على رسول الله ﷺ فجئته وهو يصلى فى بيته فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. قال: أعوف بن مالك؟ قلت: نعم بأبى أنت

---

(١) تخفر الله: أى تنقض عهده.

(٢) فيضل نائتًا: أى يضل مرتفعًا.

(٣) انظر: السيرة (٤/٢٤٨).

وأمى يا رسول الله. قال: أصاحب الجزور؟ ولم يزدنى رسول الله ﷺ على ذلك[١].

وغزوة ابن أبى حدرد وأصحابه بطن إضم، وكانت قبل الفتح قال عبدالله بن أبى حدرد: بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم[٢] فى نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة ومحلم بن جثامة، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعى على قعود له معه متيع له ووطب من لبن فسلم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه وحمل عليه محلم بن جثامة قتله لشىء كان بينهما وأخذ بعيره ومتيعه. فلما قدمنا على رسول الله وأخبرناه الخبر نزل فينا: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنًا تبتغون عرض الحياة الدنيا**﴾ [النساء: ٩٤] إلى آخر الآية[٣].

وعن[٤] ضميرة بن سعد السلمى عن أبيه، وكان شهد حنينًا قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر ثم عمد إلى ظل شجرة فجلس تحتها وهو بحنين فقام إليه الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن يختصمان فى عامر بن الأضبط، وعيينة يطلب بدمه. وهو يومئذ رئيس غطفان، والأقرع يدفع عن محلم بن جثامة لمكانه من خندف، فتداولا الخصومة عند رسول الله ﷺ ونحن نسمع، فسمعنا عيينة يقول: والله يا رسول الله لا أدعه حتى أذيق نساءه من الحر مثل ما أذاق نسائى، ورسول الله ﷺ يقول: بل تأخذون الدية خمسين فى سفرنا هذا وخمسين إذا رجعنا. وهو يأبى عليه ثم ذكر تكرار رسول الله ﷺ قوله هذا، فقبلوا الدية ثم قالوا: أين صاحبكم هذا يستغفر له رسول الله ﷺ. فقام رجل آدم ضرب طويل عليه حلة له قد كان تهيأ فيها للقتل حتى جلس بين يدى رسول الله ﷺ فقال له: ما اسمك؟ فقال: أنا محلم ابن جثامة، فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: اللهم لا تغفر لمحلم بن جثامة. ثلاثًا، فقام يتلقى دمعه بفضل ردائه قال: فأما نحن فنقول فيما بيننا إنا لنرجو أن يكون

---

(١) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (٩٧/٤)، دلائل النبوة للبيهقى (٤٠٢/٤).

(٢) إضم: بالكسر ثم الفتح، ماء يطؤه الطريق بين مكة واليمامة عند السمينة، ويقال: هو واد بجبال تهامة، وهو الوادى الذى فيه المدينة ويسمى من عند المدينة: القناة، ومن أعلى منها عند السد يسمى الشظاة، ومن عند الشظاة إلى أسفل يسمى إضمًا إلى البحر. انظر: معجم البلدان (٢١٤/١، ٢١٥).

(٣) انظر الحديث فى: تفسير الطبرى (١٤٢/٥)، مسند الإمام أحمد (١١/٦)، مجمع الزوائد للهيثمى (٨/٧)، أسباب النزول للواحدى (١٤٢)، السنن الكبرى للبيهقى (١١/٩).

(٤) انظر: السيرة (٢٥٠/٤).

رسول الله ﷺ قد استغفر له وأما ما ظهر من رسول الله فهذا[١].

وذكر[٢] سالم أبو النضر أنه حدث أن عيينة بن حصن وقيسًا لم يقبلوا الدية حتى خلا بهم الأقرع بن حابس وقال: يا معشر قيس، منعتم رسول الله قتيلاً يستصلح به الناس، أفأمنتم أن يلعنكم رسول الله فيلعنكم الله بلعنته أو أن يغضب عليكم فيغضب الله عليكم بغضبه؟ والله الذى نفس الأقرع بيده لتسلمنه إلى رسول الله ﷺ فليصنعن فيه ما أراد أو لأتيت بخمسين رجلاً من بنى تميم يشهدون بالله لقتل صاحبكم كافرًا ما صلى قط فلأطلن دمه. فقبلوا الدية.

وفى حديث عن الحسن البصرى قال: والله ما مكث محلم بن جثامة إلا سبعًا حتى مات فلفظته الأرض والذى نفس الحسن بيده، ثم عادوا له فلفظته، ثم عادوا له فلفظته. فلما غلب قومه عمدوا إلى صدين فسطحوه بينهما ثم رضموا عليه الحجارة حتى واروه فبلغ رسول الله ﷺ شأنه فقال: «والله إن الأرض لتطابق على من هو شر منه ولكن الله أراد أن يعظكم فى حرم ما بينكم بما أراكم منه»[٣].

وغزوة ابن أبى حدرد الأسلمى أيضًا الغابة[٤]، قال: تزوجت امرأة من قومى فجئت رسول الله ﷺ أستعينه على نكاحى فقال: وكم أصدقت؟ قلت: مائتى درهم. قال: سبحان الله! لو كنتم تأخذون الدراهم من بطن واد ما زدتم، والله ما عندى ما أعينك به. قال: فلبثت أيامًا وأقبل رجل من بنى جشم بن معاوية يقال له: رفاعة بن قيس أو قيس بن رفاعة فى بطن عظيم من بنى جشم حتى ينزل بقومه ومن معه بالغابة يريد أن يجمع قيسًا على حرب رسول الله ﷺ وكان ذا اسم فى جشم وشرف، فدعانى رسول الله ﷺ ورجلين معى من المسلمين فقال: اخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتوا منه بخبر وعلم؛ قال: وقدم لنا شارفًا عجفاء فحمل عليها أحدنا، فوالله ما قامت به ضعفًا حتى دعمها الرجال من خلفها بأيديهم حتى استقلت وما كادت ثم قال: تبلغوا عليها واعتقبوها، قال: فخرجنا ومعنا سلاحنا من النبل والسيوف حتى إذا جئنا قريبًا من

---

(١) انظر الحديث فى: سنن ابن ماجه (٢٦٢٥/٢)، سنن أبى داود (٤٥٠٣/٤)، سنن البيهقى (١١٦/٩).

(٢) انظر: السيرة (٢٥١/٤).

(٣) انظر الحديث فى: كنز العمال للمتقى الهندى (٩٠/١٥).

(٤) الغابة: موضع قرب المدينة من ناحية الشام، وفيه أموال لأهل المدينة. انظر: معجم البلدان (١٨٢/٤).

الحاضر عشيشية مع غروب الشمس كمنت فى ناحية. وأمرت صاحبى فكمنا فى ناحية أخرى من حاضر القوم وقلت لهما: إذا سمعتمانى قد كبرت وشددت فى ناحية العسكر فكبرا وشدا معى. فوالله، إنا لكذلك ننتظر غرة القوم أو أن نصيب منهم شيئًا وقد غشينا الليل حتى ذهبت فحمة العشاء وكان لهم راع سرح فى ذلك البلد فأبطأ عليهم حتى تخوفوا عليه، فقام صاحبهم ذلك فأخذ سيفه فجعله فى عنقه ثم قال: والله لأتبعن أثر راعينا هذا ولقد أصابه شر. فقال نفر ممن معه: والله لا تذهب أنت نحن نكفيك. قال: والله لا يذهب إلا أنا. قالوا: فنحن معك. قال: والله لا يتبعنى أحد منكم. وخرج حتى مر بى فلما أمكننى نفحته بسهم فوضعته فى فؤاده والله ما تكلم. ووثبت إليه فاحتززت رأسه وشددت فى ناحية العسكر وكبرت وشد صاحباى وكبرا فوالله ما كان إلا النجاء ممن فيه، عندك، بكل ما قدروا عليه من نسائهم وأبنائهم وما خف معهم من أموالهم واستقنا إبلاً عظيمة وغنما كثيرة فجئنا بها إلى رسول الله ﷺ وجئت برأسه أحمله معى فأعاننى رسول الله ﷺ من تلك الإبل بثلاثة عشر بعيرًا فى صداقى فجمعت إلى أهلى[1].

وغزوة توجه فيها عبدالرحمن بن عوف، قال عطاء بن أبى رباح: سمعت رجلاً من اهل البصرة يسأل عبدالله بن عمر بن الخطاب عن إرسال العمامة من خلف الرجل إذا اعتم، فقال عبدالله: سأخبرك إن شاء الله عن ذلك بعلم. ثم ذكر مجلسًا شاهده من رسول الله ﷺ أمر فيه عبدالرحمن بن عوف أن يتجهز لسرية بعثه عليها. قال: فأصبح وقد اعتم بعمامة من كرابيس سوداء فأدناه رسول الله ﷺ منه ثم نقضها ثم عممه بها وأرسل من خلفه أربع أصابع أو نحوًا من ذلك. ثم قال: هكذا يا ابن عوف فاعتم فإنه أحسن وأعرف. ثم أمر بلالاً أن يدفع إليه اللواء، فدفعه إليه، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نفسه ثم قال: «خذه يا ابن عوف، اغزوا جميعًا فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم»، فأخذ عبدالرحمن بن عوف اللواء[2].

---

(١) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (٦/٢٠٦، ٢٠٧)، مسند الإمام أحمد (٦/١١) البداية والنهاية لابن كثير (٤/٢٢٣)، دلائل النبوة للبيهقى (٤/٣٠٣).

(٢) انظر الحديث فى: كنز العمال للمتقى الهندى (٣٠٢٨٩)، طبقات ابن سعد (٢/٨٩)، مجمع الزوائد للهيثمى (٥/٣١٧، ٣١٨).

قال ابن هشام: فخرج إلى دومة الجندل[١].

وبعث رسول الله ﷺ سرية إلى سيف البحر عليهم أبو عبيدة بن الجراح وزودهم جرابًا من تمر فجعل يقوتهم إياه حتى صار إلى أن يعده لهم عددًا حتى كان يعطى كل رجل منهم كل يوم تمرة فقسمها يومًا فنقصت تمرة عن رجل فوجد فقدها ذلك اليوم!.

قال بعضهم: فلما جهدنا الجوع أخرج الله لنا دابة من البحر فأصبنا من لحمها وودكها وأقمنا عليها عشرين ليلة حتى سمنا وأخذ أميرنا ضلعًا من أضلاعها فوضعها على طريقه ثم أمر بأجسم بعير معنا فحمل عليه أجسم رجل منا فجلس عليه فخرج من تحتها وما مست رأسه فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه خبرها وسألناه عن أكلنا إياها فقال: «رزق رزقكموه الله»[٢].

وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى بعد مقتل خبيب وأصحابه إلى مكة وأمره ان يقتل أبا سفيان بن حرب وبعث معه جبار بن صخر الأنصارى، فخرجا حتى قدما مكة وحبسا جمليهما بشعب من شعاب يأجج ثم دخلا مكة ليلاً فقال جبار لعمرو: لو أنا طفنا بالبيت وصلينا ركعتين؟ فقال عمرو: إن القوم إذا تعشوا جلسوا بأفنيتهم، فقال: كلا إن شاء الله. قال عمرو: فطفنا بالبيت وصلينا ثم خرجنا نريد أبا سفيان، فوالله إنا لنمشى بمكة إذا نظر إلى رجل من أهل مكة فعرفنى فقال: عمرو بن أمية! والله إن قدمها إلا لشر. فقلت لصاحبى: النجاء. فخرجنا نشتد حتى أصعدنا فى جبل وخرجوا فى طلبنا حتى إذا علونا الجبل يئسوا مِنّا فرجعنا فدخلنا كهفًا فى الجبل فبتنا وقد أخذنا حجارة فرضمناها دوننا. فلما أصبحنا غدا رجل من قريش يقود فرسًا له ويختلى عليها فغشينا ونحن فى الغار فقلت: إن رآنا صاح بنا فأخذنا فقتلنا. قال: ومعى خنجر قد أعددته لأبى سفيان، فأخرج إليه فأضربه على ثديه وصاح صيحة أسمع أهل مكة، وأرجع فأدخل مكانى. وجاءه الناس يشتدون وهو بآخر رمق فقالوا: من ضربك؟ فقال: عمرو بن أمية. وغلبه الموت فمات مكانه ولم يدلل على مكاننا، فاحتملوه فقلت لصاحبى لما أمسينا: النجاء.

فخرجنا ليلاً من مكة نريد المدينة فمررنا بالحرس وهم يحرسون جيفة خبيب ابن

---

(١) انظر: السيرة (٤/٢٥٤).

(٢) انظر الحديث فى: صحيح مسلم (٣/١٥٣٥/١٧، ١٨)، مسند الإمام أحمد (٣/٣١١)، مصنف عبد الرزاق (٤/٨٦٦٨).

عدى فقال أحدهم: والله ما رأيت كالليلة أشبه بمشية عمرو بن أمية، لولا أنه بالمدينة لقلت هو عمرو بن أمية. فلما حاذى عمرو الخشبة شد عليها فاحتملهاوخرج هو وصاحبه شدا وخرجوا وراءه حتى أتى جرفا بمبسط يأجج فرمى بالخشبة فى الجرف فغيبه الله عنهم فلم يقدروا عليه.

قال عمرو بن أمية: وقلت لصاحبى: النجاء حتى تأتى بعيرك فتقعد عليه فإنى شاغل عنك القوم وكان الأنصارى لا رجلة له. قال: ومضيت حتى اخرج على ضجنان ثم آويت إلى جبل فأدخل كهفًا، فبينا أنا فيه دخل على شيخ من بنى الديل أعور فى غنيمة فقال: من الرجل؟ فقلت: من بنى بكر فمن أنت؟ قال: من بنى بكر. قلت: مرحبًا فاضطجع. ثم رفع عقيرته فقال:

ولست بمسلم ما دمت حيا ... ولا دان لدين المسلمينا

فقلت فى نفسى: ستعلم. فأمهلته حتى إذا نام أخذت قوسى فجعلت سيتها فى عينه الصحيحة ثم تحاملت عليه حتى بلغت العظم. ثم خرجت النجاء حتى جئت العرج ثم سلكت ركوبه حتى إذا هبطت النقيع[1] إذا رجلان من قريش من المشركين كانت قريش بعثتهما عينًا إلى المدينة ينظران ويتحسسان فقلت: استأسرا. فأبيا فأرمى أحدهما بسهم فأقتله واستأسر الآخر فأوثقته رباطًا وقدمت به المدينة[2].

وسرية زيد بن حارثة إلى مدين فأصاب سبيا من أهل ميناء وهى السواحل وفيها جماع من الناس فبيعوا ففرق بينهم يعنى بين الأمهات والأولاد فخرج رسول الله ﷺ وهم يبكون فقال: ما لهم؟ فقيل: يا رسول الله، فرق بينهم. فقال: «لا تبيعوهم إلا جميعًا»[3].

وغزوة سالم؛ بن عمير أبا عفك أحد بنى عمرو بن عوف وكان نجم نفاقه حين قتل رسول الله ﷺ الحارث بن سويد بن صامت فقال:

لقد عشت دهرًا وما إن أرى ... من الناس دارًا ولا مجمعا

---

(١) العرج: واد بالحجاز. ركوبة: ثنية بين الجرميت. النقيع: موضع ببلاد مزينة.

(٢) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٣/٣٣ - ٣٣٧) بطوله. وذكره الطبرى فى تاريخه (٢/٧٩، ٨٠) مختصرًا، والبيهقى فى السنن الكبرى (٩/٢١٣)، ابن سعد فى الطبقات (٢/٩٣، ٩٤)، ابن كثير فى البداية والنهاية (٦٩ - ٧١).

(٣) انظر الحديث فى: سنن سعيد بن منصور (٢/٢٦٦١)، الإصابة لابن حجر (٣/٢٧٥). وانظر السيرة (٤/٢٥٧)، وفيه قال ابن هشام يعقب على الحديث: أراد الأمهات والأولاد.

أبــر عهــودًا وأوفــى لمــن　　يعــاقد فيهــم إذا مــا دعــا
مــن اولاد قيلــة فــى جمعهــم　　تهــد الجبــال ولــم تخضعــا
فصدعهـــم راكـــب جـــاءهم　　حـــلال حـــرام لشـــتى معــا
فلو أن بـــالعـــــز صــــدقتم　　أو الملــك تـــابعتم تبعـــا[٤]

فقال رسول الله ﷺ: «من لى بهذا الخبيث؟» فخرج سالم بن عمير أخو بنى عمرو ابن عوف، وهو أحد البكائين، فقتله[١]. فقالت أمامة المريدية فى ذلك:

تكـذب ديـن الله والمــرء أحمــدا　　لعمرى الذى امناك بئـس الـذى يمنى
حباك حنيف آخر الليــل طعنـــة　　أبا عفك خذهــا على كبر السـن[٣]

وغزوة عمير بن عدى الخطمى وهو الذى يدعى القــارىء عصمـاء بنت مـروان مـن بنى أمية بن زيد، وكانت تحت رجل من بنى خطمة يقال له: يزيـد بـن زيـد، فلمـا قتـل أبو عفك نافقت فقالت تعيب الإسلام وأهله، وتؤنب الأنصار فـى اتبـاعهم رسـول الله ﷺ:

أطعتــم أتــاوى مــن غــيركم　　فــلا مــن مــراد ولا مذحــج(*)
ترجونـــه بعـــد قتـــل الــرءوس　　كمـــا يرتجـــى مـــرق المنضـــج
ألا آنـــــف يبتغــــــى غـــــرة　　فيقطـــع مـــن أمـــل المرتجى[٤]

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «ألا [آخذ](*) لى من ابنة مروان؟» فسمع ذلك مـن

---

(٤) انظر الأبيات فى: السيرة (٤/٢٥٨).
(١) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٥/٢٢١).
(٣) انظر الأبيات فى: السيرة (٤/٢٥٨).
(*) ذكر فى السيرة بيت قبل هذا وهو:
باشـــت بنـــى مالـــك والنبيـــت　　وعـــوف وباســـت بنـــى الخـــزرج
انظر: السيرة (٤/٢٥٨).
(٤) وذمر فى السيرة أبيات أجابها به حسان بن ثابت فقال:
بنـــو وائـــل وبنـــو واقـــف　　وخطمـــة دون بنـــى الخـــزرج
متـــى مـــا دعـــت سـفها ويحهـــا　　بعولتهـــا والمنايـــا تجـــى
فهـــزت فتـــى مـــا جـــدا عرقـــه　　كريـــم المداخـــل والمخـــرج
فضرجهـــا مـــن تجيـــع الدمـــا　　ءِ بعـــد الهـــدو فلـــم يحـــرج
انظر: السيرة (٤/٢٥٨ - ٢٥٩).
(*) ما بين المعقوفتين ورد فى الأصل «أحد»، وما أوردناه من السيرة.

قوله عمير بن عدى فلما أمسى من تلك الليلة سما عليها فى بيتها فقتلها ثم أصبح مع رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى قد قتلتها: فقال: نصرت الله ورسوله يا عمير. فقال: هل على شيء من شأنها يا رسول الله؟ فقال: «لا ينتطح فيها عنزان»[(١)].

فرجع عمير إلى قومه وبنو خطمة يومئذ كثير فوجههم فى شأن بنت مروان ولها بنون خمسة رجال. فقال: يا بنى خطمة، أنا قتلت بنت مروان فكيدونى جميعًا ثم لا تنظرون. فذلك اليوم أول ما عز الإسلام فى دار بنى خطمة، وكان يستخفى بإسلامه فيهم من أسلم. ويومئذ أسلم رجال منهم لما رأوا من عز الإسلام.

والسرية التى أسرت ثمامة بن أثال الحنفى سيد أهل اليمامة، وذلك أن خيلاً لرسول الله ﷺ خرجت فأخذت رجلاً من بنى حنيفة لا يشعورن من هو، حتى أتوا به رسول الله ﷺ، فقال: «أتدرون من أخذتم؟ هذا ثمامة بن أثال الحنفى، أحسنوا إساره»، ورجع رسول الله ﷺ إلى أهله. فقال: «اجمعوا ما كان عندكم من طعام، فابعثوا به إليه»، وأمر بلقحته أن يغدى عليه بها ويُراح، فجعل لا يقع من ثمامة موقعًا، ويأتيه رسول الله ﷺ فيقول: «أسلم يا ثمامة»، وفى رواية: «ما تقول يا ثمامة؟» فيقول: يا محمد، إن تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن ترد الفداء فسل تعط منه ما شئت. فمكث ما شاء الله أن يمكث ثم قال النبى ﷺ يومًا: أطلقوا ثمامة. فلما أطلقوه خرج حتى اتى البقيع فتطهر فأحسن طهوره ثم أقبل فبايع النبى ﷺ على الإسلام، فلما أمسى جاءوه بما كانوا يأتونه به من الطعام فلم ينل منه إلا قليلاً، وباللقحة فلم يصب من حلابها إلا يسيرًا، فعجب المسلمون من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «مم تعجبون، من رجل أكل فى أول النهار فى معى كافر وأكل آخر النهار فى معى مسلم، إن الكافر يأكل فى سبعة أمعاء وإن المسلم يأكل فى معى واحد»[(٢)].

---

(١) انظر الحديث فى: كنز العمال للمتقى الهندى (٤٤١٣١)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٧/٢، ٢٨).

(٢) هذا الحديث عند ابن إسحاق، وإسناده عنده ضعيف، وللحديث شواهد عن أبى هريرة من وجوه، أخرجها الترمذى فى سننه (١٨١٩)، ابن ماجه فى سننه (٣٢٥٦)، النسائى فى السنن الكبرى (١٧٨/٤).

وأخرج البخارى فى كتاب المغازى (٤٣٧٢/٧)، مسلم فى كتاب الجهاد (٥٩/٣) من طريق سعيد بن أبى سعيد أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد الحيثد، فذكره بطوله، وفيه: إسلام ثمامة بن أثال، وليس فى الحديث ذكر الطعام.

وقال ثمامة حين أسلم لرسول الله ﷺ: لقد كان وجهك أبغض الوجوه إلىّ فأصبح وهو أحب الوجوه إلىّ، ولقد كان دينك أبغض الدين إلىّ فأصبح وهو أحب الأديان إلىّ، ولقد كان بلدك أبغض البلاد إلىّ فأصبح وهو أحب البلاد إلىّ. ثم قال: يا رسول الله، إن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فأذن لى يا رسول الله. فأذن له فخرج معتمرًا فلما قدم مكة قالوا: صبأت يا ثمامة. قال: لا ولكنى اتبعت خير الدين دين محمد، ولا والله لا تصل إليكم حبة من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ. ثم خرج إلى اليمامة فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئًا، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: إنك تأمر بصلة الرحم وإنك قد قطعت أرحامنا. فكتب إليه رسول الله ﷺ أن خل بين قومى وبين ميرتهم. ففعل(١).

ويقال: إنه لما كان ببطن مكة فى عمرته لبى فكان اول من دخل مكة يلبى، فأخذته قريش فقالوا: لقد اجترأت علينا. وهموا بقتله ثم خلوه لمكان حاجتهم إليه وإلى بلده فقال بعض بنى حنيفة:

ومنا الذى لبى بمكة معلنا برغم أبى سفيان فى الأشهر الحرم

وبعث علقمة بن مجزز المدلجى لما قتل وقاص بن مجزز اخوه يوم ذى قرد، وسأل رسول الله ﷺ أن يبعثه فى آثار القوم ليدرك ثأره فيهم، فبعثه فى نفر من المسلمين، قال أبو سعيد الخدرى: وأنا فيهم، حتى إذا بلغنا رأس غزاتنا أو كنا ببعض الطريق أذن لطائفة من الجيش واستعمل عليهم عبدالله بن حذافة السهمى وكانت فيه دعابة، فلما كان ببعض الطريق أوقد نارًا ثم قال للقوم: أليس لى عليكم السمع والطاعة؟ قالوا: بلى. قال: فما آمركم بشىء إلا فعلتموه؟ قالوا: نعم. قال: فإنى أعزم عليكم بحقى وطاعتى إلا تواثبتم فى هذه النار. فقام بعض القوم يحتجز حتى ظن أنهم واثبون فيها. فقال لهم: اجلسوا فإنما كنت أضحك معكم. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «من أمركم منهم بمعصية فلا تطيعوه»(٢).

ويقال: إن علقمة بن مجزز رجع هو وأصحابه ولم يلق كيدًا(٣).

وبعث كرز بن جابر. وذلك أن نفرًا من قيس كبة من بجيلة قدموا على رسول الله

(١) انظر: السيرة (٤/٢٦٠ - ٢٦١).

(٢) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٣/٦٧)، سنن ابن ماجه (٢/٢٨٦٣)، طبقات ابن سعد (٢/١٦٣)، صحيح ابن حبان (٧/٤٥٤٠).

(٣) انظر: السيرة (٤/٢٦٢).

ﷺ فاستوبأوا المدينة وطلحوا وكانت لرسول الله ﷺ لقاح ترعى ناحية الجماء يرعاها عبد له يقال له: يسار، كان رسول الله ﷺ أصابه فى غزوة بنى محارب وبنى ثعلبة، فقال لهم رسول الله ﷺ: «لو خرجتم إلى اللقاح فشربتم من ألبانها وأبوالها»، فخرجوا إليها فلما صحوا وانطوت بطونهم عكنًا عدوا على راعى رسول الله ﷺ فذبحوه وغرزوا الشوك فى عينيه واستاقوا اللقاح فبعث رسول الله ﷺ فى آثارهم كرزًا فلحقهم، فأتى بهم رسول الله ﷺ مرجعه من غزوة ذى قرد فقطع أيديهم وسمل أعينهم، وألقوا فى الحرة يستسقون، فلا يسقون حتى ماتوا[(١)].

وغزوة على بن أبى طالب اليمن، غزاها مرتين. وقال أبو عمر المدينى: بعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب إلى اليمن وبعث خالد بن الوليد فى جند آخر وقال: «إن التقيتما فالأمير على بن أبى طالب»[(٢)].

ثم بعث رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام وأمره ان يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، وهو آخر بعث أمر به رسول الله ﷺ. فتجهز الناس وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون. فبينا الناس على ذلك ابتدىء رسول الله ﷺ بشكوه الذى قبضه الله فيه إلى ما أراد من رحمته وكرامته، فلم ينفذ بعث أسامة إلا بعد وفاته صلوات الله عليه ورحمته وبركاته[(٣)].

وسيأتى ذكر ذلك مستوفى إن شاء الله.

فهذه مغازى رسول الله ﷺ وبعوثه وسراياه التى أعز الله بها الدين ودوخ بها الكافرين، وشد أزره فيها بمن اختاره لصحبته ونصرته من الأنصار والمهاجرين رضى الله عنهم أجمعين وتلك أيام الله التى يجب بها التذكر والتذكير، ويتأكد شكر الله سبحانه على ما يسرته منها المقادير.

وقال حسان بن ثابت يعدد أيام الأنصار مع رسول الله ﷺ ويذكر مواطنهم معه فى

---

(١) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (٢٩٤/٦)، سنن النسائى (٤٠٤١/٧)، مسند الإمام أحمد (١٠٧/٣، ١٦٣، ١٧٠، ١٧٧، ١٨٦، ١٩٨، ٢٠٥، ٢٣١، ٢٨٧، ٢٩٠)، سنن أبى داود (٤٣٦٤/٤ - ٤٣٦٨).

(٢) انظر الحديث فى: تاريخ الطبرى (٢٩٧/٢)، مجمع الزوائد للهيثمى (٩٨/٨).

(٣) انظر: السيرة (٢٦٣/٤ - ٢٦٤).

أيام غزوه وتروى لابنه عبدالرحمن[١]:

ألستم خير معد كلها نفرًا ومعشرا إن هم عموا وإن حصلوا
قوم هم شهدوا بدرا بأجمعهم مع الرسول فما آلوا وما خذلوا
وبايعوه فلم ينكث به أحد منهم ولم يك فى أيمانهم دخل
ويوم صبحهم فى الشعب من أحد ضرب رصين كحر النار مشتعل
ويوم ذى قرد يوم استثار بهم على الجياد فما خاموا وما نكلوا
وذا العشيرة جاسوها بخيلهم مع الرسول عليها البيض والأسل
ويوم ودان أجلوا اهله رقصًا بالخيل حتى نهانا الحزن والجبل
وليلة طلبوا فيها عدوهم لله والله يجزيهم بما عملوا
وغزوة يوم نجد ثم كان لهم مع الرسول بها الأسلاب والنفل
وليلة بحنين جالدوا معه فيها يعلهم بالحرب إذ نهلوا
وغزوة القاع فرقنا العدو به كما تفرق دون المشرب الرسل
ويوم بويع كانوا أهل بيعته على الجلاد فآسوه وما عدلوا
وغزوة الفتح كانوا فى سريته مرابطين فما طاشوا وما عجلوا
ويوم خيبر كانوا فى كتيبته يمشون كلهم مستبسل بطل
بالبيض ترعش فى الأيمان عارية تعوج فى الضرب أحيانًا وتعتدل
ويوم سار رسول الله محتسبًا إلى تبوك وهم راياته الأول
وساسة الحرب إن حرب بدت لهم حتى بدا لهم الإقبال فالقفل
أولئك القوم أنصار النبى وهم قومى أصير إليهم حين أتصل
ماتوا كرامًا ولم تنكث عهودهم وقتلهم فى سبيل الله إذ قتلوا

وقال حسان أيضًا[٢]:

وكنا ملوك الناس قبل محمد فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل
وأكرمنا الله الذى ليس غيره إله بأيام مضت مالها شكل
بنصر الإله والرسول ودينه وألبسناه اسمًا مضى ماله مثل
أولئك قومى خير قوم بأسرهم فما كان من خير فقومى له أهل
يربون بالمعروف معروف من مضى وليس عليهم دون معروفهم قفل

(١) انظر الأبيات فى: السيرة (٤/١٨١ - ١٨٢).
(٢) انظر الأبيات فى: السيرة (٤/١٨٤).

إذا اختبطوا لم يفحشوا فى نديهم ... وليس على سؤالهم عندهم بخل
وإن حاربوا أو سالموا لم يشبهوا ... فحربهم حتف وسلمهم سهل
وجارهم موف بعلياء بيته ... له ما ثوى فينا الكرامة والبذل
وحاملهم موف بكل حمالة ... تحمل لا غرم عليه ولا خذل
وقائلهم بالحق إن قال قائل ... وحلمهم عود وحكمهم عدل
ومنا أمير المسلمين حياته ... ومن غسلته من جنابته الرسل

وقال حسان أيضًا من قصيدة له أولها(١):

وقومى أولئك إن تسألى ... كرام إذا الضيف يومًا ألم
عظام القدور لأيسارهم ... يكبون فيها المسن السنم
يواسون جارهم فى الغنى ... ويحمون مولاهم إن ظلم
فكانوا ملوكا بأرضيهم ... ينادون غضبًا بأمر غشم
ملوكا على الناس لم يملكوا ... من الدهر يومًا كحل القسم(*)
ملوكا إذا غشموا فى البلا ... د لا ينكلون ولكن قدم
فأبنا بساداتهم والنساء ... وأولادهم فيهم تقتسم
ورثنا مساكنهم بعدهم ... وكنا ملوكا بها لم نرم

---

(١) انظر الأبيات فى: السيرة (٤/١٨٤).

(*) ذكر فى السيرة أبيات بعد هذا لم يذكرها هنا وهى:

أنبوا بعاد وأشياعهم ... ثمود وبعض بقايا إرم
بيثرب قد شيدوا فى النخيل ... حصونا ودجن فيها النعم
نواضح قد علمتها اليهو ... د عل إليك وقولا هلم
وفيما اشتهوا من عصير القطا ... ف والعيش رخوا على غيرهم
فسرنا إليهم بأثقالنا ... على كل فحل هجان قطم
جنبنا بهن جياد الخيو ... ل قد جللوها جلال الأدم
فلما أناخوا بجنبى صرار ... وشدوا السروج بلى الحزم
فما راعهم غير معج الخيو ... ل والزحف من خلفهم قد دهم
فطاروا سراعا وقد أفزعوا ... وجئنا إليهم كأسد الأجم
على كل سلهبة فى الصبا ... ن لا يشتكين نحول السأم
وكل كميت مطار الفؤاد ... أمين الفصوص كمثل الزلم
عليها فوارس قد عودوا ... قراع الكماة وضرب البهم

انظر: السيرة (٤/١٨٣ - ١٨٤).

فلمــا اتانــا الرســول الرشيــــ ـــد بــالحق والنــور بعــد الظلــم
فقلنــا صدقــت رســول المليــك هلـــم إلينــا وفينــا أقـــم
فنشـــهد أنـــك عبـــد الإلـــ ـــه أرسـلت نـورًا بديـن قيـم
فإنـــا وأولادنـــا جنـــة نقيـك وفـى مالنـا فـاحتكم
فنحـــن أولئـــك إن كذبـــوك فنـــاد نـــداء ولا تحشـــم
ونــاد بمــا كنــت أخفيتــه نـــداء جهـــارًا ولا تكتـــم
فســار الغـــواة بأســـيافهم إليـــه يظنـــون أن يخـــترم
فقمنـــا إليهـــم بأســـيافنا نجـالد عنــه بغــاة الأمـــم
بكـــل صقيـــل لـــه ميعـــة رقيـق الذبـاب عضـوض خـذم
إذا مـا يصـادف صـم العظـا م لـم ينـب عنهـا ولـم ينثلـم
فذلــك مــا ورثتنــا القــرو م مجـدًا تليـدًا وعـزا أشـم
إذا مـر نسـل كفـى نسـله وغـادر نسـلاً إذا مـا انقصـم
فما إن مـن النـاس إلا لنـا عليه وإن خـاس فضـل النعـم

* * *

ذكر الوفود على رسول الله ﷺ
ملخصًا من كتاب ابن إسحاق والواقدى وغيرهما

وما زال آحاد الوافدين وأفذاذ الوفود من العرب يغدون على رسول الله ﷺ منذ أظهر الله دينه، وقهر أعداه. ولكن انبعاث جماهيرهم إلى ذلك إنما كان بعد فتح مكة، ومعظمه فى سنة تسع، ولذلك كانت تسمى سنة الوفود.

وذلك[1] أن العرب كانت تربص بالإسلام ما يكون من قريش فيه، إذ هم الذين كانوا نصبوا لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، وكانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل، وقادة العرب، لا ينكر لهم ذلك، ولا ينازعون فيه. فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة، ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحربه ولا عداوته، فدخلوا فى دين الله أفواجًا، يضربون إليه من كل وجه، يقول الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾ [النصر:١] أى فتح مكة

(١) انظر: السيرة (٤/١٨٥).

﴿**ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا**﴾ جماعات جماعات ﴿**فسبح بحمد ربك**﴾ أى فاحمد الله على ما ظهر من دينك ﴿**واستغفره إنه كان توابًا**﴾ إشارة إلى انقضاء أجله، واقتراب لحاقه برحمة ربه، ﴿**مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا**﴾ [النساء: ٦٩].

كذلك يقول عبدالله بن عباس، وقد سأله عمر بن الخطاب عن هذه السورة، فلما أجابه بنحو هذا المعنى، قال له عمر رضى الله عنه: ما أعلم منها إلا ما تعلم.

فقدمت على رسول الله ﷺ وفود العرب، فمن ذلك:

* * *

وفد بنى تميم(١)

قدم عليه عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس التميمى، فى أشراف من قومه، منهم: الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر،وعمرو بن الأهتم، والحتات بن يزيد، ونعيم ابن يزيد، وقيس بن الحارث، وقيس بن عاصم فى وفد عظيم من بنى تميم.

فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته: أن أخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم، وإياهم عنى الله سبحانه بقوله: ﴿**إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون**﴾ [الحجرات: ٤]، فخرج إليهم رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، جئناك نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا؛ قال: «قد أذنت لخطيبكم فليقل»، فقام عطارد بن حاجب، فقال:

الحمد لله الذى له علينا الفضل، وهو أهله، الذى جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالاً عظامًا، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزة أهل المشرق وأكثره عددًا، وأيسره عدة، فمن مثلنا فى الناس؟ ألسنا برءوس الناس، وأولى فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددناه، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نعرف بذلك.

أقول هذا لأن تأتونا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا، ثم جلس. فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس أخى بنى الحارث بن الخزرج: «قم، فأجب الرجل فى خطبته». فقام ثابت، فقال:

الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه،

---

(١) انظر: السيرة (١٨٦/٤).

ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمه نسبًا، وأصدقه حديثًا، وأفضله حسبًا، فأنزل عليه كتابه، وأئتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله ﷺ المهاجرون من قومه وذوى رحمه، أكرم الناس أحسابًا، وأحسن الناس وجوهًا، وخير الناس فعالاً، ثم كان أول الخلق إجابة، واستجابة لله حين دعاه رسول الله ﷺ فنحن أنصار الله ووزراء رسول الله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه فى الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا. أقول قولى هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم(١).

فقام الزبرقان بن بدر، فقال(٢):

نحن الكرام فلا حى يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع(٣)
وكم قسرنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب وفضل العز يتبع
ونحن يطعم عند القحط مطعمنا ... من الشواء إذا لم يؤنس القزع
بما ترى الناس تأتينا سراتهم ... من كل أرض هوانا ثم [متبع](*)
فننحر الكوم عبطًا فى أرومتنا ... للنازلين إذا ما أنزلوا [شيع](*)
فلا ترانا إلى حى نفاخرهم ... إلا استفادوا وكانوا الرأس يقتطع
فمن يفاخرنا فى ذاك نعرفه ... فيرجع القوم والأخبار تستمع
إنا أبينا وما يأبى لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع

وكان رسول الله ﷺ قد استدعى حسان بن ثابت ليجيب شاعر بنى تميم، قال حسان: فخرجت إلى رسول الله ﷺ، وأنا أقول:

منعنا رسول الله إذ حل وسطنا ... على أنف راض من معد وراغم
منعناه لما حل بين بيوتنا ... بأسيافنا من كل باغ وظالم
ببيت حريد عزة وثراؤه ... بجابية الجولان وسط الأعاجم

---

(١) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (٨/١١٦، ١١٧)، الطبرى فى التاريخ (٢/١٨٨: ١٩٠)، إتحاف السادة المتقين للزبيدى (٦/٢١٢، ٢١٣).
(٢) انظر الأبيات فى: السيرة (٤/١٨٨ - ١٨٩).
(٣) البيع: مواضع الصلاة والعبادات، واحدتها بيعة.
(*) كذا فى الأصل، وفى السيرة: «نصطنع».
(*) كذا فى الأصل، وفى السيرة: «شَبِعُوا».

هل المجد إلا السؤدد العود والندى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم

فلما فرغ الزبرقان، قال رسول الله ﷺ: «قم يا حسان، فأجب الرجل»، فقال حسان:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع
إن كان فى الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
إن سابقوا الناس يومًا فاز سبقتهم ... أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا
أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم ... لا يطمعون ولا يرديهم طمع
لا يبخلون على جار بفضلهم ... ولا يمسهم من مطمع طبع
إذا نصبنا لحى لم ندب لهم ... كما يدب إلى الوحشية الذرع
نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع
كأنهم فى الوغى والموت مكتنع ... أسد بحلبة فى أرساغها فدع
خذ منهم ما أتى عفوًا إذا غضبوا ... ولا يكن همك الأمر الذى منعوا
فإن فى حربهم فاترك عداوتهم ... شرا يخاض عليه السم والسلع
اكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفاوتت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتى قلب يوازره ... فيما أحب لسان حائك صنع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جد بالناس جد القول أو شمع

وذكر ابن هشام[1] عن بعض أهل العلم بالشعر من بنى تميم، أن الزبرقان بن بدر لما قدم على رسول الله ﷺ فى وفد بنى تميم، قام فقال:

أتيناك كيما يعلم الناس فضلنا ... إذا اختلفوا عند احتضار المواسم
بأنا فروع الناس فى كل موطن ... وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم
وأنا نذود المعلمين إذا انتخوا ... ونضرب رأس الأصيد المتفاقم
وأن لنا المرباع فى كل غارة ... نغير بنجد أو بأرض الأعاجم

(١) انظر: السيرة (٤/١٩١).

فقام حسان بن ثابت فأجابه، فقال:

هل المجد إلا السؤدد العود والندى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم
نصرنا وآوينا النبى محمدًا ... على أنف راض من معد وراغم
بحى حريد أصله وثراؤه ... بجابية الجولان وسط الأعاجم
نصرناه لما حل وسط ديارنا ... بأسيافنا من كل باغ وظالم
جعلنا بنينا دونه وبناتنا ... وطبنا له نفسًا بفىء المغانم
ونحن ضربنا الناس حتى تتابعوا ... على دينه بالمرهقات الصوارم
ونحن ولدنا من قريش عظميها ... ولدنا نبى الخير من آل هاشم
بنى دارم لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالاً عند ذكر المكارم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم ... لنا خول ما بين ظئر وخادم
فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم ان تقسموا فى المقاسم
فلا تجعلوا لله ندًا وأسلموا ... ولا تلبسوا زِيًّا كِزىِّ الأعاجم

قال ابن إسحاق: فلما فرغ حسان من قوله، قال الأقرع بن حابس: وأبى، إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا. فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم.

وكان عمرو بن الأهتم قد خلفه القوم فى ظهرهم، وكان أصغرهم سنا، فأعطاه رسول الله ﷺ مثل ما أعطى القوم.

وقيس بن عاصم هو الذى ذكره له ذكرًا أزْرَى به فيه، فكان بينهما ما هو معلوم.

* * *

وفد بنى عامر(١)

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بنى عامر، فيهم بن الطفيل وأربد بن قيس وجبار بن سلمى، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم.

فقدم عامر بن الطفيل عدو الله، على رسول الله ﷺ، وهو يريد الغدر به، وقد قال له قومه: يا عامر، إن الناس قد أسلموا فأسلم، قال: والله لقد كنت آليت أن لا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى، فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش! ثم قال لأربد: إذا قدمنا

---

(١) انظر: السيرة (٤/ ١٩٤ - ١٩٥).

على الرجل، فإنى سأشغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف. فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال له عامر بن الطفيل: يا محمد، خالنى، قال: «لا والله، حتى تؤمن الله وحده». قال: يا محمد، خالنى، وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان امره به، فجعل أربد لا يحير شيئًا؛ فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً؛ فلما ولى، قال رسول الله ﷺ: «اللهم اكفنى عامر بن الطفيل»، فلما خرجوا، قال عامر لأربد: ويلك يا أربد، أين ما كنت امرتك به؟ والله ما كان على وجه الأرض رجل اخوف عندى على نفسى منك، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبدًا. قال: لا أبا لك! لا تعجل على، والله ما هممت بالذى امرتنى به إلا دخلت بينى وبين الرجل، حتى ما أرى غيرك، أفاضربك بالسيف؟ وخرجوا راجعين إلى بلادهم، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه، فقتله الله فى بيت امرأة من بنى سلول، فجعل يقول: يا بنى عامر، أغدة كغدة البكر فى بيت امرأة من بنى سلول[1].

ويقال[2]: إنه قال: أغدة كغدة الإبل، وموتًا فى بيت سلولية!

ثم خرج أصحابه حين واروه حتى قدموا أرض بنى عامر، فأتاهم قومهم، فقالوا: ما وراءك يا أربد؟ قال: لا شىء والله، لقد دعانى إلى عبادة شىء لوددت انه عندى الآن، فأرميه بالنبل حتى أقتله. فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له يتبعه، فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة، فأحرقتهما. وأنزل الله جل قوله فى وقاية الله تعالى لنبيه عليه السلام مما أراده به عامر، وفيما قتل به أربد: ﴿**سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله**﴾ أى أن المعقبات التى يحفظ الله بها نبيه هى من أمر الله ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال هو الذى يريكم البرق خوفًا وطمعًا وينشىء السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال**﴾ [الرعد: ١٠ - ١٣][3].

* * *

---

(١) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٥/٣٢٩ - ٣٢١)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦/١٢٦).
(٢) هذا القول ذكره ابن هشام فى السيرة (٤/١٩٥).
(٣) ذكره الواحدى فى أسباب النزول الحديث رقم (٥٢٧).

وفد تجيب[1]

وقدم على رسول الله ﷺ وفد تجيب، وهم من السكون، ثلاثة عشر رجلاً، قد ساقوا معهم صدقات أموالهم التى فرض الله عليهم، فسر رسول الله ﷺ بهم وأكرم منزلهم، وقالوا: يا رسول الله، سقنا إليك حق الله تعالى فى أموالنا. فقال رسول الله ﷺ: «ردوها، فاقسموها على فقرائكم». فقالوا: يا رسول الله، ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا. فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما وفد علينا وفد من العرب بمثل ما وفد به هؤلاء الحى من تجيب. فقال رسول الله ﷺ: «إن الهدى بيد الله عز وجل فمن أراد به خيرًا شرح صدره للإيمان».

وسألوا رسول الله ﷺ أشياء، فكتب لهم بها، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن، فازداد رسول الله ﷺ رغبة فيهم، وأمر بلالاً أن يحسن ضيافتهم.

فأقاموا أيامًا، ولم يطيلوا اللبث، فقيل لهم: ما يعجلكم؟ فقالوا: نرجع إلى من وراءنا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله ﷺ وكلامنا إياه، وما رد علينا.

ثم جاءوا إلى رسول الله ﷺ يودعونه، فأرسل إليهم بلالاً، فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود. قال: «هل بقى منكم أحد»؟ قالوا: غلام خلفناه على رحالنا هو أحدثنا سنًا، قال: «أرسلوه إلينا». فلما رجعوا إلى رحالهم قالوا للغلام: انطلق إلى رسول الله ﷺ فاقض حاجتك منه، فإنا قد قضينا حوائجنا منه. وودعناه. فأقبل الغلام حتى اتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى امرؤ من بنى أبذى.

قال الواقدى: هو أبذى بن عدى، وأم عدى تجيب بنت ثوبان بن سليم من مذحج، وإليها ينسبون يقول الغلام: من الرهط الذين أتوك آنفًا، فقضيت حوائجهم، فاقض حاجتى يا رسول الله. «وما حاجتك؟» قال: إن حاجتى ليست بحاجة أصحابى، وإن كانوا قدموا راغبين فى الإسلام، وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم، وإنى والله ما أعلمنى من بلادى إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لى، وأن يرحمنى، وأن يجعل غناى فى قلبى. فقال رسول الله ﷺ وأقبل إلى الغلام: «اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه فى قلبه». ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه.

فانطلقوا راجعين إلى أهليهم، ثم وافوا رسول الله ﷺ فى الموسم بمنى سنة عشر،

---

(١) راجع قدوم وفد تجيب فى: طبقات ابن سعد (١/٢/٦٠)، البداية والنهاية (٤/٨٤)، المنتظم لابن الجوزى (٣/٣٥٤).

فقالوا: نحن بنو أبذى. قال رسول الله ﷺ: «ما فعل الغلام الذى أتانى معكم؟» قالوا: يا رسول الله، والله ما رأينا مثله قط، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله عز وجل لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها.

فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله، إنى لأرجو أن يموت جميعًا». فقال رجل منهم: أوليس يموت الرجل جميعًا يا رسول الله؟! قال رسول الله ﷺ: «تشعب أهواؤه وهمومه فى أودية الدنيا، فلعل أجله أن يدركه فى بعض تلك الأودية، فلا يبالى الله عز وجل فى أيها هلك».

قالوا: فعاش ذلك الرجل فينا على أفضل حال وأزهده فى الدنيا وأقنعه بما رزق، فلما توفى رسول الله ﷺ ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام، قام فى قومه يذكرهم الله والإسلام، فلم يرجع منهم أحد. وجعل أبو بكر الصديق رضى الله عنه يذكره ويسأل عنه، حتى بلغه حاله وما قام به، فكتب إلى زياد بن لبيد يوصيه به خيرًا.

* * *

فروة بن مسيك المرادى[1]

وقدم فروة بن مسيك المرادى على رسول الله ﷺ مفارقًا لملوك كندة، متابعًا للنبى ﷺ وقال فى ذلك:

لما رأيت ملوك كندة أعرضت ... كالرجل خان الرجل عرق نسائها
قربت راحلتى أؤم محمدًا ... أرجو فواضلها وحسن ثرائها

ثم خرج حتى أتى المدينة، وكان رجلاً له شرف، فأنزله سعد بن عبادة عليه، ثم غدا على رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد، فسلم عليه، ثم قال: يا رسول الله، أنا لمن ورائى من قومى، قال: «أين نزلت يا فروة؟» قال: على سعد بن عبادة، قال: «بارك الله على سعد بن عبادة». وكان يحضر مجلس رسول الله ﷺ كلما جلس، ويتعلم القرآن وفرائض الإسلام وشرائعه.

وكان بين مراد وهمدان قبيل الإسلام وقعة، أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا، حتى أثخنوهم فى يوم يقال له: «يوم الردم»، وكان الذى قاد همدان إلى مراد «الأجدع ابن مالك»، ففضحهم يومئذ، فقال رسول الله ﷺ لما وفد إليه: «يا فروة، هل ساءك ما

(١) انظر: السيرة (٤/٢٠٦ - ٢٠٧).

أصاب قومك يوم الردم؟» قال: يا رسول الله، من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الردم لا يسوءه ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما إن ذلك اليوم لم يزد قومك في الإسلام إلا خيرًا».

وفي ذلك اليوم يقول فروة بن مسيك[1]:

مررنا باللفاة[*] وهن خوص ... ينازعن الأعنة ينتحينا
فإن نغلب فغلابون قدمًا ... وإن نغلب فغير مغلبينا
وما إن طبنا جبن ولكن ... منايانا وطعمة آخرينا
كذاك الدهر دولته سجال ... تكر صروفه حينا فحينا
فبينا ما نسربه ونرضى ... ولو لبست غضارته سنينا
إذا انقلبت به كرات دهر ... فألفى للأولى غبطوا طحينا
فمن يغبط بريب الدهر منهم ... تجد ريب الزمان له خئونا
فلو خلد الملوك إذن خلدنا ... ولو بقى الكرام إذا بقينا
فأفنى ذلكم سروات قومي ... كما أفنى القرون الأولينا

واستعمل رسول الله ﷺ فروة بن مسيك[2] على مراد وزبيد ومذحج كلها، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، وكتب له فيها كتابًا لا يعدوه إلى غيره، فكان خالد مع فروة في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ[3].

ولما كانت السنة التي توفي فيها صلوات الله وبركاته عليه، وصدر عن مكة، ورأت أبناء زبيد قبائل اليمن تقدم على رسول الله ﷺ مقرين بالإسلام، مصدقين برسول الله ﷺ ثم يرجع راجعهم إلى بلاده وهم على ما هم عليه، قالوا لخالد بن سعيد[4]: والله،

---

(١) انظر الأبيات في: السيرة (٤/٢٠٦ - ٢٠٧).
(*) كذا في الأصل، وفي السيرة «مَرَرْنَ عَلَى لِفاةَ».
(٢) انظر ترجمته في: الاستيعاب الترجمة رقم (٢١٠١)، الإصابة الترجمة رقم (٦٩٩٦)، أسد الغابة الترجمة رقم (٤٢٢٤)، تجريد أسماء الصحابة (٢/٧)، تهذيب التهذيب (٨/٢٦٥)، خلاصة تذهيب الكمال (٢/٣٣٣)، تهذيب الكمال (٢/١٠٩٤).
(٣) ذكره الطبري في التاريخ (٥/١٩٨).
(٤) انظر ترجمته في: الاستيعاب الترجمة رقم (٦١٧)، الإصابة الترجمة رقم (٢١٧٢)، أسد الغابة الترجمة رقم (١٣٦٥)، العقد الثمين (٤/٢٦٧)، شذرات الذهب (١/٣٠)، طبقات ابن سعد (٤/١/٦٩)، طبقات خليفة (١١/٢٩٨)، التاريخ الكبير (٣/١٥٢)، مشاهير علماء الأمصار الترجمة رقم (١٧٢)، تاريخ الإسلام (١/٣٧٨).

لقد دخلنا فيما دخل فيه الناس، وصدقنا بمحمد ﷺ وخلينا بينك وبين صدقات أموالنا، وكنا لك عونا على من خالفك من قومنا.

قال خالد: قد فعلتم، قالوا: فأوفد منا نفرًا يقدمون على رسول الله ﷺ ويخبرونه بإسلامنا، ويقبسونا منه خيرًا. قال خالد: ما أحسن ما دعوتم إليه، وأنا أجيبكم، ولم يمنعنى أن أقول لكم هذا إلا أنى رأيت الوفود تمر بكم فلا يهيجكم ذلك على الخروج، فساءنى ذلك منكم حتى ساء ظنى بكم، وكنتم على ما كنتم عليه من حداثة عهدكم بالشرك، فخشيت أن يكون الإسلام لم يرسخ فى قلوبكم، فأما إذا طلبتم ما طلبتم، فأنا أرجو أن يكون الإسلام راسخًا فى قلوبكم. قالوا: وما أنكرت منا؟ والله لقد كنا فى حيزك واخترناك على غيرك من عمال رسول الله ﷺ وما رأيت منا شيئًا تكرهه ولا تنكره إلى يومنا هذا.

قال: اللهم غفرا، لولا أنى أنكرت منكم بعض ما ينكر ما قلت هذا، أما تعلمون أنى أخذت من شاب منكم فريضة بنت مخاض، فعقلتها ووسمتها بميسم الصدقة، فجئتم بأجمعكم فأخذتموها، ثم قلتم: إن شاء خالد فليأخذها من مرعاها، فأمسكت عنكم وخفت أن يأتى منكم ما هوشر من هذا؟! فقالوا: فقد كان، ونزعنا وتبنا إلى الله، فلا نحول بينك وبين شىء تريده، فبعث معهم وفدًا إلى رسول الله ﷺ.

* * *

وفد زبيد عمرو بن معدى كرب[(١)]

وقدم عمرو بن معدى كرب على رسول الله ﷺ فى أناس من قومه بنى زبيد، فأسلم؛ وكان عمرو قد قال لقيس بن مكشوح المرادى، حين انتهى إليهم أمر رسول الله ﷺ: يا قيس، إنك سيد قومك، وقد ذكر لنا أن رجلاً من قريش يقال له: محمد خرج بالحجاز، يقال: إنه نبى، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه، فإن كان نبيًا كما يقول، فإنه لن يخفى علينا، إذا لقيناه اتبعناه، وإن كان غير ذلك علمنا علمه، فإنه إن سبق إليه رجل من قومك سادنا وترأس علينا، وكنا له أذنابًا. فأبى عليه قيس وسفه رأيه، فركب عمرو بن معدى كرب حتى قدم على رسول الله ﷺ وأقام أيامًا، فأجازه رسول الله ﷺ كما كان يجيز الوفود، وأنصرف راجعًا إلى بلاده، فأقام فى قومه بنى زبيد وعليهم فروة بن مسيك سامعًا له مطيعًا، فلما توفى رسول الله ﷺ ارتد عمرو، ثم راجع الإسلام بعد ذلك.

---

(١) انظر: السيرة (٤/٢٠٧ - ٢٠٨).

وقد كان قيس بن مكشوح لما بلغه خروج عمرو أوعده وتحطم عليه، وقال: خالفنى وترك رأيى. فقال عمرو فى ذلك من أبيات:

أمرتك يوم ذى صنعاء ... أمرًا باديًا رشده
أمرتك باتقاء الله ... والمعروف تتعده
فكنت كذى الحمير غره ... مما به وتده
تمنانى على فرس ... عليه جالس أسده(*)
فلو لاقيتنى للقيت ... ليثًا فوقه لبده

وطلب فروة بن مسيك قيس بن مكشوح كل الطلب، حتى هرب من بلاده، وكان مصممًا فى طلب من خالفه، فكان عمرو يقول لقيس: قد خبرتك يا قيس أنك تكون ذنبًا تابعًا لفروة بن مسيك.

* * *

وفد بنى ثعلبة

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بنى ثعلبة سنة ثمان مرجعه من الجعرانة.

ذكر الواقدى عن رجل منهم قال: لما قدم رسول الله ﷺ من الجعرانة قدمنا عليه وافدين مقرين بالإسلام، ونحن أربعة نفر، فنزلنا دار رملة بنت الحارث، فجاءنا بلال، فنظر إلينا، فقال: أمعكم غيركم؟ قلنا: لا، فانصرف عنا، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى أتى بجفنة من ثريد بلبن وسمن، فأكلنا حتى نهلنا، ثم رحنا إلى الظهر، فإذا رسول الله ﷺ قد خرج من بيته ورأسه يقطر ماء، فرمى ببصره إلينا، فأسرعنا إليه، وبلال يقيم الصلاة.

فسلمنا عليه، وقلنا: يا رسول الله، إنا رسل من خلفنا من قومنا، مقرين بالإسلام، وهم فى مواشيهم، وما لا يصلحه إلا هم، وقد قيل لنا يا رسول الله: لا إسلام لمن لا هجرة له، فقال رسول الله ﷺ: «حيثما كنتم، واتقيتم الله فلا يضركم حيث كنتم». وفرغ بلال من الآذان، ورسول الله ﷺ يكلمنا، ثم تقدم فصلى بنا الظهر، لم تصل وراء أحد قط أتم صلاة ولا أوجز منه، ثم انصرف إلى بيته، فدخل، فلم يلبث أن خرج إلينا، فقيل لنا: صلى فى بيته ركعتين، فدعا بنا، فقال: «أين أهلكم؟» فقلنا: قريبًا يا رسول

(*) ذكر فى السيرة بعد هذا البيت بيت لم يذكره هنا، وهو:

علىٍّ مفاضة كالنهـ ... ـى أخلص ماءه جدده

انظر: السيرة (٤/٢٠٨).

الله، هم بهذه السرية فقال: «كيف بلادكم؟» فقلنا: مخصبون، فقال: «الحمد لله».

فأقمنا أيامًا، فتعلمنا من القرآن والسنن، وضيافته تجرى علينا، ثم جئنا نودعه منصرفين، فقال لبلال: «أجزهم كما تجيز الوفد»، فجاء بلال بنقر من فضة، فأعطى كل واحد منا خمس أواق، وقال: ليس عندنا دراهم مضروبة، فانصرفنا إلى بلادنا(١).

* * *

وفد بنى سعد هذيم(٢)

وقدم على رسول الله ﷺ بنو سعد هذيم، من قضاعة فى سنة تسع.

ذكر الواقدى عن ابن النعمان منهم عن أبيه قال: قدمت على رسول الله ﷺ وافدًا فى نفر من قومى، وقد أوطأ رسول الله ﷺ البلاد غلبة، وأداخ العرب، والناس صنفان. إما داخل فى الإسلام راغب فيه، وإما خائف من السيف، فنزلنا ناحية من المدينة، ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا إلى بابه، فنجد رسول الله ﷺ يصلى على جنازة فى المسجد، فقمنا خلفه ناحية، ولم ندخل مع الناس فى صلاتهم، وقلنا: حتى نلقى رسول الله ﷺ ونبايعه، ثم انصرف رسول الله ﷺ فنظر إلينا، فدعا بنا، فقال: «من أنتم؟» فقلنا: من بنى سعد هذيم، فقال: «أمسلمون أنتم؟» قلنا: نعم، قال: فهلا صليتم على أخيكم؟» قلنا: يا رسول الله، ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك، فقال رسول الله ﷺ: «أينما أسلمتم مسلمون».

قال: فأسلمنا وبايعنا رسول الله ﷺ بأيدينا على الإسلام، ثم انصرفنا إلى رحالنا، وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا، فبعث رسول الله ﷺ فى طلبنا، فأتى بنا إليه، فتقدم صاحبنا فبايعه على الإسلام، فقلنا: يا رسول الله، إنه أصغرنا، وإنه خادمنا، فقال: «أصغر القوم خادمهم، بارك الله عليه»(٣).

قال: فكان والله خيرنا، وأقرأنا للقرآن، لدعاء رسول الله ﷺ له، ثم أمره رسول الله ﷺ علينا، فكان يؤمنا.

ولما أردنا الانصراف، أمر بلالاً فأجازنا بأواقى من فضة، لكل رجل منا، فرجعنا إلى قومنا، فرزقهم الله الإسلام.

* * *

---

(١) ذكره ابن عساكر فى تهذيب تاريخ دمشق (٣٠٢/٣، ٢٩٦/١٠).

(٢) راجع: المنتظم لابن الجوزى (٣٥٦/٣)، طبقات ابن سعد (٥٩/٢/١، ٦٥).

(٣) ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٩٤/٥).

وفد بنى فزارة(١)

ولما رجع رسول الله ﷺ من تبوك قدم عليه وفد بنى فزارة، بضعة عشر رجلاً، فيهم خارجة بن حصن، والحر بن قيس بن حصن ابن أخى عيينة بن حصن، وهو أصغرهم، فنزلوا فى دار زينب بنت الحارث، وجاءوا رسول الله ﷺ مقرين بالإسلام، وهم مستنون على وكاف عجاف، فسألهم رسول الله ﷺ عن بلادهم، فقال أحدهم: يا رسول الله، أسنتت بلادنا، وهلكت مواشينا، وأجدب جنابنا، وغرث عيالنا، فادع لنا ربك يغثنا، واشفع لنا إلى ربك، وليشفع لنا ربك إليك. فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله ويلك، هذا أنا شفعت إلى ربى عز وجل، فمن ذا الذى يشفع ربنا إليه؟ لا إله إلا هو العلى العظيم، وسع كرسيه السموات والأرض، فهى تئط من عظمته وجلاله كما يئط الرجل الجديد».

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله جل وعز ليضحك من شفعكم، وأزلكم، وقرب غياثكم».

فقال الأعرابى: يا رسول الله، ويضحك ربنا عز وجل؟ قال: «نعم»، قال الأعرابى: لن نعدمك من رب يضحك خير، فضحك النبى ﷺ من قوله، وصعد المنبر، فتكلم بكلمات، وكان لا يرفع يديه فى شىء من الدعاء إلا فى الاستسقاء، فرفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه، وكان مما حفظ من دعائه: «اللهم اسق بلادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحى بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثًا مغيثًا مربعًا طيبًا، واسعًا عاجلاً غير آجل، نافعًا غير ضار، اللهم اسقنا رحمة ولا تسقنا عذابًا ولا هدمًا ولا غرقًا ولا محقًا، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء».

فقام أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصارى، فقال: يا رسول الله، التمر فى المربد. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اسقنا»، فعاد أبو لبابة لقوله، وعاد رسول الله ﷺ لدعائه، فعاد أيضًا أبو لبابة لقوله، وعاد رسول الله ﷺ لدعائه، فعاد أيضًا أبو لبابة، فقال: التمر فى المربد يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة عريانًا يسد ثعلب مربده بإزاره»، قالوا: ولا والله ما فى السماء سحاب ولا قزعة، وما بين المسجد وبين سلع من شجر ولا دار، فطلعت من وراء سلع سحابة مثل الترس، فلما توسطت

---

(١) راجع: المنتظم لابن الجوزى (٣٥٣/٤)، طبقات ابن سعد (٥٩/٢/١)، البداية والنهاية (٧٩/٥).

السماء انتشرت، ثم أمطرت، فوالله ما رأوا الشمس سبعًا، وقام أبو لبابة عريانا يسد ثعلب مربده بإزاره، لئلا يخرج التمر منه، فجاء ذلك الرجل أو غيره فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فصعد رسول الله ﷺ المنبر، فدعا ورفع يديه مدًا، حتى رؤى بياض إبطيه، ثم قال: «اللهم حوالينا ولاعلينا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر»[١].

قال: فانجابت السحاب عن المدينة انجياب الثوب.

* * *

وفد بنى أسد[٢]

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بنى أسد، عشرة رهط، فيهم وابصة بن معبد وطليحة ابن خويلد، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد مع أصحابه، فسلموا وتكلموا، وقال متكلمهم: يا رسول الله، إنا شهدنا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك يا رسول الله، ولم تبعث إلينا بعثا، ونحن لمن وراءنا.

قال محمد بن كعب القرظى: فأنزل الله عز وجل على رسوله: ﴿**يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين**﴾ [١٧: الحجرات].

وكان مما سألوا رسول الله ﷺ عند يومئذ: العيافة والكهانة وضرب الحصى، فنهاهم عن ذلك كله. فقالوا: يا رسول الله، إن هذه أمور كنا نفعلها فى الجاهلية، أرأيت خصلة بقيت؟ قال: «وما هى»؟ قال: الخط، قال: «علمه نبى من الأنبياء، فمن صادف مثل علمه علم»[٣].

* * *

---

(١) انظر الحديث فى: سنن أبو داود (١١٧٣)، سنن البيهقى الكبرى (٣/٣٥٦)، كنز العمال للمتقى الهندى (١٨٠٢٥)، موطأ الإمام مالك (١٩١)، العلل المتناهية لابن الجوزى (٢١٢)، مشكاة المصابيح للتبريزى (١٥٠٦).

(٢) راجع: المنتظم لابن الجوزى (٤/٣٥٥)، طبقات ابن سعد (١/٢/٣٩)، البداية والنهاية لابن كثير (٥/٧٩).

(٣) ذكره السيوطى فى الدرر المنثور (٦/٣٨).

وفد بهراء(١)

وذكر الواقدى عن كريمة بنت المقداد، قالت: سمعت أمى ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب(٢) تقول: قدم وفد بهراء من اليمن، وهم ثلاثة عشر رجلاً، فأقبلوا يقودون رواحلهم، حتى انتهوا إلى باب المقداد، ونحن فى منزلنا نبنى جديلة، فخرج إليهم المقداد، فرحب بهم، وأنزلهم، وجاءهم بجفنة من حيس قد كنا هيأناها قبل أن يحلوا لنجلس عليها، فحملها أبو معبد المقداد، وكان كريمًا على الطعام، فأكلوا منها حتى نهلوا، وردت إلينا القصعة وفيها أكل، فجمعنا تلك الأكل فى قصعة صغيرة، ثم بعثنا بها إلى رسول الله ﷺ مع سدرة مولاتى، فوجدته فى بيت أم سلمة، فقال رسول الله ﷺ: «ضباعة أرسلت بهذا»؟، قالت سدرة: نعم يا رسول الله، قال: «ضعى»، ثم قال: «ما فعل ضيف أبى معبد؟» قلت: عندنا، فأصاب منها رسول الله ﷺ أكلا هو ومن معه فى البيت حتى نهلوا، وأكلت معهم سدرة، ثم قال: «اذهبى بما بقى إلى ضيفكم»، قالت سدرة: فرجعت بما بقى فى القصعة إلى مولاتى، قالت: فأكل منها الضيف ما أقاموا، نرددها عليهم وما تغيض، حتى جعل الضيف يقولون: يا أبا معبد، إنك لتنهلنا من أحب الطعام إلينا، وما كنا نقدر على مثل هذا إلا فى الحين، وقد ذكر لنا أن بلادكم قليلة الطعام، إنما هو العلق أو نحوه، ونحن عندك فى الشبع، فأخبرهم أبو معبد بخبر رسول الله ﷺ أنه أكل منها أكلاً وردها، فهذه بركة أثر أصابع رسول الله ﷺ فجعل القوم يقولون: نشهد أنه رسول الله، وازدادوا يقينا، وذلك الذى أراد رسول الله ﷺ.

وتعلموا الفرائض، وأقاموا أيامًا، ثم جاءوا رسول الله ﷺ فودعوه، وأمر لهم بجوائزهم، وانصرفوا إلى أهلهم.

* * *

وفد بنى غدرة

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بنى غدرة فى صفر سنة تسع، اثنا عشر رجلاً، فيهم حمزة بن النعمان وسليم وسعد ابنا مالك ومالك بن أبى رباح، فنزلوا فى دار رملة بنت

---

(١) راجع: المنتظم لابن الجوزى (٤/٣٥٦)، طبقات ابن سعد (١/٢/٦٦).

(٢) انظر ترجمتها فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٣٤٥١)، الإصابة الترجمة رقم (١١٤٢٩)، أسد الغابة الترجمة رقم (٧٠٧٦)، تهذيب الكمال (١٦٨٧)، تهذيب التهذيب (١٢/٤٣٢)، خلاصة تذهيب الكمال (٤٩٣)، تاريخ الإسلام (٢/٢٢٩).

الحارث النجارية، ثم جاءوا رسول الله ﷺ وهو فى المسجد، فسلموا بسلام أهل الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «من القوم»؟ فقال متكلمهم: من لا تنكر، نحن بنو غدرة، أخوة قصى لأمه، نحن الذين عضوا قصيا، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر، ولنا قرابات وأرحام. قال رسول الله ﷺ: «مرحبًا بكم وأهلا، ما أعرفنى بكم، فما منعكم من تحية الإسلام»؟ قالوا: يا محمد، كنا على ما كان عليه آباؤنا، فقدمنا مرتادين لأنفسنا ولمن خلفنا، فإلام تدعو؟ فقال رسول الله ﷺ: «إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تشهدوا أنى رسول الله إلى الناس كافة»، فقال المتكلم: فما وراء ذلك من الفرائض؟ فقال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس، تحسن طهورهن وتصليهن لمواقيتهن، فإنه أفضل العمل».

ثم ذكر لهم سائر الفرائض من الصيام والزكاة والحج، فقال المتكلم: الله أكبر، نشهد أنه لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قد أجبناك إلى ما دعوت إليه، ونحن أعوانك وأنصارك ثم قال: يا رسول الله: إنا متاخمو الشام، وأخبارهم ترد علينا، وبالشام من قد علمت، هرقل، فهل اوحى إليك فى أمره بشىء؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبشر، فإن الشام ستفتح عليكم، ويهرب هرقل إلى ممتنع بلاده»، قال: الله أكبر، يا رسول الله، إن فينا امرأة كاهنة، كانت قريش والعرب يتحاكمون إليها، ولو قد رجعنا أقرت هى وغيرها من قومنا بالإسلام إن شاء الله، أفنسألها عن كهانتها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تسألوها عن شىء»، قال: الله أكبر، ثم سأله عن الذبائح التى كانوا يذبحون فى الجاهلية لأصنامهم، فنهاهم رسول الله ﷺ عنها، وقال، وقال: «لا ذبيحة لغير الله عز وجل ولا ذبيحة عليكم فى سنتكم إلا واحدة». قال: وما هى؟ فداك أبى وأمى، قال: «الأضحية»، قال: وأى وقت تكون؟ قال: «صبيحة العاشر من ذى الحجة، تذبح شاة عنك وعن أهلك»، قال: يا رسول الله، أهى على أهل كل بيت وجدوها؟ قال: «نعم»[1].

فأقوموا أيامًا، ثم أجازهم كما يجيز الوفود، وانصرفوا.

* * *

وفد بلى[2]

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بلى فى ربيع الأول من سنة تسع. قال رويفع ابن

---

(١) انظر الحديث فى: كنز العمال للمتقى الهندى (١٢٢٥٩).

(٢) راجع: المنتظم لابن الجوزى (٣/٣٥٥)، طبقات ابن سعد (١/٢/٦٥).

ثابت البلوى: فبلغنى قدومهم، فخرجت حتى جئتهم برأس الثنية فى أيديهم خطم رواحلهم، فرحبت بهم وقلت: المنزل على، فعدلت بهم إلى منزلى، فنزلوا، ولبسوا من صالح ثيابهم، ثم خرجت بهم حتى انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى أصحابه فى بقية فئ الغداة، فسلمت. فقال: «رويفع»، فقلت: لبيك، قال: «من هؤلاء القوم»؟ قلت: قومى، قال: «مرحبًا بك وبقومك»، قلت: يا رسول الله، قدموا وافدين عليك مقرين بالإسلام، وهم على من وراءهم من قومهم. فقال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يهده للإسلام».

قال: وتقدم شيخ الوفد أبو الضبيب فجلس بين يديه، فقال: يا رسول الله، إنا قدمنا عليك لنصدقك ونشهد أن ما جئت به حق، ونخلع ما كنا نعبد ويعبد آباؤنا قبلنا. فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذى هداكم للإسلام، فكل من مات على غير الإسلام فهو فى النار»، قال: يا رسول الله، إنى رجل لى رغبة فى الضيافة، فهل لى فى ذلك من أجر؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم، وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة»، قال: يا رسول الله، ما وقت الضيافة؟ قال: «ثلاثة أيام، فما كان بعد ذلك فصدقة، ولا يحل للضيف ان يقيم عندك فيحرجك»، قال: يا رسول الله، أرأيت الضالة من الغنم أجدها فى الفلاة من الأرض؟ قال: «لك أو لأخيك أو للذئب»، قال: فالبعير، قال: «مالك وله، دعه حتى يجده صاحبه»[1].

وسأله عن أشياء غير هذه، فأجابه عنها.

قال رويفع: ثم قاموا، فرجعوا إلى منزلى، فإذا رسول الله ﷺ يأتى منزلى يحمل تمرًا، فقال: «استعن بهذا التمر»، فكانوا يأكلون منه ومن غيره، فأقاموا ثلاثا، ثم ودعوا رسول الله ﷺ وأجازهم، ورجعوا إلى بلادهم.

* * *

ضمام بن ثعلبة[2]

وبعثت بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافدًا إلى رسول الله ﷺ فقدم عليه، وأناخ

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٢/١٨٦، ٢٠٣، ٤/١١٧)، السنن الكبرى للبيهقى (١/١٨٥، ٤/١٥٣، ٦/١٨٩، ١٩٠)، مجمع الزوائد للهيثمى (٤/١٦٨)، المعجم الكبير للطبرانى (٥/٢٨٩)، فتح البارى لابن حجر (١/١٨٦، ٥/٨٠).

(٢) انظر: السيرة (٤/١٩٨ - ٢٠٠).

بعيره على باب المسجد، ثم عقله، ثم دخل المسجدورسول الله ﷺ جالس فى أصحابه؛ وكان ضمام رجلاً جلدًا، أشعر، ذا غديرتين، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ فى أصحابه، فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنا ابن عبد المطلب». قال: أمحمد؟ قال: «نعم»؛ قال: يا ابن عبد المطلب، إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة، فلا تجدن فى نفسك، قال: «لا أجد فى نفسى، فسل عما بدا لك». قال: أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، الله بعثك إلينا رسولاً؟ قال: «اللهم نعم»، قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك: الله أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال: «اللهم نعم»، قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك: الله أمرك أن نصلى هذه الصلوات الخمس؟ قال: «اللهم نعم». ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة: الزكاة والصيام والحج، وشرائع الإسلام كلها، ينشده عند كل فريضة كما ينشده فى التى قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وسأؤدى هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتنى عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص. ثم انصرف إلى بعيره راجعًا. فقال رسول الله ﷺ: «إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة».

قال: فأتى بعيره فأطلق عقاله، ثم خرج حتى قدم على قومه، فاجتمعوا عليه، فكان أول ما تكلم به أن سب اللات والعزى، قالوا: مه يا ضمام! اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون! قال: ويلكم! إنهما والله ما تضران ولا تنفعان إن الله قد بعث رسولا، وأنزل عليه كتابًا فاستنقذكم به مما كنتم فيه، فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه.

قال: فوالله، ما أمسى من ذلك اليوم وفى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلمًا. فبنوا المساجد، وأذنوا بالصلاة، وكلما اختلفوا فى شيء قالوا: عليكم بوافدنا.

قال ابن عباس: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة[1].

واختلف فى الوقت الذى وفد فيه ضمام هذا علىالنبى ﷺ فقيل: سنة خمس. ذكره الواقدى وغيره، وقيل: سنة سبع، وقيل: سنة تسع، فالله أعلم.

* * *

---

(١) انظر الحديث فى: سنن الدارمى (١/٦٥٢)، صحيح البخارى (١/٦٣)، صحيح مسلم (١/١٠/٤١، ٤٢)، سنن النسائى (٤/٢٠٩١).

وفد عبد القيس[1]

وقدم على رسول الله ﷺ وفد عبد القيس فى جماعة رأسهم عبدالله بن عوف الأشج، فلما أتوه قال: «من الوفد؟» أو «من القوم؟» قالوا: ربيعة، قال: «مرحبا بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا الندامى»، قالوا: يا رسول الله، إنا نأتيك من شقة بعيدة، وإن بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر، وإنا لا نستطيع أن نأتيك إلا فى الشهر الحرام، فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا، ندخل به الجنة. فأمرهم بأربع، ونهاهن عن أربع.

أمرهم بالإيمان بالله وحده، وقال: «هل تدرون ما الإيمان بالله» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا خمسًا من المغنم».

ونهاهم عن الدباء والحنتم والمزفت والنقير. قالوا: يا نبى الله، ما علمك بالنقير؟ قال: «بلى، جذع ينقرونه فيقذفون فيه من القطيعاء، أو قال: من التمر ثم يصبون فيه من الماء حتى إذا سكن غليانه شربتموه، حتى أن أحدكم أو أن أحدهم ليضرب ابن عمه بالسيف»، وفى القوم رجل أصابته جراحه كذلك، قال: وكنت أخبأها حياء من رسول الله ﷺ وقد كان رسول الله ﷺ لما سلم عليه القوم سألهم: «أيكم عبدالله الأشج»؟ فقالوا: أتاك يا رسول الله. وكان عبدالله وضع ثياب سفره، وأخرج ثيابًا حسانًا فلبسها، وكان رجلاً دميمًا، فلما جاء ونظر رسول الله ﷺ إلى دمامته قال: يا رسول الله، إنه لا يستقى فى مسوك الرجال، إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه، لسانه وقلبه. فقال له رسول الله ﷺ: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم، والأناة». فقال عبدالله: يا رسول الله، أشىء حدث فى، أم شىء جبلت عليه؟ فقال: «بل شىء جبلت عليه»[2].

وكان الأشج يسائل رسول الله ﷺ عن الفقه والقرآن، فكان رسول الله يدنيه منه إذا جلس،وكان يأتى أبى بن كعب فيقرأ عليه.

---

(١) راجع: السيرة (٢٠٠ - ٢٠١). المنتظم لابن الجوزى (٣٨٢/٣)، طبقات ابن سعد (٦٤/٢/١)، تاريخ الطبرى (١٣٦/٣).

(٢) انظر الحديث فى: سنن البيهقى (١٠٤/١٠)، المعجم الكبير للطبرانى (٣١٧/٥)، مجمع الزوائد للهيثمى (٦٤/٥، ٣٨٧/٩، ٣٨٨)، الترغيب والترهيب للمنذرى (٤١٨/٣)، التاريخ الكبير= =(٥٨٥)، فتح البارى لابن حجر (٤٥٩/١٠)، مشكاة المصابيح للتبريزى (٥٠٥٤)، إتحاف السادة المتقين للزبيدى (٣١/٨)، كنز العمال للمتقى الهندى (٥٨٣٦، ٥٨٣٧).

وأمر لهم رسول الله ﷺ بجوائز، وفضل الأشج عليهم، فأعطاه اثنتى عشرة أوقية، ونشا، وذلك أكثر مما كان يجيز به الوفود.

وقدم فى هذا الوفد الجارود بن عمرو، وكان نصرانيًا، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه، فعرض عليه الإسلام، ودعا إليه، ورغبه فيه. فقال: يا محمد، إنى كنت على دين، وإنى تارك دينى لدينك، أفتضمن لى دينى؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ماهو خير منه». فأسلم وحسن إسلامه، وأراد الرجوع إلى بلاده، فسأل النبى ﷺ حملانًا، فقال: «والله ما عندى ما أحملكم عليه»، قال: يا رسول الله، فإن بيننا وبين بلادنا ضوال من ضوال الناس، أفنتبلغ عليها إلى بلادنا؟ قال: «لا»، إياك وإياها، فإنما تلك حرق النار»(١).

فخرج من عنده الجارود راجعًا إلى قومه، وكان حسن الإسلام، صليبا فى دينه، حتى هلك وقد أدرك الردة، فلما رجع من كان أسلم من قومه إلى دينهم الأول مع الغرور بن المنذر بن النعمان، قام الجارود فتشهد بشهادة الحق، ودعا إلى الإسلام، فقال: يا أيها الناس، إنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأكفر من لم يتشهد. ويروى: وأكفىء من لم يشهد(٢).

* * *

وفد بنى مرة

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بنى مرة، ثلاثة عشر رجلاً رأسهم الحارث بن عوف، وذلك منصرف رسول الله ﷺ من تبوك، جاءوه وهو فى المسجد، فقال الحارث بن عوف: يا رسول الله، إنا قومك وعشيرتك، نحن قوم من بنى لؤى بن غالب، فتبسم رسول الله ﷺ وقال للحارث: «أين تركت أهلك»؟ قال: بسلاح وما والاها قال: «فكيف البلاد؟ قال: والله، إنا لمستنون وما فى المال مخ، فادع الله لنا. قال رسول الله ﷺ: «اللهم اسقهم الغيث»، فأقاموا أيامًا، ثم أرادوا الإنصراف إلى بلادهم، فجاءوا رسول الله ﷺ مودعين له، فأمر بلالاً أن يجيزهم، فأجازهم بعشر أواق،عشر أواق فضة، وفضل الحارث بن عوف، أعطاه اثنتى عشرة أوقية، ورجعوا إلى بلادهم، فوجدوا البلاد

---

(١) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٥/٨٠)، مصنف عبد الرزاق (١٠/١٨٦٠٤)، السلسلة الصحيحة للألبانى (٦٢٠).

(٢) انظر: السيرة (٤/٢٠١).

مطيرة، فسألوا: متى مطرتم؟ فإذا هو ذلك اليوم الذى دعا رسول الله ﷺ فيه.

فقدم عليه قادم بعد وهو يتجهز لحجة الوداع، فقال: يا رسول الله، رجعنا إلى بلادنا فوجدناها مضبوطة مطرًا، لذلك اليوم الذى دعوت لنا فيه، ثم قلدتنا أقلاد الزرع فى كل خمس عشرة ليلة مطرة جودًا، ولقد رأيت الإبل تأكل وهى بروك، وإن غنمنا ما توارى من أبياتنا، فترجع فتقيل فى أهلنا. فقال رسول الله: «الحمد الله الذى هو صنع ذلك[1]».

* * *

وفد خولان

وقدم على رسول الله ﷺ فى شعبان من سنة عشر وفد خولان، وهم عشرة، فقالوا: يا رسول الله، نحن على من وراءنا من قومنا، ونحن مؤمنون بالله عز وجل مصدقون برسوله، قد ضربنا إليك آباط الإبل، وركبنا حزون الأرض وسهولها، والمنة لله ولرسوله علينا، وقدمنا زائرين لك. فقال رسول الله ﷺ: «أما ذكرتم من مسيركم إلى فإن لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة، وأما قولكم زائرين لك، فإنه من زارنى بالمدينة كان فى جوارى يوم القيامة». قالوا: يا رسول الله، هذا السفر الذى لا توى عليه. ثم قال رسول الله ﷺ: «ما فعل عم أنس؟» وهو صنم خولان الذى كانوا يعبدونه قالوا: بشر وعر، بدلنا الله به ما جئت به، وقد بقيت منا بعد بقايا من شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به، ولو قد قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله فقد كنا فى غرور وفتنة يا رسول الله، إن فتنته كانت أعظم مما عسينا أن نذكره لك، فالحمد لله الذى من علينا بك، وتنقذنا من الهلكة، وما مضى عليه الآباء من عبادته، قال رسول الله ﷺ: «وما أعظم ما رأيتم من فتنته؟» قالوا: يا رسول الله، لقد رأيتنا وأسنتنا حتى أكلنا الرمة، ومات الولدان غرمًا، وهلكت ناغيتنا وراعيتنا وحافرنا أو ما ذهب منها. فقلنا، أو من قال منا: قربوا لعم أنس قربانًا يشفع لكم، فتغاثوا فتعاونوا، فجمعنا ما قدرنا عليه من عين مالنا، ثم ذهب ذاهبنا فابتاع مائة ثور، ثم حشرها علينا، فنحرناها فى غداة واحدة، وتركناها تردها السباع، ونحن أحوج إليها من السباع، فجاءنا الغيث من ساعتنا، فأى فتنة أعظم من هذه، فلقد رأينا العشب يوارى الرجال، ويقول قائلنا: أنعم علينا عم أنس.

---

(١) انظر الحديث فى: البداية والنهاية لابن كثير (٥/٨٩)، دلائل النبوة لأبى نعيم (١٦٠)، طبقات ابن سعد (١/٢/٤٣).

وذكروا لرسول الله ﷺ ما كانوا يقسمون لصنمهم هذا من أنعامهم وحروثهم، وأنهم كانوا يجعلون من ذلك جزءًا له وجزءًا لله بزعمهم.

قالوا: كنا نزرع الزرع، فنجعل له وسطه، فنسميه له، ونسمى زرعًا آخر حجرة لله جل وعز فإذا مالت الريح بالذى سميناه لله جعلناه لعم أنس، وإذا مالت الريح بالذى جعلناه لعم أنس لم نجعله لله.

فذكر لهم رسول الله ﷺ أن الله عز وجل أنزل عليه فى ذلك: ﴿**وجعلوا لله مما ذارأ من الحرث والأنعام نصيبًا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون**﴾ [الأنعام: ١٣٦]. قالوا: وكنا نتحاكم إليه فنكلم. فقال رسول الله ﷺ: «تلك الشياطين تكلمكم». قالوا: فأصبحنا يا رسول الله، وقلوبنا تعرف أنه كان لا يضر ولا ينفع، ولا يدرى من عبده ممن لم يعبده. فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذى هداكم وأكرمكم بمحمد ﷺ ». وسألوه عن فرائض الدين، فأخبرهم وأمرهم بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحسن الجوار لمن جاوروا، وأن يظلموا أحدًا. قال: «فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»(١).

ثم أمر بهم فأنزلوا دار رملة وأمر لهم بضيافة تجرى عليهم، وأمر من يعلمهم القرآن والسنن، ثم ودعوه بعد أيام، فأجازهم، ورجعوا إلى قومهم فلم يحلوا عقدة حتى هدموا عم أنس.

* * *

وفد محارب(٢)

وقدم على رسول الله ﷺ عام حجة الوداع وفد محارب، وهم كانوا أغلظ العرب، وأفظه على رسول الله ﷺ فى تلك المواسم، أيام عرضه نفسه على القبائل يدعوهم إلى الله، فجاء رسول الله ﷺ منهم عشرة نائبين عن من وراءهم من قومهم، فأسلموا.

وكان بلال يأتيهم بغذاء وعشاء إلى أن جلسوا مع رسول الله ﷺ يومًا من الظهر إلى العصر، فعرف رجلاً منهم، فأبداه النظر، فلما رآه المحاربى يديم النظر إليه، قال: كأنك

---

(١) انظر الحديث فى: صحيح مسلم كتاب البر والصلة (٥٦، ٥٧)، مسند الإمام أحمد (١٠٦/٢، ١٩٥، ٣٢٣/٣)، سنن البيهقى الكبرى (٩٣/٦، ١٣٤/١٠، ٢٤٣)، جمع الجوامع للسيوطى (٥٦٨٧)، الدر المنثور للسيوطى (١٩٦/٦)، إتحاف السادة المتقين للزبيدى (١٩٣/٨).

(٢) راجع: المنتظم لابن الجوزى (٣٨١/٣).

يا رسول الله توهمني. قال: «لقد رأيتك». فقال المحاربي: أي والله، لقد رأيتني وكلمتني، وكلمتك بأقبح الكلام ورددتك بأقبح الرد بعكاظ وأنت تطوف على الناس. فقال رسول الله ﷺ: «نعم». ثم قال المحاربي: يا رسول الله، ما كان في أصحابي أشد عليك يومئذ ولا أبعد من الإسلام مني، فأحمد الله الذي أبقاني حتى صدقت بك، ولقد مات أولئك النفر الذين كانوا معي على دينهم. فقال رسول الله ﷺ: «إن هذه القلوب بيد الله عز وجل». فقال المحاربي: يا رسول، استغفر لي من مراجعتي إياك. فقال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام يجب ما كان قبله من الكفر»(١). ثم انصرفوا إلى أهليهم.

* * *

وفد طيء(٢)

وقدم على رسول الله ﷺ وفد وطيء، فيهم زيد الخيل(٣)، وهو سيدهم؛ فلما انتهوا إليه كلموه، وعرض عليهم الإسلام، فأسلموا، فحسن إسلامهم؛ وقال رسول الله ﷺ: «ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني، إلا رأيته دون ما يقال فيه، إلا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ كل ما فيه»، ثم سماه زيد الخير، وقطع له فيدًا وأرضين معه؛ وكتب له بذلك كتابًا، فخرج من عنده راجعًا إلى قومه؛ فقال رسول الله ﷺ: «إن ينج زيد من حمى المدينة» يسميها رسول الله ﷺ يومئذ باسم غير الحمى، وغير أم ملدم.

وقال زيد حين انصرف:

أنيخت بآجام المدينة أربعًا ... وعشرًا يغني فوقها الليل طائر
فلما قضى أصحابها كل بغية ... وخط كتابًا في الصحيفة ساطر
شددت عليها رحلها وسليلها ... من الدرس والشعراء والبطن ضامر

فلما انتهى زيد من بلد نجد إلى ماء من مياهه، يقال له: فردة أصابته الحمى، فمات. وقال لما أحس بالموت(٤):

أمرتحل قومي المشارقي غدوة ... وأترك في بيت بفردة منجد

---

(١) انظر الحديث في: طبقات ابن سعد (١/٢/٤٣)، البداية والنهاية لابن كثير (٥/٨٩).
(٢) راجع: المنتظم لابن الجوزي (٣/٣٥٦)، طبقات ابن سعد (١/٢/٥٩، ٦٥).
(٣) انظر ترجمته في: الاستيعاب الترجمة رقم (٨٦٦)، الإصابة الترجمة رقم (٢٩٤٨)، أسد الغابة الترجمة رقم (١٨٧٧).
(٤) انظر الأبيات في السيرة (٤/٢٠٣).

ألا رب يوم لو مرضت لعادنى   عوائد من لم يشف منهن يجهد
فليت اللواتى عدننى لم يعدننى   وليت اللواتى غبن عنى شهد

فلما مات عمدت امرأته إلى ما كان من كتبه التى قطع له رسول الله ﷺ فحرقتها بالنار[1].

وأما عدى بن حاتم[2]، فكان يقول فيما ذكر عنه: ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به منى، أما أنا فكنت امرأ شريفًا، وكنت نصرانيًا، وكنت أسير فى قومى بالمرباع، فكنت فى نفسى على دين. وكنت ملكًا فى قومى، لما كان يصنع بى قومى، وما كان يصنع فى أهل دينى، فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته، فقلت لغلام كان لى عربى وكان راعيًا لإبل لى: لا أبا لك، أعدد لى من إبلى أجمالاً ذللاً سمانًا، فاحتبسها قريبًا منى، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطىء هذه البلاد فآذنى؛ ففعل، ثم إنه أتانى ذات غداة، فقال: يا عدى، ما كنت صانعًا إذا غشيك خيل محمد فاصنعه الآن، فإنى قد رأيت رايات، فسألت عنها، فقالوا: هذه جيوش محمد، قلت: فقرب إلى أجمالى، فقربها، فاحتملت بأهلى وولدى، ثم قلت: ألحق بأهل دينى من النصارى بالشام، وخلفت بنتا لحاتم فى الحاضر، فلما قدمت الشام أقمت بها.

وتخالفنى خيل رسول الله ﷺ فتصيب بنت حاتم فيمن أصابت، فقدم بها على رسول الله ﷺ فى سبايا من طىء، فجعلت بنت حاتم فى حظيرة بباب المسجد، كانت السبايا تحبس فيها، فمر بها رسول الله ﷺ وقد كان بلغه هربى إلى الشام، فقامت إليه، وكانت امرأة جزلة، فقالت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن علىّ من الله عليك، قال: «ومن وافدك؟» قالت عدى بن حاتم. قال: «الفار من الله ورسوله؟» قالت: ثم مضى وتركنى، حتى إذا كان من الغد مر بى، فقلت له مثل ذلك، وقال لى مثل ما قال بالأمس. قالت: حتى إذا كان بعد الغد مر بى وقد يئست، فأشار إلى رجل من خلفه أن قومى فكلميه؛ فقمت إليه، فقلت: يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب

---

(١) انظر الحديث فى: طبقات ابن سعد (٥٩/٢/١)، تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٦/٦)، دلائل النبوة للبيهقى (٣٣٧/٥)، تاريخ الطبرى (٢٠٣/٢).

(٢) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٨٠٠)، الإصابة الترجمة رقم (٥٤٩١)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٦١٠)، طبقات خليفة (٤٦٣، ٩٠٤)، مروج الذهب (١٩٠/٣)، جمهرة أنساب العرب (٤٠٢)، تاريخ بغداد (١٨٩/١)، تاريخ الإسلام (٤٦/٣)، تهذيب التهذيب (١٦٦/٧)، تهذيب الكمال (٩٢٥)، خلاصة تذهيب الكمال (٢٢٣)، سير أعلام النبلاء (١٦٢/٣)، شذرات الذهب (٧٤/١).

الوافد، فامنن على من الله عليك؛ قال رسول الله ﷺ: «قد فعلت، فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة، حتى يبلغك إلى أهلك، ثم آذنينى».

فسألت عن الرجل الذى أشار إلى أن كلميه، فقيل: على بن أبى طالب، وأقمت حتى قدم ركب من بلى أو قضاعة، وإنما أريد أن آتى أخى بالشام، فجئت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد قدم رهط من قومى، لى فيهم ثقة وبلاغ. فكسانى رسول الله ﷺ وحملنى، وأعطانى نفقة، فخرجت معهم حتى قدمت الشام.

قال عدى: فوالله إنى لقاعد فى أهلى، إذ نظرت إلى ظعينة تصوب إلى تؤمنا، قلت: ابنة حاتم؟ فإذا هى هى، فلما وقفت على انسحلت تقول: القاطع الظالم، احتملت بأهلك وولدك، وتركت بقية والدك عورتك، قلت: أى أخية، لا تقولى إلا خيرًا، فوالله ما لى من عذر، لقد صنعت ما ذكرت.

ثم نزلت فأقامت عندى، فقلت لها، وكانت امراة حازمة: ماذا ترين فى أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعًا، فإن يكن الرجل نبيًا فللسابق إليه فضله، وإن يك ملكًا فلن تذل فى عز اليمن، وأنت أنت، قلت: والله، إن هذا للرأى.

فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه، وهو فى مسجده، فسلمت عليه، فقال: «من الرجل؟» فقلت: عدى بن حاتم؛ فقام رسول الله ﷺ فانطلق بى إلى بيته، فوالله إنه لعامد بى إليه، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه فى حاجتها؛ قال: قلت فى نفسى: والله ما هذا بملك، قال: ثم مضى بى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بى بيته، تناول وسادة من أدم محشوة ليفًا، فقذفها إلى؛ فقال: «اجلس على هذه»، قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها، قال: «بل أنت»، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض؛ فقلت فى نفسى: والله ما هذا بأمر ملك، ثم قال: «إيه يا عدى بن حاتم! ألم تك ركوسيًا؟» قلت: بلى، قال: «أولم تكن تسير فى قومك بالمرباع؟» قلت: بلى، قال: «فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك»؛ قلت: أجل والله، وعرفت أنه نبى مرسل يعلم ما يجهل، ثم قال: «لعلك يا عدى إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه؛ ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف؛ ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك

والسلطان فى غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم»[١]. قال: فأسلمت.

وكان عدى يقول: مضت اثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكونن. قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت، وأيم الله لتكونن الثالثة، ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه.

* * *

وفد كندة[٢]

وقدم على رسول الله ﷺ الأشعث بن قيس فى ثمانين راكبًا من كندة، فدخلوا على رسول الله ﷺ مسجده، قد رجلوا جممهم وتكحلوا، عليهم جباب [الحبرة][٣]، قد كففوها بالحرير، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ قال: «ألم تسلموا؟» قالوا: بلى، قال: «فما بال هذا الحرير فى أعناقكم؟»، قال: فشقوه منها، فألقوه.

ثم قال له الأشعث بن قيس[٤]: يا رسول الله، نحن بنو آكل المرار، وأنت ابن آكل المرار. فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب، وربيعة ابن الحارث، وكانا إذا خرجا تاجرين فضربا فى بعض العرب فسئلا ممن هما؟ قالا: نحن آكل المرار، يتعززان بذلك، وذلك أن كندة كانوا ملوكًا». ثم قال لهم: لا، بل نحن بنو النضر بن كنانة، لا تقفو أمنا، ولا ننتفى من أبينا»[٥]. وقال جندب بن مكيث[٦]: لقد

---

(١) انظر الحديث فى: مجمع الزوائد للهيثمى (٥/٣٣٥)، مستدرك الحاكم (٤/٥٨١).

(٢) راجع: السيرة (٤/٢٠٩ - ٢١٠). المنتظم لابن الجوزى (٣/٣٨٢)، طبقات ابن سعد (١/٢/٦٤)، تاريخ الطبرى (٢/٦٤).

(٣) ما بين المعقوفتين كذا فى الأصل، وفى السيرة: «الحيرة». وجبب الحيرة: الجبب جمع جبة، وهو ضرب من الثياب، والحيرة: ضرب من برود اليمن.

(٤) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٣٥)، الإصابة الترجمة رقم (٢٠٥)، أسد الغابة الترجمة رقم (١٨٥)، تهذيب التهذيب (١/٣٥٩)، تهذيب الكمال (١١٩)، خلاصة تذهيب الكمال (٣٩)، العبر (١/٤٢، ٤٦)، تاريخ خليفة (١١٦، ١٩٣، ١٩٩).

(٥) انظر الحديث فى: مسند الإمام أحمد (٥/٢١١، ٢١٢)، سنن ابن ماجه (٢٦١٢)، التاريخ الصغير للبخارى (١١، ١٢)، التاريخ الكبير للبخارى (٧/٢٧٤). مصنف عبد الرزاق (١١/٧٤).

رأيت رسول الله ﷺ يوم قدم وفد كندة عليه حلة يمانية يقال: إنها حلة ابن ذى يزن، وعلى أبى بكر وعمر مثل ذلك.

وكان رسول الله ﷺ إذا قدم عليه الوفد لبس أحسن ثيابه، وأمر عليه أصحابه بذلك.

* * *

وفد صداء

وقدم على رسول الله ﷺ وفد صداء فى سنة ثمان، وذلك أن رسول الله ﷺ لما انصرف من الجعرانة بعث بعوثًا إلى اليمن، وهيأ بعثًا استعمل عليهم قيس بن سعد بن عبادة، وعقد له لواءً أبيض، ورفع له راية سوداء، وعسكر بناحية قناة فى أربعمائة من المسلمين، وأمره أن يطأ ناحية من اليمن كان فيها صداء، فقدم على رسول الله ﷺ رجل منهم وعلم بالجيش، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، جئتك وافدًا على من ورائى، فاردد الجيش وأنا لك بقومى، فرد رسول الله ﷺ قيس بن سعد من صدور قناة، وخرج الصدائى إلى قومه، فقدم على رسول الله ﷺ خمسة عشر رجلاً منهم، فقال سعد ابن عبادة: يا رسول الله، دعهم ينزلوا على، فنزلوا عليه، فحياهم وأكرمهم وكساهم، ثم راح بهم إلى النبى ﷺ فبايعوه على الإسلام، وقالوا: نحن: لكن على من وراءنا من قومنا، فرجعوا إلى قومهم ففشا فيهم الإسلام، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل فى حجة الوداع.

ذكر هذا الواقدى عن بعض بنى المصطلق. وذكر من حديث زياد بن الحارث الصدائى أنه الذى قدم على رسول الله ﷺ، فقال له: أردد الجيش، وأنا لك بقومى. فردهم.

قال: وقدم وفد قومى، عليه، فقال لى: «يا أخا صداء، إنك لمطاع فى قومك»، قال: قلت: بلى من الله عز وجل ومن رسوله، وكان زياد هذا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره. قال: فاعتشى رسول الله ﷺ أى سار ليلاً واعتشينا معه، وكنت رجلاً قويًا، قال: فجعل أصحابه يتفرقون عنه، ولزمت عرزه، فلما كان فى السحر قال: «أذن يا أخا صداء»، فأذنت على راحلتى، ثم سرنا حتى نزلنا، فذهب لحاجته، ثم رجع فقال: «يا

---

(٦) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٣٤٥)، الإصابة الترجمة رقم (٢٣١)، أسد الغابة الترجمة رقم (٨٠٧)، تجريد أسماء الصحابة (٩١/١)، تقريب التهذيب (١٧٣/١)، الثقات (٥٧/٣)، الوافى بالوفيات (١٩٤/١١)، الجرح والتعديل (٢١٠٣/٢).

أخا صداء، هل معك ماء؟» قلت: معي شيء في إداوتي. فقال: «هاته» فجئت به، فقال: «صب»، فصببت ما في الإداوة في القعب، وجعل أصحابه يتلاحقون، ثم وضع كفه على الإناء، فرأيت بين كل أصبعين من أصابعه عينًا تفور، ثم قال: «يا أخا صداء، لولا انى أستحي من ربي لسقينا واستقينا»، ثم توضأ، وقال: «أذن في صحابي. من كانت له حاجة بالوضوء فليرد». قال: فوردوا من آخرهم، ثم جاء بلال يقيم، فقال رسول الله ﷺ: «إن أخا صداء قد أذن، ومن أذن فهو يقيم»، فأقمت، ثم تقدم رسول الله ﷺ فصلى بنا، وكنت سألته قبل أن يؤمرني على قومي ويكتب لي بذلك كتابًا، ففعل، فلما سلم يريد من صلاته قام رجل يتشكى من عامله، فقال: يا رسول الله، إنه أخذنا بدخول كانت بيننا وبينه في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «لا خير في الإمارة لرجل مسلم، ثم قام رجل فقال: يا رسول الله، أعطني من الصدقة، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يكل قسمها إلى ملك مقرب، ولا نبي مرسل، حتى جزأها على ثمانية أجزاء، فإن كانت جزءًا منها أعطيتك، وإن كنت عنها غنيًا فإنما هو صداع في الرأس وداء في البطن». فقلت في نفسي: هاتان خصلتان حين سألت الإمارة وأنا رجل مسلم وسألته من الصدقة وأنا غني عنها، فقلت: يا رسول الله، هذان كتاباك فاقبلهما، فقال رسول الله ﷺ: «ولم؟» قلت: إني سمعتك تقول: «لا خير في الإمارة لرجل مسلم وأنا مسلم»، وسمعتك تقول: «من سأل من الصدقة وهو عنها غني فإنما هي صداع في الرأس وداء البطن»، وأنا غني. فقال رسول الله ﷺ: «أما إن الذي قلت كما قلت لك»، فقتلهما رسول الله ﷺ ثم قال: دلني على رجل من قومك استعمله، فدللته على رجل فاستعمله، قلت: يا رسول الله، إن لنا بئرًا إذا كان الشتاء كفانا ماؤها، وإذا كان الصيف قل علينا فتفرقنا على المياه، والإسلام اليوم فينا قليل، ونحن نخاف، فادع الله عز وجل لنا في بئرنا. فقال رسول الله ﷺ: «ناولني سبع حصيات»، فناولته فعركهن بيده، ثم دفعهن إلى، وقال: «إذا انتهيت إليها فألق فيها حصاة حصاة وسم الله». قال: ففعلت، فما أدركنا لها قعرًا حتى الساعة[1].

* * *

(١) انظر الحديث في: المعجم الكبير للطبراني (٥/٣٠٣)، طبقات ابن سعد (١/٢/٦٣)، دلائل النبوة للبيهقي (٥/٣٥٥)، كنز العمال للمتقي الهندي (٣٧٠٧٥)، مجمع الزوائد للهيثمي (٥/٢٠٣).

وفد غسان(١)

وقدم على رسول الله ﷺ وفد غسان.

قالوا أومن قاله منهم فيما ذكر الواقدى عنهم: قدمنا على رسول الله ﷺ فى رمضان سنة عشر، ونحن ثلاثة نفر، فلما كنا برأس الثنية لقينا رجل على فرس متنكب قوسًا، فحيانا بتحية الإسلام، فرددنا عليه تحيتنا، فقال: من أنتم؟ قلنا: رهط من غسان، قد قدمنا على محمد نسمع من كلامه ونرتاد لقومنا، قال: فانزلوا حيث ينزل الوفد، قلنا: وأين ينزل الوفد؟ قال: دار رملة بنت الحارث، ويقال: الحارث، ثم ائتوا رسول الله ﷺ فكلموه، قلنا: ونقدر عليه كلما أردنا؟ قال: فتبسم، فقال: أى لعمرى، إنه ليطوف بالأسواق ويمشى وحده، وكنا قومًا نسمع كلام النصارى وصفتهم رسول الله ﷺ، وأنه يمشى وحده لا شرطة معه، ويرعب من يراه منهم، فقلنا للرجل: من أنت لك الجنة؟ قال: أنا أبو بكر بن أبى قحافة، فقلنا: أنت فيما يزعم النصارى تقوم بهذا الأمر بعده، قال أبو بكر: الأمر إلى الله عز وجل، ثم قال: كيف تخدعون عن الإسلام وقد خبركم أهل الكتاب بصفته، وأنه آخر الأنبياء؟ قلنا: هو ذاك، فمضى ومضينا نسأل عن دار رملة حتى انتهينا إليها فنصادف وفودًا من العرب كلهم مصدق بمحمد ﷺ، فقلنا فيما بيننا: أترانا شر من نزى من العرب؟ ثم خرجنا حتى نلقى رسول الله ﷺ عند باب المسجد واقفًا، فأمدنا ببصره، وقال: «أنتم الغسانيون؟» قلنا: نعم، قال: «قدمتم مرتادين لقومكم فما انتفعتم بعلم من كان معكم من أهل الكتاب». قلنا: يا محمد، لم نر أحدًا منهم اتبعك، فوقفنا عنك لذلك، ونحن الآن على غير ما كنا عليه، فالإم تدعو؟ قال: «أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وخلع ما دعى من دونه، وأنى رسول الله». قال قائلهم: فمن معك من اتباعك؟ قال: «الله جل وعز معى والملائكة: جبريل وميكائيل، والأنبياء، وصالح المؤمنين»، ثم التفت ونظر إلى عمر، ولم ير أبا بكر، فقال: «هذا وصاحبه»، قلنا: ابن أبى قحافة؟ قال: «نعم»، قلنا: إنك لتأوى إلى ركن شديد، وقد صدقناك، وشهدنا أن ما جئت به حق، ولا ندرى أيتبعنا قومنا أم لا، وهم يحبون بقاء ملكهم وقرب قيصر(٢).

ثم أسلموا، وأجازهم رسول الله ﷺ بجوائز، وانصرفوا راجعين، فقدموا على قومهم،

---

(١) راجع: المنتظم لابن الجوزى (٣/٣٨٢)، طبقات ابن سعد (١/٢/٧١)، تاريخ الطبرى (٣/١٣٠).

(٢) انظر الحديث فى: تاريخ الطبرى (٣/١٣٠)، طبقات ابن سعد (١/٢/٧١).

فلم يستجيبوا لهم، وكتموا إسلامهم حتى مات منهم رجلان على الإسلام، وأدرك الثالث منهم عمر بن الخطاب عام اليرموك، فلقى أبا عبيدة فخبره بإسلامه، فكان يكرمه.

* * *

وفد سلامان(١)

وذكر الواقدى أيضًا بإسناد له: أن خبيب بن عمرو السلامانى كان يحدث قال: قدمنا وفد سلامان على رسول الله ﷺ، ونحن سبعة نفر، فانتهينا إلى باب المسجد، فصادفنا رسول الله ﷺ خارجًا منه إلى جنازة دعى إليها، فلما رأيناه قلنا يا رسول الله، السلام عليك. فقال رسول الله ﷺ: «وعليكم السلام، من أنتم؟» قلنا: نحن من سلامان، قدمنا عليك لنبايعك على الإسلام، ونحن على من وراءنا من قومنا. فالتفت إلى ثوبان غلامه، فقال: «أنزل هؤلاء حيث ينزل الوفد»، فخرج بنا ثوبان حتى انتهى بنا إلى دار واسعة فيها نخل وفيها وفود من العرب، وإذا هى دار رملة بنت الحارث النجارية، فلما سمعنا أذان الظهر خرجنا إلى الصلاة، فقمنا على باب رسول الله ﷺ حتى خرج إلى المسجد، فصلى بالناس وهو يتصفحنا، ودخل بيته فلم يلبث أن خرج، فجلس فى المسجد بين المنبر وبين بيته، وجلست عليه أصحابه، عن يمينه وعن شماله، فرأيت رجلاً هو أقرب القوم منه، يكثر ما يلتفت إليه، ويحدثه. فسألت عنه، فقيل: أبو بكر بن أبى قحافة، وجئنا فجلسنا تجاه وجهه، وجعل الوفد يسألونه عن شرائع الإسلام، فلم يكد سائلهم يقطع حتى خشيت أن يقوم رسول الله ﷺ فقلت: إنا نريد ما تريد، فتبسم رسول الله ﷺ وأسكت السائل، فقلت: أى رسول الله، ما أفضل الأعمال؟ قال: «الصلاة فى وقتها»، ثم ذكر حديثًا طويلاً.

قال: ثم جاء بلال، فأقام الصلاة، فقام رسول الله ﷺ، فصلى بالناس العصر، فكانت صلاة العصر أخف فى القيام من الظهر، ثم دخل بيته، فلم ينشب أن خرج فجلس فى مجلسه الأول، وجلس معه أصحابه، وجئنا فجلسنا، فلما رآنى قال: «يا أخا سلامان»، قلت: لبيك، قال: «كيف البلاد عندكم؟» قلت: أى رسول الله، مجدبة، وما لنا خير من البلاد، فادع الله أن يسقينا فى بلادنا، فنقر فى أوطاننا ولا نسير إلى بلاد غيرنا، فإن النجع تفرق الجميع وتشتت الديار. فقال رسول الله ﷺ بيده: «اللهم اسقهم الغيث فى

---

(١) راجع: المنتظم لابن الجوزى (٣/٣٨٠ - ٣٨١).

ديارهم»، فقلت: يا رسول الله، ارفع يديك، فإنه أكثر وأطيب، فتبسم رسو الله ﷺ، ورفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه، ثم قام وقمنا عنه، فأقمنا ثلاثًا وضيافته تجرى علينا، ثم ودعناه، وأمر لنا بجوائز، فأعطينا خمس أواقى، لكل رجل منا، واعتذر إلينا بلال، وقال: ليس عندنا مال اليوم، فقلنا: ما أكثر هذا وأطيبه، ثم رحلنا إلى بلادنا فوجدناها قد مطرت فى اليوم الذى دعا فيه رسول الله ﷺ فى تلك الساعة(١).

قال الواقدى: وكان مقدمهم على رسول الله ﷺ فى شوال سنة عشر.

* * *

وفد بنى عبس

قال: وقدم على رسول الله ﷺ وفد بنى عبس، فقالوا: يا رسول الله، قدم علينا قراؤنا، فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له، ولنا أموال ومواش، وهى معايشنا، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له فلا خير فى أموالنا، بعناها وهاجرنا من آخرنا، فقال رسول الله ﷺ: «اتقوا الله حيث كنتم، فلن يلتكم الله من أعمالكم شيئًا»، وسألهم رسول الله ﷺ عن خالد بن سنان، هل له عقب؟ فأخبروه أنه لا عقب له، كانت له ابنة فانقرضت، وأنشأ رسول الله ﷺ يحدث أصحابه عن خالد بن سنان، فقال: «نبى ضيعه قومه»(٢).

* * *

وفد الأزد ووفد جرش(٣)

قال ابن إسحاق(٤): وقدم على رسول الله ﷺ صرد بن عبدالله الأزدى، فأسلم، وحسن إسلامه، فى وفد من الأزد، فأمره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه. وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن.

فخرج صرد بن عبدالله يسير بأمر رسول الله ﷺ حتى نزل بجرش، وهى يومئذ مدينة مغلقة، وبها قبائل من قبائل اليمن، وقد ضوت إليها خثعم، فدخلوها معهم حين

(١) انظر الحديث فى: طبقات ابن سعد (١/٢/٦٧).
(٢) انظر الحديث فى: طبقات ابن سعد (١/٢/٤٢).
(٣) راجع: المنتظم لابن الجوزى (٣/٣٨١)، طبقات ابن سعد (١/٢/٧١)، تاريخ الطبرى (٣/١٣٠)، البداية والنهاية (٥/٨٤).
(٤) انظر: السيرة (٤/٢١١ - ٢١٢).

سمعوا بمسير رسول الله ﷺ إليهم، فحاصروهم فيها قريبًا من شهر، وامتنعوا فيها منه، ثم إنه رجع عنهم قافلاً، حتى إذا كان إلى جبل يقال له: شكر، ظن أهل جرش أنه إنما ولى عنهم منهزمًا، فخرجوا فى طلبه، حتى إذا أدركوه عطف عليهم، فقتلهم قتلاً شديدًا.

وقد كان أهل جرش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يرتادان وينظران؛ فبينما هما عند رسول الله ﷺ عشية بعد العصر، إذ قال رسول الله ﷺ: «بأى بلاد الله شكر؟» فقال الجرشيان: ببلادنا جبل يقال له: كشر وكذلك يسميه أهل جرش فقال: «إنه ليس بكشر، ولكنه شكر»، قالا: فما شأنه يا رسول الله؟ قال: «إن بدن الله لتنحر عنده الآن»، فجلس الرجلان إلى أبى بكر أو إلى عثمان، فقال لهما: ويحكما! إن رسول الله ﷺ الآن لينعى لكما قومكما، فقوموا فاسألاه أن يدعو الله ان يرفع عن قومكما؛ فقاما إليه، فسألاه عن ذلك، فقال: «اللهم ارفع عنهم»، فخرجا من عند رسول الله ﷺ راجعين إلى قومهما، فوجدوا قومهما أصابهم صرد بن عبدالله فى اليوم الذى قال فيه رسول الله ﷺ ما قال: وفى الساعة التى ذكر فيها ذكر(1).

فخرج وفد جرش حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأسلموا، وحمى لهم حمى حول قريتهم، على أعلام معلومة، للفرس والراحلة وللميرة، بقرة الحرث، فمن رعاه من الناس فماله سحت.

فقال فى تلك الغزوة رجل من الأزد، وكانت خثعم تصيب من الأزد فى الجاهلية، وكانوا يعدون فى الشهر الحرام(2):

يا غزوة ما غزونا غير خائبة ... فيها البغال وفيها الخيل والحمر
حتى أتينا حميرًا فى مصانعها ... وجمع خثعم قد شاعت لها النذر
إذا وضعت غليلا كنت أحمله ... فما أبالى أدانوا بعد أم كفروا

* * *

وفد غامد

قال الواقدى: وقدم على رسول الله ﷺ وفد غامد سنة عشر، وهم عشرة، فنزلوا فى

---

(١) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٣٧٢/٥، ٣٧٣)، البداية والنهاية لابن كثير (٧٤/٥، ٧٥).

(٢) انظر الأبيات فى: السيرة (٢١٢/٤).

بقيع الغرقد، وهو يومئذ أثل وطرفاء، ثم انطلقوا إلى رسول الله ﷺ وخلفوا فى رحلهم أحدثهم سنًا، فنام عنه، وأتى سارق فسرق عيبة لأحدهم فيها أثواب له، وانتهى القوم إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه وأقروا له بالإسلام، وكتب لهم كتابًا فيه شرائع الإسلام، وقال لهم: «من خلفتم فى رحالكم؟» قالوا: أحدثنا يا رسول الله، قال: «فإنه قد نام عن متاعكم حتى أتى آت فأخذ عيبة أحدكم»، فقال أحد القوم: يا رسول الله، ما لأحد من القوم عيبة غيرى. فقال رسول الله ﷺ: «قد أخذت، وردت إلى موضعها» فخرج القوم سراعًا حتى أتوا رحلهم، فوجدوا صاحبهم، فسألوه عما خبرهم رسول الله ﷺ، فقال: فزعت من نومى ففقدت العيبة، فقمت فى طلبها، فإذا رجل قد كان قاعدًا، فلما رآنى ثار يعدو منى، فانتهيت إلى حيث انتهى، فإذا أثر حفر، وإذا هو قد غيب العيبة، فاستخرجتها، فقالوا: نشهد أنه رسول الله، فإنه قد أخبرنا بأخذها، وأنها قد ردت، فرجعوا إلى النبى فأخبروه، وجاء الغلام الذى خلفوه فأسلم.

وأمر النبى ﷺ أبى بن كعب[1]، فعلمهم قرآنًا، وأجازهم ﷺ كما كان يجيز الوفود، وانصرفوا.

* * *

وفد بنى الحارث بن كعب[2]

قال ابن إسحاق[3]: وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثًا، فإن استجابوا فأقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم، فخرج خالد بن الوليد حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون فى كل وجه، ويدعون إلى الإسلام، ويقولون: أيها الناس، أسلموا تسلموا، فأسلم الناس، ودخلوا فيما دعوا إليه،

---

(١) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٦)، الإصابة الترجمة رقم (٣٢)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٤)، طبقات خليفة (٨٨، ٨٩)، تاريخ خليفة (١٦٧)، الجرح والتعديل (٢/٢٩٠)، حلية الأولياء (١/٢٥٠)، شذرات الذهب (١/٣٢، ٣٣)، تهذيب التهذيب (١/١٨٧)، تهذيب الكمال (٧٠)، خلاصة تذهيب الكمال (٢٤)، طبقات القراء (١/٣١)، تذكرة الحفاظ (١/١٦)، العبر (١/٢٣)، الاستبصار (٤٨).

(٢) راجع: المنتظم لابن الجوزى (٣/٣٧٩ - ٣٨٠)، طبقات ابن سعد (١/٢/٧٢)، تاريخ الطبرى (٣/١٢٦)، البداية والنهاية (٥/٨٨).

(٣) انظر: السيرة (٤/٢١٥ - ٢١٧).

فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه، وبذلك كان أمره رسول الله ﷺ إن هم أسلموا ولم يقاتلوا. ثم كتب خالد إلى رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمد النبى رسول الله من خالد بن الوليد، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو: أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك فإنك بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعب، وأمرتنى إذا أتيتهم أن لا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام، فإن أسلموا قبلت منهم، وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه، وإن لم يسلموا قاتللهم، وإنى قدمت عليهم، فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، كما أمرنى رسول الله ﷺ وبعثت فيهم ركبانا، فقالوا: يا بنى الحارث، أسلموا تسلموا، فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيم بين أظهرهم، آمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عن ما نهاهم الله عنه، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبى ﷺ حتى يكتب إلى رسول الله ﷺ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته.

فكتب إليه رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبى، رسول الله إلى خالد بن الوليد، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو. أما بعد، فإن كتابك جاءنى مع رسولك يخبر أن بنى الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام، وشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه فبشرهم وأنذرهم وأقبل وليقبل معك وفدهم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

فأقبل خالد إلى رسول الله ﷺ وأقبل معه وفد بنى الحارث بن كعب، منهم قيس بن الحصين(١) ذو الغصة، ويزيد بن عبد المدان(٢)، ويزيد بن المحجل، وعبدالله بن قراد الزيادى(٣)، وشداد بن عبدالله القنانى(٤)، وعمرو بن عبدالله الضبابى(٥)، فلما قدموا

---

(١) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢١٥٢)، الإصابة الترجمة رقم (٧١٧٥)، أسد الغابة الترجمة رقم (٤٣٤٠)، تجريد أسماء الصحابة (١٩/٢)، الثقات (٣٤١/٣)، الطبقات الكبرى (٢٦٨/١، ٣٣٩)، الجرح والتعديل (٩٥/٧).

(٢) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٨١٦)، الإصابة الترجمة رقم (٩٣٠٩)، أسد الغابة الترجمة رقم (٥٥٨٦).

(٣) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٦٥٣) وفيه: «عبد الله بن قريط الزيادى»، الإصابة الترجمة رقم (٤٩١١)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣١٢٩).

(٤) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١١٦٥)، الإصابة الترجمة رقم (٣٨٧٣)، أسد الغابة الترجمة رقم (٢٣٩٧).

على رسول الله ﷺ فرآهم قال: «من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟» يعنى فى الطول والسمرة قيل: يا رسول الله، هؤلاء بنو الحارث بن كعب، فلما وقفوا عليه سلموا، وقالوا: نشهد أنك لرسول الله، وأنه لا إله إلا الله؛ قال: «وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله»، ثم قال: «أنتم الذين إذا زجروا استقدموا»، فسكتوا، فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها الثانية، فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها الثالثة، فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها الرابعة، فقال يزيد بن عبد المدان: نعم، يا رسول الله، نحن الذين إذا زجروا استدقموا، قالها أربع مرات، فقال رسول الله ﷺ: «لو أن خالدًا لم يكتب إلى بأنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم». فقال يزيد بن عبد المدان: أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدًا، قال: «فمن حمدتم؟» قالوا: حمدنا الله الذى هدانا بك يا رسول الله، قال: «صدقتم»، ثم قال رسول الله ﷺ: «بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية»؟ قالوا: لم نك نغلب أحدًا؛ قال: «بلى، قد كنتم تغلبون من قاتلكم». قالوا: كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله، إنا كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحدًا بظلم؛ قال: «صدقتم». وأمر رسول الله ﷺ على بنى الحارث بن كعب قيس بن الحصين[1].

فرجع وفد بنى الحارث إلى قومهم فى بقية شوال أو فى صدر ذى القعدة، فلم يمكثوا بعد أن رجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر، حتى توفى رسول الله ﷺ.

وقد كان رسول الله ﷺ بعث إليهم بعد أن ولى وفدهم عمرو بن حزم[2]، ليفقههم فى الدين، ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم، وكتب لهم كتابًا

---

(٥) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٩٥٥)، الإصابة الترجمة رقم (٥٩١١)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٩٧٨).

(١) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٥/٤١١، ٤١٢)، الطبقات الكبرى لابن سعد (١/٣٣٩، ٣٤٠).

(٢) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (١٩٢٩)، الإصابة الترجمة رقم (٥٨٢٦)، أسد الغابة الترجمة رقم (٣٩٠٥)، نسب قريش (٢٣٣)، طبقات خليفة (٢٠)، التاريخ الكبير (٦/٣٠٥)، تاريخ الثقات للعجلى (٣٦٣)، المعرفة والتاريخ (١/٣٢٣)، أنساب الأشراف (١/٢٢٨)، مشاهير علماء الأمصار الترجمة رقم (٢٨٦)، مروج الذهب (١٨٩٦)، الجرح والتعديل (٦/٢٢٦)، سير أعلام النبلاء (٣/٤١٧)، العقد الثمين (٦/٣٦٨)، تهذيب التهذيب (٨/١٧)، تقريب التهذيب (٢/٦٧)، تذهيب التهذيب (٢٤٤)، تاريخ الإسلام (٢/٤٩٢)، شذرات الذهب (١/٩٥).

عهد إليه فيه عهده، وأمره فيه أمره:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا بيان من الله ورسوله، ﴿**يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**﴾ [المائدة: ١]، **عهد** من محمد النبى رسول الله، ﷺ لعمرو بن حزم، حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله فى أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا. والذين هم محسنون، وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله، وأن يبشر الناس بالخير، ويأمرهم به، ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه، وينهى الناس، فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذى لهم، والذى عليهم، ويلين للناس فى الحق، ويشتد عليهم فى الظلم، فإن الله كره الظلم ونهى عنه، فقال: ﴿**ألا لعنة الله على الظالمين**﴾، ويبشر الناس بالجنة وبعملها، وينذر الناس النار وعملها، ويتألف الناس حتى يفقهوا فى الدين، ويعلم الناس معالم الحج وسننه وفرائضه، وما أمر الله به، والحج الأكبر، والحج الأصغر هو العمرة وينهى الناس أن يصلى أحد فى ثوب واحد صغير، إلا أن يكون ثوبًا يثنى طرفيه على عاتقيه، وينهى أن يحتبى أحد فى ثوب واحد يفضى بفرجه إلى السماء، وينهى أن لا يعقص أحد شعر رأسه فى قفاه، وينهى إذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، ولتكن دعواهم إلى الله وحده لا شريك له. فمن لم يدع إلى الله، ودعا إلى القبائل والعشائر فليقطفوا بالسيف، حتى تكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له، ويأمر الناس بإسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين، ويمسحوا برءوسهم كما أمرهم الله، وأمر بالصلاة لوقتها وإتمام الركوع والسجود يغلس بالصبح، ويهجر بالهاجرة حين تميل الشمس، وصلاة العصر والشمس فى الأرض مدبرة، والمغرب حين يقبل الليل، لا تؤخر حتى تبدو النجوم فى السماء، والعشاء أول الليل، وأمره بالسعى إلى الجمعة إذا نودى لها، والغسل عند الرواح إليها، وأمره أن يأخذ من المغانم خمس الله، وما كتب على المؤمنين فى الصدقة من العقار عشر ما سقت السماء وسقت العين، وعلى ما سقى الغرب نصف العشر، وفى كل عشر من الإبل شاتان، وفى كل عشرين أربع شاة، وفى كل أربعين من البقر بقرة، وفى كل ثلاثين من البقر تبيع جذع أو جذعة، وفى كل أربعين من الغنم سائمة وحدها، شاة، فإنها فريضة الله التى افترض على المؤمنين فى الصدقة، فمن زاد خيرًا فهو خير له، وإنه من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلامًا خالصًا من نفسه، ودان بدين الإسلام، فإنه من المؤمنين، له مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها أى لا يفتن وعلى كل حالم: ذكر أو أنثى، حر أو عبد، دينار واف أو عوضه ثيابًا.

فمن أدى ذلك، فإن له ذمة الله وذمة رسوله ومن منع ذلك، فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعًا، صلوات الله على محمد، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته»[١].

* * *

وفد بني حنيفة[٢]

وقدم على رسول الله ﷺ وفد بنى حنيفة، فيهم مسيلمة بن حبيب الحنفى الكذاب.

قال ابن إسحاق[٣]: فحدثنى بعض علمائنا من أهل المدينة: أن بنى حنيفة أتت به رسول الله ﷺ تستره بالثياب، ورسول الله جالس فى أصحابه، معه عسيب من سعف النخل، فى رأسه خوصات؛ فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وهم يسترونه بالثياب، كلمه وسأله، فقال رسول الله ﷺ: «لو سألتنى هذا العسيب ما أعطيتكه»[٤].

قال: وقد حدثنى شيخ من بنى حنيفة من أهل اليمامة أن حديثه كان على غير هذا. زعم أن وفد بنى حنيفة اتوا رسول الله ﷺ وخلفوا مسيلمة فى رحالهم، فلما أسلموا ذكروا مكانه، فقالوا: يا رسول الله، إنا قد خلفنا صاحبًا لنا فى رحالنا أو فى ركابنا يحفظها لنا، قال: فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به للقوم، وقال: «أما إنه ليس بشركم مكانًا» أى لحفظه ضيعة أصحابه ذلك الذى يريد رسول الله ﷺ[٥].

قال: ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ وجاءوه بما أعطاه، فلما انتهوا إلى اليمامة ارتد عدو الله وتنبأ وتكذب لهم، وقال: إنى قد أشركت فى الأمر معه، وقال لوفده الذين كانوا معه: ألم يقل لكم حين ذكرتمونى له: «أما إنه ليس بشركم مكانًا»؟ ما ذاك إلا لما كان يعلم إنى قد أشركت فى الأمر معه؛ ثم جعل يسجع لهم، ويقول فيما يقول مضاهاة للقرآن: لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشى، وأحل لهم الخمر والزنا، ووضع عنهم الصلاة، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله

---

(١) انظر الحديث فى: سنن النسائى (٨/٤٨٦٨)، مستدرك الحاكم (١/٣٩٧)، السنن الكبرى للبيهقى (٨/٧٣، ١٠٠).

(٢) راجع: المنتظم لابن الجوزى (٣/٣٨٢)، البداية والنهاية لابن كثير (٥/٤٥)، تاريخ الطبرى (٣/١٣٧).

(٣) انظر: السيرة (٤/٢٠١ - ٢٠٣).

(٤) انظر الحديث فى: دلائل النبوة للبيهقى (٥/٣٥٠)، صحيح البخارى (٧/٤٣٧٣).

(٥) انظر الحديث فى: فتح البارى لابن حجر (٧/٦٩١)، الطبقات الكبرى لابن سعد (١/٣١٧).

ﷺ بأنه نبى، فأصفقت معه حنيفة على ذلك. فالله أعلم أى ذلك كان[١].

وذكر الواقدى إنه قدم فى وفد بنى حنيفة الرحال بن عنفوة، وأنه كان أيام مقام الوفد يختلف إلى أبى كعب، يتعلم القرآن وشرائع الإسلام، حتى كان الرحال عندهم أفضل من كان وفد عليهم لما يرون من حرصه، فلما تنبأ مسيلمة بعد وفاة رسول الله ﷺ له الرحال بن عنفوة أن رسول الله ﷺ أشركه فى الأمر، فافتتن الناس.

* * *

وفد همدان

قال ابن هشام[٢]: وقدم وفد همدان على رسول الله ﷺ فيهم مالك بن نمط، وأبو ثور، وهو ذو المشعار، ومالك بن أيفع، وضمام بن مالك السلمانى، وعميرة ابن مالك الخارقى، فلقوا رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك، وعليهم مقطعات الحبرات، والعمائم العدنية، برحال الميس على المهرية والأرحبية، ومالك بن نمط ورجل آخر يرتجزان بالقوم، يقول أحدهما:

همدان خير سوقة وأقيال ليس لها فى العالمين أمثال[٣]
محلها الهضب ومنها الأبطال لها إطابات وآكال[٤]

ويقول الآخر:

إليك جاوزن سواد الريف فى هبوات الصيف والخريف
مخطمات بحبال الليف[٥]

فقام مالك بن نمط[٦] بين يديه، ثم قال: يا رسول الله، نَصِيَّةٌ من همدان، من كل حاضر وباد، أتوك على قُلُص نَوَاج، متصلة بحبائل الإسلام، لا تأخذهم فى الله لومة لائم، من مخلاف خارف، ويام وشاكر، أهل السواد والقود، أجابوا دعوة الرسول

---

(١) انظر: السيرة (٢٠٢/٤).
(٢) انظر: السيرة (٢٢٠/٤).
(٣) السوقة: الذين دون الملوك من الناس، الأقيال: هم الذين يلون الملك فى المنزلة.
(٤) الهضب: الأمكنة المرتفعة، واحدها هضبة. الأطابات: الأموال الطيبة.
(٥) انظر الأبيات فى: السيرة (٢٠٢/٤).
(٦) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٢٣٨)، الإصابة الترجمة رقم (٧٧١٠)، أسد الغابة الترجمة رقم (٤٦٥١).

وفارقوا آلهات الأنصاب، عهدهم لا ينقض ما أقامت لعلع، وما جرى اليعفور بصلع.

فكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من رسول الله لمخلاف خارف، وأهل جناب الهضب، وخقاف الرمل، مع وافدها ذى المشعار مالك بن نمط، ومن أسلم من قومه، على أن لهم فراعها ووهاطها، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها، ويرعون عافيها، لهم بذلك عهد الله وذمام رسوله، وشاهدهم المهاجرون والأنصار»(١).

فقال فى ذلك مالك بن نمط(٢):

ذكرت رسول الله فى فحمة الدجى ... ونحن بأعلى رحرحان وصلدد

وهن بنا خوض طلائع تغتلى ... بركبانها فى لا حب متمدد

على كل فتلاء الذراعين جسرة ... تمر بنا مرا لهجف الخفيدد

حلفت برب الراقصات إلى منى ... صوادى بالركبان من ظهر قردد

بأن رسول الله فينا مصدق ... رسول أتى من عند ذى العرش مهتد

فما حملت من ناقة فوق رحلها ... أشد على أعدائه من محمد

وأعطى إذا ما طالب العرف جاءه ... وأمضى بحد المشرفى المهند

* * *

وفد النخع

قال الواقدى: وقدم على رسول الله وفد النخع، وهم آخر وفد، قدموا للنصف من المحرم سنة إحدى عشرة من الهجرة، فى مائتى رجل، فنزلوا دار الأضياف، ثم جاءوا رسول الله ﷺ مقرين بالإسلام، وقد كانوا بايعوا معاذ ابن جبل باليمن. فقال رجل منهم، يقال له زرارة بن عمرو(٣): يا رسول الله إنى رأيت فى سفرى هذا عجبًا، قال: «وما رأيت»؟ قال: رأيت أتانًا تركتها فى الحى كأنها ولدت جديًا أسفع أحوى، فقال له رسول الله ﷺ: «هل تركت أمة لك مصرة على حمل»؟ قال: نعم، قال: «فإنها قد

(١) ذكره ابن الأثير فى أسد الغابة (٥/٥١، ٥٢)، ابن حجر فى الإصابة (٦/٣٦).

(٢) انظر الأبيات فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٢٣٢٨)، الإصابة الترجمة رقم (٧٧١٠)، أسد الغابة الترجمة رقم (٤٦٥١)، السيرة (٤/٢٢١ - ٢٢٢).

(٣) انظر ترجمته فى: الاستيعاب الترجمة رقم (٨١٤)، الإصابة الترجمة رقم (٢٨٠٢)، أسد الغابة الترجمة رقم (٧٣٩)، تجريد أسماء الصحابة (١/٨٩)، الثقات (٣/١٤٣)، الوافى بالوفيات (١٤/١٩٢)، الجرح والتعديل (٣/٢٧٢٤).

ولدت غلامًا وهو أبنك»، قال: يا رسول الله، فما باله أسفع أحوى؟ قال: «ادن منى». فدنا منه، فقال: «هل بك من برص تكتمه؟» قال: والذى بعثك بالحق، ما علم به أحد، ولا اطلع عليه غيرك. قال: «فهو ذلك». قال: يا رسول الله ورأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان ودملجان ومسكتان. قال: «ذلك ملك العرب رجع إلى أحسن زيه وبهجته». قال: يا رسول الله، ورأيت عجوزًاشمطاء، خرجت من الأرض. قال: «تلك بقية الدنيا». قال: ورأيت نارًا خرجت من الأرض فحالت بينى وبين ابن لى يقال له: عمرو، وهى تقول: لظى لظى، بصير وأعمى، أطعمونى آكلكم (آكلكم): أهلكم ومالكم. قال رسول الله ﷺ : «تلك فتنة تكون فى آخر الزمان». قال: يا رسول الله، وما الفتنة؟ قال: «يقتل الناس إمامهم، ويشتجرون اشتجار أطباق الرأس وخالف رسول الله ﷺ بين أصابعه يحسب المسئ فيها أنه محسن، ويكون دم المؤمن أحل من شرب الماء، إن مات ابنك أدركت الفتنة، وإن مت أنت أدركها ابنك».

قال: يا رسول الله، ادع الله أن لا أدركها. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم لا يدركها». فمات وبقى ابنه، وكان ممن خلع عثمان[1].

وهذا الذى تيسر لنا ذكره من شأن الوفود، وهم أكثر من هذا، ومعظم من ذكرنا إنما هو من كتاب الواقدى مع من ذكره ابن إسحاق منهم.

* * *

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثانى

وأوله «بعث رسول الله إلى الملوك وكتابه إليهم»

* * *

---

(١) انظر الحديث فى: طبقات ابن سعد (٣٨٨/٥)، الاستيعاب الترجمة رقم (٨١٤).

فهرس محتويات الجزء الأول